التفسير والإعجاز العلمي في القرآن الكريم

ضوابط وتطبيقات



تأليف

د. مرهف عبد الجبار سقا

تقديم

أ.د. نور الدين عتر

أ.د. بديع السيد اللحام

أ.د. حمزة حمزة


التفسير والإعجاز العلمي
في القرآن الكريم
ضوابط وتطبيقات







Dar Mohammad Al amin

دمشـق - سوريا

هـاتـف: 2220223 11 963 +

+ 963 932562299

+ 963 933411661

E-mail: dar-m-alamin@hotmail.com

الطبعة الأولى

١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م

أصل هذا الكتاب رسالة أعدت لنيل درجة الدكتوراه في التفسير وعلوم القرآن

بجامعة أم درمان الإسلامية - كلية أصول الدين

بإشراف الأستاذ الدكتور نور الدين عتر حفظه الله

ونالت بتوفيق الله درجة الامتياز

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ



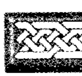
بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي منَّ على عباده نعمة الإسلام والإيمان، وأفاض على قلوب من شاء من عباده من آلاء وإحسان، وأفضل الصلاة والسلام على خيرته من أنبيائه سيدنا محمد صفوة خلقه وعلى آله وصحبه وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين.

إنّ مُدارسة ما يسمى التفسير العلمي في القرآن الكريم وربطه بالمكتشفات العلمية وبالعلوم المختلفة من أبرز الاتجاهات التفسيرية شيوعاً وظهوراً منذ قرن تقريبا إلى يومنا هذا لما له من ارتباط وثيق بقضية جدّ حساسة وأساسية، ألا وهي قضية الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، ولما يبرزه هذا الاتجاه من تكامل العلوم في الإسلام فيفتح أمامنا روضات نرتع فيها من علم الله المتين، ويأخذ القلب حظه من ركائز الإيمان وبرد اليقين، وينطلق بالعقل برشد إلى حركة علمية نشيطة تمكنه من التأمل والتدبر في الأنفس والآفاق، وتأخذه في حياته إلى الهدى والنور الذي يبدد ظلماتها ويهديها للتي هي أقوم في جوانبها ونظمها العلمية أيّاً كانت اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية أوقضائية وغيرها...

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩].

وقد خاض الكثيرون وخصوصاً في القرن الرابع عشر الهجري إلى يومنا هذا غمار هذا العلم من تخصصات مختلفة، منهم من أصاب ومنهم من جانب الصواب لفقدانه الملكة العلمية المؤهّلة للخوض في غمار هذا العلم المحيط، كما تجد اضطراباً في الدراسات المتعلقة بالإعجاز العلمي بسبب المفارقة بين التنظير لقواعد الإعجاز العلمي والتطبيق العملي لها،

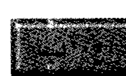


فكان لا بد من منهج واضح يرسم القواعد التي يجب على المشتغلين في التفسير والإعجاز العلمي التقيد بها، فكانت هذه الرسالة العلمية التي حوت ضوابط التفسير والإعجاز العلمي في القرآن الكريم، مع بيان الكثير من المسائل المفصلية المتعلقة بهذا العلم، ابتداء من تعريف التفسير والإعجاز العلمي والفرق بينهما مروراً بتاريخ التفسير العلمي وظهور الانحراف فيه، انتهاء إلى بيان الضوابط ومناقشةٍ لكتبٍ معاصرة في الإعجاز العلمي، وبيان موضع الخطأ والصواب في كتاباتهم على ضوء هذه الضوابط.

فقد قام الباحث في هذه الرسالة العلمية بالتطبيقات العملية لما قرره من ضوابط حتى يكون بحثه متكاملاً من حيث التنظير والتطبيق، وبذل فيه جهداً مشكوراً يستدعي من الباحثين والأكاديميين النظر إليه بعين البحث والدراسة العملية.

«وما كان لله يبقى»

الناشر



تقديم العلامة الأستاذ الدكتور نور الدين عتر حفظه الله

رئيس قسم الكتاب والسنة في كلية الشريعة سابقاً، ورئيس قسم التفسير وعلوم القرآن في الدراسات العليا في كلية أصول الدين.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله لا تنفذ خزائن منحه ولا يغيض من بحر إحسانه وفيض كرمه وأفضل الصلاة والسلام على خيرته من أنبيائه سيدنا محمد صفوة أصفيائه وعلى آله وصحبه وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فإن موضوع التفسير العلمي والإعجاز العلمي في القرآن الكريم موضوع حيوي تبرز فيه خصوصية جليلة من إعجاز القران هي التجدد ومواكبة تطور العلوم والفنون سواء في ذلك الإنسانية أو التطبيقية ... ولهذا الموضوع أثره في نفسي ترجع إلى أيام الدراسات العليا ثم إلى معاناة ومعالجة الدراسات الحديثة المتأخرة.

فأول ما درست الموضوع وقفت بين اتجاهين: أقصى الشرق وأقصى الغرب فمن أئمة يذهبون إلى اشتمال القرآن على أصول جميع العلوم والمعارف والصناعات والحرف



يمثلهم الإمام أبو حامد الغزالي إلى أئمة يرون أن القرآن لم يعرض إلا المعارف الموجودة عند العرب مما صح منها ويمثلهم الإمام الشاطبي.

وأما الدراسات المعاصرة فكثر فيها بل ساد فيها التكلف في تفسير القرآن وأشد منه وهو بناء إعجاز علمي في القرآن على معلومة غير موثوقة بل والمصيبة الأعظم أن تكون غير ثابتة..!!

حكى لي صديق يحمل الدكتوراه في علوم غير الدينية واللغوية مولع بالدراسات الإسلامية لا سيَّما الدراسات في مجال القرآن والحديث قال: قرأت كتاب.... في إعجاز القرآن العلمي فبكيت .. ثم قرأته فبكيت .. !! . قلت: لماذا بكيت؟!.

قال بكيت في المرة الأولى دهشة وإعظاما لإعجاز القرآن وبكيت في القراءة الثانية إذ تأملت ما زعمه حقائق علمية سبق إليها القرآن فإذا هي ليست من العلم في شيء .!!.

ومنذ عهد قريب في رحلتي العلمية إلى جامعة الشارقة _ حيث ناقشت رسالة ماجستير وألقيت محاضرات على طلاب الدراسات العليا وقدمت دراسة حول مناهجها_ اجتمعت بباحث فاضل حاز مجددا على درجة الدكتوراه في الإعجاز القرآني العلمي وقدم لي كتاباً له في الموضوع نفسه التمس بإلحاح وحِرْصٍ أن أقرأه فأكبرت هذا الحرص على العلم وعلى الموضوعية العميقة في نفس هذا الدكتور الفاضل وقطعت أعمالي واستجبت له ثم لقيته وجلست معه وقتا طويلا أعطيته نسخة عن



الملحوظات وهي ملحوظات تستدرك على معظم المؤلفات في هذا الموضوع تتلخص فيما يأتي:

أولا: التحكم في تفسير الآية أو الآيات باختيار قول من أقوال متعددة للمفسرين وإغفال الأقوال الأخرى مما يوهم أن الرأي موضع إجماع عليه وفق قواعد التفسير.

ثانيا: الاعتماد في معلوماته العلمية على مصادر عربية ليست من تأليف أصحاب اختصاص في هذه المواد.

ثالثا: أنه لايبين انضباط ما يفسر به على قواعد التفسير.

هذه خلاصة مشكلة التفسير العلمي والإعجاز العلمي في القرآن وإن الأمر خطير من حيث الواجب ثم من حيث النتائج إذ نخشى على المثقف إذا اغتر بدراسة ما ثم تبين له الوهم فيما بنى عليه إعجاز علمي أو تفسير علمي يخشى عليه الوقوع في الشك والريب عياذا بالله تعالى.

من هنا نتبين الأهمية البالغة لهذه الدراسة التي تقدم بها الأخ الدكتور مرهف سقا إذ عني بجلاء الضوابط والقواعد والشروط اللازمة للتفسير العلمي الذي يبنى عليه الإعجاز العلمي والتي يراعي فيها كلها قضيته الجوهرية وهي أن القرآن هو الأصل وليس ما يسمى علما يكون أصلا وإن هذه الدراسة تلبي حاجة المكتبة القرآنية إلى إقامة دراسة تعتمد على أسس علمية سليمة تضمن للقارئ الاطمئنان وللباحث العلمي في القرآن السلامة. وقد تكفل بحث الدكتور مرهف بتحقيق ذلك وامتاز بالجمع بين الدراسة والنظرية والتطبيق.





والحقيقة إن الحاجة ماسة لمثل هذا الجمع لقد وجدنا دراسات حافلة يقدم لها بقواعد سليمة ثم نجد التطبيق يجانبها في مواضع كثيرة فجاءت هذه الدراسة متميزة في النظرية والتطبيق وبذلك يستطيع القارئ الحصول على فائدة مهمة وعزيزة وهي القدرة على التمييز بين التفسير العلمي الصحيح أو الضعيف بل يستفيد ما هو أعلى وأغلى وهو اكتساب الملكة في حسن فهم القرآن عامة وحسن فهم التفسير العلمي والإعجاز في هذا الكتاب الذي لا تفنى عجائبه...

اللهم اجعل هذا العمل مثِّقلاً ميزان الحسنات بالنفع العميم في تفسير القرآن وإعجازه آمين.

كتبه:

خادم القرآن والحديث

أ.د. نور الدين عتر



تقديم الأستاذ الدكتور بديع السيد اللحام حفظه الله

عميد كلية الشريعة جامعة دمشق.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ (١) قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢)﴾

[الكهف: ١-٢]

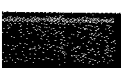
وأَفضَل الصَّلاة وأَتمُّ التسليم على المبعوث بخاتمة الرِّسالات، المُؤيَّد بالمُعجزاتِ الباهِرات، وأَجلّها القرآن الكريم، الكتاب الذي قال فيه الجن إذ سَمعوه:

﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا (١) يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا (٢)﴾ [الجن: ١-٢]

أما بعد: فيقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ وَقَدْ أُعْطِيَ مِنَ الآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[1].

فكان من تمام إنعامه سبحانه وكمال تفضُّله على هذه الأُمَّة أَنْ خصَّ نبيها الكريم عليه الصلاة والسلام بالجمع بين المعجزة والرسالة في كتاب واحد، فكانت هذه المعجزة معجزةً مستمرةً وقائمة إلى يوم الدين.

(١) البخاري في فضائل القرآن، باب: كيف نزل الوحي (٤٧٠١) ومسلم في الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم (٢٤٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

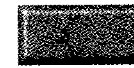




هذا وقد أَفرغ عُلماءُ هذه الأُمَّة المرحومة وأَئمتُها وسعهم في استنباط وجوه إعجاز هذا الكتاب الحكيم، واستخراج ما فيه من معارف وعجائب، ففاضت دراساتهم وأبحاثهم بالعَجَب العُجاب الذي أبهر الأبصار، فسجدت له العقول والأفكار. وكان مما شغَلَ المعاصرين من الباحثين والكُتَّابِ والواعظين والمُدرِّسين، البحث فيما أشار إليه القرآن من معارف وعلوم كونية، والقيام بالجمع بين ما جاء في تلك الإشارات وبين النظريات العلمية الحديثة، وقد اصطلح كثيرٌ منهم على تسمية ذلك بـ (الإعجاز العلمي).

وقد توسَّع بعضهم في ذلك توسعًا غير مرض، فوصل الأمر به أَنْ طوَّع آيات كتاب الله ولوى عنق نصوصه لفهمه السقيم، وتصوراته الخطَأ، فتمحَّل في ذلك وتأوَّل، وأَبْعَد النُّجعَة وتفلسف، فأَخرج نصوص البيان الواضحات إلى معان ينبو عنها سطوع اللغة ووضوحها، ويأْباها العقلُ ويرفضها السِّياق، كلُّ ذلك مع محبَّةٍ وحُسنِ نية، وعاطفةٍ جارفة جنحت بصاحبها عن حد الاعتدال، ظنًّا منه أَنَّ هذا الصَنيع ينصر الله ورسوله، ويؤيِّد كتابه ويعزُّه.

لكلِّ ما تقدَّم أصبح من أوجب الواجبات وأهم المهمات وضع القواعد والقوانين الناظمة التي تمنع الخروج عن أصول التفسير الصحيح وضوابط التأويل السليم الذي ينسجم مع الوظيفة الأساسية للقرآن الكريم أَلا وهي هِدايةُ الخلْق ودلالتهم إلى الحقِّ، من دون إِفراطٍ أَو تفريط في الفهم، مبتعدة عن تحميل النصوص ما لاتحتمل، مع التأكيد على أَنَّ القرآن الكريم ليس كتاب علوم أو نظريات علمية، وأَنَّه إِنَّما يُشيرُ إلى بعض الحقائق العلمية في سياقات تنسجم مع وظيفة الهداية التي جاء بها.





هذا وقد قدَّم بعض الباحثين في هذا المضمار أبحاثًا أَصيلة غاية في الأَهمية، ولكنَّ معظم تلك الأَبحاث بقيت في إِطار التأْصيل النَّظري ولم تتجاوزه إلى التطبيق العملي، وأَمَّا الباحث الكريم الأخ الدكتور مرهف السَّقا - وفقَّه الله لِكُلِّ خيرٍ - فقد جمع في هذا البحث بين قواعد وضوابط التفسير العلمي النظرية، وبين التطبيق العملي من خلال سورة النَّحل التي تُعدُّ من أَكثرِ السُّورِ إِشارَةً للحقائق العلمية.

وقد أَشرفَ على إِعداد هذا البحث أستاذنا الكبير العلامة الشيخ الدكتور نور الدين عتر - حفظه المولى وبارك في عمره، وزاد في عطائه وفضله - مما أَكسب هذا البحث عمقًا في التأْصيل ودقَّةً في التحليل.

ختامًا أَسأَل الله الكريم ربَّ العرش العظيم أَنْ ينفعَنا جميعًا بكتابه الكريم وسنة رسوله الأمين، إِنَّه خير مسؤول وأَقرب مُجيب.

والحمد لله رب العالمين

وكتب

بديع السيد اللحام



تقديم الأستاذ الدكتور حمزة حمزة حفظه الله

أستاذ الفقه وأصوله في كلية الشريعة جامعة دمشق.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي قال له ربه:

﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل:٦]، وعلى آله وصحبه أجمعين.

.. بلى! إنه ذلك الكتاب الخالد، لا ريب فيه، القرآن العظيم الذي تتلى آياته كل لحظة، لا تنقطع تلاوته آناء الليل وأطراف النهار، ولا تنتهي معانيه، ولا تبلى جدتها، فهي كثيرة كثرة حوادث الدهر، واسعة سعة علم الله، جديدة جدة وعي البشر لما يقع في علمهم، ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف:١٠٩].

ولقد اختلف العلماء إلى آياته، لينهلوا من المورد العذب فهماً وتفسيراً حتى ليظن المرء أن كل واحد منهم في ذلك فرد على حدة ليس له نظير، شأن الحوادث المشرذمة التي تقع في الوجود لا يجمع بينها جامع ، ولا يربط بينها وشيجة، ولكن الحقيقة أنها تترابط أجزاؤها لتجتمع متفرقاتها على باقات تمثل كل باقة منها نظاماً في التفسير، سميت مناهج، وسمها إن شئت مدارس، ولا مشاحة في الاصطلاح.

فمدرسة التفسير بالمأثور، ومدرسة التفسير بالرأي... ومناهج البحث فيهما معروفتان قد استقرت أصول البحث فيهما وقواعده، ولكن الذي أعاره العلماء حديثاً اهتمامهم، والتفتوا إليه؛ هو طريقة التفسير العلمي للقرآن.





ولقد أولع الناس، ألو الاختصاص من العلماء، وغيرهم بهذه الطريقة وتفننوا فيها، هذا يدلي بدلوه، ويتفانى في التفسير العلمي وذلك يقرؤه وينفعل به، وكل ذهب فيه أي مذهب، وكل ما قدموه في هذا السبيل كان بلا ريب خدمة للقرآن حتى حسب الناس أن كل ما قيل في القرآن بالاستعانة بالعلوم الطبيعية إنما هو من تفسير القرآن، فوقع الاضطراب، وخاض القارئ فيما يقرؤه من علمهم في غموض، وأقصى ما كان يشفع لهم في القراءة ويدفعهم إليها أنهم حركوا شعورهم الإيماني تجاه ربهم.

* لقد تسبب ذلك الاضطراب عن تداخل أمرين سلم بهما كل من خاض في تفسير القرآن تفسيرا علمياً، **وهما**:

➢ **الأول**: التسليم بأن كلمات الله لا تنفد، والقرآن كلام الله الذي لا تنفد معانيه.

➢ **الثاني**: التسليم بأن القرآن معجز.

وإن الجانب المهم في إعجازه، من جملة نواحي الإعجاز، ولست في صدد تعدادها وبيانها، تلك الآيات التي حوت أموراً تقع في مجال العلوم الطبيعية يتحدث عنها القرآن، فكان ذكر القرآن لها نبراساً يهتدى.

وإن مفردات العلوم الطبيعية كثيرة، وكل يوم يظهر من سحر الابتكار فيها جديد، فخاض من خاض يحمل أشياء كثيرة ويعرضها على كلام الله الذي لا تنفد معانيه لعله يحظى بتفسير يقنع نفسه التي رغبت في ربها مرضاة لله تعالى، فلم يهتد فيما فعل بمنهاج، ولم يرسم حدوداً لبحثه.

والحق أن معطيات العلوم الطبيعية تعد من مظاهر الآيات المبثوثة الدالة على الله وحده لا شريك له، ولكنها في حقيقتها باعتبارها مبثوثة في الآفاق والأنفس شيء، ودلالة القرآن بما يحمله من معاني تهدي إلى الله الحق شيء آخر، فكل منهما له غرضه.



فغرض النظر في الطبيعة والبحث فيها إنما هو الارتقاء بالبحث العلمي لبناء الحياة الدنيا، وهو وإن أنتج معرفة بالله وعقيدة فإنما هو غرض تابع.

وأما القرآن الكريم في استعراضه لبعض هذه الآيات المبثوثة في الكون فالهدف منه لفت الأنظار إلى خالقها، والاستدلال لوجوده ومظاهر قدرته عز وجل. واعتقد أنهما غرضان وإن اقتربا من حيث المساق غير أنهما مختلفان فلقد سلم الأعرابي في عصر نزول القرآن بها من غير تمحيص علمي دقيق، وأنتج سماعه للقرآن عقيدة وطمأنينة ويقينا بالله، وسلم بها كذلك فيما بعد من أراد أن يفهم دقائق تلك الآيات بشيء من البرهان بحكم تزوده بمعارف عصره التي أتته من العلوم الطبيعية والبحث فيها، وهذا النوع من البحث والتدقيق وذاك النوع من التسليم والإذعان هو الذي وضع فيما بعد تحت اسم إعجاز القرآن، وهو علم قديم قريب من طريقة التفسير المتبعة حديثاً المسماة بالتفسير العلمي، ويتداخلان في قضاياهما، فكان لا بد من وضع حد للتمييز بينهما، ذلك بأن الإعجاز في جملته إخبار عن أمر علمي، والتفسير بيان للمعنى من قبل المفسر، فشتان ما بينهما، من حيث المنهج، فلعل الإعجاز العلمي لا يحتاج إلى تفسير، وأما التفسير العلمي بما أنه بيان للمعنى بالاجتهاد فلا بد أن يقوم على قواعد ليكون سليماً من الناحية العلمية، لهذا تبذل جهود العلماء والباحثين وتتضافر على تطويرها وتحرير قواعدها على مدى العصور.

وإنه لمن الجهد المبارك الذي بذله في هذا السبيل الأستاذ مرهف عبد الجبار سقا في رسالته لنيل درجة الدكتوراه بعنوان (التفسير والإعجاز العلمي في القران الكريم منهج وضوابط)، وإني لأرجو أن يكون هذا العمل مباركاً، وأهم ما فيه توضيح حدود



التفسير العلمي للتمييز بينه وبين ماله صلة قريبة، ألا وهو الإعجاز العلمي، والتصدي لتجلية قواعد التفسير العلمي، لئلا يركب المفسر مركب البحث في العلوم الطبيعية ومعطياتها، ويحمل نتائجها الباهرة على كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد والله وحده ولي التوفيق.

الأستاذ الدكتور: حمزة حمزة

أستاذ الأصول والفقه الإسلامي في كلية الشريعة بجامعة دمشق



مُقَدِّمَة:

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، أما بعد:

أهمية البحث:

فقد تميزت أمتنا الإسلامية بحضارتها العلمية والثقافية، التي اعتمدت في نشأتها على مصدر لم تقم عليه أية حضارة قبلها، وهو الوحي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فكان القرآن الأصل الأول لمادة علومها وتشريعها، والمدد الذي يحفز أبناء الأمة الإسلامية لفهم ما حولهم من مشاهدات وثقافات ومعارف، فاعتنت الأمة به عناية لا يقاربها عناية، واهتمت بشأنه اهتماماً عظيماً حفظاً وتفسيراً، فشهد التاريخ الإسلامي ازدهاراً علمياً لا يزال العالم عالة عليه؛ كيف لا والله سبحانه قال: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:٥٢]، أي: لقد أبلغكم الله كتاباً عظيماً قد تمكن فيه العلم؛ لأنه من عند الذي أحاط بكل شيء علماً، فيه الهداية والرحمة لمن يؤمن به ويتدبره، فكانت الأمة تنعم بالعلوم وبالرحمة والهداية والعافية زمناً طويلاً بفضل كتاب الله تعالى.

ثم ابتلي المسلمون في العصر الحديث بالجمود والاستعمار، وشهد الغرب ثورة علمية بهرت الأبصار وسلبت البصائر، وعصفت بالعقول المسلمة، ثم أرجفها نعيق من الخارج يصرخ: أن هلموا إلى العلم وانبذوا الدين، واعتبروا فينا؛ فإنا صحونا بعدما هجرنا ديننا، وهدمنا الكنائس ومزقنا الأناجيل.

فكان هذا النعيق حافزاً للمسلمين للعودة إلى معدن عزتهم ونهضتهم، فعادوا يلتفتون إلى القرآن من جديد، ينظرون إليه بعيون مستبصرة وفكر متقد، وكانت السمة البارزة في هذه اليقظة أنها لم تكن محصورة بعلماء الدين، وإن كانوا هم حملة رايتها، بل كانت ممتدة في كل ألوان المجتمع الثقافية، فلقي التفسير اهتماماً بالغاً من المتخصصين في مجالات العلوم المختلفة، وحظي من الدراسات العلمية المتخصصة المتنوعة الكثير، وصار كل عالم يدلي بدلوه حسبما فهم من القرآن، ليثبت بأن خاتم الكتب قد حوى أصول المعارف، ولكن كان من مساوئ هذا التوسع في اليقظة والكتابات في التفسير العلمي، أنها لم تكن منضبطة بمنهج علمي، بل كان أغلب المشتغلين في هذا الاتجاه من التفسير ليسوا من ذوي الاختصاصات الشرعية، أو المتأهلين لتفسير القرآن الكريم، ولا من الذين حصَّلوا ولو بعض شروط المفسر أو امتلكوا أدواته، بل كان التسرع والعاطفة وسيطرة المفهوم المادي للعلم سبباً لكتاباتهم؛ مما أدى إلى سوء فهم لنصوص المفسرين وسوء تعامل معها؛ فأنزلوها في غير منازلها ولم يحسنوا الجمع بينها؛ونظراً لقلة بضاعتهم في اللغة وعدم درايتهم بأصول الاستنباط ظهر التحكم منهم بمعاني الآيات والعبث بدلالاتها، فجعل بعضهم يقع في شطحات مجحفة، أو إسقاطات ظالمة، أثرت على منهج الكاتبين في التفسير العلمي من بداية العصر الحديث، إلى يومنا هذا.

● سبب اختيار البحث:

و يمكن تلخيص أهم دوافع كتابة البحث بالآتي:

● وجود مفارقة واضحة بين النظرية والتطبيق في قضية التفسير العلمي والإعجاز العلمي للقرآن الكريم، خاصة عند من ينظِّر لهذا الاتجاه من التفسير، فتراه يشترط في



مقدمة كتاباته في التفسير العلمي شروطاً؛ لا ترى لها أثراً في التطبيق العملي، وهذا أهم الدوافع وأولها.

- الغموض الذي ما زال يحيط بعدد من قضايا علمية أساسية تتعلق بالتفسير العلمي والإعجاز العلمي، واضطراب البحوث العلمية في التعامل معها كالتفريق بين التفسير العلمي للقرآن والإعجاز العلمي للقرآن، ومنهج التعامل مع النظريات العلمية، والموقف من المأثور وغير ذلك.

- الحاجة الملحة لوجود ضوابط عملية مع تطبيقاتها، تمسك أقلام الكاتبين في هذا الاتجاه بتمحل وتكلف، وجر النصوص القرآنية لما يستجد من اكتشافات ونظريات يخرج كتاب الله عن مقصده الذي أنزل لأجله، وعدم مراعاة قواعد الاستنباط، والاختصاصات العلمية.

- تقريب وجهات النظر بين المؤيدين والمعارضين للتفسير العلمي والإعجاز العلمي للقرآن الكريم، لأن محل النزاع بين الفريقين عدم وجود ضوابط عملية لهذا المنهج من التفسير يحتكم إليها.

- الرغبة الخاصة في اختيار موضوع جديد ومهم، يخدم القرآن الكريم وينفع الأمة والمختصين ويساهم في إثراء المكتبة الإسلامية، ويكون ذخراً لي عند الله تعالى يوم القيامة.

- أما سبب اختيار سورة النحل: لأنها سورة النعم، وقد وجدت في أثناء تحقيقها من تفسير ابن عادل في رسالتي الماجستير من التطبيقات الكثيرة والمعارف الغزيرة، مما دفعني لاختيارها لتطبيقات ضوابط التفسير العلمي للقرآن الكريم.

● ومما زاد من عزيمتي على الكتابة في هذا الموضوع: اقتراح اللجنة المناقشة لرسالتي الماجستير لمثل هذا الموضوع، وتأكيدها عليه، وكان أكثرهم تشجيعاً لي على ذلك فضيلة المشرف: الأستاذ الدكتور نور الدين عتر حفظه الله.

فكان اختيار عنوان البحث: (**منهج التفسير العلمي وتطبيقاته في سورة النحل**)[1]، أي: طريقة التفسير العلمي الصحيحة من خلال بيان مجموع القواعد العلمية التي يجب على المفسر الالتزام بها في التفسير العلمي، وبيان التطبيق العملي لها من خلال تفسير سورة النحل.

● أهداف البحث:

إن ما تقدم من أهمية موضوع البحث، والدوافع للكتابة فيه ترسم الأهداف المتوخاة من البحث، وألخصها بالآتي:

- خدمة كتاب الله تعالى، والمساهمة في ضبط أهم مقاصد تنزيله وهو: التفكر به وتدبر آياته، قال الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص:٢٩].

- تحقيق التفسير العلمي والإعجاز العلمي للقرآن الكريم في ضوء القواعد العلمية المقررة في كتب التفسير وعلوم القرآن، وذلك من خلال التكامل بين التنظير والتطبيق.

---

(١) هذا هو العنوان الأصلي الذي قُدِّم فيه البحث لنيل درجة الدكتوراه، وقد تمَّ تغييره عند الطباعة إلى (**التفسير والإعجاز العلمي في القرآن الكريم ضوابط وتطبيقات**) لأننا وجدنا ذلك أنسب بمشورة فضيلة الأستاذ الدكتور نور الدين عتر –حفظه الله تعالى–.



- ضبط مصطلحات هذا الاتجاه من التفسير على الطريقة العلمية.
- أن يكون هذا البحث نقطة انطلاق عمليةٍ لتطبيق قواعد التفسير العلمي؛ ليكون مثالاً واقعياً يحتذى به إن شاء الله للمشتغلين في التفسير العلمي والإعجاز العلمي في تطبيق قواعد التفسير العلمي، وحافزاً لأبحاث أخرى مشابهة تسهم في زيادة ضبط تفسير القرآن الكريم.

الجهود العلمية السابقة:

هذا البحث ذو شقين أساسيين، أحدهما يتعلق بضوابط التفسير العلمي، والثاني بالتطبيقات العملية لهذه الضوابط، ولا أعلم من سبقني إلى الجمع بين هذين الأمرين من الرسائل العلمية على النحو الذي قمت به، ولكن ثمة رسائل علمية تتقاطع مع بحثي في الموضوع العام فيما يتعلق ببعض جوانب التنظير لبعض قواعد التفسير العلمي وتاريخ التفسير العلمي.

ومنها ما يتعلق بتفسير سورة النحل، وسأشير إليها مع بيان مضمونها إجمالاً، كما سأتعرض لذكر أبرز المؤلفات العلمية الجادة المتعلقة بموضوع بحثنا من هذين الجانبين.

أولاً: الأبحاث العلمية من حيث تاريخ التفسير العلمي والتنظير لقواعده:

- **التفسير العلمي للقرآن الكريم في الميزان** للدكتور أحمد عمر أبو حجر، وهو في الأصل رسالة دكتوراه.

وقد عرف د. أحمد عن منهجه قائلاً: (ويقوم منهج البحث في هذا الموضوع على تتبع ما كتب حول هذا الموضوع بقدر الإمكان، واستعراض أدلة كل من المؤيدين



والمعارضين والموازنة بينهما، ونقد ما يحتاج إلى نقد وتبيين وجه الحق فيه، مع استعراض بعض الأمثلة للفريقين..)[1].

وقد اشتملت رسالته على ستة أبواب تضمنت، تاريخ التفسير العلمي والموازنة بين حاضره وماضيه، والمؤيدين والمعارضين له وأدلتهم، والقضايا التي تركز حولها التفسير العلمي، والموازنة بين منهج وتطبيق التفسير العلمي.

- **ظاهرة التفسير العلمي للقرآن الكريم** للدكتور خليل إبراهيم أبوذياب، وهو من حيث التأليف أقدم من رسالة د. أبو حجر كما يظهر من كلام المؤلف في المقدمة[2]، ولكنها طبعت بعدها، والكتاب مشتمل على خمسة فصول ضمت دراسة لأهم مدارس التفسير عموماً قديماً وحديثاً، ودراسة لمنهج التفسير العلمي عموماً، ثم دراسة لأهم مناهج التفسير العلمي وأنماطه، ثم استعرض مجموعة من الآيات الكونية التي تناولها بعض أصحاب التفسير العلمي من مختلف العلوم، ثم عقد مقارنة بين التفسير القديم والتفسير العلمي الحديث من خلال مجموعة من الآيات الكونية بهدف إبراز أهمية منهج التفسير العلمي.

- **موقف المفسرين من التفسير العلمي** للدكتور علي أسعد، وهي رسالة ماجستير، وتكونت الرسالة من تمهيد وأربعة فصول، عرف في التمهيد بعدة قضايا أهمها التفسير العلمي.

---

(١) التفسير العلمي للقرآن في الميزان د. أحمد عمر أبوحجر صـ١٠ ط دار قتيبة الأولى ١٩٩١م.

(٢) انظر ظاهرة التفسير العلمي للقرآن الكريم د. خليل إبراهيم أبو ذياب صـ١١ ط دار عمار الأولى ١٩٩٩م.





أما الفصل الأول: تحدث فيه عن تاريخ التفسير العلمي ونشأته إلى مطلع القرن التاسع عشر، والفصل الثاني تحدث فيه عن التفسير العلمي في العصر الحديث والمؤيدين والمعارضين وأدلة كل فريق مع بعض الأمثلة.

ثم ذكر في الفصل الثالث صوراً للتفسير العلمي، وختم في الفصل الرابع بذكر آليات التفسير العلمي في مبحثين:

- **الأول**: أدوات التفسير العلمي.
- **والثاني**: ركائز التفسير العلمي.[1]

ولا بد من القول إن ثمة كتابات رصدت هذا الاتجاه من التفسير ضمن مؤلفات أو مقالات كما فعل الشيخ الدكتور محمد حسين الذهبي في كتابه التفسير والمفسرون والشيخ عبد العظيم الزرقاني في كتابه: مناهل العرفان في علوم القرآن.

ومن المؤلفات التي تتعلق بموضوع الرسالة من حيث الجملة أيضاً (التفسير العلمي وأثره في كشف الإعجاز العلمي للقرآن الكريم) أ.د. سليمان بن صالح القرعاوي[2]، ولكنه لم يتناول الموضوع بعمق كما في الدراسات المتخصصة السابقة، بل درج على كلام الشيخ الذهبي في كتابه التفسير والمفسرون غالباً.

---

(١) هذا التعريف كتبته بعدما اطلعت على خطة الرسالة كما ذكرها لي الدكتور علي جزاه الله خيراً في مراسلة له على البريد الإلكتروني، ولم يتسن لي رؤية البحث كاملاً والاطلاع عليه، ومن الرسائل التي حاولت الوصول إليها ولم أستطع: (التفسير العلمي للقرآن) رسالة ماجستير لعبد الله الأهدل.

(٢) التفسير العلمي وأثره في كشف الإعجاز العلمي للقرآن الكريم أ.د. سليمان بن صالح القرعاوي، ط دار الحضارة أولى ١٤٢٥ .

وبالنظر فيما تضمنته الكتب السابقة من العناوين؛ نجد أنها اقتصرت على دراسة مناهج الكاتبين في اتجاه التفسير العلمي، ودراسة آراء المؤيدين والمعارضين له، ومحاكمة بعض الأمثلة لجملة قواعد التفسير العامة، دون تناول ضوابط التفسير العلمي بالدراسة على الخصوص؛ ودون ذكر التطبيقات السليمة لهذه الضوابط.

● ثانياً: ما يتعلق بتفسير سورة النحل:

فقد كتب في ذلك على الخصوص رسالة ماجستير بعنوان: (**تسخير ما في الكون للإنسان على ضوء سورة النحل وأثر ذلك في توحيد الخالق عز وجل**) لزهرية محمد بن صالح الفاداني الساعاتي.[1]

وحسب ما تيسر لي الاطلاع عليه من التعريف برسالتها في مجلة الإعجاز العلمي يبدو أن الباحثة قسمت تفسير سورة النحل إلى أبواب ثلاثة:

وكان الباب الثاني في الكلام عن مظاهر تسخير الأرض وما فيها من الحيوانات والنباتات والمياه، وأما الباب الثالث فقد كان عن الإنسان وما فيه من بديع الصنع، أما الباب الأول فلم يتسنَّ لي الاطلاع على تعريفه، ويظهر أن الكلام حول السورة في بيان مظاهر التسخير في سورة النحل كان مجملاً دون بيان كيفية الاستدلال.

---

(١) رسالة ماجستير قدمت لكلية التربية لبنات في مكة لعام ١٤٠٨، ١٩٨٨، بإشراف د. أبو ضيف مجاهد حسن ولم أستطع الحصول عليها مع شدة الحرص على ذلك، وقد عرف برسالتها زوجها أ. أنيس منصور في مجلة الإعجاز العلمي العددان ٣ - ٤. والتعريف برسالتها كان من خلال العدد الرابع من المجلة الذي استطعت الحصول عليه.



وقد تناول شيئاً من سورة النحل عموماً دون تخصيص بها: عبد الواحد بن بكر بن إبراهيم آل عابد في رسالته الدكتوراه بعنوان: (مناهج المفسرين في بيان آيات الكون من خلال السور المكية).(١)

كما عقد مبحثاً خاصاً لضوابط قبول التفسير العلمي، اعتمد فيه كلياً على ما قالته هيئة الإعجاز العلمي في مكة.(٢)

ولا بد من الإشارة أن ثمة مفسرين تناولوا سورة النحل، ولكن ضمن سلسلة التفسير الموضوعي للقرآن كما فعل د محمد البهي؛ إذ تناول الآيات الكونية فيها بكلام عام على سبيل الإشارة، ولكن الشيخ عبد الحميد طهماز اعتنى بهذا الاتجاه أكثر في بعض الآيات أثناء تفسير السورة في كتابه: (التوحيد والشكر في سورة النحل).

● **أهم ميزات البحث:**

● الجمع بين النظرية والتطبيق في قضية التفسير العلمي، وتطبيق ذلك باستيفاء ضوابط التفسير العلمي في سورة كاملة من القرآن.

● تضمن البحث مسائل علمية لم يتطرق إليها أحد بشكل مفصل، كموقف المفسر تفسيراً علمياً في التفسير العلمي من المأثور، وموقفه في التفسير العلمي من الإسرائيليات، وموقفه من النظريات العلمية.

---

(١) وهي رسالة دكتوراه مقدمة لجامعة الزيتونة في تونس المعهد الأعلى لأصول الدين قسم القرآن والحديث لعام ١٤٢٠، ١٩٩٩، بإشراف أ.د. صالح بن أحمد داسي.

(٢) انظر المصدر السابق من صـ٥٠، إلى صـ٥٦ والرسالة على الآلة الكاتبة ولم تطبع بعد.

- ومن المسائل الجديدة في البحث: إلقاء الضوء على بدايات الانحراف في التفسير العلمي ودراسة أسبابه، وموقف الاستشراق من ظهور اتجاه التفسير العلمي.

- إن ضوابط التفسير العلمي المذكورة في البحث كتبت على أساس عملي لا نظري، فهي وإن كانت مبوبة في البحث قبل تفسير سورة النحل؛ لكنها في الكتابة قيدت بعد تفسير السورة، فهي إذن ضوابط عملية وأساسية في التفسير العلمي.

- تناول البحث الإعجاز العلمي للقرآن الكريم، وحرر تعريفه على الطريقة العلمية المتبعة في صياغة التعاريف عند العلماء، وهذا بعد استيفاء البحث أهم تعاريف المشتغلين والمتكلمين بالإعجاز العلمي للقرآن الكريم ونقدها.

- كما تناول البحث الفرق بين التفسير العلمي والإعجاز العلمي نظرياً، ثم عملياً في أثناء تفسير سورة النحل، كما في تفسير آية اللبن مثلاً، فقد بينت أن المعلومات التي أشارت إليها الآيات وفسّرتها العلوم الحديثة إن ثبتت يقيناً فهي إعجاز علمي بالمعنى الذي ذكرته في تعريف الإعجاز العلمي.

- ومما يعده الباحث من ميزات البحث أن المسائل الكونية المذكورة في تفسير السورة أغلبها - إن لم يكن كلها - جاءت استنباطاً من نظم الآيات وسياقها وما تحمله من دلالات وتثيره من سؤالات، ولم تبن على أساس وجود معلومة يبحث عن محلها في الآيات، ولم يقصد من إثارتها جر القرآن إلى موافقة نظرية أو ركوب الجادة.

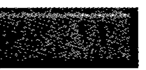


صعوبات البحث والجهود التي بذلها الباحث:

لا أنكر أني لما بدأت في جمع المادة العلمية للبحث انتابني شيء من التردد لعظم المسؤولية، لأني أدركت حينها حساسية الموضوع وجديته وتشعب قضاياه، وتداخل جزئياته، وكثرة ما كتب فيه والتكرار؛ مع قلة المادة العلمية النافعة، وعدم وجود مثال سابق لموضوع البحث أسترشد به؛ فعقدت الهمة بفضل الله تعالى، وأخذت أجمع شتات المادة العلمية من كل الوسائل المتاحة كالشبكة العنكبوتية «الإنترنت»، والمقالات والأبحاث المكتوبة في المجلات المختلفة وغيرها، والمؤلفات المختصة بهذا الاتجاه قديماً وحديثاً، ومتابعة المؤتمرات العلمية التي تعقد في هذا الاتجاه، ومراجعة هيئة الإعجاز العلمي في مكة؛ ومناقشة الباحثين فيها حول منهجهم...، ما اضطرني لترك العمل، والتفرغ للسفر المتكرر من أجل تحقيق ذلك، ثم عكفت على ما جمعته أركب مفرداته، وأبحر في قراءته وقتاً طويلاً، حتى أعيش في جو هذا الاتجاه كما يعيشه الكاتبون فيه.

واعترضني أثناء تحضير البحث قضايا علمية وتاريخية لم أجد من تعرض لها بما يشفي الغليل، وكانت الحلقة المفقودة في استكمال صورة البحث لديّ، كمعرفة بداية انحراف اتجاه التفسير العلمي عن مساره الأصلي في العصر الحديث وأسبابه، وضبط مصطلحيّ: التفسير العلمي للقرآن، والإعجاز العلمي للقرآن،وغير ذلك من المسائل المتعلقة بجوهر البحث.

وكنت حريصاً على التجرد من الانسياق نحو التأييد أو المعارضة ابتداءً نحو ما كتب في التفسير العلمي، حتى لا أفقد البحث علميته وموضوعيته، وأثناء التطبيق العملي لمنهج التفسير العلمي وضوابطه في سورة النحل، كنت أجد صعوبة في إيجاد





المعلومات الاختصاصية التي أريدها في العلوم التطبيقية والتجريبية وغيرها من مصادرها، ومعرفة اصطلاحاتها، والتعامل معها ومدى مصداقيتها ودرجتها ونزاهتها، وكثيراً ما كنت أسافر مئات الكيلومترات للحصول على مرجع، أو لأراجع المختصين وأناقشهم في مدى مصداقية المعلومات التي أنقلها من المصادر المختصة حرصاً على التوثيق العلمي وسلامة المعلومات، خاصة في موضوع النحل وتولد اللبن وما يتعلق بالهندسة الزراعية، وكنت أحرص على استخدام أصح وأحدث المعلومات في التفسير العلمي بفضل الله تعالى حسب ما يتيسر لي، ولعل قراءة البحث ستُظهر مدى الجهد المبذول فيه إن شاء الله.

منهج البحث:

أما بالنسبة للمنهج العام الذي اتبعته في البحث فألخصه بالنقاط الآتية:

١- اعتمدت تعريفاً للمصطلحات العلمية الأساسية في البحث؛ كتعريف التفسير والتأويل وإعجاز القرآن، ثم ضبطت تعريف التفسير العلمي والإعجاز العلمي.

٢- ذكرت موجزاً عن الحالة العلمية للعالم الإسلامي لكل عصر في الدراسة التاريخية للتفسير العلمي؛ لبيان أثر ذلك على اتجاه التفسير العلمي وتطوره، مع ذكر أهم المشتغلين به ومؤلفاتهم دون تفصيل لمناهجهم، وفصلت بعض الشيء في دراسة العصر الحديث لبيان أسباب انحراف التفسير العلمي وأول ظهوره، مع تفصيل في دراسة منهج أهم المؤلفات التي تناولت التفسير العلمي بتطرف؛ وكانت هذه الدراسة ضرورية برأي الباحث لما لها من أثر في ضبط تعريف التفسير العلمي، وتحرير أهم ضوابطه؛ ولبيان أثر هذه المؤلفات على الكاتبين في التفسير العلمي للقرآن الكريم إلى وقتنا الحالي.

٣- التزمت بعزو الآيات وتخريج الآثار، أما الأحاديث فإن كانت في الصحيحين أو أحدهما؛ فأكتفي بتخريجه منهما لبيان صحته، فإن لم تكن فيهما، وكانت في غيرهما؛ أخرجه مع ذكر الحكم عليه من أقوال العلماء المحدثين، فإن لم أجد أبين درجته بحسب دراستي له. وكانت طريقة التخريج بذكر الكتاب والباب ورقم الحديث في الجوامع والسنن، أو الاكتفاء برقم الحديث في غيرهما من المصادر الحديثية عندما تكون مرقمة الأحاديث، وإلا فالجزء والصفحة.

٤- بالنسبة لأقوال العلماء والأئمة والمفسرين وغيرهم؛ فقد اتبعت في نقلها ثلاثة طرق: إما نقلها نصاً، وذلك حين يكون في ذكر كلامهم حاجة أو فائدة مهمة، فأنقل كلامهم بنصه.

أو بنقلها مع شيء من التصرف كالاختصار أو التهذيب، أو بذكر ملخص مذهب العلماء في المسألة، مع الإحالة إلى المصادر، تلافياً للتكرار والإطالة، وميزت بين هذه النقول برموز ذكرتها في المصطلحات المستخدمة في البحث.

٥- عند التفصيل في دراسة مسألة علمية كنت أقدم الآراء فيها مع استيعابها قدر الاجتهاد، وبيان الوارد فيها؛ ثم أبين رأيي فيها مع المناقشة والدليل.

٦- ذكرت ضوابط التفسير العلمي مع الأمثلة على تطبيقها أو مخالفتها من غير سورة النحل، وقد أشير إلى تطبيقاتها من السورة، وكان التركيز في ذكر الأمثلة على الكتب المعاصرة، خاصة منها التي نظّرت في مقدماتها لقواعد التفسير العلمي؛ لبيان مخالفتها لما نظرت له أو موافقتها له، كل ذلك مع المناقشة وبيان الخطأ أو الصواب.

٧- ذكرت خطة التفسير العامة، والطرق المتبعة في تفسير سورة النحل قبل تفسيرها.



٨- ترجمت للأعلام الواردة في البحث ومنهم المعاصرين الذين توفوا، أما المعاصرون الأحياء فلم أترجم لهم.

٩- ذكرت معلومات النشر للمصادر والمراجع عند أول مرة يذكر فيها، ولكن نظراً لكثرة التنقل والسفر اختلفت طبعات بعض المراجع، فعند ذلك أذكر معلومات النشر للطبعة الجديدة ثم عند التكرار أذكر اسم الدار الطابعة للنسخة التي رجعت إليها لتمييزها عن الطبعة التي رجعت لها أول مرة في البحث، وإن لم أذكر فتكون الطبعة هي التي رجعت لها أول مرة، كما أن بعض الأبحاث أو المقالات استفدتها من مواقع الإنترنت فأذكرها وأذكر اسم الموقع الذي استفدت منه، وأبحاث غير منشورة استفدتها من أصحابها أو غيرهم فأذكرها وأذكر اسم الذي استفدت البحث منه.

١٠- كان لفضيلة المشرف أثناء قراءته للبحث تعليقات وإفادات واعتراضات، أما الإفادات والتعليقات فقد سجلتها في البحث وعزوتها له حفظه الله، وأما الاعتراضات فقد صوبتها جميعها إلا بعضها، ذلك لأن الذي يعيش البحث ويعانيه تتحصل له قناعات عملية يعتمد عليها في رأيه، وهذا ما تعلمته من فضيلة المشرف أطال الله في عمره، ومع ذلك فقد سجلت اعتراضه في الحاشية وأشرت إليه كما في بحث المشترك في ضوابط التفسير العلمي، وعموم ما يخرج من بطون النحل.

١١- اعتنيت ما استطعت بضبط الآيات بالشكل، وموافقة كتابتها لرسم المصحف، كما اعتنيت كذلك بضبط الحديث، ثم ذيلت البحث بفهارس متنوعة تخدم القارئ وتسهل عليه الاستفادة من البحث.



خطة البحث:

وأعرض الآن خطة البحث بأبوابها الأربعة، وفصولها ومباحثها؛ مبتدئاً بعنوان البحث: (منهج التفسير العلمي وتطبيقاتُه في سورة النحل) .

* **المقدمة**: وفيها أهمية البحث وسبب اختياره، والجهود العلمية السابقة، وميزات البحث والصعوبات التي واجهت الباحث والجهود المبذولة، ومنهج الباحث وخطة البحث التي نحن الآن بصددها.

الباب الأول: التفسير العلمي والإعجاز العلمي تعريف وفروق:

- **الفصل الأول: تعريف التفسير العلمي للقرآن الكريم:**

المبحث الأول: العلم في القرآن، وخلفيات تغير مفهومه في العصر الحديث.

المبحث الثاني: تعريف (التفسير العلمي للقرآن الكريم).

المبحث الثالث: التفسير بالرأي والتفسير العلمي.

المبحث الرابع: التأويل والتفسير العلمي.

- **الفصل الثاني: الإعجاز العلمي في القرآن الكريم .**

المبحث الأول : تعريف الإعجاز والمعجزة.

المبحث الثاني: تعريف الإعجاز العلمي في القرآن الكريم.

المبحث الثالث: التفسير العلمي والإعجاز العلمي في القرآن الكريم.

الباب الثاني: تاريخ التفسير العلمي للقرآن الكريم:

- **الفصل الأول: التفسير العلمي من القرون المفضلة إلى العصر العثماني.**

- المبحث الأول: التفسير العلمي في القرون الثلاثة الأولى.
- المبحث الثاني: التفسير العلمي في العصر العباسي.
- المبحث الثالث: التفسير العلمي في عصر المماليك.
- المبحث الرابع: التفسير العلمي في عصر العثمانيين.

• **الفصل الثاني: التفسير العلمي في العصر الحديث:**

- المبحث الأول: التفسير العلمي في القرن الرابع عشر الهجري.
- المبحث الثاني: بداية الانحراف في التفسير العلمي وموقف الاستشراق من التفسير العلمي للقرآن الكريم.
- المبحث الثالث: التفسير العلمي في مطلع القرن الخامس عشر الهجري حتى يومنا هذا.

الباب الثالث: ضوابط التفسير العلمي للقرآن الكريم:

• **الفصل الأول: شروط وأركان التفسير العلمي للقرآن الكريم:**

- المبحث الأول: من شروط التفسير العلمي، الضوابط المتعلقة بالباحث.
- المبحث الثاني: الأدوات التي يحتاج إليها المفسر.
- المبحث الثالث: من شروط التفسير العلمي، ما يتعلق بالبحث العلمي .
- المبحث الرابع: أركان التفسير العلمي، الضوابط المتعلقة بالتفسير العلمي للقرآن الكريم.



- **الفصل الثاني: موقف المفسر بالتفسير العلمي من المنقول والنظريات العلمية.**

المبحث الأول: موقف المفسر بالتفسير العلمي من المأثور.

المبحث الثاني: موقف المفسر بالتفسير العلمي من الإسرائيليات.

المبحث الثالث: موقف المفسر بالتفسير العلمي من النظريات العلمية.

الباب الرابع: تطبيقات ضوابط التفسير العلمي للقرآن الكريم في سورة النحل.

- **الفصل الأول: التعريف بسورة النحل:**

المبحث الأول: اسم السورة ومكان وترتيب نزولها.

المبحث الثاني: الناسخ والمنسوخ في سورة النحل.

المبحث الثالث: مقصد السورة وموضوعاتها ومحاورها العامة.

المبحث الرابع: فضائل سورة النحل.

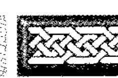
- **الفصل الثاني: تفسير سورة النحل:**

- تمهيد: بيان خطة التفسير العامة لسورة النحل.

- تفسير سورة النحل.

الخاتمة: وفيها أهم النتائج والتوصيات.

وبعد: فإن الله تعالى لم يكتب الكمال لغير كتابه، ولم يجعل العصمة في غير أنبيائه ورسله، وهذا البحث اجتهاد بقدر الطاقة؛ تحريت أن أصيب الحق فيه ما استطعت، وأخذت لذلك الأسباب قدر طاقتي؛ فما كان فيه من صواب فبتوفيق الله تعالى، وما كان فيه من خطأ؛ فأسأل الله أن يأجرني عليه؛ وأن يلهم القارئ تصحيحه، فالقصد



خدمة كتاب الله تعالى، وسنة النبي صلى الله عليه وسلم، وأسأل الله أن ينفع بهذا البحث طلاب العلم والمختصين، وأن يجعله مَعلم هداية وخير.

وفي الختام فإني أتقدم بالشكر مع الإكبار والتقدير لشيخنا المحدث المفسر الفقيه العلامة الأستاذ الدكتور نور الدين عتر حفظه الله تعالى على ما أولاه من اهتمام بالغ في الإشراف على البحث ومتابعة خاصة للبحث وللباحث.

وكذلك أتقدم بالشكر لمن أولى اهتمامه للبحث والباحث وساهم في تيسير ما يحتاجه، فجزى الله الجميع خيراً.

وصلى الله وبارك على سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

مرهف عبد الجبار سقا





مصطلحات البحث في الرسالة:

(..) : قوسان صغيران للنص المقتبس، إما بحرفه أو بتصرف فيه بزيادة أو نقصان أو تعديل أو ما شابه.. وأيضاً لما بعد القول وبيان القائل، مثل : قال عطاء: (...).

[ ]: قوسان معقوفان يستخدمان إما لذكر عزو الآية، أو لزيادة عبارة توضيحية من الباحث ضمن نص مقتبس .

﴿...﴾: قوسان مزهران للآيات القرآنية .

مصطلحات البحث في الحاشية:

صـ: رمز للصفحة.

/ : علامة فارقة بين الجزء والصفحة بعد ذكر المرجع ويكون رقم الجزء عن يمينها ورقم الصفحة عن يسارها.

انظر: قبل ذكر المرجع، أستخدمها عندما يكون النص المنقول فيه تصرف مني كحذف أو تعديل النص أو التصرف في بعضه بعبارة مرادفة أو ما أشبه ذلك من التصرفات المعهودة في النصوص المقتبسة. وقد وضعته في متن البحث ضمن ( ).

ينظر: قبل ذكر المرجع، أستخدمها عندما يشار إلى ما يدل على الكلام المكتوب في البحث في المراجع المذكورة من كلام مؤلفيها ولكن ليس بعبارتهم ولا نظمهم، أو أن المعلومة المذكورة في البحث أصلها ومعناها في المراجع المذكورة بعد كلمة: **ينظر**.

وعندما يكون النص المنقول غير مسبوق بـ (انظر أو ينظر) فإنه يكون منقولاً بحرفه دون تغيير.



ط: رمز للدار الطابعة.

د ت: رمز لعدم وجود تاريخ لطبعة الكتاب المرجع، اختصاراً لـ دون تاريخ.

ت: في تراجم الأعلام؛ فهي تاريخ الوفاة.

الباب الأول

التَّـفْسيرِ العِلْمِيِّ والإعجازُ العِلْمِي
تعريفٌ وفروقٌ

• الفصل الأول

تعريف التفسير العلمي للقرآن الكريم

• الفصل الثاني

الإعجاز العلمي في القرآن الكريم



الفصل الأول

تعريف التفسير العلمي للقرآن الكريم

- تمهيد: في تعريف التفسير والتأويل والفرق بينهما.

- المبحث الأول: العلم في القرآن الكريم، وخلفيات تغير مفهومه في العصر الحديث

- المبحث الثاني: تعريف (التفسير العلمي للقرآن الكريم)، وسبب اختيار التسمية

- المبحث الثالث: التفسير بالرأي، والتفسير العلمي

- المبحث الرابع : التأويل والتفسير العلمي





تمهيد في: تعريف التفسير والتأويل والفرق بينهما

أولاً: التفسير:

لغة: أصله من الفَسْرِ، وهو الإبانة وكشف المغطّى، أو هو كشف المراد عن اللفظ المشكل(١)، أو إظهار المعنى المعقول.(٢)

فالتفسير لغة: كشف المغلق من المراد بلفظه، وإطلاق للمحتبس عن الفهم به.(٣)

وأما تعريف التفسير في الاصطلاح: فإن التعريفات الاصطلاحية للتفسير تختلف باختلاف الآراء في تحديد ما يندرج تحته.

فبعضهم عرفه بأنه: علم نزول الآيات وشؤونها وأقاصيصها والأسباب النازلة فيها، ثم ترتيب مكيّها ومدنيّها ومتشابهها وناسخها ومنسوخها، وخاصها وعامها، ومطلقها ومقيّدها، ومجملها ومفصلها، وحلالها وحرامها، ووعدها ووعيدها، وأمرها ونهيها، وعبرها وأمثالها.(٤)

---

(١) انظر: لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور مادة (فسر) ط دار صادر بيروت ١٩٩٠، ترتيب القاموس المحيط على المصباح المنير وأساس البلاغة، أ. الطاهر أحمد الزاوي ٣/ ٤٩٠ ط دار الفكر ثالثة، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، أحمد بن محمد الفيومي ٢/ ٦٤٧ ط: دار القلم بيروت د.ت.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن للراغب حسن بن محمد الأصفهاني صـ ٣٨٧ ط الدار الميمنية د.ت.

(٣) البرهان في علوم القرآن بدر الدين للزركشي ٢/ ٢٨٤ تحقيق يوسف مرعشلي ط دار المعرفة أولى ١٩٩٠.

(٤) هذا التعريف الذي ذكره الزركشي في البرهان ٢/ ٢٨٤، ونقله السيوطي في الإتقان في علوم القرآن ٢/ ٧٤ ط دار الفكر عن بعضهم ولم يسمه.



وبعضهم عرفه بأنه: علم يفهم به كتاب الله المنزل على نبيه محمد ﷺ، وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه.[1]

وبعضهم عرفه بأنه: علم يبحث عن كيفية النطق بألفاظ القرآن، ومدلولاتها، وأحكامها الإفرادية والتركيبية، ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب، وتتماتٍ لذلك.[2]

وبعضهم عرفه بأنه: علم يبحث عن القرآن الكريم من حيث دلالته على مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية.[3]

وهذه التعاريف بمجملها تتفق بأن التفسير: علم، أي: ذو أصول وقواعد، موضوعه: كتاب الله تعالى، ومقصوده الوصول إلى معرفة مراد الله تعالى في كتابه من خلال الكشف عن دلالاته اللفظية والبيانية، واستنباط أحكامه الشرعية، ومعرفة حكمه الخفية،والوصول إليها بقدر ما أوتيه الإنسان من المعارف والقواعد العلمية، ويمكن جمع هذا المعنى في تعريف التفسير بأنه: **علم يبحث فيه عن بيان القرآن الكريم، ومعرفة مراد الله تعالى منه، واستخراج أحكامه وحكمه وعلومه بقدر الطاقة البشرية.**

---

(١) البرهان ١/ ١٣ تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ط البابي الحلبي، ونقله السيوطي في الإتقان ٢/ ١٧٤ عنه.

(٢) وهو تعريف أبي حيان محمد بن يوسف في تفسيره البحر المحيط ١/ ١٤،١٣، ط دار إحياء التراث د.ت.

(٣) وهو الذي اعتمده الشيخ عبد العظيم الزرقاني في مناهل العرفان في علوم القرآن ٢/ ٣ ط دار الفكر بيروت، د.ت.



وهذا التعريف أقرب لتعريف الزرقاني؛ وبذلك نكون قد اعتمدنا الأصل اللغوي للتفسير، وجمعنا ما يدخل في التفسير مما ذكر في التعاريف السابقة.

● **ثانياً: التأويل:**

لغة: أصله من الأَوْل، وهو الرجوع إلى الأصل.[1]

ومنه المآلُ: الموضع الذي يرجع إليه، ومن معانيه: العاقبة والعود والمصير، وكلها متقاربة الدلالة.

ويأتي بمعنى التدبير والتقدير، يقال: تأول الكلام تأويلاً وتأوله: دبره وقدره[2]، وقيل أصله من الإيالة وهي السياسة فكأن المؤول للكلام ساسه ووضع المعنى فيه موضعه.[3]

ويستخدم التأويل بمعنى رد الشيء إلى الغاية المرادة منه سواء كان الشيء علماً أو فعلاً، ففي العلم نحو قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧]. أي ولا يعلم المراد الحقيقي مما تشابه من آيات القرآن إلا الله.

وفي الفعل نحو قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ﴾ [الأعراف: ٥٣]، أي يوم يأتي بيانه الذي هو غايته المقصودة منه.[4]

---

(١) انظر المفردات صـ ٣٠، النهاية في غريب الحديث محمد بن الأثير ١/ ٨٠، تحقيق أحمد الزاوي ومحمد الطناحي ط دار إحياء التراث د.ت، ولسان العرب مادة (أول).

(٢) انظر ترتيب القاموس ١/ ٢٨٥.

(٣) المفردات صـ ٣٠، اللسان مادة أول، البرهان ٢/ ٢٨٥.

(٤) المفردات صـ ٣٠.



ويأتي بمعنى التفسير والبيان[1]، (فكأن التأويل: جمعُ معان مشكلة بلفظ واضح لا إشكال فيه، قال الليث: (التأوّل والتأويل: تفسير الكلام الذي تختلف معانيه))[2]، وبهذين المعنيين -أي المآل والعاقبة والمصير،ومعنى التفسير- استخدم التأويل في السنة كما في دعائه صلى الله عليه وسلم لابن عباس: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل»[3]، أي: التفسير.

وفي تفسيره صلى الله عليه وسلم لقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: ٦٥]، قال صلى الله عليه وسلم: «أما أنها كائنة ولم يأت تأويلها بعد»[4]، أي مصيرها و مآلها وحصولها في الواقع.

---

(١) انظر ترتيب القاموس ١/ ٢٨٥.

(٢) انظر: مقدمة محقق قانون التأويل لابن العربي تحقيق د. محمد السليماني صـ ٢٣٠ ط دار القبلة جدة ومؤسسة علوم القرآن ط أولى ١٤٠٦ .وقول الليث في تهذيب اللغة للأزهري ١٥/ ٤٥٨ تحقيق طائفة من العلماء ط مصر أولى ١٩٦٤.

(٣) أخرجه أحمد في المسند ١/ ٢٦٦ و ٣١٤ ط: دار الفكر بيروت د.ت، قال الهيثمي: (قلت هو في الصحيح غير قوله وعلمه التأويل رواه أحمد والطبراني بأسانيد، وله عند البزار والطبراني: «اللهم علمه تأويل القرآن»، ولأحمد طريقان رجالهما رجال الصحيح)، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد علي بن أبي بكر الهيثمي ٩/ ٢٧٦ ط دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨٠.

(٤) أخرجه الترمذي كتاب التفسير باب سورة الأنعام رقم (٣٠٦٦)، أحمد ٣ / ٣٨ من حديث سعد بن أبي وقاص، قال الترمذي: حسن غريب، الجامع (سنن الترمذي) محمد بن عيسى بن سورة الترمذي تحقيق أحمد شاكر ط دار الفكر بيروت ١٩٩١.





التأويل اصطلاحاً:

اختلفت تعريفات العلماء للتأويل، وأشهر هذه التعريفات:

هو نقل ظاهر اللفظ عن وضعه الأصلي إلى ما يحتاج إلى دليل؛ لولاه ما ترك ظاهر اللفظ[1]، وهذا تعريف الأصوليين واختيارهم.[2]

ومفاد التعريف: الخروج من معنى النص القريب الظاهر، إلى معناه البعيد بدليل أو قرينة لولاهما ما جاز هذا الخروج، أو هو الخروج من الحقيقة إلى المجاز بدليل.

وعرفه آخرون: رد أحد الاحتمالين إلى ما يطابق الظاهر[3]، وهذا التعريف أقرب إلى اصطلاح اللغويين[4]، بينما يرى بعضهم أن تعريف التأويل هو: صرف اللفظ إلى ما يمكن أن يتحمله من معنى.[5]

وفي تعريف آخر: أنه بيان ما يرجع إليه معنى القرآن بمقتضى القواعد والنظر الدقيق.[6]

---

(١) التحبير في علوم التفسير للسيوطي صـ ١١٠ تحقيق عبد القادر عطا ط دار الكتب العلمية، وانظر علوم القرآن، مدخل إلى تفسير القرآن وبيان إعجازه د عدنان زرزور صـ٤٠٢، ط المكتب الإسلامي الثانية ١٤٠٤، أصول التفسير وقواعده: خالد عبد الرحمن العك صـ٥١ ط دار النفائس. وذكره ابن الأثير في النهاية ١/ ٨٠.

(٢) انظر جمع الجوامع لتاج الدين السبكي ٢/ ٥٣ ط: دار الكتب العربية مصر د.ت، المستصفى للغزالي ١/ ١٥٧ ط البولاقية أولى ١٣٢٤ هـ تصوير دار الفكر بيروت.

(٣) دراسات في التفسير وأصوله د محيي الدين البلتاجي صـ٨، ط دار الثقافة أولى ١٩٨٧.

(٤) انظر: ترتيب القاموس ٣/ ٤٩٠.

(٥) دراسات في القرآن الكريم د السيد أحمد خليل صـ ١١١ ط دار المعارف مصر ١٩٧٢.

(٦) هو اختيار الدكتور نور الدين عتر في علوم القرآن، ط دار الخير أولى ١٩٩٣ صـ ٧٣.

وللترجيح بين التعريفات السابقة لا بد من إلقاء نظرة سريعة لمعنى التأويل في القرآن، فقد تكررت كلمة التأويل في القرآن في خمس سور، مرة واحدة في كل سورة منها، وهي: آل عمران (٧)، النساء (٥٩)، والأعراف (٥٣)، ويونس (٣٩)، والإسراء (٣٥)، وتكررت في سورة يوسف في ثمانية مواضع (٦، ٣٦،٢١، ٣٧، ٤٤، ١٠٠،٤٥، ١٠١)، وفي سورة الكهف مرتين (٧٨، ٨٢).

وبدراسة لمعان التأويل الواردة في الآيات السابقة (نجد أن لفظ التأويل لم يستعمل إلا بمعنى المآل والمرجع والمصير، أو العاقبة والجزاء،أو مآلاً لأحاديث الناس وتعبيراً لرؤياهم)[1]، أي: في المعنى الحقيقي للشيء والأثر الواقعي فيه، وفي الأمور الدقيقة الخافية التي لا تظهر إلا لخواص الناس كما في تعبير الأحلام.

وهذا أحد المعاني اللغوية الأساسية للتأويل،(وإنما قرن القرآن استعمال هذه المادة بالآيات المتشابهات وبالرؤى والأحلام، ثم بالمصير المجهول؛ لأن الألفاظ الدالة على المعاني في هذه المواضع الثلاثة لم تعد أن تكون إلا رموزاً تحتاج إلى الرقة البالغة في بيان ما وراءها)[2]، وبذلك يرى الباحث أن أرجح تعريف للتأويل: (**أنه بيان ما يرجع إليه معنى القرآن بمقتضى القواعد والنظر الدقيق**)؛ وذلك لمقاربته للمعاني اللغوية، ومعنى التأويل في القرآن، ولأنه يدخل فيه معنى التفسير إذ يحتمله، والله أعلم.

---

(١) مقدمة محقق كتاب قانون التأويل د. محمد السليماني صـ ٢٤٠، وقد قام بدراسة مفيدة لمعاني التأويل في القرآن من صـ٢٣٤ إلى صـ ٢٤٠.

(٢) دراسات في القرآن، د. السيد خليل صـ ١١٠.



● **الفرق بين التفسير والتأويل:**

اختلف العلماء في الفرق بين التفسير والتأويل، وذهبوا في ذلك مذاهب شتّى، وخاض في غماره فحول العلماء، واستفاضوا فيه وأطالوا،فما بين قائل بأن التفسير والتأويل متفقان،وقائل بأن التفسير أعم من التأويل، وقائل بأن بينهما اختلافاً، والأخيرون مختلفون في وجه الاختلاف بينهما.(1)

وأيّاً كان الأمر؛ فإن لفظة التفسير والتأويل كلاهما في هذا المجال ترتبطان بأمر الكشف والإبانة عن دلالات اللفظ من أفراده وتراكيبه،من حيث معنى التأويل والتفسير في اللغة، وإن كان الاصطلاح قد ميّز بينهما بعض الشيء.(2)

ونحن نجد الفرق بين التفسير والتأويل بشكل جلي أكثر عند الأصوليين(3)، ولذلك يرى الباحث أن غلبة استعمال تعريف الأصوليين للتأويل عند المفسرين في علوم القرآن

---

(1) انظر البحث في الفرق بين التأويل والتفسير في: البرهان للزركشي ٢/ ٢٨٥ وما بعد، الإتقان للسيوطي ٢/ ١٧٣، التفسير والمفسرون الذهبي ١/ ١٩- ٢٢ ط دار الكتب الحديثة مصر أولى ١٩٦١، مناهل العرفان للزرقاني ٢/ ٥، مورد الظمآن في علوم القرآن صابر حسن من صـ ١٨١ إلى صـ١٨٥ ط الدار السلفية الهند أولى ١٩٨٤، بحث بعنوان مناهج المفسرين للقرآن الكريم صـ٩٧ د. وهبة الزحيلي القرآن علوم وآفاق مؤتمر أقامته الملحقية الثقافية الإيرانية في دمشق ١٩٩٤، التأويل الصوفي للنص، د. عبدالإله نبهان مقال في مجلة التراث العربي صـ ٤٩ العدد ١٤١٨،٦٨ هـ، مدخل إلى تفسير القرآن وعلومه د.عدنان زرزور صـ٢١٣ - ٢١٤ط دار القلم دمشق١٩٩٥، دراسات في القرآن د. السيد أحمد خليل صـ ١٠٩-١١٠، أصول التفسير وقواعده للشيخ خالد عبد الرحمن العك ص، ٥٢- ٥٣ ط دار النفائس ثالثة ١٤١٤ هـ.

(2) دراسات في التفسير وأصوله د. البلتاجي صـ٨ـ٩ بتصرف وإضافة.

(3) انظر: أصول التفسير للعك صـ ٥١.



هو سبب وجود هذا التنوع في الأقوال وتعدد الآراء في الاختلاف بين التفسير والتأويل، مع أن تعريف التأويل عند الأصوليين يدخل في عمل المفسرين ولكن دون تفريق بينه وبين التفسير، والله أعلم.

فنحن لو حكّمنا الجانب العملي عند المفسرين؛ لوجدنا عملهم لا يدل على هذا الفرق الكبير كما أسلفت، فإننا نرى شيخ المفسرين ابن جرير[1] قد أطلق التأويل، وأراد به ما يشمل التفسير، فهو يصدر الآية قبل الكلام عليها بقوله: (القول في تأويل قوله تعالى: .. كذا).

ويذكر ما هو من التفسير، وما هو من التأويل، ولا يخفى أن اسم تفسيره: جامع البيان في تأويل القرآن.

وباستعراض عدد ممن ألف في التفسير نجد تفاسيرهم تحمل في عناوينها اسم التأويل وهي من التفسير: ككتاب أنوار التنْزيل وأسرار التأويل، للبيضاوي[2] (ت:

---

(١) محمد بن جرير بن يزيد أبو جعفر الطبري الإمام الحافظ المجتهد شيخ المفسرين المشهور صاحب التفسير العظيم ت (٣١٠هـ).

انظر: سير أعلام النبلاء محمد بن أحمد الذهبي ١٤/ ٢٦٧ تحقيق أكرم البوشي وشعيب أرناؤوط الرسالة ١٤١٣هـ، طبقات المفسرين محمد بن علي الداودي ٢/ ١٠٦ضبط لجنة من العلماء ط دار الكتب العلمية د.ت.

(٢) عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي الإمام القاضي الفقيه المفسر الأصولي من كبار الأئمة في المعقولات مشهور له تصانيف في الأصول والعقيدة والنحو والفقه وغيرها ت ٦٨٥، انظر: طبقات المفسرين للداودي ١/ ٢٤٨، معجم المفسرين من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر عادل نويهض١/ ٣١٨، ط مؤسسة نويهض ثانية ١٤٠٩هـ.

٦٨٥)، ومدارك التنْزيل وحقائق التأويل، للنسفي[1] (ت: ٧٠١)، ولباب التأويل في معاني التنْزيل، للخازن[2] (ت: ٧٤١)، ولم يخصصوا في تفاسيرهم آيات معينة أو مواضيع منتخبة يؤولونها ثم يفسرون باقي القرآن؛ على أساس وجود فرق كبير جوهري بين التأويل والتفسير.

أضف لذلك أننا نجد من استعمالات التأويل عند الصحابة في القرآن جاءت على محل التفسير ففي تفسير قوله تعالى: ﴿ولا تُلقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، قال أبو عِمران التُّجِيبيّ: (كنا بمدينة الرُّومِ، فأخرجوا إلينا صفًا عظيمًا من الرُّومِ، فخرجَ إليهم من المسلمين مثلُهم أو أكثرُ، وعلى أهلِ مصرَ عقبةُ بن عامرٍ، وعلى الجماعةِ فضالةُ بن عبيدٍ، فحمل رجلٌ من المسلمينَ على صفِّ الرُّومِ حتَّى دخلَ فيهم، فصاح النَّاس، وقالوا: سبحانَ الله يُلقي بيدِه إلى التَّهلُكةِ.

فقامَ أبو أيوبَ، فقال: أيُّها النَّاس، **إنَّكم تتأوَّلون هذه الآية هذا التَّأويلَ**، وإنما أنزلت هذه الآيةُ فينا معشرَ الأنصارِ لما أعزَّ اللهُ الإسلامَ، وكَثُرَ ناصروه، فقال بعضنا لبعضٍ سرًّا دون رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنَّ أموالنا قد ضاعت، وإنَّ الله قد أعزَّ الإسلامَ، وكَثُرَ ناصروه، فلو أقمنا في أموالنا، فأصلحنا ما ضاع منها، فأنزل اللهُ

---

(١) عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي فقيه حنفي مفسر له تصانيف في الفقه والأصول ت ٧١٠هـ انظر الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة لابن حجر ٢/ ٣٥٢ ط دار الكتب العلمية د. ت، معجم المفسرين لنويهض ١/ ٣٠٤.

(٢) علي بن محمد بن إبراهيم الشيحي المعروف بالخازن: عالم بالتفسير والحديث، من فقهاء الشافعية، ولد ببغداد ونزل دمشق وتوفي بحلب كان خازناً لكتب السميساطية ت ٧٤١، انظر طبقات المفسرين للداودي ١/ ٤٢٦، معجم المفسرين ١/ ٣٧٩.

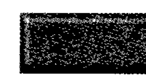


على نبيِّه صلى الله عليه وسلم يردُّ علينا ما قلنـا: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، فكانت التَّهلُكةُ الإقامةَ على الأمـوالِ وإصـلاحِها، وترْكَنـا الغَزْوَ).[1]

لذلك فإن الباحث يـرى أن الاخـتلاف في الفـرق بـين التفسير والتأويـل إنـما هـو اختلاف لفظي نظري، وليس اختلافـاً حقيقيـاً ينبنـي عليـه أثـر عمـلي؛ ولـذلك فـإن التفسير والتأويل متفقان من حيث الأصل والنتيجة فيطلقـان عـلى بعـضهما،وإن فـرق بينهما الاصطلاح عند البعض، والله أعلم.

---

(١) أبو داود في الجهاد باب في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ﴾ رقم (٢٥١٢) تحقيـق محيـي الدين عبد الحميد ط دار الحديث د.ت، التِّرمذي في التفـسير: بـاب ومـن سـورة البقـرة، رقـم: (٢٩٧٢). وقال الترمذي: حسن صحيح غريب.



المبحث الأول:

مفهوم العلم في القرآن وخلفيات تغير مفهومه في العصر الحديث.

العلم في القرآن الكريم:

يقصد هذا العنوان بيان شمولية العلم في الإسلام استدلالاً بالقرآن الكريم، والغرض من ذلك أنه لما كان العلم هو المضاف لتفسير القرآن الكريم في مصطلح: (التفسير العلمي للقرآن الكريم)؛ فينبغي أن يعطى هذا اللفظ مدلولاً شرعياً من الكتاب الذي هو موضوع البحث، لأن مصطلح (التفسير العلمي للقرآن) أضحى مصطلحاً يُتعامل معه على أنه مصطلح شرعي؛ فلا بد أن تُفسر تراكيبه تفسيراً شرعياً.

ونبدأ بتعريف العلم لغة:

(العين واللام والميم أصل صحيح واحد يدل على أثر بالشيء يتميز به عن غيره، والعلم نقيض الجهل، ويعني: اليقين، وجاء بمعنى المعرفة أيضاً، كما جاءت بمعناه، وضُمِّن كل واحد معنى الآخر لاشتراكهما في كون كل واحد مسبوقاً بالجهل، وقد يضمن معنى (شَعَر)، فتدخل الباء، فتقول: علمته وعلمت به).[1]

أما تعريف العلم اصطلاحاً؛ فلا يخفى اختلاف العلماء في العلم: هل يحد أم لا؟، ومن قال أنه يحد اختلفوا في حده، ولذلك سأضرب صفحاً عن الخوض في الجدل الكلامي وسأعتمد في تعريف العلم اصطلاحاً النتيجةَ التي سأخرج بها من معرفة مفهوم العلم في القرآن الكريم.

---

(١) انظر: معجم مقاييس اللغة لأبي الحسين أحمد بن فارس ٤/ ١٠٩-١١٠، تحقيق عبد السلام هارون، ط دار الجيل د.ت، المصباح المنير صـ٣٤٧، اعتنى به عادل مرشد ط بيروت مادة(ع ل م).

مفهوم العلم في القرآن الكريم:

لا يخفى على دارس علوم القرآن كثرة ورود الآيات التي تحمل مادة (علم) ومشتقاتها، وحتى لا يطول البحث فإن دراسة مفهوم العلم في القرآن سأختصرها في جهتين: [1]

- **إحداهما**: معرفة دلالة العلم في الآيات التي فيها لفظ (العلم).

- **الثانية**: معرفة دلالة العلم بالنظر إلى استعمالاتها وتصريفاتها ضمن السياق.

معاني العلم في القرآن الكريم: [2]

١ – معرفة ما أنزل الله من عقيدة وتشريع وأحكام وفرائض ونحو ذلك على أنبيائه ورسله، واليقين به:

وقد دل على ذلك آيات كثيرة منها: قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ [الإسراء: ١٠٧]، وقوله

---

(١) ينظر كتاب: العقل والعلم في القرآن الكريم، د. يوسف القرضاوي ط مؤسسة الرسالة٢٠٠٥، وبحث د. القرضاوي عن العلم في القرآن على موقع islamset.com وبحث (مفهوم العلم وحرية البحث العلمي في الإسلام) د. عمار الطالبي من موقع islamset.com، والتفسير العلمي للقرآن في الميزان د. أحمد عمر أبو حجرص ٧١ فما بعد ط دار قتيبة أولى ١٩٩١. و: مدخل إلى موقف القرآن الكريم من العلم، د. عماد الدين خليل، ط مؤسسة الرسالة الثانية ١٩٨٥.

(٢) سأكتفي بعنونة الآيات بدلالتها المرادة اختصاراً للموضوع، وأما المراجع في التفسير فقد اكتفيت بتفسير ابن كثير والقرطبي وزاد المسير.

تعالى أيضاً: ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٩]، وقوله تعالى: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [المجادلة: ١١].

وقوله تعالى: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ [سبأ: ٦]، وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا .. ﴾ [محمد: ١٦].

فالذين أوتوا العلم هم المؤمنون العارفون الموقنون بما أنزل الله على الرسل.

وقد جعل الله ما أنزل على رسله علماً كما في قوله تبارك وتعالى: ﴿ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴾ [مريم: ٤٣].

٢- **المعارف المبنية على التثبت والحجة**، ومن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦]، فإن الله نهى عن القول بغير علم، أي بلا حجة، ويدخل في ذلك الظن الذي هو من قبيل التوهم والخيال؛ فلابد أن تكون المعرفة مقترنة بدليل يناسبها؛ ولذلك ذكر وسائل اكتساب المعرفة النافعة ومدارك الحجج: السمع والبصر والفؤاد مقترنة بالعلم المطلوب.

٣- الدليل القاطع الواضح على الحق: ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ .. ﴾ [الجاثية: ١٧]، وقوله تعالى: ﴿ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ .. ﴾ [الشورى: ١٤].

٤- سياسة الأمور وتقدير عواقبها: وهذا مستفاد من سياق قوله تعالى: ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف: ٧٦].

٥- الإسناد: وهذا من قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [الأحقاف: ٤].

٦- المعرفة الواعية والإدراك الراشد للأمور والعواقب: فالعلم نقيض الجهل والغباء، وبهذا المعنى أكثر ما جاء في القرآن بصيغة (يعلمون) أو (تعلمون) مثبتة أو منفية، ويدخل في ذلك معرفة سنن الله في التاريخ والأمم الظالمة، ومن الآيات الدالة على ما مضى:

قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة: ٦]، وقوله تعالى: ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا

فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٣٠]، وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسۡتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٥].

٧ ـ **معرفة النعم الكونية في السماء والأرض وكيفية تسخيرها للإنسان في حياته ومصالحه**، مما يتطلب من الإنسان تهيئة مقدمات هذه المعرفة من العلوم المساعدة عليها، والاستفادة منها في استنتاج علوم أخرى، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٧]، وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ [يونس: ٥].

ومن الآيات التي تضمنت معرفة النعم الكونية في الأرض من استقرارها وما يخرج منها من نبات ومياه..الخ، قوله تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [النمل: ٦١].



توسع مدلول العلم في القرآن:

قرن الله مع معرفة نعمه في السماء والأرض نعمة لا تقل أهمية في العظمة وهي علم نشأة اللغات واختلافها، وعلم تاريخ الإنسان واختلاف عروقه، وهي من العلوم المتعلقة بالإنسان خاصة، قال الله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾ [الروم: ٢٢].

ثم جاء ذكر العلماء في سياق ذكر مظاهر كونية ونعم يعيشها الناس تدل على قدرة الله تعالى، ولكن لا يقدر اللهَ حق قدره إلا من عرف هذه النعم في نشأتها وأهميتها لحياة الإنسان وبقائه، ومعرفته بكيفية التعامل معها، وتسخيرها قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ [فاطر: ٢٧، ٢٨].

وجاء ذكر العلماء - خاصة من بين الناس - بصفة الذين يفقهون الأمثال التي يضربها الله ويمثل لها في الكون من حشرات أو حيوانات أو في ذات الإنسان، لأنهم يعلمون دقة تكوينها وخارطة معيشتها، قال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

النتيجة: مفهوم العلم في القرآن.

فيتحصل لنا مما مر معنا في عرض الآيات حسب ما تدل عليه أن العلم الذي نوه به القرآن وحفلت به آياته **يشمل كل معرفة تنكشف بها حقائق الأشياء وتزول بها غشاوة الجهل والشك عن عقل الإنسان؛ سواء كان موضوعه الكون والطبيعة ؛ أم كان موضوعه الإنسان أو الوجود بأسره أو كان موضوعه الغيبيات، وسواء كانت وسيلة معرفته الحس والتجربة، أم كانت وسيلته العقل والبرهان، أو كانت وسيلته الوحي والنبوة.**

كما أن العلم يطلق أيضاً -كما دلت الآيات- على إدراك عواقب الأفعال وتقدير أخطارها ومنافعها وكيفية سياسة الأحداث واستخدامها، كما سمى القرآن الدلائل والحجج المختلفة الدالة على الحق علماً.

كما أن الله تعالى لم يفرق بين أنواع العلوم مع كثرتها بأن هذا دنيوي وهذا أخروي، ولم يصنف العلماء على ذلك، مما يقرر شمولية الإسلام وتكامله في أحكامه وتصوراته عن الكون والحياة والإنسان، وعمق الارتباط بين فطرة الكون المخلوق، وفطرة الأحكام المفروضة، ولكننا نجد القرآن يقسم العلوم إلى ضارة ونافعة، فالعبرة ليست بذات العلم فقط، بل بمجال استخدام هذا العلم وأثره على الإنسان والمجتمع، والله أعلم.

■ خلفيات تغير مفهوم العلم في العصر الحديث:

تأثرت أوربة كثيراً بما ساد فيها من تضارب التيارات الفلسفية وتعارضها واختلافها في الأسس وتباينها في المفاهيم، واحتدم الصراع بين أصحاب النزعات المختلفة من طبيعية وعقلية ومادية ووضعية وغير ذلك، وادعى كل صاحب مذهب اكتشاف الحقيقة، ويأبى أن يعترف لغيره بالوصول إليها[1]، وصار كل صاحب نزعة يعطي تصوراته عن الكون والحياة والإنسان، ويدلل عليها ببراهينه، ويحاول تسفيه الآخرين وإقناعهم بتصوراته وإشاعتها.

هذا في الوقت الذي كان فيه المسلمون منهمكون بالتعريب وتهذيب العلوم وتقعيدها، ومنهمكون بالابتكار والاكتشاف، وبرعوا بذلك في ميادين العلوم والأدب مما أذهل الغربيين حين أفاقوا من سباتهم، ثم أرادوا أن يحتذوا حذو المسلمين ويقلدوهم وينقلوا علومهم ومعارفهم ويلحقوا بغبار موكب حضارتهم؛ فوجدوا أنفسهم -لما طفقوا ينهضون- في عجز عن محاكاة المسلمين، وبلوغ شأوهم.[2]

ثم كان للكنيسة المسيطرة على أوربة دوراً رئيساً في زيادة حدة الصراع بين العلم والدين في أوربة، خاصة في عصر النهضة أو (الرينساس Renaissance) في القرن الخامس عشر والسادس عشر الميلادي، عندما حرّمت العلم، وصادرت الحريات

---

(١) انظر: مصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي، د. عبد الرحمن بن زيد الزبيدي صـ ٥ إلى ٧، تقديم عمر بن عبد الله عودة الخطيب، ط المعهد العالمي الإسلامي أمريكا.

(٢) انظر: دور التعريب في تأصيل الثقافة الذاتية العربية د عبد الكريم اليافي، مجلة التراث العربي العددان ١٣ و ١٤، صـ ٢١٨، محرم ـ وربيع الثاني ١٤٠٤، تشرين الأول ـ وكانون الثاني ١٩٨٤م.

وعاملت الناس بقسوة وطغيان، واختصت المفكرين والعلماء من بين الناس بإنزال أقصى العقوبات عليهم والتنكيل بهم وإحراق كتبهم؛ بحجة أنهم يخالفون تعاليم الدين وأفكار الكنيسة ومبادئها المتمثلة برجالاتها.[1]

وبدأت الثورة الشديدة على تصورات الكنيسة، وظهر التحول الجديد في التصور الغربي للكون ومكان الفرد فيه، وكانت بدايته بظهور نظرية كوبرنيك[2]، حتى سميت بالثورة الكوبيرنيكية، وكان هذا التصور الكوبيرنيكي الجديد غريباً عما ألفته الكنيسة وأوربة بأوساطها الثقافية والفلسفية، فاعتبر كوبرنك بذلك متمرداً وثائراً على معارف الكنيسة ومسلمات الكتاب المقدس والآراء اللاهوتية المعتمدة.[3]

---

(١) انظر: فكر المسلم وتحديات الألفية الثالثة، د نور الدين عتر صـ ٣٣٣، ٢٣٤.ط دار الرؤى، القرآن وقضايا الإنسان عائشة بنت الشاطئ صـ٢١٤، ط دار المعارف مصر.

ونلفت الانتباه إلى أن «عصر النهضة» هو عصر البدايات الأولى للثورة العلمية في أوربة إذ ظهر من يدعو لنبش أفكار الرجال الذين لم يرتضوا أفكار أرسطو حول الكون والعلوم، كما شاع في هذا العصر أفكار أفلاطون المشتهر بالرياضيات؛ ولذلك يرى بعض المؤرخين أن تطوّر العلم كان بسبب تطور الرياضيات. ينظر: ظاهرة العلم الحديث دراسة تحليلية وتاريخية: د. عبدالله العمر صـ١٦-١٨.

(٢) نقولا كوبرنيك (١٤٧٣ - ١٥٤٣م) فلكي بولوني برهن على دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس انظر المنجد في اللغة والأعلام صـ٤٧١ط دار المشرق بيروت الثالثة والثلاثون ١٩٩٢م.

(٣) انظر: فجر العلم الحديث: الإسلام، الصين، الغرب، توبي.أ.هف صـ ٣٥٣ إلى ٣٥٥، ترجمة: د. محمد عصفور، سلسلة عالم المعرفة الكويت العدد ٢٦، ط ثانية ٢٠٠ م.



ثم فجر ماركس[1] هذه الثورة على الكنيسة في تفسيره المادي للتاريخ، وكذلك داروين[2] بما تضمنه كتابه أصل الأنواع من نظريات.

وفي ظل هذه الثورة والانفجار العلمي في أوربة، انتقل العلم إلى طور جديد، وصار مقصوراً على حيز مادي، محصورٍ بالتجربة والمشاهدة أو الملاحظة والتفسير، وصار العلم تابعاً للعملية الآتية: أن يرصد الإنسان مادة كونية خاضعة لحاسة من حواسه، ثم يمارس التجربة تلو التجربة حتى يستل من هذه التجربة رصيداً، ثم يجعل من هذا الرصيد قانوناً، نعم هذا العلم الذي اخترع معناه في عصر النهضة.[3]

ثم اعتبر كل ظاهرة مادية ليس لها تفسير علمي بالمعنى السابق مرفوضة وخرافة، واعتبر الدين - وكان المقصود دين الكنيسة -- من ذلك.

ومن الضروري معرفة (أن هذه الثورة ثارت في الغرب فقط وليس في البلاد الإسلامية أو الصين، وهذه الحقيقة تجعل الكثيرين يتساءلون عن العوامل الاجتماعية والثقافة الفريدة التي وجدت في الغرب ومكنت هذا التحول العظيم من الحدوث، فمن المتفق عليه الآن بشكل عام أن التصور الكوبيرنيكي الجديد للكون لم يقم على ملاحظات جديدة مذهلة أو أساليب رياضية جديدة لم تكن معروفة لدى العرب)[4]،

---

(١) كارل ماركس (١٨١٨ - ١٨٨٣) فيلسوف إجتماعي ألماني مؤسس النظم الماركسية والشيوعية انظر المنجد في الأعلام صـ٥١١.

(٢) تشارلز داروين (١٨٠٩ - ١٨٨٢م) عالم بالطبيعة إنكليزي صاحب نظرية التطور والانتخاب الطبيعي انظر المنجد في الأعلام ص ٢٣٨.

(٣) انظر: يغالطونك إذ يقولون، د. محمد سعيد رمضان البوطي صـ١٣٩، ط دار الفارابي.

(٤) فجر العلم الحديث صـ٢٥٤.



لقد حصل هذا التغير في مفهوم العلم حين دخل العالم الإسلامي في حالة جمود وركون علمي، منقطعاً عن المستجدات العلمية من حوله، وغير عارف بما يحصل في أوربة.

وبرجوع البعثات العلمية الموفدة لأوربة إلى البلاد الإسلامية مدهوشة ومنبهرة -كما سيأتي- انتقل معهم وباء العداوة بين الدين والعلم، وانتشر في أوساط المسلمين وثقافتهم، ثم ولى عامة المثقفين من المسلمين في البلاد العربية وجوههم شطر النهضة الأوربية، وافتتنوا بها أي افتتان، وجرهم هذا إلى الاعتقاد والتصديق بكل ما يصدر من أوربة من علم أو فكر، بل جعلوا العلوم والفلسفة الوافدة من هناك ميزاناً للإسلام، فيعتقدون من الإسلام ما وافق ميزان العلم والفلسفة بالمفهوم الغربي، ويردون ما رده العلم والفلسفة بهذا المفهوم السابق.[1]

ثم ظهر بعد ذلك مصطلح العَلمانية في ظل الاحتلال على أنه الشعار المنقذ للأمة من تخلفها، وقد ألبس زوراً ثوب العلم للتغرير بالعامة، وجعل أول أعدائه الدين وأهله.[2]

---

(١) انظر أمثلة ذلك في كتاب: مختصر موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين ورسله، المسمى بـ (القول الفصل بين الذين يؤمنون بالغيب والذين لا يؤمنون) لـ الشيخ مصطفى صبري يرحمه الله صـ ٧ فما بعد، بل يمكن أن نعتبر كتاب الشيخ مصطفى صبري (موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين ورسله) خارطة للوضع العام الثقافي والفكري وما فيه من تضارب ومناحرات وحرب بين الأفكار الوافدة الغازية من الغرب ومن يواليهم أو يسايرهم وبين أصحاب العقل والعلم والوعي من العلماء المخلصين وردودهم في تلك الفترة، وانظر أيضاً كتاب: أزمة فكر صـ ١٥٩، تحت عنوان: القرآن والمكتشفات العلمية الحديثة، د. محمد محمد حسين ط مؤسسة الرسالة.

(٢) ينظر: جذور العلمانية (الجذور التاريخية للصراع بين العلمانية والإسلامية في مصر منذ البداية وحتى عام ١٩٤٨م) د. السيد أحمد فرج من صـ ٩ حتى ٣٤، ط دار الوفاء مصر الرابعة ١٩٩٠م.



(والمصيبة الأعظم أنهم أهملوا الجانب العلمي التطبيقي الذي تفوق به الغرب، واقتصروا على الجدل النظري ضد عقائد الإسلام وأخلاقه وشرائعه، فأهملوا ما ينفع واشتغلوا بما يضر).[1]

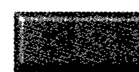
أقول: إن مرحلة الجمود التي مر بها العالم الإسلامي في أواخر العهد العثماني، وانقطاعه عن مستجدات العلوم والبحث العلمي ـ كما سيأتي بيانه ـ أبعدت الناس كثيراً عن جوهر الدين، فالاحتكاك بأوربة وغيرها من شعوب العالم لم يكن جديداً على المسلمين، بل كان أشد وأخطر في نهاية العصر الأموي وبداية العصر العباسي عهدِ الفتوحات الإسلامية، فقد حصلت المواجهات العلمية والاختلاط بمجتمعاتهم، وتعرض المسلمون لحملات الزندقة والإلحاد، وأخذت هذه الحملات صوراً متعددة؛ وغالباً ما كانت تعتمد على الجدل تحت التصور العقلي والمنطقي[2]، ولكن لم يحصل التأثير –والانبهار– الذي أثَّر بالمسلمين اليوم،ولم يفعل المسلمون في تلك العهود ما يفعله المتأثرون المنبهرون، أو (العصرانيون) والعلمانيون في العصر الحديث.

ويرى الباحث أن العافية الإيمانية والصحة العقلية والفكرية، والثقة بالنفس وقوة الشخصية عند المسلمين أيام الفتوحات المباركة؛ كانت تجعلهم يرون كل ما أمامهم من الظواهر والعلوم أمراً بدهياً، ذلك أن الفهم السليم لمدلول العلم في القرآن والسنة وشموليته على ما تقدم، وما يعلمونه من حض الإسلام على العلم لما له من أهمية في

---

(١) ما بين () من تعليق فضيلة المشرف أ.د. نور الدين حفظه الله.

(٢) ينظر: معالم الثقافة الإسلامية، د. عبد الكريم العثمان صـ ٩٢ فما بعد، ط مؤسسة الرسالة أولى ١٤٢٠،١٩٩٩م.



تطور حضارتهم، و ما أشار الله إليه من الحقائق والظواهر الكونية؛ كل ذلك جعلهم يألفون كل ما يرونه وما يسمعونه من العلوم، لأن مبادئها مطروقة في أسماعهم مستقرة جملة في عقولهم، ولم يجدوا حرجاً من البحث والتجربة في نواحي العلم بحجة أن دينهم ينهاهم عن ذلك، أو أن هذه علوم لا علاقة لهم بها، بل اجتهدوا ـ بما أوتوا من قوة ـ في نواحي العلم ودقائقه؛ لاعتقادهم أن ذلك يقربهم من الله تعالى، وأنهم بهذا الاجتهاد يقيمون شرع الله، ويرفعون إثماً عن أنفسهم وعن المسلمين، فلم تمنعهم معرفتهم بأطوار خلق الجنين من القرآن – في وقت كانت تصورات الروم وفارس مغلوطة في هذا الشأن –لم تمنعهم من التشريح والتحصيل والتدقيق، بل بدأ الطب -مثلاً- يتطور في البلاد العربية عند ظهور الإسلام[1]؛ فلا غرابة إذن أن نجد من علماء المسلمين من برع مع العلوم الشرعية باختصاصات علمية متعددة، لهم فيها مؤلفات، ما زال العلم يعول عليها ويرجع لها كمؤلفات ابن الهيثم وابن سينا وغيرهما، ولم تستخدم هذه العلوم في مناقضة كتاب الله تعالى ومحاربة دين الإسلام، بل في شرح كتابه سبحانه وتعالى والغوص في دلالات نظمه وأسرار علومه، لا على سبيل التوفيق بين العلم والدين؛ وإنما على أن كل العلوم مفسرة للقرآن، وكلٌّ تكلم على قدر طاقته واجتهد فيما علم، فمنهم من أخطأ ومنهم من أصاب.

فالجهل بالإسلام وبشمولية مفهوم العلم في الإسلام، وسيطرةُ الفكرة العلمانية على عقول كثير من المثقفين في فصل العلم عن الدين والدين عن الحياة؛ هو السبب

---

(١) ينظر: تنظيم صنعة الطب خلال عصور الحضارة العربية الإسلامية، د جميل عبد المجيد عطية من ٩٩ فما بعد، ط مكتبة العبيكان الأولى ٢٠٠٢م.



المباشر لما نعانيه اليوم من الجدلية العدائية، فينبغي على المسلمين أن ينهضوا ليعملوا على تصحيح المسيرة العلمية كما أرادها الإسلام ويضعوا مفهوم العلم في جادتـه الحقيقيـة، ولذلك كانت دراسة مفهوم العلم في القرآن الكريم، والله أعلم.



المبحث الثاني:

تعريف التفسير العلمي في القرآن.

● سبب اختيار هذه التسمية (التفسير العلمي للقرآن الكريم):

إن التسمية التي تعامل بها العلماء في هذا الاتجاه من التفسير قد وجه لها انتقادات كثيرة[1]، وما زالت تواجه إلى الآن اشمئزازاً من المنهج الذي لا يخرج عن كونه ردة فعل على الذين ردوا الدين باسم العلم -سواء كانوا من الاحتلال الأجنبي أو من بني جلدتنا-، وعلى الجهل الذي خيم في ربوع العالم الإسلامي.[2]

فقد وجدت أحد الباحثين ينتقد هذا المصطلح ويعرض به[3]، وينتقد طريقة الكتابة فيه على أساس (إقحام حقائق العلم على التفسير وافتعال المناسبات لها متعلقين بأهداب لفظ، أو لاوين لمعنى من معاني آي الذكر الحكيم للجمع بينه وبين حقيقة علمية أو فرض لم يزل بحاجة إلى تمحيص)[4]، وفضل أن يسميه بـ(التعليقات العلمية)، واقترح أن يقدم للتفسير خدمة علمية في كتاب واحد تكون فيه التعليقات العلمية مطبوعةً (على هامش مستقل، وبذلك يترك التفسير لأهله ويحافظ على متنه كما يراه العلماء من أصحاب اختصاصه، وهذه التعليقات غالباً ما تكون وجيزة حتى لا

---

(١) ينظر: مقال للباحث بعنوان (نظرة في مصطلح التفسير العلمي) على موقع ملتقى أهل التفسير: www.tafser.org.

(٢) انظر: التفسير العلمي في القرن الرابع عشر الهجري حتى عصرنا صـ١٤٥ من البحث.

(٣) انظر: العلوم البيولوجية في خدمة تفسير القرآن الكريم، منهاج وتطبيق، عبد الحافظ حلمي محمد، مجلة عالم الفكر، المجلد الثاني عشر، العدد الرابع صـ ٦١.

(٤) المصدر السابق صـ٦٦.



تعطل استمرار القراءة)[1]، ثم أخذ ينظر لمشروعه بالضوابط والواجبات، وأكد في أثناء كلامه أن هذه التعليقات لا تعد من التفسير.[2]

أقول: لعل ما اعترض عليه الكاتب وقدم الحلول له لم يزد الأمر إلا تعقيداً مع صحة انتقاده للأسلوب المغالي في عمل المفسرين في هذا اللون من التفسير، فالتسمية التي اقترحها لم تخرج عن الإطار الضيق لمفهوم العلم المتسرب إلى ثقافتنا، وهذه التعليقات لا تخرج عن كونها مستنبطة من القرآن أو داخلة في تفسيره، وعلى كل الأحوال فالمدار يعود على البيان الذي هو التفسير، سواء كانت هذه التعليقات موجزة أو مسهبة، مع الأخذ بعين الاعتبار لما قدمه الكاتب من ضوابط ومحترزات.

و اعتبر بعض الكاتبين أن ظهور ما يسمى (تفسيراً علمياً) (يتطلب منا اعتباره ظاهرة عرضية، أي أن يعتبر علامة على أزمة أعمق في آلية التفكير الديني ضمن البنية الثقافية العربية..، وإن انفصال النص عن الذات والواقع هو المسوغ لظهور تفسير علمي، وآخر أيدلوجي، وثالث إشاري).[3]

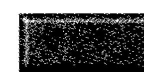
وألبس بعض العلماء هذا اللون من التفسير اسماً آخر هو: (المنهج التمثيلي في تفسير القرآن)، وأوضح أن المراد بهذا المنهج (أن ما يقصه القرآن أو ما يذكره عن نشأة الخليقة والأحداث المتصلة بحياة الأنبياء والمرسلين في دعوتهم إلى الله وإلى الإيمان بما

---

(١) انظر: العلوم البيولوجية في خدمة تفسير القرآن الكريم، منهاج وتطبيق صـ ٦٨.

(٢) المصدر السابق صـ ٦٨.

(٣) التفسير العلمي وتعطل المنظومة الثقافية الإسلامية، د. أحمد النيفر. مقال على موقع islamonline.net والأيدلوجي: أي العقائدي، والإشاري: الصوفي.



جاءت به الكتب السماوية، ثم الأحداث المتصلة بما اختص به بعض هؤلاء الأنبياء من العمل وما سخره الله لهم من مخلوقاته؛ يراد بها معانٍ أخرى يمكن أن يستفيد بها الإنسان المتدين في مواجهة الحياة والعمل فيها واستنباط النواميس العامة المسيرة لها).[1]

أقول: وبالنظر إلى النتيجة التي خرجت بها عن شمولية مفهوم العلم في القرآن والتي حكمت الثقافة الإسلامية والعلوم الإسلامية قروناً، ثم مقارنتها مع الثوب الجديد الذي ألبسته النهضة الأوربية للعلم، نجد أن عملية إسقاطٍ ظالمةً تمت في حالة ذهول، فألبس الصحيح ثياب السقيم، في جو سيطرت عليه العلمانية المادية الأوربية، وقابلها ردة فعل غيورة لكنها متعجلة من المسلمين، فانصب اهتمام الباحثين على جانب من جوانب العلم والمعرفة ليجعلوه الكل والأساس، وأرادوا تطبيقه على القرآن مع التسليم له.

ولذلك فإن هذا المركب الجديد (التفسير العلمي) لا يخلو من إشكالية دلالية وتاريخية، وذلك أن الوسط الثقافي -لتأثره بشكل مباشر أو غير مباشر بالجو العَلماني المسيطر على التعليم والمناهج- يتبادر لذهنه عند سماع (التفسير العلمي) أن هناك ظاهرة خاضعة للتجربة والبحث، وهي مستعصية على الفهم، ويراد بحثها من ناحية التجربة والتفسير المادي، وهذا المنطق الشائع بـ (المنطق العلمي) يعرض القرآن للمحاولات البشرية المختصة وغير المختصة؛ على اعتبار أن القرآن ظاهرة من الظواهر المحسوسة التي يراد محاولة فهمها، وهذا المنطق طبقه الطبيب الفرنسي موريس بوكاي على القرآن كما طبقه على التوراة والإنجيل، فكان العلم عنده بمفهومه الضيق- هو

(١) دراسات في القرآن، السيد أحمد خليل صـ ١٢٩.



الميزان لصحة القرآن، ولا غرابة أن يقوم هو بهذا العمل لأنه نشأ في بيئة تعتبر الدين خرافة، ولا يطابق العلم -بالمنطق السابق-، ولكن ليس من الطبيعي أن يمارس المسلمون هذا العمل بحجة إقناع غير المسلمين أو أي حجة أخرى.

ونظراً لتداول هذا المصطلح المركب (التفسير العلمي للقرآن الكريم) في الأوساط العلمية الشرعية، والندوات والمؤتمرات العالمية، وشيوعه بين المسلمين، بل كتب التفسير وكتب علوم القرآن الحديثة، حتى اعتبر من أطوار التفسير في العصر الحديث؛ لذلك كله آثرت أن أبقى على استخدام هذا المصطلح مع التوصية بالآتي:

- العمل على تطهير الوسط الثقافي والعلمي في المدارس والمناهج في البلاد الإسلامية والعربية من مفهوم العلم المقتصر على الماديات والمفروض علينا، وإعادة المصطلح الحقيقي للعلم في الإسلام على النحو الذي تقدم.

- أن نبين بشكل متكرر مستمر أن ما نسميه (التفسير العلمي للقرآن) إنما هو منهج من مناهج تفسير القرآن، أو اتجاه من اتجاهاته، له جذوره في التاريخ الإسلامي، وهو يبحث في جزء من العلوم الإسلامية، ويراد به بيان سعة دلالة ألفاظ كلام الله تعالى واحتوائها لشتى المعارف المستجدة لكل الأجيال إلى يوم القيامة، فهي ذات دلالة حضارية لا تنقضي عجائبها، والله أعلم.

تعريف التفسير العلمي:

وبما أن هذا المصطلح مستحدث كما تقدم، فإنَّا لا نجد في كتب المتقدمين تعريفاً له، وإنما كان مشتملاً في إطار تعريف التفسير العام، فكل التعاريف التي سأذكرها إنما هي من القرن الرابع عشر الهجري إلى وقتنا اليوم مما وصل الباحث إليه، وإن التتبع الزمني لظهور تعريف التفسير العلمي في العصر الحديث يخدم كثيراً في ملاحظة تطور هذا الاتجاه من التفسير للقرآن الكريم، ويساعد في تحرير محل النزاع بين المؤيدين والمعارضين له.

ولعل أقدم ما يمكن الوقوف عليه من تعريفات التفسير العلمي هو أنه: (التفسير الذي يحكّم الاصطلاحات العلمية في عبارات القرآن، ويجتهد في استخراج مختلف العلوم و والآراء الفلسفية منها)، كان هذا تعريف الأستاذ أمين الخولي[1]، ثم تابعه عليه جماعة من العلماء[2]، ويقاربهم بهذا التعريف ما ذهب إليه أحد

---

(١) نقله عنه د.أحمد عمر أبو حجر في كتابه التفسير العلمي في الميزان صـ ٦٥ .عن: التفسير معالم حياته منهجه اليوم صـ ١٩-٢٠، وأمين الخولي (١٣١٣ - ١٣٨٥ هـ، ١٨٩٥ - ١٩٦٦م) من أعضاء المجمع اللغوي بمصر. ولد في مصر وتعلم بالازهر تخرج بمدرسة القضاء الشرعي. وتقلد مناصب عدة ثم أحيل إلى المعاش ومثل مصر في عدة مؤتمرات،وتوفي بالقاهرة، وله العديد من المؤلفات منها: مالك بن أنس ثلاثة أجزاء، والمجددون في الاسلام، مشكلات حياتنا اللغوية انظر: الأعلام للزركلي ٢/ ١٦.ط دار العلم للملايين الخامسة ١٩٨٠م.

(٢) كالشيخ محمد حسين الذهبي في التفسير والمفسرون ٢/ ٤٧٤، ود. محمد السيد البنداري في بحثه: التفسير العلمي للقرآن وموقف العلماء منه، مجلة كلية الشريعة وأصول الدين بالقصيم/ جامعة الإمام محمد بن سعود، العدد(٣) ١٤٠٤،١٤٠٣هـ صـ ٥٧، ود.محمد أحمد خلف الله=



المعاصرين بأنه: (تحكيم مصطلحات العلوم في فهم القرآن، والربط بين الآيات الكريمة ومكتشفات العلوم التجريبية والفلكية والفلسفية).[1]

وبما أن هذا التعريف كان ممن يعارض هذا الاتجاه من التفسير في الأغلب، فقد وجه إليهم انتقادان هما[2]:

١- فيه عبارات يفهم منها التحامل على هذا اللون من التفسير، لأنه يخضع عبارات القرآن للنظريات العلمية المتغيرة، وعلى ذلك يمكن أن يقال: إن كل من يعرفه بهذا الشكل إنما يعرفه من وجهة نظره المانعة لهذا الاتجاه.

٢- هذا التعريف لا يدل على الصورة التي يريدها القائلون بمشروعية هذا التفسير، فهم لا يعترفون بأنهم (يحكمون) أو يتوخون إخضاع عبارات القرآن

= في موسوعة الحضارة العربية الإسلامية ٢/ ١٦٦،ط المؤسسة العربية للدراسات والنشر أولى ١٩٨٦.

(١) لمحات في علوم القرآن واتجاهات التفسير، د. محمد بن لطفي الصباغ صـ١٩٣، ط المكتب الإسلامي الثالثة ١٤١٠، ولم يخرج عن ذلك تعريف دعبد المجيد المحتسب في توصيفه لهذا الاتجاه بأنه: (التفسير الذي يتوخى أصحابه إخضاع عبارات القرآن للنظريات والاصطلاحات العلمية وبذل أقصى الجهد في استخراج مختلف مسائل العلوم والآراء الفلسفية) التفسير في العصر الراهن د. عبد المجيد المحتسب صـ٣١٤ ط مكتبة النهضة الإسلامية الأردن ثالثة ١٤٠٠هـ والحقيقة أنه لا يمكننا أن نعتبر هذا تعريفاً له للتفسير العلمي وإنما ذكره المؤلف وصفاً لواقع الحال، وما كان عليه العمل في التفسير العلمي في وقته ولذلك فإنه ذكر وصفه تحت عنوان (موقفنا من هذه القضية)، لا كما جعله الدكتور أحمد عمر أبو حجر تعريفاً منه للتفسير العلمي صـ٦٥ من التفسير العلمي في الميزان والله أعلم.

(٢) انظر: التفسير العلمي صـ٦٦.



للنظريات والاصطلاحات العلمية.. وإنما يقصدون خدمة القرآن ببيان وجه من وجوه الإعجاز فيه.

ثم إن هذا التعبير: (يحكّم)، أو ما يرادفها؛ (يوحي بأن الآية المراد تفسيرها لها معنى آخر غير المعنى العلمي الذي يراد منها أن تدل عليه، وهذا وإن صدق على بعض التفسير المتمحل والشطحات العلمية؛ فإنه لا ينطبق على البعض الآخر).[1]

وبالجملة نلخص القول بأن هذا التعريف إنما يقول به المعارضون لهذا الاتجاه من التفسير، وينطلقون منه لنقض التفسير العلمي، أضف إلى ذلك أن هذا التعريف جعل النظريات والاصطلاحات البشرية الحكَمَ على كتاب الله تعالى، ولكن لا نستطيع أن ننكر وجود هذا الأسلوب المغالي في تفسير القرآن مما أعطى صورة عملية لهؤلاء العلماء في تعريف التفسير العلمي.

ثم أخذ تعريف التفسير العلمي اتجاهاً آخر، وأبدأ بالتعريف الذي اعتمده شيخنا الدكتور نور الدين عتر فقال: (هو التفسير الذي يجتهد في استخراج مختلف العلوم والآراء الفلسفية من القرآن).[2]

فهو اعتبر هذا الاتجاه من التفسير نوعاً من أنواع الاستنباط والاجتهاد، وأخذ القسم الثاني من التعريفين السابقين الصحيح.

---

(١) اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، د. فهد الرومي ٢/ ٥٤٩ ط إدارة البحوث العلمية السعودية أولى ١٤٠٧، نقله عن د. عبد الله الأهدل في رسالته الماجستير بعنوان التفسير العلمي للقرآن صـ ١٥.

(٢) علوم القرآن الكريم د نور الدين عتر صـ ١١٤ ط دار الخير أولى ١٤١٤.



وانتقد بعضهم كون التفسير العلمي: (يجتهد في استخراج مختلف العلوم والآراء الفلسفية)، فقال: (والذي أعتقده أن التفسير العلمي بمعناه المعروف لا يشمل إيراد الآراء الفلسفية، كما لا يعم مختلف العلوم، بل في أنواع معينة منها كالطب والرياضيات والفلك وعلم الحيوان والنبات والكيمياء وعلم طبقات الأرض ونحو ذلك من العلوم التجريبية، فلا يشمل مختلف العلوم على إطلاقها).(١)

أقول: إن التعريف ذكر (مختلف العلوم)، وليس (كل العلوم)، وما ذكره المنتقد هو من العلوم المختلفة الأنواع، وإن لم يكن التفسير العلمي في الواقع العملي شاملاً مختلف العلوم كما ذكر، ولم يكن يُعنى بالمسائل الفلسفية أيضاً في بداية الأمر، إلا أننا نجده اليوم قد توسع أكثر من ذي قبل في مختلف العلوم ووجدنا كتباً تعنى بالمسائل الفلسفية والنفسية في القرآن الكريم والله أعلم.

بينما اعتمد الدكتور أحمد عمر أبو حجر تعريف التفسير العلمي بأنه: (التفسير الذي يحاول المفسر فهم عبارات القرآن في ضوء ما أثبته العلم والكشف عن سر من أسرار إعجازه من حيث إنه تتضمن هذه المعلومات العلمية الدقيقة التي لم يكن يعرفها البشر وقت نزول القرآن فدل ذلك على أنه ليس من كلام البشر ولكنه من عند الله خالق القوى والقدر).(٢)

وعرفه الشيخ الزنداني بأنه: (الكشف عن معاني الآية أو الحديث في ضوء ما ترجمت صحته من نظريات العلوم الكونية).(٣)

---

(١) اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر د فهد الرومي ٢/ ٥٤٩.

(٢) التفسير العلمي في الميزان صـ ٦٦.

(٣) تأصيل الإعجاز العلمي، بحث: المعجزة العلمية في القرآن والسنة، الشيخ عبد المجيد الزنداني صـ ٣٣.



وقد عرفته هيئة الإعجاز العلمي بأنه: (توظيف كل المعارف المتاحة للإنسان في كل عصر من العصور وفي مختلف مجالات الدراسات العلمية، البحثية منها والتطبيقية، في حسن فهم دلالات الآية القرآنية).[1]

وبمثل هذا التعريف عرفه الدكتور زغلول النجار بأنه: (توظيف كل المعارف المتاحة لحسن فهم دلالة الآية القرآنية، وهذه المعارف قد تكون حقائق وقوانين كما قد تكون فروضاً ونظريات).[2]

وعرفه الدكتور عبد الحفيظ حداد بأنه: (تأويل النصوص على وفق المنهج الشرعي الأصولي بضوابطه وقواعده بشكل يتناسب مع حقائق العلم مما يزيد وضوح معاني النص كما يكشف الصلة بين معاني النصوص ومكتشفات العلوم التجريبية من خلال ثبوت الشواهد الكونية المؤكدة لصحة الوارد في النص).[3]

---

(١) وهذا التعريف جاء في جواب على سؤال وجه إليها على موقعها على الأنترنت: aleijaz.net، ونحو تعريف الهيئة عرفه الدكتور عبد الله الأهدل بأنه: (تفسير الآيات الكونية الواردة في القرآن على ضوء معطيات العلم الحديث بغض النظر عن صوابه وخطئه، ليشمل التفسير الصحيح والتفسير الخاطئ) في رسالته الماجستير: التفسير العلمي للقرآن الكريم، صـ ١٥ نقلته عنه من كتاب اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر لـ د. فهد الرومي ٢/ ٥٤٩.

(٢) من آيات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم د. زغلول النجار تقديم أحمد فرج ١/ ٣٥ ط مكتبة الشروق الدولية، الثالثة ٢٠٠٢ م.

(٣) الإعجاز العلمي تاريخه وضوابطه د. عبد الحفيظ حداد صـ ٨٤ مكتوب بالآلة الحاسوب وحصلت على النسخة من المؤلف د. عبد الحفيظ جزاه الله خيراً.



بينما عرفه الدكتور فهد الرومي بأنه: (اجتهاد المفسر في كشف الصلة بين آيات القرآن الكريم الكونية ومكتشفات العلم التجريبي على وجه يظهر به إعجاز للقرآن يدل على مصدره وصلاحيته لكل زمان ومكان).(١)

ويرى الدكتور عبد الأمير كاظم أن التفسير العلمي: (اتجاه يتناول النص القرآني من خلال منظور المكتشف العلمي التجريبي أو يرده إلى أصل قرآني).(٢)

ثم ذكر أنه يريد بالاتجاه: (قواعد منهجية تتولد منها مجموعة معارف، وأريد بالمكتشف العلمي التجريبي: نتائج التجارب التطبيقية للعلوم المتعددة كالفلك والفيزياء والكيمياء وعلوم الحياة والرياضيات وأنه إما مبين للنص من خلال المعرفة الإنسانية لهذه التخصصات، أو رادّ لهذا الإنجاز العلمي إلى إشارة قرآنية).(٣)

ويرى أحدهم: (أن التفسير العلمي هو توظيف المعارف العلمية المتاحة للوصول إلى معنى أوضح ودقيق للآيات القرآنية التي تتحدث عن ذلك النوع من العلوم).(٤)

لا غرابة في وجود التعاريف الكثيرة لهذا الاتجاه من التفسير وعدم استقرار مصطلحه، لكونه ظهر في وضع غير صحي في الوسط الإسلامي، ولكننا نجد تطوراً ملحوظاً في التعبير عنه في محاولة ضبط مسيرته ورسم حدوده.

---

(١) اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر د. فهد الرومي ٢/ ٥٤٩.

(٢) الاتجاه العلمي في تفسير القرآن الكريم قراءة في المنهج، د. عبد الأمير كاظم، مجلة المنهج الثقافية، تصدر باللغة العربية عن مؤسسة دائرة معارف الفقه الإسلامي طبقاً لمذهب أهل البيت على موقع: www.shahrodi.com

(٣) المصدر السابق.

(٤) د.سليمان بن علي الشعيلي على موقع المجرة:
/www.almajara.com/forums/showthread.php



وبالنظر إلى مجمل ما مر من التعريفات السابقة نجد الآتي:

١- كل التعاريف تؤكد -بشكل مباشر أو مفهوم- على دلالة القرآن الكريم، وأن هذا اللون من التفسير إنما هو بيان للقرآن، أي إنه يوسع من مدلول النص القرآني في فكر المسلم لينطلق في آفاق جديدة فيتعرف على عجائب القرآن التي لا تنقضي.

٢- إن التفسير العلمي هو نوع من الاجتهاد البشري، أي إن المفسر يجتهد في توظيف المعارف التجريبية المتاحة لخدمة تفسير القرآن وبيان علومه.

٣- بعض التعاريف وجهت التفسير العلمي لإيجاد الرابط بين المكتشفات التجريبية الجديدة وبين القرآن الكريم وفق المنهج الشرعي والأصولي، مما يفهم أن هذه العلوم لا بد من ردها إلى القرآن الكريم، وهذا مما يؤخذ عليهم في التعريف، لأن إيجاد الرابط أمر متكلف، لا يخلو من تعسف أو تجاوز في الدلالة، كما وصف د. الصباغ التفسير العلمي بأنه يعتمد على: (التوسع في مدلول الكلمات والآيات القرآنية والاستيحاء من الكلمة منقطعة عن سياقها في الآية أحياناً، والاعتماد على الإشارات من هنا ومن هناك أحياناً أخرى..).[1]

وهذا صحيح بالنظر لأعمال المشتغلين في هذا الاتجاه بتخبط دون انضباط أو تكلف وتمحل، هذا مع العلم أن تكلف الربط بين أنواع العلوم والقرآن؛ ليس من وظائف المفسر الواجبة، والله أعلم.

---

(١) لمحات في علوم القرآن واتجاهات التفسير محمد بن لطفي الصباغ صـ ١٩٣، وقد صرح الدكتور الصباغ صـ ٢٩٤ أن هذا الاتجاه من التفسير (غير سديد وذلك لأن العلم في قلق وتغيير دائم وتطور مستمر وينقص اليوم ما أقره أمس...) ا.هـ.



بينما بعضها الآخر جعلت القرآن أصلاً يستنبط منه مختلف العلوم، ثم تسخر المستجدات العلمية لتوضيح دلالة القرآن عليها، وهذا أسلم في عمل المفسر على أن لا يتخذ المستجدات العلمية مرجعاً أصلاً لهذا الاستنباط.

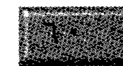
٤- بعض التعاريف شرطت استخدام ما ثبتت صحته فقط من العلوم التجريبية في تفسير القرآن، بينما توسع آخرون فلم يشترطوا ذلك، ولعل اشتراط ذلك يوضح لنا واقع التفسير العلمي عندهم.

٥- حددت بعض التعاريف التفسيرَ العلمي في الآيات الكونية فقط، -كتعريف د. الرومي- أما باقي التعريفات لم تحدد التفسير العلمي في (الآيات الكونية) بل عممت الأمر على جميع الآيات القرآنية.

والصحيح هو التعميم؛ ليشمل كل آية تدل على إشارة تتحدث عن المظاهر الكونية، بما في ذلك الأحكام الشرعية؛ لأن الله أحل الطيبات وحرم الخبائث، فكيف للبشرية أن تدرك نوع الخبائث فيما حرم الله إذا لم تبحث فيه مع وجود السعة لذلك، اللهم إلا إذا كان المحرم من الأمور التعبدية، التي لا يمكن أن يعقلها الإنسان، والله أعلم.

٦- يسعى التفسير العلمي إلى فهم القرآن الكريم فهماً سليماً، وزادت بعض التعاريف: تقوية إيمان المسلمين وإظهار الإعجاز للدلالة على أن هذا القرآن من عند الله تعالى، وأنه صالح لكل زمان ومكان، وهذا من ثمار التفسير العلمي فالأولى أن لا يدرج في التعريف، والله أعلم.

٧- لم يتضح في أكثر التعاريف السابقة الفرق بين التفسير العلمي والإعجاز العلمي، بل نجد الخلط الواضح بينهما فيها، ويظهر ذلك بالتدقيق في تعريف د. عمر أبو حجر، وتعريف الدكتور فهد الرومي والتعريف الأخير.



وهذا الهدف أو المقصد من التفسير العلمي -وهو إظهار إعجاز القرآن- لا ينبغي إدراجه في التعريف؛ حتى لا يخلط القارئ بين التفسير العلمي والإعجاز العلمي.

● **رأي الباحث في تعريف التفسير العلمي:**

لو أردنا تعريف التفسير العلمي للقرآن على طريقة التعاريف الإضافية الوصفية، لدخل في هذا التعريف كل أنواع التفسير بالمأثور والرأي، وما في معناهما استناداً إلى أن مفهوم العلم في الإسلام عام وشامل.

ولكن أضحى هذا المركب الوصفي علماً لطريقة حديثة في التفسير، ترجح أن يعطى هذا الاصطلاح (التفسير العلمي للقرآن) تعريفاً خاصاً يعبر عن الطريقة السليمة له؛ فكل تعريف من التعاريف السابقة ينطبق عليه القول إنه تعبير عن المنهج الذي يرتضيه صاحب التعريف للتفسير العلمي.

ويرى الباحث أن تعريف التفسير العلمي للقرآن ينبغي أن يستند بالدرجة الأولى إلى تعريف التفسير اصطلاحاً، ثم تخصيصه بالمعنى المراد له ومنه، لأن هذا اللون من التفسير لا يعدو أن يكون اتجاهاً من علم التفسير، وكذلك ينبغي أن يشمل التعريف على الطريقة التي مشى عليها السلف الصالح في التفسير، والطريقة التي انتهجها المتقدمون في هذا اللون من التفسير كالغزالي والرازي وغيرهما، أي إننا وجدنا في تاريخ التفسير العلمي الصحابة والتابعين يستنبطون أنواعاً من العلوم من القرآن الكريم، ثم تطور الأمر إلى تسخير العلوم المستجدة في تفسير القرآن، ثم اختلف الأمر إلى عملية تكلف مغالٍ في التفسير العلمي.

والأمر الأخير مرفوض لمجانبته القواعد العلمية وخروجه بالنص القرآني عن مراده، أما الأمران الأوليان فلا تأباه القواعد الأصولية الشرعية والفطرة العلمية.





وقد سبق أن اعتمدت في تعريف التفسير أنه: (**علم يبحث فيه عن بيان القرآن الكريم، واستخراج أحكامه وحكمه وعلومه بقدر الطاقة البشرية**).

فالأصل في التفسير اجتهاد المفسر في بيان كلام الله تعالى واستخراج أحكامه وعلومه وفق القواعد الأصولية المعروفة في التفسير، وهذه القواعد والأصول هي المصطلح عليها بلفظ (العلم) في التعريف، ولما كان التفسير العلمي هو جزء من علم التفسير؛ فإن الباحث يرى تعريف التفسير العلمي بأنه: (**بيان معاني القرآن الكريم باستنباط مختلف العلوم الكونية والنفسية والعقلية، أو بتوظيف العلوم التطبيقية والبحثية والمعارف التجريبية الصحيحة بقدر الطاقة البشرية وفق القواعد الشرعية المقررة**).

شرح التعريف:

(**بيان معاني القرآن**): قيد أول في التعريف؛ يستند إلى معنى التفسير لغة واصطلاحاً، أي: إظهار وكشف المعاني التي تضمنها نظم القرآن الكريم، لأن المعاني إنما هي محمولة، والنظم حامل لها، ويدخل في هذا البيان توسيع مدلولات القرآن الكريم لأن عجائب القرآن لا تنقضي.

وشمل التعريف كل القرآن حتى بما فيه من آيات الأحكام التي يمكن استخراج علوم كونية من خلال معرفة حكمة التشريع أو حكمة التحريم، والله أعلم.

(**باستنباط مختلف العلوم الكونية والنفسية والعقلية**): قيد ثان في التعريف، يراد به ذكر القسم الأول من البيان المذكور في التعريف، والباء في قولي: (باستنباط) للملابسة، أي: إن بيان القرآن متلبسٌ باستنباط هذه العلوم، والتعبير بالعلوم الكونية والنفسية

والعقلية؛ ليخرج بذلك استنباط الأحكام الشرعية والعقدية، ويدخل تحت هذا المسمى علم النفس وعلم الاجتماع وطرق الرد على آراء الفلاسفة المنحرفة (علم الجدل) ونحو ذلك، والله أعلم.

(أو بتوظيف العلوم التطبيقية والبحثية والتجريبية الصحيحة المتاحة): قيد ثالث يراد به ذكر القسم الثاني من البيان المذكور في التعريف.

و(أو) هنا للتنويع وليست للتشكيك، وهي تفيد أيضاً الجمع بين الأمرين أي بين استنباط مختلف العلوم وتوظيف العلوم في بيان القرآن؛ ليكون التعريف متضمناً لطريقة ثالثة متضمنة للطريقتين في التفسير العلمي للقرآن الكريم، كأن نستنبط من الآية معلومة من العلوم التي ذكرت في التعريف، ثم نفسر هذا ونداـل عليه من خلال توظيف العلوم التطبيقية والبحثية والتجريبية.

وأما قول الباحث في التعريف **(الصحيحة المتاحة)** قيد لكل ما تقدمها من أنواع العلوم التطبيقية أو البحثية أو التجريبية، وتحتملها الدلالة القرآنية.

والمراد بالصحيحة أي التي يغلب على الظن صحتها، ويدخل فيها الحقائق العلمية الثابتة من باب أولى، ويخرج بهذا القيد النظريات التي ما زالت في طور الملاحظة والشك والفرضية، وسيأتي الكلام موسعاً في موقف المفسر من النظريات في الضوابط إن شاء الله، ولكن مما ينبغي لفت النظر إليه أن أمر الصحة في النظريات أو المعلومات أمر نسبي يختلف من عصر إلى عصر فما كان في عصر صحيحاً قد يصبح في زمن آخر حقيقة وقد يبقى على درجته من الصحة وقد يتبين خطأه.



ولذلك كان لا بد من ذكر الباحث في التعريف (**بقدر الطاقة البشرية**)، لأن الاجتهاد في التفسير العلمي للقرآن يكون من الباحث في العلوم التطبيقية والتجريبية، ومن الباحث في العلوم التفسيرية، والاجتهاد حاصل أيضاً في كيفية توظيف هذه العلوم التطبيقية والتجريبية في بيان كلام الله تعالى، وكل هذه الاجتهادات تدخل تحت نوع الخطأ أو الصواب؛ لأنها من عمل البشر.

وبتجدد الاجتهاد في التفسير ومتابعة المستجدات العلمية؛ يتجدد فهم القرآن وتتوسع دلالته، فالقرآن العظيم (جم المدارك، عميق الدلالات، يبلغ العقل الإنساني المتفهم منها ما تسعفه طاقته العلمية والثقافية التي بلغها عصره بما يدبر أمر الأمة في شتى مناحي حياتها وبما يمسك عليها كيانها ويمهد أمامها سبيل التقدم والازدهار.. وقد جرى على لسان السلف الصالح قولهم: (إنك لن تفقه كل الفقه حتى ترى للقرآن وجوهاً) ليحمل النص القرآني اجتهاداً بالرأي إبان تطبيقه على الوجه الذي يحقق للأمة مصالحها الجدية الحقيقية المعتبرة، مما يكون للخبرة العلمية مكان في تقويمها شريطة أن لا يكون ذلك النص قد استكره النص القرآني على حمله عليه).[1]

ولذلك قيدت هذا الاجتهاد في التعريف بقولي: (**وفق القواعد الشرعية**): وهو قيد آخر لتخصيص معنى الطاقة البشرية المرادة في التعريف بأنها المتأهلة لهذا العمل، العاملة بمقتضى القواعد العلمية الشرعية المتعارف عليها بين العلماء في أصول الفقه

---

(١) منهج الإمام الطبري د. الدريني صـ ١٥. مجلة التراث العربي. والأثر الذي ذكره عن السلف الصالح أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى ٢/ ١١٤ تحقيق إحسان عباس ط دار صادر أولى ١٩٨٨، وهو في الإتقان ١/ ١٧٤.

وقواعد التفسير، فلا يجوز لغير من تأهل لهذا العلم أن يقحم نفسه فيه، كما لا يجوز لمختص أن يخرق هذه القواعد بدعوى المعاصرة، وهذا القيد يقلل كثيراً من نسبة الخطأ في الاجتهاد.

موازنة بين التعريف الذي اختاره الباحث وبين التعريفات السابقة له:

تميز التعريف الذي اختاره الباحث عن باقي التعريفات السابقة بالآتي:

١- إن هذا التعريف اصطلاح خاص للتفسير العلمي للقرآن الكريم، استند إلى اللغة وتعريف التفسير اصطلاحاً بشكل عام، وإلى الدراسة التاريخية لمراحل التفسير العلمي ومناهج المفسرين المتقدمين فيه[1]، ودرج فيه الباحث على اعتبار القيود والمحترزات دون الخلط بينه وبين الإعجاز العلمي.

٢- إنه تضمن المعاني السليمة لتعريفات التفسير العلمي السابقة وتحرز عن الثغرات التي فيها، وعبر عن التفسير العلمي -حسب رأي الباحث- بما ينبغي أن يكون، لا بما هو تحت الأمر الواقع.

٣- بيّن التعريف أن ما نسميه اليوم (التفسير العلمي للقرآن الكريم) إنما هو طريقة في التفسير، وليس علماً مستقلاً خارجاً عن علم التفسير العام.

٤- قسم التعريف التفسير العلمي للقرآن إلى نوعين أساسيين:

- **أحدهما**: استخراج العلوم (استنباطها) من القرآن.

---

(١) صحيح أن تاريخ التفسير سيأتي فيما بعد، إلا أنه من حيث الدراسة العملية تقدم على تعريف التفسير العلمي، إذ قام الباحث بدراسة تفصيلية في تتبع ملامح هذا الاتجاه وبدايته ومناهجه إلى العصر الحديث وعليه قام التعريف والحمد لله.

➢ **والثاني**: توظيف مختلف العلوم في تفسير القرآن؛ على أساس أن كل هذه العلوم خادمة للقرآن الكريم داخلة في علومه.

٥- بين التعريف أن التفسير العلمي اجتهاد بشري، وهو اجتهاد قابل للخطأ والصواب؛ ينبغي أن ينضبط بالقواعد العلمية المقررة في أصول الفقه وعلم التفسير.

أما ثمرة هذا العلم: فهي تحقيق التفسير للقرآن الكريم في ضوء ما يتعلق به من معارف، والوصول إلى نوع من أنواع الإعجاز في القرآن الكريم.



المبحث الثالث:

التفسير بالرأي والتفسير العلمي.

تعريف التفسير بالرأي:

يستخدم الرأي **لغةً** بمعنى العقل والتدبير، وكذلك يستخدم بمعنى الظن، والمذهب، فتقول: والذي أُراه -بالبناء للمفعول- بمعنى الذي أظن، وأراه -بالبناء للفاعل- بمعنى الذي أذهب إليه.[1]

والظن والمذهب:

هما أثر إعمال العقل والفكر في شيء؛ استناداً لمعطيات وقرائن معلومة لدى العاقل المتدبر، ويعبر عن هذا الإعمال العقلي أيضاً بالدراية.

والتفسير بالرأي هو التفسير بالدراية، (ويقصد به: التفسير المبني على أساس النظر والاستدلال العقلي والاستنباط الذي هو منطلق الاجتهاد وإبداء الرأي).[2]

وأطلق عليه بعضهم التفسير العقلي وعرفه بأنه:

(يعتمد على الفهم العميق والمركز لمعاني الألفاظ القرآنية بعد إدراك مدلول العبارات القرآنية التي تنتظم في سلكها تلك الألفاظ وفهم دلالاتها).[3]

---

(١) انظر المصباح المنير ١/ ٣٣٦، ٣٣٧.

(٢) التفسير بالرأي قواعده وضوابطه وأعلامه، د. محمد حمد زغلول صـ١٠٧ ط مكتبة الفارابي، أولى ١٤٢٠هـ.

(٣) أصول التفسير وقواعده، خالد عبد الرحمن العك، ط دار النفائس ثالثة ١٤١٤هـ، صـ١٦٧.



بينما يقتصر بعضهم على تعريفه بأنـه: (تفـسير القـرآن بالاجتهـاد)[1]، وضـبط هـذا الاجتهاد تعريفٌ آخر: وهو: (تفسير القرآن بالاجتهاد اعتماداً على الأدوات التي يحتـاج إليها المفسر).[2]

ومهما يكن من أمر اختلاف الألفاظ والمصطلحات؛ فإن جميع التعاريف تتفـق عـلى مضمون واحـد، وكـذلك عـلى آليـة هـذا النـوع مـن التفـسير وهـي العقـل، فـالنظر والاستدلال العقلي وإعـمال الفكـر في مـدلولات الـنص القـرآني في الـسياق والأفـراد إنما هو اجتهـاد في فهـم النـصوص القرآنيـة اسـتناداً عـلى الأصـول العلميـة المعروفـة لدى العلماء.

وقد حفلت كتب علوم القرآن بـآراء وأدلـة المجيـزين والمـانعين للتفـسير بـالرأي، ولكن الناظر في هذا الاختلاف يجده اختلافاً لفظياً؛ مردّه إلى معنى الرأي المراد بالأدلـة الواردة فيه، ويُعرف ذلك مـن شروط تفـسير القـرآن وشروط المفـسر، ولـذلك قـسم العلماء التفسيرَ بالرأي إلى قسمين:[3]

➢ **أحدهما: التفسير المذموم والمردود:** وهو الذي لا يجري على قوانين العربيـة، أو لا يوافق الأدلة الشرعية، أو لم تستوف شروط التفسير، وإنما هـو التفـسير بمجـرد الهـوى ونصرة النفس، وعليه تحمل الأدلة الشرعية المانعة لهذا التفسير وكـذلك يحمـل مـا ورد

---

(١) دراسات في علوم القرآن د. فهد الرومي صـ١٦٠ ط الرياض الثانية عشر ٢٠٠٣.

(٢) علوم القرآن الكريم، د. نور الدين عتر صـ ٨٥.

(٣) انظر علوم القرآن د. عتر صـ ٨٧، أصول التفسير للعك صـ ١٧١، التفسير بـالرأي د. زغلـول صـ ١١٤، دراسات في علوم القرآن د. فهد صـ ١٦٠.

من الآثار في منعه كأثر ابن مسعود[1] ﷺ: (ستجدون أقواماً يدعونكم إلى كتاب الله، وقد نبذوه وراء ظهورهم، فعليكم بالعلم، وإياكم والتبدع، وإياكم والتنطع)[2].

وقال عمر بن الخطاب[3] ﷺ:

(إنما أخاف عليكم رجلين: رجل يتأول القرآن على غير تأويله، ورجل ينافس الملك على أخيه).[4]

قال ابن تيمية[5]:

(فهذه الآثار الصحيحة عن السلف، وما شاكلها؛ محمولة على تحرجهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم به، فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعاً؛ فلا حرج

---

(١) عبد الله بن مسعود بن غافل الصحابي المفسر الفقيه المجتهد أحد السابقين إلى الإسلام هاجر الهجرتين وشهد بدراً صاحب الصوت الندي وحدث الكثير. انظر: الإصابة ٢/ ٣٦٨ ط دار صادر، الرياض المستطابة يحيى بن أبي بكر العامري صـ١٨٥ تحقيق عمر الراوي ط دار الفيحاء الثالثة.

(٢) أخرجه الدارمي في سننه في المقدمة، باب من هاب الفتيا رقم (٤٣) تحقيق د. مصطفى البغا ط دار القلم أولى ١٩٩١.

(٣) عمر بن الخطاب بن نفيل أمير المؤمنين من العشرة المبشرين بالجنة ومن فقهاء الصحابة، صلى القبلتين وشهد المشاهد كلها توفي الرسول صلى الله عليه وسلم وهو راض عنه استشهد رضي الله عنه ٢٣هـ. انظر: الإصابة ٢/ ٥١٨، الرياض المستطابة صـ١٤٧.

(٤) ذكره أيضاً في مناهل العرفان ٢/ ٥٩.

(٥) أحمد بن عبد الحليم بن تيمية مجد الدين الإمام العلامة الحافظ شيخ الإسلام الدمشقي له العديد من التصانيف في التفسير وعلومه والعقيدة والحديث والفقه ت ٧٢٨هـ. انظر: الدرر الكامنة ١/ ١٤٤.



عليه، ولهذا روي عن هؤلاء وغيرهم أقوال في التفسير، ولا منافاة ؛ لأنهم تكلموا فيما علموه، وسكتوا عما جهلوه، وهذا هو الواجب على كل أحد).[1]

➢ **الثاني: التفسير المحمود المقبول:** وهو الذي يجري على كلام العرب ويراعي شروط التفسير وموافقته للأصول الشرعية والقواعد الكلية،وعليه تحمل الأدلة الشرعية المجيزة لهذا النوع من التفسير وكذلك ما ورد من الآثار في قبوله ومدحه والحض عليه.

● **الفرق بين التفسير العلمي للقرآن والتفسير بالرأي:**

لا يخرج التفسير العلمي للقرآن عن أحد هذين النوعين السابقين في التفسير بالرأي، لأن المفسر يجتهد في دلالة الآية على العلوم المستنبطة منها، ويجتهد في توظيف معارف عصره؛ لشرح هذه الدلالة وبيان مجملها وتوضيح مبهمها وتخصيص عمومها وغير ذلك، ومما يؤكد دخول التفسير العلمي في التفسير بالرأي: عمل المتقدمين من المفسرين كالغزالي والرازي[2] وغيرهما ممن سأتعرض لذكرهم في تاريخ التفسير العلمي، ولا خلاف بين العلماء في أن تفسير الرازي مثلاً مصنف عند العلماء ضمن التفاسير بالرأي المحمود، وكذلك عمل السيوطي رحمه الله في الإتقان، فإنه عنون للنوع الخامس والستين من علوم القرآن بقوله[3]: (في العلوم المستنبطة من القرآن)، فقوله: (المستنبطة) بيان للاجتهاد في استخراج مختلف العلوم من القرآن والاستدلال عليها.

---

(١) مقدمة في التفسير، لابن تيمية، تحقيق عدنان زرزور ط الرسالة الثانية ١٩٧٢، صـ ١٤٤.

(٢) ستأتي ترجمتها صـ١١٦، وصـ ١١٩ من البحث.

(٣) الإتقان ٢/ ١٢٥، من ذلك كتاب الإكليل في استنباط التنزيل. انظر: صـ ١٢٦ من البحث.



فالتفسير العلمي للقرآن هو تفسير استدلالي نظري، تشترك فيه عدة عوامل اجتهادية، فإن كانت هذه الاجتهادات من المفسر تجري على كلام العرب، وتوافق مناحيهم في القول ولا تخالفه، وتراعي شروط التفسير وتنضبط بقواعد التفسير وضوابط التفسير العلمي، وصادرة من عالم بالتفسير بالتعاون مع عالم في العلم المستنبط المستَدَل عليه من القرآن فإنه مقبول، ولكن لا يعني قبوله صحته في نفس الأمر، بل هو موضع دراسة ومناقشة وقابل للصواب والخطأ.

أما إن كان التفسير لاوياً لدلالة النص عن وجهتها، أو متعلقاً بأهداب وهمية تلوح في الأفق كسراب بقيعة يحسبها المفسر شيئاً؛ فيلهث وراءها ليظهر السبق والجديد بحماس وانفعال، دون مراعاة لشروط وقواعد التفسير ومخالفاً لقواعد اللغة العربية والقواعد العلمية المنهجية، أو كان المفسر ليس من أهل الاختصاص في التفسير أو لا يملك أدوات التفسير، وليس من أهل العلم المستنبط، وإنما مبلغ علمه الجرائد أو مقالات لا يُعلم مَن وراءها، فهذا التفسير المذموم المردود، ويدخل أيضاً في عموم النهي الوارد في الأدلة كقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[الأعراف: ٣٣]

وحديث النبي صلى الله عليه وسلم: «من قال في القرآن برأيه فليتبوّأ مقعده من النار».[1]

---

(١) أخرجه الترمذي في التفسير: باب ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه(٢٩٥١) و(٢٩٥٢) وحسنه.



وحديث النبي صلى الله عليه وسلم: «من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ».[1]

ولهذا السبب اخترت في التعريف عدم جواز توظيف النظريات التي ما زالت في طور التصورات والشك والحدس غير المؤكد، ولم يغلب على الظن العلمي صحتها، لأن الشك بصحتها أشبه بعدم وجودها، فإدخالها في التفسير أشبه بالقول في القرآن بالهوى أو الرأي المجرد بغير دليل، والله أعلم.

(١) أخرجه أبو داود في العلم باب الكلام في كتاب الله بغير علم (٣٦٥٢)، والترمذي في التفسير: الباب السابق (٢٩٥٣) وقال الترمذي: حديث غريب.





المبحث الرابع:

التأويل والتفسير العلمي.

تقدم أن الراجح لدى الباحث في تعريف التأويل أنه: بيان ما يرجع إليه معنى القرآن بمقتضى القواعد والنظر الدقيق.

● **وأما تعريف التفسير العلمي:**

بيان معاني القرآن باستنباط مختلف العلوم الكونية والنفسية والعقلية، أو بتوظيف العلوم التطبيقية والبحثية والمعارف التجريبية الصحيحة المتاحة بقدر الطاقة البشرية وفق القواعد الشرعية المقررة.

وبذلك نجد من خلال مقارنة تعريف التفسير العلمي مع تعريف التأويل أن التفسير العلمي يدخل في التأويل من جهة توسيع مدلولات النص القرآني، من حيث (صرف الآية إلى ما تحتمله من المعاني)[1]، بشرط أن يكون هذا التوسيع له دليل معتبر يؤيده وفق القواعد الشرعية.

أما إن كان التأويل يأخذ معنى الإخبار عن حقيقة المراد من الآية؛ فلا أحد من المفسرين يزعم أن ما ذهب إليه من التأويل هو حقيقة مراد الله تعالى مع احتمال المعاني الأخرى التي تدل عليها الآية، وكذلك لا يجوز لأحد من المشتغلين في التفسير العلمي أن يزعم أن ما ذهب إليه من الاستنباط أو بيان معنى الآية على العلم المعني هو حقيقة المراد، إذ لو كان حقيقة مراد الله تعالى لانقطع بذلك الاختلاف في التفسير وصارت

---

(١) هذا اقتباس من قول السيوطي في معرض كلامه عن أصل معنى التأويل، كما في كتابه الإتقان ٢/ ١٧٣.



المعاني الأخرى لا قيمة لها، كما أن التأويل والتفسير العلمي كلاهما اجتهاد، ويدخل في التفسير بالرأي.

ويمكن أن يُتوسع في الفرق بين التأويل والتفسير العلمي باعتبار تعدد تعريفات التأويل واختلاف كل واحد منها مع التفسير، ويشمل هذا الفرق التفسير العلمي أيضاً لأن الأخير هو من التفسير، ولكن التعريف الذي اعتمده الباحث لا يُظهر الفرق الجوهري الكبير بينهما؛ وبذلك لا يكون هناك فرق جوهري بين التأويل والتفسير العلمي، والله أعلم.



الفصل الثاني

الإعجاز العلمي في القرآن الكريم

- المبحث الأول: تعريف الإعجاز والمعجزة
- المبحث الثاني: تعريف الإعجاز العلمي في القرآن الكريم
- المبحث الثالث: التفسير العلمي والإعجاز العلمي



المبحث الأول:

تعريف الإعجاز والمعجزة.

● **عجز لغة:**[1]

(ع ج ز) هذه المادة لها دلالات متقاربة نلخص أهمها بالآتي:

تستعمل في أصل وضعها بمعنى التأخر عن الشيء.

وبمعنى: الحاصل عند انتهاء آخر الأمر من بيان عدم القدرة على فعل شيء، ثم صار متعارفاً عند إطلاق (عجز) - على وزن ضرب - أن المراد: القصور عن فعل شيء ما وهو ضد القدرة، وهذا المعنى ورد في كتاب الله تعالى: ﴿قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ﴾ [المائدة:٣١].

ويستخدم أيضاً بمعنى الفوت والسبق، يقال: أعجزني فلان، أي: فاتني.

ويستعمل في تحقيق نسبة العجز للآخر، تقول: هرب زيد فعاجز الناس، أي: هرب فلم يقدر عليه، فجعل الآخرين في ضعف عن إدراكه.

ويتعدى بالهمز والتضعيف، فتقول: أعجزت زيداً، أي: رأيته عاجزاً، أو جعلته عاجزاً، وعجزت زيداً، أي: نسبت له العجز وجعلته عاجزاً.

---

(١) انظر: مادة (عجز) في ترتيب القاموس ٣/ ١٦٠، المفردات للراغب صـ ٣٢٥، أساس البلاغة للزمخشري صـ ٢٩٤ تحقيق عبد الرحيم محمود، ط دار المعرفة بيروت ١٤٠٢هـ، لسان العرب (عجز)، المصباح المنير ٢/ ٥٣٧.

تعريف الإعجاز اصطلاحاً:

التدرج التاريخي لاستعمال كلمة الإعجاز:

إن لفظ (الإعجاز)، في قولنا: (إعجاز القرآن)، ولفظ (المعجزة) في قولنا: (معجزة الأنبياء)، كلاهما لفظ محدث مولَّد؛ لا نجدهما في كتاب الله تعالى، ولا في حديث نبوي شريف - ولكن أصل مادة (عجز) ومشتقاتها فيهما-، ولم يستخدما أيضاً في كلام الصحابة أو التابعين ومن بعدهم -على المعنى المتعارف عليه- إلى أن انقضى القرن الأول والثاني من الهجرة النبوية.[1]

وإنما كان يستخدم في تلك العصور ما يرادف معنى المعجزة أو الإعجاز المعهود لدينا، كـ: الآية، أو الحجة، أو الدليل أو البينة أو البرهان أو ما شابهها[2]، ثم ظهر لفظ (الإعجاز) فجأة -على خفاء- في كلام أهل القرن الثالث الهجري، ثم استفاض استفاضة ظاهرة في القرن الرابع وما بعده إلى يومنا هذا[3]، إذ صار جزءً من الدراسة الأصلية لعلوم القرآن وقسم النبوات من العقيدة.

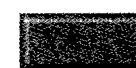
ويظهر أن استخدام هذا اللفظ كانت بدايته على ألسنة أقلام المعتزلة، فأول كتاب حمل عنوانه كلمة (إعجاز) هو: (إعجاز القرآن) لمحمد بن يزيد الواسطي المعتزلي

---

(١) انظر: مداخل إعجاز القرآن، المدخل الأول: تاريخ حيرني ثم اهتديت، محمود محمد شاكر صـ١٩، ط: مطبعة المدني مصر الأولى ١٤٢٣هـ، ومباحث في علوم القرآن د. مصطفى مسلم صـ١٧، ط دار القلم دمشق.

(٢) انظر: فكرة إعجاز القرآن منذ البعثة النبوية حتى عصرنا الحاضر مع نقد وتعليق صـ٧، تأليف نعيم الحمصي، تقديم أ. بهجت البيطار، ط. مؤسسة الرسالة، الثانية ١٤٠٠ هـ.

(٣) انظر مداخل إعجاز القرآن صـ٢٠، فكرة إعجاز القرآن صـ٧، ٨.



(ت ٣٠٧ هـ)[١]، فمن الواضح أنه ألف في أواخر القرن الثالث من الهجرة، أو في مطلع القرن الرابع، ووردت فيه كلمة (معجزة) في بحث مسألة النبوة وقضية الإعجاز.[٢]

ثم صار لفظ (الإعجاز والمعجزة) يستخدمان على اعتبارهما مصطلحاً متعارفاً عليهما، ثم نتيجة للجدل الكلامي في أمور العقيدة بعد ظهور المعتزلة خاصة؛ تعارف العلماء على معنى اصطلاحي لهما يرجعون إليه.

---

(١) فكرة إعجاز القرآن صـ٧ ، مداخل إعجاز القرآن صـ ٢٨ ، وإعجاز القرآن الكريم والبلاغة النبوية صـ ١٥٢، لمحمد صادق الرافعي ط دار الكتاب العربي ١٤١٠هـ.

وقد أرجع الشيخ محمود شاكر توليد لفظ الإعجاز إلى الواسطي هذا، وكذلك ذهب أحمد صقر في مقدمة تحقيقه لإعجاز القرآن للباقلاني صـ١٠ط دار المعارف مصر ثالثة، وبين الرافعي أن عبد القاهر الجرجاني شرح كتاب الواسطي شرحاً كبيراً في كتابه المعتضد وشرحاً آخر أصغر منه، وذهب كما ذهب الشيخ شاكر إلى أن الواسطي بنى كتابه هذا على كتاب نظم القرآن للجاحظ.

ومحمد بن يزيد بن علي بن الحين الواسطي أبو عبد الله المعتزلي، من كبار علماء الكلام، أخذ عن أبي علي الجبائي، من آثاره (إعجاز القرآن في نظمه وتأليفه) توفي سنة ٣٠٧ هـ.

انظر: لسان الميزان لابن حجر ٥/ ١٧٢ط حيدر آباد١٣٣١هـ. طبقات المفسرين للداودي ٢/ ١٤٨، الفهرست لابن النديم صـ٢١٨ط مطبعة الاستقامة مصر د.ت. وهذه التسمية في اسمه هي الصواب، وذكره الداودي باسم محمد بن زيد فليحرر.

(٢) فكرة إعجاز القرآن صـ٨، وذكر الأستاذ نعيم الحمصي أن الإمام أحمد بن حنبل ت ٢٤١ هـ استعمل كلمة (معجزة) مقابل كلمة كرامة ولكنه لم يبين المصدر.



وأقدم تلك التعريفات ما قاله الباقلاني (ت ٤٠٣هـ)[١] أن المعجزة: (هي أفعال الله تعالى الخارقة للعادة المطابقة لدعوى الأنبياء وتحديهم الأمم بالإتيان بمثل ذلك).[٢]

وعرفها الإمام عبد القاهر البغدادي (٤٢٩هـ)[٣] على طريقة المتكلمين: (ظهور أمر خلاف العادة في دار التكليف لإظهار صدق ذي نبوة من الأنبياء أو ذي كرامة من الأولياء مع نكول من يتحدى به عن معارضة مثله).[٤]

أما الإمام أبو المعالي الجويني (٤٧٨ هـ)[٥]، وتلميذه الإمام الغزالي (٥٠٥ هـ)

---

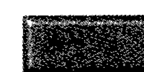
(١) محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر، أبو بكر الباقلاني القاضي الإمام الثقة البارع مضرب المثل بالفهم والذكاء من أكبر علماء العقيدة والكلام صنف في الرد على المعتزلة والكرامية والجهمية وله الإنصاف في العقيدة وإعجاز القرآن، ت ٤٠٣ هـ. انظر: سير أعلام النبلاء ١٧/ ١٩٠، الأعلام ٦/ ١٧٦.

(٢) الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به، أبو بكر الباقلاني صـ ٦١ ت محمد زاهد الكوثري ط دار الهجرة ثالثة ١٤٠٠هـ.

(٣) عبدالقاهر بن طاهر بن محمد بن عبد الله البغدادي التميمي الاسفراييني، أبو منصور: إمام جليل عظيم القدر من أئمة الاصول. كان صدر الاسلام في عصره كان يدرس في سبعة عشر فناً، ت ٤٢٩هـ، من تصانيفه أصول الدين والناسخ والمنسوخ وتفسير القرآن. انظر: طبقات المفسرين للداودي ١/ ٣٣٣، معجم المفسرين لنويهض ١/ ٢٩٤.

(٤) أصول الدين أبو منصور البغدادي صـ ١٧٠ ط مدرسة الإلهيات استنبول ١٩٢٨م.

(٥) عبد الملك بن عبد الله بن يوسف إمام الحرمين الإمام الفقيه الأصولي المفسر المشهور صاحب التصانيف الكثيرة من أشهرها الإرشاد في العقيدة وتفسير القرآن ونهاية الطلب في دراية المذهب. انظر ترجمته: وفيات الأعيان لابن خلكان٣/ ١٦٧ تحقيق إحسان عباس ط دار صادر بيروت أولى ١٩٧١م، سير أعلام النبلاء ١٨/ ٤٦٨، معجم المفسرين لنويهض ١/ ٣٣٣.



فحاصل تعريفهما للمعجزة هو أنها فعل لله تعالى، خارق للعادة مقروناً بدعوى ذلك الشخص المدعي للرسالة[1]، واشترط الجويني للمعجزة التحدي كسابقيه، أما الغزالي فلم يجعل التحدي شرطاً في المعجزة، وكذلك فعل الباجوري (ت١٢٧٧ هـ)[2]، إذ قال في تعريفها: (الأمور الخارقة للعادة الظاهرة على يده صلى الله عليه وسلم سواء كانت مقرونة بالتحدي أم لا).[3]

ثم استقر التعريف على أن المعجزة أمر خارق للعادة، مقرون بالتحدي مع عدم المعارضة، فصار كل من يتكلم بالمعجزة أو الإعجاز يذكر هذا التعريف.[4]

(١) انظر: الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد عبد الملك الجويني من صـ ٢٦٠، إلى صـ ٢٦٦، تحقيق أسعد تميم ط مؤسسة الكتب الثقافية بيروت ١٤٠٥ هـ. الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي صـ١٢٢ ط دار الكتب العلمية ١٤٠٩هـ، وانظر: إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين ٢/ ٢٠٣ ط دار إحياء التراث ١٩٩٤.

(٢) إبراهيم بن محمد بن أحمد الباجوري: شيخ الجامع الازهر. من فقهاء الشافعية ونسبته إلى باجور من قرى المنوفية بمصر له العديد من المؤلفات والحواشي في العقيدة والأصول والفقه والمنطق وغيرها ت ١٢٧٧هـ، انظر: حلية البشر، عبد الرزاق البيطار تحقيق محمد بهجة البيطار ١/ ٧ ط مجمع اللغة العربية دمشق ١٩٦١، الأعلام للزركلي ١/ ٧١.

(٣) شرح جوهرة التوحيد لإبراهيم الباجوري صـ١٣٨ ط دار الكتب العلمية أولى ١٩٨٣.

(٤) انظر شرح جوهرة التوحيد (إتحاف المريد بجوهرة التوحيد) للشيخ عبد السلام بن إبراهيم اللقاني ت سنة ١٠٧٨ صـ ١٨٩، وصار هذا التعريف هو المعول عليه في دراسة الإعجاز في مختلف الأبحاث انظر مثلاً: دراسات في علوم القرآن الكريم، د. فهد الرومي صـ٢٥٧ ط الرياض ١٤٢٤هـ، ومباحث في إعجاز القرآن د. مصطفى مسلم صـ ١٨، ط دار القلم أولى ١٤٢٠، وحقيقة الإعجاز في القرآن الكريم، د. بديع السيد اللحام، مجلة كلية الدعوة =



وأما التحدي فهو: المجاراة والمغالبة، وأما المراد منه: فهو ربط الدعوى بالمعجز عند دعوى النبوة[1]؛ أي أن يفعل النبي فعلاً ثم يطالب الخصم ببذل جهده في معارضته والإتيان بمثله، والنبي على يقين أن الخصم غير قادر على مثل هذا الفعل لأنه خارج عن قدرتهم.

ولا ريب أن التحدي بهذا المعنى هو كـ (المعجزة)؛ مولد محدث، لم يكن متعارفاً عليه في القرن الأول والثاني وصدر الثالث[2]، بل: إن المعنى العرفي عند علماء الكلام لا يتطابق مع المعنى الذي نصت عليه اللغة، إلا إن قلنا هو مجاز موسع، ولا ندري متى جاء ولا كيف جاء.[3]

يقول محمود شاكر[4] رحمه الله: (ولفظ التحدي وضعه المتكلمون واصطلحوا عليه

= الإسلامية العدد الثاني عشر صـ ١٩٣، والإعجاز العلمي في القرآن والسنة تاريخه وضوابطه د. عبدالله المصلح صـ ١٢، و١٨ .ط هيئة الإعجاز العلمي ١٤١٧ هـ.

(١) انظر: إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين محمد بن مرتضى الزبيدي، ط: دار إحياء التراث العربي ١٩٩٤م: ٢/ ٢٠٣.

(٢) انظر: مداخل إعجاز القرآن صـ ٢٠.

(٣) انظر: المصدر السابق، ويذكر الشيخ محمود شاكر رحمه الله أن أقدم ما وقف عليه من ذكر التحدي بهذا المعنى المحدث هو كلام أبي عثمان الجاحظ المعتزلي (٢٥٥ هـ) ولاسيما في رسالته (حجج النبوة) التي كتبها بعد وفاة أبي إسحاق النظام سنة (٢٣١هـ) بزمان انظر: مداخل إعجاز القرآن صـ ٢٢.

(٤) محمود محمد شاكر أبو فهر العلامة المحقق المنظر الأديب الناقد ولد سنة ١٣٢٣هـ، ١٩٠٩م، تولى عدة مناصب وناضل وكافح في التحرير والجهر بالحق والذب عن الدين والعربية توفي ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م وله الكثير من التحقيقات والتصانيف كأسمار وأباطيل والمتنبي استفدت ترجمته من مواقع متعددة من الأنترنت.

لتصوير موقف مشركي العرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم حين تلا عليهم القرآن وجاهرهم بأنه كلام الله يوحى به إليه، وأنه هو وحده الدليل على أنه نبي الله أرسله إليهم).[1]

ولذلك يرى الباحث أن الأولى اعتماد تعريف الغزالي والباجوري، أي: عدم اشتراط التحدي في تعريف المعجزة، والله أعلم.[2]

---

(١) مداخل إعجاز القرآن صـ ٢٩. هذا مع التنبيه على أن القرآن دليل أساسي وليس وحيداً على رسالة النبي صلى الله عليه وسلم.

(٢) ولعل الغزالي والباجوري رحمهما الله لم يشترطا وجود التحدي في المعجزة؛ لأن هذا الاشتراط غير مطابق لواقع الحال مما ورد في السيرة النبوية، أو ما ورد في قصص النبيين في القرآن الكريم، فلا خلاف في أن ما ظهر من فعل الله تعالى على يد وعصا سيدنا موسى عند النار -مثلاً- هو معجزة، وأن موضع صدور هذه المعجزات لم يقابله تحد من فرعون، بل لم يتم لقاؤه بفرعون لتبليغ الرسالة بعد، وأما في السيرة النبوية فأمثلة كثيرة كنبع الماء من بين أصابعه صلى الله عليه وآله وسلم، وحنين الجذع له صلى الله عليه وسلم، وإخباره في غزوة الخندق عن فتح بلاد فارس والروم.. وغير ذلك فإنه لم يقابله تحدٍ من المشركين أو من المنافقين في المدينة المنورة، انظر: مباحث في إعجاز القرآن د. مصطفى مسلم صـ ٢٠ كيف اعتبر التحدي أساساً في المعجزة وتأمل بالمقارنة مع ما ذكر هنا.



تعريف إعجاز القرآن:

ويقول المرتضى الزبيدي[1] في الإتحاف: (وحقيقة الإعجاز: إثبات العجز فاستعير لإظهاره ثم أسند مجازاً إلى ما هو سبب للعجز، ثم جعل اسماً له، فقيل: معجزة، والتاء فيه للنقل من الوصفية إلى الاسمية كما في الحقيقة، أو للمبالغة كما في العلَّامة).[2]

لقد كان المراد بمركب (إعجاز القرآن) قبل الاصطلاح عليه من قبل المتكلمين: بيان صفة المشركين حين طولبوا بالإتيان بمثل هذا القرآن ولو بسورة مثله، فانقضت السنون ولم يفعلوا، فلما لم يفعلوا على مضي السنين فقد ظهر منهم العجز؛ فكان الإعجاز القرآني على ما مر شَيْأَيْنِ:

- **أحدهما**: ضعف القدرة الإنسانية في محاولة التأليف ومزاولته على شدة الإنسان واتصال عنايته.

- **الثاني**: استمرار هذا الضعف على تراخي الزمن وتقدمه.[3]

ثم كثر الجدل الكلامي في استخراج مصطلح (إعجاز القرآن)، ولكن لم يلبثوا طويلاً حتى خرجوا عن حيز الموقف الذي لأجله ولِّد مركب (إعجاز القرآن)؛ فنقلوا المركب من حيز ذلك الموقف إلى اصطلاح تعارفوا عليه بما سبق بيانه في تعريف المعجزة.[4]

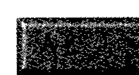
---

(١) محمد بن محمد الواسطي العراقي أصلاً الهندي مولداً علامة الحديث واللغة والرجال والأنساب نادرة الدنيا في عصره ت (١٢٠٥هـ)، له من المؤلفات تاج العروس شرح القاموس وإتحاف السادة المتقين شرح إحياء علوم الدين انظر: حلية البشر ٣/ ١٤٩٢، الأعلام ٧/ ٧٠.

(٢) إتحاف السادة المتقين الزبيدي ٢/ ٢٠٣.

(٣) انظر: إعجاز القرآن للرافعي صـ ١٣٩، ومداخل إعجاز القرآن صـ ٣١.

(٤) انظر: إعجاز القرآن للرافعي صـ ١٤١، ومداخل إعجاز القرآن محمود شاكر صـ ٣٤،٣٥.



ولم تخل الساحة العلمية من محاولة توضيح أو تعريف (إعجاز القرآن)، ولكن بقيت محاولتهم في إطار تعريف المعجزة عند المتكلمين، ومن ذلك ما نقل في تعريف إعجاز القرآن أنه: (يتعذر على المتقدمين في الفصاحة فعل مثله في القدر الذي اختص به).[1]

وقد عرف الشيخ الصابوني إعجاز القرآن بقوله: (إثبات عجز البشر - متفرقين ومجتمعين - عن الإتيان بمثله).[2]

وعرفه الدكتور فهد الرومي فقال:

(هو عجز المخاطبين بالقرآن وقت نزوله ومن بعدهم إلى يوم القيامة عن الإتيان بمثل هذا القرآن مع تمكنهم من البيان وتملكهم لأسباب الفصاحة وتوفر الدواعي واستمرار البواعث).[3]

وعرفه الدكتور عبد الحفيظ حداد بما هو أقرب لمعنى تعريف الدكتور الرومي، فقال: (ثبوت الغلبة لجهة المتحدي بسبب عجز الطرف الآخر عن الاقتدار بفعل مضمون التحدي على جهة المعارضة)[4]، وحبذا لو أضاف في آخره (إلى يوم القيامة).

---

(١) نقله د. فهد الرومي في دراسات في علوم القرآن صـ ٢٦٣ عن الهمذاني.

(٢) التبيان في علوم القرآن، محمد علي الصابوني صـ ١٣٨. ط دار القلم الثالثة، ثم شرح تعريفه فقال: (وليس المقصود من إعجاز القرآن هو تعجيز البشر لذات التعجيز..، وإنما الغرض: إظهار أن هذا الكتاب حق وأن الرسول الذي جاء به رسولٌ صادق، وهكذا سائر معجزات الأنبياء الكرام التي يعجز البشر عنها..).

(٣) دراسات في علوم القرآن، د. فهد الرومي صـ ٢٦٣.

(٤) الإعجاز العلمي ضوابطه وتاريخه، د. عبد الحفيظ حداد صـ ٨٤.



ويرى الباحث أن هذه التعاريف لم تضبط الإعجاز بالمعنى المراد منه، (فورود كلمة «عَجْز» في تعاريف الإعجاز غلط عظيم، لأنه لا يصح ورود لفظ المعرَّف في تعريفه ولا مادته وإلا لزم عليه الدور).[1]

إنَّ تعريف الإعجاز القرآني لا بد أن يرجع للأصل الذي نشأ فيه كما مر، وهو **ضعف المخاطبين في محاولة معارضة القرآن ،على شدة الإنسان واتصال عنايته، واستمرار هذا الضعف على تراخي الزمن وتقدمه مع وجود التحدي إلى يوم القيامة.**

والمراد بـ (المخاطبين): الإنس والجن؛ لأنهم مرادون بهذا التحدي، قال تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨].

---

(١) ما بين (..) من تعليق فضيلة المشرف أ.د. نور الدين عتر –حفظه الله تعالى-.





المبحث الثاني:

تعريف الإعجاز العلمي في القرآن الكريم.

● مدخل للتعريف:

لئن كان (إعجاز القرآن) مركب مستحدث مولد قد أخذ جدلاً واسعاً في ظهوره واصطلاحه؛ فإن الإعجاز العلمي مركب معاصر مستحدث من مركب مولد.

والحق أنه لن يسلم لنا هذا المصطلح المركب (الإعجاز العلمي في القرآن الكريم) لو أننا استعرنا مفهوم المعجزة الذي اصطلح عليه المتكلمون وأضفنا إليه العلم، ذلك لأن التحدي الذي يشترط في المعجزة -وإن كان حاصلاً في معجزة القرآن البلاغية في النظم والتأليف- لكنه متنازع عليه في العلوم التي يحويها القرآن الكريم هل وقع التحدي فيها أيضاً أم لا ؟.

ولست بصدد تحقيق هذه المسألة، ولكن لما درسنا مفهوم (إعجاز القرآن) لاحظنا في تعريفه الحال التي وضع فيها هذا اللفظ، ليتضح لنا أطوار تطور مفهوم إعجاز القرآن مع تطور الأبحاث والجدل الكلامي في القضايا العقدية مع الفلاسفة والعقلانيين[1]، ولذلك حتى أحدد مفهوم (الإعجاز العلمي) في القرآن الكريم فإني **لا أجيز لنفسي أن أخرج عن أمرين:**

---

(١) وقد عاب الأستاذ محمود شاكر والأديب صادق الرافعي ما فعله المتكلمون من تشقيق الكلام وكثرة الجدال حتى أخرجوا (إعجاز القرآن) من وصفه الذي وضع له إلى حيز جدلي متكلف، انظر: إعجاز القرآن للرافعي صـ ١٣٩ إلى ١٤١، ومداخل إعجاز القرآن لشاكر صـ ٣١ وما بعد.



➢ **أحدهما**: مراعاة الحال التي وضع فيها هذا المركب (الإعجاز العلمي في القرآن).

➢ **الثاني**: مراعاة الأصل اللغوي للفظ (الإعجاز).

فأما مراعاة الحال: فلأنه قد شاع مركب (الإعجاز العلمي في القرآن) في الأوساط الثقافية الإسلامية والعالمية في بدايات القرن الرابع عشر الهجري ـ القرن العشرين الميلادي ـ إثر ظروف مضطربة علمياً وسياسياً، وتداول الناس مضمونه في المؤتمرات والمحافل العلمية، ومنهم من يستخدمه على دراية ومعرفة بمراده منه، وكثير منهم لا يفرق بينه وبين التفسير العلمي؛ فكان أشبه بحاطب الليل، لذلك كان لابد من استعراض التعريفات التي قُيِّدت في هذا المجال.

وأما مراعاة الأصل اللغوي: فلأن هذا المركب اختصاص علمي شرعي، ولا يجوز أن يخرج الاصطلاح العلمي الشرعي عن الأصل اللغوي، وقد جرت سنة العلماء على ذلك من قرون لضبط المسيرة العلمية كي لا يعبث الدخلاء في المصطلحات الإسلامية، خاصة أننا نرى هذا العبث موجود في مؤلفات وسمت بالإعجاز العلمي في القرآن الكريم.

● **تعريفات الإعجاز العلمي:**

اختلفت عبارات العلماء في تحديد مفهوم للإعجاز العلمي، فالشيخ محمد الغزالي المصري ذهب إلى أنه: (يعني أن القرآن اكتشف كنه شيءٍ ما ، كان الناس لا يستطيعون أبداً أن يعرفوه في حينه..).[1]

---

(١) كيف نتعامل مع القرآن ، محمد الغزالي ، دراسة أجراها عمر عبيد حسنة صـ ١٣٩ ، ط المعهد العالمي للفكر الإسلامي دار الوفا، الثالثة ١٤١٣ هـ.

بينما يعرفه آخر بأنه يعني: (اشتماله على التعرض لبعض أسرار الخليقة ورموز عالم الكون مما لا يكاد يهتدي إليه عقل البشر في ذلك العصر).[1]

وذهب ثلة من العلماء إلى أن الإعجاز العلمي هو: (إخبار القرآن الكريم أو السنة النبوية بحقيقة أثبتها العلم التجريبي وثبت عدم إمكانية إدراكها بالوسائل البشرية في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم وهذا مما يظهر صدق الرسول صلى الله عليه وسلم فيما أخبر به عن ربه سبحانه).[2]

وانتقد شيخنا الدكتور نور الدين عتر حفظه الله هذا التعريف فقال: (ونرى أن أمر المعجزة العلمية أوسع مما ذكروه، وأنه يشمل دائرة أكبر، فنقول: الإعجاز العلمي: هو موافقة القرآن الكريم أو السنة النبوية لحقائق العلم التجريبي الحديث).[3]

---

(١) مدخل التفسير، محمد الفاضل اللنكراني صـ ٧٩ ، ط مكتب الإعلام الإسلامي، إيران، الثانية ١٤١٣.

(٢) وهو تعريف الشيخ عبد المجيد الزنداني في بحث بعنوان: المعجزة العلمية في القرآن والسنة ضمن كتاب تأصيل الإعجاز العلمي في القرآن والسنة صـ ١٧ ط هيئة الإعجاز العلمي للقرآن والسنة ١٤٢١هـ ، والدكتور عبد الله المصلح في الإعجاز العلمي في القرآن والسنة تاريخه وضوابطه صـ ١٨، والدكتور وهبة الزحيلي في تقديمه لكتاب إعجاز علم الحياة (البيولوجيا) في القرآن الكريم لمحمود يحيى الخطيب صـ ٥ نشر المؤلف ط أولى ١٤٢٢ هـ ، ود. راتب النابلسي في موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة صـ ١٩، ط دار المكتبي، أولى ١٤٢٥.

(٣) فكر المسلم وتحديات الألفية الثالثة ، د. نور الدين عتر صـ ١٦٦، وقد عرضت على شيخنا الدكتور المشرف تعريفه أثناء مرافقتي له في سفره إلى حلب في شتاء ١٤٢٥ هـ ،هذا وبعد مناقشته أمرني أن أقيد رجوعه عن قيد (العلم التجريبي الحديث) ليشمل حقائق العلوم كلها التطبيقية والتجريبية وغيرها.



واعتمدت هيئة الإعجاز العلمي للقرآن والسنة تعريف الإعجاز العلمي بأنه: (يعني تأكيد الكشوف العلمية الحديثة الثابتة والمستقرة للحقائق الواردة في القرآن الكريم والسنة المطهرة بأدلة تفيد القطع واليقين باتفاق المختصين)، وجعلت شرط اليقين فيما ظهر من العلوم التجريبية لا بد منه.[1]

وذهب الدكتور زغلول النجار مذهباً آخر في تعريف الإعجاز العلمي إذ قال: (فالإعجاز العلمي يقصد به هنا: إثبات سبق القرآن الكريم بالإشارة إلى حقيقة من حقائق الكون أو تفسير ظاهرة من ظواهره قبل وصول العلم المكتسب إليها بعدد متطاول من القرون).[2]

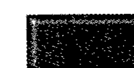
وفي محاولة لأحد الباحثين في تقعيد الإعجاز العلمي؛ ذكر تعريفه فقال: (وفي مصطلحنا: الإعجاز العلمي في القرآن والسنة هو استخراج معان من بعض نصوص الكتاب والسنة صريحة في دلالتها، مطابقة لحقائق علمية غير مدركة قد اكتشفت بعد عهد الرسالة).[3]

---

(١) تأصيل الإعجاز العلمي صـ ١١٠ في توصيات المؤتمر العالمي الأول للإعجاز العلمي الذي عقد في باكستان في إسلام آباد ٢٥ – ٢٨ صفر ١٤٠٨.

(٢) السماء في القرآن الكريم، د زغلول النجار صـ ٧٢ وانظر أيضاً صـ٣١، ط دار المعرفة بيروت أولى ١٤٢٥ هـ، وانظر: نحو هذا التعريف في: المفهوم العلمي للجبال في القرآن الكريم، د. زغلول النجار صـ ١٠، ط مكتبة الشروق الدولية أولى ١٤٢٣ هـ.

(٣) بحث لـ كريم الأغر في تعريف الإعجاز العلمي في القرآن والسنة والأسس التي يرتكز عليها، مكتوب على الحاسوب غير مطبوع صـ ٦، استفدته من الأستاذ الدكتور بديع السيد اللحام حفظه الله.



وذهب آخر إلى أن الإعجاز العلمي: (أمر خارق لما توصل إليه العلم الوضعي من مفاهيم ونتائج).(١)

وقد عرفه أحدهم بقوله:(أنه الحقائق العلمية التي اكتشفها الإنسان حديثا بما مكنه الله من علم، وقد سبق القرآن في الحديث عنها قبل أكثر من عشرة قرون).(٢)

نظرة عامة فيما مر من التعريفات:

بعد هذا العرض لمجموعة من تعريفات الإعجاز العلمي، وتباين عباراتها في رسم مفهوم الإعجاز العلمي؛ لا بد من القول: إن اقتران ظهور هذا المصطلح مع عصر المبارزة العلمية مع الغرب، في محاولة تقرير احتواء القرآن على مبادئ العلوم وسبقه إليها، وعدم التعارض بين العلم والدين، واختلاف المناهج المعبرة عن ذلك؛ كل ذلك كان سبباً مقبولاً لتبرير عدم استقرار هذا المصطلح، ولذلك نجد التعريفات السابقة لا تخلوا من مقال، بل اعترى بعضها عدم الوضوح وركاكة التعبير كالتعريف الأخير.

ونلخص الكلام فيها بالآتي:

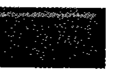
بعض التعاريف لم تميز بين التفسير العلمي والإعجاز العلمي، كتعريف الشيخ محمد الغزالي المصري، كما أن عبارته -أن القرآن اكتشف كنه شيء ما- لا تعبر عن المراد بفصاحة عربية اعتدناها من الشيخ رحمه الله، ومثل هذا المأخذ أيضاً يؤخذ على من

---

(١) من الإعجاز العلمي في القرآن الكريم في ضوء الدراسات الجغرافية الفلكية والطبيعية، د. حسن أبو العينين ١/ ١٩، ط مكتبة العبيكان أولى ١٤١٦ هـ.

(٢) د. سليمان بن علي الشعيلي على رابط الأنترنت:

http://www.almajara.com/forums/showthread.php





عرف الإعجاز العلمي بأنه استخراج معان من بعض نصوص الكتاب والسنة، فاستخراج المعاني يكون في التفسير لا في تقرير الإعجاز العلمي.

ومما يؤخذ على بعض هذه التعاريف إدخالها ثمرة الإعجاز العلمي في التعريف.

بعض التعاريف لم تراع الأصل اللغوي للإعجاز؛ فعرفت الإعجاز بمعان لا تتصل والدلالات اللغوية للكلمة، كمن عرفه **باشتمال** القرآن على التعرض لبعض أسرار الخليقة، أو **تأكيد الكشوفات** العلمية الحديثة للحقائق الواردة في القرآن، **أو موافقة** القرآن الكريم والسنة النبوية لحقائق العلم؛ أو **إخبار القرآن الكريم** بحقيقة أثبتها العلم، وإذا أردنا أن نجعل (التأكيد والاشتمال والتعرض والإخبار والموافقة) داخلة في معنى الإعجاز توسيعاً في الدلالة أو من قبيل المجاز، فلا حاجة مبررة تبيح لنا ذلك، إذ يمكننا أن نجد مفهوماً علمياً خاصاً لهذا المركب لا يخرج عن المعنى اللغوي، ولا تكون فيه العلوم المستقرة حجة في صحة معاني القرآن.

ولعل تعريف الدكتور زغلول كان أقرب للواقع العملي لأبحاث الإعجاز العلمي، إلا أن فيه ثلاثة انتقادات:

- **أحدها**: إن (إثبات السبق) هي محاولة المفسر في بيان معاني القرآن، وكيفية الاستدلال على العلوم في القرآن الكريم، وهذا يدخل في التفسير العلمي، بينما الإعجاز في الواقع هو نفس السبق واستقراره.

- **الثاني**: إن تفسير الظواهر الكونية ليس من وظائف الآيات التي أشارت لظواهر كونية أو علمية، وإنما لتصحيح تصور الإنسان، وفتح الأفق، وتفتيق مدارك العقل لينطلق بحثاً واستدلالاً، ويتعرف بالكونيات على الخالق.



- **الثالث**: أنّ التعبير عن السبق بالإشارة حصر لدلالة القرآن على العلوم بدلالة الإشارة وهو تضييق في الاستنباط، والله أعلم.

● **ولا بد من الأخذ بالاعتبار عند تعريف الإعجاز العلمي في القرآن الكريم عدة أمور:**

- **أحدها**: الطريق المؤدي إلى الإعجاز، وهو التفسير العلمي فلا ندخله في تعريف الإعجاز العلمي.

- **ثانياً**: إن الإعجاز المقصود بالتعريف، هو نتيجة التفسير العلمي.

- **ثالثاً**: المقصود من الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، وهو ما عبر عنه بعض معرفي الإعجاز العلمي بقولهم: (مما يظهر ويؤكد صدقه صلى الله عليه وسلم فيما أخبر به عن ربه سبحانه وتعالى). فلا ندخله في التعريف.

● **رأي الباحث في تعريف الإعجاز العلمي:**

بالنظر إلى مشتملات التعاريف السابقة، نجد أنها متفقة على المقصود بالعلم في مركب (الإعجاز العلمي) أنه: الحقائق المستقرة المتفق عليها بين المختصين، غير القابلة للنقض أو التغيير أو الجدل. وبالنظر إلى معاني مادة (عجز) في اللغة؛ نجد من معانيها السبق في الشيء بحيث لا يستطيع أحد اللحاق به؛ وبذلك يرى الباحث أن تعريف الإعجاز العلمي هو: (**سبق القرآن الكريم بزمن بعيد في الدلالة إلى حقائق في شتى مناحي العلم قبل اكتشاف العلم لها واستقراره على اعتمادها**)، والله أعلم.

فقولي: (**سبق القرآن الكريم**): قيد لبيان أن المراد بالإعجاز هنا معنى مخصوصاً، وهذا القيد مستفاد من المعنى اللغوي، ويتوافق مع مقصد المنهج العملي لمن يشتغل بالإعجاز العلمي.



فإن قيل:

ما الفرق بين قولنا: (إخبار)، وقولنا: (سبق) فكلاهما يؤديان المعنى نفسه؟

فالجواب:

إن مراعاة الدلالة اللغوية لـ (الإعجاز) واجبة، والإخبار ليس من معانيها، وكلمة الإخبار تفهم التصريح بالمعلومة في العبارة والمعنى، وهذا لا يسلَّم له في القرآن الكريم، فإن أكثر ما قيل فيه إعجاز علمي -إن لم نقل كله- إنما هو من قبيل إشارة النص أو مفهوم النص، فأطوار الجنين -مثلاً- قد أخبر الله بمراحلها الأساسية العامة، وأما بعض تفاصيلها استفدناها من دلالة النص، كما أن معنى السبق يدل على الإخبار ضمناً؛ فهو إذن حامل لمعناه، بخلاف الإخبار فلا يدل على السبق.

فإن قيل:

إن تقييد تعريف الإعجاز العلمي في القرآن بالسبق ليس احترازياً؛ ذلك لأن هذا السبق قد يكون متحققاً في غير القرآن كالتوراة والإنجيل؟.

أقول:

إن الإجابة على هذا الاعتراض بالآتي:

- ثبت في التحقيق العلمي التاريخي والتجريبي أن التوراة والإنجيل محرف ومخالف للواقع العلمي، وبسط الكلام في ذلك ليس محله هنا، ولعل ما كتبه الدكتور موريس بوكاي عن التوراة والإنجيل بالمقارنة مع العلم وما كتبه في كتابه الآخر (أصل الإنسان) دليلاً كافياً في هذا، إضافة لما هو موجود حول مصداقية هذين الكتابين في كتاب إظهار الحق.

➢ على مدعي هذا الكلام ومورد هذا الاعتراض أن يعطي أمثلة على هذه الدعوى موثقة ومبينة، فهل يجد في غير القرآن الدلالة على أطوار خلق الإنسان مبينة كما هي في القرآن، وكيفية تولد اللبن، وكيفية نزول المطر بأسبابه، والدلالة على حركة الكون وصفات الجبال وحياة النحل والقوة الشفائية لما يخرج من بطونها، وغير ذلك من الدلائل النفسية والكونية.

➢ لقد حاول أصحاب التوراة والإنجيل أن يثبتوا مثل ذلك لكتابهم فما استطاعوا، فكيف لنا أن نثبت لهم ذلك!

وقولي: **(في الدلالة)** لأن أغلب ما تكلم فيه أنه من الإعجاز العلمي يدخل في أنواع الدلالة المعروفة: كإشارة النّص وعموم المعنى ودلالة الأَوْلَى والمفهوم.. إلخ.

ويدخل في التعريف ما دل عليه النص القرآني صراحة من باب أولى، كأطوار خلق الجنين ففيه نصوص صريحة.

وقولي: **(إلى حقائق)**: قيد في التعريف؛ ليخرج به النظريات والفرضيات، وكل ما ليس حقيقة، والعبرة في معرفة الحقيقة العلمية هو إجماع العلماء أهل الاختصاص على استقرار المعلومة وثبوتها ويقينها.

ولا يرى الباحث حتمية اشتراط كون العلماء المختصين مسلمين؛ ما دامت المصداقية العلمية الاختصاصية محفوفة بهم مشهورة عنهم، هذا مع اعتبار خلوهم من خلفيات سياسية مسيرة لهم تتلاعب في نتائجهم؛ وهذا ما نحتاج لضبطه، ثم إن العلم ممارسة تتقدم بها أمة وتتخلف عنها أخرى بحسب النشاط والوسائل والتقنيات العلمية المتاحة والمتوفرة لدى الباحثين.



والحقيقة التي ينبغي أن ننبه إليها هي أن اعتبار ظاهرةٍ ما حقيقةً علمية حكم خطير، ينبغي على أهل الاختصاص التحقيق فيها، ووضع الضوابط التي تطمئن لها نفوس أهل العلم كافة، ولا يجوز الاعتماد على كثرة النقول لمعلومة ما في اعتبار الحقيقة العلمية، فقد يكون النقل تقليداً، أو انتصاراً لرأي كما في نظرية الانفجار ونشوء الكون.



المبحث الثالث:

التفسير العلمي والإعجاز العلمي.

اعتمد الباحث في تعريف التفسير العلمي أنه بيان معاني القرآن باستنباط العلوم الكونية والنفسية والعقلية، أو بتوظيف العلوم التطبيقية والبحثية والتجريبية بقدر الطاقة البشرية وفق القواعد الشرعية المقررة.

أما تعريف الإعجاز العلمي فقد اعتمد الباحث تعريفه بأنه:

(سبق القرآن الكريم بزمن بعيد في الدلالة إلى حقائق في شتى مناحي العلم قبل اكتشاف العلم لها واستقراره على اعتمادها).

وبالنظر في التعريفين نجد فرقاً كبيراً بين التفسير العلمي والإعجاز العلمي للقرآن الكريم، ولكن هذا الفرق لا يعني التباين بينهما واستقلال كل واحد منهما عن الآخر، **بل ثمة علاقة وفروق بينهما أوجزها بالآتي:**

١- التفسير العلمي للقرآن مقدمة ضرورية للوصول إلى الإعجاز العلمي في القرآن، ولذلك فإن ما يشترط للتفسير العلمي للقرآن هو من شروط الإعجاز العلمي في القرآن.

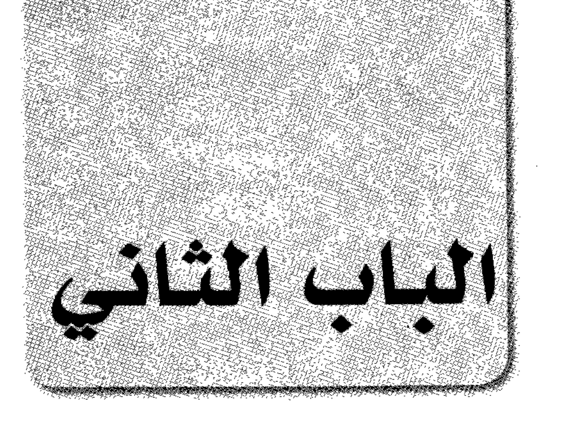
٢- التفسير العلمي للقرآن يدخله الاجتهاد في العلوم المستخدمة في التفسير وفي كيفية استخدام العلوم والدلالة عليها من القرآن، بخلاف الإعجاز العلمي في القرآن فإنه لا بد من استقرار ووضوح هذه الدلالة.

٣- التفسير العلمي للقرآن يدخله الخطأ والصواب لكونه اجتهاد المفسر، أما الإعجاز العلمي فلا يصح أن يكون كذلك.

٤- يجوز في التفسير العلمي للقرآن استخدام النظريات التي غلب عليها الظن العلمي أنها صحيحة، أما الإعجاز العلمي في القرآن فلا يجوز استخدام غير الحقائق العلمية المستقرة.

٥- الإعجاز العلمي ثمرة التفسير العلمي وغايته.

٦- كل إعجاز علمي هو في الأصل تفسير علمي، ولكن ليس التفسير علمي هو إعجاز علمي، فبينهما عموم وخصوص من وجه، والتفسير العلمي أعم من الإعجاز العلمي، والله أعلم.



الباب الثاني

تاريخُ التَّفْسيرِ العِلْمِيِّ للقرآن الكريم

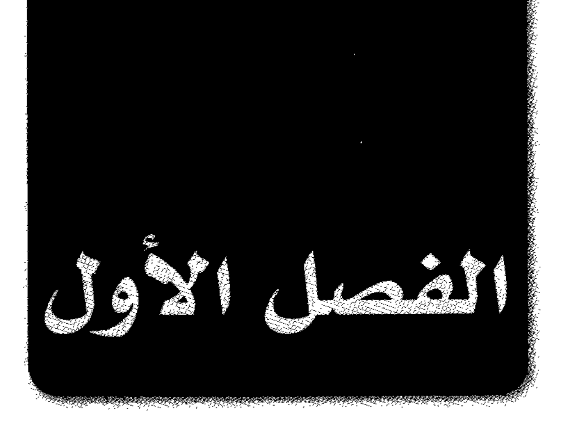
• الفصل الأول

التفسيرُ العلميّ للقرآن مِن القرونِ المفضلة إلى العصر العثماني

• الفصل الثاني

التفسيرُ العلميّ للقرآن في العصرِ الحديث





التفسيرُ العلميّ للقرآن مِن القرونِ المفضلة إلى العصر العثماني

- المبحث الأول: التفسير العلمي للقرآن في القرون الثلاثة الأولى
- المبحث الثاني: التفسير العلمي للقرآن في العصر العباسي
- المبحث الثالث: التفسير العلمي للقرآن في عصر المماليك
- المبحث الرابع: التفسير العلمي للقرآن في عصر العثمانيين





مدخل:

من الواجب علي في استهلال البحث أن أبين أمراً أراه من الأهمية بمكان:

قد ينتقد بعضهم استخدام مصطلح (التفسير العلمي للقرآن) في عصور السلف الصالح ومن بعدهم، لكون هذا المصطلح حادثاً، ولم يكن منهجاً مستقلاً معروفاً كما هو الحال اليوم!؟.

فأجيب: إنِ تاريخ التفسير العلمي للقرآن لا ينفك عن كونه من التاريخ العام للتفسير بأطواره ومراحله، وإنما نعنى بدراستنا هذه: أن نجلي تاريخ منهج من مناهج علم التفسير بطريقة استقرائية؛ بتتبع مظاهر هذا التفسير على المصطلح الذي اعتمدته للتفسير العلمي للقرآن، والتركيز عليه ضمن التطور الذي مر به التفسير عموماً.

● **الهدف من هذه الدراسة:**

- التدليل بها على تأصيل مصطلح التفسير العلمي للقرآن بالتعريف الذي تقدم من خلال بيان مراحل تطور هذا المنهج في العصور الإسلامية.

- بيان أن هذا المنهج في التفسير ليس بدعاً أو أمراً طارئاً على علوم القرآن بالمعنى العام، وإنما له جذوره في العلوم الإسلامية؛ إن كان المقصود هو استخدام مختلف العلوم في بيان كلام الله تعالى، أو استنباط العلوم من القرآن كما تقدم.

- إن ما يقوم به الباحثون المتخصصون اليوم من دراسة صادقة صحيحة وعلمية في تفسير كتاب الله؛ له دليله التاريخي وأصله العلمي، وليس عملاً مبتكراً أو مخترعاً، وليس اكتشافاً لعلم جديد لم يعرفه السابقون المتقدمون من المفسرين؛ وإن لم يحمل الاسم نفسه، فالتفسير في أطواره الأولى لم يحمل أسماء مناهج معينة كما هو الحال فيما



بعد وفي عصرنا اليوم عند استقرار العلوم وتفرعها، فصرنا نقول: التفسير اللغوي والتفسير الفقهي و... الخ.

واقتضت هذه الدراسة التاريخية أن أقدم لكل عصر نبذة مختصرة عن الحالة العلمية فيه؛ لمعرفة أثر التقدم العلمي على تطور التفسير، وذكرت أهم المشتغلين في هذا المنهج ومؤلفاتهم دون التفصيل في بيان مناهجها؛ لوجود من كتب بذلك وقد أشرت إليهم، ولكن فصلت في بيان منهج بعضهم في العصر الحديث لبيان أثرهم في انحراف التفسير العلمي للقرآن إلى الآن.



المبحث الأول:

التفسير العلمي في القرون الثلاثة الأولى.

لا يخفى حال العرب عند بدء نزول القرآن، وما يحملونه من معتقدات الجاهلية وتصوراتها ومفاهيمها الخرافية المخالفة للفطرة والعقل والحقيقة... والتي تسرب معظمها عن طريق الاحتكاك بالروم والفرس وغيرهما، وتلاقح العقول ببعضها، وتلقف العرب علوم هؤلاء القوم خاصة عن خلق الإنسان ونشأة الكون وغير ذلك، ومع ذلك فلم يبرع العرب إبان نزول القرآن وقبله إلا في ثلاثة أنواع من العلم:

- علم الأنساب، لأنها من ضروريات العصبية القبلية.
- وعلم الرؤيا.
- وعلم الأنواء أو النجوم والقمر وأنواع الكواكب، وكانت براعتهم بالأنواء تقتصر على العرافة.
- وما أدركوه بفرط العناية وطول التجربة؛ لاحتياجهم إلى معرفة ذلك في أسباب المعيشة لا على سبيل طريق تعلم الحقائق، ولا على سبيل التدريب في العلوم.

أما الطب فما برع فيه إلا القليل، وكان غالبه يعتمد على التمائم والرقى والتنجيم.[1]

---

(١) انظر: تفصيل حال العلوم عند العرب قبل الإسلام وصدره: التاريخ الإسلامي خلال أربعة عشر قرناً د. إبراهيم الشريقي صـ٢٣ ط مصر الثانية ١٩٧١، وما كتبه محمد فؤاد الناكري في مقدمة دراسته لكتاب: (في بيان الحاجة إلى الطب والأطباء ووصاياهم) للعلامة قطب الدين محمود بن مسعود الشيرازي ت ٧١٠هـ من صـ ١٢ إلى صـ ٣٨، فقد أعطى نظرة تاريخية للطب وعلومه في الجاهلية والإسلام، ط الإمارات الأولى الاتجاهات الفكرية في التفسير د. الشحات السيد زغلول صـ١٠٧ إلى صـ١٠٩، ط الهيئة المصرية العامة، ثانية ١٣٩٧هـ.



فنزل القرآن والحالة هذه؛ لينقل الناس من التصورات الخرافية التي لا تتوافق مع الحقائق التي خلقها الله؛ وليهديهم إلى الجادة المستقيمة؛ ويصحح لهم التصورات المنحرفة التي ضج بها العالم عن الإنسان والكون والحياة، ويعيد الفطرة التي انحرفت بانحراف هذه التصورات إلى جادتها وصفائها، فكانت الآيات المكية تنزل متضمنة ذكر الإنسان وما يتعلق بخلقه وأطواره وكرامته، والكون ونشأته وبدء الخليقة وفنائها ومآلها، والحياة في معناها وحقيقتها والغاية منها.. والأرض وما تحتويه من نبات وتربة وقطع متجاورات.. وغير ذلك من الدواب والمخلوقات؛ بأُسلوب يأمر العقل بالحركة والتحرر من التبعية الجاهلية وتقليد الآباء وموروثاتهم، وكانت هذه الحقائق التي يذكرها الله تعالى في كتابه تنصب في قلوب المسلمين كما في عقولهم عقيدة وفهماً لتوسع مداركهم وتعزز إيمانهم في تعظيم الله.

وبنزول القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم، بدأ التفسير ونشأ، فكان الرسول صلى الله عليه وسلم يفسر للصحابة ما أشكل عليهم في فهم القرآن الكريم، وما أجمل من هذه الآيات، أو بعض ما كان منه متعلقاً بالغيبيات، أو توضيحاً لبعض أسرار الإنسان والكون والحياة مما يصحح تصور المسلم لها، ويعلمهم الدر المكنون من علوم القرآن[1]، وكان مصدره في ذلك الوحي من عند الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه

---

(١) أي أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يفسر كل القرآن آية آية وإنما فسر لهم بعضه، وذهب ابن تيمية إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم فسر كل معاني القرآن للصحابة رضي الله عنهم، وذهب الخويبي إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم بين للصحابة القليل من معاني القرآن، ويرى الشيخ الذهبي أن النبي صلى الله عليه وسلم بين أكثر المعاني وليس كلها للصحابة رضي الله عنهم، انظر: مقدمة التفسير لابن تيمية صـ ٣٥، الإتقان للسيوطي ٢/ ١٧٤، التفسير والمفسرون للذهبي ١/ ٥٣.

ولا من خلفه، ويدخل التفسير العلمي -على اصطلاح بيان الأمور الكونية في القرآن- في هذا القسم.

ومثال بيان النبي صلى الله عليه وسلم للمعارف العلمية في القرآن الكريم ورسم منهج استنباطها، حديث مالك بن الحويرث[1] قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا أراد الله أن يخلق النسمة فجامع الرجل المرأة، طار ماؤه في كل عرق وعصب منها، فإذا كان يوم السابع؛ أحضر الله كل عرق بينه وبين آدم، ثم قرأ: ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار ٨]».[2]

---

(١) مالك بن الحويرث بن أشيم الليثي صحابي له أحاديث في الصحيحين والسنن سكن البصرة ومات بها سنة (٧٤هـ) رضي الله عنه انظر تهذيب التهذيب لابن حجر ١٠/ ١٢ ط دار الفكر بيروت الأولى ١٩٨٤.

(٢) أخرجه الحكيم الترمذي والطبراني وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات بإسناد جيد كما قال السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٦٣٠ ط دار الأنوار المحمدية د.ت: ومما يدخل في معنى حديث مالك بن الحويرث أيضاً ما أخرجه ابن جرير ٣٠/ ٥٦ ط دار الفكر بيروت د.ت، والبخاري في التاريخ وابن المنذر وابن شاهين وابن قانع والطبراني وابن مردويه كما في الدر المنثور للسيوطي ٦/ ٣٥٩ عن على بن رباح عن أبيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له: ما ولد لك؟. قال: يارسول الله !ما عسى أن يولد لي؛ إما غلام وإما جارية؟!. قال صلى الله عليه وسلم: فمن يشبه ؟قال: يار رسول الله من عسى أن يشبه إما أباه وإما أمه !!. فقال النبي صلى الله عليه وسلم عندها: مه!، لا تقولن هذا، إن النطفة إذا استقرت في الرحم أحضرها الله كل نسب بينها وبين آدم، فركب خلقه في صورة من تلك الصور، أما قرأت هذه الآية في كتاب الله ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار ٨]، قال: سلكك) وفي رواية: (من نسلك ما بينك وبين آدم).



بل كانت سنة النبي صلى الله عليه وسلم للآيات المتحدثة عن مظاهر الكون والإنسان المصدر الأول للصحابة رضي الله عنهم في فهم القرآن الكريم، والمطلع على كتب التفسير بالمأثور يجد الأمثلة في ذلك كثيرة.(١)

وقد كان السلف الصالح رضي الله عنهم من الصحابة والتابعين وتابعيهم يحثون على استنباط العلوم من القرآن الكريم، وتدبر آياته ومعرفة أوجه معاني ودلالات القرآن المرشدة لعلومه؛ استناداً إلى أن هذا الكتاب المنزل من خالق كل شيء ما فرط في ذكر شيء مما خلقه تصريحاً أو تلويحاً.

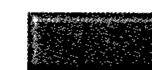
وقد أدرك سلفنا الصالح رضي الله عنهم بسليقتهم العربية الفصيحة، وفطرتهم الإيمانية الصحيحة عمق دلالة قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨].

يقول عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: (من أراد علم الأولين والآخرين فليتدبر القرآن).(٢)

---

(١) انظر مثلاً تفسير الآية ١١ من سورة الحج في الدر المنثور للسيوطي ٤/ ٣٧٨، وكذلك انظر: كتاب هدي القرآن الكريم إلى معرفة العوالم والتفكر في الأكوان للمحدث المفسر الشيخ عبد الله سراج الدين رحمه الله، عند الكلام عن خلق السموات والأرض وما ورد من تفسيرها عن النبي صلى الله عليه وسلم وكذلك مبحث عالم السماء والماء.. ففيه الأمثلة البديعة الكثيرة عن موضوعنا هنا.

(٢) أخرجه سعيد بن منصور كما في الإتقان ٢/ ٢٢٦.



ويقول مسروق[1] رحمه الله: (من سره أن يعلم علم الأولين والآخرين وعلم الدنيا والآخرة فليقرأ سورة الواقعة).[2]

وعن أبي بكر بن مجاهد[3] أنه قال يوماً: ما من شيء في العالم إلا وهو في كتاب الله. فقيل له: فأين ذكر الخانات؟!، فقال: في قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ [النور:٢٩].[4]

فاجتهد الصحابة والتابعون وتابعوهم في استنباط هذه العلوم، (وقد وفقوا كثيراً في شرحهم لمعنى الآيات مع أن حقائقها الكونية كانت محتجبة، ومعلوم أن المفسر الذي يصف حقائق وكيفيات الآيات الكونية في الآفاق والأنفس وهي محجوبة عن الرؤية

---

(١) مسروق بن الأجدع بن مالك الهمذاني الوداعي الكوفي إمام في التفسير محدث ثقة فقيه من أشهر رجال مدرسة التفسير بالعراق أخرج له الستة ت (٦٣هـ). انظر: تهذيب التهذيب ١٠/ ١٠٠، معجم المفسرين عادل نويهض ٢/ ٦٦٩.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ٧/ ١٤٨ تحقيق كمال يوسف الحوت ط مكتبة الرشد الرياض أولى١٤٠٩، وذكره الذهبي في سير أعلام النبلاء ٤/ ٦٨ تحقيق شعيب أرناؤط ومجموعة من العلماء، ط الرسالة ١٤١٣ هـ.

(٣) أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد أبو بكر شيخ المقرئين في وقته وكان عالماً بارعاً وصادقاً فاهماً كثير النفع والطلاب ت(٣٢٤هـ) له القراءات السبعة والأحرف السبعة وغيرهما. انظر: سير أعلام النبلاء١٥/ ١٧٣، غاية النهاية لابن الجزري ١/ ١٣٩ تحقيق جو تهلف برجستراسر ط القاهرة مكتبة الخانجي١٩٣٢م.

(٤) ذكره السيوطي في الإتقان نقلاً عن كتاب إعجاز القرآن لابن سراقة، الإتقان ٢/ ١٢٦.





في عصره قياساً على ما يرى من المخلوقات وفي ضوء ما سمع من الوحي؛ يختلف عن المفسر الذي كشفت أمامه الآية الكونية، فجمع ما سمع من الوحي وبين ما شاهد في الواقع)[1]، ومع ذلك فقد خرج سلفنا الصالح باستدلالات نقف أمام بعضها في زماننا معجبين ومندهشين.

أقول: وهذا التوفيق الذي وفقه السلف إنما حصل لإخلاصهم في البحث عن معرفة مراد الله تعالى، وحرصهم على سلامة المنهج في دراسة القرآن الكريم وتدبر آياته، فالمصدر الذي عولوا عليه في ذلك هو: تفسير القرآن بالقرآن، وتفسير القرآن بالسنة، هذا مع معرفتهم باللغة العربية وأساليب العرب في الكلام وتقليب أوجه الدلالات اللغوية، إضافة لسعة المدارك الإيمانية، ومعرفتهم لسنن الله تعالى في الكون والقرآن.

والأمثلة على اجتهاد الصحابة في استنباطاتهم للمعارف العلمية والسنن الكونية من كتاب الله تعالى؛ ما ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الحجر:٢١].

يقول ابن عباس[2]: (ما نقص المطر منذ أنزله الله، ولكن تمطر أرض أكثر مما تمطر أخرى) ثم قرأ هذه الآية.[3]

---

(١) انظر: قواعد وأسس أبحاث الإعجاز العلمي على موقع هيئة الإعجاز العلمي: www.aleijaz.net

(٢) عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم حبر الأمة الصحابي المشهور واسمه يغني عن سرد مناقبه رضي الله عنه ت ٦٨هـ. انظر الإصابة ٢/ ٣٣٠.

(٣) أخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم انظر الدر المنثور ٤ / ١٠٧.

وورد عن ابن مسعود[1] والحسن[2] مثله.

ويقول الحكم بن عتبة[3] رضي الله عنه:

(ما من عام بأكثر مطراً من عام ولكنه يمطر قوم ويحرم آخرون، وربما كان في البحر)[4].

ولم يمنعهم ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم من السنة في تفسير هذه الآيات من ذكر معان أخرى يحتملها نظم القرآن ولا يخرج عن مقتضى السنة وأصول اللغة ولا يضادها، فقد مر من قبلُ ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم في تفسير قوله تعالى: ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار:٨].

---

(١) أخرجه ابن جرير ١٤ / ١٣ و ١٤، والخرائطي محمد بن جعفر في مكارم الأخلاق صـ ١٠٣ رقم (٤٨٦) تحقيق عبد الله بن حجاج ط مكتبة السلام العالمية مصر د.ت.

(٢) أخرجه أبو الشيخ كما في الدر المنثور١ / ٤٠، وهو الحسن بن أبي الحسن البصري أبوسعيد واسم أبيه يسار فقيه فاضل ثقة مشهور إمام زمانه رأس الطبقة الثالثة له التفسير والرد على القدرية انظر ترجمته: تذكرة الحفاظ للذهبي ١/ ١٧ ط دار الفكر العربي د.ت، طبقات الداودي ١/ ١٥٠.

(٣) الحكم بن عتبة الكندي الكوفي أبو محمد الفقيه الثبت الثقة ت (١١٥هـ) انظر: تقريب التهذيب صـ١٧٥ تحقيق محمد عوامة ط الرشيد الرابعة ١٩٩٧، تهذيب الكمال للمزي ٧/ ١١٤، تحقيق بشار معروف، ط الرسالة الأولى.

(٤) أخرجه ابن جرير ١٤ / ١٤، وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة كما في الدر المنثور ٤ / ١٠٧.



ولقد أثر عن السلف الصالح معان أخرى من ذلك ما ورد عن مجاهد[1] أنه قال: (إما قبيحاً وإما حسناً، وشبه أب أو أم أو خال أو عم).[2]

وعن عكرمة[3] قال: (إن شاء في صورة قرد وإن شاء في صورة خنزير)[4]، وهذان الأثران يدخلان في علم الوراثة ودراسة الطبائع.

وهكذا فالأمثلة على ذلك كثيرة، وكتب التفسير بالمأثور حافلة بذلك، وإنك لتجد بعض ما أوردته من المأثور في التفسير أصبح أقرب للثوابت العلمية في وقتنا؛ كإحصاء هطول الأمطار مع تعقد آلية إحصائها[5]، هذا مع عدم وجود فكرة إحصاء هطول الأمطار في بال أحد من الأمم في عصرهم ولا يملكون الدراية التجريبية لها.

---

(١) مجاهد بن جبر أبو الحجاج المكي شيخ القراء والمفسرين الإمام الثبت أخذ عن ابن عباس واختص به رضي الله عنهما ت(١٠٢هـ) انظر: سير أعلام النبلاء ٤/ ٤٤٩، تهذيب الكمال ٢٧/ ٢٢٨، طبقات المفسرين للداودي ٢/ ٣٠٥.

(٢) ابن جرير ٣٠/ ٥٥، وعبد ابن حميد وابن المنذر كما في الدر المنثور ٦/ ٣٦٠.

(٣) عكرمة بن عبد الله المدني الهاشمي أبو عبد الله الحبر العالم الثقة الثبت كان ابن عباس يضع الكبل في رجليه على تعليم القرآن والسنة ت (١٠٤هـ) بالمدينة. انظر: طبقات المفسرين للداودي ١/ ٣٨٦.

(٤) ابن جرير ٣٠ / ٥٦ ط دار المعرفة، وعبد بن حميد كما في الدر المنثور ٦ / ٣٦٠.

(٥) انظر كتاب: الركام المزني والظواهر الجوية في القرآن الكريم من صـ ٢٠٥، إلى صـ ٢١٢، تأليف صلاح الدين عارف جنيد تقديم جودت سعيد وبسام مهمندار الخبير في المنظمة العالمية للأرصاد الجوية، ط مطبعة الزرعي في دمشق أولى ١٩٩٩.





المبحث الثاني:

التفسير العلمي في العصر العباسي.

في العصر العباسي نشطت الحركة العلمية والثقافية، وتعددت المراكز العلمية خاصة في القرنين الثالث والرابع الهجريين، فزادت حركة التصنيف وتنظيم العلوم الإسلامية ونشطت حركة التعريب، بل أخذ التعريب جانباً مهماً في هذا العصر حتى صار يمثل مرحلة انتقال فريدة في تاريخ العلوم، ومما تميز به هذا التعريب أنه لم يكن مجرد نقل حرفي لعلوم الإغريق واليونان والهند وغيرهم، ولم يكن العلماء المسلمون فيه مجرد شارحين مكررين ناقلين لعلم الأوائل، بل أعادوا هذه العلوم إلى الحياة بثوب جديد بعد هضمه ومزجه بالثقافة الإسلامية واللبوس العقائدي دون استسلام لما فيه.[1]

إن الفتوحات الإسلامية التي حصلت على أيدي الصحابة والتابعين؛ كان لها الفضل الأول على المسلمين في الاحتكاك المباشر بثقافة البلاد المفتوحة، مما أكسب المسلمين قوة في تحويل المسلمات التي ركن إليها اليونان والإغريق وغيرهم إلى مادة

---

(١) انظر: موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية د. أحمد شلبي ٣/ ٢٤٦، ط دار النهضة المصرية السابعة ١٩٨٢، التاريخ الإسلامي خلال أربعة عشر قرناً د. إبراهيم الشريقي صـ١٣٨ط مصر الثانية ١٩٧١، ومقال بعنوان (أثر الفكر العربي الإسلامي في القرون الوسطى على تطور الحضارة الإنسانية) د. إبراهيم رزوق، مجلة المعرفة، العدد ٤٨٤ كانون الثاني ٢٠٠٤، صـ ٤٤، ٤٥، وزارة الثقافة السورية، و بحث (دور التعريب في تأصيل الثقافة الذاتية العربية) د. عبدالكريم الكافي مجلة التراث العربي (١٤،١٣) عام ١٩٨٤، صـ ٢١٥، و(سيرة الإمام أبي حامد الغزالي ومكانته) د. عبد الكريم الكافي في مجلة التراث العربي (٢٢) كانون الثاني ١٩٨٦ صـ ١٧.

تجريبية، وأحدثوا في أصولها انقلاباً علمياً، فحولوا البلاد المفتوحة إلى معاقل للفكر والمعرفة ضمن المعايير الإسلامية، وأظهروا عور هذه المسلَّمات، فقوموها وزادوا فيها[1]، فظهر العديد من الأبحاث العلمية المترجمة والمقومة والمزيدة بالمعارف التجريبية على أيدي العلماء المسلمين في الفيزياء والكيمياء والبصريات والطب والتشريح والفلك وغيرها من العلوم، وكانت تعد هذه الأبحاث حينئذٍ جزءً من الفلسفة.

وكان هذا التحول مرتبط مع انتقال علم التفسير إلى مرحلة الاستقلال عن الحديث والتوسع فيه، فامتد تأثير هذه العلوم إلى التفسير، لا سيما تفاسير المعتزلة كما في تفسير الجبائي[2]، (ومن ذلك آراء مطهَّر بن طاهر المقدسي[3] في كتابه: البدء والتاريخ، الذي لا يستطيع أن يخفي سروره حينما يوفق إلى تأييد إحدى المعجزات بأدلة العقل الذي يعده أم العلوم جميعها).[4]

---

(١) انظر: تاريخ العلوم عند العرب د. عمر فروخ ود. ماهر عبد القادر ود. حسان حلاق صـ٣٩٥، ط دار النهضة العربية بيروت ١٩٩٠، ويمكننا اعتبار هذا الكتاب كله شاهداً على ما تقدم من كلام عن الناحية العلمية في العصر العباسي، الاتجاهات الفكرية في التفسير، د. الشحات زغلول صـ ١١٠، و١١٦، وكذلك صـ ١٤٤ إلى صـ ١٥٨ في دراسة الثقافة اليونانية ودور المسلمين فيها، ودراسات في القرآن الكريم د. السيد أحمد خليل صـ ٣٢ ط.

(٢) محمد بن عبد الوهاب أبو علي الجبائي شيخ المعتزلة في زمنه له تفسير حافل ومطول ت ٣٠٣هـ انظر: طبقات المفسرين للداودي ٢/ ١٩١، سير أعلام النبلاء١٤/ ١٨٣.

(٣) مطهر بن طاهر المقدسي: مؤرخ، نسبته إلى بيت المقدس ت ٣٥٥هـ له كتاب البدء والتاريخ انظر الأعلام للزركلي ٧/ ٢٥٣، معجم المؤلفين رضا كحالة ١٢/ ٢٩٤ ط دار إحياء التراث العربي د.ت.

(٤) انظر: الاتجاه العلمي في تفسير القرآن، د. عبد الأمير كاظم، مجلة المنهج الثقافية على موقع: .www.shahrodi.com

وبذلك دخل التفسير في طور استخدام الاجتهاد العقلي وتسخير العلوم التجريبية، الذي اصطلح عليه علماء التفسير بـ (التفسير العقلي) أو التفسير بالرأي، وأخذ عندها التفسير مجالاً واسعاً في الدلالة وتسارعاً في التطور، يعود الفضل فيه إلى:

عصور السلف الصالح؛ فقد مارسوا التفسير بالرأي في وقت مبكرة.

ثم ما تحمله الدلالة القرآنية من المعاني المتنوعة التي تحتوي ما يستجد على حياة المسلمين في النواحي السياسية والفكرية والاجتماعية والعلمية.[1]

فظهر من علماء المسلمين ـ خاصة في القرن الخامس الهجري وما بعده ـ ظهر من يدعوا إلى استنباط مختلف العلوم من القرآن الكريم، وأخذوا يسخِّرون معارف عصرهم في تفسير القرآن، والرد على الأفكار الفلسفية المنحرفة، وكأن هذا الاتجاه خلاصة الجدل العلمي في العصر العباسي، وبذلك يكون التفسير قد دخل طوراً تاريخياً حساساً في التفسير بالرأي.

*** أبرز المشتغلين بهذا الاتجاه في هذا العصر:**

وكان من رواد العلماء الداعين إلى استنباط العلوم من القرآن الكريم وتسخير معارف زمانهم في تفسير القرآن:

- الإمام أبو حامد الغزالي (٥٠٥هـ).
- وأبو بكر بن العربي (٥٤٣هـ).
- والفخر الرازي (٦٠٦هـ).

---

(١) ينظر: التفسير العلمي وتعطيل المنظومة الثقافية، د. أحمد النيفر على موقع إسلام أون لاين.



■ أولاً: التفسير العلمي للقرآن عند الإمام الغزالي (٥٠٥ هـ):[١]

يعتبر الإمام الغزالي إلى عهده أكثر من استوفى الكلام في أن أوائل العلوم موجودة في القرآن[٢]، وسجل ذلك في كتابيه الشهيرين: إحياء علوم الدين وكتاب جواهر القرآن، أما كتابه (إحياء علوم الدين)، فقد خص فيه الإمام باباً عن القرآن، وحض فيه على تدبره وفهمه، وفيه تكلم الغزالي عن العلوم في القرآن الكريم، فذكر فيه أن (العلوم لا نهاية لها وفي القرآن إشارة إلى مجامعها، والمقامات في التعمق في تفصيلها راجع إلى فهم القرآن، ومجرد ظاهر التفسير لا يشير إلى ذلك).[٣]

وشرح ما كتبه في الإحياء في كتابه الثاني جواهر القرآن، فعقد الإمام فصول كتابه الجواهر على أساس أن العلوم متشعبة من القرآن، وقسم هذه العلوم في الفصل الثالث

---

(١) محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي، أبو حامد، حجة الاسلام: الفقيه الأصولي الزاهد الفيلسوف، له نحو مئتي مصنف أشهرها إحياء علوم الدين والمستصفى في أصول الفقه، مولده ووفاته في خراسان، نسبته إلى صناعة الغزل (عند من يقوله بتشديد الزاي) أو إلى غزالة (من قرى طوس) لمن قال بالتخفيف، انظر ترجمته: المستفاد من ذيل تاريخ بغداد للحافظ ابن النجار البغدادي انتقاء الحافظ أبي الحسين أحمد بن أيبك المعروف بابن الدمياطي ١/ ٢٧، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا ط دار الكتب العلمية لبنان الاولى ١٤١٧ هـ، سير أعلام النبلاء ١٩/ ٣٢٣. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان أحمد بن محمد بن خلكان ٤/ ٢١٦ تحقيق إحسان عباس ط دار صادر بيروت أولى ١٩٧١م.

(٢) التفسير العلمي في الميزان، أحمد أبو حجر، انظر صـ ٤٥، ١٤٦، وعلق د. أبو حجر بعد ذلك بقوله صـ ١٤٦: (... ويبقى قوله نظرياً إلى حد بعيد).

(٣) انظر: إحياء علوم الدين ١/ ٢٨٩، ط دار المعرفة د.ت.

إلى عشرة أقسام، وفي الفصل الرابع من الكتاب ذكر انشعاب العلوم كلها من هذه الأقسام العشرة وبين أقسامها ومراتبها، ثم ذكر في الفصل الخامس بيان كيفية انشعاب علم الأولين والآخرين من القرآن.

وأشار الغزالي إلى العلوم (الدينية) وتفرعاتها في القرآن الكريم،ثم ذكر علوماً مختلفة، كعلم الطب والنجوم وهيئة العلم وهيئة بدن الحيوان وتشريح أعضائه، وغير ذلك،وذكر بأن (هذه العلوم ما عددنا وما لم نعد؛ ليست أوائلها خارجة عن القرآن، فإن جميعها مغترفة من بحر واحد،من بحار معرفة الله تعالى،وهو بحر الأفعال).[1]

■ **ثانياً: التفسير العلمي للقرآن عند القاضي أبي بكر بن العربي (٥٤٣ هـ):**[2]

لقد كانت لدعوى الغزالي آذان صاغية عند القاضي ابن العربي رحمه الله، وبين ذلك في مواطن متعددة من كتابه قانون التأويل[3]، فقد صرح ابن العربي فيه أن (كتاب الله

---

(١) جواهر القرآن صـ ٢٥، ٢٦ .ط دار المركز العربي للكتاب بيروت، د.ت.

(٢) محمد بن عبد الله بن محمد الأندلسي المالكي الإمام العلامة الحافظ الفقيه الأصولي المفسر صاحب كتاب قانون التأويل والناسخ والمنسوخ وأحكام القرآن وغير ذلك ت (٥٤٣هـ) انظر ترجمته: طبقات المفسرين الداودي ٢/ ١٦٧، البداية والنهاية ١٢/ ٢٤٥ط دار الفكر بيروت، الموسوعة الميسرة في تراجم أئمة التفسير والإقراء والنحو واللغة تأليف مجموعة من الباحثين ٣/ ٢١٧٧، ط إصدارات مجلة الحكمة لندن الأولى ٢٠٠٣.

(٣) ولابن العربي تفسير (أنوار الفجر)، ذكره ابن جزي في تفسيره التسهيل، وقال في وصفه أنه: (في غاية الاحتفال والجمع لعلوم القرآن، فلما تلف تلافاه بكتاب (قانون التأويل) إلا أنه اخترمته المنية قبل تخليصه وتلخيصه)التسهيل لعلوم التنزيل ١/ ١٠، ط بولاق ١٣٥٥هـ، تصوير دار الفكر. انظر: مقدمة د. محمد السليماني لقانون التأويل صـ ١٢٥.



وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم بيان لكل معلوم، فإن العقول كانت خلقت مستعدة لقبول المعارف وتمييز الحقائق، فليس بالإمكان إحاطتها بجملتها، فإن الإحاطة لا تكون إلا للمحيط).(١)

ثم بين أن معرفة العلوم مطلوبة للتوصل إلى المقصود الأقصى وهو معرفة الله، وأنه ينبغي قبل الخوض فيها معرفة أقسامها بالجملة، لأن معرفتها على التفصيل والجملة لا يحيط بها إلا الله تعالى.(٢)

وبذلك يكون ابن العربي قد أرسى قاعدة لما يريد قوله في موضع آخر من كتابه: (وإنما عني العلماء بقولهم: إن العلوم كلها في كتاب الله ما كان علماً لذاته، لا ما وقعت الدعوى فيه أنه علم وهو جهل، وذلك يرجع إلى العلوم الشرعية والحقائق العقلية، فإن جميعها مضمَّن في كتاب الله، والدليل عليه مبيَّن، وكل جهالة أو سخافة ادعتها طائفة فالرد عليها في كتاب الله موجود أيضاً مبيَّن).(٣)

ثم عقد ابن العربي فصلاً ارتضى فيه تقسيم علوم القرآن على طريق البيان إلى ثلاثة أقسام: قسم التوحيد، وقسم التذكير، وقسم الأحكام، وأدخل معرفة المخلوقات بحقائقها في قسم التوحيد(٤)، لأنها دلائل معرفة الله تعالى وتعظيمه.

---

(١) قانون التأويل صـ ٥٠٤.

(٢) قانون التأويل صـ ٥٠٦.

(٣) قانون التأويل صـ ٤١٨.

(٤) انظر: قانون التأويل صـ ٥٤١.

ثم قال رحمه الله: (كما ترجع علوم القرآن إلى آيتين كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق:١٢].

الثانية: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦].

وقد ترجع إلى آية واحدة، كقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [الدخان:٣٨]، وقوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون:١١٥]).(١)

▪ **ثالثاً: التفسير العلمي عند الإمام الرازي رحمه الله (٦٠٦ هـ):(٢)**

لئن كان الغزالي ومن تابعه قد وضعوا الأسس النظرية للتفسير العلمي - كما اصطلحنا عليه - فإن الرازي طبق ذلك عملياً، واستطاع أن يوظف معارف عصره وما جد في البيئة الإسلامية من ثقافة وفكر وعلوم في تفسير القرآن الكريم؛ ليحقق مقصداً أساسياً للقرآن في الهداية والإرشاد؛ وهو الاستدلال على عظمة الله تعالى ووحدانيته وتقرير أصول الدين العقدية، وفي ذلك يقول في تفسيره: (اعلم أن المقصود الأعظم من

---

(١) قانون التأويل صـ ٥٤٢.

(٢) محمد بن عمر بن الحسين فخر الدين الرازي القرشي من ذرية أبي بكر الصديق رضي الله عنه، إمام وقته في العلوم العقلية وأحد الأئمة في الفقه والتفسير والأصول، صاحب المصنفات المشهورة والفضائل الغزيرة ت (٦٠٦هـ) انظر: ترجمته طبقات السيوطي صـ١٠٠، طبقات الداودي ٢/ ٢١٥.



هذا القرآن تقرير أصول أربعة: الإلهيات، والنبوات، والمعاد، وإثبات القـضاء والقـدر، والمقصود الأعظم من هذه الأصول الأربعة تقرير الإلهيات)[1]، وكان مسلك الرازي في التفسير هو طريقة الطبيعيين في الكونيـات، فـتكلم في الأفـلاك والأبـراج والحيوانـات والنبات وأجزاء الإنسان وخلقه، وغير ذلك مما جر الاستدلال على وجود الله تعـالى[2]، وكان مراد الرازي من منهجه هذا أن يبين تفـوق الحكمـة القرآنيـة عـلى سـائر الطـرق الفلسفية وانفراد القرآن بهداية العقول البشرية إلى غايات الحكمة عن طريق العصمة.[3]

---

(١) مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) الفخر الرازي ٢٠/ ٥٠ ط دار الكتب العلمية أولى ١٩٩٠م.

(٢) انظر: التفسير العلمي في الميزان صـ ١٥٠.

(٣) انظر: التفسير العلمي في الميزان صـ ١٥٦، دراسات في التفسير وأصوله للبلتاجي صـ ١٠٨.



المبحث الثالث:

التفسير العلمي في عصر المماليك.

تميز عصر المماليك بنشاط الحركة العلمية، وظهرت فيه الموسوعات العلمية والأسواق الثقافية[1]، وكانت حركة التفسير تنشط مع هذا النشاط العلمي، وتميز نشاط ما نسميه بـ (التفسير العلمي) في هذا العصر؛ حتى صار له دعاة يدعون إليه ويكتبون فيه ويعملون على ترويجه، مما أحدث ردة فعل قوية عند الإمام الشاطبي (٧٩٠هـ)[2] رحمه الله، إذ أنكر هذا اللون من التفسير في كتابه (الموافقات)، واحتج على ذلك بأن السلف الصالح من التابعين ومن يليهم لم يرد عنهم أنهم تكلموا في هذا اللون من التفسير، وهم من أعرف الناس بالقرآن وعلومه، ويرى أيضاً أن علم التفسير مطلوب فيما يتوقف عليه فهم القرآن على كل ما يضاف علمه إلى العرب، خاصة منه ما يوصل

---

(١) انظر: في دراسة عصر المماليك من الناحية العلمية: الأدب في العصر المملوكي ١/ ١٠٨ إلى ١٢٠ ط دار المعارف د.ت، وعصر جلال الدين السيوطي والحياة العلمية فيه صـ ٤٧ من مجلة التراث العربي العدد (٥١) عام ١٤١٣، وابن حجر ودراسة مصنفاته ١/ ٥٠، وقسم الدراسة من رسالتي الماجستير بعنوان تحقيق جزء من مخطوط تفسير (اللباب من علوم الكتاب) لابن عادل الدمشقي ١/ ٣١ المقدمة لجامعة أم درمان ٢٠٠١م.

(٢) إبراهيم بن موسى أبو إسحاق الشاطبي الأندلسي فقيه أصولي محدث مفسر أحد أئمة المالكية، له العديد من المصنفات أشهرها الموافقات والاعتصام ت (٧٩٠هـ) انظر ترجمته: معجم المفسرين نويهض ١/ ٢٣، الموسوعة الميسرة ١/ ١١٠، وقد قدمت رسالة لنيل الماجستير في الجامعة الأردنية عن الشاطبي إعداد عايش علي لبنانة بعنوان (أسباب النزول وقضايا علوم القرآن عند الإمام الشاطبي في كتابه الموافقات) قدمت عام ١٩٩٦م.



إلى علم ما أودع من الأحكام الشرعية، فالمعاني التي لا عهد للعرب بها؛ غير معتبرة، والقرآن إنما أنزل بلسانها وعلى معهودها، وأمة العرب كانت أمة أمية.(١)

لكن هذا الاعتراض لم يلق في الساحة العلمية تجاوباً كبيراً، ولم يوقف العلماء عن الاستمرار في هذا الاتجاه من التفسير، ربما لأن الحجج التي قدمها الإمام رحمه الله لم تكن مقنعة للمفسرين فبقيت رأياً للشاطبي رحمه الله.

وبرزت مؤلفات تضمنت هذا المنهج، فقد ألف ابن سراقة (٦٦٢هـ)(٢) (إعجاز القرآن)، وبحث في كتابه قضية العلوم في القرآن، ونقل عنه السيوطي في الإتقان.(٣)

---

(١) انظر: المسألة الرابعة من النوع الثاني من الموافقات للشاطبي ٢/ ١٢٧ تحقيق أبوعبيدة مشهور آل سليمان ط دار ابن عفان الأولى ١٤١٧هـ، وانظر: في مناقشة رأيه تأييداً واعتراضاً: التفسير والمفسرون للذهبي ٢/ ٤٨٥، التفسير العلمي في الميزان صـ ٢٧٥ إلى صـ ٢٩٣، وتأصيل الإعجاز العلمي بحث لـ أ. سعاد يلدرم بعنوان: (مستندات التوفيق بين النصوص القرآنية وبين النتائج العلمية الصحيحة) صـ ٥٤، ٥٥، والقرآن العظيم هدايته وإعجازه للصادق عرجون صـ ٢٦٩ إلى ٢٧٣ط دار القلم دمشق ثانية ١٤١٠هـ، وبحث: مع الإمام أبي إسحاق الشاطبي في مباحث علوم القرآن وتفسيره د شايع بن عبده بن شايع الأسمري، مجلة الجامعة الإسلامية السعودية العدد ١١٥ لعام ١٤٢٢ صـ ٧٥، ٧٨.

(٢) هو محمد بن أحمد بن محمد أبو بكر محيي الدين الشاطبي شيخ حديث الكاملية بالقاهرة، مالكي المذهب، أديب صوفي، كان أحد الأئمة المشهورين بغزارة العلم والفضل صاحب كتاب إعجاز القرآن ت ٦٦٢ هـ. انظر: معجم المفسرين ٢/ ٤٧٨، شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي ٥/ ٣١٠ ط دار المسير د.ت.

(٣) انظر: الاتقان ٢/ ١٢٨.



كما حوت معظم التفاسير في هذا العصر هذا الاتجاه كالبيضاوي (٦٨٥ هـ)[1] الذي تناول في تفسيره القضايا الكونية متأثراً بمنهج الرازي، ولكنه لم يسهب إسهاب الرازي في تناول الكونيات والطبيعيات، بل تناولها بما يفي بالغرض والحاجة في توضيح المعنى الذي يريد المفسر الوصول إليه.[2]

ثم نظام الدين القمّي النيسابوري (٨٥٠هـ)[3] في تفسيره (غرائب القرآن ورغائب الفرقان) فقد اختصر تفسير الرازي، وعقب واستدرك على الرازي في القضايا الكونية والعقلية[4]، ثم ابن عادل (حوالي ٧٧٥هـ)[5]، فقد اختصر مسائل الرازي في الكونيات

---

(١) عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي أبو سعيد قاض مفسر فقيه أصولي عالم بالعربية والمنطق والحديث من أئمة الشافعية صاحب تفسير أوار التنزيل وأسرار التأويل وغيره من المؤلفات الكثيرة ت (٦٨٥هـ) انظر: ترجمته طبقات المفسرين للداودي ١/ ٢٤٢ معجم المفسرين لنويهض ١/ ٣١٨.

(٢) انظر: التفسير بالرأي قواعده وضوابطه وأعلامه، د. محمد حمد زغلول صـ ٣٢٢، واتجاهات التفسير في العصر الراهن د. عبد المجيد عبد السلام المحتسب صـ ٢٥٢.

(٣) الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري مفسر مقرئ أديب متبحر في العلوم وليس من كبار علماء الشيعة الإمامية في عصره كما ذكر نويهض في معجمه والمتصفح لتفسيره يدرك ذلك ولعله اغتر بكثرة من ترجم له من الشيعة انظر ترجمته معجم المفسرين لنويهض ١/ ١٤٥، الموسوعة الميسرة ١/ ٧١٧.

(٤) ينظر للاستزادة: التفسير العلمي في العصر الراهن د عبد المجيد المحتسب صـ ٢٥٣.

(٥) عمر بن علي بن عادل الدمشقي الحنبلي أبو حفص توفي حوالي ٧٧٥هـ صاحب كتاب اللباب من علوم الكتاب: انظر: ترجمته في قسم الدراسة من رسالة الماجستير للباحث ١/ ٣٦ فما بعد.

والطبيعيات في تفسيره اللباب من علوم الكتاب بما يفي الغرض، متبنياً آراء الرازي وطريقته في التفسير.[1]

وكان من أبرز الداعين لاتجاه التفسير العلمي في الساحة العلمية في عصر المماليك:

- ابن أبي الفضل المرسي[2] (٦٥٥هـ).
- والزركشي[3] (٧٩٤هـ).
- والسيوطي[4] (٩١١هـ).

---

(١) انظر: قسم الدراسة من رسالتي الماجستير ١/ ١١٥.

(٢) هو محمد بن عبد الله بن محمد بن أبي الفضل المرسي (٦٥٥ هـ)، النحوي المفسر المحدث الفقيه، له عدة تصانيف، وله تفسير القرآن اسمه ري الظمآن، وألف في أصول الفقه والدين وفي البديع والبلاغة، انظر: طبقات المفسرين للداودي ٢/ ١٧٢ شذرات الذهب ٧/ ٤٦٥. الموسوعة الميسرة ٣/ ٢١٨٢.

(٣) محمد بن عبد الله بن بهادر الشافعي المحدث الفقيه المفسر له المؤلفات الكثيرة كالتفسير والبرهان الذي لم يسبقه إلى مثله أحد والنكت على ابن الصلاح ت (٧٩٤هـ). انظر: طبقات المفسرين للداودي ٢/ ١٦٢، شذرات الذهب ٨/ ٥٧٢.

(٤) عبد الرحمن بن أبي بكر الإمام خاتمة الحفاظ المفسر الفقيه الأصولي اللغوي صاحب الدر المنثور في التفسير بالمأثور ومعترك الأقران وغير ذلك من المؤلفات الكثيرة. انظر: ترجمته في الضوء اللامع للسخاوي ٤/ ٦٥ ط دار الكتب العلمية د.ت، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة للسيوطي ١/ ٣٣٦ تحقيق أبو الفضل إبراهيم ط دار إحياء الكتب العربية أولى ١٣٨٧هـ، معجم المفسرين للنويهض ١/ ٢٦٤.



• أولاً: التفسير العلمي للقرآن عند ابن أبي الفضل المرسي (٦٥٥هـ):

لقد وسع ابن أبي الفضل القول في احتواء القرآن الكريم على العلوم بأنواعها، وأطنب في الاستدلال على احتواء القرآن جميع علوم الأولين والآخرين، وأخذ يستدل على كل علم بأدلته من القرآن الكريم، حتى ذكر أصول الصنائع، وأسماء الآلات التي تدعوا الضرورة إليها، وضروب المأكولات والمشروبات والمنكوحات وجميع ما وقع ويقع في الكائنات؛ ما يحقق معنى قوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام:٣٨].(١)

• ثانياً: التفسير العلمي للقرآن عند الزركشي (٧٦٤هـ):

ذكر الزركشي في البرهان أن: (العلوم كلها داخلة في أفعال الله وصفاته وفي القرآن شرح ذاته وصفاته وأفعاله)(٢)، وأكثر من النقول عن السلف الصالح وعن العلماء من بعدهم في هذه القضية، ومع تأكيده على ضرورة إتقان التفسير الظاهر للقرآن: (وهو معنى الألفاظ في اللغة)(٣)؛ لكنه يؤكد أن ذلك لا يكفي في فهم حقائق المعاني(٤)، ثم أفرد فصلاً في برهانه ليقول: (وفي القرآن علم الأولين والآخرين وما من شيء إلا ويمكن استخراجه منه لمن فهمه الله تعالى).(٥)

---

(١) ينظر: الإتقان للسيوطي ٢/ ١٢٦، ومعترك الأقران ١/ ١٧ ط دار الفكر العربي د.ت، والتفسير والمفسرون ٢/ ٤٧٨، والتفسير العلمي في الميزان صـ١٥٦.

(٢) البرهان ٢/ ٨٧، عند الكلام على تدبر القرآن، وأعاد هذا الكلام ٢/ ٢٩١ في باب معرفة تفسيره وتأويله.

(٣) البرهان ٢/ ٢٩١.

(٤) ينظر: البرهان ٢/ ٢٩١.

(٥) البرهان ٢/ ٣٢٠.

ثالثاً: التفسير العلمي للقرآن عند الإمام السيوطي (٩١١هـ):

أكد الإمام السيوطي كلام الزركشي في احتواء القرآن على جميع العلوم، إلا أن السيوطي عَبَّر عن ذلك تعبيراً دقيقاً، وذلك عندما عقد السيوطي في الإتقان: (النوع الخامس والستون في العلوم المستنبطة من القرآن)[1]، صدره بقوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام:٣٨]، وقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل:٨٩]، مؤصلاً في ذلك لما يريد التحدث عنه، فنقل من الأحاديث والآثار ما يدعم مراده وموضوعه، ثم يقول: (وأنا أقول: قد اشتمل كتاب الله العزيز على كل شيء، أما أنواع العلوم فليس منها باب ولا مسألة هي أصل؛ إلا وفي القرآن ما يدل عليها، وفيه عجائب المخلوقات وملكوت السموات والأرض، وما في الأفق الأعلى وتحت الثرى وبدء الخلق و.. و..الخ).[2]

وللسيوطي كتاب الإكليل في استنباط التنزيل، يعتبر أنموذجاً عملياً لكلامه السابق، ولكنا في كتابه الإكليل نجده اقتصر على تفسير الآيات التي يرى السيوطي رحمه الله أنها أصل في الدلالة على علم ما، أو أن أحداً من الفرق استدلت بهذه الآية على حكم فقهي أو عقدي أو غير ذلك، دون أن يناقش هذا الاستدلال أو يشرحه؛ ونجد طريقة الاستنباط عند السيوطي مقتضبة للغاية، إذ يورد الآية ثم يقول: (فيها كذا، أو هذه الآية أصل في علم كذا أو نحو ذلك)[3]، كما لا يمكن تجاهل كتابه معترك

---

(١) الإتقان ٢/ ١٢٥ ط دار الفكر.

(٢) الإتقان ٢/ ١٢٩.

(٣) انظر مثلاً: الإكليل في استنباط التنزيل للسيوطي: الإكليل ٢/ ٩٠٤، الإكليل ٣/ ٨٩٣، ٣/ ١٢٧٢، تحقيق د. عامر علي العرابي ط دار الأندلس الخضراء جدة.

الأقران في إعجاز القرآن، إذ جعل من وجوه إعجاز القرآن اشتماله على العلوم المختلفة المستنبطة منه، واستدل على ذلك بنحو عمله في الإتقان.[1]

(١) انظر: معترك الأقران ١/ ١٧ وما بعد.



المبحث الرابع:

التفسير العلمي للقرآن في العهد العثماني.

● الحالة العامة والحركة العلمية والثقافية في العهد العثماني:

إن دراسة الناحية العلمية في العصر العثماني لها أهميتها البالغة في ربط الحلقات متسلسلة لفهم الأحداث التي أدت للصراع حول قبول التفسير العلمي، والتحول الخطير الذي مر عليه المسلمون من الناحية العلمية والنفسية، والتي كان لها الأثر المباشر على حركة التفسير بشكل عام واتجاه التفسير العلمي بشكل خاص.

بينما كانت أوربة في أوائل العهد العثماني ما تزال تعيش في ضعف علمي وفكري وعقائدي وعسكري وغير ذلك أمام قوة المسلمين، فلم يكن لدى الأوربيين قوة المجابهة والهجوم الفكري[1]، كانت الدولة العثمانية وخاصة في بداية استلامها سدة الخلافة؛ كانت تنعم بما بقي من الحركة العلمية النشطة التي كانت في عصر المماليك، وكان لتقدم العثمانيين العسكري والسياسي أثر في نقل الثقافة والعلوم إلى أوربة، مما أزعج ذلك الدول الأوربية ورؤوس النصارى، فاشتغل الأوربيون على النيل من العثمانيين وإضعاف دولتهم وتحجيم توسعهم، (وكان منفذها الوحيد لتحقق أهدافها وغاياتها هو عن طريق الغزو الفكري وإيهام قادة الدولة بأنها في حاجة إلى تطوير نظمها).[2]

---

(١) انظر: التاريخ الإسلامي ٨/ ١٢ تأليف محمود شاكر، ط المكتب الإسلامي، الرابعة ١٤٢١هـ.

(٢) وقد تحقق لها ذلك بعد موت السلطان سليمان الأول (٩٧٢هـ/ ١٥٦٤م)، انظر الدولة العثمانية والغزو الفكري حتى عام ١٣٢٧هـ-١٩٠٩م د خلف دبلان الوذينان صـ٩ ط =



ونظراً لانشغال العثمانيين بالفتوحات وغلبة الطبع العسكري على دولتهم واهتمامهم بالحكم؛ توقفت الحركة العلمية عند المسلمين تدريجياً مع تقدم الزمن، فكانت الصبغة الغالبة والعامة على عصر العثمانيين الجمود والركون إلى مؤلفات السابقين، والاعتماد على ما فيها دون بحث أو تمحيص، مع بقاء بعض الأنشطة العلمية ذات الأثر المحدود في بعض دول الإسلام التي انتشر فيها المدارس والزوايا والمساجد، مع وجود علماء قلة برعوا في عهد العثمانيين في مجالات علمية مختلفة مع العلوم الشرعية كالهندسة والميقات والهيئة و الحيوان والنبات...الخ[1]، ولكنها لم تكن ظاهرة عامة لها أثرها، بل كانت تختلف قوة وضعفاً حسب الزمان والمكان والظروف.

لم تلق الحركة العلمية بشكل عام -والتفسير منها بشكل خاص- العناية اللازمة والكافية من الدولة لتطويرها وتحفيزها كما حصل في العهد العباسي مثلاً، ولم تنشط حركة التأليف على نحو ما حصل في عصر المماليك، ولم يعتن العثمانيون بالعلم والفكر والتشريع والترجمة، ومتابعة التطورات العلمية في العالم ونقل أخبارها إلى العلماء

= جامعة أم القرى مكة، الثانية ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م وانظر: أيضاً صـ١٧٨، ١٧٩ في وصية لويس التاسع عندما اقتنع بفشل الحملات العسكرية على المسلمين بعدما أسر ثم أطلق سراحه بفدية سنة ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م، فأوصى بالغزو الفكري.

(١) ينظر في دراسة الناحية العلمية في العصر العثماني بتوسع: موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، د. أحمد شلبي ٥/ ٣٠٣ إلى صـ ٣٣٤، و٥/ ٣٣٨، إلى صـ ٣٤٥. ط ثالثة مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٧م، و: دراسات في تاريخ ومؤرخي مصر والشام إبان العصر العثماني، د. ليلى عبداللطيف أحمد صـ ١٩٤ إلى ١٩٨، ط مكتبة الخانجي وما سيمر من المراجع حول الناحية العلمية في العهد العثماني.



المسلمين؛ عنايتها بالجيش وتوطيد الحكم وتوسيعه، فأهملت اللغة العربية، وبقيت الأساليب العلمية على طريقتها الأولى لم ينلها شيء من التطوير[1]، وبذلك وقف المسلمون مكانهم لا يتقدمون، وبدأت عزلة العلماء والمسلمين عن العالم وتطوراته العلمية وتياراته الفكرية، وظهر أثر هذا الجمود والركود جلياً في عصر ضعف الدولة العثمانية.

أما أوربة فكانت تكسب الوقت في النهضة للبحث في مختلف ميادين العلم مما زاد من سرعة تقدمها، واستفادت من أبحاث العلماء المسلمين والتلقي عنهم في الأندلس وصقلية، ثم تم اكتشاف رأس الرجاء الصالح الذي كان له الأثر على ثراء أوربة وتطورها مادياً، هكذا إلى أن جاء الوقت الذي رجحت فيه كفة أوربة على كفة المسلمين.[2]

ثم برز التطور الأوربي وأصبح واضحاً للعيان، وقوي هذا الظهور في عصر الانحطاط والتراجع العثماني (١١٧١-١٣٢٧هـ)، وبدأت أخبار الغرب تفد إلى الشرق وفي العلماء من هو مصدق ومكذب، ولم تكن الدولة العثمانية مستعدة معنوياً لهذا السبق العلمي والتحدي الفكري، فبدا الانتكاس في العالم الإسلامي، وبرزت على الساحة الثقافية في أوربة -ثم وفدت إلى العالم الإسلامي- نظريةٌ اعتقدها مؤرخو الغرب ومستشرقوهم ومنصروهم بسبب القوة العلمية والمادية التي وصلوا إليها،

---

(١) انظر: التاريخ الإسلامي: ٨/ ١١٩، واتجاهات التفسير في العصر الراهن د. عبد المجيد المحتسب صـ٦.

(٢) انظر: التاريخ الإسلامي: ٨/ ١٢.



مفادها (أن العقلية الغربية هي العقلية الدقيقة التأمل التي تستطيع أن تفكر تفكيراً سليماً، أما غيرهم من الشعوب وخاصة منهم المسلمون؛ فإن عقليتهم ساذجة بسيطة تدرك الأمور بواسطة الجزئيات لا تدركها إدراكاً كلياً، وكان ذلك دافعاً للمزيد من الاهتمام بالدراسات الشرقية، وكان القرآن أول ما أولوه اهتمامهم ثم الرسول صلى الله عليه وسلم ثم التاريخ الإسلامي والسلف الصالح رضي الله عنهم).[1]

ثم عمل بعض حكام الدولة العثمانية على الانفتاح على أوربة، وأن تصبح بلاده جزءً من الغرب، فأصبح تقليد أوربة والسير على منهجها أمراً محموداً يسعى إليه، وغدا استقدام الضباط وإرسال البعثات للإفادة أمراً قائماً.[2]

فوجدت أوربة منفذاً قوياً للدخول في بلاد المسلمين والتحكم بهم عن طريق الحملات باسم نشر العلم ومعاداة الجهل، والأخذ بيد الناس نحو الحضارة والمدنية وإبعادها عن التأخر والرجعية بزعمهم[3]، وأخذت هذه الحملات والبعثات ظاهرة قوية في عهد محمد علي باشا[4]؛ الذي كان يمثل الانفتاح نحو أوربة عامة وفرنسا

---

(١) انظر: الدولة العثمانية والغزو الفكري صـ١٧٦، ١٧٧.

(٢) انظر: التاريخ الإسلامي ٨/ ١١٩، والتفسير العلمي في الميزان صـ ٣٤١، التفسير العلمي في العصر الراهن صـ٧ و ٨ ومن الجدير بالذكر في هذه المرحلة ظهور الفكرة القومية التي كانت أحد العوامل المهمة في تمزيق العالم الإسلامي والأمة الإسلامية فيما بعد، انظر التاريخ الإسلامي ٨/ ١٤٨، واتجاهات التجديد صـ ٤٢ - ٤٣.

(٣) انظر: التفسير العلمي في العصر الراهن صـ٩.

(٤) محمد علي باشا والي مصر ومؤسس السلالة الخديوية فيها ولي مصر ١٨٠٥م، وقضى على المماليك في مذبحة القلعة ١٨١١م، ونفى من سانده من العلماء الذين أرادوا خير مصر =

خاصة، منذ عام ١٢٤١هـ / ١٨٢٦م؛ معتبراً أنها بعثات نحو الحضارة والمدنية والتقدم.[١]

لقد كان لهذه البعثات أثر إيجابي بنقل العلوم إلى البلاد الإسلامية، وأثر سلبي بنقل الأصول الأوربية في العادات والفكر وغيرهما، ومن ذلك التفريق بين العلم والدين، فقد وجد المنصرون والمستشرقون في أبناء الشرق الوافدين إليهم المعول المناسب لضرب المجتمع المسلم وتقويض أركانه.[٢]

* وبعودة هذه الوفود إلى بلادهم؛ ظهر اتجاهان في بلاد المسلمين:[٣]

● **الاتجاه الأول:**

يرى أن النهوض والقوة لا يتمان إلا بتقليد أوربة والسير على خطاها.

وكان أصحاب هذا الاتجاه هم أصحاب السيطرة على الساحة العلمية والاجتماعية والفكرية، وكانت القوة بأيديهم، ولعب الاستشراق دوراً مهماً في دعم هذا الاتجاه وتبنيه.

= يعتبره البعض صاحب نهضة ثقافية وزراعية لمصر، ت ١٨٤٩م، انظر: المنجد في الأعلام صـ٥٢٤ ط دار لمشرق بيروت الثالثة والثلاثون ١٩٩٢م.

(١) انظر: التاريخ الإسلامي ٨/ ٣٨، ٣٩، وكذلك ٨/ ١٥٨، وانظر للتوسع لزاماً كتاب: رسالة في الطريق إلى ثقافتنا محمود شاكر من صـ١٢٦، إلى صـ١٤٩ ط مؤسسة الرسالة ناشرون الأولى ١٩٩٢، الدور الذي لعبه المستشرقون وجواسيس أوربة في مصر من عصر المماليك وفي الحملات التي كان يرسلها محمد علي وأثرهم عليه إذ كانوا مستشاريه ودورهم في توطيد الطريق للاستعمار على مصر وتعزيز الضعف النفسي عند المسلمين.

(٢) انظر: التاريخ الإسلامي ٨/ ١٦٣، ١٦٤، اتجاهات التفسير في العصر الراهن د. المحتسب صـ ٢٦٠.

(٣) انظر: التاريخ الإسلامي ٨/ ١٦٠ إلى ١٦٤.



الاتجاه الثاني:

يرى أصحابه أن التخلف القائم في بلاد المسلمين إنما يعود إلى جهل المسلمين بشكل عام في أمور الإسلام وحقيقته، فالإسلام يحث على طلب العلم، ويدعو إلى التفكير والتحرر من الخرافات والجهل والأوهام، ويوجب استقلال المسلم في مبدئه وشخصيته وهيأته، ويوجب الاستعداد بكل الإمكانيات والطاقات لبناء دولة قوية تقف أمام التحديات والأعداء، وكان أصحاب هذا الاتجاه يبينون للناس أنّ العلم في الإسلام أعم مما يتكلم به المستغربون، ولا ينفك عن أصول الدين.

وتمثل هذا الاتجاه بأهل العلم المخلصين الذين أخذوا ينتقدون ما آلت إليه حال المسلمين من جهل وتخلف، ويعملون على إعادة المسلمين إلى الصواب، فجوبه هذا الاتجاه وحُورب ونُعت أصحابه بالنعوت المختلفة، وروقب من المستشرقين وعملائهم في الشرق لإعاقة مسيرته كي لا تعود الصحوة للمسلمين.[1]

أقول: ومن هنا كان التحول الخطير الذي أثر بشكل مباشر على حركة التفسير، وأنشأ اتجاه التفسير العلمي الجديد، وتحول التفسير من استنباط للعلوم من القرآن كما كان عليه السلف الصالح رضي الله عنهم، ومن استخدام العلوم في فهم القرآن وشرح دلالته -كما عند الغزالي وابن العربي والرازي ومن بعدهم -، إلى إخضاع القرآن ودلالاته للمصطلحات (العلمية) الغربية، والنظريات المطروحة في الساحات الثقافية، بمنهج ردة فعل عاطفي حماسي مندفع غير منضبط، نلمس آثاره إلى الآن.

---

(١) انظر: التاريخ الإسلامي ٨/ ١٦١، ١٦٢، واتجاهات التجديد في التفسير صـ ٧٣.





التفاسير التي أخذت اتجاه التفسير العلمي في هذا العصر:

يعد تفسير (روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني) للعلامة محمود الآلوسي (١٢٧٠هـ)[١]؛ من أبرز التفاسير التي أخذت اتجاه التفسير العلمي[٢]، فقد تعرض الشيخ رحمه الله للمسائل الكونية وأسهب في الكلام عليها، ويذكر في تفسيره ما يقوله أهل الهيئة والحكمة، ويقر من كلامهم ما يرتضيه ويفند ما لا يرتضيه[٣]، كما سجل في تفسيره موقفه من بعض ما يسمعه عن العلوم في أوربة فيعلق عليها منتقداً حسبما فهم من القرآن.[٤]

---

(١) محمود بن عبد الله بن درويش الآلوسي نسبة إلى قرية آلوس البغدادي الشافعي، ولد (١٢١٧هـ، ١٨٠٢م)، كان من آيات الله، جمع ودرس الكثير من العلوم حتى نبغ في معرفة المنقول والمعقول، وأصبح عالماً بالأصول والفروع، وعرف بألمعيته وتآليفه وعمره ثلاث وعشرون سنة، درس خلقاً كثيراً وتخرج على يديه كثير من العلماء من بلاد مختلفة، توفي سنة (١٢٧٠هـ، ١٨٥٤م).

انظر ترجمته: التفسير والمفسرون: ١/ ٣٥٢، معجم المفسرين لنويهض: ٢/ ٦٦٥، معجم المؤلفين ٣/ ٨١٥، التفسير ورجاله محمد الفاضل بن عاشور صـ ٤٣٦ ط دار المعارف الطائف ١٤٠٧هـ.

(٢) فقد شرع الآلوسي في تفسيره عام (١٢٥٢هـ) وفرغ منه عام (١٢٥٧هـ) فهو إذن ألف في مرحلة الأنفاس الأخيرة للدولة العثمانية، انظر: معجم المفسرين ٢/ ٦٦٥، التفسير ورجاله صـ ٤٤٨.

(٣) انظر: التفسير والمفسرون ١/ ٣٨٥، موارد الظمآن صـ ٢٣١، علوم القرآن د. عتر صـ ٩٣.

(٤) روح المعاني ٥/ ٣٨٠.



وقد تأثر الآلوسي بطريقة الإمام الرازي في تفسيره فمشى عليها، ولكن غير مستسلم له؛ بل كان يتابع عليه في مواطن عديدة إما مستعينا بنقد النيسابوري للرازي، أو ينتقده بما استجد لدى الآلوسي من معارف في عصره.[1]

وثمة كتاب يصب في هذا الاتجاه من التفسير كتبه السيد محمود شكري حفيد المفسر أبي الثناء الآلوسي[2]، وهو كتاب: (ما دل عليه القرآن مما يعضد الهيأة الجديدةَ القويمةَ البرهانِ)، فقد ألفه مساندة لقول فيثاغورث، الذي شاع في زمنه: بأن حركة الأرض اليومية والسنوية على الشمس، وأنها هي مركز نظامها وأن الأرض إحدى الكواكب السيارة، وأنها سابحة في الجو معلقة بسلاسل الجاذبية وقائمة بها؛ كسائر الكواكب[3]،

---

(١) ينظر: اتجاهات التفسير في العصر الراهن د. المحتسب صـ ٢٦٢، وعد بعض الباحثين عمل الآلوسي في تفسيره مثالاً لمنهج الإمام السيوطي الذي اختطه في مقدمة تفسيره، انظر: القرآن العظيم هدايته وإعجازه الصادق عرجون صـ٣٤٢.

(٢) السيد محمود شكري بن عبد الله بن محمود الآلوسي، ولد في بيت جده المفسر ببغداد ١٢٧٣هـ/ ١٨٥٦م، وتعلم على أبيه وغيره، وعاش حياته تحت راية الخلافة العثمانية وعاصر ضعفها، ثم زوالها وقضى ثمانية أعوام في الاحتلال البريطاني، وطلب للقضاء في عصر الاحتلال فرفض، وله العديد من المؤلفات وأشهرها بلوغ الأرب في علوم العرب، وما دل علي القرآن، توفي سنة (١٣٤١هـ/ ١٩٢٤م) انظر ترجمته في كتاب: السيد محمود شكري الآلوسي وبلوغ الأرب د. إبراهيم السامرائي صـ٧، ط المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر العراق الأولى ١٤١٢هـ.

(٣) انظر: ما دل عليه القرآن مما يعضد الهيأة الجديدةَ القويمةَ البرهانِ للآلوسي صـ٣ تحقيق زهير شاويش ط المكتب الإسلامي الأولى ١٩٦٠.

ثم يقول: (وقد رأيت كثيراً من قواعدها لا يعارض النصوص الواردة في الكتاب والسنة على أنها لو خالفت شيئاً من ذلك لم يلتفت إليها)[1]، ثم يتكلم عنها متناولاً كل ما يتعلق بذلك من كل سورة سورة.

ثم ظهرت مؤلفات اهتمت بهذا الجانب فيما بعد، فمن أشهر الكتب التي ظهرت فيها نزعة التفسير العلمي للآيات القرآنية: (كشف الأسرار النورانية القرآنية فيما يتعلق بالأجرام السماوية والأرضية والحيوانات والنباتات والجواهر المعدنية) للطبيب محمد أحمد الاسكندراني.[2]

ومن الملاحظ أن اتجاه التفسير العلمي بعد الآلوسي صار يأخذ طابع تناول القضايا الكونية في موضوعات من القرآن الكريم - الذي نسميه اليوم التفسير الموضوعي-، وأننا نجد أغلب الكاتبين في هذا الاتجاه بالتفسير هم من أهل الاختصاصات الكونية والتطبيقية، ومن هذه الكتابات أخذ طابع المحاضرات.[3]

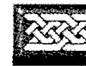
---

(١) انظر: ما دل عليه القرآن مما يعضد الهيأة الجديدةَ القويمةَ البرهانِ للآلوسي صـ٣.

(٢) محمد بن أحمد الاسكندراني١٣٠٦ هـ =١٨٨٩م طبيب، باحث، من أهل الاسكندرية. عمل في العسكرية البحرية بمصر إلى سنة ١٢٥٦ هـ. ورحل إلى دمشق فتولى رياسة أطباء الجيش إلى سنة ١٢٥٨ وتوفي بدمشق. وله العديد من المؤلفات التي تعني بتجلية العلوم في القرآن. انظر ترجمته: الأعلام للزركلي ٦/ ٢١.

(٣) انظر: اتجاهات التفسير في العصر الراهن د. المحتسب صـ ٢٦٣ و صـ ٢٦٤، وقصة التفسير د. أحمد الشرباصي صـ٨٨ ط دار الجيل بيروت الثانية ١٩٧٨.

ومما ألف في هذا الاتجاه: رسالة عبدالله باشا فكري في مقارنة بعض مباحث الهيئة بالوارد في النصوص الشرعية، ورسالة في تطبيق الهيئة الجديدة الآثار على بعض الآيات الشريفة وبعض الأخبار، لإبراهيم فصيح الشهير بحيدري زاده البغدادي. =



= ومن ذلك محاضرات الأستاذ محمد توفيق صدقي في سنن الكائنات، كتاب (رياض المختار) للعالم الرياض أحمد مختار باشا الغازي، الذي تناول في كتابه موضوع بحث الآيات الكونية في القرآن. انظر: قصة التفسير د. أحمد الشرباصي صـ ٨٨.



الفصل الثاني

التفسيرُ العلميّ للقرآن في العصرِ الحديث

- تمهيد: في بيان حالة العالم الإسلامي.
- المبحث الأول: التفسير العلمي للقرآن في القرن الرابع عشر الهجري .
- المبحث الثاني: بدايات الانحراف في التفسير العلمي للقرآن، وموقف الاستشراق من التفسير العلمي.
- المبحث الثالث: التفسير العلمي للقرآن في مطلع القرن الخامس عشر حتى يومنا هذا.



تمهيد:

في بيان حالة العالم الإسلامي.

(أقبل القرن الرابع عشر على الشرق الإسلامي كما قيل: يسير على قدمين من ليل ونهار، ويطير بجناحين من كهرباء وبخار، فأيقظ مقدمه النفوس من سباتها إيقاظاً مزعجاً وهز الأفكار هزاً عنيفاً، ثم أوقفها أمامه خائرة غير تامة الانتصاب، فتح الشرق عينيه على الوجود الذي واجهه من جديد بعد نومته العميقة، ونظر إلى الدنيا التي كان قد أعرض عنها وذهل عن مراقبتها برهة قصيرة فيما يحسب؛ فإذا هي غير الدنيا التي كان قد عرفها قبل إعراضه وذهوله، وإذا هو كالرجل الذي أماته الله مئة عام ثم بعثه، قال كم لبثت ؟، قال: لبثت يوماً أو بعض يوم!.).[1]

لقد تمكن المعنى الأوربي الجديد للعلم - الذي استقدم مع البعثات العلمية- تمكن في الأوساط الثقافية بين شباب المسلمين، وابتلي المسلمون بصراع يقوم على الجدلية العدائية بين الدين والعلم، وأشيع في الأوساط العلمية والفكرية أن كل شيء لا يخضع للعقل والحس والتجربة كان خرافة وتفاهة، وأن الدين من الخرافات لوجود الغيبيات فيه، ولأنه سبب تخلف الأوربيين من قبل، ولا بد أنه سبب تخلف المسلمين من بعد، وغذيت فكرة التعارض بين العلم والدين بدخول الاحتلال بآلته الحربية، وسيطرته على وسائل التعليم في البلاد الإسلامية، وأشاعوا فكرتهم المشهورة أن العالم الإسلامي

---

(١) انظر: التفسير ورجاله لابن عاشور صـ٤٥٨ فما بعد، الإسلام في القرن العشرين، عباس العقاد صـ٨٦، ط دار الكتب الحديثة، الأولى ١٩٥٤.



لن يخرج من رجعيته وتخلفه إلا بما خرجت به أوربة؛ وذلك بأن يتخلصوا من الدين ويفصلوه عن حياتهم وسلطتهم المدنية، ويلتفتوا للعلم بمفهومهم.(١)

ثم عزز ذلك ظهور الأحزاب القومية والعلمانية، التي كان يرعاها بعض العرب غير المسلمين في المجتمعات الإسلامية، وأعلن عند ذلك الحرب على الدين باسم العلم، وكان هذا الصراع إيذاناً لنقل أمراض البلاد الأوربية في الفكر والسياسة والاجتماع إلى بلاد المسلمين.(٢)

وزاد في الأمر بلية اجتراء أنصاف العلماء على الفتيا، وتحريمهم تعلم العلوم الصناعية والتقنية بحجة أنها وافدة من بلاد الكفر، مع أنها كانت تقرأ في مدارس المسلمين من القرن الثالث إلى القرن التاسع الهجري في جملة العلوم التي لها ارتباط بالشرع، فغدا التعليم في المدارس والجامعات في البلاد الإسلامية لا يرتبط ارتباطا صحيحا بالإسلام، فانتشرت الفوضى العقلية والعلمية وسادت على الساحة الثقافية والاجتماعية في بلاد المسلمين.(٣)

---

(١) ينظر: اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر د. فهد الرومي ٢/ ٧١٦، وتغير مفهوم العلم صـ ٤٢ من البحث.

(٢) انظر: اتجاهات التفسير في العصر الراهن د. المحتسب صـ ٢٦١، ويغالطونك إذ يقولون، د. محمد سعيد رمضان البوطي صـ ١٣٩ ط دار الفارابي، نحو القرآن د. محمد البهي صـ ١٤٨،١٤٩، ط مطبعة التقدم أولى ١٣٩٦هـ، التفسير ورجاله لابن عاشور صـ ٤٦٥، ٤٦٦.

(٣) انظر: التفسير ورجاله صـ ٤٦٨. و: اتجاهات التجديد في مصر صـ ٤٧، التفسير العلمي للقرآن في الميزان صـ ٣٤٣.



وفي هذه الأثناء نشطت الدراسات الاستشراقية حول الإسلام وتوجهت نحو القرآن والسنة، (وكان هدف المستشرقين من دراساتهم: إضعاف مثل الإسلام وقيمه العليا من جانب، وإثبات تفوق المثل الغربية وعظمتها من جانب آخر، وإظهار أي دعوة إلى التمسك بالإسلام بمظهر الرجعية والتأخر)[1]، وترويج بشرية النص القرآني وإخضاعه لعمليات الدراسة الأدبية البشرية.

انتبه لهذا الخطر المهول جماعة من علماء المسلمين، فأرادوا تنبيه الناس لحقيقة الإسلام وإعادتهم للجادة السليمة وإحياء معاني الإسلام في نفوسهم وبعثها من جديد في المجتمع، ولكن (كانت محاولات أخرى منصبة إليهم من الغرب ومن الشرق، تتجه إلى قطع أملهم من تجديد كيان العالم الإسلامي، وتروج في نظرهم عظمة الحضارة الأوربية وضرورة الإقبال عليها، وأن للإسلام شأنه الزائل، ولتلك الحضارة يومها المائل).[2]

(١) انظر: معالم الثقافة الإسلامية د. عبد الكريم عثمان صـ٩٨،ط مؤسسة الرسالة أولى ١٤٢٠هـ، وموقف المستشرقين صـ ١٧٠ من البحث.

(٢) انظر: التفسير ورجاله صـ ٤٦٨. وقد تعاون على زرع العقبات أمام علماء المسلمين واليقظين المخلصين المستشرقون والإدارات الأجنبية الحاكمة مع عملاء الغزو الفكري المتغربين من سياسيين وعسكريين ومفكرين، انظر للتوسع: اتجاهات التجديد في مصر صـ ٤٢ وصـ ١٠٥، ونحو القرآن د. البهي من صـ ١٣٦ إلى صـ ١٥٤.







المبحث الأول:

التفسير العلمي في القرن الرابع عشر الهجري.

لم تسجل حركة التفسير العلمي بشكل خاص -كما هي حركة التفسير للقرآن بشكل عام- تقدماً أو تطوراً جاداً بعد الآلوسي رحمه الله، بل أخذت طابع الجمود على تحليل الألفاظ والنقل والنسخ والاعتماد على ما سبق، وأمثل من حاول في التأليف في التفسير كان يقصر محاولته على تفسير سورة أو آية؛ يجرد تفسيرها من جملة التفاسير التي تقع له، ويجعل ذلك كتاباً أو رسالة تحمل اسمه، وبقي الأمر على هذه الحال حتى وصل إلى الشرق الإسلامي (أعلام النهضة العلمية) القادمة من الغرب تبرق وترعد، فشمر فريق من العلماء النابهين وأسرعوا ينظرون في مضمون هذه النهضة الوافدة، فهالهم ما رأوا فيها من المذاهب المستحدثة في العقائد والفلسفات، والمذاهب المختلفة في الاجتماع والاقتصاد، ونظريات مبتدعة في العلوم والمعارف وأنظمة الحكم والقضاء و... غيرها، فاتجهت هذه الطليعة من العلماء نحو القرآن العظيم ليتعرفوا دستورهم منه، فرأوا أمامهم مجموعة كبيرة من التفاسير التي تحمل مختلف المعارف والعلوم في العصور الماضية[1]، فنبههم ذلك إلى تخلفهم عن مواكبة المستجدات ومخالفتهم لمنهج أسلافهم العلماء المسلمين الذين كانوا يجعلون من القرآن مبدأً لتطوير معارفهم وتوسيع مداركهم، فأخذوا يعملون في التعويض عن التقصير المتراكم وترقيع الخرق الكبير.

---

(١) انظر: اتجاهات التفسير في العصر الراهن د. المحتسب صـ ٢٦١، والقرآن العظيم هدايته وإعجازه، محمد الصادق عرجون صـ ٢٤٠- ٢٤١.





ولكن نظراً لاختلاف معارف العلماء الناهضين في إيقاظ الأمة في التاريخ والعلوم وأسلوب فهم القرآن الكريم، وتأثرهم بالوافد الأجنبي من أوربة، فإن مناهجهم في الأخذ من القرآن وتفسيره اختلف تبعاً لذلك:

١- فمنهم من جاءت أعماله مشوبة بعلائق ورواسب من تلك النظريات والفلسفات الوافدة، فأدخلها في تفسيره وراح يعتسف الطريق اعتسافاً، ويخضع نصوص القرآن لها ويحمله عليها حملاً لا ترتضيه لغة العرب التي نزل القرآن بها، فأخذوا بالغلو في هذا الاتجاه وعلى رأسهم محمد عبده وطنطاوي جوهري - وسيأتي الكلام فيهما - وعبد الرحمن الكواكبي[1]، وأمثالهم ممن اشتغل بهذا الاتجاه، لافتتانهم بأوربة؛ ليقولوا للغرب: إن كنتم تفوقتم علينا في العلم والصناعة فإن كتابنا القرآن ليس سبباً لتخلفنا بل إن فيه أصول العلوم.

٢- ومنهم من حاول التحرز عنها، وجاهد ليسير بعزم جديد يدفعه إلى تناول ما أمامه من هذه المستحدثات الوافدات والنظريات؛ بفكر ثاقب وجأش رابط، ويجدَّ في كتابه ومبادئه ومثله مساغاً لها ومحلاً فيها[2]، فكان الاعتدال سمتهم في هذا الاتجاه وأبرزهم:

---

(١) عبد الرحمن بن أحمد بن مسعود الكواكبي، (١٨٥٥- ١٩٠٢م) من الكتاب الأدباء، ولد وتعلم في حلب، وأنشأ فيها جريدتي: (الشهباء)، و(الاعتدال) فأغلقتا، وأسندت إليه مناصب عديدة. ثم رحل إلى مصر. وساح واستقر في القاهرة إلى أن توفي، له: أم القرى، وطبائع الاستبداد، وغيرهما. انظر: الأعلام للزركلي ٣/ ٢٩٨، معجم المؤلفين ٥/ ١١٥.

(٢) انظر: اتجاهات التجديد في مصر صـ٤٧ - ٤٨، القرآن العظيم هدايته وإعجازه صـ ٢٤٣.





جمال الدين القاسمي[1]،

وعبد الحميد بن باديس[2]،

ومحمد بن الطاهر عاشور[3] وأمثالهم.

ويقاربهم في هذا التوجه الشيخ سعيد النورسي[4] رحمه الله، ولكنه كان ذا رؤيةٍ نادرة في زمنه للتفسير العلمي، ومنهجٍ مباين للشيخ محمد عبده في الإصلاح، فكان يرى أنه بدلاً من أن نقول عن علم أو نظرية تجريبية يقررها الغرب: إن هذا الأمر مقرر في

---

(١) جمال الدين بن محمد سعيد القاسمي الحلاق (١٨٦٦ - ١٩١٤م) إمام الشام في علوم الدين وفنون الأدب الفقيه المفسر المشارك في مجمل العلوم الشرعية له آثار علمية عديدة من أهمها التفسير محاسن التأويل وقواعد التحديث. انظر: معجم المفسرين لنويهض ١/ ١٢٧، الأعلام ٢/ ١٣٥. الموسوعة الميسرة ٣/ ٢٤٤٣.

(٢) عبد الحميد بن محمد بن باديس (١٨٨٧ - ١٩٤٠م) رئيس جمعية العلماء في الجزائر ولد في الجزائر ودرس في الزيتونة وأصدر مجلة الشهاب وجاهد ضد الاحتلال الفرنسي وحملاته التنصيرية وتأثر بفكر الأفغاني وعبده وابن عاشور وله تفسير القرآن. انظر ترجمته: الأعلام ٣/ ٢٨٩، معجم المؤلفين ٥/ ١٠٥.

(٣) محمد الطاهر بن محمد بن عاشور (١٨٧٩ - ١٩٧٣م) رئيس المفتين المالكيين في تونس وشيخ جامع الزيتونة وفروعه المحقق المفسر البارع المشهور صاحب التحرير والتنوير ومقاصد الشريعة. انظر: الأعلام ٦/ ١٧٤، معجم المؤلفين ٣/ ٣٦٣، الموسوعة الميسرة ٣/ ٢٥٦٥.

(٤) سعيد النورسي (١٨٧٣ - ١٩٠٦م)، الشيخ المجدد المصلح المجاهد العالم الزاهد، ترك العديد من المؤلفات كالكليات والرسائل وإشارات الإعجاز وغيرها.
انظر ترجمته في: إعجاز القرآن وأبعاده الحضارية في فكر النورسي عرض وتحليل، د. زياد خليل محمد الدغامين صـ ٥، ١٧، ط دار النيل أزمير أولى ١٩٩٨.



الإسلام ثم نتكلف له، علينا أن نرصد الحقائق والتصورات التي سطرها القرآن حول المسائل الجوهرية وهي: الله الخالق، والإنسان الخليفة، والكون المخلوق، والحياة الأولى، والحياة الأخرى، والنبوة الخاتمة، وهذه القضايا جميعها نملك فيها رصيداً معرفياً هائلاً، يخولنا أن نطرح أنفسنا بديلاً حضارياً ومعرفياً عن الفلسفة الغربية ومدنيتها وعلومها.(١)

٣- ومنهم من عارض هذين المنهجين، ووجد في عمل هؤلاء وهؤلاء خروجاً عن الجادة، ورأوا أن نهضة الأمة لا تكون بهذا النوع من التفسير ومسايرة النظريات وإخضاع القرآن لها، ومحاولة إيجاد مكان لكل جديد آت من أوربة في القرآن ولو على حساب أصول التفسير ولي عنق النصوص القرآنية، فأخذوا في معارضة هذا الاتجاه من التفسير والتشنيع على العاملين به وأبرز هؤلاء محمد رشيد رضا ومحمود شلتوت(٢) وأمثالهما.

٤- وأسرف بعضهم في هذا الاتجاه، إذ جعلوا النظريات العلمية والتصورات الفلسفية والخيالية مسلمات -فقط لأنها أتت من أوربة- وأخذوا ينقبون في القرآن عما يوافق ذلك، ولو تعلقوا بأهداب دلالة أو بظل معنى قد يوصلهم إلى مرادهم، ولعلهم

---

(١) انظر: إعجاز القرآن وأبعاده الحضارية، د. الدغامين صـ ٢٥٤.

(٢) محمود بن محمد شلتوت فقيه مفسر مصري تخرج بالأزهر وكان داعية إصلاح (١٣١٠هـ-١٣٨٣هـ) له تفسير الأجزاء العشرة الأولى للقرآن والعديد من المؤلفات.

انظر ترجمته: الأعلام للزركلي ٧/ ١٧٣، معجم المؤلفين ٣/ ٨١٢، الموسوعة الميسرة ٣/ ٢٦٢٦.

وقد علق فضيلة المشرف هنا أن الشيخ محمود لم يعترض على التفسير العلمي في آخر حياته.





يردفون عملهم هذا بتبرير تقريب صورة الإسلام لأذهان الأوربيين وتحسين صورته عندهم، فأصبح عملهم يزيد افتتان الناس بالحضارة الغربية، يغريهم بها ولا يصدهم عنها، لأنه كان يعني عند الناس أن هذه الحضارة أصبحت هي المقياس الذي تقاس به صحة الأشياء وفسادها؛ وأن النصوص الإسلامية من القرآن والسنة لا تصح إلا إذا وافقت ما جاءت به تلك الحضارة.(١)

فكانت معارضة أغلب المعارضين له -فيما أحسب- لا لذات النوع من التفسير؛ وإنما لأوصاف مقترنة فيه؛ وهي الغلو والخروج عن أصول العلم، والتأويل الذي قد يمس العقيدة وضروريات الشرع من قبل المشتغلين به، مما جعل بعض المشتغلين بتفسير القرآن يقفون أمام هذه الظاهرة موقف الداعي للتأني والاستبصار، من خلال بيان أن حقائق القرآن حقائق نهائية قاطعة مطلقة، أما نتائج البحث العلمي التجريبي؛ فهي حقائق غير نهائية وليست قاطعة بل هي مقيدة بحدود التجارب وظروف هذه التجارب وأدواتها.(٢)

ولكن يجب أن نضع هذه الاتجاهات المختلفة في إطار الحالة العامة لذلك العصر، والهزيمة النفسية التي كان يعاني منها وقد تقدم الإشارة إليها، ولعل ذلك أحد الأسباب في وقوع الاضطراب الفكري في كيفية تصور منهج التفسير العلمي والحكم عليه من المعارضين أكثر من المؤيدين، (فبينما يؤكد المعارضون في نصوصهم الكثيرة

---

(١) انظر: أزمة العصر، القرآن والمكتشفات العلمية، محمد محمد حسين، صـ ٩٦ ط دار عكاظ الرياض ١٣٩٩.

(٢) منهم سيد قطب انظر ما كتبه في: ظلال القرآن ٢/ ٩٨، ٩٩ ط دار إحياء التراث دت.



على التحذير من سلوك هذا المنهج والتطرف فيه؛ نجد تفاسيرهم لا تخلو من ذلك التطرف في الاستدلال بالعلوم الحديثة عند تفسير النصوص القرآنية).[1]

---

(١) منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير د.فهد الرومي صـ ٢٧٠ ط الرياض ثانية ١٤٠٣هـ، وذكر د. الرومي أمثلة عديدة من كتب الذين عدهم الشيخ الذهبي من المعارضين للتفسير العلمي ولكنهم اشتغلوا به. انظر: التفسير والمفسرون للذهبي ٢/ ٥١٨.



المبحث الثاني:

بدايات الانحراف في التفسير العلمي، وموقف الاستشراق من التفسير العلمي.

إن استمرار الانحراف بتفسير القرآن عن الصواب ومحاولة تطويع النصوص لما سمي بالعلم والعقل عند المشتغلين بهذا الاتجاه؛ لم يكن وليد ردة فعل من أغلب المفسرين في هذا الاتجاه فقط؛ وإنما جرأهم على ذلك المنهج العقلي المستغرِب الذي بدأ ينتشر في العالم الإسلامي.

وترجع بدايته إلى المدرسة الهندية بزعامة سيد أحمد خان، ثم تزعمها في الشطر العربي من العالم الإسلامي الشيخ محمد عبده في التفسير، الذي يعدُّ رائد المدرسة العقلية الحديثة في التفسير،وكانت أفكار شيخه جمال الدين الأفغاني الأرضية المتينة التي بنى عليها الشيخ محمد عبده دعوته العلمية والفكرية.

وقد ساعد على انتشار فكر محمد عبده ورواج منهجه في التفسير ما كان ينشره هو وشيخه في مجلة العروة الوثقى، وما اجتهد به تلميذه محمد رشيد رضا من خلال نشر مقالاته ودروسه في التفسير في مجلة المنار ـ التي كان لها الفضل الحقيقي في نشر طريقة محمد عبده العقلية ـ وتابعه عليها في تفسير المنار، مما جعل لهذه الطريقة في التفسير رأياً عاماً في أوساط طلاب العلم والمثقفين وأوجدت لها أنصاراً، وساعد على تقبلها ورواجها الهزيمةُ النفسية والعلمية والعسكرية التي كان يعيشها العالم الإسلامي، فكانوا يعتبرون هذه الطريقة في التفسير طريقة المتنورين المتقدمين التي ستنقذهم مما هم فيه.[1]

---

(١) ينظر: التفسير بين الماضي والحاضر د. عبد الله شحاته صـ٢٢ فما بعد ط دار الاعتصام دون تاريخ.





وقد أغرق شيخ المدرسة العقلية وتلامذته في تحكيم العقل حتى عد محمد عبده النظر العقلي الأصل الثاني من أصول الإسلام وقدم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض.(١) وقد أدى بهم تحكيم العقل المجرد عن النص، إلى أن شطحوا بعقولهم شطحات وهفوا هفوات في القرآن والسنة، بل في جوانب كثيرة من العقيدة(٢)، حتى عد بعض الباحثين منهجهم في التفسير في ضمن منهج المعتزلة في التفسير، مع أنهم من أهل السنة والجماعة.(٣)

ولذلك فإني سأتناول هؤلاء بدراسة مقتضبة لأسلوبهم في التفسير ليتبين لنا أثرهم فيمن بعدهم، ثم أدرس منهج طنطاوي جوهري في تفسيره لكونه أقرب تفسير لعصرهم وأول تفسير للقرآن كاملاً يتبنى هذا الاتجاه، وكان له الأثر السلبي أيضاً على التفسير العلمي فيما بعد:

١- **سيد أحمد خان بهادر (١٢٣٦، ١٣١٤هـ - ١٨١٧، ١٨٩٨م).**(٤) ما يهمنا من

---

(١) وانظر: الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية لمحمد عبده صـ ٢٧-٧٥، ط دار المنار السابعة ١٣٦٧.

(٢) اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، د. الرومي ٢ / ٧٢٩.

(٣) التفسير بالرأي قواعده و ضوابطه وأعلامه، د. محمد حمد زغلول صـ ٤١٩.

(٤) ولد في دلهي من عائلة فقيرة ذات عراقة وصلة ونفوذ بالحكام المغول، قرأ القرآن في صغره ولم يكن له حظ من علوم العربية والهيئة والرياضيات، فانقطع عن التعليم ومال إلى اللهو واللعب والحفلات في شبابه، ثم التحق بالخدمة للحكومة الإنكليزية في سلك القضاء، ثم أقبل بعد ذلك على التعليم من جديد ثم ألف في التاريخ والسيرة ليحقق هدفه في تقليد الإنكليز وحضارتهم والتقى بكبار المسؤولين البريطانيين عندما زرار بريطانيا ووصل للمملكة، وكان يرى أن ولاء المسلمين للإنكليز هو السبيل الوحيد لإنقاذهم، ولما عاد من بريطانيا إلى الهند متشرباً ومتشبعاً بما شاهد وسمع هناك؛ أراد أن يفتح أعين المسلمين إلى عظمة الحضارة=

أعماله كتابه (تفسير القرآن)، فقد أراد من هذا التفسير أن (يثبت أن الإسلام وتعاليمه لا تتعارض مع قوانين الطبيعة، لأن القرآن كلمة الله، وقوانين الطبيعة هي فعل الله، ولا يتعارض كلامه مع فعله، فمن أجل ذلك وضع هذا التفسير؛ مخالفاً كلام العرب وآراء السلف وإجماعهم لمحاولته تأويل ما ظنه تعارضاً بين كلام الله وقوانين الطبيعة، ويقصد بالطبيعة نفس المعنى الذي استعمله علماء أوربة في القرن التاسع عشر للميلاد: نظام كوني مغلق يخضع لقوانين عمياء، ليس فيها أي مجال للخرق والاستثناء)[1]، ولذلك نجده ومن يتبعون طريقته ينكرون المعجزات أو يؤولونها لتخضع لمنطق العقل أو القانون الطبيعي على المفهوم الأوربي السابق، ولذلك نجد سيد خان يستخدم مفهومين لتقديم تفسير عصري للقرآن لا يناقض -كما يعتقد- قوانين الطبيعة:[2]

= الغربية فتعاون لذلك مع الإنكليز سياسياً وثقافياً وأول الإسلام فكرياً بما يلائم الحضارة الغربية، يعده أتباعه رائد الحركة التجديدية العصرية في العالم الإسلامي، من أعماله: تفسير القرآن، مجلة تهذيب الأخلاق وكلية عليكرة وصارت الآن جامعة (ولاء المسلمين في الهند) و(أحكام طعام أهل الكتاب) و(تبيين الكلام).

انظر: ترجمته في آراء المستشرقين حول القرآن الكريم وتفسيره (دراسة ونقد) د. عمر إبراهيم رضوان ٢/ ٧٩٠، ٧٩١، ط دار طيبة الرياض أولى ١٩٩٢م. ومذاهب التفسير لجولد تسيهر صـ ٣٤٧ ترجمة د. عبد الحليم النجار ط دار إقرأ الثانية ١٤٠٣ هـ، وللتوسع في معرفة مبادئه ينظر كتاب: أثر الفكر الغربي في انحراف المجتمع المسلم في شبه القارة الهندية تأليف خادم حسين إلهي بخش صـ ٣٥١ فما بعد ط دار حراء الأولى ١٩٨٨ وهو في الأصل رسالة دكتوراه في جامعة أم القرى في مكة المكرمة.

(١) آراء المستشرقين ٢/ ٧٩٣.

(٢) آراء المستشرقين ٢/ ٧٩٤.وتفسيره مطبوع بالأوردية فقط.





● أولها:

مفهوم المحكم والمتشابه، الذي في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞ ﴾ [آل عمران:٧].

فهو يرى أن هذا التقسيم دليل على أن الإسلام هو دين الطبيعة، فالآيات المحكمة هي الأساسية وهي التي تشتمل على أساسيات العقيدة، وأما المتشابهة هي الرمزية وهي التي تساير تطور معارف البشر، فقد تصلح لطور دون طور، لذا فلا يجوز عنده التمسك بالفهم القديم لأن هذه الآيات قابلة للتغيير لما يلائم العصر الجديد.

● ثانيها:

يعتبر خان القرآن مشتملاً على حقائق أساسية هي المقصودة بالحديث، ولكن هذه المعاني الأساسية تصاحبها معان ثانوية وفرعية مأخوذة من بيئة العرب وظروفهم ولا يعني ذكر القرآن لها أنها حقائق.

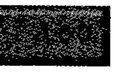
ولذلك فهو يرفض الاستدلال بالحديث في تفسير القرآن كأساس لفهم الدين؛ محتجاً أن هذه الأحاديث لم تدون في العهد النبوي بزعمه، وإنما دونت في القرن الثاني الهجري، الذي كان مضطرباً بالصراعات السياسية والاختلافات الدينية، مما سبب الوضع في الحديث، كما أن رواية الحديث بالمعنى جعلته عرضة لفهم الراوي وليست كلام الرسول ﷺ.



٢- جمال الدين الأفغاني (١٢٥٤ ـ ١٣١٤ هـ ١٨٣٩ـ ١٨٩٧م)(١)، فقد كان يدعو إلى دراسة القرآن الكريم والكشف عن كنوزه، ويتأسف على التعمق في تفسير باء البسملة ومخرج الصاد، ويقلل من شأن ما تراكم على القرآن وتجمع حوله من آراء المفسرين وما استنبطوه من أحكام، وهو مع ذلك لا يتناول من الآي إلا ما قل، ولا يفسر إلا ما يدعم به قوله؛ من غير بيان للجوانب الأخرى، ومع قلة أعماله التفسيرية، فإننا نجد في هذا القليل إسقاطاً للأسماء الحديثة والاختراعات المبتكرة والألقاب السياسية على دلالات القرآن الكريم وإخضاعها لها، ففي تفسير سورة سبأ في قصة

---

(١) جمال الدين بن صفدر الأفغاني (١٢٥٤- ١٣١٤هـ) ولد في أسعد آباد من قرى كابل الأفغانية، أو في أسعد آباد قرب همدان الإيرانية، ويقال: إنه آثر أن ينسب نفسه إلى أفغانستان لأسباب سياسية، وصفدر من ألقاب سيدنا علي رضي الله عنه عند الشيعة يعني مقتحم الصف، وكان الأفغاني يؤكد على نسبه لرسول الله صلى الله عليه وسلم من طريق الحسين رضي الله عنه وأنه من أفغانستان، ولكن شكك بعض العلماء في ذلك وأثبتوا عكسه من خلال تتبع نسبه،كما فعل الشيخ أبو الهدى الصيادي رحمه الله فقال برسالة للشيخ رشيد رضا أرسلها من الآستانة: (وقد ثبت في دوائر الدولة رسمياً أنه مازندراني من أجلاف الشيعة)، وكان له نشاط مميز في الماسونية أثر على تصرفاته وأقواله وخطاباته إذ عد دخول العرب لمصر (فتح مصر) استعباداً واستبداداً قرنه باستعباد اليونان والروم انظر ترجمته في: التفسير ورجاله لابن عاشور من صـ ٤٧٠ إلى صـ ٤٧٧، منهج المدرسة العقلية، د. فهد الرومي من صـ ٧٥ إلى صـ ١٢٣، ففيها ترجمة قيمة وافية مدعمة بالوثائق. وقضايا إنسانية في أعمال المفسرين، د. عفت الشرقاوي صـ ٢٤١، إلى صـ ٢٤٤. وقادة الفكر الإسلامي عبر القرون عبد الله بن الرويشد من صـ ٢٦٥ إلى صـ ٢٨٧، ط مصطفى بابي الحلبي، وجمال الدين الأفغاني والاتجاهات الإسلامية في أدبه د. عبد الحليم محمود ط دار عكاظ للنشر ١٤٠٠ هـ ١٩٨٠م.



الملكة مع سيدنا سليمان يقول: (فلما جاء الكتاب إلى ملكة سبأ جمعت فوراً مجلس الأمة ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ [النمل:٣٢].

وبعد أن تداول مجلس الأمة - الوزراء اليوم مثلاً- واستخرجوا إحصاء من سجلاتهم بما عندهم من المعدات الحربية؛ أعلنوا للملكة وأنبؤوها أن في إمكانهم محاربة سليمان بما توفر لديهم من القوة إذا هي وافقت على إعلان الحرب، ﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ [النمل:٣٣].

ثم يقول الأفغاني بعد ذلك: (فرد سليمان الهدية وتحفز لإخراج الملكة وقومها أذلة بالحرب **وأراد أن يريها ما لديه من القوى وما تسخر له من رياح يمتطيها وتجري بأمره -طيارات مثلاً- وسرعة نقل الأخبار والأشياء بأسرع من البرق - التلغراف اللاسلكي مثلاً -)**.(١)

وتعدى الأمر عند الأفغاني للكلام في الأمور الغيبية؛ ليعطيها تصوراً طبيعياً لا علاقة له بالآية التي يفسرها.

ومثال ذلك عندما يفسر قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٧].

يقول: (أي خارجة عن محورها غير راضخة للنظام الشمسي وإذا ما حصل ذلك فلا شك يختلف ما عرف من الجهات اليوم فيصير الغرب شرقاً والجنوب شمالاً وبذلك

---

(١) منهج المدرسة العقلية فهد الرومي صـ ٨٨،٨٩.

الخروج عن النظام الشمسي وما يحدثه من الزلزال العظيم ـ لا شك ـ تتبعثر أجزاء الأرض ليعيدها عن المركز وتنسف الجبال نسفاً تتحول براكين هائلة وبالنتيجة تخرب الكرة الأرضية ويعمها الفناء بما فيها من حيوان وتقوم القيامة والله أعلم).[1]

٣- وأما الشيخ محمد عبده (١٢٦٦، ١٣٢٣ هـ - ١٨٤٩، ١٩٠٥م)[2] لم يبعد عن هذا الخط الذي رسمه أستاذه وشيخه الأفغاني، فقد كان محمد عبده في مقدمة المنتسبين إليه والآخذين عنه[3]، ثم غدا رائداً وأباً للمدرسة العقلية في العصر الحديث.

---

(١) منهج المرسة العقلية فهد الرومي صـ ٨٩.

(٢) محمد بن عبده آل التركماني ولد في مصر وتعلم بالجامع الاحمدي بطنطا، ثم بالازهر ثم درس الفلسفة، وعمل في التعليم، وكتب في الصحف ولا سيما جريدة (الوقائع المصرية) وقد تولى تحريرها، ثم سجن ونفي إلى بلاد الشام أثناء الاحتلال الإنكليزي، وسافر إلى باريس فأصدر مع جمال الدين الافغاني جريدة (العروة الوثقى)، ولماعاد إلى مصر تدرج في المناصب قاضياً فمستشاراً في محكمة الاستئناف، فمفتيا للديار المصرية واستمر إلى أن توفي بالاسكندرية، ودفن في القاهرة، وقد أثارت حياته ومسيرته جدلاً كبيراً فهو ذو علاقة بالإنكليز وانتسب إلى الماسونية ومن آثاره: تفسير القرآن الكريم لم يتمه، ورسالة التوحيد، و(الإسلام والرد على منتقديه)، و(الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية وغيرها، انظر ترجمة محمد عبده في: التفسير والمفسرون للذهبي ٢ / ٥٥٢، التفسير ورجاله لابن عاشور صـ ٤٧٨، منهج المدرسة العقلية د. فهد الرومي صـ ١٢٤، قادة الفكر الإسلامي عبر القرون عبد الله بن سعد الرويشد صـ ٢٩٠ إلى صـ ٣١٠، و الأعلام للزركلي ٦ / ٢٥٢ وما كتبه د. عثمان عنه في معالم الثقافة الإسلامية صـ ١١١.

(٣) التفسير ورجاله لابن عاشور صـ ٤٧٥. وانظر: صـ ٤٨١، منهج المدرسة العقلية د. فهد الرومي صـ ١٢٤.



ومن خلال النظر في آثار الشيخ محمد عبده في التفسير نجد في منهجه نَفَس شيخه الأفغاني من إسقاط المصطلحات العلمية الاختصاصية على دلالات القرآن، وتفسير الغيبيات والمعجزات بالطبيعيات بغير دليل أو مستند.

ومن أمثلة منهجه ما كتبه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير:٦].

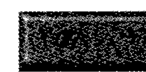
يقول محمد عبده: (أما تسجير البحار فهو أن يفجر الزلزال ما بينها حتى تختلط، وتعود بحراً واحداً، وهو بمعنى الملء فإن كل واحد ممتلئ حتى يفيض ويختلط بالآخر)، ثم قال: (وقد يكون تسجيرها إضرامها ناراً، فإن ما في بطن الأرض من النار إذ ذاك؛ يظهر بتشققها وتمزق طبقاتها العليا، أما الماء فيذهب عند ذلك بخاراً، ولا يبقى في البحار إلا النار، أما كون باطن الأرض يحتوي على نار فقد ورد به بعض الأخبار، ورد أن البحر غطاء جهنم وإن لم يعرف في صحيحها..ولكن البحث العلمي أثبت ذلك، ويشهد عليه غليان البراكين وهي جبال، كما تشهد عليه الزلازل الشديدة التي تشق الأرض والجبال في بعض الأطراف كما وقع في (جاوا) من عدة سنوات).(١)

فتجد في هذا المثال أنه يحاول تفسير أهوال القيامة تفسيراً طبيعياً بل ويعضد الأخبار الضعيفة والواهية بالعلوم التجريبية ويعتمدها بحجة ثبوت ما فيها علمياً.

وفي تفسير سورة الفيل يقول محمد عبده بعدما أجمل القول في معنى الآيات: (وفي اليوم الثاني فشا في جند الجيش داء الجدري والحصبة)، ثم ذكر أن أول ما رئيت الحصبة

---

(١) تفسير جزء عم محمد عبده صـ٢٦، ط بولاق عام ١٣٢٢ هـ.



والجدري ببلاد العرب في ذلك العام استناداً على رواية عكرمة[1]، ثم عقب على ذلك بقوله: (هذا ما اتفقت عليه الروايات ويصح الاعتقاد به)؟!.

ثم يسترسل فيقول: (وقد بينت لنا هذه السورة أن ذلك الجدري أو تلك الحصبة نشأت من حجارة يابسة سقطت على أفراد الجيش بواسطة فرق عظيمة من الطير مما يرسله الله مع الريح، فيجوز لك أن تعتقد أن هذا الطير من جنس البعوض أو الذباب الذي يحمل جراثيم بعض الأمراض، وأن تكون هذه الحجارة من الطين المسموم اليابس الذي تحمله الرياح فيعلق بأرجل هذه الحيوانات، فإذا اتصل بجسد دخل في مسامه فأثار فيه تلك القروح التي تنتهي بإفساد الجسم وتساقط لحمه، وإن كثيراً من هذه الطيور الضعيفة يعد من أعظم جنود الله في إهلاك من يريد إهلاكه من البشر، وأن هذا الحيوان الصغير الذي يسمونه الآن بالميكروب لا يخرج عنها. هذا ما يصح الاعتماد عليه في تفسير السورة، وما عدا ذلك فهو مما لا يصح قبوله إلا بتأويل إن صحت روايته).[2]

فزعم الاتفاق على مسائل مختلف فيها بل مرجوحة؛ كادعاء الاتفاق على كون الطيور هي الجدري؛ اعتماداً على رواية عكرمة مع وجود روايات أقوى منها سنداً واعتماداً عند جمهور المفسرين، بل ومن ادعاءاته ما هو مشكوك في ثبوتها لا يلتفت

(١) عكرمة بن عبد الله المدني الهاشمي العالم الحبر طلب العلم وهو ابن أربعين، كان ابن عباس يضع الكبل في رجليه على تعليم القرآن والسنة (ت١٠٤هـ) بالمدينة، انظر: طبقات المفسرين للداودي ١/ ٣٨٦.

(٢) تفسير جزء عم صـ١٥٨.

إليها؛ كادعاء انتشار مرض الجدري والحصبة في عام الفيل، ومثل هذا الكلام (لا ينبغي أن يعرج عليه لوجود هذه الأمراض منذ خلق الله العالم).[1]

وتجد تفسيره للطيور بالبعوض، أو ما يسمى اليوم بالميكروب؛ إسقاطاً للأسماء المستجدة على ألفظ القرآن وتحكيم هذه المصطلحات في دلالات القرآن الكريم بما لا يتفق مع اللغة العربية الفصيحة، فالميكروب لم يكن معروفاً في زمن الجاهلية ولا تعرفه العرب بعد الإسلام، وإنما هو اصطلاح حديث لأهل الطب لا يدخل في دلالة الآية هنا!.

ثم إن حادثة الفيل مشهودة متواترة قريبة العهد بالرسالة الإسلامية؛ فلو كان الطير الأبابيل والحجارة المرماة على الجيش مما وصف محمد عبده؛ لرأيت تكذيب المشركين لرسول الله متواتراً، بل صارت لهم الحجة في تكذيب رسالته صلى الله عليه وسلم.

وأما **الشيخ محمد رشيد رضا** (١٢٨٢، ١٣٥٤ هـ - ١٨٦٥، ١٩٣٥م)[2] فقد كان

---

(١) كما قال ابن الأثير في الكامل في التاريخ ١/ ٩٩، ط بولاق أولى ١٣٠٠ هـ.

(٢) محمد رشيد بن علي رضا القلموني، البغدادي الاصل، الحسيني النسب من الكتاب بالحديث والادب والتاريخ والتفسير. نشأ وتعلم بلبنان ثم لازم الشيخ محمد عبده في رحلته لمصر وتتلمذ له.ثم أصدر مجلة المنار. وأصبح مرجع الفتيا في التأليف بين الشريعة والاوضاع العصرية الجديدة.وأنشأ مدرسة الدعوة والارشاد بمصر، ثم انتخب في أيام الملك فيصل رئيسا للمؤتمر السوري فيها، ثم غادر سوريا على أثر دخول الفرنسيين إليها سنة ١٩٢٠م، فأقام في مصر مدة. ثم تنقل إلى أن استقر بمصر وتوفي فيها. من آثاره: تفسير القرآن الكريم ولم يكمله، الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده، وشبهات النصارى وحجج الاسلام. انظر: التفسير ورجاله لابن عاشور صـ٤٨٨، منهج المرسة العقلية د. فهد الرومي صـ١٧٠، قادة الفكر الإسلامي=

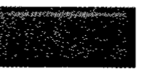
أيضاً امتداداً لشيخه محمد عبده، ومظهراً لآرائه وداعيةً لأفكاره، وكان رشيد يكتب في أثناء إلقاء الشيخ محمد عبده الدرس مذكرات يودعها أهم ما يراه من كلام شيخه، ويزيد عليها ما يراه في وقت الفراغ، ثم نشر ذلك في جريدة المنار ثم استكمل رشيد التفسير على منهج وطريقة شيخه، ثم طبعه مستقلاً في أجزاء متعددة وعرف باسم تفسير المنار لنشره على صفحات جريدة المنار، فصار بذلك تفسير المنار شاهداً بين دفتيه على آراء الشيخ محمد عبده وتلميذه، وتسري فيه روح إمامهما الأفغاني.[1]

ومع تميز تفسير المنار بالعناية بالآثار والمناسبات، والوحدة الموضوعية للسور التي يفسرها، والعناية بالعلوم الاجتماعية والطبيعية والإشارة إليها في الأماكن المناسبة لها من التفسير، وتحكيم العقل والاعتماد عليه في ذلك، والتوسع في رد الشبهات التي يثيرها أعداء الإسلام والملاحدة وأمثالهم، وغير ذلك[2]، إلا أن فيه ثلاثة مآخذ مهمة:

= عبر القرون، عبد الله الرويشد صـ ٣١٢ إلى صـ ٣٢٣،وكتاب الشيخ رشيد رضا السلفي المصلح د. محمد عبد الله السلمان منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود القصيم ١٤١٤ هـ، الأعلام للزركلي ٢/ ٣٦١، شخصيات لها تاريخ، عبد الرحمن المصطاوي صـ ٢٤٢ ط دار المعرفة بيروت أولى ٢٠٠٣.

(١) انظر: الشيخ رشيد رضا السلفي صـ ٥٩،٦٠، التفسير والمفسرون ٢/ ٥٥٣. وينظر للاستزادة كتاب منهج الإمام محمد عبده في تفسير القرآن، د. عبد الله شحاتة ط المجلس الأعلى للفنون والآداب بالقاهرة ١٩٦٣م.

(٢) انظر هذه الميزات والمآخذ المذكورة هنا مع أمثلتها في: الشيخ رشيد رضا السلفي المصلح من صـ ٦١-٦٧، التفسير بين الماضي والحاضر د. عبد الله شحاته ص٢٢وص٢٨، والتفسير والمفسرون للذهبي ٢/ ٥٥٤ في منهج محمد عبده، اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر=





١- نقله من الإنجيل مع أنه معروف عنه الإنكار لرواية الإسرائيليات ومهاجمته لمن يتساهلون في هذا الموضوع لكونهم في القرن التاسع عشر الميلادي الذي هو عصر الماديات والإلحاد.

٢- لما كانت مدرسة المنار في التفسير من أهدافها التوفيق بين الدين والعقل والدين والعلم؛ فإنه قد أصابها من المبالغة حتى أسرفت جداً في الحذر والاحتراس من تقبل الغيبيات والتسليم بها، فجرتها هذه المبالغة لتأويل الغيبيات لتساير الاتجاه الغربي في تفسير الغيبيات بالماديات، كجعل الملائكة قوة الطبيعة الخيرة، والشياطين قوة الشر، أو إضعاف الروايات الواردة فيها من السنة أو ردها ورفضها، ومع أن أكثر هذه التأويلات قد ساقها رشيد رضا حكاية عن شيخه إلا أنه أيد بعضها وسكت عن بعضها الآخر، وحاول التخفيف من حدة بعضها أيضاً، ويمكننا اعتبار هذا التوجه في مدرسة المنار تطوراً في انحراف التفسير العلمي للقرآن، الذي أثر بدوره على المشتغلين به بعد.

٣- والأخطر مما مضى هو تأويل المعجزات أو إنكارها كما أول محمد عبده حادثة الفيل في المثال السابق، وكما فعل رشيد رضا عندما أنكر المعجزات الكونية لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم فيسميها مرة شبهات ويطعن في الأحاديث الواردة فيها ويصفها بالضعف تارة وبالوضع تارة أخرى، وقد سار على ذلك في مجلة المنار وتفسير المنار وكتاب الوحي المحمدي.

= د. فهد الرومي ٢/ ٨٠٣ - ٨٥٩، واتجاهات التفسير في العصر الراهن، د. عبد المجيد المحتسب، صـ ١٢٤ إلى صـ ١٩٣. التفسير العلمي للقرآن في الميزان، د. أحمد عمر أبو حجر، صـ ١٧١ إلى صـ ١٧٧، آراء المستشرقين حول القرآن ٢/ ٨١٥ فما بعد.



وقد علل رشيد رضا ذلك بقوله: (مثل هذه التأويلات تقطع ألسنة هؤلاء الواهمين المغرورين دون الاعتراض على النصوص، أو تزيل شبهاتهم، فلا يصعب عليهم الجمع بين العلم والدين، ولأن يكون أحدهم متديناً خير من أن يكون زنديقاً أو معطلاً).[1]

إن هذا المنهج الذي سار عليه محمد عبده ورشيد رضا أخذ اهتماماً كبيراً من المستشرقين؛ -وعلى رأسهم جولد تسيهر[2]-، واعتبروها من الحركات الإصلاحية، وأشاروا إلى الترابط (بين المدرستين الهندية والمصرية لما فيهما من أفكار تلائم دعواتهم وتحقق أهدافهم، ولما فيهما من انحرافات توافق ما ينسبونه للإسلام من افتراءات ودعوات كما أن هذه الحركات أفرزت اتجاهات إلحادية في التفسير أهدرت دلائل القرآن..)[3]، حتى إن رشيد رضا (لا يخفي إعجابه بمقالة نشرتها في ذلك الوقت جريدة الرياض الهندية عنوانها: هل ولد السيد أحمد خان ثانية بمصر، وظهرت جريدته تهذيب الأخلاق بشكل المنار؟).

وقد أشار إلى هذا التشابه بين المدرستين اللورد كرومر[4] في كتابه مصر الحديثة حيث يقول: (إن محمد عبده كان مؤسساً لمدرسة فكرية حديثة في مصر، قريبة الشبه من تلك

(١) مجلة المنار، المجلد ١٨ صـ٦٠٣، و الشيخ رشيد رضا السلفي صـ٦٦.

(٢) مذاهب التفسير صـ٣٥٢. ومن الأمور التي ركز تسيهر عليها عند دراسته لمنهج محمد عبده هي إثبات هذه المدرسة بأن القرآن لايتعارض مع حقائق العلم وذكر بعض الأمثلة. انظر: مذاهب التفسير صـ٣٤٩.

(٣) آراء المستشرقين حول القرآن ٢/ ٨١٦.

(٤) إفيلين بارينغ كرومر (١٨٤١- ١٩١٧م) مندوب إنكلترا في مصر ١٨٨٣- ١٩٠٧، انظر: المنجد في الأعلام صـ٤٦٢.

التي أسسها السيد أحمد خان في الهند). ثم يقول: (إن أهمية السياسة ترجع إلى أنه يقوم بتقريب الهوة التي تفصل بين الغرب وبين المسلمين، وأنه هو وتلاميذ مدرسته خليقون بأن يقدم لهم كل ما يمكن من العون والتشجيع، فهم الحلفاء الطبيعيون للمصالح الأوربية...)[1]، وهذا مما يجعل منهجهم الإصلاحي موضع ريبة!!.

ولكن ينبغي التقرير بأن أعظم من تناول هذا المنهج في التفسير وأسبق من استغل الكشوفات والنظريات الحديثة الغربية في تفسير القرآن؛ وأكثر علماء العصر تشيعاً لها وإنتاجاً لمادتها تأليفاً هو **الشيخ طنطاوي بن جوهري**[2] (١٢٨٧، ١٣٥٨ هـ - ١٨٧٠، ١٩٤٠م)، في تفسيره الضخم (الجواهر في تفسير القرآن الكريم المشتمل على عجائب بدائع المكنونات وغرائب الآيات الباهرات)، فقد كان يؤمن أن القرآن لا يفسر إلا بالعلم الحديث، لأن العلم لعصره قد أصبح المعول عليه في إقناع العقول، والمسلمون في حاجة إلى هذا اللون من التفسير لتخلفهم في المجالات العلمية وسبق

---

(١) انظر: آراء المستشرقين حول القرآن ٢/ ٨١٠، ٨١١.

(٢) طنطاوي بن جوهري المصري: فاضل أديب، له اشتغال بالتفسير والعلوم الحديثة. ولد في قرية من قرى (الشرقية) بمصر، وتعلم في الازهر مدة، ثم في المدرسة الحكومية. وعني بدراسة الانكليزية. ومارس التعليم في بعض المدارس الابتدائية، ودار العلوم. وألقى محاضرات في الجامعة المصرية. وناصر الحركة الوطنية، ثم انقطع للتأليف، فصنف كتبا أشهرها الجواهر في تفسير القرآن الكريم، وجعل لسائر كتبه عناوين ضخاماً أكثرها رسائل، منها: النظام والاسلام، وأين الانسان، وأصل العالم، وغير ذلك كثير وتوفي بالقاهرة. انظر: الأعلام للزركلي ٣/ ٢٣٠، معجم المؤلفين لرضا كحالة ٥/ ٤٢، دراسات في التفسير د. البلتاجي صـ٢١٣.



غيرهم فيها، وإن الآيات التي تحمل الإشارة العلمية في القرآن الكريم كثيرة إذا قورنت بغيرها، وهي لم تحظ بما حظيت به الآيات في المجالات الأخرى.

وكان يأمل في توثيق الصلة بين القرآن الكريم وبين مقررات العلم الحديث، وأن ينسج المسلمون على منوال هذا التفسير، ثم تقوم قائمة المسلمين ليتفوقوا على الفرنجة في مختلف العلوم والصناعات.(١)

ولم يكن التفسير هو الوحيد في حياة الشيخ الذي مشى فيه على منهج التفسير العلمي، بل كان له من المؤلفات مما ينبئ عن اهتمامه بهذا المنهج وشغفه به.(٢)

منهج طنطاوي جوهري في تفسيره الجواهر:(٣)

ويقوم تفسيره بعامة على أساس معطيات العلوم والفروض العلمية التي انتهت إليها الكشوف في عصره، ويجعل من أقل إشارة في الآية سبيلاً إلى التطرق إلى هذه المعطيات والفروض والتفصيل فيها، مثل صنيعه عند تفسير قوله تبارك وتعالى:

---

(١) انظر: مقدمة الجواهر ١/ ٢، ٣.ط مصطفى البابي الحلبي الثانية ١٣٥٠.

(٢) مثل: جواهر العلم ظهر عام ١٩٠١ م، وكتاب التاج المرصع بجوهر القرآن والعلوم، ظهر عام١٩٠٦م، انظر: اتجاهات التفسير د. فهد الرومي ٢/ ٦٣٨ في دراستها ومضمونها.

(٣) انظر في دراسة منهج الشيخ طنطاوي جوهري في تفسيره: التفسير والمفسرون للذهبي ٢/ ٥٠٦ فما بعد، التفسير العلمي للقرآن صـ ١٧٨ فما بعد، اتجاهات التفسير د. فهد الرومي ٢/ ٦٣٩ فما بعد، دراسات في التفسير وأصوله د البلتاجي صـ ٢١١ فما بعد، وكتاب: أزمة العصر تحت عنوان طنطاوي جوهري في تفسير القرآن صـ ١٠٤، ولمحات في علوم القرآن واتجاهات التفسير د. محمد بن لطفي الصباغ من صـ٣٠٣.



﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [السجدة: ٥].

حيث يقول: (إن تنزيل الأمر من السماء إلى الأرض يقتضي البحث في غرضين؛ الأول: النظر في منشأ هذا العالم ومبدئه.....) ثم يبدأ البحث.(١)

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة:١] الآيات، يعرض لها بتفسير الدلالة اللفظية في إيجاز مع ذكر دقائقها، وينتقل من هذا إلى ما وقع من زلزال في إيطاليا!، وما وصل إليه العلم من استخراج المعادن من الأرض، ويربط هذا جميعه بالآية.(٢)

ويتوسع في تفسيره بما لا يرتبط بالتفسير فقد عقد لتفسير الآية: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ الآية [البقرة:٦١] عنواناً (الفوائد الطبية في هذه الآية).(٣)

وهو كثيراً ما يلجأ إلى الموازنة بين الإشارات العلمية التي تحملها الآيات القرآنية، وبين مقررات العلم، وأحياناً يجعل هذه الموازنة على هيئة جدول كما فعل عند تفسير

(١) تفسير الجواهر ١٥ / ٢٠٠ فما بعد.

(٢) تفسير الجواهر ٢٥ / ٢٥٥ فما بعد.

(٣) تفسير الجواهر ١/ ٧٨.



قوله تعالى: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران:١٥١]، قال[1]: (هذا ملخص ما جاء في العلم الحديث وفي عالم الأرواح موازناً به ما جاء في القرآن والحديث:

العلم الحديث	القرآن والحديث الشريف
١- الأرض انفصلت عن الشمس والقمر انشق منها.	١- ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ [الأنبياء: ٣٠]
٢- الأرض إذا جاء أجلها تمور وتصير هباء ثم تصير عالماً جديداً وكذا بقية الكواكب.	٢- ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨]

وهكذا يستمر في عقد الموازنات وهي تشغل حيزاً كبيراً من تفسيره.

وكثيراً ما يلجأ إلى تأويل ما لا يخضع للعلم التجريبي مثل: إحياء الموتى ووجود الملائكة، والبعث والنشور والإسراء والمعراج، وما تعلق بالغيب من أمور مؤولها تأويلاً يجعلها ممكنة الحدوث في عالمنا المشاهد ويمثل لذلك، ومنه تأويله لقوله تبارك وتعالى: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ

---

(١) الجواهر ٢ / ١٨٦ فما بعد.



تَعۡقِلُونَ ﴾ [البقرة:٧٣]، فيجعل ضرب القتيل ببعض لحم البقرة، وإحياءه وإخباره عن القاتل ضرباً من تحضير الأرواح الذي كان شائعاً في عصره.[١]

ويفسر الحروف المقطعة في أوائل السور تفسيرات مختلفة، وكذلك يفعل بالبسملة -وغالباً ما يفرد لها قسماً خاصاً- في محاولات قسرية لربط هذه بمقررات العلم الحديث، ومن ذلك تفسيره للحروف في مطلع سورة آل عمران[٢]، فإنه يأتي بأشياء غريبة حولها، فنراه مرة يحسبها بحساب الجمل؛ المبني على أن للحروف الهجائية ما يقابلها من مقادير عددية، ومرة يجعلها رموزاً للاتساق بين الكون والأفلاك وأعضاء جسم الإنسان وحواسه، ومرة يجعلها إشارات إلى ذكر اللفظ بكثرة في بعض السور منها، إلى غير ذلك.. وقد ينقل عن الأناجيل[٣] وغيرها ما يراه موافقاً لمعنى آية أو حكمة أو ظاهرة من ظواهر الكون، أو ينقل عن الفلاسفة والفرق.[٤]

لقد أثار تفسيره في الساحة العلمية والثقافية جدلاً واسعاً، وكثرت فيه المقالات والأبحاث بين مؤيد ومعارض،حتى عده بعض الباحثين مثالاً للانحراف في التفسير العلمي.[٥]

---

(١) الجواهر ١ / ٨٤. وانظر كلامه عن تحضير الأرواح ١ / ٨٢، ٨٩.

(٢) الجواهر ٢/ ٥.

(٣) انظر: الجواهر مثلا ٣/ ٢١٢.

(٤) انظر: الجواهر مثلا ١٥/ ٧، ٢٥/ ٢٣٧ فما بعد.

(٥) مثل الاتجاهات المنحرفة في تفسير القرآن الكريم، دوافعها ودفعها، د. محمد حسين الذهبي، ط دار الاعتصام، الثانية ١٩٧٨،١٣٩٨، صـ ٩٥ فما بعد.ود. فهد الرومي في اتجاهات التفسير ٢/ ٦٧٧.

أقول: حقيقة لقد غالى الشيخ طنطاوي كثيراً في المنهج الذي اتبعه في التفسير، ولئن كان ابتداء الانحراف في منهج التفسير العلمي من جمال الدين الأفغاني، وعززه الشيخ محمد عبده، ونشره رشيد رضا؛ فإن عمل الشيخ طنطاوي جوهري كان له الأثر الأكبر في هذا الانحراف والحياد عن الجادة وركوب موجة التأثر بالأبحاث النظرية والتجريبية العلمية في الغرب، والوقوف أمامها موقف الضعيف المقلد والمدافع المتأثر بعدوه، ولكن لا ينبغي أن نخرج عمل الشيخ طنطاوي عن المؤثرات والحالة العامة لذلك الوقت..

وينبغي أن نلحظ مقصده الحسن فيما قام به؛ وهو غيرته على الأمة وسعيه لإيقاظها ونهضتها النهضة العلمية التي تعيدها لسدة العزة المفقودة، فمن (الحق أن نقول: إن طنطاوي في محاولته المبكرة هذه قد وضع بعض الملاحظات الهامة والقواعد التي تحكم تفسيره في هذه الناحية، كما وضع بعض القواعد المنهجية الخاصة به والتي تتيح لقارئ تفسيره التعرف على مضمون الآيات مع عدم التعرض لتفصيلات العلوم المرتبطة بها).[1]

ثم توالت الأبحاث والكتب الصغيرة والكبيرة من ذوي الأقلام المختصة وغير المختصة تكتب في هذا الاتجاه وتغذي فيه، فكان منها الغث ومنها الثمين.

---

(١) اتجاهات التجديد في تفسير القرآن في مصر صـ ٧١٢. وقد ذكر الزركلي أن أحمد الشاهرودي: فاضل إمامي ت١٣٥٠ هـ - ١٩٢١م، له تفسير تصدى فيه للرد على بعض ما جاء في تفسير الشيخ طنطاوي جوهري، ولم يتمه. انظر: الأعلام للزركلي: ١/ ١٣٤.



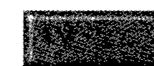
*** الاستشراق والتفسير العلمي للقرآن:**

نشطت الحركة الاستشراقية في رصد أعمال التفسير في العالم الإسلامي ومحاولة تشويه جهد العلماء الذين انتبهوا للخطر المحيط بأمتهم وهبوا لإيقاظهم انطلاقاً من كتاب الله تعالى، وكان ابتداء هذا النشاط منذ ظهور الضعف والمرض في الدولة العثمانية، وبدء انهيارها واشتد في القرن الرابع عشر الهجري (القرن العشرون الميلادي)، وظهرت لهم مؤلفات تدرس التفاسير ومناهجها في البلاد الإسلامية، فأخذ المستشرقون يؤلفون عن القرآن وعلومه، ويحققون كتب التفاسير فيه، مركزين على ترويج قناعتهم التي كانوا يزرعونها في طلابهم، والتي ظلت تحكم تعاملهم مع الدراسات القرآنية؛ وتتلخص هذه القناعة في أن القرآن الكريم من تأليف النبي صلى الله عليه وسلم وليس تنزيلاً من رب العالمين، ولذلك تجدهم يدمجون دراساتهم عن كتاب الله ضمن مؤلفاتهم عن تاريخ الأدب العربي، ويخضعون نصوصه للتحليل الأدبي واللساني الذي يضعون هم قواعده.(1)

وبازدياد نشاط حركة التفسير العلمي في القرن (الرابع عشر الهجري، العشرين الميلادي) بدأت دراسات المستشرقين في التأليف في مناهج واتجاهات التفسير تأخذ بعداً آخر، انطبع بإسقاط طرق دراستهم للتوراة والإنجيل في البيئة الغربية على دراستهم للقرآن الكريم، وتناولت أيضاً التفاسير التي أخذت اتجاه التفسير العلمي للقرآن، فألف ج.جومييه: (تفسير القرآن عند مدرسة المنار) عام ١٩٥٤ م، كما أصدر أيضاً: (الطنطاوي جوهري وتفسير الجواهر).

---

(١) انظر بحث: (تفسير القرآن الكريم في كتابات المستشرقين) د. عبد الرزاق إسماعيل هرماس، في مجلة البحوث الإسلامية، العدد ٦٧، من صـ ١٠٥ إلى صـ ١٠٩.





ونشر ج. بالجون بلندي[1]: (تفسير القرآن في العصر الحديث) عام ١٩٦١، وضمن جولد تسيهر كتابه مذاهب التفسير الإسلامي بحثاً بعنوان التفسير في ضوء التمدن الإسلامي، ركز في هذا البحث على المدرستين (الهندية) ممثلة بشخص (سيد خان بهادر)، والمصرية ممثلة بشخص الشيخ محمد عبده[2]، ليظهر من خلالها حركة التفسير الحديث بمفهوم العصرية وبانحرافاتها.

وفي العقود الثلاثة الأخيرة بدأ يغلب على دراسات المستشرقين للتفسير منحى يرى ضرورة إخضاع تفسير القرآن لمناهج التحليل في العلوم الإنسانية.

وهكذا في مرحلة أفول الاستشراق وخمول ذكرهم انتهى الحال بالمستشرقين إلى البحث عن وسائل لإعادة إحياء وإنعاش ماضيهم التاريخي وأسلوبهم المضلل عن طريق المطالبة بتطبيق معطيات المناهج التغريبية على القرآن في أفق البحث عن تاريخ النص القرآني ثم إعادة قراءته أو تفسيره من جديد[3].

ويرى الباحث أن دراسات المستشرقين لتفاسير القرآن؛ وخاصة منها: (التفسير العلمي)؛ رُصِد من قبلهم في محاولة لدراسة تحريفه في مظهر مسايرته والثناء عليه،

---

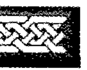
(١) لم أجد ترجمة لجوميه ولا لبالجون بلندي بعد البحث الطويل ولكنهما ذكرا مع دراستهما للمنار والجواهر والعصر الحديث في اتجاهات التجديد في مصر صـ٨٣ فما بعد، وآراء المستشرقين ٢/ ٨٢٢.

(٢) ينظر: مذاهب التفسير الإسلامي، جولد تسيهر، صـ ٣٣٧.

(٣) انظر: المصدر السابق صـ ١١٠، وينظر: اتجاهات التجديد في مصر د. محمد إبراهيم شريف من صـ ٧١، إلى صـ ١٠٠، في دراسة محتوى كتب المستشرقين والمزيد من مؤلفاتهم حول تفاسير القرآن في هذه المرحلة.



ولإشغال العلماء بالردود على شبههم وتهمهم، ولتشويه فكر المثقفين وتشويشه وتعزيز مصطلح العلم على النحو الغربي المادي، ولذلك نجد المستشرقين يثنون على المناهج المنحرفة من هذه التفاسير العصرية وخاصة منها الداعية إلى التقرب من الحضارة الغربية ودراسة لغتها، ويثنون على أصحابها ويصفونهم بالمتنورين والعصريين.



المبحث الثالث:

التفسير العلمي للقرآن في مطلع القرن الخامس عشر حتى يومنا هذا.

في مطلع هذا القرن غدت بشائر الصحوة المباركة تنتشر بشكل أوسع في العالم الإسلامي، وأخذت ظاهرة التفسير العلمي أهمية عند بعض المختصين، من حيث دراستها ومواقف العلماء منها؛ مما آذن بظهور الأبحاث الجامعية المختصة لذلك مع ندرتها.[1]

ومما يلفت الانتباه في مطلع هذا القرن أنه انتشر مصطلح (الإعجاز العلمي في القرآن) مع التفسير العلمي وأخذ مكاناً مرموقاً في الحياة العلمية عند الباحثين، حتى طغى على التفسير العلمي وحل محله، فاختلط الأمر على الناس، ولم يفرق بين التفسير والإعجاز، وعاد الشطط من جديد؛ فصرت ترى كتاباً يحوي من النظريات التي هي في مرحلة الشك والبحث مدرجة في تفسير آية تحت عنوان الإعجاز العلمي وهكذا، وكان سمة هذه المؤلفات جمع معلومات في موضوع ما من الجرائد والصحف وإلصاقها بآية من القرآن في موضع علمي باسم الإعجاز العلمي، ثم قيض الله ظهور الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة. إذ كانت في بداية النشأة عام ١٤٠٠هـ مؤسسة الإعجاز العلمي، وما زالت تتدرج حتى عام ١٤٢٣هـ حيث قرر المجلس

---

(١) ككتاب الدكتور أحمد عمر أبو حجر الذي هو في الأصل رسالة دكتوراه كما أوضحت ذلك في المقدمة، وكتاب اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر للدكتور فهد الرومي وهو أيضاً رسالة دكتوراه، ورسالة الماجستير للدكتور علي أسعد بعنوان موقف المفسرين من التفسير العلمي وتقدم الكلام عنها في مقدمة البحث.

التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي في دورته السابعة والثلاثين تطوير الهيئة، وأصبح مسماها: (الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة)، وهي إحدى هيئات رابطة العالم الإسلامي ذات الشخصية المستقلة، ووضعت الهيئة أهدافاً تعمل لأجلها، وقامت بإصدار كتب ودوريات تهتم بالإعجاز العلمي في القرآن والسنة وتوزيعها على المهتمين والراغبين في العالم، وقد أصدرت مجلة تحمل عنوان الإعجاز العلمي، وأقامت الندوات الكثيرة والمؤتمرات المتعددة ولها من الأعمال غير ذلك.[1]

ثم أخذ اتجاه التفسير العلمي والإعجاز العلمي تطوراً ملحوظاً واهتماماً واسعاً من الشريحة الثقافية حتى ما ينفك عام دون كتب أو مؤتمر أو ندوات في قناة إعلامية في شأن التفسير العلمي أو الإعجاز العلمي.

ويمكننا القول أن أكثر التفاسير والمؤلفات المتعلقة في علوم القرآن التي ظهرت في هذه الفترة؛ اعتنت بالآيات الكونية في القرآن وذكر إشاراتها العلمية وحكم التشريع في المأكولات والمشروبات المحرمة[2]، وأبرز التفاسير التي اعتنت بالآيات الكونية في

---

(١) ينظر موقع الهيئة /http://www.nooran.org. للتعرف على أهدافها وأعمالها وأبحاثها.

(٢) كالأساس في التفسير للشيخ سعيد حوى، وما تضمنته سلسلة التفسير الموضوعي للشيخ عبد الحميد طهماز، والتفسير المنير للدكتور وهبة الزحيلي وزهرة التفاسير للشيخ أبو زهرة، وكتاب هدي القرآن الكريم إلى معرفة العوالم والتفكر في الأكوان للشيخ عبد الله سراج الدين، وكتاب آيات الله تعالى لمحمد وفا الأميري في جزأين.

وقد نوقش في شهر أكتوبر ٢٠٠٧ رسالة دكتوراه في كلية العلوم في جامعة الأزهر قسم الجيولوجيا رسالة دكتوراه تقدم بها أستاذ في الجيولوجيا وهو د. محمد كرم حسن الظواهري بعنوان: (الإعجاز العلمي في القرآن الكريم في مجال الآفاق) وكانت بإشراف د. أحمد عمر هاشم، ود. محمود يسري زين الدين، وناقشها د. زغلول النجار، ود. أبو الوفا عبد الآخر.

القرآن (المنتخب في تفسير القرآن الكريم) الصادر عن المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية التابع لوزارة الأوقاف في مصر، إذ شكلت لجاناً علمية متخصصة في مختلف العلوم يتناول كل منهم الآيات القرآنية المتعلقة باختصاصهم ويعلقون عليها ليتوفروا على تأليف هذا التفسير بأسلوب عصري سهل مبسط واضح العبارة...»[1]

وكانت الطريقة العامة في التفسير هي تفسير الآيات بشكل موجز بسيط سهل مجمل، ولكن عند الآيات التي ترى فيها اللجان أنها تحوي إشارات أو إعجازاً علمياً يفسرونها، ثم يعلق على تفسيرها في الحاشية ما تضمنته الآية من إعجاز علمي أو تفسير علمي، وغالباً ما يتصدر هذا التعليق القول: (قال الخبراء).

كما ظهرت مؤلفات موسومة بالموسوعات في الإعجاز العلمي[2]، واشتهر بالكتابة بهذا الاتجاه الشيخ عبد المجيد الزنداني والدكتور زغلول النجار إذ صدر لهما العديد من الكتب في اختصاصات مختلفة، وظهرت مواقع الكترونية (على الإنترنت) عديدة تعنى بقضية الإعجاز العلمي، ومنها بلغات مختلفة.

ومما يلاحظ على هذه الكتابات التي كثرت في (الإعجاز العلمي)؛ سيطرة الأقلام المختصة بالعلوم الكونية على أبحاث الإعجاز العلمي، وهي وإن كانت ظاهرة إيجابية من جهة يقظة المثقفين للعلوم في القرآن الكريم؛ إلا أنها سلبية من جهة أخرى بسبب

---

(١) المنتخب في تفسير القرآن الكريم المقدمة صـ(هـ)، ط وزارة الأوقاف مصر،الطبعة الثامنة عشر القاهرة ١٤١٦هـ.

(٢) كموسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة للدكتور راتب النابلسي، والإعجاز العلمي في القرآن والسنة ليوسف الحاج أحمد. وكذلك ظهرت مواقع على الانترنت بهذا الاسم.

تحكم هؤلاء بدلالات الآيات القرآنية دون التأهل أو مراجعة المختصين في علوم القرآن في أبحاثهم، مما عاد بالفوضى على هذا المنهج وبقاء حالة الاضطراب في قبوله، والشطط في منهج الكتابة فيه.

الباب الثالث

ضَوابطُ التَّفْسيرِ العِلْمِيِّ للقرآن الكريم

• الفصل الأول

شروط وأركان التفسير العلمي للقرآن الكريم

• الفصل الثاني

موقف المفسر بالتفسير العلمي للقرآن من المنقول والنظريات العلمية





شروط وأركان التفسير العلمي للقرآن الكريم

- تمهيد: في بيان المراد بالضوابط
- المبحث الأول: من شروط التفسير العلمي للقرآن: ما يتعلق بالباحث
- المبحث الثاني: الأدوات التي يحتاج إليها المفسر
- المبحث الثالث: من شروط التفسير العلمي للقرآن: ما يتعلق بالبحث العلمي
- المبحث الرابع: أركان التفسير العلمي للقرآن: ما يتعلق بعملية التفسير العلمي



تمهيد في بيان المراد بالضوابط:

الضبط لغة: هو الحفظ بحزم، أو لزوم الشيء وحبسه، ويقال ضبطه ضبطاً: حفظه حفظاً بليغاً، وضبط البلاد: إذا قام بأمرها قياماً ليس فيه نقص.[1]

وعلى هذا المعنى يدرج معنى ضبط التفسير العلمي، أي: أن يقوم الباحث في حفظ عملية التفسير من الانحراف والخطأ بالتزامه بالشروط والأركان التي ستذكر لهذا الاتجاه في التفسير، وأن يقوم بذلك على أتم وجه دون نقص قدر ما يستطيع وحسب ما يتطلبه التفسير.

وسأصطلح أن يكون معنى ضوابط التفسير العلمي: هي **مجموعة الشروط والأركان التي يجب على المفسر الالتزام بها في التفسير العلمي**، ويمكننا أن نعبر عن هذه الشروط والأركان بمجموع القواعد العلمية، وبذلك نختصر التعبير عن الضوابط بقولنا: **هي مجموع القواعد العلمية التي يجب على المفسر الالتزام بها في التفسير العلمي**.

* ومن خلال المتابعة لما كتب في قواعد التفسير العلمي وضوابطه؛ رأيت أن أقسم هذه القواعد إلى ثلاثة أقسام:

١- **ضوابط تتعلق بالباحث**: من حيث شروط الأهلية والصفات التي ينبغي أن تتوافر فيه.

٢- **ضوابط تتعلق بالبحث العلمي**: من حيث شروط البحث العلمي في مجال التفسير العلمي.

---

(١) انظر: اللسان مادة: ضبط، المصباح المنير صـ ٢٩١.



٣- ضوابط تتعلق بعملية التفسير: من حيث الآلية التي تقوم عليها عملية التفسير ومكانة الأبحاث التطبيقية والتجريبية فيه.

وهذه الضوابط الثلاثة قسمتها إلى شروط وأركان:

■ **أما الشروط**: فهي الضوابط التي ينبغي أن تتوافر قبل المباشرة في عمل التفسير العلمي، لذلك فإن الضوابط المتعلقة بالباحث -ويدخل فيها الأدوات التي يحتاج إليها المفسر- والضوابط المتعلقة بالبحث العلمي هي شروط التفسير العلمي.

■ **وأما الأركان**: فهي التي ينبغي أن تكون موجودة في عملية التفسير العلمي، وهو الضابط الثالث من ضوابط التفسير العلمي.

ولنعلم أن التزام هذه الضوابط سيساعد تلقائياً على إنهاء ذلك الصدام الفكري الذي حصل بين المؤيدين والمناهضين للتفسير العلمي للقرآن أو المتحفظين عليه، ذلك لأننا رأينا أن جوهر الخلاف إنما ينصب على تلك المظاهر الارتجالية غير المنضبطة علمياً في البحث في آيات الله تعالى.



المبحث الأول:

من شروط التفسير العلمي: الضوابط المتعلقة بالباحث.

إن (الباحث) هو المدار الأول في عملية التفسير والإعجاز العلمي في القرآن، وإن العناية في تأهيله من أوجب الواجبات وأولى الضروريات، وإن وضع شروط الباحث أو المفسر في التفسير العلمي لا يقل أهمية عن وضع شروط التفسير العلمي وأصوله، وذلك حسماً للفوضى العلمية والفكرية، وسداً لذريعة التعدي على كتاب الله تعالى تحت لواء الحرية الفكرية، وحفاظاً على موضوعية البحث العلمي، وتتمثل هذه الضوابط بالآتي:

١ - العدالة:

وهي الإسلام، وسلامة الاعتقاد، وملازمة التقوى ومعرفة المفسر بالعلم والبحث الجاد، ولا بد من التصريح بشرط سلامة الاعتقاد لما يحتويه زماننا من المذاهب الفكرية العلمانية والأدعياء للعلم تحت ستار الإسلام، الذين تطفلوا على كتاب الله تعالى وبرزوا في وسائل إعلامية لينشروا فكرهم واتجاههم المنحرف في فهم القرآن المخالف للإسلام تحت راية التجديد وما شابهها من اصطلاحات.

إنّ التصريح بسلامة اعتقاد المفسر ليس أمراً جديداً أدعيه لحاجة معاصرة، بل هو شرط مصرح به عند المتقدمين أيضاً، ففي الإتقان للسيوطي: (اعلم أن من شرطه صحة الاعتقاد أولاً ولزوم سنة الدين، لأن من كان مغموصاً عليه في دينه لا يؤتمن على الدنيا فكيف على الدين، ثم لا يؤتمن في الدين على الإخبار عن عالم فكيف يؤتمن في الإخبار عن أسرار الله تعالى، ولأنه لا يؤمن إن كان متهماً بالإلحاد أن يبتغي الفتنة





ويغر الناس بلينه وخداعه كدأب الباطنية وغلاة الرافضة، وإن كان متهماً بهوى لم يؤمن أن يحمله هواه كل ما يوافق بدعته).[1]

وقد عقد السيوطي لذلك نوعاً في كتابه التحبير بعنوان (من يقبل تفسيره ومن يرد)، فتكلم في شروط من يقبل تفسيره من حيث الرواية إن كان ناقلاً عن السلف فقال: (فناقل ذلك عنهم شرطه شروط الرواية، وهي: العدالة والحفظ والاتقان)[2]، ثم تكلم في التفسير بالرأي والتأويل، ثم تكلم في من يقبل قوله في التأويل فقال: (وممن لا يقبل تفسيره المبتدع...)[3]، وضرب لذلك مثلاً بالزمخشري[4] توضيحاً لمعنى المبتدع، فصار بذلك المبتدع هو الذي يدعو إلى معتقد فاسد، ويفسر النصوص بحسب معتقده، ثم قال: (ولا يقبل ممن عرف بالجدال والمراء، والتعصب لقول قاله، وعدم الرجوع إلى الحق إذا ظهر له، ولا من يقدم الرأي على السنة، ولا من عرف بالمجازفة وعدم التثبت أو بالجرأة والإقدام على الله وقلة المبالاة).[5]

وهذه العدالة تعرف بشهادة أهل العلم له بذلك، أو بمتابعة ما يكتبه وما يقوله في التفسير، ومدى موافقته لأصول أهل العلم، وسبر حاله من كلامه وسلوكه.

---

(١) الإتقان٢/ ١٧٦ وقد نقله السيوطي عن أبي طالب الطبري في مقدمة تفسيره ولم أجد ترجمة له.

(٢) التحبير صـ ٣٢٧.

(٣) التحبير صـ ٣٣٠.

(٤) محمود بن عمر بن محمد أبو القاسم العلامة النحوي اللغوي المعتزلي المفسر صاحب التفسير المشهور والتآليف العديد ت (٥٣٨هـ). انظر: طبقات المفسرين للداودي٢/ ٣١٤.

(٥) التحبير صـ ٣٣١.



ويضاف لما سبق أن التفسير نوع من أنواع الاجتهاد في تفسير كتاب الله تعالى، وقد اشترط العلماء في المجتهد العدالة؛ وهي مجموع عدة أوصاف: الإسلام وسلامة الاعتقاد وملازمة التقوى، يقول ابن قدامة[1] في شروط المجتهد: (فأما العدالة فليست شرطاً لكونه مجتهداً بل متى كان عالماً بما ذكرناه فله أن يأخذ باجتهاده في حق نفسه، لكنها شرط لجواز الاعتماد على قوله، فمن ليس عدلاً لا تقبل فتواه)[2].

وليس الكلام في تفسير كتاب الله أقل شأناً من الإفتاء؛ فكلاهما توقيع عن رب العالمين.[3]

٧- التجرد من العوامل المؤثرة في العمل العلمي:

كالتجرد والتنزه عن الانسياق بدافع الخلفيات المسبقة لعمله، كمعلومات يريد إخضاع النص القرآني لها أو محاولة إرضاء أشخاص بموافقة أفكارهم، سواء كان هذا الانسياق فكريا أو مذهبياً أو عاطفياً أو غيرها من العوامل المؤثرة في نزاهة الباحث وتجرده العلمي.

---

(١) عبد الله بن محمد بن قدامة المقدسي، أبو محمد، موفق الدين: فقيه، من أكابر الحنابلة، شيخ الإسلام العالم الزاهد التقي المشهور له تصانيف، منها (المغني والبرهان في مسائل القرآن) ت (٦٢٠هـ) انظر ترجمته: سير أعلام النبلاء ٢٢/ ١٦٥، الأعلام للزركلي ٤/ ٦٧.

(٢) روضة الناظر وجنة المناظر في أصول الفقه لابن قدامة صـ ٣٧٥ ط دار الزاحم مراجعة د. محمود حامد عثمان.

(٣) علق فضيلة المشرف أ.د. نور الدين حفظه الله هنا: (وعلى ذلك يجب على القارئ المسلم أن يصون وقته وفكره عن الاشتغال بما يقدمه من لم تعرف ديانته وتقواه، في هذا المجال خاصة؛ وكل دراسة تتصل بالإسلام عامة، وهذا أصل أكده السلف رضي الله عنهم، وقالوا: إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم).



(فإذا لم يكن الباحث أو المفسر على ذلك القدر من التجرد وصفاء التأمل ودقة التعامل مع النصوص فإن عناصر التشويش والتدليس والتلبيس كثيراً ما تستخف الباحثين في نشاطاتهم وكتاباتهم فتأتي على الغرض المرجو بالتفويت وكفى بذلك غياً مبيناً).(١)

٣- تحرير النية لله تعالى والإخلاص في العمل:

فيجب على المفسر مراعاة الغاية التي من أجلها يعمل وينشط في مجال التفسير العلمي، ألا وهي خدمة كتاب الله تعالى، والتدبر بآياته، وتعريف الناس على عجائب كتاب الله، وأن يتجنب بشدة دوافع الشهرة والظهور ومحبة الثناء، وغير ذلك مما يؤثر على الإخلاص، وهذا الشرط ضروري في ضبط مسيرة الباحث؛ لما له من أثر في زرع الخوف من الله تعالى والتثبت من العلوم التي يستخدمها، واستحضار التوفيق من الله تعالى، فإنما يرزق الإنسان من العلم بقدر نيته، ويوفق إلى المعارف بقدر إخلاصه، والعمدة في هذا الشرط حديث النبي صلى الله عليه وسلم المشهور: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرء ما نوى».(٢)

٤- الأهلية:

وهي توفر الشروط العلمية للمفسر، وامتلاكه للأدوات التي يحتاج إليها المفسر - وستأتي في المبحث الآتي- لأن علم التفسير من أعظم العلوم المؤثرة في الحياة، ومن أجل العلوم على الإطلاق لتعلقها بكلام الله تعالى، فينبغي (أن يكون المفسر موهوباً ذا

---

(١) الإعجاز العلمي د. عبد الحفيظ حداد صـ٧٨.

(٢) البخاري في بدء الوحي الحديث رقم (١).



قدرات عقلية ممتازة، قوي الاستدلال، حسن الاستنباط، قادراً على الترجيح إن تعارضت الأدلة، عارفاً اختلاف الأقوال على حقيقته)[1]، من المسلم به أنه لا يجوز لأحد أن يخوض في علم دون الإلمام به واكتمال أهليته له، يقول الزركشي: (ولا يجوز تفسير القرآن بمجرد الرأي والاجتهاد من غير أصل لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء:٣٦]).[2]

وأما بالنسبة لغير المختصين في العلوم الشرعية ولا يملكون هذه الأهلية ولكن يملكون الأهلية في التخصص الذي يستدل عليه من القرآن الكريم؛ فالواجب في حقهم أن يتعلموا مبادئها، ثم يرجعون إلى العلماء المتخصصين في التفسير، أو لهيئة علمية شرعية متخصصة يباحثونهم في استدلالاتهم، ليقيموا ويقوموا له بحثه، وعليه فلا يجوز لأحد أن يخرج بحثاً في اتجاه التفسير العلمي دون مراجعة أهل الاختصاص حسماً للفوضى العلمية والتشويش العقائدي.

٥- أن يكون الباحث على قناعة بالبحث الذي يقوم به:

فينبغي أن يكون الباحث قد وصل إلى قناعة ونتيجة تمكنه من استجماع مسائل وقضايا الموضوع الذي يكتب فيه، (وقناعة بأن البحث الذي يقوم به هو بحث متميز متخصص، وقد تجاوز مرحلة العموميات والفهم المطلق والإجمالي إلى مرحلة الوضوح بعد أن اكتسب اللون العلمي الهادف حيث الأدلة ساطعة، والشبهات ليس لها وجود

---

(١) لمحات في علوم القرآن واتجاهات التفسير صـ ١٩٤.

(٢) البرهان ٢/ ٣٠٣.



والأهداف أو الهدف منه ظاهر بشكل معقول، بل يمكننا أن نقول عنه: بحث له ذاتيته الواضحة).[1]

٦- الهمة والمتابعة العلمية لمستجدات الأمور:

فينبغي أن يكون الباحث نبيهاً، يقظاً عاقلاً ذا همة عالية، وأهلية على متابعة المستجدات العلمية، وما يطرأ على الساحة الثقافية من كتب ومقالات متجددة فيما يتعلق بالتفسير العلمي أو الإعجاز العلمي، ويستفيد منها في تطوير الأبحاث المتعلقة بالتفسير العلمي.

٧- الاعتدال والروية:

يجب على الباحث التحلي بهما عند المتابعة والتفسير، و(ألا يغالي في البحث والتوفيق الذي يصل إلى حد التلفيق، لأن هذا يؤدي قطعاً إلى إبراز التناقض والتعارض بين نصوص القرآن الكريم وبين مكتشفات العلم، ويجب على أولئك الباحثين أن يضعوا في اعتبارهم أن القرآن ما جاء ليُحمل على نظريات العلم حتى قبل إثباتها وبلوغها حد الحقائق العلمية).[2]

إذن فعلى الباحث أن يلغي من عقله محاولة التوفيق بين العلم والدين لفك الخصام المزعوم بينهما؛ بسبب اللوثة الغربية الوافدة، وأن يعلم أن عمله خدمة كتاب الله في تفسيره عن طريق استخدام هذه العلوم التي هي أفعال الله لبيان كلام الله.

---

(١) ضوابط الإعجاز العلمي د. عبد الحفيظ حداد صـ١٠١.

(٢) انظر: ظاهرة التفسير العلمي للقرآن الكريم، د. خليل إبراهيم أبو ذياب صـ٥٩ ط دار عمار الأردن أولى١٩٩٩م.



المبحث الثاني:

الأدوات التي يحتاج إليها المفسر.[1]

اشترط العلماء في المفسر الذي يريد تفسير القرآن بالرأي؛ دون أن يلتزم الوقوف عند حدود المأثور منه فقط، أن يكون ملماً بجملة من العلوم التي يستطيع بواسطتها أن يفسر القرآن تفسيراً عقلياً مقبولاً، وجعلوا هذه العلوم بمثابة أدوات تحفظ المفسر من الوقوع في الخطأ، وتحميه من القول على الله بدون علم؛ فلا بد للمفسر أن يتمكن منها، وهي شروط التفسير بالرأي الجائز مضافاً إليها ما يتعلق بالتفسير العلمي، وهي:

١- **علم اللغة**: لأنه به يمكن شرح المفردات ومدلولاتها بحسب الوضع، قال مجاهد: (لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله إذا لم يكن عالماً بلغات العرب)، ولا يكفي معرفة اليسير بل لا تبد من التوسع في المعرفة فقد يكون اللفظ مشتركاً، وهو يعلم أحد المعنيين والمراد الآخر.

٢- **علم النحو**: لأن المعنى يختلف ويتغير باختلاف الإعراب، عن الحسن أنه سئل عن الرجل يتعلم العربية يلتمس بها حسن المنطق ويقيم بها قراءته فقال: حسن فتعلمها، فإن الرجل يقرأ الآية فيعيا بوجهها فيهلك فيها).

٣- **علم الصرف**: وبواسطته تعرف الأبنية والصيغ، فغالب الأخطاء في التفسير ترجع إلى الجهل بعلم الصرف، ويدخل في ذلك علم الاشتقاق لأن الاسم إذا كان اشتقاقه من مادتين مختلفتين اختلف باختلافهما.

---

(١) انظر: الإتقان ١/ ١٨٠، ١٨٢، التفسير والمفسرون ١/ ٢٦٥، ٢٧٢، علوم القرآن د. عتر صـ ٨٧، ٨٨، وينظر لزاماً: علوم القرآن د. عتر صـ ٩٤ الطبعة السادسة ١٩٩٦، في طبقات الناس في العلم بالأدوات التي يحتاج إليها المفسر.



حكى السيوطي عن الزمخشري أنه قال: (ومن بدع التفاسير قول من قال: إن الإمام في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَـٰمِهِمْ ﴾ [الإسراء:٧١]، جمع أم، وأن الناس يدعون بأمهاتهم دون آبائهم، قال: وهذا غلط أوجبه جهله بالتصريف، فإن أماً لا تجمع على إمام).

٤- **علوم البلاغة الثلاثة:** المعاني، البيان، البديع: فعلم المعاني يعرف به خواص تراكيب الكلام من جهة إفادتها المعنى، وعلم البيان يعرف به خواص التراكيب من حيث اختلافها بحسب وضوح الدلالة وخفائها، وعلم البديع يعرف به وجوه تحسين الكلام وهذه العلوم الثلاثة من أعظم أركان المفسر، لأنه لا بد له من مراعاة ما يقتضيه الإعجاز، وذلك لا يدرك إلا بهذه العلوم.

٥- **علم القراءات:** إذ بمعرفة القراءة؛ يمكن ترجيح بعض الوجوه المحتملة على بعض، وزيادة دلالات الآية وكثرة الاستنباط والله أعلم.

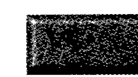
٦- **علم أصول الدين** (علم العقيدة): وبه يستطيع المفسر أن يستدل على ما يجب في حقه تعالى، وما يجوز وما يستحيل، وأن يقرر أصول الإيمان والغيبيات.

٧- **علم أصول الفقه:** إذ به يعرف كيف يستنبط المفسر العلوم المختلفة والأحكام، ويستدل عليها، ويعرف الإجمال والتبيين، والعموم والخصوص، والإطلاق والتقييد، ودلالة الأمر والنهي، وما سوى ذلك من كل ما يرجع إلى هذا العلم.

٨ - **علم أسباب النزول:** لأنه يعين على فهم المراد من الآية.

٩- **علم القصص:** لأن معرفة القصة تفصيلاً يعين على فهم المراد من الآية.

١٠- **علم الناسخ والمنسوخ:** وبه يعلم المحكم من غيره، ومن فقد هذه الناحية ربما أفتى بحكم منسوخ فيقع في الضلال والعياذ بالله.



١١- **معرفة الأحاديث** المبينة لتفسير المجمل والمبهم، إذ السنة مبينة للقرآن.

١٢- أقول: ويلتحق بمعرفة الأحاديث؛ معرفة **علم مصطلح الحديث** ليدرس الروايات التي يعتمد عليها في تفسيره، سواء كانت أحاديث مرفوعة أو موقوفة أو مقطوعة والله أعلم.

١٣- **علم الموهبة**: وهو علم يورثه الله تعالى لمن عمل بعلمه، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة:٢٨٢].

١٤- **علم أحوال البشر**: (علم التاريخ)، ليعرف أطوار البشر وأدوارهم، ومناشىء اختلاف أحوالهم من قوة وضعف، وعزة وذل، وعلم وجهل - وغير ذلك، ومن جملته أيام الجاهلية، والسيرة النبوية.

١٥- **الإلمام بمسلمات العلوم الحديثة** بمختلف أنواعها، والتبصر بها، والاستعانة منها بما يخدم التفسير وخاصة ضمن الآيات الكونية، كنشوء الرياح والسحاب والأمطار وطبقات الأرض - وغير ذلك.

١٦- أقول: وينبغي أيضاً إضافة شرط **معرفة المفسر للاتجاهات والتيارات الفكرية المعاصرة**، والتحديات التي تحرف فكر وعقيدة وسلوك المسلم، والرد عليها استدلالاً من القرآن الكريم، خاصة في مثل عصرنا هذا الذي يجابه فيه المسلم انفتاحات مختلفة، تشوه المصطلحات العلمية الإسلامية، وتسقط عليها المصطلحات التي تخدم مصالح جهات معينة، والله أعلم.





المبحث الثالث:

من شروط التفسير العلمي: ضوابط البحث العلمي.

يعد البحث العلمي المطلب الثاني الضروري في عملية التفسير العلمي، وإن اتصاف البحث بـ العلمي يعني التزامه بضوابط العلم المكتوب فيه.

ويقصد بضوابط البحث العلمي: مجموعة شروط يتطلب من الباحث مراعاتها وأخذها بعين الاعتبار عند كتابة البحث العلمي.

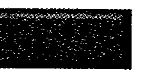
فيجب على الباحث في بحثه:

١- **مراعاة التخصص العلمي**:فلا يجوز لمن يكتب بحثاً في التفسير العلمي أن يكون كحاطب ليل يجمع معلوماته من هنا وهناك دون العودة لمصادر العلم ومراجعه سواء كان هذا المصدر مجلة متخصصة أو مشهورة بمصداقيتها العلمية بين أهل الاختصاص، أو بالرجوع للكتب الموثقة والدراسات الأكاديمية المختصة، أو بالرجوع للعلماء المتخصصين، حتى لا يفقد البحث العلمي مصداقيته وبالتالي سيؤثر على مسار التفسير العلمي وناهيك عن تأثيره بمصداقية الباحث.

٢- **بيان خطة التفسير**: فينبغي أن يقدم البحث بخطة التفسير ومنهج العمل الذي يمشي عليه الباحث، وقد أوضح السيوطي الخطوط العريضة لخطة البحث في التفسير في الإتقان فقال: (ويجب عليه البداءة بالعلوم اللفظية، وأول ما يجب البداءة به منها: تحقيق الألفاظ المفردة، ... ثم يتكلم عليها بحسب التراكيب... ثم يبين المعنى المراد، ثم الاستنباط، ثم الإشارة..)، ثم نقل عن الزركشي أنه جرت العادة عند المفسرين بالبداءة بذكر سبب النزول.[1]

---

(١) الإتقان ٢/ ١٨٥، وانظر: علوم القرآن د. عتر صـ٩٦ ط السادسة.





أقول: إن لكل بحث متطلباته وخطته، وعليه: فإن ما ذكره السيوطي ليس بملزم للباحث في التفسير العلمي للقرآن، بل كل باحث يختار الخطة التي تتناسب مع بحثه، فما ذكره السيوطي يصلح لمن يفسر تفسيراً تحليلياً، ولا يناسب من يفسر تفسيراً موضوعياً.. وهكذا، وإنما ذكرت كلامه في معرض الكلام على وجوب وجود منهجية علمية في البحث ولأن هذه المنهجية دأب المحققين والجادين في البحوث.

٣- **وجوب ملاحظة المنهجية في المعلومات**: فمن واجبات الباحث في التفسير العلمي المهمة أن يلاحظ المنهجية في كلامه في التفسير[١]، وقد أوضح السيوطي ذلك بقوله: (وقال العلماء: يجب على المفسر أن يتحرى في التفسير مطابقة المفسَّر، وأن يتحرز في ذلك من نقص لما يحتاج إليه في إيضاح المعنى، أو زيادة لا تليق بالغرض، ومن كون المفسَّر فيه ميل عن المعنى وعدول عن طريقه، وعليه بمراعاة المعنى الحقيقي والمجازي، ومراعاة التأليف والغرض الذي سيق له الكلام، وأن يؤاخي بين المفردات).[٢]

٤- **التثبت والتحقيق في كل خطوة من خطوات البحث**، فيجب على الباحث أن يلتزم الدقة في بحثه، وهذا الضابط يتصل بالذي قبله من حيث التأكد من المعاني المستنبطة أيضاً، والتثبت من المعلومات المطروحة عملاً بقاعدة البحث العلمي: (إن كنت ناقلاً فالصحة أو مدعياً فالدليل).[٣]

---

(١) انظر: علوم القرآن د. عتر صـ٩٦.

(٢) الإتقان ٢/ ١٨٥.

(٣) ينظر منهجية البحث العلمي وضوابطه في الإسلام، د. حلمي عبد المنعم صابر صـ١٢٩، ط رابطة العالم الإسلامي كتاب العدد١٨٣ لعام ١٤١٨.



ولعلك إذا نظرت في أغلب ما كتب في التفسير العلمي أو الإعجاز العلمي؛ فإنك لا تجد مراعاة مؤلفي هذه الكتب لهذه الضوابط في مؤلفاتهم؛ وخاصة منها ما سمي بالموسوعات في الإعجاز العلمي للقرآن.[1]

(١) كموسوعة الأستاذ يوسف الحاج أحمد التي وصفها بأنها أضخم موسوعة في الإعجاز العلمي، فإنك لا تجد فيها منهجاً واضحاً في التأليف، فتارة يذكر الآية ثم يذكر ما ورد في تفسيرها من المأثور ثم يذكر التفسير العلمي لها ويذيل هذا التفسير بالحكم أن هذا هو الإعجاز العلمي كما فعل عندما تكلم عن الحت البحري لليابسة صـ ٤٥٩، وهذه الطريقة نادرة جداً في موسوعته، وكثيراً ما يسرد المعلومات الكونية باستطراد كبير دون ربط هذه المعلومات بالآيات المتعلقة بها بل لا يذكر آية ولا حديث خلالها كما في صـ ٣٠٠ تحت عنوان معلومات كونية، أو يسرد موضوعاً مستدلاً في خلاله بآيات وأحاديث بغض النظر عن كون الربط بينها صحيحاً أم لا، وقد يعتذر لمؤلفها أنه جمعها جمعاً من مقالات وكتب ومواقع على الإنترنت دون تمحيص لها وإن ذكر هو في مقدمة موسوعته أنه اختار من هذه الكتابات (أشملها وأصحها وأحدثها وأجملها)، ولكنه لم يبين خطة عمله في هذا الاختيار، ويقاربها في العمل موسوعة د. راتب النابلسي إلا أن موسوعة د النابلسي تميزت بالتأليف الأدبي دون عزو لمعلوماته التي يذكرها إلى مصادرها، وسيأتي أمثلة من كتابه في ضوابط التفسير العلمي.







المبحث الرابع:

أركان التفسير العلمي: الضوابط المتعلقة بالتفسير العلمي للقرآن الكريم.

لا بد من التذكير بأن التفسير العلمي للقرآن اتجاه من اتجاهات التفسير، والضوابط فيه هي في الأصل ضوابط التفسير بشكل عام؛ ولكن نظراً لظاهرة التعسف والفوضى في كتابات وأبحاث التفسير والإعجاز العلمي عموماً؛ رأينا ضرورة أن يخصص هذا الاتجاه من التفسير والإعجاز بضوابط مفردة يرجع إليها في تحكيم ما يكتب من أبحاث في هذا الاتجاه، هذا مع الأخذ بالاعتبار سلامة المقصد من الذين قاموا في هذا الاتجاه حمّيّة للدين، ولكن ما كان ينبغي أن تخرج هذه الحمية عن ضوابطها العلمية.

لقد تناول عدد من الكتاب الكلام عن ضوابط التفسير العلمي، لكنهم لم يتناولوها بما يكفي، إنما كانت هذه الضوابط في مقالات صحفية أو ضوابط سريعة تذكر ضمن البحث على سبيل التنظير ومن غير المختصين بعلوم القرآن[1]، ولكنها بعمومها تتفق مع ما كتبه أهل الاختصاص الشرعي.

ومن الملاحظ أن الإعجاز العلمي لقي اهتماماً أكبر في ذكر الضوابط له، فأصدرت هيئة الإعجاز العلمي كتاب (الإعجاز العلمي في القرآن والسنة تاريخه وضوابطه)

---

(١) مثلاً: ما كتبه د. أحمد شوقي إبراهيم جواباً على سؤال منهج التفسير العلمي، وله أيضاً مقال بعنوان المنهج العلمي في دراسة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة على موقع إسلام أون لاين، وما قاله د عبد الصبور شاهين ود. عبد العظيم المطعني ود. أحمد شوقي إبراهيم لجريدة الوطن تحت عنوان تحفظات مشروعة حول ظاهرة التفسير العلمي للقرآن الكريم، وضوابط البحث في الإعجاز القرآن الكريم في العلوم الاجتماعية د. رفعت السيد العوضي أستاذ علم الاقتصاد في الأزهر، وكل هذه مستفادة من شبكة الإنترنت.



للدكتور عبد الله المصلح، وكتب في ذلك أيضاً الدكتور عبد الحفيظ حداد كتاب (الإعجاز العلمي تاريخه وضوابطه)، ولكنه لم يطبع بعد[1]، وكذلك كتب الشيخ عبدالمجيد الزنداني وآخرون من العلماء أبحاثاً في ضوابط الإعجاز العلمي، ثم جمعت هذه الأبحاث في كتاب (تأصيل الإعجاز العلمي في القرآن والسنة) طبعته هيئة الإعجاز العلمي، لكن هذه الأبحاث كلهالم تتعرض لضوابط التفسير العلمي[2]، إلا كتاب الدكتور عبد الحفيظ حداد؛ فقد أفرد مبحثاً خاصاً لضوابط التفسير العلمي في كتابه: (الإعجاز العلمي تاريخه وضوابطه) ثم لخص أهمها في مقال له في مجلة الإعجاز العلمي، لكن بعنوان (كيف تكتب بحثاً في الإعجاز العلمي).[3]

---

(١) وقد حصلت على الكتاب من المؤلف فضيلة الدكتور عبد الحفيظ حداد جزاه الله خيراً.

(٢) ولا يستبعد أن تكون بعض الكتابات في ضوابط الإعجاز العلمي نتجت عن عدم الوضوح الدقيق بين التفسير العلمي والإعجاز العلمي أو بالعكس، ومثال ذلك أن بعض الأفاضل كتب بحثاً في ضوابط الإعجاز العلمي، بينما نجد ضوابطه تتعلق بالتفسير العلمي، فهو يشترط أن يكون المعنى الوارد في الكتاب أو السنة الذي يراد مطابقته للحقيقة العلمية مفسراً بتفسير نبوي، أو من صحابي أو من تابعي، أو أن تكون بمقتضيات اللغة حال غياب ذلك، وهذا على مراتب حسب الوضع اللغوي من كونه مفسراً أو ظاهراً، حقيقة أو مجازاً، وإذا كان المعنى المفسر مرجوحاً صار تأويلاً فينبغي ضبطه بقواعد التأويل من وجود قرينة من نص آخر أو قياس مع احتمال اللفظ للمعنى المرجوح احتمالاً لغوياً لاغبار عليه، وتكلم عن الإشارات في القرآن الكريم وضبطها بالقواعد المقررة في أصول الفقه.. ينظر (من ضوابط الإعجاز العلمي) للعلامة الدكتور الشيخ عبد الله بن بيه بحث مستفاد من ملتقى أهل التفسير على الشبكة العنكبوتية الأنترنت.

(٣) ينظر: كتابه من صـ١١٠-١٥٢، مجلة الإعجاز العلمي العدد ١٧ذي الحجة ١٤٢٤هـ صـ٢٠.



كما كتب الدكتور محسن عبد الحميد في ضمن كتابه دراسات في أصول تفسير القرآن، في الفصل الثالث منه بعنوان: (التفسير العلمي وضوابطه).

وما ذكر من ضوابط في المؤلفات السابقة يغلب عليها التنظير، والتعميم في الضبط، دون التطرق لقضايا أساسية في عملية التفسير العلمي للقرآن، لذلك فإن ما سأذكره من ضوابط هنا تفاديت به التنظير، واعتمدت في كتابتها على التأصيل العملي، والتركيز على الضوابط التي توجه التفسير العلمي لكونه تخصصاً معاصراً، وسأعرض هذه الضوابط في مطالب، وسأضمن هذه المطالب أمثلة لعدم مراعاة هذه الضوابط من كتب المعاصرين الكاتبين في اتجاه التفسير والإعجاز العلمي للقرآن مع مناقشتها وبيان محل الخطأ فيها، وكذلك ستتضمن بعض الأمثلة التطبيقية لهذه الضوابط، ولكن ينبغي التنبيه إلى أن تطبيق الضوابط كاملة ستجدها في تفسير سورة النحل في القسم التطبيقي من البحث، وهذه المطالب هي:

- **المطلب الأول**: من حيث اللغة والإعراب.
- **المطلب الثاني**: من حيث الدلالة والمعاني.
- **المطلب الثالث**: من حيث قواعد أصول الفقه والتفسير.
- **المطلب الرابع**: من حيث علوم القرآن.
- **المطلب الخامس**: اتباع أحسن طرق التفسير.

ثم أختم هذه المطالب بأركان متفرقة لها علاقة مباشرة بضوابط التفسير العلمي.



المطلب الأول:

من حيث اللغة والإعراب.

إن مبنى التفسير العلمي قائم على المفردة القرآنية ونظم القرآن الكريم، فهما الحامل للعلوم المراد استنباطها، ومن نافلة القول أن القرآن الكريم نزل بلسان عربي كما قال تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٥]، ولذلك يقول الزركشي: (وليس لغير العالم بحقائق اللغة ومفهوماتها تفسير شيء من الكتاب العزيز، ولا يكفي في حقه تعلم اليسير منها، فقد يكون اللفظ مشتركاً وهو يعلم أحد المعنيين)[1]، فيجب على المفسر أن يعتني بغريب الآية، ومعرفة الوجوه والنظائر[2]، وكل ذلك يعرف من مظانه كالمعاجم اللغوية وكتب غريب القرآن، وكتب اللغة كالأمالي.

أما الإعراب فهو متعلق باللغة ضرورة؛ لأنه فرع المعنى وله أثره في الإيضاح والبيان[3]، يقول ابن عطية: (إعراب القرآن أصل في الشريعة؛ لأن بذلك تقوم معانيه التي هي الشريعة).[4]

---

(١) البرهان ٢/ ٣٠٦.

(٢) انظر: الإتقان ١/ ٢٨٣ والوجو اللفظ المشترك ولنظائر الألفاظ المتواطئة.

(٣) وقد ألفت رسالة دكتوراه في هذا الشأن خاصة بعنوان: التأويل النحوي في القرآن الكريم، تأليف د. عبد الفتاح أحمد الحموز ط مكتبة الرشد الرياض الأول ١٩٨٤، وأخرى بعنوان: الإعراب وأثره في ضبط المعنى دراسة نحوية قرآنية إعداد الدكتورة منيرة بنت سليمان العلولا ط دار المعرفة الجامعية الإسكندرية ١٩٩٣.

(٤) المحرر الوجيز ١/ ٢٠ ط وزارة الأوقاف قطر الثانية ٢٠٠٧م.

يقول السيوطي: (وعلى الناظر في كتاب الله الكاشف عن أسراره النظرُ في الكلمة وصيغتها ومحلها ككونها مبتدأ أو خبراً أو فاعلاً..).[1]

ثم ذكر السيوطي أموراً يجب مراعاتها عند الإعراب يطول ذكرها، وأقتصر على ذكر أهمها هنا:

منها: أن يكون ملماً بالعربية لئلا يخرّج على ما لم يثبت، ومنها أن يتجنب الأمور البعيدة والأوجه الضعيفة واللغات الشاذة ويخرج على القريب والقوي الفصيح، ثم يقول السيوطي: (وأما التنزيل فلا يجوز أن يُخرَّج إلا على ما يغلب على الظن إرادته، فإن لم يغلب شيء فليذكر الأوجه المحتملة من غير تعسف)، ومنها أن يراعي الرسم القرآني، وأن لا يُخرِّج على خلاف الأصل أو خلاف الظاهر.[2]

وبالجملة فلا بد أن يخضع التفسير العلمي للقرآن لدلالات اللغة العربية وقواعدها الإعرابية والصرفية التي لا تستند إلى قول مهجور غير معمول به في اللغة والنحو.

وقد تشدد بعضهم في هذا الشرط، فأوجب أن يكون التفسير خاضعاً لدلالات اللغة العربية وقواعدها التي لا خلاف فيها[3]، والأولى ما عبرت به؛ ذلك لأن الخلاف

---

(١) الإتقان ١/ ٣٦٥.ط السعودية.

(٢) انظر هذه الشروط وما تبقى في الاتقان ١/ ٣٦٥، إلى ٣٧٨ ط السعودية، وينبغي على المفسر معرفة هذه الشروط ومراعاتها في التفسير العلمي أثناء عمله.

(٣) انظر: فكرة إعجاز القرآن، نعيم الحمصي صـ ٤٢٧، والإعجاز العلمي د. عبد الحفيظ حداد صـ ١٢٢، وقد ذكر د. عبد الحفيظ أنه نقلها أيضاً من مجلة العربي من العدد الصادر في جمادى الثانية ١٣٩٩هـ من مقال بعنوان: (لماذا التعسف الباطل في تفسير القرآن بجر العلم إليه أو حجبه عنه؟) للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي.

الحاصل في التفسير؛ إنما هو خلاف يرجع إلى اختلاف القواعد الإعرابية والنحوية ودلالات اللغة[1]، فالمهم أن لا يستند التفسير إلى قاعدة شاذة أو مهجورة غير معمول بها، أو ليس لها حظ من النظر.

ولما لهذا الشرط من الأهمية والضرورة؛ فإنا نجد كل من كتب في ضوابط التفسير العلمي، أو اشتغل في أبحاث التفسير العلمي أو الإعجاز العلمي؛ يذكر أول شرط من شروط التفسير العلمي: العناية باللغة والنحو[2]، ومع ذلك ينخرم هذا الشرط في منهج بعضهم في التطبيق العملي، ويقع في مخالفات شديدة لهذا الأصل، بل قد يصل بعضهم إلى الافتراء على الآية، كما قال الحسن رحمه الله: (أهلكتهم العجمة، يقرأ أحدهم الآية فيعي بوجوهها حتى يفتري على الله فيها).[3]

---

(١) ينظر: بحث (اختلاف المفسرين أسبابه وضوابطه) أ.د. أحمد محمد الشرقاوي أستاذ التفسير وعلوم القرآن المساعد بكلية أصول الدين والدعوة جامعة الأزهر بحث محكم وصالح للنشر بحولية الكلية العدد السابع عشر ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

(٢) انظر مثلاً: الإعجاز العلمي في القرآن والسنة تاريخه وضوابطه د. عبد الله المصلح صـ٢٧ ط هيئة الإعجاز العلمي، دراسات في أصول تفسير القرآن د. محسن عبد الحميد صـ١٥٢، ومقال عناونه: (كيف تكتب بحثاً في الإعجاز العلمي) د. عبد الحفيظ حداد في مجلة الإعجاز العلمي صـ٢٠، العدد ١٧ ذي الحجة ١٤٢٤، وكتابه الإعجاز العلمي صـ١١٠، وبحث بعنوان: الأصول العامة لتحليل النص القرآني للدكتور قاصد ياسر الزيدي في مجلة العرب صـ٤٢٧، العدد (٧، ٨)، محرم وصفر ١٤٢٧ السعودية. والاتجاه العلمي في تفسير القرآن د. عبد الأمير كاظم في مجلة المنهج على الإنترنت.

(٣) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٢١ ط قطر. بهذا اللفظ ولعلها (فيعيا) بمعنى لم يهتد لوجهها انظر اللسان (عيا).

ولنضرب مثالاً تطبيقياً لانخرام هذا الضابط في عملية التفسير العلمي، حيث استدل بعضهم بقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ﴾ [الطارق:١١] على قوة الجاذبية وأثرها في انتظام دوران الكواكب والنجوم حول كواكب أو نجوم أخرى، واعتبر معنى قوله تعالى: ﴿ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ﴾ أي: أن هذه الكواكب والنجوم الدائرة ترجع إلى مكان انطلاقها بفعل قوة الجاذبية[١]، بل استدل بهذه الآية في مكان آخر على دوران مذنب هالي !، فقال: (حتى إن بعضهم حينما تلا قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ﴾ [الطارق:١١]؛ رأى أن هذه الآية فيها أدق وصف للسماء، فما من كوكب أو نجم في السماء إلا وله مدار يدور فيه، ويعود إلى ما كان بعد حين فهذا المذنب الذي يرقبه الناس كل يوم، مذنب هالي، منذ أن خلق الله السموات والأرض يدور في مداره لا يحيد عنه قيد أنملة)[٢].

وعلى ما تقدم نجد أنه فسر الرجع بمعنى الرجوع، وصار المعنى عنده: والسماء ذات الكواكب والنجوم والمذنبات التي ترجع إلى أماكنها، ثم اعتبر هذا الرجوع في الآية إشارة لقوة دوران الكواكب والنجوم والمذنبات بسبب قوة الجاذبية، وإذا كان الضابط عنده - كما ذكر هو - (أن تراعى معاني المفردات كما كانت في اللغة إبان نزول الوحي، وأن تراعى القواعد النحوية ودلالاتها والقواعد البلاغية وخصائصها، ولا سيما قاعدة: ألا يخرج اللفظ من الحقيقة إلى المجاز إلا بقرينة كافية)[٣]، فإنه خالف كل هذا الضابط من أوله إلى آخره.

---

(١) انظر: موسوعة الإعجاز العلمي آيات الله في الآفاق د. راتب النابلسي صـ٥٦، وكتب ذلك تحت عنوان (القوة الجاذبة في الكون)، ثم كرر هذا المعنى صـ٦٣.

(٢) المصدر السابق صـ ٧٩. تحت عنوان مدارات الكون ومذنب هالي.

(٣) المصدر السابق صـ ٢٧.





أما من جهة اللغة: فهو لم يراع دلالة الرجع لغة عند نزول الوحي، بل خرج عنها بدون قرينة، اللهم إلا تطويع النص لما يريد، فهناك فرق بين الرجوع والرجْع، أما (الرجوع: فهو العود إلى ما كان منه البدء أو تقدير البدء؛ مكاناً كان أو فعلاً أو قولاً؛ وبذاته كان رجوعه أو بجزء من أجزائه أو بفعل من أفعاله، فالرجوع العود، وأما الرجع: الإعادة)[1]، هذا من حيث الوضع، ويأتي الرجع عند العرب بمعانٍ أخرى، فيطلق الرجع عامة على الماء، وورد عن بعضهم أنه يقال للرعد رجع.[2]

يقول الراغب: (وقوله: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ﴾ أي: المطر، وسمى رجعاً لرد الهواء ما تناوله من الماء)[3]، وعلى هذا المعنى فهمه السلف رضي الله عنهم، فذهب ابن عباس والضحاك إلى أن الرجع: المطر، وذهب قتادة أنه (رزق العباد والمواشي) وهو يعني الماء، وذهب ابن زيد: (أن السماء تُرجع نجومَها وشمسها وقمرها، يأتين من ههنا)[4]، وكل هذه الأقوال أخذت أصل المعنى الوضعي للرجع: الإعادة.

وإذا كانت (ذات) تعني صاحبة؛ يصير معنى الآية من حيث اللغة: والسماء صاحبة الإعادة، كأن السماء هي التي تعيد، ويصير معنى الآية على أشهر الأقوال -- وهو قول ابن عباس والضحاك وقتادة - أن السماء تعيد المطر الذي فيه رزق العباد والمواشي

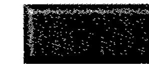
---

(١) انظر: المفردات صـ١٨٧ رجع.

(٢) انظر: لسان العرب / ١١٤، مادة (رجع) ففيه كلام مفصل في ذلك.

(٣) المفردات صـ١٨٨.

(٤) انظر قول ابن عباس وقتادة وابن زيد في: ابن جرير ٢٤/ ٣٦٠، تحقيق أحمد شاكر ط الرسالة أولى ١٤٢٠، تفسير ابن كثير صـ١٤١٤ ط الرسالة.



إلى الأرض، فتكون السماء على هذا هي السحاب، أما قول ابن زيد فإن السماء عنده غير السحاب، وغير الكواكب والنجوم، ومع ذلك فقد حمل الرجع في قوله معنى الإعادة، فصار المعنى على كلامه: إن الشمس والقمر والنجوم كلما غابت، أعادتهم السماء المعهودة.

أما على ما ذهب إليه صاحبنا فإن السماء عنده هي الكواكب والمذنبات التي تمتلك الجاذبية، فترجع بسببها إلى مكان انطلاقها، وهنا مخالفة لغوية أخرى إذ جعل معنى السماء: الكواكب والمذنبات؛ ولا دليل على هذا المعنى، سوى جرِّ النص لما يريده صاحب هذا المعنى، والله أعلم.

كما أن تفسيره هذا مخالف للبلاغة والسياق، يقول ابن عاشور: (وفي اسم الرجع مناسبة لمعنى البعث في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ﴾ [الطارق:٨]، وفيه محسِّن الجناس التام وفي مسمى الرجع - وهو المطر المعاقب لمطر آخر- مناسبة لمعنى الرجع: البعث، فإن البعث حياة معاقبة بحياة سابقة).[١]

وليته فعل كما فعل د. زغلول النجار، فقد أحسن في توسيع ما ترجع به السماء إلى الأرض من غير المطر، كالحرارة والغازات والأبخرة والغبار المرتفع من سطح الأرض ونحو ذلك[٢]، والآية تحتمل ذلك على اعتبار الأصل اللغوي للرجْع وعموم الدلالة في الآية، فهو لم يخالف الوارد ولم ينفه، بل أثبته، ووسع المدلول، **وتوسيعُ الدلالة بالحس**

(١) التحرير والتنوير ٣٠/ ٢٦٦.

(٢) انظر: مقال: والسماء ذات الرجع، د. زغلول النجار، مجلة الإعجاز العلمي العدد ٢٠ محرم ١٤٢٦هـ صـ٣٠، إلى صـ٣٧، وكتابه: السماء في القرآن الكريم صـ٢٩٣، إلى صـ٣٠٨.



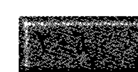


والمشاهدة بما لا يتعارض مع الأصل اللغوي والسياق القرآني؛ جائز كالتخصيص بهما، والله أعلم.

ومن أمثلة انخرام هذه القاعدة أيضاً -أقصد اللغة والإعراب- أن بعض الأطباء كتب بحثاً عن نشأة الإنسان، وأراد أن يبين معنى الصلب والترائب في قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ [الطارق:٩]، فقال بلفظه: (لفظ ﴿وَالتَّرَائِبِ﴾ **اسم صفة لا اسم ذات، يدل بأصل اشتقاقه على التماثل والتناظر** فيصدق على الأضلاع التي تكون عظام الصدر،...ولفظ ﴿الصُّلْبِ﴾ **بالمثل اسم صفة لا اسم ذات،** يدل بأصل اشتقاقه على قائم أمتن كتلةً، وأمكن يُصلب عليه الشيء ويُشد محمولاً عليه فيصدق على العمود الفقري الذي يحمل معظم بدن الإنسان القائم..)[1]، وعلى ذلك اعتبر أن الصلب والترائب في الآية السابقة، أسماء صفات لا أسماء ذوات، ولكنه سرعان ما خالف قوله هذا فيما بعد، وصار يفسرهما على أنهما أسماء ذوات فقال: (وفي قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾؛ يتعلق السياق ببداية انفصال وتميز عضو إنتاج الذرية وتكونه مع بقية أعضاء الجسم، والمقابلة بين لفظي (الصلب والترائب) تميز دلالة كل منهما؛ **لتتعين منطقة تقع بين بدايات الفقرات والأضلاع؛** حيث تتميز الغدة التناسلية بالفعل، وتمتد في منتصف المنطقة الظهرية بجوار الكلية في كل جانب، **وكأن القرآن يصف قطاع عرضي تحت المجهر تتميز فيه مناطق الأعضاء الثلاث بوضوح**)، فكلامه هنا عن أسماء ذوات وأماكن، لا عن أسماء صفات.

---

(١) نشأة ذرية الإنسان د. محمد دودح، صـ١٥، بحث مقدم للمؤتمر العالمي السابع للإعجاز العلمي في القرآن والسنة.



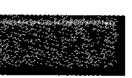
ثم يعتبرهما فيما بعد أنهما وصفان يعبران عن ذات، فقال: (ولفظي ﴿ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ **تعبيران وصفيان، والتعريف فيهما يبين أن مسمى كل منهما عضو بدني مألوف أحدهما مفرد والآخر جمع**، وتعبير الخروج الدال على موضع بَدء الهجرة في غاية الدقة حيث لا يدل بالضرورة على موضع النشأة لأن الغدة التناسلية تنشأ في الكتلة الظهرية أو الأصلاب قبل أن تنفصل وتتمايز مع تمايز بقية أعضاء الجسم، **والعجيب أن القرآن ينسب بداية تكوين الذرية إلى الظهر أو الصلب بالفعل، حيث تجتمع الأصول الخلوية لتكون الغدة التناسلية قبل انفصالها وتمايزها**).

ثم يقول فيما بعد: (وللوجدان أن يقشعر من تلك الدقة المتناهية **التي ميزت بين موضع تكون أعضاء إنتاج الذرية في الظهور، وموضع خروجها على طريق هجرتها**).[1]

فهو يعتبرهما اسما صفة، ويفسرهما على أنهما اسما موضع، أي: اسما ذات، ويتعامل مع المفردتين في بحثه على أنهما اسما ذات، فيقول في موضع آخر في بحثه: (..**ثم تخرج من الظهر** من منطقة **بين بدايات العمود الفقري وبدايات الضلوع** ليهاجر المبيض إلى الحوض بجانب الرحم وتهاجر الخصية إلى كيس الصفن حيث الحرارة أقل، والتعبير ﴿يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ يفي بوصف تاريخ نشأة الذرية ويستوعب كافة الأحداث الدالة على سبق التقدير وبالغ الاقتدار والإتقان والإحكام في الخلق **منذ تكوين البدايات في الأصلاب وهجرتها خلف أحشاء البطن ابتداءً من المنطقة بين الصلب والترائب إلى المستقر**).[2]

(١) نشأة ذرية الإنسان د. محمد دودح، صـ١٥.

(٢) المصدر السابق صـ٣٦.



فهو لا يستطيع أن يميز من حيث التطبيق العملي بين اسم الصفة واسم الذات في تفسير الآية، فلذلك تجده مضطرباً في استدلالاته، مشتتاً في أفكاره وهو يحاول تطويع المفردة لفكرته، مع أن الترائب لغة اسم ذات، لا كما ادعى أنها اسم صفة، والسياق يدل لذلك، يقول الراغب: (والترائب ضلوع الصدر الواحدة تريبة)[1]، ثم ذكر الآية، وعلى ذلك جرى التفسير المأثور[2]، أما الأتراب فهي من التِّرْب، وهي اللدُّ والسنّ جمعها أتراب لا ترائب، وتأتي بمعنى المثيل والشبيه[3]، والطبيب ·· صاحب الكلام السابق- خلط بين الأصلين في بحثه فلم يميز، وأما الصلب فهو اسم ذات في أصل استعماله ودلالته وعمل المفسرين[4].

وسيأتي مزيد من الأمثلة في ضمن المطالب الآتية إن شاء الله تعالى.

المطلب الثاني:

من حيث الدلالة والمعاني.

وهذه الفقرة مرتبطة بالتي قبلها، فمعرفة اللغة و الصرف والإعراب يظهر أثرها في الدلالة، ويضاف إليها هنا الأخذ بقواعد علم المعاني وأساليب البيان ومراعاتها في التفسير العلمي للقرآن الكريم، وهذا باب كبير من أبواب التفسير، بل هو عمدته، وقد أفرد علماء الأصول وعلوم القرآن والبلاغة مباحث خاصة بها، كالتقديم والتأخير

---

(١) المفردات صـ٧٤.

(٢) انظر: ابن جرير ٢٤/ ٣٥٤، ٣٥٥.ط الرسالة.وتفسير البغوي ٨/ ٣٩٤ تحقيق محمد عبد الله النمر وآخرون ط دار طيبة الرابعة ١٤١٧هـ.

(٣) انظر: اللسان ١/ ٢٣١.

(٤) انظر: اللسان ١/ ٥٢٦ (صلب)، وابن جرير ٢٤/ ٣٥٥، والبغوي ٨/ ٣٩٤ط طيبة.

والخبر والاستعارات والتشبيهات بأنواعها، فلا غرابة أن نجد المباحث البلاغية والعربية في علمي المعاني والبيان قد أخذت معظم كتاب (الإكسير في علم التفسير) لنجم الدين الطوفي.[1]

ومثال ذلك ما ذكره الزمخشري في تفسير قوله تعالى: ﴿صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَ﴾ [تبارك:١٩]، يقول: (﴿صَٰٓفَّٰتٖ﴾ باسطات أجنحتهنّ في الجوّ عند طيرانها؛ لأنهن إذا بسطنها صففن قوادمها صفاً ﴿وَيَقۡبِضۡنَ﴾ ويضممنها إذا ضربن بها جنوبهن. فإن قلت: لم قيل: ويقبضن، ولم يقل: وقابضات؟ قلت: لأن الأصل في الطيران هو صف الأجنحة؛ لأنّ الطيران في الهواء كالسباحة في الماء، والأصل في السباحة مدّ الأطراف وبسطها. وأما القبض فطارىء على البسط للاستظهار به على التحرك، فجيء بما هو طارئ غير أصل بلفظ الفعل، على معنى أنهن صافات، ويكون منهن القبض تارة كما يكون من السابح ﴿مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ﴾ بقدرته وبما دبر لهن من القوادم والخوافي،

---

(١) سليمان بن عبد القوي الصرصري البغدادي الإمام المفسر الفقيه المتكلم (ت٧١٦هـ) له الإكسير في علم التفسير ودرء القول القبيح بالتحسين والتقبيح وغيرهما، انظر: الدرر الكامنة لابن حجر٢/ ٢٤٩.

وقد قسّم الطوفي علم القرآن إلى نوعين:

لفظي: أي ما يتعلق بلفظه كالغريب والتصريف والإعراب.

ومعنوي: كالتنبيه على النظر في السموات والأرض وما فيهما من الأفلاك والنجوم وحركتها والدواب والمعادن.. إلخ. انظر: الإكسير في علم التفسير صـ١٧-٢٠، تحقيق: د. عبدالقادر حسين، ط: المطبعة النموذجية ١٩٧٧م.





وبني الأجسام على شكل وخصائص قد تأتى منها الجري في الجو)[1] ا.هـ، وهذا كلام نفيس للغاية، فتأمل كيف راعى دلالة كلٰ لفظ علىٰ حالة حركة الطير، وكيف خرج بنتيجة الأصل؛ والحالة الطارئة في الطيران من نظم الآية ولفظها ودلالتها.

وينبغي على المفسر أن ينتبه بحذر إلى نوع الدلالة في الآية على القضية التي يتحدث بها، لأن دلالة القرآن على مختلف العلوم متنقلة من أعم إلى عام حتى نصل إلى مسألة بخصوصها[2]، **وهي على أقسام:**

١- **دلالة مفتوحة**: تشمل كل الموجودات والمخلوقات من بدء الخليقة إلى يوم القيامة، وهي من باب أعم العمومات، وذلك كقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، فتأمّل هذه الآية فستجد أن نظام الحياة بدقائقها، ونظام الكون بتفاصيله وما فيه، يدخل في الآية، وكل ما اكتشف وما سيكتشف عن نظام الكون وما فيه من أنواع المخلوقات من بدء الخليقة إلى قيام الساعة فإنه داخل في دلالة الآية المفتوحة.

٢- **دلالة أعمّ العام**: كالدلالة التي تعمّ الكون كله، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾

---

(١) الكشاف٦/ ١٧٥، تحقيق عادل عبد الموجود وعلي معوض ط العبيكان أولى ١٩٩٨، وقوادم الطير: مقاديم ريشه، وهي عشر ريشات في كل جناح، انظر: المصباح المنير صـ٤٠٣، والخوافي: الريش الصغير في جناح الطائر ضد القوادم، انظر: اللسان ١٤/ ٢٣٤ مادة خفا.

(٢) وهذه الميزة في الدلالة غيرموجودة في غير القرآن الكريم، وعلّق الدكتور المشرف -حفظه الله- هنا: (لا سيما أن التوراة والإنجيل عند أهل الكتاب يخلو من كل ذلك، كما يخلو تراث الأرض كله من كل ذلك).



[لقمان: ٢٠]، فما في السماوات والأرض أعم من عموم النجوم والكواكب والجبال ونحو ذلك من المسخرات، وذكر النعم المسبوغة ظاهرة وباطنة أعم من عموم نعمة الزروع والثمار واللباس والأمن ونحو ذلك.

٣- **دلالة عامة**: وهي الدلالة على ما يصلح دخوله في وصف الآية من أفرادها، وذلك كعموم ما ترجع به السماء من الأبخرة والغازات وغير ذلك في قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ [الطارق: ١١]، وقد تقدّمت الإشارة إلى بيانها[1]، وعموم أنواع التسخير في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [إبراهيم: ٣٣]، وعموم ما يخرج من بطون النحل في قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ [النحل:٦٩]، ونحو ذلك في القرآن.

٤- **دلالة خاصة على القضية العلمية المتكلم عنها**: سواء كانت هذه الدلالة المباشرة من ظاهر النص؛ أم من إشارة النص ونحوها، كالدلالة بالمفهوم أو الفحوى، أو غير ذلك مما هو معروف في أصول الاستنباط بأنواع الدلالات.

ومثال ذلك الكلام على تولد اللبن في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ [النحل:٦٦]، والكلام على أطوار خلق الإنسان وولادته في الآيات، ونحو ذلك في القرآن.

---

(١) انظر: صـ٢٠٣-٢٠٥ من البحث.





ولذلك نجد الراغب يعقد فصلاً في مقدمة التفسير بعنوان: (فصل في انطـواء كـلام الله تعالى على الحكم كلها علميها وعمليها).[1]

وأراد به دخول العلوم في دلالة القرآن الكـريم؛ وعلَّـلَ قـصور فهـم الأكثـرين لهـا إلى شيئين:

أحـدهما: راجـع للَّفـظ؛ لمـا اختـصت بـه اللغـة العربيـة مـن أنـواع الحـذف والاستعارات وغير ذلك مما تميزت به، ولمـا اخـتص بـه أسـلوب القـرآن الكـريم مـن الإيجاز في اللفظ المنطوي على المعاني الكثيرة.

والثاني: راجع للمعنى، وفي ذلك يقول الراغب: (وأما الراجع إلى المعنى فـذكْرُه تعالى أصولاً منطوية على فروع؛ بعضها بينه النبي صلى الله عليه وسلم، وبعضها فـوض استنباطه إلى الراسخين في العلم تشريفاً لهم وتعظيماً لمحلهم).[2]

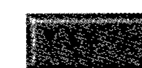
ثم ذكر الراغب فصلاً بعده مباشرة بعنوان (فصل في انطـواء القـرآن عـلى البراهـين والأدلة)؛ يقول في أوله: (ما من برهان، ولا دلالة وتقسيم، وتحديدٍ مبنـيٍّ عـلى كليـات المعلومات العقلية والسمعية؛ إلا وكتاب الله تعالى قد نطق به، ولكن أورده تعـالى عـلى عادة العرب؛ دون دقائق طُرُق الحكماءِ والمتكلمين)[3]، وعلل عدم تفصيل القـرآن لهـذه العلوم أن (المائل إلى دقيق المحاجة: هو العاجز عن إقامة الحجة بـالجلي مـن الكـلام... فأخرج تعالى مخاطباته خلقه في أجلى صورة تشتمل على أدق دقيق؛... ولـذلك إذا ذكـر

---

(١) مقدمة التفسير للراغب الأصبهاني صـ٤١٣ ط الجمالية مـصر ١٣٢٩هــ هـامش تنزيـه القـرآن عن المطاعن.

(٢) المصدر السابق صـ٤١٤.

(٣) المصدر السابق صـ٤١٤.



تعالى حجة على ربوبيته ووحدانيته أتبعها مرة بإضافتها إلى أولي العقل، ومرة إلى أولي العلم، ومرة إلى السامعين، ومرة إلى المفكرين، ومرة إلى المتذكرين؛ تنبيهاً على أن بكل قوة من هذه القوى يمكن إدراك حقيقة منها)[1]. وهذا كلام في غاية النفاسة.

إن عدم مراعاة هذا الضابط من أهم أسباب شطحات المشتغلين بالتفسير العلمي والإعجاز العلمي، والتكلف في بيان الآيات على ما يريدونه في محاولة تنزيل أي كشف علمي على آية بخصوصها؛ وإغفال دخولها في العمومات، كما فعل بعض الكاتبين حيث استدل بقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ [الرعد: ٤١ و الأنبياء: ٤٤]، على ظاهرة تآكل سواحل الأرض بفعل الأمواج البحرية فيحصل بذلك النقص[2]، بينما علّق على الآية آخرون جاعلين هذا النقص في طرفي قطبي الأرض بسبب دوران الأرض حول محورها وقوة طردها المركزي، وجعلوا الآية محتملة لنوع آخر من النقص وهو نقص جزئيات الغازات المغلفة للكرة الأرضية، وتطايرها خارج الكرة الأرضية، بسبب تجاوز سرعة هذه الغازات قوة الجاذبية الأرضية[3]، ولكنهم جعلوا النقص في تفسير آية [الأنبياء: ٤٤] نقصاً في مسافة نصف القطر القطبي عن مسافة نصف القطر الاستوائي، وبذلك تكون الآية دالة عندهم على عدم استدارة الأرض بشكل كامل وهذا بسبب نقص الأرض[4]، ونحن لو دقّقنا في

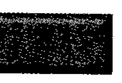
---

(١) مقدمة التفسير للراغب الأصبهاني صـ٤١٥.

(٢) انظر: موسوعة الإعجاز العلمي، يوسف الحاج أحمد صـ٤٥٩.

(٣) انظر: تفسير المنتخب صـ٣٦١.

(٤) انظر: تفسير المنتخب صـ٤٧٩، واعتبروا الآية بذلك إعجازاً علمياً.





نظم الآيتين وسياقهما لما وجدنا محلاً لهذه الدلالات السابقة، لا في عموم دلالة الآيتين، ولا خصوصهما؛ لمخالفة هذه التفاسير لنظم الآية واللغة.

فالتفسير الأول: اعتبر الأرض هي اليابسة فقط، والقرآن إذا أراد اليابسة ميّزها بالبر لا بالأرض، **والتفسير الثاني**: جعل الغازات المحيطة بالأرض من الأرض، واعتبر تطايرها نقصاناً في الأرض، وهذا تحكّم بدلالة الأرض في الآية، وتحكيم مصطلح الجيولوجيين على دلالة القرآن، فكلا التفسيرين خالف دلالة اللغة والقرآن، وأما الاستدلال بالآيتين على (تفلطح الأرض) كما قالوا، وعدم استدارتها بشكل كامل؛ فهو مخالف لدلالة الفعل المضارع في الآية لأن فعل النقص في الآيتين جاء مضارعاً والفعل المضارع يدل على التجدد والاستمرار في النقص، وعدم كروية الأرض ونقصان طرفي قطبيها أمر انقضى وثبت، كما أن الآيتين تتحدثان عن أطراف الأرض لا عن طرفيها.

ثم إنّ هذه التفاسير السابقة كلها مخالفة لسياق الآيتين، لأنهما وردتا في سياق التهديد والوعيد للمشركين، فقد هدَّدَ الله تعالى المشركين المحاربين لرسالة الإسلام وأتباعه.. هدَّدَهم بقوته وقدرته عليهم بتنقيصه الأرض، وذهاب مصالحهم وقوتهم التي يحاربون بها الإسلام، ويجعلهم أذلة بعد عزّ، ويجعل الغلبة لنبيّه والمسلمين.[1]

وأراد بعضهم أن يستدل على ظاهرة الثقوب السوداء بقوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ۝١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ﴾ [التكوير: ١٥، ١٦]، وبعد أن شرح نشوء الثقوب السوداء وبين وظيفتها أنها تبتلع ما يدخل في مدارها كالمكنسة التي تكنس القمامة، قال: (..ولا

---

(١) ينظر: ابن كثير ٤/ ٤٧٣، ط: طيبة، ونقل ترجيح هذا القول عن ابن جرير، والقرطبي ٩/ ٣٣٣ و١١/ ٢٩٢، ط: دار إحياء التراث ١٩٨٥.



أجد وصفاً لتلك المرحلة من حياة النجوم المعروفة بالثقوب السود أبلغ من وصف الخالق سبحانه لها بالخنس الكنس، **فهي خانسة، أي: دائمة الاختفاء والاستتار بذاتها،** وهي كانسة لصفحة السماء، تبتلع كل ما تمر به من المادة المنتشرة بين النجوم، وكل ما يدخل في نطاق جاذبيتها من أجرام السماء، وهي جارية في أفلاكها المحددة لها..)[1].

ويقول في موضع آخر: (ولكن الوصف القرآني بالخنس **يعني الاختفاء الكامل** ولا يعني الظهور ثم الاختفاء).[2]

وبعد أن أورد معنى (كنّس) لغة من معجم مقاييس اللغة، يقول: **(وعندي أن الكنّس هي صيغة منتهى الجموع للفظة كانس،** أي: قائم بعملية الكنس، وجمعها كانسون...، ولا يعقل أن يكون المعنى المقصود في الآية الكريمة للفظة (الكنّس) هي المنزوية المختفية، وقد استوفى هذا المعنى باللفظ (الخنس)..).[3]

ثم يذكر بعض أقوال المفسرين للآية على ما سيأتي ثم يقول: (ومع جواز هذه المعاني كلها إلا أني أرى الوصف في هاتين الآيتين الكريمتين ينطبق انطباقاً كاملاً مع حقيقة كونية مبهرة تمثل مرحلة خطيرة من مراحل حياة النجوم يسميها علماء الفلك اليوم باسم الثقوب السود..).[4]

---

(١) السماء في القرآن الكريم، د. زغلول النجار صـ ٢٢٧.

(٢) السماء في القرآن صـ ٢١٦.

(٣) السماء في القرآن صـ ٢١٤.

(٤) المصدر السبق صـ ٢١٥.



ووجه المخالفة في كلامه من جهتين:

إحداهما دلالة خنس:

فهو جعل (الخنَّس) في الآية بمعنى دائمة الاختفاء، ونفى أن يكون (الخنس) بمعنى الظهور والاختفاء في الوصف القرآني هنا، وهذا تحكم عجيب؛ إذ ليس في اللغة ولا في القرائن المعتبرة ما يدل على تقييد الاختفاء في الآية .. ولا في أصل الوضع اللغوي - بالدوام، ومادة خنس لم ترد في القرآن إلا في موضعين: هذا الموضع في الآية، وفي سورة الناس في قوله تعالى: ﴿ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴾ [الناس:٤] وهي تعني الذي يختفي عند ذكر الله تعالى؛ فإذا غفل الإنسان ظهر ليوسوس، إذن فاللغة دلت أن معنى (خنس) هو مطلق الاختفاء مع جواز الظهور، والدلالة القرآنية لخنس تدل على أن الخنس اختفاء يكون معه ظهور، بل الدلالة القرآنية ترجح هذا المعنى، فكيف ينفي دلالة الظهور ثم الاختفاء في الآية هنا؛ وهو أرجح من حيث اللغة والقرائن، ويوجب معنى الاختفاء الدائم ويحتمه ولا دليل عليه، مع أنه قدم معنى الخنس لغة بأنه (الاستخفاء والتستر)(١)، ونقل أيضاً أقوال أهل اللغة والمعاني أن الخنس: (النجوم تخنس في المغيب، وقال قوم: سميت بذلك لأنها تختفي نهاراً وتطلع ليلاً)(٢)، ويقول الراغب: (أي الكواكب التي تخنس بالنهار، وقيل: الخنس هي زحل والمشتري والمريخ

---

(١) انظر: معجم مقاييس اللغة ٢/ ٢٢٣، خنس. والسماء في القرآن صـ٢١٣، وتأمل السين في الاستخفاء. أي: طلب التخفي كلما ظهرت.

(٢) معجم مقاييس اللغة ٢/ ٢٢٣، وتستعمل خنس في اللغة أيضاً بمعنى الانقباض والتأخر كما في اللسان ٦/ ٧١ خنس.



لأنها تخنس في مجراها)[1]، وما ورد من المأثور لم يخرج عن هذا[2]، إلا أن الكاتب خالف معنى خنس لغة وأثراً ودلالة، ففسرها بدائمة الاختفاء ليطوع النص لما يريد.

الجهة الثانية دلالة كنس:

فقد جعل (الكُنَّس) في الآية من صيغ منتهى الجموع لكانس، وهذا أعجب من كلامه في الخنّس!؟؛ فـ (كُنَّس) هي جمع كانسة[3]، كما أن (الخُنَّس) جمع خَانسة، وهو جمع بصيغة فُعَّل التي تفيد التكثير والمبالغة في الفعل، كما في خُشَّع ورُكَّع، فكيف صارت منتهى الجموع، هذا مثال للمخالفة في الصرف.

ثم نفيه أن تكون (الكنّس) من كَنَس الظبي إذا دخل كِنَّاسه، بحجة ورود معنى الاختفاء (الكامل) في الخنس - على مذهبه -؛ أي: فكيف تختفي هذه النجوم مرة أخرى بعد أن اختفت اختفاءً كاملاً - كما ذهب هو في معنى الآية؟! -، فتعين إذن في معناها أن تكون من إزالة الشيء عن وجه شيء[4]، فاعتبر هذا تكراراً للمعنى بدون فائدة، فصار معنى الآية على مذهبه: أقسم بالنجوم التي اختفت اختفاء كاملاً وهي جارية وتكنس، -أي: تزيل- ما حولها في السماء.

وما ذهب إليه مخالف لِلُغَةِ العرب وأساليبها وأخرج الآية عن مقتضاها؛ وما ذهب إليه المفسرون هو الصحيح؛ لموافقته أساليب العرب في كلامهم، فليس في الآية تكرار لنفس المعنى في حالة واحدة؛ وإنما الوصف بالاختفاء في (الخُنَّس والكُنَّس)؛ باعتبار

---

(١) المفردات صـ١٥٩.

(٢) انظر: ابن كثير صـ١٤٠٢.

(٣) التحرير والتنوير ٣٠/ ١٥٢.

(٤) انظر: السماء في القرآن صـ ٢١٤.

حالات النجوم، فهي خنس حال طلوعها، وجَوَارٍ في فلكها، وكنَّس في حال غيبوبتها، من كَنَس الظبي، إذا دخل بيته ليكتنَّ فيه؛ ويستتر من حر الشمس أو للمبيت[1]، وعلى هذا جاءت أكثر الآثار عن الصحابة ومن بعدهم.[2]

وفي ذلك يقول ابن عاشور رحمه الله:

(وهذه الصفات أريد بها صفات مجازية؛ لأن الجمهور على أن المراد بموصوفاتها الكواكب، وُصِفن بذلك لأنها تكون في النهار مختفية عن الأنظار فشبهت بالوحشية المختفية في شجر ونحوه، فقيل: الخُنَّس وهو من بديع التشبيه، لأن الخنوس اختفاء الوحش عن أنظار الصيادين ونحوهم دون سكون في كناس، وكذلك الكواكب لأنها لا تُرى في النهار لغلبة شعاع الشمس على أفقها، وهي مع ذلك موجودة في مطالعها).

وشبه ما يبدو للأنظار من تنقلها في سمت الناظرين للأفق؛ باعتبار اختلاف ما يسامتها من جزء من الكرة الأرضية بخروج الوحش، فشبهت حالة بُدُوّها بعد احتجابها مع كونها كالمتحركة؛ بحالة الوحش تجري بعد خنوسها تشبيه التمثيل؛ وهو يقتضي أنها صارت مرئية؛ فلذلك عقب بعد ذلك بوصفها بالكُنّس، أي عند غروبها؛ تشبيهاً لغروبها بدخول الظبي أو البقرة الوحشية كِنَّاسها بعد الانتشار والجري.

فشبه طلوع الكوكب بخروج الوحشية من كناسها، وشبه تنقل مَرآها للناظر بجري الوحشية عند خروجها من كناسها صباحاً.

---

(١) انظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٥/ ١٤١. لسان العرب ٦/ ١٩٧ كنس.

(٢) انظرها في ابن كثير صـ ١٤٠٢ ط الرسالة.

قال لبيد:

حتى إذا انحسر الظلام وأسفرت بَكَرَتْ تَزِلُّ عن الثرى أزلامُها

وشبه غروبها بعد سيرها بكنوس الوحشية في كناسها، وهو تشبيه بديع فكان قوله: ﴿بِٱلْخُنَّسِ﴾ استعارة، وكان ﴿ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ﴾ ترشيحان للاستعارة.

وقد حصل من مجموع الأوصاف الثلاث ما يشبه اللغز يحسب به أن الموصوفات ظباء أو وحوش؛ لأن تلك الصفات حقائقها من أحوال الوحوش، والإلغاز طريقة مستملحة عند بلغاء العرب، وهي عزيزة في كلامهم، قال بعض شعرائهم وهو من شواهد العربية:

فقلت أعيراني القَدّوم لعلّني أخُطُّ بها قبْراً لأبيض ماجد

أراد أنه يصنع بها غِمداً لسيف صقيل مهند.

وعن ابن مسعود وجابر بن عبد الله وابن عباس: (حمل هذه الأوصاف على حقائقها المشهورة، وأن الله أقسم بالظباء وبقر الوحش.

والمعروف في إقسام القرآن أن تكون بالأشياء العظيمة الدالة على قدرة الله تعالى أو الأشياء المباركة).[1] انتهى كلامه رحمه الله وهو في غاية النفاسة.

فلو أن الكاتب وفقه الله تأنى في كتابته مراعياً هذا الضابط العام الكبير بتفاصيله لما أوقع نفسه في التكلف.

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠/ ١٥٣.

*** مسائل تتعلق بمطلب الدلالة والمعاني:**

وثمة مسائل في علم الدلالات ترتبط بالتفسير العلمي كثيراً، وأكثر عمل المفسر يدور حولها، ولذلك سأتعرض لأهمها باختصار وينظر تفاصيلها في مظانها من كتب علوم القرآن الأمهات، وكتب أصول الفقه، وهي:

- مسألة معاني الأدوات.
- مسألة اللفظ الدال على عدة معاني.
- مسألة دلالة الألفاظ والصيغ.
- مسألة دلالة السياق.

*** مسألة معاني الأدوات:**

وهي الحروف وما شاكلها من الأسماء والأفعال والظروف، وهذه من المهمات؛ لاختلاف مواقعها؛ فيختلف الكلام والاستنباط بحسبها.[1]

فيلزم المفسر أن يستعمل هذا العلم وأن يعتبره في الاستدلال والاستنباط عموماً، وأن لا يحمل أداة من أدوات المعاني أو حرفاً على غير ما تقتضيه العربية وأساليبها[2]، كما لا يجوز أن يتعسف في دلالة حرف على أمر بعيد لا يقتضيه، كما جعل بعضهم الحرف (في) في قوله تعالى: ﴿سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [آل عمران:٣٧، الأنعام:١١] دالاً على أن الغلاف الجوي هو جزء من الأرض، ليوافق كلام المختصين في علوم الأرض، فيقول: (وهنا يأتي العلم ليؤكد أننا فعلاً نسير في الأرض وليس على الأرض، لأن هناك غلافاً

---

(١) انظر: الاتقان ١/ ٢٩٣ ط السعودية د.ت.

(٢) انظر: الإعجاز العلمي د. المصلح صـ ٢٧، و: كيف تكتب بحثاً في الإعجاز العلمي د. عبدالحفيظ حداد مجلة الإعجاز العلمي العدد ١٧ صـ ٢٠، وكتابه الإعجاز العلمي صـ ١١٠.

وينظر مثال على ذلك تفسير قوله تعالى: ﴿ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ صـ ٤١٢ من البحث.

جوياً يحيط بالأرض وهو جُزء منها، ونحن لا نخرج من الأرض إلا إذا خرجنا من هذا الغلاف الجوي، فالطائرات التي تطير على ارتفاعات مختلفة تطير في الأرض وليس خارج الأرض، ولكن الذي يخرج من الأرض: هي سفن الفضاء التي تجاوز الغلاف الجوي للأرض..).[1]

ولذلك ·· على قوله - فنحن نسير في الأرض، (أي بين سطح الأرض والغلاف الجوي، فما تحتنا هو أرض، وما فوقنا هو جزء مكمل للأرض وهو الغلاف الجوي).[2]

وهذا الاستدلال مخالف لأساليب العربية وبلاغتها، لأن الحرف (في)، من معانيه أنه يأتي بمعنى (على)، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه:٧١]، أي على جذوع النخل.

وهكذا كانت العرب تستخدمه كما قال الشاعر:

هم صلبوا العبدي في جذع نخلة ... فلا عَطَسَتْ شيبانُ إلا بأجدعا[3]



(١) الإشارات العلمية في القرآن الكريم بين العلم والكون والإيمان د. أحمد عبده عوض عبده صـ٩٤، ط المكتبة القيمة القاهرة د.ت، وينظر: الأدلة المادية على وجود الله للشيخ محمد متولي الشعراوي صـ٨٠، كتاب اليوم القاهرة ١٩٨٩.

(٢) المصدر السابق صـ٩٥.

(٣) بهذا استدل المبرد على مجيئ (في) بمعنى (على) في المقتضب ٢/ ٣١٩، تحقيق الشيخ محمد عبدالخالق عضيمة ط عالم الكتب بيروت، ونسب البيت لامرأة من العرب، ونسبه في اللسان لسويد بن كاهل ٣/ ٢٧٣ مادة: عبد. وانظر الحروف العاملة في القرآن الكريم بين النحويين والبلاغيين، هادي عطية مطر الهلالي صـ٤٦٨ ط عالم الكتب الأولى ١٩٨٦م.

كما أن هذا الاستدلال مخالف لقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [النحل:٧٩]، فلو كان استدلاله صحيحاً، لكان النظم في الآية: في جو الأرض، لأن الطير تطير ضمن الغلاف الجوي، والمسافة التي تطير فيها الطيور في جو السماء هي قريبة جداً بالنسبة للمسافة التي تطير فيها الطائرات في جو السماء، بل هي أقرب منها بكثير إلى الأرض مهما ارتفعت.

كما أنه مخالف أيضاً لقوله تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ [الروم:٤٨]، والسحب عندما تنبسط؛ فإنها تنبسط ضمن الغلاف الجوي وليس خارجه، فهي إذن في السماء وليست في الأرض، فإن اعتبر المختصون في علوم الأرض الغلاف الجوي من الأرض؛ فهو مصطلح خاص بهم، ولا يجوز لوي عنق معاني الأدوات والدوران عليها، وجر القرآن بتكلف ليوافق مصطلحات خاصة على حساب العربية وبلاغتها.

* مسألة دلالة الألفاظ والصيغ:

يجب على المفسر أن يراعي أقسام الدلالة[1]، وأن يبين درجتها بالنسبة للمسألة العلمية التي يراد استنباطها من الآية ووجه استنباطها، كصيغ العموم والخصوص والمطلق والمقيد، واسم الجنس..، ونحو ذلك من مباحث الدلالات، إذ يجب على

---

(١) ينظر أقسام الدلالة البحر المحيط للزركشي ٢/ ٣٦، وروضة الناظر لعبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي صـ١٤ تحقيق عبد العزيز السعيد ط جامعة الإمام محمد بن سعود الرياض الثانية ١٣٩٩هـ.

المفسر بالتفسير العلمي أن يعتني بهذه الأمور أثناء تفسيره، وأن يدقق في دلالاتها، ويستثمر ذلك ما استطاع في استنباط العلوم، ويستثمر المعارف في بيان دلالة اللفظ وتوسيعه، وأن يراعي وجه الترابط والعلاقة بين ما تدل عليه الآية والمعلومات الكونية الموظفة في تفسيرها.

مثال ذلك: جمع البطون في قوله تعالى: ﴿نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ﴾ [النحل:٦٦]، إذ دلت على تعدد البطون من باب إشارة النص، ويؤيده علم التشريح، ويقويه السياق الذي وردت فيه الآية، وهذا استدلال لا يخالف العربية.[1]

ومن الأمثلة التي تدخل في عدم مراعاة هذا الضابط؛ ما استدل به بعضهم على أن العشب والنبات الأخضر فقط هو الذي يختزن ويحتفظ بحرارة الشمس؛ لوجود المادة الخضراء فيه التي تساعد على النمو وعلى اختزان حرارة الشمس، واعتبر اختزان المادة الخضراء لحرارة الشمس هو اختزان للنار، فالعشب الأخضر على ذلك: جسم بارد فيه نار مختزنة[2]، وجعل هذا معنى قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلۡأَخۡضَرِ نَارٗا فَإِذَآ أَنتُم مِّنۡهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس:٨٠]، كما أنه جعل الآية دالةً على أمرين آخرين إضافة لما مر، وهما:

---

(١) انظر تفسيرها صـ٥٧٨ من البحث. وهذا من باب إشارة النص، وهُي الْعَمَلُ بِمَا ثَبَتَ بِنَظْمِهِ لُغَةً لَكِنَّهُ غَيْرُ مَقْصُودٍ وَلَا سِيقَ لَهُ النَّصُّ وَلَيْسَ بِظَاهِرٍ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ.

انظر: البحر المحيط للزركشي ٤/ ٦، وكشف الأسرار شرح نور الأنوار ١/ ٦٩، أبوالبركات عبدالله بن أحمد النسفي، ط: بولاق ١٣١٦هـ.

(٢) الإشارات العلمية في القرآن أحمد عبده صـ١٩١.



إن النبات الأخضر بما يختزنه؛ إذا فقد الحياة ودفن في الأرض تحول إلى فحم حجري، أو طاقة حرارية (نار)، والثاني: أن الشجر الأخضر طاقة كيميائية تنطلق على هيئة نار يمكن تحويلها إلى طاقات ضوئية وحرارية.[1]

ولا أرى لهذه الاستنباطات أي تعلق بالآية ولو بإشارتها، فالآية جاءت في سياق الاستدلال على البعث بعد الموت، وهي على ظاهرها لا تتكلم عن كل نبات أو شجر أو عشب أخضر، وإنما عن الشجر الأخضر المعهود لدى المخاطبين، فالأخضر صفة للشجر، والآية فيها تقديم وتأخير للتشويق والاهتمام بالمقدم؛ لما في ذلك من العجائب: وبيان الآية: الذي جعل لكم ناراً من الشجر الأخضر، فإذا أنتم من هذا الشجر الأخضر توقدون النار.

يقول ابن عاشور: (إذ ليس المراد من الأخضر اللون، وإنما المراد لازمه، وهو الرطوبة؛ لأن الشجر أخضر اللون ما دام حياً، فإذا جف وزالت منه الحياة استحال لونه إلى الغبرة، فصارت الخضرة كناية عن رطوبة النبت وحياته)[2]، ولذلك اشتهر بين المفسرين أن هذا الشجر هو شجر المَرخ وشجر العَفار، وهما خضراوان يقطر منهما الماء، فيسحق المرخ على العفار فتنقدح النار، بل ذهب ابن عاشور إلى أنه المراد هنا في الآية[3]، ولعل (ال) العهدية في (الشجر) تقوي ذلك.

فالآية رد على من أنكر الحياة بعد الموت، ولا يُخَاطب المنكِر بما يجهل ولا عهد له به، وهاتان الشجرتان معهودتان ومعروفتان عند الكبير والصغير فيهم، وهذا ما دل عليه

---

(١) انظر: الإشارات العلمية في القرآن أحمد عبده صـ١٩٢،١٩١، إذ تكلم في ذلك كلاماً طويلاً.

(٢) التحرير والتنوير ٢٣/ ٧٦.

(٣) انظر: التحرير والتنوير ٢٣/ ٧٧، البغوي ٧/ ٢٩ ط طيبة، ورواه عن ابن عباس.

ظاهر النص، لأن هناك فرقاً بين تعريف الشجر وتنكيره، فكل شجر منكر في القرآن فإنه يحمل في دلالته على ما له ساق وما ليس له ساق، وكل شجر معرف في القرآن - بـ(أل)، أو الإضافة - يدل على ماله ساق في ظاهر النص؛ ولا يدل على غير ذلك إلا بقرينة، فعلى هذا لا تصح الاستنباطات والاستدلالات السابقة جميعها، لمخالفتها لظاهر النص دون قرينة، ومخالفتها لدلالة اللفظ في القرآن الكريم.

وما أجمل قول الآلوسي:

(ثم إن هذه النار يخلقها الله تعالى عند سحق إحدى الشجرتين على الأخرى؛ لا أن هناك ناراً كامنة تخرج بالسحق، و ﴿مِّنَ ٱلشَّجَرِ﴾ لا يصلح دليلاً لذلك، و: في كل شجر نار؛ من مسامحات العرب فلا تغفل، وإياك واعتقاد الكمون)[1]، إلا أن الكاتب ذهب إلى ما حذر منه الآلوسي.

ومن الأمثلة التي تصلح لعدم مراعاة مراتب الدلالة، وعدم ارتباط التفسير بدلالة الآية أصلاً: ما فسر به أحدهم قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ [الملك:٣]، بطبقات الغلاف الجوي التي ذكرها علماء الفضاء، فقال: (يقول علماء الفضاء: إن الطبقة الأولى هي طبقة الهواء السفلي... وهذه الطبقة السفلى لا يزيد ارتفاعها أول الأمر على ستة عشر كيلو متراً، والطبقة الثانية: هي طبقة فيها جزيئات غازية كبريتية تلقح السحاب وتسهل عملية إنزال المطر، وفيها أيضاً طبقة الأوزون...، وأما الطبقة الثالثة: فهي تشبه فرناً ذرياً شديد اللهب...، والطبقة الرابعة: هي طبقة الأيونوسفير، أي: الطبقة المتأينة بأرجائها الغامضة بارتفاع قدره ثمانون كيلو متراً...،

---

(١) روح المعاني ١٢/ ٥٤ تحقيق علي عبدالباري عطية، ط: دار الكتب العلمية، الثانية ١٤٢٦هـ.

وأما الطبقة الخامسة فهي تمتد من ألف كيلومتر إلى خمس وستين ألف كيلو متر..)[1].ا.هـ ولم يزد على هذه الطبقات الخمس شيئاً.

وهذا التفسير بالإضافة لكونه **مخالفاً لنصوص القرآن والأحاديث** خاصة منها أحاديث المعراج المتواترة[2]، فإنه حكّم مصطلح علماء الفضاء للسماء على الدلالة الشرعية لسبع سموات طباق، مع أنه لم يذكر سبع طبقات، وإنما ذكر خمس طبقات فقط، فيكون خالف نص الآية نفسها.

ومن الأمثلة التي تصلح على عدم ارتباط التفسير بدلالة الآية تفسير بعضهم قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام:٩٩][3]، عندما أخذ يتكلم عن انتشار بعض بذور النباتات وانتشارها، ولا أدري ما ارتباط تناثر بعض أنواع البذور بدلالة هذه الآية مع أنها في سياق الكلام على نعمة الماء النازل وما فيه من منن، ومنها إخراج نبات كل شيء، وليس بعض البذور كما استطرد الرجل.

*** مسألة: اللفظ الدال على عدة معاني:**

ومما يلتحق بمطلب دلالة الألفاظ، ويلزم المفسر الانتباه إليها: مسألة اللفظ المحتمل لعدة معاني كالمجمل والمشترك، وقد عرض نجم الدين الطوفي في الإكسير حول هذه القضية تفصيلاً جيداً، فذكر أن اللفظ إن كان يحتمل معنيين متناقضين كالقرء مثلاً؛

---

(١) موسوعة الإعجاز العلمي د. راتب النابلسي من صـ٤٧، إلى صـ ٤٩ باختصار.

(٢) انظر: صـ ٣٧٤ من البحث لزيادة البيان في وجه المخالفة للنصوص.

(٣) النبات في القرآن الكريم للدكتور زغلول النجار ٥/ ١٣٥ ط مكتبة الشروق الدولية الثانية ٢٠٠٥.

كان أحد النقيضين أو الضدين متعيناً للإرادة؛ لاستحالة الامتثال بالجمع بينهما[1]، أما إن لم يشتمل التناقض؛ بل كان مجرد اختلاف وتعدد أقوال؛ فيقول الطوفي: (فإن احتمل اللفظ جميعها وأمكن أن تكون مرادة منه؛ وجب حمله على جميعها ما أمكن، سواء كان احتماله لها مساوياً أو كان في بعضها أرجح من بعض، وإلا فحمله على بعضها دون بعض إلغاء للفظ بالنسبة إلى بعض محتملاته من غير موجب، وهو غير جائز، ولأنه لو جاز أن يكون مراداً فإعمال اللفظ بالنسبة إليه أحوط من إهماله.

نعم إن كان احتماله لها متفاوتاً في الرجحان جاز في مقام الترجيح تقديم الأرجح فالأرجح بحسب دلالة اللفظ عليه، أو جلالة قائله، أو عاضده الخارجي، وغير ذلك من وجوه الترجيحات..).[2] انتهى كلامه رحمه الله.

وسأتناول مسألة المشترك بشيء من الإيجاز لأنها من المسائل المهمة في التفسير العلمي، وهي داخلة في المجمل من حيث المعنى.

والمشترك: هُوَ اللَّفْظُ الْوَاحِدُ الدَّالُّ عَلَى مَعْنَيَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ دَلَالَةً عَلَى السَّوَاءِ عِنْدَ أَهْلِ اللُّغَةِ، سَوَاءٌ كَانَتْ الدَّلَالَتَانِ مُسْتَفَادَتَيْنِ مِنْ الْوَضْعِ الْأَوَّلِ؛ أَوْ مِنْ كَثْرَةِ الِاسْتِعْمَالِ، أَوْ اُسْتُفِيدَتْ إحْدَاهُمَا مِنْ الْوَضْعِ وَالْأُخْرَى مِنْ كَثْرَةِ الِاسْتِعْمَال؛ وهو في اللغة على الأصح، وهو واقع شرعاً وعقلاً.[3]

---

(١) الإكسير في علم التفسير للطوفي صـ١٢.

(٢) الإكسير صـ١٣. وقد ضرب الطوفي لذلك أمثلة متعددة انظرها للتوسعة.

(٣) البحر المحيط للزركشي ٢/ ١٢٢، تحقيق عبد القادر العاني ط الثانية وزارة الأوقاف الكويت ١٤١٣.



فهل يحمل المشترك على معنى واحد أم يحمل على معانيه؟.

ويدخل في هذه المسألة أيضاً معاني الأدوات، إذ الأداة الواحدة لها أكثر من معنى، وقد تحتمل عدة معان في سياق النص القرآني نفسه.

* اختلف في هذه المسألة على مذهبين رئيسين:

أحدهما: يرى جواز حمله على معانيه، والآخر يمنعه.(1)

والذي يميل إليه الباحث الرأي الأول عند تساوي الدلالات أو احتمالها جميعاً، خاصة إن أمكن الجمع بينها، أو حَمْل معاني المشترك على اختلاف الاعتبارات والأحوال؛ لأن ذلك يوسع في دلالات الألفاظ والمعاني، ويعطي استنباطات علمية أكثر يحتملها النص القرآني، مالم تكن ثَمَّة قرينة ترجح أحد هذه المعاني فإنه يقدم المعنى الراجح، ومع ذلك تبقى المعاني الأخرى محتملة.(2)

---

(1) انظر المسألة: البحر المحيط للزركشي ٢/ ١٢٢، كشف الأسرار شرح نور الأنوار على المنار ١/ ١٣٨، المحصول للرازي ١/ ٢٦٨، تحقيق العلواني ط مؤسسة الرسالة، والتقريب والإرشاد (الصغير) للقاضي أبي بكر الباقلاني ١/ ٤٢٢، تحقيق د. عبد الحميد أبو زنيد، ط الرسالة ثانية ١٩٩٨م، وللمحقق أبوزنيد في مقدمة تحقيقه للإرشاد بحث مطول حول المشترك فصل فيه مذاهب العلماء وأدلتهم ١/ ١٣٥، وانظر رأيه: ١/ ١٥٣، ١٥٤ حول المسألة.

(2) انظر: مثال ذلك تفسير قوله تعالى: ﴿ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ [النحل:١٠] صـ ٤١٢ من البحث، وتفسير السجود في قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [النحل:٤٩]، صـ ٥٣١ من البحث وانظر أيضاً تفسير قوله تعالى: ﴿فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ﴾ [النحل:٦٩]، صـ ٦٣٨ من البحث.



وإذا أراد المفسر حمل المشترك على أحد معانيه بقرينة فينبغي أن يبين أن المعاني الأخرى محتملة ولا يجوز تخطأتها أو إلغاؤها ما لم يكن عنده قرينة قوية تبين خطأها، يقول ابن جني[1]: (اعلم أن المذهب في هذا ونحوه أن يعتقد الأقوى منهما مذهباً، ولا يمتنع مع ذلك أن يكون الآخر مراداً وقولاً).[2]

ومثال حمل المشترك على معانيه في التفسير العلمي:

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان:٥٣].

فقد ورد فعل (مرج) في اللغة بمعنيين[3]:

- **المعنى الأول**: مزج وخلط.
- **والمعنى الثاني**: أرسل، وعلى هذين المعنيين وردت أقوال المفسرين في بيان الآية.[4]



---

(١) عثمان بن جني الموصلي، أبو الفتح: من أئمة الادب والنحو له الكثير من التصانيف أشهرها الخصائص وشرح ديوان المتنبي وغير ذلك ت (٣٩٢هـ) انظر: سير أعلام النبلاء ١٧/ ١٧ بغية الوعاة ٢/ ١٣٢ الأعلام ٤/ ٢٠٤.

(٢) الخصائص لابن جني ٢/ ٤٨٨، تحقيق محمد علي النجار ط دار الكتاب العربي، وينظر للتوسع كتاب الوجيز في فقه اللغة تأليف محمد الأنطاكي، صـ٣٨٨ فما بعد، ط مكتبة الشروق بيروت الثالثة دون تاريخ، وقد علق فضيلة المشرف على ما ذهبت إليه بأن المتكلم العاقل إنما يريد بخطابه معنىً واحداً، ويريد أنه لايرى حمل المشترك على أكثر من معنى، فأردت أن أسجل هذا هنا لأبين موقفه حفظه الله، وإن كنت أخالفه الرأي والله أعلم.

(٣) انظر: المفردات للراغب صـ٤٦٥، لسان العرب ٢/ ٣٦٤ مرج.

(٤) انظر: ابن جرير١٩/ ٢٨١، ط الرسالة، البغوي ٦/ ٩٠ ط دار طيبة.



وسأقتبس هنا كلام الشيخ عبد الرحمن حبنكة[1] في الآية إذ يقول:

(وقد نبهت هذه الآية على علامة من علامات الخلق والتدبير الحكيم في الماء.. وذكرت أن هذين الماءين: بحران عظيمان خلقهما الله عز وجل لمنافع الحياة والناس، وكل من هذين البحرين ينبغي لتحقيق المنفعة منه أمران:

● **الأول**: أن يظل على نسبته المزيجية التي جعله الله عليها.

● **الثاني**: أن يظل مرسلاً، له قابلية السيولة والاندفاع والسريان في الأرض؛ ليؤدي وظائفه للحياة والأحياء.

فالماء الحلو فيه عناصر مختلطة ممتزجة.. ضمن نسب من العناصر ملائمة لحاجات الحياة والأحياء، وقد أرسله الله في الأرض، فاندفع يؤدي وظائفه على أحسن وجه وأتقنه.

والماء الملح له نسبة مزيجية مضافة مخلوطة فيه، وقد أرسله الله في البحار، فاندفع يؤدي وظائفه على أحسن وجه وأتقنه.

بعد هذا البيان المقتبس من النص ومن الواقع؛ نلاحظ أن البيان القرآني استخدم كلمة (مرج) للدلالة على معنيين:

---

(١) عبد الرحمن بن حسن حبنكة الميداني العلامة المفسر المفكر ولد ١٣٤٥هـ_ ١٩٢٧م، وتوفي في عام ١٤٢٦هـ-٢٠٠٦م، له مؤلفات عديدة في محاربة الإلحاد والتنصير وتوعية الشباب وفي التفسير وعلوم القرآن: كتفسير معارج التفكر ودقائق التدبر توفي ولم يتمه، والأمثال في القرآن وكتابه قواعد التدبر، انظر ترجمته في كتاب: عبد الرحمن حبنكة العالم المفكر المفسر، لزوجته عائدة راغب الجراح ط دار القلم ٢٠٠١.



● **الأول:** معنى خلط العناصر، حتى تكونت ماءً حلواً، أو ماءً ملحاً أجاجاً.

● **الثاني:** معنى إرسال الماء في الأرض، بوصفه العذب الفرات، والملح الأجاج، وهذا ظاهر بما في الماء من سيولة قابلة للتدافع المتلاحق، كأن مرسلاً أرسله ليؤدي وظائفه التي أرسل من أجلها.

أمامنا هذان المعنيان، فماذا نختار في التدبر؟، أنقتصر على معنى المزج؟ أم على معنى الإرسال؟، أو نحمل اللفظ على معنييه معاً، والواقع يؤيد ذلك، والفكر لا يمنع منه، واللغة تساعد على ذلك في استعمالات كبار الأدباء والبلغاء؟

الأخير أجدر بالتدبر الأمثل والله أعلم).[١] انتهى كلامه رحمه الله، وهو تحقيق عملي، لا أرى حاجة للتعليق عليه، والعلوم المختصة بالمياه والبحار قرائن تدل على هذا الجمع بين المعنيين؛ إذ كل معنى يدل على مرحلة من مراحل البحرين:

- إحداهما: مرحلة الخلط قبل الالتقاء وعنده.

- وثانيتهما: مرحلة الإرسال بعد الالتقاء وتوسع المساحة السطحية بين البحرين، وفي كلتا الحالتين بينهما برزخ لا يبغيان.[٢]

ومثل هذا يقال أيضاً في اللفظ المحتمل لعدة معاني كالمجمل، والله أعلم.

---

(١) وقواعد التدبر الأمثل لكتاب الله للشيخ عبد الرحمن حبنكة صـ٥٧٥ ط دار القلم الثالثة ٢٠٠٤. وقد ذكر أمثلة أخرى حول مسألتنا هذه فلتراجع فيه.

(٢) ينظر: المياه في القرآن مناهج لتفسير الإشارات العلمية في الآيات للمهندس أحمد عمر الدليمي من صـ٥٨، فما بعد ط دار النفائس الأولى ٢٠٠٢م. وينظر تفسير: ﴿شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُۥ﴾ في النحل صـ٦٥٣ فما بعد من البحث.



دلالة السياق:[1]

لقد كان المفسرون أسبق العلماء الذين اهتموا بالسياق واستعانوا به وسيلة مهمة من وسائل الكشف عن المعنى في تفسير القرآن، فلذلك لا يجوز للمفسر في التفسير العلمي أن يقطع نصاً عما قبله وبعده، ويتجاوز سياق الآية ودلالتها على ترجيح معنى أو تخصيص لفظ بدلالة أو ما شابه؛ ذلك لأن السياق من القرائن المعتبرة في التفسير، يقول الزركشي في معرض كلامه عن تفسير ما لم يرد فيه نقل: (وطريق التوصل إلى فهمه النظر إلى مفردات الألفاظ من لغة العرب ومدلولاتها بحسب السياق، وهذا يعتني به الراغب كثيراً في كتاب (المفردات) فيذكر قيداً زائداً على أهل اللغة في تفسير مدلول اللفظ، لأنه اقتنصه من السياق).[2]

وتطبيق ذلك في قول الرازي في تفسيره: (وإنما حسن تفسير لفظ معين لشيء معين إذا حصل بين ذلك اللفظ وبين ذلك المعنى مناسبة، أما إذا لم تحصل هذه الحالة؛ كان ذلك التفسير فاسداً، فإذا فسرنا العدل بشيء والإحسان بشيء آخر وجب أن نبين أن لفظ العدل يناسب ذلك المعنى، ولفظ الإحسان يناسب هذا المعنى، فلما لم نبين هذا المعنى؛ كان ذلك مجرد التحكم)[3]، وما ذكره الرازي في مناسبة اللفظ لمعناه إنما يساعد عليه السياق، فلا يأتي العدل والإحسان بمعنى واحد في سياق واحد، كما أننا إذا فسرنا العدل بشيء والإحسان بشيء ينبغي أن نلاحظ في معناهما المأمورات والمنهيات المذكورة معهما.

---

(١) وللتوسع في مسألة دلالة السياق ينظر: دلالة السياق إعداد: ردة الله بن ردة الله بن ضيف الله الطلحي، رسالة دكتوراه مطبوعة في جامعة أم القرى مكة الأولى ١٤٢٣.

(٢) البرهان ٢/ ٣١٣.

(٣) الرازي ٢٠/ ٨٢.

فالألفاظ ليست مكنوزات ذهنية، بل هي للتداول والاستعمال، وأثر السياق في تطور الدلالة للكلمات وهي في حالة الاستعمال؛ أقوى من أثر الكلمات بعضها في بعض وهي في الذهن في حالة مسكونة[1]، ذلك لأن السياق من القرائن القوية على تجدد الدلالة وتغيرها وتوسعها في المفردة القرآنية، فدلالة السماء بدون سياق لا قيمة لها إلا مفهوم العلو لغة، ولكن يختلف معناها ومدلولها حسب السياق التي جاءت فيه، فالسماء في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ [الأنعام:٩٩]، غير السماء في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [البقرة:١٦٤]، وفي قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ﴾ [البقرة:٢٩]، وهكذا...، فمراعاة السياق الذي وردت فيه السماء يخصص مدلولها؛ وإن كان الجامع بينها في الأصل اللغوي: العلو، وقد يساعد على فهم معناها: العلوم الحديثة وما استجد منها، وهذا ما لم يراعه بعض من اشتغل بدراسة السماء في القرآن الكريم.

كما أن مراعاة السياق والعناية به تفيد في استنباط إشارات علمية، كما في قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ [النحل:٦٨] ففيها أن النحل يفضل بناء بيته في الأماكن المرتفعة، وذلك استفدناه من سياق الآية، فلما علمها الله تعالى أن تبني بيوتها في الجبال والأشجار ومما يعرش لها

---

(١) انظر: الوجيز في فقه اللغة محمد الأنطاكي صـ٤٦٨. وانظر صـ٧١٦ من البحث في تفسير الآية ٨٠ عند قوله تعالى: ﴿سَرَٰبِيلَ ﴾ ودلالتها في السياق التي أتت به.



وهذه كلها تحمل دلالة الارتفاع عن سطح الأرض؛ دل ذلك على أن النحل يفضل اختيار بيوته في الأماكن المرتفعة، وفيه إرشاد لمربي النحل عندما يصنعون بيوتاً لها أن يحسنوا اختيار المكان الذي يضعونه فيه بأن يختاروا الأماكن المرتفعة.

ويدخل في مسألة السياق:

معرفة المناسبات بين الآيات والجمل في الآية الواحدة، ومعرفة مقاصد السور؛ لأنها الجو الذي وردت فيه المفردة القرآنية ولها اعتبارها في بيان المعاني، فلا بد للمفسر أن يراعي هذه المسائل أثناء التفسير العلمي للقرآن إن كان يريد من بحثه أن يكون بحثاً متكاملاً.

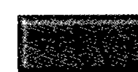
وفي الواقع العملي فإن أكثر من كتب في التفسير والإعجاز العلمي، ولم يراع دلالة السياق في عمله؛ وقع في زلات خطيرة، وأنزل المعاني في غير محلها، ولعل ما تقدم من الأمثلة في الضوابط السابقة فيها إشارة إلى ذكر السياق عند مناقشتها، فتأملها تجد أهمية هذا الكلام.

ونضيف هنا مثالاً منفرداً، استشهد فيه أحد الكاتبين بدلالة السياق والنص على الثقوب السوداء، وأكد هذا الكاتب في مقدمة مقالته حرصه الشديد أن لا يكون هناك تأويل لتلك الآيات غير مؤيد بالدليل على صحته[1]، وسيكون السياق من أحد أدلته المنطقية، كي لا يقع في ليِّ عنق الآيات لتوافق الفكرة المطلوبة..[2]

---

(١) انظر: دلالات السياق القرآنية على وجود الثقوب السوداء، بقلم سعيد حمود اليامي مجلة الإعجاز العلمي العدد ٢٣ رجب ١٤٢٣هـ صـ٥٦.

(٢) انظر: المصدر السابق صـ٥٨.



فقسم مقاله إلى محورين، **كان أولهما**: يتركز في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ﴾ [الطارق:١ - ٣]، فقال: (لقد ذكر المفسرون حسب اجتهاداتهم ودون الاستناد إلى نص قاطع من القرآن والسنة؛ أن المقصود بذلك هو النجم الذي يظهر ليلاً ويختفي نهاراً..، ولقد شدت انتباهي الآيات الثلاث الأولى من سورة الطارق للتأمل **والتفكير بأنه ربما قصد بها الثقوب السوداء التي لم تكتشف حقائقها إلا في عصرنا الحاضر**، إذ إنه لم يكن ممكناً أن يشير إليها أي من مفسري القرون الماضية).[1]

ثم اتجه الكاتب إلى إحصاء ما ورد في القرآن لجملة: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾؛ فوجدها وردت في القرآن مقترنة بأمور غيبية، كيوم القيامة والجنة والنار، وهي (من الأمور التي يجهلها الناس ولا يدركونها بحواسهم، ولا يعاينوها في واقعهم)، ثم قال: (ثم من الملاحظ أن لفظة ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾ تقال في كلام العرب عندما يتحدث من يعلم شيئاً إلى من يجهله مع عظم أمر ذلك الشيء، وبما أن الطارق الوارد في الآيات قد سبقه نفس الاستفهام؛ فإنه من المستبعد أن يكون المراد به مقصوراً على النجم الظاهر بالليل، والذي يراه الناس ويأنسونه بحياتهم اليومية، وإنما الأقرب بعد التوضيح العلمي أن نقول: إن ذلك فيه إشارة إلى الثقب الأسود، الذي هو في أصله نجم أصيب بحالة من الانهيار جعلته ثقباً في بنية السماء، يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ﴾).[2]

---

(١) انظر: دلالات السياق القرآنية على وجود الثقوب السوداء صـ٥٨.

(٢) المصدر السابق صـ٥٩.



المحور الثاني: وجعله في مصير شمسنا لكونها نجماً، مقارنة بمصير باقي النجوم، وعقد لذلك مقارنة بين قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ﴾ [التكوير:١]، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ ﴾ [المرسلات:٨]، وانتهى بهذه المقارنة إلى الاستدلال على ظاهرة الثقوب السوداء، فقدم تفسير التكوير أولاً من حيث اللغة والأثر، وذكر أن التكوير لغة: جمع الشيء إلى بعضه، وثنيه داخل نفسه مثل لف الثياب إلى بعضها، وأورد من الآثار ما يؤيد ذلك، ثم ذكر أن الحسابات الحديثة تشير إلى أن شمسنا في حالة انطفائها لن تصبح ثقباً أسود أو نجماً بروتونياً، بل ستتقلص في الحجم -تتكور- بفعل سيادة قوى الجاذب بها، حتى تستقر في حجم محدد هو ما يسمى بالقزم الأبيض، ثم قال: (وقد جاء السياق القرآني داعماً لذلك، فإنه بعد ذكر تكور الشمس وانكفائها على نفسها، لم يرد مباشرة ما يشير إلى انفراج السماء أو حدوث ثقوب بها، على عكس سياق الآية ٨ من سورة المرسلات حيث يقول: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ ﴾ [المرسلات:٨]، وجاءت الآية بعدها مباشرة بهذا النص: ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ﴾ [المرسلات:٩]، إنه بعد الإشارة إلى انطفاء كل النجوم بما في ذلك ذوات الكتل الهائلة والتي ستصبح ثقوباً سوداء؛ وردت مباشرة الإشارة إلى انفراج السماء وثقبها..).[1] انتهى كلامه.

ومع اجتهاد الكاتب في المحافظة على منهجه في اتباع الدليل والسياق القرآني؛ إلا أنه لم يحسن استخدامها فانتهى مقاله بمخالفات علمية ومنهجية.

---

(١) انظر: دلالات السياق القرآنية على وجود الثقوب السوداء صـ٥٩.



ولنتكلم بداية عن المحور الأول: فقد خَطَّأَ المفسرين في بيان معنى الطارق، النجم الثاقب بأنه الذي يظهر ليلاً ويختفي نهاراً، بحجة أن قوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ وردت في القرآن بسياق أمور غيبية غير معلومة، والطارق - الذي هو النجم الثاقب - منها، كانت غيبية في العصور المتقدمة، ولم تكتشف إلا في أول القرن الواحد والعشرين، فتفسيرهم بعيد، والأقرب .. على قوله .. أن النجم الثاقب هو الثقوب السوداء، وجعل وجود لفظة الثاقب في الآية دليلاً لذلك.

وقوله هذا ليس بسديد، نعم: إن قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ جاءت في سياق أمور غيبية؛ كالقارعة والحطمة وسجين وعليين...الخ في القرآن الكريم، لكن لم تبق هذه الغيبيات غير معلومة، فقد بينها الله تعالى في الآيات التي بعدها، فما من محل وردت فيه ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ في القرآن إلا وجاء بيان المقترن بها بعدُ، فصارت بذلك معلومة وإن لم تكن مشاهدة، وفي سورة الطارق بين الله تعالى الطارق بقوله ﴿ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ﴾، ولا يعقل أن يكون البيان لمبهم بما يجهل السامع، بخلاف قوله تعالى: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾، فإن المقترن بها لم يبين في القرآن الكريم، لأنه مما استأثر الله تعالى بعلمه، فقد وردت في القرآن في ثلاثة مواضع هي: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب:٦٣، ومثلها في الشورى:١٧] وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ [عبس:٣]، ولم يبين متى الساعة وهل سيزكى، ولا أعلمَ بذلك أحداً سبحانه وتعالى، فهذه مخالفة منه لمنهجه ولعنوان مقاله في الاستدلال بالسياق.





وليس صحيحاً ما ذكره الكاتب أن المفسرين الأوائل فسروا: ﴿ٱلثَّاقِبُ﴾ بالذي يظهر ليلاً ويختفي نهاراً اجتهاداً منهم دون دليل، فنص ابن كثير الذي نقله الكاتب نفسه أتى بأدلة من اللغة والحديث والأثر، وهي أصل في بيان القرآن، يقول ابن كثير: (يقسم تعالى بالسماء وما جعل فيها من الكواكب النيرة؛ ولهذا قال: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾، ثم قال: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ﴾، ثم فسره بقوله: ﴿ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ﴾، قال قتادة وغيره: إنما سمي النجم طارقاً؛ لأنه إنما يرى بالليل ويختفي بالنهار. **ويؤيده ما جاء في الحديث الصحيح**: (**نهى أن يطرق الرجل أهله طروقا**)، أي: يأتيهم فجأة بالليل. **وفي الحديث الآخر المشتمل على الدعاء**: (**إلا طارقا يطرق بخير يا رحمن**).

وقوله: ﴿ٱلثَّاقِبُ﴾، قال ابن عباس: المضيء.

وقال السدي: يثقب الشياطين إذا أرسل عليها. وقال عكرمة: هو مضيء ومحرق للشيطان)[1]، وهذه مخالفة منه لأصول التفسير: اللغة والحديث والأثر.

وأما الحس والمشاهدة التي جعلها كاتب المقال دليلاً على ما يريده من الآية، فهي قرائن معتبرة ترجح أحد المعاني أو توسع في دلالة اللفظ، مع مراعاة اللغة والسياق، وإن وجود كلمة (الثاقب) في الآية ليس دليلاً على أن المراد بالطارق أو النجم الثاقب: الثقوب السوداء؛ لاتفاق اللفظ في كليهما ولو إشارة، لأن الثاقب اسم فاعل وهو من يقوم بالثقب، فالنور يثقب الظلمة، والشهاب يثقب الشياطين، أما الثقوب السوداء

---

(١) ابن كثير صـ١٤١٣ ط الرسالة، وانظر مثله عند النسفي ٢/ ٥٠٨، تحقيق: مروان الشعار، ط: دار النفائس ٢٠٠٥.



فهي مثقوبة غير ثاقبة، ولو سلمنا جدلاً أن تفسيرهم اجتهاد خاطئ، فما الدليل على أن ما ذهب إليه كاتب المقال هو الصحيح أو الأقرب، هل هو مجرد اكتشاف الثقوب السوداء؟!.

أما المحور الثاني: فأراد به الاستدلال بسياق آيات التكوير على انطفاء شمسنا دون أن تكون ثقباً أسود، وبآيات المرسلات على الثقوب التي تحدث في السماء، وقد خالف هنا أيضاً السياق، فقد استخدم الآيات التي تتحدث عن أهوال يوم القيامة في الاستدلال على ظاهرة كونية ليست جديدة، بل هي سنة كونية، وكأننا اليوم في قيام الساعة، فالآيات التي استدل بها على الثقوب السوداء هي آيات تتكلم في سياقها عن أهوال قيام الساعة؛ فبعدما ابتدأت سورة المرسلات بالقسم جاء الجواب: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾ [المرسلات:٧]، وكأن سائلاً سأل: متى سيقع، فجاء الجواب: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ﴾ [المرسلات:٨ - ٩]، ومن العجيب أنه جعل من طَمْس النُّجُوم في الآية وما يعقبها - كما ذكر - من حصول فرجة في السماء إشارة إلى الثقب الأسود، وهذا مخالف لسياق الآيات واللغة.

أما لسياق الآيات: فإن انفراج السماء يوم القيامة ليس بسبب طمس النجوم، أي لم تطمس النجوم؛ حتى لصقت في السماء فأحدثت فيها انفراجاً، وإنما الانفراج حَدَثٌ آخر مهول، يصير عند وقوع الوعد وبعد طمس النجوم.

فهو لم يراع السياق حين جعل آيات أهوال القيامة دليلاً على إشارة القرآن للثقوب السوداء وهي في الدنيا لا في يوم القيامة.



أما من حيث اللغة: فيقول الراغب في بيان (فُرِجت): (أي انشقّت)[1]، والثقب فجوة وليس فرجة، ولا أدري كيف غفل الكاتب عن التفريق بين شيئين، الثقب الأسود وهو نجم، وعن السماء وهي جرم يختلف عن النجم بنية وبناءً؟!.

فالثقوب السوداء إنما هي نجوم اقترب فناؤها ونفد وقودها، فإذا كانت كتلة النجم أكبر من الكتلة الحرجة؛ ينكمش النجم بشدة ويتقلص تقلصاً يسحق معه الذرات والأنوية في كثافة مريعة، إلى أن تصبح ما يسمى بالثقب الأسود، وهو ذو جاذبية قوية لا يفلت من قوة جاذبيته شيء حتى الضوء نفسه، عند ذلك يشكل منطقة معتمة في الكون؛ تتوقف عند الدخول إليها كل الحسابات[2]، والثقوب السوداء ليست ظاهرة كونية حديثة بل هي قديمة، ولكن أول اكتشاف لها كان أوائل عام ٢٠٠١م[3]، وعلى اتساع الكون وقِدَمه، وكثرة النجوم الفانية بأنواعها لك أن تتصور كم ثقباً أسود قد مر على الكون الفسيح ويمر وسيمر.

المطلب الثالث:

من حيث قواعد أصول الفقه والتفسير.

هذا مطلب داخل في الذي قبله في أكثر جوانبه، فمن المعلوم أن أصول الفقه هو قواعد الاستنباط والفهم، وما التفسير العلمي إلا من هذا القبيل، ولا يخفى على طالب

---

(١) المفردات صـ٣٨١ فرج.

(٢) انظر: دلالات السياق على وجود الثقب الأسود مصدر سابق صـ ٥٧، والسماء في القرآن د. زغلول النجار صـ٢٢٣، ٢٢٤.

(٣) نهاية الكون والثقوب السوداء، د. ياسين مليكي صـ١٧، مجلة الإعجاز العلمي، العدد العاشر رجب ١٤٢٢هـ.



علم علاقة أصول الفقه بأصول التفسير وبيانه، فلا بد للمفسر من الإحاطة الإجمالية بقواعد أصول الفقه وطرق الاستنباط[1]، وإشغال ذلك أثناء التفسير العلمي، ولكن ثمة عناوين في أصول الفقه ينبغي أن لا يغفلها المفسر أبداً: كالتعارض والترجيح مثلاً وتقديم المعنى الشرعي على المعنى اللغوي، والأخذ بعين الاعتبار بقاعدة عموم اللفظ وخصوص السبب وغير ذلك، وسأكتفي بذكر كتابين مؤلفين في ذلك مثالاً على هذا المطلب وهما: كتاب العلامة الشيخ عبد الرحمن حبنكة -رحمه الله- (قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل)، وهو كتاب غزير المادة العلمية، وكتاب: (قواعد التفسير جمعاً ودراسة) تأليف الدكتور خالد السبت، فقد ذكرا في كتابيهما القواعد التي اعتمد عليها المفسرون في استنباطاتهم وعملهم وما ينبغي مراعاته عند النظر في كتاب الله تعالى، وذكرا معها الأمثلة التطبيقية.

ولا بد من القول إن ثمة قواعد في أصول الفقه والتفسير مختلف فيها بين العلماء كالأخذ بالمفهوم من النص أو الاختلاف في مباحث الدلالات كالمشترك أو تقديم بعض الدلالات على بعضها..

ويرى الباحث أن لا يلزم المفسر بمذهب دون مذهب كما أَفْهَمَ كلامُ بعض الكاتبين في ضوابط التفسير العلمي[2]، بل يترك للمفسر منهجه باعتبار ما يراه مناسباً من هذه القواعد في حسن استدلاله ما دامت القاعدة لها حظها من الاعتبار، وَتُلُقِّيَت بالقَبول عند العلماء، واستقر العمل عليها عند أصحابها القائلين بها، وبعبارة أخرى أقول:

---

(١) الإعجاز العلمي د. عبد الحفيظ حداد صـ ١٢٩.

(٢) الإعجاز العلمي في القرآن والسنة تاريخه وضوابطه د. عبد الله المصلح صـ ٢٧.





يجب أن يستند التفسير العلمي للقرآن على قواعد الاستنباط المعتبرة عند العلماء والمدونة في مظانها المعتمدة، والله أعلم.(1)

ولعل كل مثال سبق وكل مثال سيأتي من أمثلة مخالفة ضوابط التفسير العلمي لها مدخل في هذا الضابط في وجه من الوجه، ولكن أبرز مسألة تتعرض لمفسر أثناء التفسير العلمي من مسائل أصول الفقه هي:

مسألة تخصيص العام: هل يجوز تخصيص العام بدليل الحس أو العقل؟(2)

إن علماء الأصول تعرضوا لذلك وذكروا من أدلة تخصيص العموم: دليل الحس أو الواقع، ودليل العقل، وقالوا بجواز تخصص العام بالحسِّ والعقل وذكروا لذلك أمثلة، وكذلك يجوز في التفسير العلمي تخصيص الدلالة إذا كان المخصص من الواقع والمسائل العلمية الصحيحة وشهد لها الحس والتجربة، إذا كان هذا الحس ينسجم مع دلالة اللفظ ونظم الآية.

---

(1) انظر: تطبيق هذه القاعدة مثلاً عند تفسير قوله تعالى: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ﴾ هل هي عامة أو مطلقة، وهل التنكير في سياق الإثبات يفيد العموم صـ ٦٦٣ من البحث.

(2) ينظر في تخصيص العام بدليل الحس والعقل: روضة الناظر وجنة المناظر في أصول الفقه على مذهب الإمام أحمد لموفق الدين ابن قدامة المقدسي ٢/ ٧٢٢، ٧٢٣، تحقيق د. عبدالكريم النملة ط دار العاصمة الرياض، السادسة ١٤١٩، والمستصفى للغزالي ٢/ ٩٩، ١٠٠، ط البولاقية أولى ١٣٢٤هـ والتحصيل من المحصول لسراج الدين الأرموي ١/ ٣٨٦ تحقيق د. عبدالحميد أبوزنيد ط مؤسسة الرسالة أولى ١٤٠٨هـ، وما كتبه الشيخ عبد الرحمن حبنكة في كتابه صراع مع الملاحدة حتى العظم صـ٣٨ ط دار القلم دمشق الأولى ١٣٩٤هـ.

ومثال ذلك العموم في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ [النحل:٦٩] فقد خصص بعض المفسرين عمومها بالعرف، وبعضهم بالعادة، وقد فصلت المسألة في محلها.(١)

ومن أخطاء تخصيص الدلالة القرآنية بالحس ما تقدم في مثال الاستدلال على الثقوب السوداء بقوله تعالى: ﴿ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ﴾ إذ دعم كاتب المقال استدلاله بالحس والمشاهدة وقد تقدمت مناقشة كلامه بأنه تخصيص مخالف لدلالة اللفظ.

من ذلك تخصيص السموات السبع بطبقات الغلاف الجوي فإنه لا يصح لأنه تخصيص مخالف لنصوص القرآن والسنة ومخالف للعرف الشرعي.

ولكن يجوز – مثلاً – تخصيص دلالة السماء التي ينزل منها المطر بالحس والمشاهدة وما تمخضت عنه البحوث الصحيحة على ذكر المسافة في جهة العلو التي ينزل المطر بها من السحاب، لأني ذكرت فيما سبق أن دلالة السماء تختلف حسب السياق التي جاءت فيه، فإن أمكن ذلك بما لا يعارض اللغة والعرف الشرعي ونظم الآية فهو جائز، والله أعلم.

المطلب الرابع:

من حيث علوم القرآن.

يلزم على المفسر أن يحيط بما يتعلق بالآية أو الآيات التي يفسرها من سبب نزول أو نسخ إن كانت من آيات الأحكام، ومن كونها مكية أو مدنية لأن هذا يفيد في دراسة

---

(١) انظر: صـ ٦٣٢ من البحث.



الجو الذي نزلت فيه الآيات فيضفي عليها أثراً فكرياً وعلمياً جديداً، وهل يلزم على المفسر معرفة ما ورد في الآية من قراءات صحيحة؟

أقول: من خلال الممارسة العملية في تطبيق التفسير العلمي في سورة النحل فإن معرفة القراءات أفادت الباحث في ترجيح معنى على معنى آخر والتوسع في دلالة الآية[1]، ولكن هذا لا يعني أن يكون ذلك قاعدة عامة في التفسير العلمي، لأن عملي إنما مقتصر على سورة من القرآن، ولكل باحث حاجته، وهذا لا يعني أيضاً أن يغض المفسر النظر عمّا ورد من قراءات في الآية أو الآيات التي يفسرها؛ لأن تعدد القراءات يعني تعدد دلالات المفردة القرآنية وتعدد معانيها وعلومها[2]، وأيضاً فإن قراءةً تفسر قراءة من باب تفسير القرآن بالقرآن، وقد اشترط بعضهم معرفة القراءات في التفسير العلمي فينبغي أن يؤخذ بالاعتبار.[3]

وينبغي على المشتغل بالتفسير العلمي العناية بالوقف والابتداء؛ (فمن تمام معرفة إعراب القرآن، ومعرفة معانيه وغريبه؛ معرفةُ الوقف والابتداء)[4]، وقد لمست للعناية

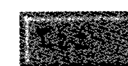
---

(١) انظر: مثلاً تفسير الآية ١٢ عند قوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ .. الآية من النحل صـ٤٣٥ وصـ٤٣٧ من البحث.

(٢) انظر: علوم القرآن د عتر صـ ١٥٤.

(٣) انظر: الإعجاز العلمي د. عبد الله المصلح صـ ٢٧، كيف تكتب بحثاً في الإعجاز العلمي، صـ ٢٠ من مجلة الإعجاز العلمي العدد (١٧)، وكتاب الإعجاز العلمي، صـ ١١٠ كلاهما للدكتور عبد الحفيظ حداد.

(٤) انظر: إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله عزوجل، لأبي بكر محمد بن القاسم بن الأنباري ١/ ١٠٨، تحقيق محيي الدين عبد الرحمن رمضان، ط مجمع اللغة العربية دمشق ١٩٧١م.



به فائدة في التفسير العلمي[1]؛ فيكون القول في الوقف والابتداء كالقول في القراءات أيضاً، والله أعلم.

المطلب الخامس:

اتباع أحسن طرق التفسير.

(وأحسن طرق التفسير: أن يفسر القرآن بالقرآن فما أُجمل في مكان فقد فُصِّل في موضع آخر، وما اختصر في مكان فإنه قد بسط في آخر، فإن أعياه ذلك فعليه بالسنَّة فإنها شارحة للقرآن وموضحة له، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]، فإن لم يوجد في السنة يرجع إلى أقوال الصحابة فإنهم أدرى بذلك[2]، لما شاهدوه من القرائن ولما أعطاهم الله تعالى من الفهم العجيب فإن لم يوجد ذلك يرجع إلى النظر والاستنباط)[3] على ضوء ما تقدم، فينبغي على المفسر أن يلتزم بهذا ويراعيه في تفسيره العلمي، ومن المعلوم أن أولى الأقوال في التفسير وأحسنها ما اجتمعت فيه هذه الطرق كلها في تفسير آية.

---

(١) انظر: تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ [الآية: ٧٨] من النحل صـ ٦٩٤ من البحث.

(٢) الكلام حول الأخذ بكلام الصحابة هنا مرتبط بمبحث موقف المفسر بالتفسير العلمي من المأثور وسيأتي صـ٢٥٧.

(٣) انظر: مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية صـ٩٣، البرهان للزركشي ٢/ ٣١٥.





ولكن لا بد من توضيح أمرين في اتباع هذه الطرق:

● **أحدهما:** أن ثمة مناهج مختلفة في طريقة التفسير العلمي، فبعضهم يمشي على منهج التفسير الموضوعي؛ فهذا يلزم في حقه أن يجمع كل الآيات التي تتعلق بالمسألة العلمية التي يبحث فيها ويرتبها حسب تسلسل مواضيعها، وفي أثناء تفسيره لها يراعي أحسن طرق التفسير بحسب ما يقتضيه بحثه، وعلى هذا يتنزل كلام من اشترط في التفسير العلمي جمع النصوص القرآنية المتعلقة بالموضوع ورد بعضها إلى بعض لتخرج بنتيجة صحيحة لا يعارضها شيء من تلك النصوص، بل يؤيدها.[1]

أما من يفسر على طريقة التفسير العام أو التحليلي فيكفي في حقه أن يفسر الآية ببعض شبيهاتها التي توضح معناها وتساعد في بيان المراد منها حسب الحاجة.

وينبغي أن يلاحظ المفسر في تفسيره أن لا يتعارض التفسير مع منطوق أو مفهوم أو مدلول آية أخرى معارضة لا يمكن الجمع بينهما والتوفيق، وإلا كان ذلك من قرائن بطلان هذا التفسير.

● **ثانيهما:** اشترط بعضهم: ألا يتعارض التفسير العلمي معارضة حقيقية مع الدلائل الثابتة لنص حديث نبوي صحيح بحيث لا تترك هذه المعارضة سبيلاً سائغاً للتوافق بينهما[2]. وهو شرط لازم يجب مراعاته في عملية التفسير العلمي للقرآن.

---

(١) انظر: دراسات في تفسير القرآن، د. محسن عبد الحميد صـ١٥٢، الإعجاز العلمي في القرآن د.عبد الله المصلح صـ٢٨.

(٢) انظر: فكرة إعجاز القرآن، نعيم الحمصي صـ ٤٢٧، والإعجاز العلمي د. عبد الحفيظ حداد صـ ١٢٢.

*** وأختم هذا المبحث بأركان متفرقة ينبغي على المفسر الحرص عليها في التفسير العلمي:**

١ - (ملاحظة مرونة أساليب القرآن، فإنها تقبل وجوهاً من التأويل متعددة)[١]، فلا يجوز لنا أن نسارع فنحكم على الدلالات الأخرى - المخالفة لما توصل إليه المفسر - بالبطلان، مع أن احتمالات تلك الدلالات قائمة وصحيحة، فالنص القرآني مرن الأسلوب.[٢]

٢ - **وبناء على ما تقدم:** يجب على المفسر أن لا يجزم بأن ما خرج به من نتائج في التفسير هي المراد من كلامه تعالى قطعاً، بل عليه أن يبين أنها من الأوجه المرادة في بيان الآية.

٣ - (تحاشي العبارات التي تحمل طابع التسفيه لأقوال العلماء السابقين من سلف هذه الأمة حتى ولو ظهرت لهم أخطاء، بل يتأدب في رد الخطأ مع الأخذ بعين الاعتبار أنه ربما ظهر وجه يجعل كلامهم الذي قالوه معتبراً، وكم عاب إنسان غيره وكان العيب عنده لقصور فهمه).[٣]

٤ - التحقق وجود الإشارة في الآية إلى العلم أو الشيء المتكلم فيه دون تكلف أو تعسف أو شطط مما يوقع في المحظور، كما فعل الشيخ طنطاوي جوهري في تفسيره وقد تقدم بيان منهجه.

---

(١) انظر: الإعجاز العلمي في القرآن د. عبد الحفيظ حداد صـ١٢٧.

(٢) انظر: الإعجاز العلمي في القرآن د. عبد الحفيظ حداد صـ١٠٨.

(٣) كيف تكتب بحثاً في الإعجاز العلمي، د. عبد الحفيظ حداد، مجلة الإعجاز العلمي، صـ٢٠ العدد ١٧.





٥- يجب على المشتغل في التفسير العلمي أن يحسن التعامل مع نصوص التفسير وأقوال العلماء، وأن ينزلها مكانها من حيث السبك والفهم، وأن لا يحملها ما لا تحتمل، أو يجعلها في موضع لا تدل عليه، كما فعل بعضهم عندما أكثر النقول من كلام المفسرين واللغويين في بيان قوله تعالى: ﴿ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴾ [الطارق:٦]، وجعل هذه النقول تحت عنوان: (لماذا خرج القرآن عن المعهود ووصف المني بالماء الدافق بدلا عن المدفوق؟).

ويجيب عن ذلك، فيقول: (وصفَ القرآن الماء المعبر عن المني بالدافق؛ مما يعني أنه حي التكوين فاعل، تتسابق مكوناته في نشاط، وجرده من صفة البشرية بجعله مادة أولية يتخلق منها الإنسان، وهذا ما يطابق الحقيقة العلمية؛ لأن الخلية البشرية الأولى التي تحتوي على العدد الكامل من الفتائل الوراثية المستمدة من الأبوين هي (البويضة الملقحة) في المصطلح الطبي الحديث، أو (النطفة الأمشاج) في مصطلح القرآن، ولكن تلك الحقيقة العلمية كانت خفية طيلة قرون عديدة بعد نزول القرآن مما جعل المفسرين في حيرة أمام وصف المني ذاته بالفاعل)[1]، ثم نقل كلام المفسرين واللغويين، وكلها تصب في أن دافق تأتي لغة بمعنى مدفوق، ورجح بعضهم أنها اسم فاعل، ثم ختم الكلام بقوله: (ها أنت ترى كم كانت حيرة المفسرين أمام هذا السر الدفين وهو الحركة الذاتية لعناصر حية في المني ومع ذلك بلغوه بترك تعبير القرآن (ماء دافق) على ظاهره حتى كشفت الأيام تأويله).

---

(١) نشأة ذرية الإنسان صـ ١٣- ١٤، محمد دودح من أبحاث المؤتمر العالمي السابع للإعجاز العلمي.



فجعل تعدد الأقوال في الدلالة اللغوية حيرة، وأنزل كلام المفسرين في غير محله ليعظم النتيجة التي خرج بها، ويظهر بديع تفسيره العلمي!!.

وقد استوقفني نص لبعض من اشتغل في الإعجاز العلمي يصلح أن يكون مثالاً لمخالفة أغلب ما تقدم في ضوابط التفسير العلمي والمتفرقات السابقة، كاللغة وسياق الآيات، ذلك حين أراد أن يستدل على حدث كوني ظهر عام ألف وتسعمئة وتسعين ميلادية، (إذ عرضت إحدى الوكالات الفضائية صورة لانفجار نجم عملاق اسمه عين القط، وجاء الانفجار على صورة وردة جورية ذات أوراق حمراء قانية محاطة بوريقات خضر)، فجعل هذا الحدث تفسيراً لقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴾ [الرحمن:٣٧]، فقال: (لو تتبعت تفسيرها في معظم التفاسير قبل نشر الصورة لما وجدت فيها ما يشفي غليلك، ذلك لأن في القرآن آيات لمّا تفسر، كما قال سيدنا علي رضي الله عنه[١]، وإن انشقاق هذا النجم يشبه وردة متألقة، **بل إن صورة هذا النجم عند انفجاره هو تفسير هذه الآية بشكل أو بآخر**، هذا لون من ألوان الإعجاز، فالقرآن معجزة مستمرة، وقد أحجم النبي عليه الصلاة والسلام ‑ **ولعل هذا اجتهاد منه أو لعله توجيه من الله عز وجل** ‑ عن شرح أكثر الآيات الكونية في القرآن الكريم، ذلك أنه لو شرحها شرحاً مقتضباً موجزاً؛ لأنكر عليه من سيأتي بعده، ولو شرحها شرحاً مفصلاً؛ لأنكر عليه من حوله، فتركت لتطور الحياة وتطور العلم).[٢] انتهى كلامه.

---

(١) أقول: لم أجد هذا الأثر عن سيدنا علي رضي الله عنه !.

(٢) موسوعة الإعجاز العلمي آيات الله في الآفاق، د. راتب النابلسي صـ ٧٢.



لقد تعمدت نقل هذا النص كله لما فيه من مغالطات واجتراء فظيع على كلام الله تعالى، وإساءة في حق الرسول المعظم صلى الله عليه وسلم وسلفنا الصالح رضي الله عنهم الذين بينوا هذه الآية.

*** وسأتكلم في هذا المثال من أربع جهات:**

إحداها: مخالفته للسياق الذي وردت فيه الآية، ومخالفة لنصوص قرآنية شبيهة لها، **أما سياق الآية:** فالكلام هنا عن يوم القيامة بدليل الآية التي بعدها: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴾ [الرحمن:٣٩]، والتنوين في قوله تعالى: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ ﴾ تنوين بدل، أي: فيوم تنشق السماء وتقوم الساعة لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان، ثمّ الآية التي بعد ذلك: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾ [الرحمن:٤١].

أما مخالفتها لشبيهتها من الآيات، يقول ابن كثير: (﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ ﴾، يوم القيامة كما دلت عليه هذه الآية مع ما شاكلها من الآيات الواردة في معناها كقوله تعالى: ﴿ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴾ [الحاقة:١٦]، وقوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴾ [الفرقان:٢٥]، وقوله: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ [الانشقاق:١، ٢]).[1]

الجهة الثانية: مخالفته للغة: فالانشقاق غير الانفجار، فالشق: الخَرم الواقع في الشيء[2]، أما الانفجار: فهو شق الشيء شقاً واسعاً[3]، فالانفجار أوسع من الشق،

---

(١) ابن كثير صـ ١٢٧٨ ط الرسالة.

(٢) انظر: المفردات صـ ٢٦٥ شق.

(٣) انظر: المفردات صـ ٣٧٩ فجر.

والآية تتحدث عن انشقاق، أي خرم يحصل في السماء، ولذلك أورد ابن كثير في تفسيره حديث أنس بن مالك مرفوعاً: «يبعث الناس يوم القيامة والسماء تطش عليهم»[1]، (قال الجوهري: الطش: المطر الضعيف)[2] ولو كانت السماء انفجرت، لم يكن مطراً ضعيفاً؛ نسألك اللهم العافية.

والشاهد أن الكاتب قطع بأن هذا الحدث الكوني هو تفسير الآية بشكل أو بآخر، ولم يرض بتفسير غيره من المفسرين المتقدمين أو المتأخرين لأنه لن يشفي الغليل.

الجهة الثالثة: أنه فسر السماء المنشقة في الآية بالنجم المتفجر الذي شاهده في الصورة، ولا أدري من أين أتى بهذا المعنى للسماء الذي لا أصل له في اللغة ولا في الشرع ولا في العقل، فالقرآن يحدثنا عن سماء معهودة تنشق يوم القيامة، لا عن نجم يبعد عنا ثلاثة آلاف سنة ضوئية ولا أحد يعلم به إلا من سمع به أو رآه بالصورة؟!!.

ويصلح هذا مثالاً للاستخدام الخاطئ لتخصيص الدلالة بالمشاهدة والحس، مع المخالفة لدلالة السماء بالسياق الذي أتت فيه الآية.

الجهة الرابعة: في اعتباره أن تفسير الآية على هذا النحو إعجازاً علمياً، مع أنه ذكر بأنه سيلتزم في كتابه بضوابط البحث العلمي وذكر من هذه الضوابط: (البعد عن التأويل في النصوص المتعلقة بالإعجاز العلمي في القرآن الكريم ودلالة نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم) كما أكد على وجوب مراعاة اللغة العربية.[3]

---

(١) أخرجه أحمد وأبو يعلى، قال الهيثمي: (وفيه عبد الرحمن بن أبي الصهباء ذكره ابن أبي حاتم ولم يذكر فيه جرحاً ولا تعديلاً وبقية رجاله ثقات) انظر: مجمع الزوائد ١٠/ ٣٣٥، ٣٣٤.

(٢) ابن كثير صـ١٢٧٨. ط الرسالة.

(٣) موسوعة الإعجاز العلمي آيات الله في الآفاق، د. راتب النابلسي صـ٢٧.



والسؤال هنا: هل التزم بما ذكره من ضوابط؟!. لقد وقع في محظور عظيم، لا يعذر مثله فيه.

بل إن الحماس دفع به إلى القول:

(وقد أحجم النبي عليه الصلاة والسلام .. ولعل هذا اجتهاد منه أو لعله توجيه من الله عز وجل .. عن شرح أكثر الآيات الكونية في القرآن الكريم، ذلك أنه لو شرحها شرحاً مقتضباً موجزاً؛ لأنكر عليه من سيأتي بعده، ولو شرحها شرحاً مفصلاً؛ لأنكر عليه من حوله، فتركت لتطور الحياة وتطور العلم).

أولاً: إن الآية هنا لم تتحدث عن حدث كوني أو ظاهرة كونية، وإنما عن أهوال يوم القيامة، وحوادث يوم القيامة أشد وقعاً وأصعب فهماً مما شاهده عند انفجار نجم، فالقرآن يحدثنا عن سير الجبال وطمس النجوم وتكوير الشمس وبعثرة القبور وجمع الشمس والقمر، فما كان موقف المنافقين والكافرين منها وهم لايؤمنون بالبعث؟!!

ثانياً: هل يحجم النبي .. وما أفظعها من عبارة في حق الرسول صلى الله عليه وسلم- عن تفسير ما احتاجته الأمة، أو بيان ما يزيد في يقينها خوفاً من إنكار كافر أو منافق، وهو المأمور بأن يبلغ ما أرسل به كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[المائدة:٦٧]، كيف؛ وقد حدثهم النبي صلى الله عليه وسلم وسلم عن أمور أعجب من هذه وما خشي صلى الله عليه وسلم ما يذكره الكاتب، حدثهم عن الإسراء والمعراج في ليلة واحدة وكذبه كفار قريش، وحدثهم عن كنوز وقصور الروم وفارس وكذبه المنافقون واستهزؤوا به؛ ولم يمنعه ذلك عن تحديثهم بما شاهد، ثم لو

كانت رسالة الإسلام غير حقيقة بالصدق لكان هذا التبرير مقبولاً، ولكنها خاتمة الرسالات ودين الحق، أيصل انبهار الرجل بالعلوم وبما يشاهد إلى اتهام النبي صلى الله عليه وسلم بترك بيان كتاب الله تعالى خوفاً من الإنكار!.





الفصل الثاني

موقف المفسر بالتفسير والإعجاز العلمي للقرآن من المنقول والنظريات العلمية

- المبحث الأول: موقف المفسر بالتفسير العلمي للقرآن من المأثور
- المبحث الثاني: موقف المفسر بالتفسير العلمي للقرآن من الإسرائيليات
- المبحث الثالث: موقف المفسر بالتفسير العلمي للقرآن من النظريات العلمية





المبحث الأول:

موقف المفسر في التفسير العلمي من المأثور.

• تعريف التفسير بالمأثور لغة:

تقدم تعريف التفسير لغة وأنه البيان والإيضاح.[1]

*** الأثر لغة:**

من المعاني التي تهمنا في هذه المادة لغة: النقل، تقول: أثرت الحديث، أي: نقلته، ومنه حديث مأثور أي منقول[2]، ومما ورد في هذه المادة في القرآن، قوله تعالى: ﴿ٱئْتُونِي بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ [الأحقاف:٤]، وهو ما يروى أو يقرأ ويكتب فيبقى له أثر، أو شيء مأثور من كتب الأولين، وهو العلم المأثور.[3]

فيتلخص مما مر أن المأثور يأتي بمعنى الخبر أو العلم المنقول أو المروي أو المكتوب عن الأولين السابقين، وبذلك يكون المعنى اللغوي للتفسير بالمأثور هو: **بيان القرآن بما روي أو قيد من العلوم والأخبار عن النبي صلى الله عليه وسلم والسلف رضي الله عنهم أو العلماء المتقدمين -الأولين- من هذه الأمة.**

---

(١) انظر: صـ ٢٥ من البحث.

(٢) معجم مقاييس اللغة ١/ ٥٣، المفردات صـ ٧، المصباح المنير صـ ١٥ اعتنى به عادل مرشد، ط السعودية.

(٣) تاج العروس ١٠/ ١٨، المفردات صـ ٧، ومجمع بحار الأنوار في غريب التنزيل ولطائف الأخبار محمد الطاهر الصديقي الفتني (٩٨٦هـ) ١/ ١٩، ط دار الكتاب الإسلامي مصر الثانية ١٩٩٣.





*** تعريف الأثر اصطلاحاً:**

الأثر في عرف المحدثين يشمل المرفوع والموقوف والمقطوع، أي ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم، وما روي عن الصحابة رضي الله عنهم، وما روي عن التابعين رضي الله عنهم.(١)

تعريف: (التفسير بالمأثور) اصطلاحاً:

لم أجد أحداً من المتقدمين من علماء التفسير وعلوم القرآن استخدم هذا المصطلح على أنه من علوم القرآن وأفرد له فصلاً وعرف به.

ولعل أقدم من عرف التفسير بالمأثور الشيخ عبد العظيم الزرقاني(٢) رحمه الله، إذ يقول في مناهل العرفان: (هو ما جاء في القرآن أو السنة أو كلام الصحابة بياناً لمراد الله تعالى من كتابه).(٣)

فالتفسير بالمأثور عنده هو: تفسير القرآن بالقرآن، وتفسير القرآن بالسنة، وبما نقل عن الصحابة رضي الله عنهم، ولم يجعل تفسير التابعي وتابع التابعي في التعريف؛ للاختلاف في كونهما من مصادر التفسير؛ يقول الزرقاني: (أما ما ينقل عن التابعين ففيه خلاف العلماء: منهم من اعتبره من المأثور لأنهم تلقوه من الصحابة غالباً،

---

(١) انظر: تدريب الراوي للسيوطي صـ ٩٣ النوع السابع ط السعودية دون تاريخ.

(٢) محمد عبد العظيم الزرقاني: من علماء الأزهر بمصر ت (١٩٤٨م) تخرج بكلية أصول الدين، وعمل بها مدرساً لعلوم القرآن والحديث. وتوفي بالقاهرة. من كتبه مناهل العرفان في علوم القرآن انظر: الأعلام للزركلي ٦ / ٢١٠.

(٣) مناهل العرفان ١/ ٤٨٠.





ومنهم من قال إنه من التفسير بالرأي)[1]، ولعل السبب في ذلك ما ذكره بعد ذلك، حيث نقل عن ابن كثير أنه قال: (إن أكثر التفسير بالمأثور قد سرى إلى الرواة من زنادقة اليهود والفرس ومسلمة أهل الكتاب)[2]. وتابعه في ذلك د. فهد الرومي.[3]

وذهب إلى اعتبار تفسير التابعي من المأثور الشيخ الذهبي[4]، و د.رمزي نعناعة[5]، ود. نور الدين عتر[6]، وعبد الرحمن العك.[7]

واحتجوا لذلك أن (كتب التفسير بالمأثور كتفسير ابن جرير وغيره؛ لم تقتصر على ذكر ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم، وما روي عن أصحابه، بل ضمت إلى ذلك ما روي عن التابعين في التفسير).[8]

---

(١) مناهل العرفان ١/ ٤٨١.

(٢) مناهل العرفان ١/ ٤٨١.

(٣) دراسات في علوم القرآن الكريم صـ ١٥١، وانظر صـ١٥٣ في الخلاف في قبول رواية التابعي.

(٤) التفسير والمفسرون ١/ ١٥٢، الدكتور محمد حسين الذهبي العلامة الشهيد أستاذ علوم الحديث والقرآن، شغل منصب العمادة، والوزارة، له مؤلفات عديدة في علوم القرآن أشهرها التفسير والمفسرون، والاتجاهات المنحرفة في تفسير القرآن وغير ذلك توفي شهيداً رحمه الله سنة ١٩٧٧استفدت هذه الترجمة من الإنترنت ومن مقدمة ولده د. مصطفى الذهبي لمجموعة بحوث والده في علوم التفسير صـ٥، ٧، ط دار الحديث٢٠٠٥.ولم يذكر تاريخ وفاة.

(٥) الإسرائيليات وأثرها في كتب التفسير صـ ٢١، د. رمزي نعناعة ط دار القلم دمشق ودار البيضاء بيروت، الأولى ١٣٩٠هـ ١٩٧٠م.

(٦) علوم القرآن صـ ٧٤.

(٧) أصول التفسير وقواعده للعك صـ ١١١.

(٨) التفسير والمفسرون ١/ ١٥٢.





*** والمتأمل في قول من استبعد دخول تفسير التابعي في المأثور يجد أنه خلط بين أمرين:**[1]

- **أحدهما**: المراد بالتفسير بالمأثور، ويدل لذلك إدخاله تفسير القرآن بالقرآن في التفسير بالمأثور.

- **الثاني**: حكمه من حيث القبول والرد، وأن إدخاله في المأثور يلزم قبوله.

وهذا يجعلنا نقف عند رأي الشيخ الزرقاني و د. الرومي لعدم اعتبارهما تفسير التابعي من المأثور بحجة نقلهم للإسرائيليات.

والحق أن هناك فرقاً بين روايات بني إسرائيل وتفسير التابعي، وبين اعتبار تفسير التابعي من المأثور وبين قبوله أو رده!؛ فليس بين الأمرين تلازماً، وإذا كان الفيصل في المسألة هو الاصطلاح الحديثي للمأثور، والعمل التطبيقي في كتب التفسير بالمأثور فإننا سنجد المفسرين قد جعلوا تفسير التابعي وتابع التابعي من المأثور، وعلى هذا جرى عمل المتقدمين من المفسرين، كابن أبي حاتم الرازي(٣٢٧هـ)[2]، إذ يقول في مقدمة تفسيره في بيان منهجه رحمه الله: (فإذا وجدت التفسير عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم أذكر معه أحداً من الصحابة ممن أتى بمثل ذلك، وإذا وجدته عن الصحابة فإن كانوا متفقين ذكرته عن أعلاهم درجة بأصح الأسانيد وسميت موافقيهم بحذف

---

(١) وقد حررت المسألة بأصولها في بحث سميته (تحرير تعريف التفسير بالمأثور)، وما زال مكتوباً على الحاسوب واختصرته هنا واقتصرت منه على ما يلزم.

(٢) محمد بن إدريس الحافظ الكبير المفسر صاحب التفسير الحافل الذي اشتمل على النقل الكامل (ت٣٢٧هـ) البداية والنهاية لابن كثير ١١/ ١٩١.





الإسناد، فإن لم أجد عن الصحابة ووجدته عن التابعين عملت فيما أجد عنهم ما ذكرته من المثال في الصحابة، وكذا أجعل المثال في أتباع التابعين وأتباعهم..).[1]

وعليه أيضاً جرى العمل في علوم القرآن، كما هو واضح من عمل الحافظ ابن حجر[2] رحمه الله في كتابه (العجاب في بيان الأسباب)، فبعدما ذكر التفاسير التي حوت نقول التابعين ومن بعدهم في التفسير؛ كابن جرير وعبد بن حميد[3]، وابن المنذر[4] وابن أبي حاتم، قال: (فهذه التفاسير الأربعة قل أن يشذ عنها شيء من التفسير المرفوع والموقوف على الصحابة والمقطوع عن التابعين).[5]

وعلى ذلك قام عمل السيوطي أيضاً في كتابه المشهور: (الدر المنثور في التفسير بالمأثور) إذ جمع فيه ما ورد من الآثار المرفوعة والموقوفة والمقطوعة عن التابعين وتابعيهم، وعندها سنخلص إلى أن التفسير بالمأثور هو: **بيان كلام الله تعالى بما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة رضي الله عنهم والتابعين وتابعيهم.**

---

(١) تفسير القرآن عبد الرحمن بن محمد بن إدريس ابن أبي حاتم الرازي ١/ ١٤ تحقيق أسعد محمد الخطيب، ط مكتبة الباز الرياض، الثانية ١٤١٩هـ.

(٢) أحمد بن علي العسقلاني شيخ الإسلام وأمير المؤمنين في الحديث صاحب فتح الباري والمؤلفات الحديثية الكثيرة ت (٨٥٢هـ). انظر: الضوء اللامع ٢/ ٣٦، شذرات الذهب ٧/ ٢٧٠.

(٣) عبد بن حميد بن نصر الكشي الإمام الثقة الحافظ الثبت ت (٢٤٩هـ) له المسند وتفسير القرآن انظر: طبقات المفسرين للداودي ١/ ٣٧٤، سير أعلام النبلاء ١٨/ ٥٢٤.

(٤) محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري الإمام الحافظ شيخ الإسلام المشهور، صاحب المصنفات كالتفسير والإجماع وغيرها ت (٣١٨هـ) انظر: طبقات المفسرين للداودي ٢/ ٥٥، شذرات الذهب ٤/ ٨٩.

(٥) العجاب في بيان الأسباب لابن حجر صـ٥٧ تحقيق فواز زمرلي ط دار ابن حزم الأولى ٢٠٠٢.



حكم الاحتجاج بالتفسير بالمأثور:

أما ما ورد فيه عن النبي صلى الله عليه وسلم يبحث فيه عن صحة السند[1]، ومن المعلوم أن الحديث الصحيح والحسن حجة يجب قبوله في التفسير، وهل يقبل في التفسير الحديث الضعيف؟.

يقول الزركشي: (يجب الحذر من الضعيف فيه والموضوع، فإنه كثير)[2]، ويرى الباحث أن يحمل كلام الزركشي في التحذير من الضعيف على ما كان منكراً أو متروكاً أو نحو ذلك من شدة الضعف، أما ما كان فيه ضعف محتمل وهو في نفسه قابل للاعتبار فإن ظاهر كلام المحدثين وعمل المفسرين جواز الاستدلال به[3]، وذلك لأنه في بيان دلالة القرآن، والحديث الضعيف أولى من الاجتهاد في ذلك؛ لأن الحديث الضعيف ليس كذباً على النبي صلى الله عليه وسلم؛ ولا يمكن القول أنه ليس من قول النبي صلى الله عليه وسلم في نفس الأمر؛ وإنما ضعّف من حيث السند، وينبغي أن يضبط هذا القبول باشترط عدم مخالفته للغة، وأن لا يوجد في الباب غيره من الأحاديث القوية التي يستدل بها على تفسير الآية، والله أعلم.[4]

---

(١) انظر: البرهان ٢/ ٣١٢.

(٢) البرهان ٢/ ٢٩٢.

(٣) انظر: تدريب الراوي للسيوطي صـ١٥٢ ط السعودية في النوع الثاني والعشرون.

(٤) أقول: إن وجد الحديث الصحيح في تفسير آية فإنه يُقدّم على الحديث الضعيف لا ريب، ولكن تقديمه لا يعني إلغاء الاعتبار في المعنى بالحديث الضعيف –غير شديد الضعف– في تفسير الآية؛ بل يعتبر في هذه الحالة من تعدد المعنى إن لم يكن الحديث الضعيف مخالفاً للصحيح مخالفة لا يمكن الجمع بينهما، والله أعلم.



ومعلوم أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يفسر لأصحابه كل القرآن، وإنما اقتصر في تفسيره على ما أشكل فهمه، وغمض معناه، وسأل عنه الصحابة رضي الله عنهم، فعن عائشة رضي الله عنها: (أن النبي صلى الله عليه وسلم كان لا يفسر من القرآن برأيه إلا آياً بعدد، علمه إياهن جبريل)[1]؛ وما لم يفسره النبي صلى الله عليه وسلم كانت عمدة الصحابة في فهمه ما يفهمونه ويعرفونه من الكلام العربي وأساليب العرب، فيجتهدون في تفسيره وبيان دلالته، ثم أخذ التابعون معاني القرآن عن الصحابة، ومن ذلك ما نقله الصحابة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما اجتهد الصحابة في فهمه، ثم اجتهد التابعون في تفسير القرآن أيضاً متوسعين في فهم دلالات القرآن باجتهادهم معتمدين على ما سمعوه وما يعرفونه من كلام العرب.

وبناءً على ما تقدم؛ فإنه لا يقبل كلام صديق بن حسن القنوجي[2] في مقدمة تفسيره على إطلاقه عند ذكر ما يعتد به في التفسير إذ يقول: (ثم تفاسير علماء الصحابة المختصين برسول الله صلى الله عليه وسلم، فإنه يبعد كل البعد أن يفسر أحدهم كتاب الله تعالى ولم يسمع في ذلك شيئاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعلى فرض عدم السماع؛ فهو أحد العرب الذين عرفوا من اللغة دِقَّها وجلها، وأما تفاسير غيرهم من

---

(١) أخرجه أبو يعلى رقم (٤٥١١) ط دار القبلة، والبزار، قال الهيثمي: (وفيه راو لم يتحرر اسمه عند واحد منهما وبقية رجاله رجال الصحيح، أما البزار فقال: عن حفص -أظنه ابن عبد الله- عن هشام عن عروة، وقال أبويعلى: عن فلان بن محمد بن خالد عن هشام) مجمع الزوائد ٧/ ٩.

(٢) محمد صديق حسن خان القنوجي الحسيني المفسّر اللغوي من رجال النهضة (١٢٤٨-١٣٠٧هـ) وله التفسير وأبجد العلوم وغير ذلك. انظر ترجمته: الأعلام للزركلي ٦/ ١٦٧، الموسوعة الميسرة ٣/ ٢٥٥٧.

التابعين ومن بعدهم فإن كان من طريق الرواية نظرنا في صحتها؛ سواء كان المروي عنه الشارع أو أهل اللغة، وإن كان بمحض الرأي؛ فليس ذلك بشيء ولا يحل التمسك به وجعله حجة، بل الحجة ما قدمناه..).[1]

بل يرى الباحث أن تفسير السلف رضي الله عنهم (وهم الصحابة والتابعون وتابعوهم) من حيث الاحتجاج يقسم إلى ثلاثة أقسام:

- **أحدها**: ما له حكم الرفع، وهو ما نقل عنهم في تفسير القرآن مما لا يدخل في الاجتهاد والاستنباط، كأسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، والكلام في العبادات وتفسير الغيبيات ونحو ذلك.

- **الثاني**: ما كان مجمعاً عليه من معاني القرآن الكريم، سواء كان الإجماع في عهد الصحابة أو التابعين أو تابعيهم،لأن هذا الإجماع إنما قام على دليل توقيفي، فهو حجة لازمة.

- **الثالث**: ما كان باجتهادهم ورأيهم، وفيه المنقول عن الصحابة رضي الله عنهم، ولكن غالبه المنقول عن التابعين وتابعيهم.

أما ما كان مروياً عن الصحابة فهو مقبول بشرط ثبوته، ويكون حجة في اللغة والمعاني، يقول الزركشي: (ينظر في تفسير الصحابي، فإن فسره من حيث اللغة فهم أهل اللسان فلا شك في اعتمادهم، وإن فسره بما شاهد من الأسباب والقرائن فلا شك فيه).[2]

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن ١/ ١٨ صديق حسن خان القنوجي البخاري (١٣٠٨هـ) ط المكتبة العصرية ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م.

(٢) البرهان ٢/ ٣١٢. وينظر للتوسع: تدريب الراوي، ط السعودية في شرح النوع السابع صـ٩٧.

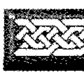


وأما ما يروى عمن بعدهم من السلف، فيرى الباحث أن هذا يقبل في الاستدلال بشرط أن يكون ثابتاً من حيث النقل، وأن يكون قائله في عصر الاحتجاج اللغوي إن كان من التفسير اللغوي[1]، ولكن لا يكون مانعاً من معنى آخر تحتمله اللغة، ويؤيده نظم القرآن، وأما من بعدهم فإنه لا يقبل قولهم في التفسير إلا أن يوافق قواعد اللغة والعربية، وأصول الاستنباط.

---

(١) يذكر اللغويون أن آخر من يستدل بشعره من عصر الاحتجاج هو: أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن سلمة بن هرمة من بني فهر حجازي سكن المدينة، قال الأصمعي: (ختم الشعر بابن هرمة فإنه مدح ملوك بني مروان وبقي إلى آخر أيام المنصور) طبقات الشعراء لابن المعتز صـ ٢٠ وطبقات الشعراء لابن قتيبة صـ ٣٨٨ تحقيق د مفيد قميحة ط دار الكتب العلمية أولى ١٤٠١، ويقول البغدادي: (ابن هرمة آخر الشعراء الذين يحتج بشعرهم..مولده سنة سبعين، ووفاته في خلافة الرشيد بعد الخمسين ومئة تقريباً) خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ١/ ٤٢٤ تحقيق عبد السلام هارون، ويقول السيوطي: (أجمعوا على أنه لا يحتج بكلام المولدين والمحدثين في اللغة العربية.... وأول الشعراء المحدثين بشار بن برد (١٩٧هـ)..) الاقتراح في علم أصول النحو صـ ٧٠ تحقيق: د.أحمد محمد قاسم ط مصر ١٩٧٦، ويقول محمد بن الطيب الفاسي بعدما ذكر طبقات الشعراء الذين يحتج بهم: (الطبقة الثالثة وكلهم إسلاميون، فاختلفوا في الاستدلال بكلامهم، وأطبق المحققون على الاستشهاد به، ولم يعبؤوا بالخلاف في ذلك، وأما طبقة المولدين فلا يستشهد بكلامهم في القواعد النحوية والألفاظ العربية، بل يجوز الاستشهاد بشعرهم في المعاني والبيان والبديع فقط..) أ.هـ شرح كفاية المتحفظ تحرير الرواية في تقرير الكفاية لمحمد بن الطيب الفاسي تحقيق د علي حسين البواب صـ ١٠١، ط دار العلوم الأولى ١٤٠٣هـ، وينظر: التفسير اللغوي للقرآن الكريم د. مساعد الطيار صـ ٥٦٠ ط دار ابن الجوزي، الأولى ١٤٢٢هـ.





أما إن كان التفسير من الصحابة أو التابعين وتابعيهم مبنياً على معارف عصرهم أو كان اجتهاداً من اجتهاداتهم؛ أو من قبيل التمثيل على معنى من المعاني المحتملة، مع احتمال معانٍ أخرى قد تكون أقوى من اجتهادهم وما ذهبوا إليه، فهذا لا ينزل منزلة ما سبق ونعتبره حجة لا يجوز الاعتراض عليه أو رده، بل هو نوع اجتهاد يحتمل الصواب والخطأ ويناقش حسب القواعد المقررة في علم التفسير.

فمن التفسير بالمثال تفسير قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا ﴾ [النحل:٨١]، فمما ورد في بيان الظلال: أنها ظلال الغمام قاله ابن عباس، وورد أنها ظلال البيوت، قاله ابن السائب[1]، وورد أنها الشجر قاله قتادة[2] والزجاج[3]، وورد أنها الشجر والجبال، قاله ابن قتيبة.[4]

---

(١) محمد بن السائب بن بشر بن عمرو أبو النضر عالم بالتفسير والأخبار والنسب شيعي متروك الحديث، ت١٤٦هـ، له تفسير القرآن طويل. انظر: طبقات المفسرين للداودي ٢/ ١٤٩، سير أعلام النبلاء ٦/ ٢٤٨.

(٢) قتادة بن دعامة السدوسي أبو الخطاب البصري الحافظ العلامة المفسر الثقة الثبت قال في التقريب: (وهو رأس الطبقة الرابعة مات سنة بضع عشر) انظر: تقريب التهذيب لابن حجر صـ٤٥٣ تحقيق محمد عوامة ط دار الرشد، طبقات المفسرين للداودي ٢/ ٤٧.

(٣) إبراهيم بن السري بن سهل أبو إسحاق النحوي اللغوي المفسر المشهور له العديد من المصنفات كخلق الإنسان ومعاني القرآن والاشتقاق ت ٣١١ هـ انظر: طبقات المفسرين للداودي ١/ ٩.

(٤) انظر: هذه الأقوال في زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ٤/ ٣٤٨ ت محمد بسيوني زغلول ط دار الفكر بيروت أولى ١٩٨٧، وابن قتيبة هو مسلم بن قتيبة الدينوري الإمام البارع اللغوي الأخباري الثقة صاحب التصانيف في فنون العلم كإعراب القرآن ومعاني القرآن ت ٢٧٦هـ انظر: بغية الوعاة ٢/ ٦٣، البداية والنهاية ١١/ ٤٨.



أقول: إن نظم الآية أعم مما ذكر هؤلاء الأئمة رضي الله عنهم؛ وما ذكروه إنما على سبيل المثال للظلال مما هو غالب مستعمل عندهم ومشاهد، ولا يتوقف تفسير الظلال على هذه الأمثلة، وإنما يعم كل ما يصدق عليه اسم الظل إلى يوم القيامة، فتبقى دلالتها مفتوحة تستوعب كل جديد.

وكذلك من التفسير بالمثال؛ ما ورد في تفسير: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل:٨]. فمن المأثور أنها السوس في الثياب قاله مجاهد.[١]

ويقول ابن جرير:

(ويخلق ربكم مع خلقه هذه الأشياء التي ذكرها لكم ما لاتعلمون مما أعد في الجنة لأهلها وفي النار لأهلها مما لم تره عين ولاسمعته أذن ولا خطر على قلب بشر).[٢]

---

(١) أخرجه ابن عساكر كما في الدر المنثور ٤/ ١٢٥، وذكر السيوطي أيضاً أثراً مرفوعاً بأنها البرازين من حديث ابن عمر أخرجه الخطيب في تاريخه وابن عساكر كما ذكر السيوطي، وأثراً آخر عن ابن عباس مرفوعاً: أن مما خلق الله لأرضاً من لؤلؤ بيضاء مسيرة ألف عام عليها جبل من ياقوتة حمراء محدق بها في تلك الأرض ملك قد ملأ شرقها وغربها له ستمئة رأس في كل رأس ستمئة وجه ستون ألف مرة، فإذا كان يوم القيامة نظر إلى عظمة الله فيقول: وعزتك ما عبدتك حق عبادتك، فذلك قوله: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أخرجه ابن مردويه كما ذكر السيوطي.
انظر: الدر المنثور ٤/ ١٢٥، أقول: لا يخفى ما في أثر ابن عمر وابن عباس المرفوع من الغرابة، وعلامات الوضع والإسرائيليات ظاهرة عليه، وهذا يصلح مثالاً للتفسير العلمي بالإسرائيليات أيضاً.

(٢) ابن جرير ١٤ / ٥٨.



وفي زاد المسير: (ذكر قوم من المفسرين أن المراد به عجائب المخلوقات في السموات والأرض التي لم يطلع عليها.... وقال أبو سليمان الدمشقي: في الناس من كره تفسير هذا الحرف، وقال الشعبي: هذا الحرف من أسرار القرآن).[1]

ولما كان ما سبق من الآثار في بيان الآية على سبيل المثال، فإن مدلولات الآية توسعت بظهور المستجدات التي تدخل فيها ولذلك يقول بعضهم: (أي غير هذه الدواب مما يهدي به العلم بالصناعة وتستنبطه المفاهيم والعقول كالقطارات البرية والسفن..)[2]، وبعدما يعدد بعض المخترعات الحديثة يقول معللاً هذا التنوع: (ولم يذكر الله هذه المخترعات بأعيانها مع علمه سبحانه بما كان ويكون، لأن الله جلت قدرته لم يذكر في كتابه إلا ما يعرفه العباد أو يعرفون نظيره، وأما ماليس له نظير في زمان التنزيل، فإنه لو ذكره لم يعرفوه ولم يفهموا المراد منه، وإذن لارتاب المبطلون، ولكنه يذكر أصلاً جامعاً يذكر فيه ما كان ويكون مما لا يعلمه إلا الله... ولقد كان المفسرون والشراح يتكلمون على معانيها بما يفهمون في وقتهم وهي كثيرة).[3]

وهكذا نجد هذا التنوع في تفسير ما عمم الله خلقه في المستقبل، حتى دخلت الإسرائيليات فيها والغيبيات مع أن سياق الآيات ليس وارداً فيها، وما ذكروه ليس

---

(١) زاد المسير ٤/ ٣١٥، ولم أعثر على ترجمة لأبي سليمان الدمشقي، مع أن ابن الجوزي يستشهد به كثيراً، وأما الشعبي فهو: عامر بن شراحيل بن عبد الشعبي الحميري أبو عمر تابعي كبير مشهور الفقيه الشاعر المتفنن بالعلوم الثقة ت (١٠٩هـ). انظر: تهذيب التهذيب ٣/ ٤٦، وفيات الأعيان ٣/ ١٢.

(٢) منار السبيل في الأضواء على التنزيل محمد العثمان القاضي ٢/ ١٠٠ ط الحلبي مصر ١٣٩٣هـ.

(٣) المصدر السابق ٢/ ١٠١.



حصراً لما سيخلقه الله تعالى؛ وليس بياناً قاطعاً لدلالة الآية؛ وإنما أمثلة لما سيراه الإنسان من عجائب خلق الله مما لا يطيقه تصور من لم يشاهدها عياناً.

ومثال **نقد السند ونقد المتن** مما تكلموا به حسب معارفهم أو علوم زمانهم أو تصوراتهم الاجتهادية الخاصة فمثاله في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾ [النحل:٦٦].

روى الكلبي عن أبي صالح[١] عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: (اذا استقر العلف في الكرش صار أسفله فرثاً، وأعلاه دماً، وأوسطه لبناً، فيجري الدم في العروق، واللبن في الضرع ويبقى الفرث كما هو).[٢]

(١) مرت ترجمة الكلبي محمد بن السائب أبو النضر الكوفي صـ٢٦٦ من البحث، أما أبو صالح فهو: باذام، ويقال: باذان، مولى أم هانيء روى عنها وعن ابن عباس تركه ابن مهدي.

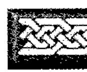
وقال يحيى ابن معين: (ليس به بأس، فإذا روى عنه الكلبي فليس بشيء وإذا روى عنه غير الكلبي فليس به بأس لأن الكلبي يحدث به مرة من رأيه ومرة عن أبي صالح، ومرة عن أبي صالح عن ابن عباس).

ويقول أبوحاتم الرازي: (يكتب حديثه ولا يحتج به). ويقول الكلبي محمد بن السائب: قال لي أبو صالح: (كل شيء حدثتك فهو كذب).

انظر: الجرح والتعديل٢/ ٤٣١ التاريخ الكبير للبخاري١/ ١٠١ ميزان الاعتدال٢/ ٣ تحقيق علي معوض وشركائه، ط دار الكتب العلمية أولى ١٩٩٥.

(٢) ذكره في زاد المسير ٤/ ٣٣٨ عن أبي صالح عن ابن عباس. انظر: البغوي ٣/ ٧٥ القرطبي ١٠/ ٨٣، الرازي٢٠/ ٥٢ وتبع ابن عادل الرازي على كلامه.





فأما نقد السند فإنه من رواية الكلبي عن أبي صالح، والكلبي هو أبو النضر محمد بن السائب الكوفي، وقد تركه يحيى وابن مهدي[1]، وكان سبئياً من أصحاب عبد الله ابن سبأ.[2]

عن سفيان الثوري قال: قال لي الكلبي: (ما سمعته مني عن أبي صالح عن ابن عباس فهو كذب).[3]

وعن سفيان أيضاً قال: (قال لي أبو صالح: انظر كل شيء رويت عني عن ابن عباس فلا ترو ه).[4]

قال ابن حجر في التقريب: (متهم بالكذب ورمي بالرفض).[5]

ويقول أبو حاتم البستي: (يروي عن أبي صالح عن ابن عباس التفسير، وأبو صالح لم ير ابن عباس ولا سمع منه شيئاً، ولا سمع الكلبي من أبي صالح إلا الحرف بعد

---

(١) انظر: تهذيب التهذيب ٩/ ١٥٨ط دار الفكر الأولى ١٩٨٤.

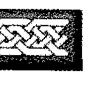
(٢) المجروحين لابن حاتم البستي ٢/ ٢٥٤.

(٣) المجروحين ٢/ ٢٥٤. وعن سفيان أيضاً قال: اتقوا الكلبي، فقيل له إنك تروي عنه؟!، قال: (أنا أعرف صدقه من كذبها)، المجروحين ٢/ ٢٥٦.

(٤) الضعفاء الكبير لمحمد بن عمرو العقيلي ٦/ ٢١٢٧.ت عبد المعطي قلعجي ط دار الكتب العلمية الأولى.

(٥) تقريب التهذيب ٢/ ٧٨ تحقيق مصطفى عبد القادر عطا ط دار الكتب العلمية الثانية ١٤١٥. وقال أبو نعيم الأصبهاني في كتاب الضعفاء أن رواية محمد بن السائب عن أبي صالح موضوعة انظر كتاب الضعفاء لأبي نعيم الأصبهاني صـ١٣٨، تحقيق د فاروق حمادة ط دار الثقافة الدار البيضاء د.ت.





الحرف..لا يحل ذكره في الكتب؛ فكيف الاحتجاج به..)[1].. **وبذلك نعلم أن هذا السند لا يقوم حجة في تفسير الآية**، والله أعلم.

وأما نقد المتن وهو من حيث المعنى مما تكلم به ابن عباس اجتهاداً -على فرض قبوله-؛ فلنا مثال عملي من طريقة الرازي وابن عادل في مناقشة هذا الوارد عن ابن عباس مستخدمان معارف عصرهما وما توصل إليه الحس والتشريح، فيقول ابن عادل مختصِراً كلام الرازي: (اللبن والدم لا يتولدان البتة في الكرش والدليل عليه الحس، فإن هذه الحيوانات تذبح ذبحاً متوالياً، وما رأى أحدٌ في كرشها لا دماً ولا لبناً، ولو كان تولد الدم واللبن في الكرش لوجب أن يُشاهد ذلك في بعض الأحوال، والشيء الذي دلت المشاهدة على فساده لم يجب المصير إليه، بل الحق: إن الحيوان إذا تناول الغذاء، ووصل ذلك العلف إلى معدته وإلى كرشه، إن كان من الأنعام وغيرها، فإذا طُبخ،وحصل الهضم الأول، فما كان منه صافياً انْجَذَبَ إلى الكبد، وما كان كثيفاً نزل إلى الأمعاء، ثم ذلك الذي يحصل منه في الكبد يُطبخ فيها، ويصير دماً، وذلك هو الهضم الثاني، ويكون ذلك الدم مخلوطاً بالصفراء والسوداء وزيادة المائية.

أما الصفراء فتذهب إلى المرارة، والسوداء إلى الطحال، والماء إلى الكلية ومنها إلى المثانة، وأما ذلك الدم فإنه يدخل في الأوردة وهي العروق النابتة من الكبد، وهناك يحصل الهضم الثالث.

وبين الكبد وبين الضروع عروق كثيرة، فينصب الدم من تلك العروق إلى الضرع، والضرعُ: لحم غددي رخو أبيض فيقلب الله تعالى الدم عند انصبابه إلى ذلك اللحم

(١) المجروحين ٢/ ٢٥٥.



الغددي الرخو الأبيض من صورة الدم إلى صورة اللبن، فهذا هو القول الصحيح في كيفية تولد اللبن..

وقد تقدم ما نقل عن ابن عباس رضي الله عنه في أن الفرث يكون في أسفل الكرش، والدم يكون في أعلاه، واللبن يكون في الوسط، وبيَّنَّا أن هذا القول على خلاف الحس والتجربة).[1]

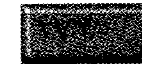
وأما ما ورد من المأثور عن الصحابة أو التابعين، وهو مما تكلموا به حسب اجتهادهم: ففي تفسير قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، فقد ذكر ابن كثير[2] أن ابن أبي حاتم روى بسنده عن عمر - في قصة وفيها -، فقال ابن عباس: (نعم كانت السماوات رتقاً لا تمطر، وكانت الأرض رتقاً لا تنبت، فلما خلق للأرض أهلاً فتق هذه بالمطر، وفتق هذه بالنبات..)، ومثل هذا قال عطية العوفي[3] أيضاً، وذكر ابن كثير من المأثور عن ابن عباس مما يؤكد تفسيره السابق في

---

(١) ابن عادل ٢/ ١٩٨، وانظر: الرازي ٢٠/ ٥٣ وسيأتي الكلام مفصلاً في تفسيرها في محلها صـ ٥٨٥ من البحث.

(٢) تفسير ابن كثير صـ ٨٦٣، وابن كثير هو إسماعيل بن عمر بن كثير أبو الفداء الدمشقي الإمام العلامة الحافظ الفقيه المفسر المؤرخ الناقد صاحب المصنفات الكثيرة النافعة كالتفسير وفضائل القرآن ت٧٧٤هـ. انظر: طبقات المفسرين للداودي ١/ ١١١. البدر الطالع ١/ ١٥٣.

(٣) عطية بن سعد بن جنادة العوفي القيسي الكوفي أبو سعيد من مشاهير التابعين ضعيف الحديث وله تفسير القرآن ت (١١١هـ). انظر: تهذيب الكمال ٢٠/ ١٤٥، سير أعلام النبلاء ٥/ ٣٢٥، معجم المفسرين ١/ ٣٤٧.



تفسير هذه الآية؛ عن عكرمة قال: سئل ابن عباس: الليل كان قبل أم النهار؟، فقال: (أرأيتم السماوات والأرض حين كانتا رتقاً، هل كان بينهما إلا الظلمة؟! ذلك لتعلموا أن الليل قبل النهار).[1]

ومما ذكر ابن كثير من المأثور في تفسير الآية أيضاً:

عن أبي صالح الحنفي[2] قال: (كانت السماء واحدة، ففتق منها سبع سموات، وكانت الأرض واحدة ففتق منها سبع أرضين)، وهكذا قال مجاهد، وزاد: (ولم تكن السماء والأرض متماستين).

وقال سعيد بن جبير[3]: (بل كانت السماء والأرض ملتزقتين، فلما رفع السماء وأبرز منها الأرض ؛ كان ذلك فتقهما الذي ذكر الله في كتابه).

وقال الحسن وقتادة: (كانتا جميعاً ففصل بينهما بهذا الهواء).

ومع أن الآية تحتمل كل هذه الأقوال، إلا أن أثر ابن عباس فيه نظر من حيث سياق الآية نفسها، ومن حيث النظر في معان أخرى: فابن عباس رضي الله عنه يقول: (كانت

---

(١) هذا الأثر أخرجه ابن أبي حاتم كما في الإكليل للسيوطي ٣/ ٩٦٠، ابن كثير صـ ٨٦٣.

(٢) عبد الرحمن بن قيس، كوفي من التابعين له روايات عن بعض الصحابة وليس من المكثرين وثقه ابن معين وابن سعد في الطبقات ولم يذكروا وفاته رحمه الله. انظر: الطبقات الكبرى محمد بن سعد بن منيع ٦/ ٢٢٧. تحقيق إحسان عباس ط دار صادر أولى ١٩٨٨. تهذيب الكمال ١٧/ ٣٦٠، سير أعلام النبلاء ٥/ ٣٨.

(٣) سعيد بن جبير بن هاشم الأسدي الكوفي الإمام الكبير التابعي الجليل المقرئ المفسر الفقيه قتله الحجاج فاستشهد رحمه الله سنة (٩٥هـ). انظر: طبقات المفسرين للداودي ٤/ ٣٠٢، غاية النهاية لابن الجزري ١/ ٣٠٥.



السماوات رتقاً لا تمطر) فنسب المطر إلى السماوات بالجمع[1]، وقد وردت السماوات هكذا بالجمع (١٨٣) مرة ولم تقترن بنزول المطر، ولو نظرنا إلى الآيات التي تكلمت عن نزول المطر لوجدناها تنسب نزوله إلى السماء لا إلى السماوات، ومن ذلك أيات ذكرت خلق السماوات ثم أفردت السماء عند ذكر نزول المطر كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ [إبراهيم:٣٢].

وقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ [النمل:٦٠].

وقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [لقمان:١٠].

وكذلك فإن الثابت في المشاهدة والعلم (أن المطر لا ينزل إلى الأرض إلا من طبقات الجو القريبة من الأرض، أي في نطاق الغلاف الجوي للأرض؛ كذلك ذكر السحاب مع المطر في بعض الآيات والرياح؛ تؤكد أن المطر لا يكون إلا في جو الأرض، أي في

---

(١) إن تفسير ابن عباس رضي الله عنهما لفتق السماوات بالمطر لعله يرجع إلى ما كانوا يعرفونه من أهل الكتاب من أن المطر ينزل من السماوات السبع طبقة بعد طبقة ثم من السماء الدنيا إلى السحاب فينخله السحاب على الأرض. انظر لزاماً: تفسير ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [النحل: ١٠] صـ٣٩٨ من البحث وما ورد عن ابن عباس في ذلك.

نطاق المجموعة الشمسية التي تنتمي إليها أرضنا. كذلك تؤكد الجاذبية نزول المطر من نطاق الغلاف الجوي للأرض لارتباط السحاب والرياح بها من جهة، ولأن المطر لو كان يأتي من طبقات عليا خارجة عن نطاق غلاف الأرض الجوي لما وصل إليها بفعل الجاذبية التي تكون قليلة من جهة، وتابعة لجرم سماوي آخر يجذب المطر إليه..).[1]

ولعل ما يؤكد ما ذهب إليه العلم الحديث قوله تعالى في سورة النور: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [النـور:٤٣]، وبذلك نجد أن ما ورد عن ابن عباس رضي الله عنه مدفوع بما تقدم، والله أعلم.

ولعل ما روي عن ابن جبير والحسن وقتادة أظهر لمناسبته سياق الآية حيث نسبة الرتق والفتق لهما في لفظ واحد.

ومن جهة أخرى فإن ما وجد من النظريات الفلكية المتعددة في نشوء الكون يوافق ما ورد عن ابن جبير والحسن وقتادة، (فالمعنى العلمي الفلكي الحديث أقرب للآية وأمكن مما نسب إلى ابن عباس، كما هو ظاهر من نسبة الأمطار إلى السماوات بالجمع،

---

(١) انظر: ظاهرة التفسير العلمي صـ ٦٩، وللتوسع ينظر: بحث الظواهر الجوية المائية، وبحث الهطول من كتاب الركام المزني والظواهر الجوية في القرآن، صـ ١٨١، ١٨٢، تأليف صلاح الدين عارف جنيد، تقديم بسام مهمندار، خبير المنظمة العالمية للأرصاد الجوية، ط مطبعة الزرعي، دمشق، أولى ١٤١٩.





مع أن الذي أثبته العلم لا ينطبق إلا على سماء السحاب في أرضنا هذه، في حين أن السموات بالجمع أساسية في فهم الآية).[1]

ولكن ما ورد من التفاسير في ذلك له احتمالات أخرى يتحملها سياق الآية ولفظها، يقول ابن عاشور:

(والإخبار عن السماوات و الأرض بأنهما رتق إخبار بالمصدر للمبالغة في حصول الصفة، ثم إن قوله تعالى كانتا رتقاً يحتمل أن تكونا رتقاً واحداً: بأن تكون السماوات والأرض جسماً ملتئماً متصلاً، ويحتمل أن تكون كل سماء رتقاً على حدتها، والأرض رتقاً على حدتها وكذلك الاحتمال في قوله ففتقناهما، وإنما لم يقل نحو: فصارتا فتقاً؛ لأن الرتق متمكن منهما أشد تمكن كما قلنا ليستدل به على عظيم القدرة في فتقهما، ولدلالة الفعل على حدثان الفتق إيماء إلى حدوث الموجودات كلها وأن ليس منها أزلي).[2]

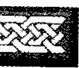
وبما أن ما توصل إليه الفلكيون في شأن نشوء الكون إنما هو في طور النظريات وإن كان أشهر هذه النظريات نظرية الانفجار، واحتمال التغيير قائم فيها، ومهما يكن من أمر فإن ما سيستجد من أبحاث تخالف أو تطور ما هو موجود اليوم؛ لن يخرج عن سياق الآية ومبناها واحتمال دلالاتها، وهذا من خصائص الكتاب المنزل من العليم الخبير ليبقى الإنسان على اتصال بالكون الذي يعتبر أحد دعائم عقيدته ونظام شخصيته، والله أعلم.

---

(١) انظر: الإسلام في عصر العلم صـ ٢٦٣.

(٢) التحرير والتنوير ١٧ / ٥٣ ط دار سحنون تونس.





المبحث الثاني:
موقف المفسر بالتفسير العلمي من الإسرائيليات.

● **تعريف الإسرائيليات:**

جمع إسرائيلي، نسبة إلى بني إسرائيل، وهم أولاد يعقوب عليه السلام ومن تناسلوا منهم فيما بعد، إلى عهد موسى ومن جاء بعده من الأنبياء حتى عهد عيسى عليه السلام وحتى عهد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

وقد عرفوا باليهود، ثم من آمن بعيسى منهم عرف باسم النصارى، ومن كتبهم: التوراة والتلمود -وهو التوراة الشفهية- وهو مجموعة قواعد ووصايا وشرائع دينية ومدنية وشرح وتفسير وتعاليم وروايات كانوا يتناقلونها، ومن كتبهم أيضاً الزبور -كتاب داود- وأسفار الأنبياء بعد موسى.

وتسمى التوراة وما اشتملت عليه الأسفار الموسوية وغيرها بالعهد القديم[1]، وكانت ثقافة اليهود ومعارفهم هي مجموعة التوراة وشروحها والأسفار وما اشتملت عليه، والتلمود والأساطير والخرافات، وهي منبع الإسرائيليات التي زخرت بها بعض كتب التفسير وفيها من الحق، وفيها من الباطل الكثير.[2]

وقد عرفها الدكتور الذهبي والدكتور نور الدين عتر بأنها: (اللون اليهودي واللون النصراني في التفسير، وما تأثر به التفسير من الثقافتين: اليهودية والنصرانية، وما ورد من الأخبار في كتبهم عن الأمم السابقة وقصص الأنبياء).[3]

---

(١) انظر: الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير د. محمد بن محمد أبو شهبة صـ ١٢ و١٣ ط دار الجيل، أولى ١٤١٣هـ.

(٢) المصدر السابق صـ ١٣.

(٣) التفسير والمفسرون ١/ ١٦٨، و١/ ١٨١، علوم القرآن د. عتر صـ ٧٥-٧٦.

ولكننا نجد الذهبي في مكان آخر يتوسع أكثر في تعريف الإسرائيليات فيقول: (ولفظ الإسرائيليات - وإن كان يدل بظاهره على القصص الذي يروى أصلاً عن مصادر يهودية-؛ يستعمله علماء التفسير والحديث ويطلقونه على ما هو أوسع وأشمل من القصص اليهودي، فهو في اصطلاحهم يدل على كل ما تطرق إلى التفسير والحديث من أساطير قديمة منسوبة في أصل روايتها إلى مصدر يهودي أو نصراني أو غيرهما، بل توسع بعض المفسرين والمحدثين فعدوا من الإسرائيليات ما دسه أعداء الإسلام من اليهود وغيرهم على التفسير والحديث من أخبار لا أصل لها في مصدر قديم، وإنما هي أخبار من صنع أعداء الإسلام، صنعوها بخبث وسوء طوية ثم دسوها على التفسير والحديث ليفسدوا بها عقائد المسلمين كقصة الغرانيق).[1]

ويعلل أبوشهبة رحمه الله هذا التوسع الذي شمل المرويات النصرانية وغيرها فيقول: (وإنما سميت إسرائيليات لأن الغالب والكثير منها إنما هو من ثقافة بني إسرائيل أو من كتبهم ومعارفهم أو من أساطيرهم وأباطيلهم).[2]

ثم يقول رحمه الله: (والحق أن ما في كتب التفسير من المسيحيات أو من النصرانيات هو شيء قليل بالنسبة إلى ما فيها من الإسرائيليات، ولا يكاد يذكر بجانبها، وليس لها

---

(١) الإسرائيليات في التفسير والحديث د. محمد حسين الذهبي ط دار الحديث ٢٠٠٥ صـ١٧.

(٢) الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير د. محمد بن محمد أبو شهبة صـ١٣ ط دار الجيل، أولى ١٤١٣ هـ. وينظر الإسرائيليات وأثرها في كتب التفسير د. رمزي نعناعة صـ٧٤ ط دار القلم دمشق ودار البيضاء بيروت، الأولى ١٣٩٠هـ، ١٩٧٠م حيث عد كل دخيل في التفسير من الإسرائيليات ولو من غير اليهود والنصارى، وجعل اسم الإسرائيليات من باب التغليب ولو كان فيها غير إسرائيلي.

من الآثار السيئة ما للإسرائيليات،إذ معظمها في الأخلاق والمواعظ وتهذيب النفوس وترقيق القلوب).[1]

وبذلك يمكننا القول: إن **الإسرائيليات هي كل ما روي من الأخبار عن اليهود والنصارى أو غيرهما من الأمم السابقة مما مصدره أهل الكتاب.**

وإنما سميت إسرائيليات تغليباً لرواية اليهود على رواية النصارى، ولأن وجودهم في المدينة أكثر من النصارى، والأهم من ذلك كله؛ لوجود النص النبوي في تسميتها وهو حديث: «حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج».[2]

● **أقسام الروايات الإسرائيلية وحكم الاستدلال بها:**[3]

وتنقسم الإسرائيليات إلى ثلاثة أقسام، نوضحها مع بيان حكمها بالآتي:

القسم الأول: ما يعلم صحته، بأن نُقل عن النبي صلى الله عليه وسلم نقلاً صحيحاً، وكذا إن كان له شاهد من الشرع يؤيده، وهذا القسم صحيح مقبول.

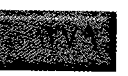
القسم الثاني: ما يعلم كذبه؛بأن يناقض ما عرفناه من شرعنا، أو كان لا يتفق مع العقل، أو كان في سنده ما يدل على وضعه ونكارته وهذا القسم لا يصح قبوله ولا روايته.

---

(١) الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير د. محمد بن محمد أبو شهبة صـ ١٤.

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ما جاء عن بني إسرائيل (٣٢٧٤) والترمذي في العلم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم باب ما جاء في الحديث عن بني إسرائيل (٢٦٦٩)، انظر: تفسير التابعين عرض ودراسة مقارنة، د. محمد بن عبد الله الخضيري ٢ / ٨٧٦، ط دار الوطن السعودية، الأولى ١٤٢٠ هـ.

(٣) توسع بعضهم في تقسيم الإسرائيليات كثيراً وهي بمجملها لا تخرج عن هذا التقسيم الثلاثي، انظر: كتاب الإسرائيليات وأثرها في كتب التفسير د. نعناعة صـ ٧٦ إلى صـ ٨٥.



القسم الثالث: ما هو مسكوت عنه، لا هو من قبيل الأول، ولا من قبيل الثاني، وهذا القسم نتوقف فيه، فلا نؤمن به ولا نكذبه، وتجوز حكايته؛ لما صحّ من حديثه صلى الله عليه وسلم: «بلغوا عني ولو آية،وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب عليّ متعمداً فليتبوّأ مقعده من النار»(١)، وحديث: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا ﴾ [البقرة: ١٣٦]»(٢)، وهذا القسم غالبه مما ليس فيه فائدة تعود إلى أمر ديني.(٣)

● موقف المفسر من الإسرائيليات في اتجاه التفسير العلمي للقرآن:

تقدم أن ذكر الظواهر الكونية في الآيات القرآنية إنما تتمحور حول إثبات وحدانية الله تعالى وكمال قدرته وعظمته سبحانه، أضف لذلك تصحيح مفاهيم الناس وتصورهم للكون والحياة لما لها مِن ارتباط بالعقيدة، وكان أسلوب الآيات يستفز

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ما جاء عن بني إسرائيل (٣٢٧٤)، وتقدم تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير باب قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا رقم (٤٢١٥).

(٣) انظر: التفسير والمفسرون ١/ ١٦٨، و١/ ١٨١،علوم القرآن د. عتر صـ ٧٥،٧٦، وأحكام القرآن د. عتر ص ٩٩-١٠٠، منشورات جامعة دمشق، ومنهج المدرسة العقلية د. فهد الرومي صـ ٣١٣. وقد تعرض الدكتور محمد بن عبد الله الخضيري في كتابه (تفسير التابعين عرض ودراسة مقارنة) لحكم الإسرائيليات بين القبول والرد بشكل مطول ومفصل ٢/ ٨٧٦، إلى ٨٨٢، مع دراسة النصوص والأدلة التي اعتمد عليها الطرفان، ثم ذكر جماع أعذار المفسرين في النقل عن بني إسرائيل ومواقف المدارس التفسيرية من الرواية عن بني إسرائيل ٢/ ٨٨٣ فما بعد، وكذلك استفاض د. نعناعة في حكم رواية الإسرائيليات في كتابه الإسرائيليات وأثرها في كتب التفسير من صـ ٨٦ إلى ١٠٥.

المؤمن العاقل ليتعرف على هذه الظواهر الكونية بما أوتي من أساليب ووسائل تساعده على ذلك.

ولما كان العرب في بداية أمرهم وطفولة نشأتهم تغلب عليهم البداوة والأمية، ولم يكونوا أهل كتاب ولا علم،ثم نزلت عليهم الآيات تحدثهم عن مظاهر يعيشونها بأسلوب له دلالات عميقة يثقل على عقولهم تصورها،وتتشوف نفوسهم لكشف أسرارها،كما هي الطباع البشرية فإنها تتشوف لمعرفة أسباب المكونات وبدء الخليقة وأسرار الوجود وغير ذلك، فكان العرب يسألون عنها أهل الكتاب قبلهم[1] ويستفيدون منهم، خاصة منهم اليهود؛ لشدة قربهم ومجاورتهم للعرب في الجزيرة العربية،ومما سمح للمسلمين سؤال أهل الكتاب عن تفسير بعض ما يتعلق بالكون إباحة النبي صلى الله عليه وسلم الرواية عن بني إسرائيل في الحديث: «وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج»، «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم»، وليس أمر الكونيات كالأمر في الشرعيات والعقديات، (فإن تصحيح مفهوم الناس في أمر كوني يمكن أن ينتظر حتى يتهيأ الناس لتلقيها على أيدي أهلها علماء الفطرة).[2]

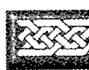
وقد ابتدأ نشاط الرواية عن بني إسرائيل بكثرة في عصر التابعين، ولكنها كانت في عصر متأخري التابعين أكثر منها في عصر متقدميهم[3]، وكانت قصص الأنبياء الطابع

---

(١) انظر: مقدمة ابن خلدون صـ ٤٣٩ ط بابي الحلبي وتصوير دار إحياء التاث، دون تاريخ، والاتجاهات الفكرية في التفسير د. الشحات السيد زغلول صـ ٢٤١ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب الاسكندرية الثانية ١٣٩٧ هـ ١٩٧٧ م.

(٢) انظر: الإسلام في عصر العلم للغمراوي صـ ٢٩٥.

(٣) انظر: تفسير التابعين ٢/ ٨٧٥. وقد استند د. الخضيري في ذلك إلى مقارنة روايات السدي مع روايات كعب الأحبار فوجد أن روايات السدي أكثر بكثير من روايات كعب في هذا الباب.



الغالب في المرويات عن بني إسرائيل، ثم تطور أمر هذه الإسرائيليات مع رغبة بعض المفسرين في التوسع وتدوين المزيد من الغرائب والفروعيات، يقول د. عدنان زرزور: (بل وقد تعدى أمر الإسرائيليات إلى آيات الكون والطبيعة التي كان المفسرون القدامى على غير معرفة أو دراية بمدلولاتها العلمية، فلم يجدوا بأساً بالاستعانة بالروايات الإسرائيلية في تفسيرها، وربما سهل لهم ذلك أن هذه ليست من الآيات التكليفية أو المتعلقة بالأحكام الشرعية، أي ليس في تفسيرها من خلال تلك الروايات تحريم حلال أو تحليل حرام.. على ما انطوت عليه من الخطأ والفساد في ذاتها كما تبين لنا فيما بعد).(١)

يقول الغمراوي(٢): (ومن هنا استباح قدامى المفسرين النقل عن كعب الأحبار ما كان الأولى تجنبه، من مثل قول كعب الأحبار فيما نقل القرطبي: أن الأرض محمولة على ظهر حوت، وما نقله بعض الصحابة من هذا... وما إلى ذلك مما لم يرفعوه إلى النبي صلى الله عليه وسلم إنما أخذوه عن أهل الكتاب).(٣)

ثم يقول: (وأكبر الظن أنه لم يكن من الممكن اجتناب الأخذ من أهل الكتاب؛ لما عندهم من الكونيات والقصص مما لم يرد في القرآن أو حديث الرسول صلى الله عليه

---

(١) علوم القرآن وإعجازه، د. عدنان زرزور صـ ٣٣٧، ط: دار الإعلام، الأردن، الأولى ٢٠٠٥م، وينظر أيضاً صـ ٣٤٥ لزاماً حيث تحدث عن الإسرائليات وأثرها في بروز مناهج التفسير وكيف تعدّى أمرها إلى العقيدة !.

(٢) د.محمد أحمد الغمراوي من المؤسسين لجمعية الشبان المسلمين ومن الذين شكلوا لجنة التأليف والترجمة في مصر وكان أستاذ الكيمياء بكلية الصيدلة وله أبحاث قرآنية فوكل إليه الأزهر التدريس في أصول الدين وله مقالات عديدة، انظر: التفسير العلمي في الميزان صـ ٢٤٨.

(٣) الإسلام في عصر العلم صـ ٢٩٥.

وسلم، فالنفس في تطلعها إلى معرفة المجهول واستتمام المعلوم تأخذ ممن يزعم العلم).[1]

ولا ريب أن الروايات الإسرائيلية كان لها أثر واضح في عمل بعض المفسرين، مما أثر على تفسيرهم تشويهاً؛ نظراً لما تضمنته هذه الروايات من تصورات خرافية (واجهت المسلمين في عصر لاحق ولم يشعر بها من اعتمدها أو نقلها من المفسرين السابقين؛ نظراً لأن الوقوف على التفسير الصحيح لتلك الإشارات القرآنية مشى في ركاب الكشوفات العلمية التي جاء بها العصر الحديث).[2]

ونحن لا نجد النقل عن الإسرائيليات في التفسير مهيمناً على من اتبع اتجاه استخدام علوم عصره في تفسير الآيات التي تتحدث عن المظاهر الكونية كالغزالي والرازي ومن سار على نحوهم، لانفتاحهم على العلوم بشكل أوسع من ذي قبل، ودخول الفلسفة وتطور الأبحاث وغير ذلك مما تقدم بيانه مما أعطى تفسيرات تطبيقية لتساؤلات كثيرة لمفسر القرآن حول ما تدل عليه الآيات؛ بصرف النظر عن كون ما قدمه هؤلاء المفسرون من معلومات هل هي صحيحة أم لا.

ويرى الباحث أنه لا يوجد في الروايات الإسرائيلية الواردة عن النبي صلى الله عليه وسلم ما يمكن استخدامه في اتجاه التفسير العلمي للقرآن، إذ غالبها من القصص والتاريخ والمواعظ ونحو ذلك، وأما غير الوارد عن النبي صلى الله عليه وسلم فنحن في غنى عنه لتطور الأبحاث التجريبية والوسائل العلمية التي تعيننا على فهم القرآن

---

(١) الإسلام في عصر العلم صـ٢٩٦.

(٢) انظر: علوم القرآن وإعجازه، د. زرزور صـ ٣٩٠.



بطمأنينة وانضباط لا نجده في الاستشهاد بالإسرائيليات، أضف إلى ذلك أن الإسرائيليات ليست من أصول التفسير التي يتحاكم إليها المفسرون عند الإبهام أو الاختلاف، ولذلك نجد بعضهم يشترط على المفسر بالتفسير العلمي للقرآن: (ألا يعتمد على الإسرائيليات التي امتلأت بها بعض التفاسير وبخاصة في تفسير الآيات الكونية في القرآن من مثل آية الدخان ورتق السماوات والأرض وفتقهما وما أشبههما من آيات كانت مجالاً للتفسير العلمي الحديث للقرآن).[1]

وهذا الموقف هو الذي أعلنه ابن كثير من قبل في مواطن عديدة من كتابه البداية والنهاية عند كلامه على بدء الخلق وإيراده للروايات الإسرائيلية في تفاصيل نشأة الخلق، يقول ابن كثير في البداية والنهاية:

(فقد قال الله تعالى في كتابه: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ [طه: ٩٩]..

وقد قص الله على نبيه صلى الله عليه وسلم خبر ما مضى من خلق المخلوقات وذكر الأمم الماضين وكيف فعل بأوليائه، وماذا أحل بأعدائه، وبين ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمته بيانا شافيا... فأخبرنا بما نحتاج إليه من ذلك وترك ما لا فائدة فيه مما قد يتزاحم على علمه ويتراجم في فهمه طوائف من علماء أهل الكتاب مما لا فائدة فيه لكثير من الناس إليه، **وقد يستوعب نقله طائفة من علمائنا ولسنا نحذو حذوهم ولا**

---

(١) ظاهرة التفسير العلمي للقرآن، د. خليل إبراهيم أبو ذياب صـ ١٣٢ ط دار عمار الأردن. مع التنبه إلى أن قوله: (امتلأت بها بعض) فيها شيء من المبالغة.



ننحو نحوهم ولا نذكر منها إلا القليل على سبيل الاختصار ونبين ما فيه حق مما وافق ما عندنا وما خالفه فوقع فيه الإنكار).(١)

ثم قال بعد ذلك: (فلسنا نترامى على ما بأيديهم -[أي أهل الكتاب]- مما قد وقع فيه خبط وخلط وكذب ووضع وتحريف وتبديل وبعد ذلك كله نسخ وتغيير).(٢)

ويقول ابن كثير في موطن آخر: (**ونحن نورد ما نورده من الذي يسوقه كثير من كبار الأئمة المتقدمين عنهم** [أي بني إسرائيل] **ثم نتبع ذلك من الأحاديث بما يشهد له بالصحة أو يكذبه ويبقى الباقي مما لا يصدق ولا يكذب وبه المستعان وعليه التكلان).**(٣)

فقد اتضح بهذا منهج ابن كثير أنه لا يذكر الإسرائيليات استشهاداً بها، وإنما لبيان بطلانها بما ثبت في الأدلة الشرعية، وما لم يثبت بطلانه ولا يتناقض مع الشريعة فإنه يذكره موجزاً لأن الأئمة ذكروه، ولأنه مما لا يصدق ولا يكذب.

وهذا الميزان الذي ذكره ابن كثير هو القاعدة في قبول الإسرائيليات في التفسير عامة، ولئن كان ابن كثير يتحفظ في روايتها أشد التحفظ ويذكر أنه لا يرويها إلا لبيان بطلانها، أو لأن الأئمة ذكروها في كتبهم، ويشجع على التحرز عنها والتنفير منها؛ ولم

---

(١) البداية والنهاية ١/ ٧ تحقيق د. عبد الله التركي ط دار هجر مصر، الأولى ١٤١٧هـ.

(٢) البداية والنهاية ١/ ٨.ط التركي. وانظر مثالاً آخر في منهج ابن كثير في الاستدلال بالإسرائيليات وموقفه منها عند الكلام على خلق الأرض والسماوات في البداية والنهاية ١/ ٣١ ط التركي.

(٣) البداية والنهاية ١/ ٣٤.

يكن في عصره العلوم المختلفة التي تساعد على فهم القرآن كما في زمننا، فالأولى بالباحث في التفسير العلمي للقرآن الاستغناء عنها كلياً؛ لما اتسم به عصرنا من التقنيات التي تغنينا عن الاستدلال بها نعتقد أنه باطل منحرف منها، ولا يعتبر طريقاً من طرق التفسير ولا أصلاً من أصوله!، وإنّ ما قام به الطبيب الفرنسي موريس بوكاي في المطابقة بين التوراة والإنجيل مع العلوم التجريبية[1]، من الأدلة العملية الدالة على خرافة ما في هذين الكتابين بسبب التحريف والتبديل، وهذا فيما اعتمدوه من الروايات، فكيف فيما هو منقول شفاهية أو من شروح رهبانهم وأحبارهم وما كتبته أيديهم ؟! والله أعلم.

وهذا مثال من كتب التفسير لتوضيح ما مر من استخدام بعض المفسرين للإسرائيليات في ما أسميناه اليوم بالتفسير العلمي للقرآن.

يقول القرطبي[2] في تفسير سورة طه: (قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ [طه:٦]، يريد ما تحت الصخرة التي لا يعلم ما

---

(١) هذا مع تحفظ الباحث على ما قام به من جعل العلم أصلاً يحاكم إليه القرآن العظيم، فهذا لا يليق بالمسلم المصدق بما أنزل الله، وأما الطبيب الفرنسي فهو معذور لما قام به في تحريه عن الحقيقة وحبذا لو قام العقلاء من بني جلدته بمثل فعله وخضعوا للحق. والله أعلم

(٢) محمد بن أحمد بن أبي بكر الأنصاري المالكي الإمام المفسر الفقيه المتبحر في العلوم له تصانيف كثيرة تدل على تبحره واطلاعه في العلوم له التفسير المشهور وغيره ت (٦٧١هـ) انظر: طبقات المفسرين للداودي ٢/ ٦٠.

تحتها إلا الله تعالى، وقال محمد بن كعب[1]: (يعني الأرض السابعة).

ابن عباس: (الأرض على نون والنون على البحر وأن طرفي النون رأسه وذنبه يلتقيان تحت العرش والبحر على صخرة خضراء خضرة السماء منها وهي التي قال الله تعالى فيها ﴿فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [لقمان: ١٦]؛ والصخرة على قرن ثور والثور على الثرى وما تحت الثرى إلا الله تعالى).

وقال وهب بن منبه[2]: (على وجه الأرض سبعة أبحر والأرضون سبع بين كل أرضين بحر فالبحر الأسفل مطبق على شفير جهنم ولولا عظمه وكثرة مائه وبرده لأحرقت جهنم كل من عليها، قال: وجهنم على متن الريح ومتن الريح على حجاب من الظلمة لا يعلم عظمته إلا الله تعالى وذلك الحجاب على الثرى وإلى الثرى انتهى علم الخلائق). انتهى كلام القرطبي رحمه الله.[3]

ويقول ابن كثير عند تفسير هذه الآيات من سورة طه: (قال محمد بن كعب: أي ما

(١) محمد بن كعب بن سليم القرظي ولد في حياة النبي ﷺ كبير القدر عالم ورع صالح ت سنة ١٢٠، وقيل غير ذلك. انظر: تقريب التهذيب صـ٥٠٤، سير أعلام النبلاء ٥/ ٦٥.

(٢) وهب بن منبه بن كامل بن سيج بن ذي كبار الإمام العلامة الأخباري القصصي أخذ عن الصحابة وروايته للمسند قليلة، وإنما غزارة علمه في الاسرائيليات، ومن صحائف أهل الكتاب وثقه أبو زرعة والنسائي ت ١١٠، أو ١١٤هـ) انظر: سير أعلام النبلاء ٤/ ٥٤٤، طبقات ابن سعد ٥/ ٥٤٣.

(٣) القرطبي ١١/ ١٦٩ ط دار الكتاب العربي القاهرة ١٣٨٧هـ، وانظر قول ابن عباس في: الدر المنثور ١٠/١٥٨، ١٥٩ تحقيق عبد الله التركي، ط مركز هجر للبحوث مصر، أولى ١٤٢٤هـ عند تفسير سورة لقمان الآية ١٦ وقال أخرجه ابن مردويه، وينبغي التنبيه أنه ورد نحو ذلك مرفوعاً وكذلك نحو حديث ابن وهب الذي بعده ولكن بأسانيد واهية لا تقوم عليها حجة.





تحت السماء السابعة، وقال الأوزاعي[1]: إن يحيى بن أبي كثير حدثه أن كعباً سئل، فقيل له:ما تحت هذه الأرض؟ فقال الماء. قيل وما تحت الماء؟ قال: الأرض. قيل وما تحت الأرض؟ قال الماء، قيل وما تحت الماء؟ قال: الأرض، قيل وما تحت الأرض؟ قال الماء، قيل:وما تحت الماء؟ قال: الأرض،قيل وما تحت الأرض؟ قال الماء، قيل:وما تحت الماء؟ قال: الأرض قيل وما تحت الأرض؟ قال الصخرة،قيل وما تحت الصخرة؟ قال ملك، قيل وما تحت الملك؟ قال: حوت معلق طرفاه بالعرش، قيل: وما تحت الحوت، قال الهواء والظلمة وانقطع العلم).[2]

ففي هذه الروايات السابقة الآتي:

إن السؤال حاصل من بعض السلف الصالح لمن عنده علم من الكتاب عن الأمور المغيبة عنهم من أسرار الكون؛ وكانوا يتلمسون معرفتها منهم، وكانوا يروونها لاعتقادهم أنها لا تؤثر على العقيدة ولا على الشريعة.

ومن النصين المنقولين من القرطبي وابن كثير نجد اختلاف الروايات الإسرائيلية في بيان الثرى وما تحته، وهذا يبين مدى التناقض الذي انطوت عليه الروايات الإسرائيلية،سواء قلنا أنها المروية شفاهاً أو هي المنقولة من كتبهم، والله أعلم.

---

(١) عبد الرحمن بن عمرو بن يحمد الاوزاعي الإمام المجتهد الحافظ الورع ذو الشأن العظيم له السنن والسير ت ١٥٧هـ. انظر: وفيات الأعيان ٣/ ١٢٧، الأعلام للزركلي ٢/ ٣٢٠.

(٢) تفسير ابن كثير صـ ٨٤١ طبعة مؤسسة الرسالة، تحقيق الشيخ: أنس مصطفى الخن.





المبحث الثالث:

موقف المفسر من النظريات العلمية.

*** مدخل في توضيح بعض المصطلحات:**

النظرية:

هي الظن الراجح الذي لم يقل فيه العلماء المختصون كلمتهم الأخيرة النهائية، وهي قابلة للتعديل والتبديل[1].

أو هي: (قضية محتاجة إلى برهان لإثبات صحتها).[2]

الفرضية:

هي الطرح الاحتمالي الذي لم يصل إلى مستوى الترجيح حتى تكون نظرية. فهي إما ظن مرجوح ليس له برهان أو دليل، أو ظن متردد بين احتمالين أو احتمالات متكافئة.[3]

بما أن اتجاه التفسير العلمي يعتمد في الأساس على العلوم المختلفة المستجدة، فينبغي إذن أن يكون الباحث في التفسير العلمي للقرآن على دراية بدرجة صحة المعلومة التي يتعامل معها من هذه العلوم، ونظراً لحساسية الموضوع فقد انقسمت الآراء حول درجة ثبوت المعلومة التي يراد توظيفها في تفسير القرآن إلى رأيين أساسيين:

---

(١) انظر: قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل للشيخ عبد الرحمن حبنكة يرحمه الله صـ ٢٣٢ ط دار القلم دمشق الثالثة ٢٠٠٤.

(٢) المنجد صـ٨١٧ مادة: نظر.

(٣) انظر: قواعد التدبر الأمثل صـ ٢٣٢.

- **أحدهما**: يرى أصحابه وجوب حصر استخدام المعلومات اليقينية والحقائق العلمية في تفسير القرآن، ولا يجوز عندهم قطعاً استخدام النظريات العلمية في تفسير القرآن الكريم، وهو الرأي الذي تبنته هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة[1]، والحجة التي اعتمد عليها أصحاب هذا الرأي هي أن تفسير القرآن بالنظريات:

- إنما هو تفسير بالرأي المحض وقصره على رأي بالذات افتراء للكذب على الله وفي ذلك خطورة كبيرة لأنها تخضع آيات القرآن للآراء الخاصة، وينبغي تحري الدقة والاحتياط في تفسير القرآن.

- تعرض القرآن للطعن والتكذيب إن جاء ما يثبت خطأ الرأي الأول الذي فسر به، لأن هذه النظريات العلمية لا تثبت على قرار بين جيل وجيل.

وإن كان ظاهر كلامهم يدل على تحريم عموم النظريات مهما كانت درجتها؛ ولكن للأمانة العلمية فإن بعضهم بَيَّن -من الناحية النظرية- درجة النظرية التي لا يجوز

---

(١) ذهب إلى هذا عبد الرزاق نوفل، انظر كتابه بين العلم والدين: صـ١٣٥ ط دار الشعب، ود. محسن عبد الحميد في دراسات في أصول تفسير القرآن صـ١٥٢، ود. أحمد عمر أبو حجر في التفسير العلمي للقرآن في الميزان صـ٤٩٠، ود. خليل دياب في كتابه ظاهرة التفسير العلمي صـ١٣٢، والشيخ محمد الأمين ولد الشيخ كما في: خلاصة بحث التفسير العلمي بين المجيزين والمانعين صـ١٠٦ من كتاب تأصيل الإعجاز العلمي، وعلقت الهيئة العالمية للإعجاز العلمي بأنه: شرط منضبط في استنباط لطائف الإعجاز العلمي عبر دراسات واعية ملتزمة. وممن ذهب هذا المذهب الشيخ عطية الصقر في جواب سؤال عن ضوابط التفسير العلمي على موقع islamonlin.net، وأ.د. نظمي خليل أبوالعطا في مقال له على الموقع: www.٥٥a.net . وأيضاً د. سليمان بن علي الشعيلي على موقع almajara.com



التفسير بها بأنها التي (ما زالت محل نظر وبحث وتمحيص ودراسة).[1]

- **الرأي الثاني**: ذهب إلى جواز استخدام النظرية العلمية في التفسير العلمي[2]، وكانت حجة هؤلاء:

- أن النظريات العلمية بمنهجيتها لا يلغي بعضها بعضاً، وإنما يدعم اللاحق منها السابق، حتى الحقائق العلمية يعتريها شيء من التطور حسب إمكانات العصر فيغير منها شيئاً.[3]

- أن وجوب استخدام الحقائق العلمية في التفسير العلمي للقرآن لا يتوافق مع عمل المفسر، وهو قيدٌ يلتزم به مقيِّدُه، ولا يُلزَم به المفسر، لأن التفسير أوسع من الإعجاز.[4]

ولكنهم لم يبينوا درجة النظرية المقبولة عندهم وإنما جعلوا القبول مطلقاً دون تفصيل، إلا واحداً منهم فقد حاول بيان درجة هذه النظريات فقال: (فلا نرى حرجاً من توظيف أفضل النظريات المتاحة)[5].

---

(١) انظر: الإسلام في عصر العلم لمحمد أحمد الغمراوي صـ ٢٦٤، ط دار السعادة ١٩٧٣، وبين العلم والدين عبد الرزاق نوفل صـ١٣٥ ط دار الشعب.

(٢) ذهب إلى هذا د. مساعد الطيار كما في: مقالات في علوم القرآن وأصول التفسير له صـ ٥٣، ط دار المحدث الرياض أولى ١٤٢٥، وعبد السلام اللوح انظر: التفسير العلمي بين القبول والرد عرض ودراسة بحث في مجلة جامعة الخليل المجلد الثاني العدد الأول لعام ٢٠٠٥ صـ١٢٧، ود. زغلول النجار. انظر: السماء في القرآن صـ٣١.

(٣) التفسير العلمي بين القبول والرد صـ ١٢٧ عبد السلام اللوح.

(٤) انظر: مقالات في علوم القرآن وأصول التفسير د. مساعد الطيار صـ ٥٣.

(٥) المفهوم العلمي للجبال في القرآن د. زغلول النجار صـ١٠، ط مكتبة الشروق مصر، الأولى ١٤٢٣.



وفي موطن آخر يذكر نفس الكلام ويزيد عليه، فيقول: (توظف كل المعارف المتاحة من الحقائق والثوابت العلمية، ولكن بما أن العلم لم يصل بعد إلى الحقيقة في كل أمر من الأمور ولا يزال أمامه من الغيوب أكثر الكثير فلا أرى حرجاً في مجال التفسير العلمي للقرآن الكريم من توظيف النظريات والفروض والمشاهدات وذلك لأن التفسير يبقى جهداً بشرياً لحسن فهم دلالة الآية القرآنية..)[1].. فترك الأمر مفتوحاً أمام كل نظرية بله وفرضية أيضاً مهما كانت درجتها ما دامت متاحة.

أقول: إن لم يصل العلم إلى قطع في كل أمر من الأمور؛ فهل يبرر هذا فتح الباب على مصراعيه لقبول كل ما يطرح في الساحة العلمية من فروض ونظريات وتصورات ومشاهدات ونستشهد بها في بيان القرآن الكريم؟، وهل أعيت العربية عن البيان وصار دورها متروكاً وحلت النظريات بأنواعها والفرضيات المتاحة محل العربية؟!، إن هذا الإطلاق خطير ويحتاج من صاحبه إلى تحرير والله أعلم.

وهذا إطلاق خطير يحتاج من صاحبه إلى تحرير، والله أعلم.

رأي الباحث في المسألة:

يرى الباحث أن في كلا الرأيين نظر، أما الذين أوجبوا استخدام الحقائق العلمية وحرموا توظيف النظريات، نجدهم لا يفرقون بين التفسير العلمي والإعجاز العلمي بل يتكلمون عنهما كأنهما شيء واحد.[2]

---

(١) السماء في القرآن الكريم د. زغلول النجار صـ٣١.

(٢) وذلك مثل الشيخ عطية الصقر عندما كتب عن ضوابط التفسير العلمي وعرض آراء المجيزين والمانعين لهذا التفسير ذكر رأيه الذي اعتمده فقال فيما قاله: (... إن ألفاظ القرآن دقيقة محكمة لأنها صنع الله الذي أتقن كل شيء وأن هناك لوناً من ألوان إعجازه هو الحديث عن بعض المسائل العلمية...) يقول هذا في معرض ذكره لرأيه في التفسير العلمي. انظر موقع:=



وهذا يدل على وجود اضطراب في رؤيتهم لمفهوم التفسير العلمي والفرق بين التفسير العلمي والإعجاز العلمي للقرآن، اللهم إلا إن كان عدم التفريق بينهما مذهباً لهم.

والحقيقة إن هذا الإيجاب لا يتلاءم مع عمل المفسر ولا ينسجم مع أصول التفسير عموماً كما قال من أجاز استخدام النظريات؛ ولعلهم أفتوا بذلك سداً للذريعة وكبحاً لجماح المغامرين في تفسير القرآن بكل ما استجد من نظرية أو غيرها، فعرضوا بذلك كتاب الله للنقد والتكذيب حسب رأيهم، وهم معذورون في ذلك، ولكن يمكن ضبط الأمر بغير ذلك، فمحل بحث التفسير في الدلالات، وهي ظنية قابلة للخطأ والصواب والترجيح، والتفسير العلمي لا يخرج عن هذا.

أما الذين أطلقوا العنان للمفسر أن يستخدم ما يتاح له من نظريات وفروض ومشاهدات في تفسير القرآن، فإنه يقال لهم مثل ما قالوه للذين أوجبوا استخدام الحقائق العلمية:

إن هذا لا يتلاءم مع عمل المفسر، ولا يتوافق مع أصول التفسير، فإن الواجب على المفسر أن يستدل في تفسير القرآن بأقوى القرائن المتاحة له، وإن لم توجد له قرينة صحيحة أو يغلب على الظن صحتها؛ فيرجع إلى الأصل اللغوي ويكتفي به عن الظن المرجوح والفرضيات المشكوكة التي لا برهان لها.

=islamonlin.net، وكذلك هيئة الإعجاز العلمي عندما علقت على كلام الشيخ الشنقيطي عند قوله: (إن التفسير العلمي للقرآن مرفوض إذا اعتمد على النظريات العلمية التي لم تثبت ولم تستقر ولم تصل إلى درجة الحقيقة العلمية..) وصفت الهيئة هذا الشرط بـ (المنضبط في استنباط لطائف الإعجاز العلمي عبر دراسة وافية ملتزمة..). تأصيل الإعجاز العلمي صـ١٠٦.



ويرى الباحث أن الحق بينهما، فقد تقدم الكلام في تعريف التفسير العلمي للقرآن جواز تفسير القرآن بالنظريات الصحيحة المتاحة[1]، وأردت بهذا القيد (الصحيحة المتاحة) أن أخرج النظريات التي هي دون الظن الراجح، كالنظريات الأولية التي بحاجة إلى متابعة مشاهدة وتجربة، حتى يغلب على الظن صحتها، وكالفرضيات التي ما زالت براهينها قلقة ومضطربة ولم يستقر لها برهان، أو مشكوك في صحتها، وأن أدخل في (الصحيحة) كل نظرية غلب على الظن العلمي ثبوتها وقبولها لتراكم التجارب وقوة المدرك لها، أو كان لها برهان معتبر عند المختصين، أو لها من الواقع ما يرجحها، ومع كل ذلك لا بد أن تحتملها دلالة الآية ونظم القرآن بإحدى مراتب الدلالة المعتبرة.

ويدخل في (الصحيحة): الحقائق العلمية الثابتة من باب أولى.

وقد رأيت الشيخ عبد الرحمن حبنكة يرحمه الله قد سبقني إلى مثل ذلك، ووضع تأصيلاً بديعاً لذلك سأنقله في ختام هذا المبحث.

أقول: إن عمل المفسرين المتقدمين يدل لما ذهبت إليه، فالصحابة فسروا بعض الآيات الكونية بما كان معروفاً لديهم ومشهوراً عندهم أنه صحيح ويحتمله النظم القرآني، بل كان من بيانهم ما يعتمد على الإسرائيليات، أو اجتهاداً منهم في تفسير الآية فقط، وقد اعتمد المفسرون في التفسير بعدهم على ما كان متاحاً لديهم من العلوم التي يعتقدون صحتها ولم تكن في زمنهم قطعية بالاتفاق، كالغزالي والرازي والآلوسي وغيرهم؛ بل كانت مما يغلب على الظن أنها صحيحة، وتبين خطأ بعضها في الوقت الحالي، ولم يَعب ذلك على تفسيرهم، ولم يكن تفسيرهم مدخلاً للطعن في كتاب الله

---

(١) انظر: صـ٦٣ من البحث.



تعالى، وإنما اعتبر تفسيرهم من التفسير المرفوض أو المرجوح حسب درجة مجانبته للصواب، وما كان عملهم هذا إلا اجتهاداً منهم رحمهم الله.[1]

(والواقع أن الفهم الإنساني للقرآن الكريم -فيما للرأي فيه مجال- يتطور تبعاً لتطور أسباب كسب المعرفة ومصادرها في كل عصر)[2]، (وهذا يستلزم اختلاف التفسير والفهم باختلاف التقدم العلمي وتطوره في كل عصر)[3]، مع بقاء المعنى الأصلي للكلمة.

ونحن عندما نبحث في التفاسير بحثاً مقارناً ونوازن بين أقوال المفسرين في تفسير آية، نقوم بترجيح رأي على رأي، وبتخطئة قول وتصويب آخر؛ وفقاً لأصول التفسير واللغة والقرائن العلمية، ولا نقول بإثم صاحب القول المخطئ أو المرجوح ولا يكون خطأ المفسر مدخلاً للطعن في كتاب الله تعالى، لأن التفسير اجتهاد بشري قابل للخطأ والصواب، والاستعانة في تفسير آية قرآنية بالنظريات الراجحة للتوسع في مدلول الآية التي تدل عليها، مع احتمال الآية لها هو من هذا القبيل.

وأنقل الآن المنهج الذي ينبغي اتباعه في هذا المجال كما عرضه الشيخ عبدالرحمن حبنكة رحمه الله مقتصراً على ما يهمنا، يقول:

---

(١) انظر مثالاً على ذلك صـ ٦٣٢ من البحث عند تفسير آية النحل ٦٩ كتفسير الأكل من كل الثمرات وتفسير البطون.

(٢) الإمام الطبري ومنهجه العلمي في التفسير، د. فتحي الدريني، مجلة التراث العربي صـ ١٥، العددان ١٤٠٤.١٤،١٣ هـ ١٩٨٤م.

(٣) المصدر السابق صـ ٩.



(١- إذا ثبتت حقيقة علمية بأدوات ووسائل البحث العلمي الإنساني ثبوتاً قطعياً، وقد تعرض لها القرآن ببيان ما، وجب فهم النص أو النصوص القرآنية بمقتضاها)[1].

أقول: هذا شرط في أبحاث الإعجاز العلمي خصوصاً، وهو داخل في التفسير العلمي من باب أولى، ولكن لا يعني هذا اقتصار معنى الآية على ذلك وعدم احتمالها لغير ذلك من المعاني، فإنه حجر في الدلالة والله أعلم، ثم يكمل الشيخ الحبنكة:

(٢- إذا قدم علماء البحث العلميّ بأدواتهم ووسائلهم الإنسانية نظرية من النظريات ذات رجحان ظني، وذات نفع في مجال التطبيقات العملية، ولم يقل العلماء حولها الكلمة الأخيرة القطعية بالأدلة والبراهين القطعية، وقد تعرض لها القرآن ببيان ما فالمنهج كما يلي:

إذا كان النص القرآني يحتمل التفسير ضمن ضوابط فهم النصوص العربية بما يتفق مع هذه النظرية؛ فلا مانع من جعل تفسيره بما يتفق معها أحد الاحتملات التي يمكن أن يفهم النص بمقتضاها، ولكن دون جزم ولا قطع، وتظل الاحتمالات الأخرى التي يحتملها النص مفتوحة ومطروحة، حتى يأتي اليقين العلمي الذي تقرره أدوات ووسائل البحث العلمي الإنسانية.

٣- إذا قدم علماء البحث العلمي أو بعضهم فرضية من الفرضيات حول موضوع من الموضوعات التي تعرض لها القرآن ببيان ما، فليس على متدبر النص القرآني أن ينظر إلى هذه الفرضية بأكثر مما ينظر إلى أي احتمال آخر يمكن أن يفهم النص بمقتضاه).

---

(١) قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عزوجل الشيخ عبد الرحمن حبنكة صـ٢٣٧، ٢٣٨.



أقول: وفي حال كانت النظرية .. التي لم ترق للفرضية بعد .. تدخل في دلالة الآيـة ؛ فالعبرة بدلالة الآية ولا ينظر لهذه النظرية ولا نعتبرها من القرائن المقبولة، لأن الدلالـة اللغوية أقوى من القرائن المشكوك فيها بل هي الأصل في الاعتبار والله أعلم.

أما إذا تعارضت فرضية علمية مع الدلالـة القرآنيـة تعارضـاً حقيقيـاً؛ فـإن العـبرة بالدلالة اللغوية ، ولذلك يقول الشيخ الحبنكة رحمه الله:

(٤- إذا كان النص القرآني لا يمكن حمله بمقتضى قواعد فهم النصوص العربية على معنى يناسب النظرية أو الفرضية، فليس من حق متدبر كلام الله تعالى أن يطوعه بهـواه ليقبل الدلالة على ذلك، أو يكرهه إكراهاً بتأويلات متعسفة.

٥- لا يجوز بحال من الأحوال جعـل النـصوص القرآنيـة ألعوبـة بأيـدي نـاصري النظريات أو الفرضيات التي يقول بها علماء البحث العلمي الإنساني). انتهى كلامه.

٦- وأضيف على ما سبق:

أن لا يستطرد المفسر في تفسيره العلمي في التفاصيل حول الأمور الكونية أو غيرهـا من العلوم التي يوظفها في تفسير الآية، حتى لا يشتت ذهن القارئ[1]، لأن بحثه إنما هو في تفسير القرآن، فينبغي أن يقتـصر مـن المعلومـات عـلى مـا يخـدم بحثـه في التفـسير، ويوضح دلالاته، وقد يحتاج بعض المفسرين إلى ذكر مقدمـة في العلـم الـذي يبحثـه في القرآن الكريم، أو في آية كالتمهيد أو المدخل لبحثه، فـلا بـأس بـذلك إن اقتـصر عـلى الضروري من المعلومات التي تعطي الفكرة العامة، ليحسن القارئ فهـم دلالـة الآيـة

---

(١) انظر: الإعجاز العلمي د عبد الحفيظ حداد صـ١٠٢، ودراسـات في تفـسير القـرآن وأصـوله د. محسن عبد الحميد صـ١٥٢.



على ذلك، وإن أراد بعض التوسع فليكن في التعليقات أو الملحقات التي ليست من أصل بحثه، والله أعلم.

٧- يجب على المفسر أن يعتني بمصادر معلوماته التي يستدل بها في التفسير العلمي للقرآن، فلا يكون حاطب ليل يجمع من مقالات صحفية أو من كتب غير مختصة، بل لا بد أن يوثقها من مصادرها الموثوقة كما بينت ذلك في شروط المفسر.

وبقي أن نقول:

إنه لا بد من وجود لجنة علمية متخصصة في كل علم من العلوم تبين درجة النظريات الموجودة في الساحة العلمية للمفسرين، وينبغي على أهل التخصص من كل العلوم أن يظهروا ما عندهم من علوم في سبيل تحقيق ذلك، ولا يبعد أن يكون هذا من الفروض الكفائية على الأمة، ذلك لأن التفسير العلمي للقرآن في عصرنا صار من ضروريات الدعوة إلى الله ومن وسائل قوة المسلمين عند مجادلة المنكرين، والله أعلم.

كما ينبغي على المفسر الحذر من خلفيات المدارس العلمية -خاصة منها الغربية- التي تصدر النظريات والدراسات العلمية، بأن لا تكون تابعة لجهة تجارية أو سياسية، تخدم مصالحها باسم الدراسات العلمية أو التطبيقية أو غير ذلك.


التفسير والإعجاز العلمي
في القرآن الكريم
ضوابط وتطبيقات

الباب الرابع

تطبيقات ضوابط التفسير العلمي للقرآن الكريم في تفسير سورة النحل

• الفصل الأول

التعريف بسورة النحل

• الفصل الثاني

تفسير سورة النحل



التعريف بسورة النحل

- المبحث الأول: اسم السورة ومكانِ نزولها وترتيب النزول
- المبحث الثاني: الناسخ والمنسوخ في سورة النحل
- المبحث الثالث: مقصد السورة وموضوعاتها ومحاورها العامة
- المبحث الرابع: فضائل سورة النحل



المبحث الأول:

اسم السورة ومكان وترتيب نزولها

• اسم السورة:

جرت عادة العرب في مراعاة تسمية الجملة من الكلام أو القصيدة الطويلة بأشهر ما فيها أو أغرب ما فيها، أو أخص ما فيها من صفة أو خلق أو تكرار؛ وعلى ذلك جرت أسماء سور القرآن الكريم، كتسمية سورة البقرة بهذا الاسم لقرينة ذكر البقرة المذكورة فيها وعجيب الحكمة المنطوية عليها، وكذلك يجري في غير سورة البقرة من المراعاة ما جرى في البقرة لمن راعي التسمية ما ذكرنا.[1]

ولهذا نجد أن بعض السور لها اسم واحد -وهذا كثير- ومنها له اسمان كما لسورة البقرة؛ فيقال لها أيضاً فسطاط القرآن لعظمها وبهائها، وقد يكون لها ثلاثة أسماء كالمائدة فتسمى أيضاً سورة العقود والمنقذة، وقد يكون لها أكثر من ثلاثة أسماء كالفاتحة، فقد ذكر بعضهم لها بضعة وعشرين اسماً.[2]

وتدخل سورة النحل في السور التي لها اسمان، إذ يقال لها أيضاً: سورة النِّعم، كما قاله قتادة[3]، (لما عدد الله فيها من النعم على عباده).[4]

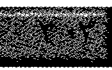
---

(١) انظر البرهان ١/ ٣٦٨، ٣٦٩.

(٢) انظر البرهان ١/ ٣٦٦.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم كما في الإتقان ١/ ٥٦.

(٤) قاله ابن الفرس كما في الإتقان ١/ ٥٦، انظر مثله: البرهان ١/ ٣٦٦، القرطبي ١٠/ ٤٤ الرازي ١٩/ ١٧٣، ابن عادل ٢/ ١.



ونقل أبو المظفر السمعاني[1] في تفسيره قولاً بصيغة التضعيف في اسمها فقال: (وقيل: سورة الآلاء)[2]، أقول: ولا خلاف بين الاسمين لأن الآلاء هي النعم. وهذه خصيصة أخرى من خصائص سورة النحل فإنها حوت من نعم الله الكثيرة إما تصريحاً أو تلويحاً.. وأما سورة النحل فقد سميت بذلك لاختصاص هذه السورة بذكر النحل عن غيرها من السور، ولبديع ما خلق الله فيها من العجائب والحكم، يقول الشيخ جمال القاسمي: (تسمية السورة بذلك تسمية بالأمر المهم ليُتفطن الغرض الذي يُرمي إليه كالجمعة بأهمية الاجتماع الأسبوعي وما ينجم عنه من مصالح الأمور العامة، والحديد لمنافعه العظيمة، والنحل والعنكبوت والنمل للتفطن لصغار الحيوانات الحكيمة الصنائع، وهكذا).[3]

● مكان النزول:

جمهور المفسرين على أن سورة النحل مكية ولم يقع الخلاف إلا في آيات منها في آخرها، اللهم إلا ما نقل عن جابر بن زيد[4] رضي الله عنه أنه قال -وهو يعدد السور

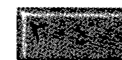
---

(١) منصور بن محمد بن عبد الجبار السمعاني التميمي أبو مظفر، إمام عصره بلا مدافعة، الفقيه المفسر مفتي خراسان شيخ الشافعية الزاهد الورع له التفسير ومنهاج السنة وغيرهما ت ٣٨٩هـ. انظر: طبقات المفسرين للداودي ٢/ ٣٣٩، سير أعلام النبلاء ١٩/ ١١٤.

(٢) تفسير القرآن لمنصور بن محمد أبو مظفر السمعاني (٤٨٩هـ) ٣/ ١٥٨، تحقيق أبو تميم ياسر بن إبراهيم، غنيم بن عباس غنيم ط دار الوطن الرياض أولى ١٤١٨ هـ.

(٣) محاسن التأويل محمد جمال الدين القاسمي ١٠/ ٧٦ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ط دار الفكر بيروت.

(٤) جابر بن زيد الأزدي اليحمدي البصري أبو الشعثاء الإمام التابعي صحب ابن عباس وروى عنه وعن ابن عمر وغيرهما ينسب الإباضية مذهبهم إليه وفي تهذيب الكمال ما يبرئه من ذلك=



التي نزلت بمكة مرتباً-: (ثم النحل أربعين، وبقيتها بالمدينة)[1]، أي أول أربعين آية منها في مكة وباقيها في المدينة، ولكن عقب السيوطي على هذا الأثر بقوله: (قلت: هذا سياق غريب وفي هذا الترتيب، وجابر بن زيد من علماء التابعين).[2]

وقد كان السيوطي أشار في موضع قبله في الإتقان: أن جابر بن زيد "يريد ما أخرجه أحمد عن عثمان بن أبي العاص[3] في نزول قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].[4]

ونص الحديث الذي أشار إليه السيوطي عن عثمان بن أبي العاص قال: كنت عند رسول الله كُنْتُ عِنْدَ رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَالِسًا إِذْ شَخَصَ بِبَصَرِهِ ثُمَّ صَوَّبَهُ

=ت٩٣هـ. انظر: تهذيب الكمال ٤/ ٤٣٤، سير أعلام النبلاء ٤/ ٤٨١، معجم المفسرين لنويهض ١/ ١٢٣.

(١) الإتقان ١/ ٢٥ النوع السابع معرفة أول ما أنزل ونقله السيوطي عن جزء أبي بكر محمد بن الحارث بن أبيض.

(٢) الإتقان ١/ ٢٦.

(٣) عثمان بن أبي العاص الثقفي الطائفي أبو عبد الله صحابي شهير استعمله النبي صلى الله عليه وسلم على الطائف ومات في خلافة معاوية بالبصرة انظر: التقريب لابن حجر صـ٤٨٣ رقم(٤٤٨٥) تحقيق محمد عوامة ط دار الرشيد سوريا الأولى ١٤٠٦هـ، الإصابة ٤/ ٤٥١ تحقيق محمد البجاوي ط دار الجيل أولى ١٤٢٢هـ.

(٤) الإتقان ١/ ١٦، في تحرير ما اختلف فيه من السور، ونقل السيوطي مثله عن قتادة وقال أخرجه أبو الشيخ.

حَتَّى كَادَ أَنْ يُلْزِقَهُ بِالْأَرْضِ قَالَ ثُمَّ شَخَصَ بِبَصَرِهِ فَقَالَ أَتَانِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَام فَأَمَرَنِي أَنْ أَضَعَ هَذِهِ الْآيَةَ بِهَذَا الْمَوْضِعِ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ الآية.[1]

أقول: وإن كان ظاهر الرواية يدل على مدنية الآية، ولكن ورد من الأحاديث ما يدل على أن نزولها كان بمكة أولاً، وأما رواية عثمان بن أبي العاص هنا إنما تدل على الأمر الإلهي بترتيب الآية في السورة؛ وليس فيه أن سبب نزول الآية في المدينة، ثم ليس من شرط المكي أن يكون نزوله وترتيبه في سورته بمكة، بل قد تنزل الآية بمكة ويؤمر بموضعها في المدينة وحديث عثمان هنا دليل على ذلك، ويؤكده أنا نجد آيات مكية في سور مدنية والعكس.

والذي يدل على نزول الآية في مكة حديث عثمان بن مظعون[2]، ونص الحديث عن عبد الله بن عباس قال: بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم بفناء بيته بمكة جالس إذ مر به عثمان بن مظعون، فتكشر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ألا تجلس؟)، قال: بلى.

---

(١) أخرجه أحمد وحسن إسناده الهيثمي والسيوطي انظر مجمع الزوائد ٧/ ٤٩، الإتقان ١/ ١٦.

(٢) عثمان بن مظعون بن حبيب الجمحي، أسلم بعد ثلاثة عشر رجلاً، وهاجر إلى الحبشة وإلى المدينة، شهد بدراً وتوفي في السنة الثانية للهجرة، ولما توفي إبراهيم ولد الرسول صلى الله عليه وسلم قال صلى الله عليه وسلم: إلحق بسلفنا الصالح عثمان بن مظعون، وهو أول من مات من المهاجرين في المدينة ودفن بالبقيع، انظر ترجمته: الإصابة ٦/ ٣٩٥ تحقيق طه محمد الزيني، ط مكتبة الكليات مصر ١٩٧٦ الأولى، وتعجيل المنفعة صـ١٨٨ ط مكتبة ابن تيمية ١٩٦٦.



قال: فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مستقبله، فبينما هو يحدثه إذ شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم ببصره إلى السماء، فنظر ساعة إلى السماء فأخذ يضع بصره حتى وضعه على يمينه في الأرض، فتحرف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن جليسه عثمان إلى حيث وضع بصره، وأخذ ينغض رأسه كأنه يستفقه ما يقال له، وابن مظعون ينظر، فلما قضى حاجته واستفقه ما يقال له؛ شخص بصر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السماء كما شخص أول مرة ،فأتبعه بصره حتى توارى في السماء فأقبل إلى عثمان بجلسته الأولى، قال: يا محمد فيم كنت أجالسك وآتيك ما رأيتك تفعل كفعلك الغداة!، قال: (وما رأيتني فعلت)؟، قال: رأيتك تشخص ببصرك إلى السماء ثم وضعته حيث وضعته على يمينك فتحرفت إليه وتركتني، فأخذت تنغض رأسك كأنك تستفقه شيئاً يقال لك. قال: (وفطنت لذاك؟)، قال عثمان نعم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أتاني رسول الله آنفا وأنت جالس)، قال:رسول الله ؟! ، قال: (نعم)، قال: فما قال لك؟، قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل:٩٠] قال عثمان: فذلك حين استقر الإيمان في قلبي وأحببت محمداً.

وهذا لفظ الإمام أحمد في المسند[1]، فهذا الحديث نص في وزمن ومكان نزول الآيـة، وأن نزولها كان سبباً في إسلام ابن مظعون وكان ذلك بمكة.

---

(١) والحديث أخرجه أحمد ١/ ٣١٨، والبخاري في الأدب المفرد رقم ٨٩٣، صـ ٢٦٣، ط دار الكتب العلمية تحقيق محمد عبد القادر عطا أولى ١٩٩٠، وابن أبي حاتم٧/ ٢٢٩٧ (١٢٦٣٣)=



ويقوي هذا أيضاً أن هذه الآية مما تلاه الرسول صلى الله عليه وسلم على الوفود عندما عرض نفسه الشريفة ﷺ عليهم في مواسم الحج في مكة، وهي من حديث ابن عباس عن علي بن أبي طالب[1] رضي الله عنه في قصة طويلة، وفيها أنهم دخلوا على وفد قوم بني شيبان بن ثعلبة؛ ودعاهم لنصرته وحماية الدعوة، ولما سألوه: (وإلام تدعوا أيضاً يا أخا قريش؟، فتلا رسول الله ﷺ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام:١٥١]، فقال مفروق: وإلام تدعوا أيضاً يا أخا قريش؟ فوالله ما هذا من كلام أهل الأرض، ولو كان من كلامهم لعرفناه، فتلا رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل:٩٠].

=و(١٢٦٣٤)، والطبراني وابن مردويه كما في الدر المنثور ٤/ ١٤٢، قال الهيثمي: (رواه أحمد والطبراني وشهرٌ: وثقه أحمد وجماعة وفيه ضعف لا يضر، وبقية رجاله ثقات) مجمع الزوائد ٧/ ٤٨ ط دار الكتاب العربي.

(١) علي بن أبي طالب بن عبد المطلب الهاشمي القرشي ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم وأمير المؤمنين وأول من أسلم من الصبيان وشهرته تغني عن التعريف به ومناقبه لا تحصى رضي الله عنه استشهد سنة ٤٠ هـ. انظر: الإصابة ٢/ ٥٠٧، الرياض المستطابة صـ ١٦٣.

فقال له مفروق: دعوت والله يا قرشي إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال..).[1]

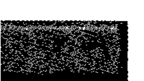
وورد أيضاً أن الرسول ﷺ قرأها على الوليد بن المغيرة عندما جاء يفاوضه لترك الدعوة إلى الإسلام، وكانت هذه الحادثة سبباً في نزول قوله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾[المدثر:١١][2]. فيتقرر بذلك أن الآية مكية وليست مدنية، ويحتمل أنها نزلت مرتين ولكن لا أميل إليه لما تقدم من أن رواية ابن أبي العاص في ترتيب الآية في السورة لا في نزولها.

---

(١) ذكر الحادثة أبو نعيم في دلائل النبوة١/ ٣٧١ (٢١٤)، والبيهقي في الدلائل ٢/ ٤٢٢، و ابن كثير في البداية والنهاية٣/ ١٤٢- ١٤٣- ١٤٤، وقال ابن كثير: ٣/ ١٤٢: (وأغرب من ذلك وأطول ما رواه أبو نعيم والحاكم والبيهقي -والسياق لأبي نعيم رحمهم الله- من حديث أبان بن عبد الله البجلي عن أبان بن تغلب عن عكرمة عن ابن عباس حدثني علي بن أبي طالب قال) وذكر السيرة بسياق طويل، وذكر ابن حجر صدر الحادثة فقال في الفتح٧/ ١٧٥ ط دار إحياء التراث: (وقد أخرج الحاكم وأبو نعيم، والبيهقي في الدلائل بإسناد حسن عن ابن عباس حدثني علي بن أبي طالب قال) فذكر حديثاً طويلاً.

(٢) انظر سبب نزول هذه الآيات عند الحاكم في المستدرك ٢/ ٥٦، وصححه ووافقه الذهبي، والبيهقي في الدلائل ٢/ ١٩٨، قال ابن كثير: (وقد رواه حماد بن زيد عن أيوب عن عكرمة مرسلاً وفيه أنه قرأ عليه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [سورة النحل:٩٠]). البداية والنهاية ٤/ ١٥٣وأخرج هذا الأثر كذلك البيهقي في الدلائل٢/ ١٩٩.







وهذه الآية عدها تسعون في السورة وهي مكية، والظاهر من أثر جابر أن الأربعين الأولى مكية، وكلام السيوطي يوحي بأن المراد من كلام جابر أن النحل مكية؛ والأربعون آية الأخيرة من (٩١) إلى (١٢٨) مدنية، ففي النفس من هذا الكلام شيء لما يتضمنه من اضطراب!.

ويظهر من كلام الزركشي أنه مشى على قول جابر فقال: (سورة النحل مكية إلى قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴾ [النحل: ٤١] والباقي مدني).[1]

ويدخل في هذا القول: قول يزيد بن السائب[2] رضي الله عنه: (وهي مكية إلا خمس آيات: ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ ﴾ الآية [النحل:٤١]، وقوله: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [النحل:١١٠]، وقوله: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴾ الآيات [النحل:١٢٦، إلى ١٢٨] إلى آخرها).[3]

---

(١) البرهان ١/ ٢٨٨.

(٢) يزيد بن سعيد بن ثمامة بن الأسود الكندي والد السائب بن يزيد صحابي واستعمله عمر على السوق ولم يذكر ابن عبد البر وابن حجر في الإصابة له تاريخ وفاة. انظر: الإصابة ٣/ ٦٥٦، ط: دار الفكر، الاستيعاب لابن عبد البر ٤/ ١٥٧٦، تحقيق علي البجاوي، ط: مكتبة النهضة، مصر.

(٣) زاد المسير ٤/ ٣١١.

وقول مقاتل[1]: (مكية إلا سبع آيات: قوله: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ﴾، الآية [النحل:١١٠]، وقوله: ﴿ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾ الآية [النحل:١٠٦]، وقوله: ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [النحل:٤١]، وقوله: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً ﴾ الآية [النحل:١١٢]، وقوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴾ الآيات [النحل: ١٢٦، إلى ١٢٨] إلى آخرها).[2]

وأما قتادة فاضطربت الروايات عنه، فروي عنه أنه قال: (هي مكية إلا خمس آيات: ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٩٥) مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٥، ٩٦]، ومن قوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ ...﴾ الآيات، [النحل: ١٢٦، إلى ١٢٨] إلى آخرها).[3]

---

(١) مقاتل بن سليمان بن كثير أبو الحسن الخراساني المفسر رمي بالتجسيم مع أنه كان من أوعية العلم له نظائر القرآن والتفسير الكبير ونوادر التفسير وغير ذلك ت(١٥٠هـ). انظر: طبقات المفسرين للداودي ٢/ ٣٣٠.

(٢) زاد المسير ٤/ ٣١١.

(٣) المصدر نفسه.





وروي عنه أنه قال: (سورة النحل من قوله: ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا ﴾ الآية [النحل :٤١] إلى آخرها مدني ،وما قبلها إلى [آخر] السورة مكي).[١]

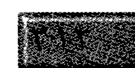
وروي عنه أنه عد آيات النحل من الآيات المدنية.[٢]

وبعد عرض هذه الأقوال والروايات نجد أن جميعها -إلا ما ذكر عن قتادة مع الاضطراب في بعض الروايات عنه-، تتفق في أنه من قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ ...﴾ الآيات، [النحل:١٢٦، إلى ١٢٨] إلى آخر السورة من الآيات المدنية، وما سوى هذه الآيات فهي مكية، ووقع الاختلاف في بعض الآيات في كونها مكية أو مدنية، وإنما مرجع هذا الاختلاف إلى الاجتهاد في تفسير الآية وما يدل عليه ظاهرها، فإنك تجد مثلاً من الآيات التي قيل عنها مدنية تتكلم عن الهجرة وثوابها والوفاء بالعهد لنصرة هذا الدين؛ وهي بمعنى ما تتكلم به الآيات المدنية، إلا أنه ليس لأحد منهم دليل على القطع بمدنية هذه الآيات، خاصة أن الروايات وردت عن التابعين فمن بعدهم، واحتمال كونها مكية قوي جداً، بل هو الأصل؛ لأن الهجرة إلى الحبشة كانت قريبة العهد بهذه الآيات، يقول ابن كثير رحمه الله في تفسير قوله تعالى:

---

(١) ذكره السيوطي في الإتقان ١/ ١٦، وذكر أن أبا الشيخ أخرجه، وما بين [ ] يحتاج لتحرير فقد راجعت في الإتقان المطبوع بعدة طبعات وجدتها هكذا، ولعلها [أول] بدل [آخر] ،ويؤيد هذا ما في الرازي، يقول الرازي في تفسيره قال: (وقال آخرون:من أولها إلى قوله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل:٤٠]، مدني وما سواه فمكي، وعن قتادة بالعكس)، الرازي ١٩/ ١٧٣.

(٢) أسند ذلك أبو بكر بن الأنباري كما نقل السيوطي في الإتقان ١/ ١٦ ، وذكر الرازي مثل هذا القول عن الأصم. الرازي ١٩/ ١٧٣.





﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ﴾ الآية [النحل:٤١]: (ويحتمل أن يكون سبب نزول هذه الآية الكريمة في مهاجرة الحبشة الذين اشتد أذى قومهم لهم بمكة حتى خرجوا من بين أظهرهم إلى بلاد الحبشة ليتمكنوا من عبادة ربهم..).[1]

ويقول ابن عاشور:

(المراد بالذين هاجروا: المهاجرون إلى الحبشة الذين أذن لهم النبي صلى الله عليه وسلم بالهجرة للتخلص من أذى المشركين، ولا يستقيم معنى الهجرة هنا إلا لهذه الهجرة إلى أرض الحبشة..).[2]

ويقول عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل:١١٥]:

(ومناسبة هذا التحديد في المحرمات أن بعض المسلمين كانوا بأرض غريبة وقد يؤكل فيها لحم الخنزير وما أهل لغير الله، وكان بعضهم ببلد يؤكل فيه الدم..)[3]، وهذه أوصاف تنطبق على مهاجري الحبشة الذين سكنوا أرض أهل كتاب، فكانت الآية إرشاداً وتشريعاً لهم ولأمثالهم، وهو مما يرجح مكيتها.

---

(١) ابن كثير صـ٧٣٩.

(٢) التحرير والتنوير ١٤/ ٢٩٩.

(٣) التحرير والتنوير ١٤/ ٣١٠.



ويؤيد هذا الترجيح ويقويه ما ورد عن قتادة في هذه الآية:

(هؤلاء أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، ظلمهم أهل مكة فأخرجوهم من ديارهم حتى لحق طوائف منهم بأرض الحبشة، ثم بوأهم الله المدينة بعد ذلك فجعلها لهم دار هجرة وجعل لهم أنصاراً من المؤمنين).[1]

وهذا الأثر عن قتادة يجعلنا ننظر إلى ما ورد من الآثار عنه في عد هذه الآية من المدنيات نظرة ريب، مع ما مر من الاضطراب الذي ورد فيها.

ويرجح الباحث أن سورة النحل مكية إلا قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ ...﴾ الآيات [النحل:١٢٦، إلى ١٢٨] إلى آخر السورة فهي مدنية وهو قول ابن عباس[2] والشعبي.[3]

---

(١) أخرجه عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم٧/ ٢٢٨٤ رقم (١٢٥١٨)، انظر: الدر المنثور ٤/ ١٣٢.

(٢) أخرجه النحاس في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٤٨٤ رقم ٦٣٩ ط، تحقيق د سليمان بن إبراهيم اللاحم، ط مؤسسة الرسالة أولى ١٤١٢هـ، وأذكر هنا قولاً غريباً لابن الحصار - نقله عنه السيوطي في التحبير -، إذ اعتبر أن النحل كلها مكية بما فيها الآيات الثلاث الأخيرة، وأن هذه الآيات الأخيرة مما تكرر نزولها في مكة والمدينة قال: (والصحيح عندي أنها كلها مكية وأن آخرها نزل ثانية في أحد والفتح تذكيراً من الله لعباده)، التحبير للسيوطي صـ ٢٤، إلا أن قوله في نزل الآية بمكة لا دليل عليه إلا إرادة الجمع بين الآثار الواردة عن التابعين في نزول الآيات.

(٣) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٣١١، وابن النديم في الفهرست ١/ ٣٨ ط دار المعرفة، وهو قول عطاء ابن يسار أيضاً انظر ابن كثير صـ٧٥٣، والطبري ١٤/ ١٩٥.



ورجحه القرطبي والبغوي[1] وابن عادل في تفسيره.[2]

وقد يعترض على ما رجحته بما ورد عن ابن عباس[3] وابن الزبير[4] في أن النحل كلها مكية! ولعل هذا ما اعتمد عليه ابن كثير في اعتبار سورة النحل مكية كلها، ولذلك أظهر استغرابه من حديث ابن عباس في سبب نزول الآية في استشهاد حمزة[5]، واستنكرها بحجة أن الآية مكية فقال: (قلت: هذه الآيات مكية، وقصة أحد بعد الهجرة بثلاث سنين فكيف يلتئم هذا مع هذا فالله أعلم)[6]، إضافة إلى تضعيفه للروايات الواردة في سبب نزول الآية كما هو ظاهر في تفسيره.[7]

---

(١) الحسين بن مسعود بن محمد القراء البغوي الشافعي محيي السنة الإمام العلامة المفسر المحدث الزاهد الورع صاحب التصانيف النافعة في الحديث والتفسير له التفسير وشرح السنة والتهذيب في الفقه ت ٥١٠ وقيل غير ذلك انظر: طبقات المفسرين للداودي ١/ ١٦٠، سير أعلام النبلاء ٩/ ٤٣٩.

(٢) انظر تفسير القرطبي ١٠/ ٤٤، البغوي ٣/ ٦١. اللباب ٢/ ١ من رسالتي الماجستير. وهذا قول ابن الضريس أيضاً في فضائل القرآن نقله عنه السيوطي في الإتقان ١/ ١١.

(٣) أخرجه ابن مردويه. انظر: الدر المنثور ٤/ ١٢٣.

(٤) أخرجه ابن مردويه انظر: الدر المنثور ٤/ ١٢٣، عبد الله بن الزبير بن العوام أبو خبيب الصحابي الجليل أول صبي ولد بالمدينة بعد الهجرة بويع بالخلافة لفترة استشهد سنة ٧٣هـ. انظر: غاية النهاية لابن الجزري ١/ ٤١٩، وفيات الأعيان ٣/ ٧١.

(٥) حمزة بن عبد المطلب الهاشمي الصحابي عم النبي صلى الله عليه وسلم أعز الله المسلمين بإسلامه لقبه الرسول صلى الله عليه وسلم: أسد الله، وهو سيد الشهداء، استشهد في أحد ومناقبه مشهورة. انظر: الاستيعاب ١/ ٢٧١، الإصابة ١/ ٣٥٣، سير أعلام النبلاء ١/ ١٧١.

(٦) البداية والنهاية ٥/ ٤٢٥ ط التركي.

(٧) انظر: تفسير ابن كثير صـ ٧٥٣ وسيأتي كلامه في الحاشية الآتية.



فأقول: لقد ورد عن ابن عباس ما يدل على مدنية الآيات الثلاث الأخيرة من سورة النحل وهو أن النبي ﷺ لما رأى حمزة وقد مثلوا به، قال: «والله لأمثلن بسبعين منهم مكانك»، فنزل جبريل عليه السلام بخواتيم سورة النحل، فكفَّر رسول الله ﷺ وأمسك عما أراد.[1]

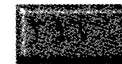
وهذا الأثر عن ابن عباس له ما يرجحه من الشواهد؛ إضافة لما تقدم من الروايات السابقة عن يزيد بن السائب ومقاتل.

ويمكن الجمع بين قول ابن عباس في مكية النحل وروايته بمدنية الآيات الثلاث الأخيرة بأن ما ورد عن ابن عباس في مكية النحل كلها كلام عام يحمل على التغليب، وقول ابن عباس في مدنية الآيات الثلاث الأخيرة كلام مخصوص، فينبغي حمل العام على الخاص عند التعارض، فيحمل عموم كلام ابن عباس في مكية النحل على ما ورد من تخصيص الآيات الثلاث في مدنيتها، وإلا فإن الباحث يرجح من أقوال ابن عباس ما أيده الدليل المرفوع؛ وهو حديثه الذي رواه في سبب نزول الآية في حمزة، مع شواهد الحديث من روايات أخرى، والله أعلم.

---

(١) أخرجه ابن النحاس في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٤٨٤ رقم ٦٣٩ ، من طريق معمر بن المثنى التيمي عن يونس بن حبيب عن أبي عمرو بن العلاء عن مجاهد عن ابن عباس بالسماع المتصل، وقد حكم السيوطي على هذا الأثر بأن إسناده (جيد ورجاله كلهم ثقات من علماء العربية المشهورين) الإتقان ١/ ١٠.

وله شاهد من حديث أبي هريرة أخرجه الحاكم في المستدرك ٣/ ١٧٩ وصححه، ولكن الذهبي وهاه فقال: (قلت: صالح واه سمعه منه خالد بن خداش).





وقد يشكل على هذا الترجيح حديثُ أبي بن كعب[1] قال: (لما كان يوم أحد قتل من الأنصار أربعة وستون رجلا ومن المهاجرين ستة، فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: لئن كان لنا يوم مثل هذا من المشركين لنربين عليهم، فلما كان يوم الفتح، قال رجل لا يعرف: لا قريش بعد اليوم.

فنادى منادي: رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أمّن الأسودَ والأبيضَ إلا فلاناً وفلاناً، ناساً سماهم، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ [النحل:١٢٦]، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (نصبر ولا نعاقب).[2]

---

(١) أبي بن كعب بن قيس الأنصاري الصحابي الجليل من أصحاب العقبة الثانية شهد المشاهد كلها وشهد له النبي صلى الله عليه وسلم بالعلم، وأمر الله نبيه أن يقرأ القرآن عليه، مات في عهد عثمان رضي الله عنهما. انظر: الإصابة ١/ ١٩.

(٢) أخرجه الترمذي في التفسير باب ومن سورة النحل رقم (٣١٢٩)، وقال: (هذا حديث حسن غريب من حديث أبي بن كعب)، والنسائي في الكبرى في التفسير، تفسير النحل ٦/ ٣٧٦ رقم (١١٢٧٩)، وأحمد في زوائد المسند لابنه عبد الله ٥/ ١٣٥ ط دار قرطبة مصر، وابن حبان في صحيحه باب العفو ٢/ ٢٣٩ (٤٨٧)، والحاكم وصححه٢/ ٣٩١ (٣٣٦٨)، و٢/ ٤٨٤ (٣٦٦٧) ط دار الكتب العلمية تحقيق عبد القادر عطا،وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل كما في الدر المنثور ٤/ ١٥٠ ، والمقدسي في الأحاديث المختارة وحسنه ٣/ ٣٥٠، ٣٥١.رقم (١١٤٣، ١١٤٤). تحقيق عبد الملك بن دهيش ط مكتبة النهضة الحديثة مكة المكرمة أولى ١٤١٠.

فهذا الحديث يبين أنها نزلت في فتح مكة، ولم يذكر فيه أنها نزلت بالمدينة بسبب أيمان النبي صلى الله عليه وسلم، فهذا قد يوهم الاضطراب مع رواية ابن عباس رضي الله عنهما السابقة.

أقول: رواية أبي بن كعب لا تنفي نزولها في أحد، فقد يقتصر الراوي على ذكر طرف من القصة ويترك الباقي لشهرته، وهذا ما يجعل النفس تميل لترجيح نزول الآية مرتين، وهو ما ذهب إليه السيوطي فقال: (وإنما يجمع بما تقدم عن ابن الحصار أنها نزلت أولاً بمكة [قبل الهجرة مع السورة] ثم ثانياً بأحد، ثم ثالثاً يوم الفتح تذكيراً من الله لعباده).[1]

إلا أن نزول الآية أولاً بمكة لم يثبت فيه أثر فيما بحثت، وإنما باب الاجتهاد في القول بمكيتها وارد لما تحمله الآية من معاني الآيات المكية التي تحض على العفو والصفح، ولعل قول ابن الحصار من هذا الباب؛ لأنه اعتبر أن النحل نزلت كلها في مكة أولاً، والله أعلم.

فبقي الأمر على نزولها مرتين: الأول في أحد، والثاني في الفتح تذكيراً من الله لعباده بالحكم السابق، وعلى كلا النزولين فالآية مدنية.

ولا أرى تعارضاً حقيقياً بين حديث أبي بن كعب وحديث ابن عباس يلجئنا للترجيح بينهما، فمفاد الحديثين أن الآية مدنية، وكل ما في الأمر أن حديث ابن عباس

---

(١) الإتقان ١/ ٣٤، والتحبير في علوم التفسير للسيوطي صـ٣١وما بين [ ] ليس في التحبير، وعلى هذا الجمع بين الحديثين في سبب النزول مشى الزرقاني في مناهل العرفان١/ ٨٦. وهذه الآية مما عدها العلماء دليلاً على تعدد سبب النزول وتكرار نزول الآية.

لم يذكر أن الآية نزلت أيضاً في فتح مكة، وحديث أبي لم يذكر أن الآية نزلت بسبب أيمان النبي صلى الله عليه وسلم في أحد، ولكنه أثبت ما حصل في أحد من القتل والتمثيل بحمزة رضي الله عنه، فيكون حديث ابن عباس وشواهده مفصلاً لما أجمل في حديث أبي بن كعب ومتمماً له، والله أعلم.

وعلى فرض وجود التعارض بين الحديثين الواردين فإن حديث ابن عباس ظاهر على حديث أبي؛ لما لحديث ابن عباس من الشواهد، والعمل على قوله عند جمهور المفسرين، وبذلك ينضم حديث أبي بن كعب إلى حديث ابن عباس في مدنية الآيات؛ ليتظاهرا على ما ورد عن ابن عباس وغيره في مكية الآيات الثلاث الأخيرة لنخلص إلى القول بمدنيتها، والله أعلم.

• ترتيب سورة النحل في النزول:

جعل الزركشي عد ترتيب نزول النحل سبعين، وأنها نزلت بعد الكهف ونزل بعد النحل سورة نوح[1]، وهو قول عكرمة والحسن البصري[2]، وفي قول ابن عباس أنها نزلت بعد سورة إبراهيم.[3]

---

(١) البرهان للزركشي ١/ ٢٨٠، ذكر ما نزل من القرآن بمكة ثم ترتيبه.

(٢) انظر: دلائل النبوة للبيهقي ٧/ ١٤٠، والإتقان للسيوطي ١/ ١٠.

(٣) ذكره السيوطي في الإتقان ١/ ٩ نقلاً عن أبي جعفر النحاس في الناسخ والمنسوخ بسنده من طريق مجاهد عن ابن عباس، وذكر ابن النديم في الفهرست بسنده من طريق الواقدي عن معمر عن للزهري عن محمد بن نعمان بن بشير في أول ما نزل على النبي صلى الله عليه وسلم من القرآن أن سووة النحل بعد الأنعام، وأن الكهف قبل الأنعام، ويأتي بعد سورة النحل سورة نوح.



أقول: وبالنظر في الروايات الواردة في ترتيب نزول السور يخرج الباحث بالقول:

إن مفاد هذه الروايات في ترتيب نزول السورة أنها نزلت في أواخر الفترة المكية بعد سورة الإسراء، وقبل هجرة النبي ﷺ إلى المدينة، أي: إن أغلب آياتها نزلت ما بين السنة الثامنة والسنة العاشرة، بعد معجزة الإسراء والمعراج[1]، إلا الآيات الثلاث الأخيرة فإنها نزلت في أحد في السنة الثانية للهجرة، وإلا بعض الآيات التي دلت الآثار على نزولها قبل الإسراء والمعراج في مكة؛ كما في الآية التي نزلت في إسلام عثمان مظعون السابقة، فإنها تدل على نزولها في بدايات الدعوة الإسلامية إذ أن عثمان بن مظعون من المتقدمين في الإسلام وترتيبه الثالث عشر ممن أسلموا، وكذلك نزول آية المهاجرين ممن هاجر إلى الحبشة كانت قبل الإسراء والمعراج، وكذلك نزول قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل:١٠٣]، فإنها نزلت قبل الإسراء كما يظهر من عمل ابن كثير في البداية والنهاية[2]، والله أعلم.

---

(١) ثم وجدت من ذهب إلى هذا الرأي أي أنها نزلت بعد معجزة الإسراء والمعراج، فقد ذكر الشيخ محمد بن رزق السلمي في كتابه (صحيح السيرة النبوية المسماة السيرة الذهبية) فبعد أن ذكر الإسراء والمعراج، أخذ يسرد ما نزل من السور بعدها، فذكر ٢/ ١٧٧ سورة النجم، ثم صـ ١٧٩ ذكر سورة النمل، ثم ذكر صـ ١٨١ نزول سورة النحل وسرد مواضيعها مجملة.

انظر: صحيح السيرة النبوية المسماة السيرة الذهبية تأليف الشيخ محمد بن رزق بن طرهوني السلمي، ط مكتبة العلم بجدة الأولى ١٤١٤هـ.

(٢) البداية والنهاية ٤/ ٢٥٧ ، والسيرة لابن هشام ١/ ٣٩٢ ، قال ابن إسحاق: (وكان رسول الله ﷺ كثيراً ما يجلس عند المروة إلى مبيعة غلام نصراني يقال له جبر، عبد لبني الحضرمي،=



= وكانوا يقولون: والله ما يعلم محمداً كثيراً مما يأتي به إلا جبر، فأنزل الله الآية)، وينظر في ما ورد في الآية من أسباب النزول في: ابن جرير ١٤/ ١٢٠، زاد المسير ٤/ ٣٦٠، القرطبي ١٠/ ١١٧، الكشاف ٢/ ٥٩٣، البغوي ٣/ ٨٥.

وأما ترتيب سورة النحل في مصاحف الصحابة :

ففي مصحف علي رضي الله عنه فرقمها (٣٣) وهي بعد سورة النساء.

وفي مصحف ابن عباس رضي الله عنه (٦٧) وهي بعد الكهف.

وفي مصحف ابن مسعود رضي الله عنه (٩) وهي بعد براءة.

وفي مصحف أبي بن كعب (١٦) وهي بعد الكهف.

انظر: تاريخ القرآن لإبراهيم الأبياري صـ ٨٧ وما بعد ط دار الكتاب المصري القاهرة ١٩٨٢.

وترتيب السورة في مصاحف الصحابة لا يدل بالضرورة على أنها رتبت حسب النزول، والاختلاف الواضح في ترتيبها بين مصاحف الصحابة يدل على أنهم رتبوها هكذا اجتهاداً منهم رضي الله عنهم، وإن وافق بعضهم ترتيب مصحفه ترتيب النزول فربما يقصد ذلك. والله أعلم، وقد علق فضيلة المشرف د. نور الدين حفظه الله هنا ما نصه: (وقد جاء ترتيب سيدنا عثمان على العرضة الأخيرة باطلاع الصحابة واتفاقهم، فحسم المسألة وأنهى الخلاف رضي الله عنه وانعقد عليه الإجماع) ا.هـ.





المبحث الثاني:

الناسخ والمنسوخ في سورة النحل.

● **النسخ في الاصطلاح هو:**

رفع الشارع حكماً منه متقدماً بحكم منه متأخر، وهذا العلم مهم لمفسر القرآن الكريم، وقد قال الأئمة: لا يجوز لأحد أن يفسر القرآن إلا بعد أن يعرف الناسخ والمنسوخ[1]، ولما كانت الدراسة حول سورة النحل؛ كان لابد من معرفة الناسخ والمنسوخ فيها، تطبيقاً لضوابط التفسير العلمي، وقد قسم العلماء النسخ أقساماً أهمها:[2]

أ- نسخ الحكم مع بقاء التلاوة.

ب- نسخ القرآن بالقرآن.

ج- نسخ التلاوة مع بقاء الحكم.

د- نسخ القرآن بالسنة.

هـ- نسخ السنة بالقرآن.

و- نسخ الحكم والتلاوة.

(١) انظر: ناسخ القرآن العزيز ومنسوخه لهبة الله بن عبد الرحيم البارزي صـ ١٩ تحقيق: د.حاتم صالح الضامن، ط مؤسسة الرسالة الثالثة ١٤٠٥ هـ.

(٢) انظر: الإتقان للسيوطي٤/ ١٤٤٠، تحقيق مركز الدراسات الإسلامية، ط: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف، السعودية ٢٠٠٧م، علوم القرآن د. عتر صـ ١٣١ ،١٣٢.





ويرى الزركشي أن سورة النحل من السور التي فيها المنسوخ وليس فيها الناسخ[1]، أما السيوطي -بعد أن حقق بأن المنسوخ في القرآن عشرون آية فقط- فلا يذكر من هذه الآيات العشرين آية واحدة من سورة النحل.[2]

وإن ما ذهب إليه السيوطي من نفي وجود المنسوخ في سورة النحل هو الصحيح والله أعلم، إذ كل الآيات التي قيل بنسخها في النحل إما تدخل في باب الاجتهاد في النسخ بحسب المعنى، أو أخذ النسخ فيها معنى التخصيص أو الاستثناء كما هو شائع في العصور المتقدمة الأولى.

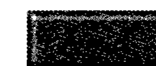
يقول ابن البارزي الحموي[3]: (اعلم أن المتقدمين كابن عباس رضي الله عنه وغيره كانوا يطلقون النسخ على التخصيص والاستثناء والأحوال المشكلة كالأمر بالقتال بعد الأمر بالصبر والصفح؛ لاشتراك الجميع في إزالة الحكم المتقدم، وأما المتأخرون فإنهم لا يسمون ذلك نسخاً، لأن النسخ عندهم رفع الحكم الثابت نصاً بنص آخر لولاه لكن الأول ثابتاً، وهذا الخلاف إنما هو في الاصطلاح، ولهذا جعل المتقدمون آية السيف ناسخة لمئة وأربع عشرة آية، وخالفهم المتأخرون في ذلك وقالوا لا ينسخ بآية القتال

---

(١) البرهان ٢/ ١٦٥.

(٢) انظر الإتقان ٢/ ٢٣ وذكر السيوطي أن له مؤلفاً في ذلك اختصر ما فيه في الإتقان.

(٣) هبة الله بن عبد الرحيم بن إبراهيم البارزي الحموي الشافعي أبو القاسم الإمام شيخ الإسلام القاضي الحافظ له بضع وتسعون مؤلفاً منها البستان في تفسير القرآن والناسخ والمنسوخ وبدائع القرآن وشرح الشاطبية. انظر: طبقات المفسرين للداودي ٢/ ٣٥٠، غاية النهاية لابن الجزري ٢/ ٣٥١.



إلا ما فيه نهي عن القتال، وليس في القتال ذلك، لأنه قبل الأمر بالقتال لم يكن قادراً عليه فلا يصح نهيه عنه).[1]

ويقول السيوطي: (وهو [أي المنسوخ] على الحقيقة قليل جداً وإن أكثر الناس من تعديد الآيات فيه؛ فإن المحققين منهم كالقاضي أبي بكر بن العربي بين ذلك وأتقنه، والذي أقوله: إن الذي أورده المكثرون أقسام، قسم ليس من النسخ في شيء، ولا من التخصيص ولا له بهما علاقة من الوجوه.. وإذا علمت ذلك فقد خرج من الآيات التي أوردها المكثرون الجم الغفير مع آيات الصفح والعفو إن قلنا أن آية السيف لم تنسخها، وبقي مما يصلح لذلك عدد يسير)[2].. ولذلك سأقتصر هنا على ذكر أشهر ما قيل بنسخه في سورة النحل، ومناقشته، وذكر الراجح، والله أعلم.

● **الآية الأولى:**

قوله تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [النحل:٦٧].

ذهب إلى نسخها: ابن مسعود[3] وابن عمر[4]، وابن عباس[5].

---

(١) ناسخ القرآن العزيز ومنسوخه ابن البارزي الحموي صـ٥٩.

(٢) الإتقان ٢/ ٢٢.

(٣) أخرجه الفريابي وابن أبي شيبة وابن المنذر، انظر: الدر المنثور ٤/ ١٣٦، ونقله ابن جرير ١٤/ ٩١، وابن الجوزي في نواسخ القرآن صـ ٣٨٣.

(٤) انظر: زاد المسير ٤/ ٣٣٨، البغوي٣/ ٧٥، القرطبي ١٠/ ٨٥، أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٢٧٢، ط دار الكتاب العربي د.ت.

(٥) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ٣٥٥ وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، وأخرجه النحاس ٢/ ٤٨٥، وابن الجوزي في نواسخ القرآن صـ٣٨٣.





وقال بنسخها ممن بعدهم: قتادة(1)، وسعيد بن جبير(2)، ومجاهد(3)، وعامر الشعبي(4)، وإبراهيم النخعي(5)، وأبو رزين(6).

---

(1) الناسخ والمنسوخ لقتادة صـ ٤٤ ط مؤسسة الرسالة، وأخرجه الطبري ١٤ / ٩١ ، والنحاس في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٤٨٦ وانظر أيضاً: صفوة الراسخ في علم المنسوخ والناسخ لمحمد بن أحمد الموصلي صـ ١١٤ تحقيق د. محمد بن صالح البراك ط دار ابن الجوزي أولى ١٤١٠، ونواسخ القرآن لابن الجوزي صـ٣٨٥ تحقيق محمد أشرف الملباري ط الجامعة الإسلامية المدينة المنورة، أولى ١٤٠٤.

(2) أخرجه ابن جرير١٤/ ٩١، وانظر: النحاس ٢/ ٤٨٦، ونواسخ القرآن لابن الجوزي صـ٣٨٥ ،صفوة الراسخ صـ١١٤. وناسخ القرآن للبازري صـ ٣٩.

(3) ابن جرير ١٤/ ٩١، النحاس ٢/ ٤٨٦، البغوي٣/ ٧٥، نواسخ القرآن لابن الجوزي صـ٣٨٥، صفوة الراسخ صـ ١١٤، الوسيط للواحدي ٣/ ٧١، تحقيق: عادل عبد الموجود، ط: دار الكتب العلمية، أولى ١٤١٥.

(4) ابن جرير ١٤/ ٩١ ،النحاس ٢/ ٤٨٦، البغوي ٣/ ٧٥، نواسخ القرآن لابن الجوزي صـ٣٨٥، صفوة الراسخ صـ ١١٤، الوسيط للواحدي ٣/ ٧١.

(5) المصادر في الحاشية السابقة نفسها، وإبراهيم بن يزيد بن قيس النخعي الكوفي أبو عمران المفسر المقرئ الإمام المشهور الزاهد العالم، ت (٩٦هـ) وقيل غير ذلك له القواعد السنية في قراءة حفص انظر: وفيات الأعيان ١/ ٢٥، غاية النهاية لابن الجزري ١/ ٢٩ معجم المفسرين لنويهض ١/ ٢٤.

(6) ابن جرير ١٤/ ٩١، النحاس ٢/ ٤٨٦ ، نواسخ القرآن لابن الجوزي صـ٣٨٤، الوسيط ٣/ ٧١. وذكر ابن الجوزي أن ممن يقول بهذا القول أيضاً : الحسن وابن أبي ليلى والزجاج وابن قتيبة، انظر: نواسخ القرآن صـ ٣٨٤.

وأبو رزين: مسعود بن مالك الأسدي الكوفي تابعي ثقة فاضل ت٨٥هـ. انظر: تقريب التهذيب ٢/ ١٧٦ط دار الكتب العلمية، تهذيب التهذيب لابن حجر ١٠/ ١٠٦.



وهؤلاء قالوا: إن الآية التي نسختها هي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة:٩٠].

وقد فسروا السكر في الآية بمعنى الخمر وما حرم من الثمرات، قال ابن عباس: (السكر: ما حرم من ثمراتها، والرزق الحسن: ما حل من ثمراتها)[١]، واحتجوا على ذلك بالمغايرة والمقابلة مع الرزق الحسن[٢]، واحتجوا على النسخ أيضاً بأنه لا يجوز أن يمن الله عليهم بمحرم[٣]، وأن هذه الآية نزلت قبل التحريم لأن الآية مكية والتحريم نزل بالمائدة وهي مدنية، قال قتادة: (نزلت هذه الآية: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا ..﴾ [النحل:٦٧] والخمر يومئذ حلال، ثم أنزل الله بعد تحريمها في سورة المائدة).[٤]

وذهب جماعة من المفسرين إلى عدم النسخ وعلى رأسهم ابن جرير الطبري[٥]، وأبوعبيدة[٦]، وأبو جعفر النحاس.[٧]

---

(١) النحاس ٢/ ٤٨٥.

(٢) انظر الرازي ٢٠/ ٥٥.

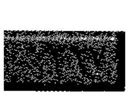
(٣) انظر صفوة الراسخ صـ١١٤.

(٤) أخرجه الطبري ١٤/ ٩١، النحاس ٢/ ٤٨٧.

(٥) ابن جرير ١٤/ ٩٣.

(٦) انظر النحاس ٢/ ٤٨٧.

(٧) الناسخ والمنسوخ ٢/ ٤٨٧.





وتبعهم على ذلك: ابن الجوزي(1)، وابن عطية(2)، والرازي(3).

وحجتهم في ذلك: أن الآية خبر من الأخبار، والأخبار لا تنسخ، وجعلوا معنى الآية على القول بأن تفسير السكر هو الخمر: أي: إنه تعالى خلق لكم هذه الثمار لتنتفعوا بها على وجه مباح، فاتخذتم أنتم منها ما هو محرم عليكم.

إذن فليس في الآية ما يقتضي إباحة السكر، إنما هي معاتبة وتوبيخ.(4)

وقالوا أيضاً:

الآية إخبار عما كانوا يفعلون على اعتبار أنها منفعة في حقهم باعتقادهم في ذلك الوقت قبل التحريم.(5)

ثم إن تفسير السكر بالخمر هو أحد المعاني وليس الوحيد له، وهذا المعنى ليس متفقاً عليه؛ بل ليس هو الراجح في رأي بعضهم، فإن جماعة من أهل العلم والنظر قالوا

---

(1) نواسخ القرآن صـ ٣٨٥..وابن الجوزي: عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي الحنبلي أبو الفرج الإمام المفسر المقرئ اللغوي صاحب التصانيف الكثيرة فما من علم إلا وله فيه مؤلف ت٥٩٧هـ انظر:طبقات المفسرين للداودي ٢/ ٢٧٥، شذرات الذهب ٦/ ٥٣٧.

(2) المحرر ١٠/ ٢٠٦. عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن عطية المحاربي الإمام الفقيه الحافظ اللغوي الأديب شيخ المفسرين في وقته صاحب المحرر في تفسير القرآن ت٥٤٢هـ انظر: طبقات المفسرين للسيوطي صـ٥٠، بغية الوعاة ٢/ ٧٣،طبقات المفسرين للداودي ١/ ٢٦٥، معجم المفسرين ١/ ٢٥٧.

(3) الرازي ٢٠/ ٥٥.

(4) انظر: نواسخ القرآن صـ ٣٨٥.

(5) انظر: النحاس ٢/ ٤٨٦، والرازي ٢٠/ ٥٥.



غير ذلك، فأبو عبيدة يذهب إلى أن معنى السكر: هو الطعم،وهو الذي رجحه ابن جرير[1]، وقيل غير ذلك.[2]

يقول ابن جرير الطبري رحمه الله: (وكان غير جائز لنا أن نقول هو منسوخ....إذ لم يكن في نفس التنزيل دليل على أنه منسوخ أو ورد بأنه منسوخ خبر عن الرسول صلى الله عليه وسلم، ولا أجمعت عليه الأمة، فوجب القول بما قلنا من أن معنى السكر في هذا الموضع هو كل ما حل شربه مما يتخذ من ثمر النخيل والكرم).[3]

إذن فابن جرير يذهب بدلالة السكر في الآية نحو العموم في المعنى مما يدخل تحت المطعوم سواء كان خلاً، أو ما يسد الجوع من رطب وغيره من ثمار النخيل والأعناب، وهو الأنسب في حق السياق.

بل يمكن القول: إن الخمر بذلك هو أحد أفراد العموم الذي دلت عليه الآية بإشارة النص، ويمكننا أن نعتبر الآية المحرمة للخمر في سورة المائدة تحريم لبعض عموم دلالة السكر في هذه الآية إذا قلنا بدخول الخمر في دلالتها، وبذلك تكون الآية مخصَّصة بآية المائدة، وهو أحد معاني النسخ المستخدم عند السلف قبل استقرار مصطلح النسخ عند المتأخرين، والله أعلم.



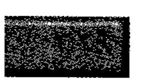
---

(١) انظر: مجاز القرآن لمعمر بن المثنى ١/ ٣٦٣، تحقيق: فؤاد سيزكين، ط: مكتبة الخانجي ١٩٧٠، ابن جرير ١٤/ ٩٣، والنحاس ٢/ ٤٨٧، ونواسخ القرآن صـ٣٨٦.

(٢) فقد ورد أن السكر هو: الخل بلغة الحبشة عن ابن عباس أخرجه ابن جرير ١٤/ ٩٢، وابن الجوزي في نواسخ القرآن صـ ٣٨٥، وورد عن الضحاك أيضاً كما في نواسخ ابن الجوزي صـ٣٨٥.



(٣) ابن جرير ١٤/ ٩٣.





وبذلك يرى الباحث أن الآية محكمة وليست منسوخة، والله أعلم.

آيات الصفح والعفو في سورة النحل:

منها قوله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل:١٢٥].

ذكر عدد من المفسرين أنها منسوخة بآية السيف[١]، وهي قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ .. ﴾ الآية [التوبة:٥].

ولكن القول بنسخها ليس أمراً متفقاً عليه؛ فقد ذكر النحاس في كتابه الناسخ والمنسوخ الاختلاف في ذلك فقال: (من قال هو منسوخ قال: نسخه الأمر بالقتال في سورة براءة، ومن قال ليس بمنسوخ قال: المجادلة بالتي هي أحسن هي الانتهاء إلى أمر الله تعالى به، وهذا لا ينسخ).[٢]

ولذلك لا نرى ابن جرير يشير إلى القول بنسخها ولا يذكره[٣]، وكذلك عمل ابن كثير[٤]، بل قد نص أكثر المفسرين على إحكامها وبُعد القول بنسخها، يقول

---

(١) انظر: معاني القرآن للنحاس ٤/ ٣٧٠ تحقيق الشيخ محمد علي الصابوني، ط جامعة أم القرى مكة. و:بصائر ذوي التمييز ١/ ٢٨٠ ، وناسخ القرآن للبازري صـ٣٨.

(٢) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٤٨٧.

(٣) انظر: تفسير الآية في ابن جرير١٤/ ١٣١.

(٤) انظر: تفسير الآية في ابن كثير صـ٧٥٣.



ابن الجوزي: (وقد ذهب كثير من المفسرين إلى أن هذه الآية منسوخة بآية السيف، وفيه بعد؛لأن المجادلة لا تنافي القتال، ولم يقل له: اقتصر على جدالهم، فيكون المعنى جادلهم فإن أبو فالسيف، فلا يتوجه النسخ).[1]

وفي صفوة الراسخ: (والصحيح إحكامها لأنه لم يقل: أغلظ عليهم في الجدال، حتى يعد نسخاً، ولكن أمره في غير هذه الآية بقتالهم، وقال لهم في هذه الآية: إن دعوك إلى مجادلتهم فلا تغلظ لهم القول؛ لأن ذلك ينفرهم عن سماع الحجج والبراهين. فلا تنافي).[2]

وبآية السيف قيل أيضاً بنسخ قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ [النحل:١٢٦]، فقد ورد عن ابن عباس أنها نزلت مع الآية التي قبلها[3]، ولذلك أدرجها البعض في المنسوخ بآية القتال، وهو قول ابن عباس أيضاً[4]، والضحاك.[5]

---

(١) نواسخ القرآن صـ٣٨٧.

(٢) صفوة الراسخ صـ ١١٥. وآية الغلظة هي قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة:١٢٣].

(٣) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير٤/ ٣٧٠.

(٤) أخرجه ابن جرير ١٤/ ١٣١، وابن مردويه كما في الدر المنثور ٤/ ١٥٠، وابن الجوزي في نواسخ القرآن صـ٣٨٨.

(٥) ذكره النحاس في معاني القرآن ٤/ ١١٢ وابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٣٧١.





ورجحه أبو جعفر النحاس في معاني القرآن[1]، واحتجوا أن هـذه الآيـة نزلـت قبـل سورة براءة.

لكن بعض القائلين بنسخ الآية يذهب إلى أن الناسخ هو قوله تعـالى: ﴿ وَٱصۡبِرۡ ﴾ [النحل:١٢٧]، في الآية التي بعـدها، وروي ذلـك عـن عـامر وعطـاء وقتـادة[2]، ثـم نسخت آية الصبر: ﴿ وَٱصۡبِرۡ ﴾ [النحل:١٢٧] بآية القتال، وسيأتي[3] الكلام في ذلك.

إلا أننا نجد من الآثار عن السلف ما يدل على أن الآية غير منسوخة، وقالوا: لم يعن بالآيتين شيء مما ذكـر هـؤلاء ـ أي: القـائلون بالنـسخ ـ وإنـما عنـي بهـا: إن مـن ظلـم بظلامة فلا يحل له أن ينال ممن ظلمه أكثر مما نال الظالم منه.[4]

وإليه ذهب: ابن سيرين[5]، وإبراهيم النخعي وسفيان الثوري ومجاهد.[6]

---

(١) معاني القرآن ٤/ ١١٣، واعتبر أبو جعفر النحـاس أن الآيـة مكيـة، ورد عـلى مـن يحـتج عليـه بحديث أبي هريرة وابن عباس في نزول الآية في أحد أن الحديثين إسنادهما ضـعيف. وقـد تقـدم الكلام في ذلك.

(٢) أخرج آثارهم ابن جرير ١٤/ ١٣١. انظر القرطبي ١٠/ ١٣٢.

(٣) عطاء بن أبي رباح أبو محمد، الإمام التابعي المحدث المفسر الفقيـه، تتلمـذ عـلى ابـن عبـاس في التفسير، وله التفسير، (ت:١١٤هـ). انظر: تهذيب التهذيب٧/ ١٩٩، معجم المفسرين لنويهض ١/ ٣٤٥.

(٤) ابن جرير ١٤/ ١٣٢.

(٥) أخرجه ابن جرير ١٤/ ١٣٢.

(٦) أخرج آثار النخعي وسفيان ومجاهـد ابـن جريـر ١٤/ ١٣٣، وزاد ابـن الجـوزي في زاد المسير ٤/ ٣٧١: الشعبي، وفي ذلك نظر؛ لثبوت النقل عن الشعبي بنسخها كما سبق.



وإلى القول بعدم نسخها وأنها محكمة ذهب ابن جرير (لعدم الدلالة على نسخها، وأن للقول بأنها محكمة وجهاً صحيحاً مفهوماً)[1]، وتبعه في ذلك ابن الجوزي، فيقول بعد أن ذكر القول بأن الآية محكمة: (وهذا أصح من القول الأول).[2]

وعليه فيكون المعنى عنده : (ولئن صبرتم عن المثلة لا عن القتال)[3]، وأشار القرطبي إلى تضعيف القول بنسخها، فقال: (وقد قيل أن هذه الآية منسوخة، نسختها:﴿ وَٱصۡبِرۡ ﴾ [النحل:١٢٧]).[4]

واستُصحب القولُ بالنسخ بآية السيف أيضاً إلى قول الله تعالى: ﴿ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ﴾ [النحل: ١٢٧] كما تقدم الإشارة إليه.

واشتهر القول بذلك عن ابن زيد، قال: (أمرهم الله أن يعفوا عن المشركين فأسلم رجال لهم منعة، فقالوا : يا رسول الله، لو أذن الله لنا لانتصرنا من هؤلاء الكلاب، فنزل القرآن: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴾ [النحل:١٢٦].

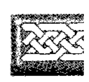
---

(١) ابن جرير ١٤/ ١٣٣.

(٢) النواسخ صـ ٣٨٩.

(٣) زاد المسير ٤/ ٣٧١.

(٤) القرطبي ١٠ / ١٣٢.



واصبر أنت يا محمد ولا تكن في ضيق ممن انتصر، وما صبرك إلا بالله، ثم نسخ هذا وأمره بجهادهم فهذا كله منسوخ).[1]

ولا يخفى أن هذه الآية متعلقة بالتي قبلها وأن حكمها حكمها كما يقول ابن الجوزي[2]، وقد مر من الكلام ما يدفع القول بنسخ هذه الآيات لعدم وجود خبر منقول يثبت النسخ، وأن للقول بإحكامها وجهاً صحيحاً مفهوماً لا يتعارض مع آيات القتال، ولا تعارض بينها ألبتة، وكل ما في الأمر أن الكفار ينقسمون إلى:

مسالمين: وهؤلاء ندعوهم بالحكمة والموعظة الحسنة، ونجادلهم بالتي هي أحسن.

ومحاربين معلنين عداوتهم للدولة الإسلامية وللمسلمين: وهؤلاء نقاتلهم ونريهم من أنفسنا غلظة وشدة في القتال، ويؤيد هذا المعنى: أن هذه الآيات الثلاث ثبت أنها نزلت في المدينة في أحد وكان الجهاد قد شرع، وكانت أحكام الجهاد في المعارك تنزل على المسلمين، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يفسرها بأعماله وتقريراته ﷺ، وللمعارك أحوال يمر بها المسلمون والأحكام معللة بالإطار العام لهذه الأحوال، فعندما يمثل المشركون بالمسلمين فإننا نصبر على المثلة؛ لأنه لا يجوز أن نمثل بأعدائنا

---

(١) أخرجه ابن جرير ١٤/ ١٣٢ ،وهذا لفظه وقد ساق ابن جرير كلام ابن زيد في قول من قال بأن الأمر بالصبر خاص بالنبي ﷺ ثم نسخ، وأخرجه ابن أبي حاتم بلفظ: (كانوا قد أمروا بالصفح عن المشركين فأسلم رجال ذوو منعة، فقالوا:يا رسول الله لو أذن الله لنا لانتصرنا من هؤلاء الكلاب، فنزلت الآية ثم نسخ ذلك بالجهاد)، ولم يذكر فيه الخصوصية بالصبر في النبي ﷺ. انظر: الدر المنثور ٤/ ١٥١، وانظر: القرطبي ١٠/ ١٣٣.

(٢) النواسخ صـ ٣٨٩.

لنهي النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا الصبر لا يعني ترك قتالهم، ولا يعني عدم الغلظة والشدة في قتالهم، يقول السيوطي: (ما أمر به لسبب ثم يزول السبب، كالأمر حين الضعف والقلة بالصبر والصفح، ثم نسخ بإيجاب القتال، وهذا في الحقيقة ليس نسخاً، بل هو من قسم المنسَّأ، فالمنسَّأ: هو الأمر بالقتال إلى أن يقوى المسلمون، وفي حال الضعف يكون الحكم وجوب الصبر على الأذى...، بمعنى: إن كل أمر ورد يجب امتثاله في وقت ما لعلَّة تقتضي ذلك الحكم، بل ينتقل بانتقال تلك العلة إلى حكم آخر وليس ينسخ، إنما النسخ الإزالة للحكم حتى لا يجوز امتثاله).[1]

ولم يقل أحد بعدم جواز العمل بآيات الصبر والنصح، ولم يتركه المسلمون في معاركهم ودعوتهم إلى الله، وإنما الأمر أنه: يدور الحكم مع علته أينما دار بحسب المكان والأشخاص والزمان وأحوال المسلمين، والله أعلم.

ويقال بمثل هذا في الآيات التي قيل بنسخها في سورة النحل، كقوله تعالى: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النحل:٨٢] فقد قال كثير من المفسرين بأنها منسوخة بآية السيف في سورة التوبة[2]، وهو غير مسلم لهم.

---

(١) الإتقان ٢/ ٢١. وينظر الرازي ٢٠/ ١١٥ فقد رد نسخ الآية أيضاً.

(٢) انظر الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٤٨٧، نواسخ القرآن لابن الجوزي ٣٨٦، والزيادة والإحسان في علوم القرآن لمحمد بن أحمد بن عقيلة المكي ت ١١٥٠ تحقيق إبراهيم بن محمد المحمود رسالة ماجستير مطبوعة على الآلة الكاتبة ٤/ ١١٥٢، مقدمة لجامعة الإمام محمد بن سعود الرياض ١٤١٠. وقد طبع الكتاب مؤخراً في عشرة أجزاء في جامعة الشارقة لنفس المحقق عام ١٤٢٧ هـ ولكني لم أستطع الوصول إليه.



وأنبه أخيراً أن الاستثناء لا يدخل في معنى النسخ الاصطلاحي، وبذلك يخرج قوله تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾ [النحل:١٠٦] من الآيات التي قيل بنسخها في سورة النحل.[١]

(١) فقد ذهب إلى نسخها صاحب الزيادة والإحسان في علوم القرآن ٤/ ١١٥٢.





المبحث الثالث:

مقصد السورة وموضوعاتها و محاورها العامة.

تمهيد في توضيح بعض المصطلحات لدى الباحث:

١- أعني **بمقصد السورة**: القضية الكلية الكبرى، التي تدور حولها المحاور العامة للسورة، ولكل سورة مقصد بارز فيها وقد يعبر عنه بالمقصد الأول عندما تتعدد مقاصد السورة.

٢- **ومحاور السورة**: هي العنوان العريض الجامع للمواضيع الفرعية التي تناقشها السورة، بمعنى أنه قد تتفق عدة مواضيع ناقشتها السورة في عنوان تدخل فيه، فمثلاً نقول: من محاور السورة: بيان قدرة الله تعالى، ويدخل في هذا المحور: موضوع بيان خلق الأرض والسماء وخلق الإنسان... الخ.

وقد تشترك بعض هذه المواضيع في عناوين أخرى من محاور السورة، وبذلك يكون للسورة عدة محاور حسب اجتهاد الباحث، ولكن كلها تصب في المقصد العام للسورة.

٣- **ومواضيع السورة**: هي المسائل المتنوعة التي تتناولها السورة في آياتها سواء كانت تلك المسائل كونية أو تشريعية أو غيرهما، وقد يكون في الآية الواحدة عدة مواضيع، وقد تجتمع عدة آيات في موضوع واحد، وهذا التفصيل والإجمال يعود للمفسر في توسعة مواضيع السورة أو إجمالها.

إن مجموعة المواضيع التي تتعرض لها السورة تلتقي في محاور، وهذه المحاور تصب في المقصد الأول للسورة، [انظر الشكل التمثيلي لتوضيح لهذا الترتيب في الصفحة التالية].

وهذا المعنى يعبَّر عنه بالوحدة الموضوعية للسورة[1]، والله أعلم.

مقصد السورة: تقرير أصول العقيدة الإسلامية

المحور الأول: بيان قدرة الله تعالى ووحدانيته وصفاته	المحور الثاني: بيان سبيل الدعوة إلى الله تعالى	المحور الثالث: الحث على العلم والبحث العلمي	المحور الرابع: شكر الله تعالى على نعمه
مواضيع متعددة في السورة تندرج تحت هذا المحور	مواضيع متعددة في السورة تندرج تحت هذا المحور	مواضيع متعددة في السورة تندرج تحت هذا المحور	مواضيع متعددة في السورة تندرج تحت هذا المحور
الآيات التي تعرضت لمواضيع المحور	الآيات التي تعرضت لمواضيع المحور	الآيات التي تعرضت لمواضيع المحور	الآيات التي تعرضت لمواضيع المحور

(١) ويمكن التعبير عن الوحدة الموضوعية في السورة: هي أن لكل سورة قضايا خاصة وسمات بارزة فيها عرضت لها السورة، ولكن فيها معاني تربط بينها لتصب في المقصد العام الذي تهدف إليه من التعرض لهذه القضايا، والله أعلم.

ينظر: الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم د. محمود حجازي صـ ٣٣ ط: المدني ١٩٧٠، وهي في الأصل رسالة دكتوراه، ودراسات في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم صـ ١١١، د. زاهر بن عوض الألمعي ط مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، أولى ١٤٠٥هـ.



• مواضيع سورة النحل:

نظراً لكثرة ما اشتملت عليه السورة من المواضيع؛ فسأكتفي بنقل كلام الفيروزآبادي[1] في بيان مشتملات السورة لأني رأيت أنه جمع معظم مواضيعها إن لم نقل كلها، فيقول رحمه الله: (معظم ما اشتملت عليه السّورة: تخويف العباد بمجئ القيامة، وإقامة حُجّة الوحدانية، وذكر ما في الأَنعام من المنافع والنِّعم، وما في المراكب من التَّجمّل والزينة، وذكر المُسِيم والنبات والشجر، وتسخير الشمس والقمر، وتثبيت الأَرض والجبال والحَجَر، وهداية الكواكب في السّفر والحضر، والنِعم الزَّائدة عن العد والإِحصاء، والإنكار على أَهل الإِنكار، وجزاءُ مَكْر المُكَّار، ولعنة الملائكة على الأَشرار عند الاحتضار، وسلامهم في ذلك الوقت على الأَبرار والأَخيار، وبيان أَحوال الأَنبياءِ والمرسلين مع الأُمم الماضين، وذكر الهجرة والمهاجرين، وذكر التَّوحيد، وتعريف المنعِم، ونعَمه السّابغات، ومذَمّة المشركين بوأْد البنات، وبيان الأَسماءِ والصّفات، والمنَّة على الخلائق بإِنزال الرّحمات، وعدّها من الإِنعام في باب الأَنعام والحيوانات، وبيان فوائد النَّحْل، وذكر ما اشتمل عليه من عجيب الحالات، وتفضيل الخَلْق في باب الأَرزاق والأَقوات، وبيان حال المؤمن والكافر، وتسخير الطيور في الجوّ صافّات، والمِنَّة بالمساكن والصّحارى والبرِّيَّات، وشكاية المتكبّرين، وذكر ما أُعِدّ لهم من العقوبات، والأَمر بالعدل والإِحسان، والنَّهى عن نقض العهد والخيانات، وأَنَّ الحياة

---

(١) محمد بن يعقوب مجد الدين أبو الطاهر الشيرازي، الإمام اللغوي المحدث المفسر، صاحب القاموس المحيط وبصائر ذوي التمييز وغيرهما، (ت٨١٧هـ) انظر: بغية الوعاة١/ ٢٣٧، معجم المفسرين لنويهض ٢/ ٦٢٥.



الطَّيِّبة في ضمن الطَّاعات، وتعلم الاستعاذة بالله في حال تلاوة الآيات المحكمات، وردّ سلطان الشَّيطان من المؤمنين والمؤمنات، وتبديل الآيات بالآيات، لمصالح المسلمين والمسلمات، والرّخصة بالتَّكلم بكلمة الكفر عند الإكراه والضَّرورات، وبيان التحريم والتحليل في بعض الحالات، وذكر إبراهيم الخليل وما مُنح من الدّرجات، وذكر السَّبْتِ والدّعاءِ إلى سبيل الله بالحكمة والعظات الحسنات، والأَمر بالتسوية في المكافآت بالعقوبات، والأَمر بالصّبر على البليّات، ووعد المتَّقين والمحسنين بأَعظم المثوبات، بقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾) انتهى.[1]

● **مقاصد سورة النحل:**

تقدم أن سورة النحل مكية إلا الآيات الثلاث الأخيرة منها فهي مدنية، والسور المكية ترجع كلها في الغالب إلى تقرير أمور ثلاثة هي[2]:

- **تقرير وحدانية الله تعالى**: بنفي الشركاء عنه، وبيان أنه وحده الخالق البارئ، وبكشف زيف الآلهة المزعومة ودلائل عجزها، وهو المعروف في العقيدة بالإلهيات.

- **تقرير نبوة محمد صلى الله عليه وسلم**، وإثبات رسالته أنها من عند الله، وأن القرآن منزل من عنده سبحانه وتعالى، وأن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم صادق فيما يدعيه من الوحي، وهذا قسم النبوات.

---

(١) بصائر ذوي التمييز ١/ ٢٧٨- ٢٧٩ ط المكتبة العلمية بيروت وللتوسع. انظر: التحرير والتنوير ١٣/ ٧٥ ط مؤسسة التاريخ، بيروت.

(٢) انظر: الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم، د. محمد محمود حجازي صـ ٤٩، ط دار المدني القاهرة ١٣٩٠هـ، ١٩٧٠م.

- **إثبات قيام الساعة والبعث والنشور والحساب**، وهو قسم الغيبيات.

وسورة النحل لا تخرج عن هذا الإطار العام الذي تسير عليه السور المكية، فقد قصدت إلى تقرير الأمور الثلاثة السابقة، إلا أن المتمعن في مواضيع سورة النحل يجد أن جانب الإلهيات والتوحيد أو (معرفة الله) أبرز ما يظهر فيها من هذه المقاصد الثلاث، وقد أبان الرازي هذا المعنى في تفسيره لسورة النحل فقال: (اعلم أن المقصود الأعظم من هذا القرآن العظيم تقرير أصول أربعة:الإلهيات، والنبوَّات، والمعاد، وإثبات القضاء والقدر، والمقصود الأعظم من هذه الأصول الأربعة، تقرير الإلهيات، فلهذا السبب كلما امتد الكلام في فصل من الفصول عاد إلى تقرير الإلهيات...).[1]

ونرى هذه المقاصد واضحة عند المفسرين المعتنين بذكر المناسبات بين الآيات كما فعل الرازي، فقد ربط رحمه الله بيانه للآيات في سورة النحل بمقصد تقرير الإلهيات.[2]

ولذلك فإن المقصد الأساسي الذي تهدف إليه سورة النحل: تقرير الإلهيات، وتقرير ما يتعلق بأصول العقيدة: كالنبوة، وتقرير البعث والنشور.

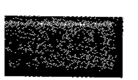
وسأعبر عن هذا بالقول:

إن مقصد سورة النحل تقرير أصول العقيدة وأعظمها قسم الإلهيات.

---

(١) الرازي ٢٠/ ٥٠.

(٢) انظر: الرازي ١٩/ ١٨٥ عند تفسير النحل، الآيات (١٠، ١١)، و: ٢٠/ ٥ الآية ١٤ من سورة النحل.



إن (السورة مهما تعددت قضاياها فهي كلام واحد يتعلق آخره بأوله وأوله بآخره، ويترامى بجملته إلى غرض واحد، كما تتعلق الجمل بعضها ببعض في القضية الواحدة، وأنه لا غنى لمستفهم نظم السورة عن استيفاء النظر في جميعها كما لا غنى عن ذلك في أجزاء القضية،...فإن من يفرق النظر في الآيات على أنها منفصلة تماماً عن غيرها، ولم ينظر نظرة إجمالية عامة في السورة وفي هدفها العام؛ لم يحصل له إلا فهم ظواهر الألفاظ بحسب الوضع اللغوي فقط، لا بحسب المقصود الأعلى للمتكلم).(١)

● محاور سورة النحل:

لقد اشتملت سورة النحل على محاور عدة منها ما يتعلق بالمقصد بشكل مباشر، ومنها ما ترتبط معه من حيث اللازم، وسأتعرض لأبرز وأهم هذه المحاور مع الكلام فيها بإيجاز:

١- تقرير كمال قدرة الله تعالى وعلمه في تدبير أحوال العوالم العلوية والسفلية وأحوال الأرواح والأجسام:

إن كثرة النعم التي ذكرت في سورة النحل بيان للإنسان بعظيم عناية الله تعالى به، وإصلاح شأن الخلق من أجله وليعرف من خلال تنعمه بها كمال قدرة الله تعالى وعلمه، يقول الرازي عند تفسيره للآيات: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [النحل:٤٨-٥٠]:

---

(١) انظر: الوحدة الموضوعية في القرآن د. حجازي صـ٤٨.

(اعلم أنه تعالى لما خوف المشركين بالأنواع الأربعة المذكورة من العذاب؛ أردفه بذكر ما يدل على كمال قدرته في تدبير أحوال العالم العلوي والسفلي، وتدبير أحوال الأرواح والأجسام؛ ليظهر لهم أن مع كمال هذه القدرة القاهرة والقوة غير المتناهية لا يعجز عن إيصال العذاب إليهم على أحد تلك الأقسام الأربعة).[1]

ولشدة ظهور هذا المحور في السورة فقد جعل البقاعي[2] رحمه الله **الدلالة على كمال قدرة الله تعالى وعلمه مقصود سورة النحل الأول** فقال: (مقصودها [أي: سورة النحل] الدلالة على أنه تعالى تام القدرة والعلم، فاعل بالاختيار، منزه عن شوائب النقص،وأدل ما فيها على هذا المعنى أمر النحل لما ذكر من شأنها من دقة الفهم في ترتيب بيوتها ورعيها وسائر أمرها من اختلاف ألوان ما يخرج منها من أعسالها، وجعله شفاء مع أكلها من الثمار النافعة والضارة وغير ذلك من الأمور ووسْمُها بـ (النعم) واضح في ذلك، والله أعلم).[3]

٢- تفرد الله تعالى بالإلهية، وتقرير فساد دين الشرك وإظهار شناعته:

وهذا محور عظيم في سورة النحل، والسورة كلها دليل عليه، فقد نوعت سورة النحل الأدلة على وحدانية الله بذكر خلق السماء والأرض والإنسان وإنزال المطر

---

(١) الرازي ٢٠ / ٣٣.

(٢) إبراهيم بن عمر بن حسن البقاعي أبو الحسن المفسر النحوي المؤرخ من أصحاب ابن حجر صاحب التفسير الشهير نظم الدرر في تناسب الآيات والسور الذي حاز به السبق في جمعه وتأليفه ت (٨٨٥هـ). انظر: الضوء اللامع ١/ ١٠١، معجم المفسرين ١/ ١٧، الموسوعة الميسرة ١/ ٦٥.

(٣) نظم الدرر ١١/ ١٠١.

وإنبات الزرع وغير ذلك الكثير الكثير، وضربت لذلك أمثلة من نفس الإنسان على فساد الشرك، منها: أنه لا يرضى أن يشاركه أحد في ملكه، فإذا كانوا لا يرضون الشرك في حقهم وهم المخلوقون، فكيف يصح في حق الخالق سبحانه وتعالى، قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [النحل:٧١].

وغير ذلك من الأمثال الحسية التي تفسد أصل الشرك، قال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [النحل:٧٦].

٣- زجر المشركين عن الإشراك، وإنذارهم بسوء العاقبة:

وقد عد ابن عاشور هذا المحور والذي قبله من أغراض السورة الأساسية.(١)

ويتجلى هذا المحور في بيان عقوبة الكافرين والمشركين لأجل تحفيزهم للتوحيد، قال تعالى: ﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل:٤٥-٤٧].

---

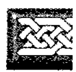
(١) انظر: التحرير والتنوير ١٣/ ٧٥، ٧٧.ط مؤسسة التاريخ.

وجاء هذا الترهيب وسط آيات تفتح مغاليق عقل الكافر ومدارك فكره لما يحيط به من النعم الدالة على وحدانية الله وعظمته، كما في قوله تعالى: ﴿ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [النحل:٢٦، ٢٩]، وقرن هذا الترهيب بالترغيب بعاقبة المؤمنين الموحدين ليأخذ البيان القرآني الإنسان من كل جوانبه العقلية والنفسية ولا يبقي له حجة للكفر بالله، قال تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [النحل:٣٠].

٤- بيان سبيل الدعوة إلى وحدة الله تعالى:

ففي تفسير قوله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل:١٢٥].





يقول الطبري رحمه الله في تفسير الموعظة الحسنة: (وبالعبر الجميلة التي جعلها الله حجة عليهم في كتابه وذكَّرهم بها في تنزيله كالتي عدد عليهم في هذه السورة من حججه وذكرهم فيها ما ذكرهم من آلائه..).(١)

إذن: فهذه البراهين الكونية التي ذكرت في سورة النحل هي زاد للداعي المسلم ليوظفها في دعوته إلى توحيد الله وتعظيمه، من حيث إن هذه البراهين هي الأدلة الكونية لوجود الله ووحدانيته، وتحمل في ضمنها الحجج والبراهين العقلية على أصول العقيدة.

ولذلك فقد جعل بعض الفضلاء سورة النحل وقفاً على بيان سبيل الدعوة إلى الله وحده، فقال: (سورة النحل تكاد تكون وقفاً على الدعوة إلى وحدة الله تعالى).(٢)

فسبيل الدعوة يكون بالحجة والبرهان الذي يقيم الحق ويزهق الباطل، ويفتح مدارك العقل ومسالك الفكر لتعظيم الله تعالى، ولبيان كمال قدرة الله تعالى في تدبيره أحوال العالم العلوي والسفلي وتدبير أحوال الأرواح والأجسام.

٥- وجوب شكر الله تعالى:

هذه سورة النعم، والنعم يجب أن تشكر، وإن المتتبع للسورة من أولها إلى آخرها يجد هذا المحور صريحاً لا يحتاج إلى استنباط، كما في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى

---

(١) ابن جرير ١٣/ ١٣١.

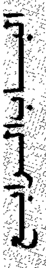
(٢) تفسير سورة النحل د. محمد البهي صـ٣ ط مكتبة وهبة مصر، الثانية ١٣٩٨هـ.

ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل:١٤].

ولما وبخ الله تعالى الكافرين بسبب كفرانهم نعمة الله وجحدهم لها مع تنعمهم بها؛ أمرهم بالشكر في قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل:٧٨]، وقوله تعالى: ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [النحل:١١٤].

فيعد كل نوع من أنواع النعم تختم الآيات بالأمر بالشكر دلالة على أن المراد من ذكرها وتسخيرها أن يكون الإنسان شاكراً لها، ولذلك فقد ناسب أن تذكر أبرز صفة في إبراهيم عليه السلام في سورة النحل ألا وهي: **الشكر** لله، للدلالة على أن هذه الصفة من علامات الاجتباء والاصطفاء والهداية قال تعالى: ﴿ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [النحل:١٢١].

ولذلك نجد بعضهم جعل **شكر** الله المحور الأساسي التي تدور في فلكه مواضيع سورة النحل لجلائه ووضوحه في السورة فيقول: (أي متدبر لآيات سورة النحل يرى أنها تدور في فلك **شكر الله تعالى**، وارتباطه بتوحيده سبحانه وطاعته والانقياد لدينه وشرعه..)[1]، (...كما اهتمت بعض آيات السورة بتثبيت **المؤمنين الشاكرين** على طريق



---

(١) التوحيد والشكر في سورة النحل صـ٧ الشيخ عبد الحميد طهماز ط دار القلم دمشق.



الشكر، فلا يكون منهم انشغال بالنعمة عن المنعم أو تلق بالنعم بحيث يكفرون بالمنعم ويجحدون فضله عليهم...).[1]

٦- أهمية التسلح بالعلم، والحض على البحث العلمي المتجرد عن الهوى:

وهو من أوسع محاور سورة النحل؛ لكونه الأساس في تجلي الشكر والدعوة إلى الله، وتقرير أصول العقيدة، فهو غذاء العقل ونماء الفكر ونور الطريق المستقيم، فالنعم التي ذكرت في السورة لا توصل الإنسان إلى معرفة الله تعالى بمجرد النظر في مظاهرها إن لم يتعرف إلى آلية عملها ووظيفتها التي خلقها الله لأجلها، فالسورة من أولها تلوح وتصرح بالعلم بالمفهوم الإسلامي الشامل؛ سواء كان المنزل بالوحي على الرسول ﷺ الذي سماه الله روحاً، أو المسطور في الكون القريب أو البعيد، قال الله تعالى: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾ [النحل:٢].

يقول الخطيب الشربيني[2] في تفسيره للروح في الآية: (الوحي أو القرآن فإن القلوب تحيا به من موت الجهالات..)[3]، وفي تفسير المهايمي[4]: (أي بالكلام الذي هو كالروح

---

(١) التوحيد والشكر في سورة النحل صـ٨ الشيخ عبد الحميد طهماز.

(٢) محمد بن أحمد الشربيني الخطيب الإمام الفقيه الشافعي لـه السراج النير في التفسير وغيره في الفقه ت ٩٧٧هـ انظر شذرات الذهب ١٠/ ٥٦١، الأعلام ٦/ ٦، الموسوعة الميسرة ٢/ ١٩٦١.

(٣) السراج المنير ٣/ ٣١٤ تحقيق أحمد عناية ط دار إحياء التراث بيروت الأولى ٢٠٠٤.

(٤) علي بن أحمد بن إبراهيم المهايمي فقيه متكلم مفسر من كمل علماء الهند ت ٨٣٥هـ له التفسير: تبصير الرحمن. انظر: هدية العارفين ١/ ٧٣٠، معجم المؤلفين ٧/ ٩، معجم المفسرين لنويهض ١/ ٣٥٣.





لكلام غيره ويفيد الحياة الأبدية من علوم المكاشفة والمعاملة وغيرهما..)[1]، ويشرح هذا قول ابن عاشور: (ووجه تشبيه الوحي بالروح أن الوحي إذا وعته العقول حلت بها الحياة المعنوية وهو العلم، كما أن الروح إذا حل في الجسم حلت به الحياة الحسية قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى:٥٢]).[2]

ونحن نجد الآيات التي تحدثت عن آثار رحمة الله من النعم المتنوعة من النبات والثمار والليل والنهار والشمس والقمر والنجوم وما خلق الله من العجائب المتنوعة في الأرض ومنها النحل؛ ختم هذه الآيات بقوله تعالى: ﴿يَعْقِلُونَ﴾ كما في الآية [١٢/ النحل و الآية ٦٧/ النحل].

وبقوله: ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ كما في الآية [١١/ و٤٤/ و٦٩/] من السورة، لأن فواصل الآيات إنما هي تعبر عن مقصد الآية.

يقول الخطيب الشربيني: (ختم تعالى الآية الأولى بالتفكير لأن ما فيها يحتاج إلى تأمل ونظر، وختم الثانية بالعقل لأن مدار ما تقدم عليه، وختم الثالثة بالتذكير لأنه نتيجة ما تقدم، وجمع الآيات في الثانية دون الأولى والثالثة لأن ما نيط بها أكثر ولذلك ذكر معها العقل..).[3]

---

(١) تبصير الرحمن وتيسير المنان بعض ما يشير إلى إعجاز القرآن، علي بن أحمد المهايمي ١/ ٤٠٢ ط عالم الكتب بيروت ثانية ١٤٠٣.

(٢) التحرير والتنوير ١٤/ ٩٩. ط سحنون تونس.

(٣) السراج المنير ٣/ ٣٢١.



ولم تكتف السورة ببيان أهمية العلم، بـل حـضت عـلى البحـث العلمـي مـن أجـل الاعتبار والتصديق، وتعميق معنى العبودية، إذ الآثار المتبقية من الأمم السابقة إنما هي دلائل صدق الرسل في وعد الله بمعاقبة المكذبين، كـما في قولـه تعـالى: ﴿.. فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [النحل:٣٦].



المبحث الرابع:

فضائل سورة النحل.

لم يرد في فضائلها شيء خاص مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم[1]، وإنما ورد من الآثار ما يدل على فضلها في الجملة، فعن واثلة بن الأسقع[2] أن النبي ﷺ قال: «أعطيت مكان التوراة السبع الطوال، وأعطيت مكان الزبور المئين، وأعطيت مكان الإنجيل المثاني، وفضلت بالمفصل».[3]

---

(١) أما حديث أبي بن كعب الطويل في فضائل القرآن سورة سورة، فإنه موضوع، كما نص على ذلك المحدثون وفيه: (من قرأ سورة النحل لم يحاسبه الله تعالى بالنعيم الذي أنعم عليه في دار الدنيا وأعطي من الأجر كالذي مات فأحسن الوصية) ويلاحظ أن واضع هذا الحديث راعى معنى السورة في ذكر النعم فيها فاختلق من العاقبة ما يناسب ذلك.

(٢) واثلة بن الأسقع بن كعب بن عامر صحابي أسلم قبل تبوك وشهدها كان من أهل الصفة ت ٨٣هـ. انظر: تهذيب التهذيب ١١/ ٨٩.

(٣) الحديث أخرجه الطيالسي صـ١٣٦ رقم (١٠١٢)، وأحمد في المسند ٤/ ١٠٧، وأبو جعفر النحاس في الناسخ ٢/ ٤٠٣ والبيهقي في الشعب كما في الدر المنثور٦/ ١٠١كلهم من طريق عمران القطان عن قتادة عن أبي المليح الهذلي عن واثلة.

قال المناوي في فيض القدير ١/ ٥٦٦: (قال الهيثمي: وفيه عمران القطان وثقه ابن حبان وضعفه النسائي وغيره ا.هـ، وأقول: فيه أيضاً عمرو بن مرزوق أورده الذهبي في الضعفاء، وقال كان يحيى بن سعيد لا يرضاه)، وأخرجه والطبراني في الكبير كما في مجمع الزوائد ٧/ ١٥٨ ط دار الكتب العلمية، وابن جرير ١/ ٣٤، وأبو عبيد كما ذكر ابن كثير في التفسير صـ ٣١، والزركشي في البرهان ١/ ٣٤١ من طريق سعيد بن بشير عن قتادة عن أبي المليح به قال ابن كثير، =

والمئون ما ولي السبع الطوال، وسميت بذلك لأن كل سورة منها تزيد على مئة آية أو تقاربها[1]، وسورة النحل من المئين، فتدخل في جملة ما خص الله نبيه.

وكذلك ورد من الآثار ما يدل على اهتمام السلف الصالح رضي الله عنهم بهذه السورة، فقد ذكر السيوطي في الدر المنثور عند قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: (من أراد العلم فليثور القرآن فإن فيه علم الأولين والآخرين).[2]

= وتبعه الزركشي: (وهو حديث غريب وسعيد بن بشير فيه لين)، ثم قال ابن كثير: (وقد رواه أبو عبيد عن عبد الله بن صالح عن الليث عن سعيد بن أبي هلال قال: بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: فذكره).

أقول: وشاهد آخر من حديث أبي قلابة مرفوعاً مثله أخرجه ابن جرير ١/ ٣٤ وابن الضريس كما في الدر المنثور ٦/ ١٠١، وبذلك نعلم أن هذا الحديث ورد من عدة طرق لا يخلو واحد منها من ضعف، ولكن يقوي بعضها بعضاً؛ فعمران القطان تابع بشيراً في رواية الحديث عن قتادة، وحديث سعيد بن أبي هلال المرسل وحديث أبي قلابة شاهدان له؛ فيتقوى من هذه الجهة ويصبح صالحاً إن شاء الله.

(١) البرهان ١/ ٣٤٢.

(٢) أخرجه: سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد، وابن الضريس في فضائل القرآن، ومحمد بن نصر، والطبراني، والبيهقي في شعب الإيمان، انظر: الدر المنثور ٤/ ١٤٢، وقال الهيثمي: (رواه الطبراني بأسانيد ورجال أحدها رجال الصحيح) مجمع الزوائد ٧/ ٣٤٣. ومعنى فليثور القرآن، أي: فليتدبر معانيه وليتفكر في آياته. انظر: النهاية مادة: ثور.



وقد ذكر السيوطي أن هذا الأثر أخرجه ابن الضريس[1] أيضاً في فضائل سور القرآن.[2]

وعمله هذا يدل على أن محل كلام ابن مسعود في سورة النحل، وأنه يليق في هذا المكان لما حوته السورة الكريمة من إشارات ومعان ودلالات في أصناف العلوم.

ومما ورد أيضاً من المأثور ما يخص سورة النحل، ما أخرجه ابن جرير وغيره: أنه قيل لهَرِم بن حيان[3] عند اقتراب وفاته: (أوصِ)، فقال: (إنما الوصية في المال ولا مال لي، ولكن أوصيك بخواتيم سورة النحل).[4]

ويضاف إلى فضائلها ما تميزت به سورة النحل من خصوصيات السورة الموضوعية التي مر ذكرها.

---

(١) محمد بن أيوب بن يحيى بن الضريس البجلي الرازي الإمام الحافظ المحدث الثقة المعمر المصنف صاحب فضائل القرآن ت ٢٩٤هـ. انظر: سير أعلام النبلاء ١٣/ ٤٤٩، شذرات الذهب ٢/ ٢١٦.

(٢) وقد استدركته في سورة النحل أيضاً محققة فضائل القرآن لابن الضريس الدكتورة غزوة بدير صـ ١٥٢ ط دار الفكر.

(٣) هَرِم بن حيان العبدي أحد عمال عمر بن الخطاب، لقي أويساً القرني، وكان من عقلاء الناس وعلمائهم، ويقال أنه لما دفن جاءت سحابة فروت قبره ونبت العشب عليه من وقته توفي سنة ٤٦هـ. انظر: سير أعلام النبلاء ٤/ ٤٨، البداية والنهاية لابن كثير ٨/ ٣١ ط دار الفكر بيروت.

(٤) ابن جرير ١٤/ ١٣٤، وسعيد بن منصور وابن سعد وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم، انظر: الدر المنثور ٤/ ١٥١، وسير أعلام النبلاء ٤/ ٤٨.





الفصل الثاني

تفسير سورة النحل

- تمهيد: بيان خطة التفسير العامة لسورة النحل

- تفسير سورة النحل وتجد فيها:
- تطبيقات التفسير العلمي بطريقة:
- التفسير الإجمالي
- التفسيرالموضوعي
- التفسير التحليلي





تمهيد

• بيان خطة التفسير العامة لسورة النحل:

إن أكثر من اشتغل في الكتابة بالتفسير العلمي للقرآن الكريم يمشي على طريقتين أساسيتين:

● **إحداهما: طريقة التفسير الموضوعي**: وهي تعنى بدراسة مسألة في القرآن كله[1]، وقد حاولت أن ألامس جوانب من هذا المنهج في مواطن من تفسير سورة النحل كتفسير نزول الماء من السماء مثلاً عند [الآية:١٠]، وَأَوْجُهِ تسخير الليل والنهار الشمس والقمر..

● **والثانية: طريقة التفسير الإجمالي**: وذلك كأن يأخذ المفسر آية من القرآن ويتكلم عن معناها في كتب التفسير ويورد أقوال المفسرين فيها عموماً ثم يذكر المعلومات في العلم الذي أشارت إليه الآية أو الآيات.

ومما يؤخذ على أصحاب هذه الطريقة الاستطراد الكثير في ذكر المعلومات دون ربط لها بدلالة الآية أو دون توضيح الربط بينهما، وقد نَهَجت هذه الطريقة في التفسير أيضاً، متحاشياً ما انتقدته فيمن مشى عليه كما فعلت عند تفسير تسخير البحر وتفسير آية السرابيل وآية تحريم الدم والخنزير مثلاً.

وقد أشرت إلى مواطن التفسير العلمي بالطريقتين السابقتين في رأس الصفحة من الأعلىٰ بقولي: (تطبيقات منهج التفسير العلمي) لتميزها عن تفسير باقي سورة النحل.

---

(١) وقد رأيت مما اطلعت عليه أن أضبط مثالٍ لهذه الطريقة في المعاصرين بحث (بداية الكون دراسة تأصيلية للنصوص القرآنية والنبوية) للدكتور محمود بن عبد الرزاق مطبوع في مجلة الحكمة العدد الرابع والثلاثون محرم ١٤٢٨ من صـ٩٩، إلى صـ١٦٤.



أما طريقة **التفسير التحليلي**: فلا أعلم من اشتغل بها في اتجاه التفسير العلمي للقرآن[1]، مع أنها من أهم طرق التفسير العلمي للقرآن وأعمقها بحثاً ودلالة، وذلك بأن يتناول المفسر آية أو أكثر من الآيات التي فيها دلالة على علم ما، فيتناولها بالتحليل اللغوي والبلاغي من جوانبها، ويركز فيها على الإشارات العلمية ويظهرها إما استنباطاً واستدلالاً، وإما توظيفاً للعلوم في شرح ما دلت عليه الآية أو غير ذلك.

وقد تناولت هذا المنهج في موطنين أساسيين في تفسير سورة النحل [عند تفسير الآيات ٦٦ إلى ٦٩]، وفيهما تطبيق ضوابط التفسير العلمي بالتفصيل، وأردت بذلك أن أظهر أهمية التفسير التحليلي في منهج التفسير العلمي للقرآن الكريم، وأن أبين بأن التفسير العلمي لا يمكن قصره على منهج معين كالموضوعي مثلاً.

وقد حاولت استيعاب كل الطرق المعروفة في التفسير في منهج التفسير العلمي أثناء تفسير سورة النحل ما استطعت وأسأل الله التوفيق والقبول.

وأما الخطة العامة لتفسير سورة النحل على العموم فهي كالآتي:

أ- تقسيم آيات السورة إلى مجموعات تقسيماً متسلسلاً حسب اتفاقها في موضوع واحد باجتهاد الباحث، ووضع عنوان لكل مجموعة يعبر عن مضمونها.

ب- ذكر أسباب النزول إن وجد.

ج- العناية بمناسبة المجموعات المقسمة لبعضها تحت عنوان (مناسبة الآيات)، ثم العناية بمناسبة الآيات في المجموعة نفسها لبعضها أثناء التفسير.

---

(١) وقد حام حول هذا المنهج الدكتور مجدي إبراهيم السيد إسماعيل في كتابه: (الإعجاز العلمي للقرآن الكريم في قصة أهل الكهف والرقيم) ط دار طيبة الخضراء.



د- تفسير غريب الآيات دون تفصيل اللهم إلا في مواضع الخلاف تفصيلاً مختصراً لمصلحة البحث حتى لا ندخل في التحليل إلا بما يخدم البحث.

هـ- تفسير الآيات تفسيراً عاماً، دون الاستطراد في غير الآيات الكونية المتعلقة بالتفسير العلمي، مع ملاحظة ارتباطها بالمقصد الأول للسورة وتوضيح معالم محاورها وذكر ما تدل عليه من إشارات علمية مختلفة إن وجد.

ولذلك فإني لا أتعرض للاختلاف في تفسيرها وإنما أذكر ما ترجح لي بعد دراستها وقد أشير إلى باقي الأقوال عند قوتها، أو أذكر أقوى الأقوال في الآية مع الترجيح.

و- تنويع طرق التفسير العلمي (إما على طريقة التفسير الموضوعي، أو التحليلي، أو الإجمالي)، من الآيات التي تحمل دلالات في العلوم الكونية أو النفسية أو العقلية، والتركيز عليها في التفسير؛ لبيان دلالاتها وما يستنبط منها، ملتزماً بالضوابط التي تقدم ذكرها إن شاء الله.

ز- التعرض للقراءات بما يخدم التفسير العلمي؛ كترجيح أو زيادة معنى في التفسير العلمي للقرآن، كما سبق في ضوابط التفسير العلمي.

ح- عندما تتعدد قضايا الآية أثناء التفسير؛ أجعل تفسيرها في مطالب أو مسائل، أو أقسمها إلى فقرات حسب الحاجة والاجتهاد.

ط- **في التفسير التحليلي** اتبعت الخطوات السابقة في الخطة العامة لتفسير سورة النحل، لكن مع التوسع في تحليل الآية وشرح دلالتها، واستيعاب الأقوال فيها ومناقشتها والجمع أو الترجيح بينها، والاستفادة مما قيل في تفسيرها من المعاصرين والكاتبين في الإعجاز العلمي، ومناقشة آرائهم وتصويبها أو تخطئتها، واستوعبت





تطبيق ضوابط التفسير العلمي للقرآن في طريقة التفسير التحليلي، لتكون الآيات المفسرة بهذه الطريقة نموذجاً تطبيقياً متكاملاً لضوابط التفسير العلمي إن شاء الله.

وقد اخترت نموذجين من السورة لتطبيق منهج التفسير العلمي للقرآن بطريقة التفسير التحليلي وهي: تفسير الآية: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ ﴾ [النحل:٦٦]، وتفسير الآيتين [٦٨-٦٩] من سورة النحل: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

وقد ميزت مواطن التفسير التحليلي في السورة في رأس الصفحة من الأعلى بقولي: (منهج التفسير العلمي بطريقة التفسير التحليلي).

وأما الآيات التي تناولت فيها التفسير العلمي بطريقة التفسير الإجمالي والموضوعي فقد ميزتها بعنوان في رأس الصفحة بـ (تطبيقات التفسير العلمي).



القسم التطبيقي

تفسير سورة النحل



بسم الله الرحمن الرحيم

إنذار وتخويف

١- ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١ يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ٢﴾.

• **سبب النزول:**

قال ابن عباس رضي الله عنهما: قوله تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ [القمر:١] قال الكفار بعضهم لبعض: إن هذا يزعم أن القيامة قد قربت، فأمسكوا بعض ما كنتم تعملون، حتى ننظر ما هو كائن، فلما لم ينزل قالوا: ما نرى شيئاً، فأنزل الله تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ﴾ [الأنبياء:١]، فأشفقوا، فلما امتدت الأيام قالوا: يا محمد ما نرى شيئاً مما تخوفنا به، فنزل قول الله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ فوثب رسول الله ﷺ، ورفع الناس رؤوسهم، وظنوا أنها قد أتت حقيقة، فنزل قوله تعالى: ﴿فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُ﴾، فاطمأنوا.[1]



(١) أسباب النزول للواحدي ص ١٥٩ ط دار الكتب العلمية. البغوي ٣/ ٦١، الكشاف للزمخشري٢/ ٥٥٤ تحقيق عبد الرزاق المهدي ط دار إحياء التراث أولى ١٤١٧هـ، زاد المسير ٤/ ٣١٢، القرطبي١٠/ ٤٤، الرازي ١٩/ ١٧٣. كلهم عن ابن عباس بهذا اللفظ. و أخرج ابن جرير ١٤/ ٥٢، وابن المنذر كما في الدر المنثور٤/ ١٢٣عن ابن جريج قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُ﴾ قال رجال من المنافقين بعضهم لبعض: إنَّ هذا يزعمُ أن أمر=

* **غريب الآيات:**

أَمْرُ اللهِ: في معناها أقوال[١]: أحدها: الساعة، الثاني: أشراط الساعة كخروج الرسول صلى الله عليه وسلم، الثالث: عذاب الله، الرابع: وعيد المشركين، الخامس: أحكامه وفرائضه، وهو قول الضحاك وقد رده ابن جرير واستغربه ابن كثير.[٢]

فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ: الاستعجال: طلب الشيء قبل حينه[٣]، أي: فلا تطلبوه قبل وقته.

بِالرُّوحِ: في المراد بالروح ستة أقوال[٤] يمكن اختصارها بثلاثة، وهي:

الأول: الوحي، ويدخل في هذا قول من قال بأن الروح: الوحي، سواء وحي القرآن أو النبوة، ويدخل في هذا القول أيضاً قول من قال بأن الروح هو أمر الله وسميت بذلك لأنها تحيي النفوس.[٥]

= الله أتى فأمسكوا عن بعض ما كنتم تعملون حتى تنظروا ما هو كائن، فلمَّا رأوا أنه لا ينزل شيء قالوا: ما نراه نزل، فنزلت: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ﴾، الآية فقالوا: إن هذا يزعم مثلها أيضاً، فلما رأوا أنه لا ينزل شيء، فنزلت: ﴿وَلَئِنۡ أَخَّرۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٖ مَّعۡدُودَةٖ﴾ الآية [هود: ٨]. وفي هذا السبب نظر لأن الآية مكية ولم يكن في مكة بعد منافقون عداك عن كون الرواية معضلة مرسلة.

(١) انظر: الأقوال في زاد المسير ٤/ ٣١٢، القرطبي ١٠/ ٤٤.

(٢) انظر: ابن جرير ١٤/ ٥٣، وابن كثير صـ٧٣٣.

(٣) انظر: ابن عادل ٢/ ٣.

(٤) انظر الأقوال في: الطبري ١٤/ ٥٣، ٥٤، زاد المسير ٤/ ٣١٣، القرطبي ١٠/ ٤٥، ابن كثير صـ ٧٣٣.

(٥) وهو قول الزجاج، انظر: زاد المسير ٤/ ٣١٣.

الثاني: الرحمة.

والثالث: الروح هي أرواح الخلق.

ولكن سياق الآية يرجح قول من قال بأن الروح هو الوحي عموماً، لأن قوله تعالى: ﴿أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَاتَّقُونِ﴾، هو الأمر المراد تبليغه وهداية البشرية إليه، وهو مقصد الرسالات السماوية، فإن كان هذا الوحي قرآناً كان المراد بالملائكة جبريل على وجه الخصوص، من باب العام الذي أريد به الخاص، وإن كان الوحي وحي النبوة والسنة فيدخل في قوله تعالى: الملائكة: جبريل وغيره؛ لأن السنّة لا تختص بجبريل، والله أعلم.

وبذلك تكون الباء في قوله بالروح بمعنى: مع، كقولهم خرج فلان بثيابه، أي: ومعه ثيابه.[1]

مِنْ أَمْرِهِ: أي بإرادته، فهي حال من الروح.[2]

والمعنى: جنس أموره وهي شؤونه ومقدراته التي استأثر بها، لأن الإضافة تفيد التخصيص[3]، أي: ينزل الله الملائكة مع الوحي حال إرادته له حاملاً الأمر الذي فيه حياة البشرية وسعادتهم على أنبيائه، المندرج في سلك توحيد الله والخوف منه.

أَنذِرُوا: الإنذار: إخبار فيه تخويف.[4]

---

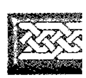
(١) انظر: الرازي ١٩/ ١٧٥ نقل هذا المعنى عن أبي عبيدة.

(٢) السراج المنير للخطيب ٣/ ٣١٤.

(٣) انظر: التحرير والتنوير ١٤/ ٩٩.

(٤) المفردات للراغب صـ ٥٠٦ مادة: نذر.





*** تفسير الآيات:**

إن سبب نزول الآية يضعنا في واقع الحال الذي كان يعيشه النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون مع المشركين في مكة قبل نزول الآيات، وكيف كان المشركون يستقبلون وعيد الله على لسان رسوله بسخرية واستهتار، وهم يخافونه في قرارة أنفسهم ويحسبون لكلامه كل حساب.

(جاء مطلع السورة حاسماً جازماً: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾.. يوحي بصدور الأمر وتوجه الإرادة؛ وهذا يكفي لتحققه في الموعد الذي قدره الله لوقوعه: ﴿فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾، فإن سنة الله تمضي وفق مشيئته، لا يقدمها استعجال. ولا يؤخرها رجاء. فأمر الله بالعذاب أو بالساعة قد قضي وانتهى، أما وقوعه ونفاذه فسيكون في حينه المقدر، لا يستقدم ساعة ولا يتأخر).(١)

لقد كان استعجال المشركين تنقيصاً لقدر الله تعالى؛ وإنكاراً منهم لليوم الآخر، فلو اعتقد المشركون وحدانية الله تعالى وكمال قدرته وعلمه لما استعجلوا، فلذلك قال تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾، أي: تنزه ربنا وتعالى عن الاستعجال، وعن كل صفات النقص والشرك، فتنزه عن النقص فلا يعجل وتنزه عن الكفؤ فلا يُدفع.(٢)

وجاءت: ﴿يُشۡرِكُونَ﴾ بصيغة الاستقبالِ (للدلالة على تجدد إشراكِهم واستمرارِه، والالتفاتُ إلى الغَيبة للإيذان باقتضاء ذكرِ قبائحِهم للإعراض عنهم

---

(١) ظلال القرآن ٤ / ٢١٥٩ ط دار الشروق.

(٢) انظر: نظم الدرر ١١ / ١٠٣.



وطرحِهم عن رتبة الخطاب)[١].. إلا أن نوعاً آخر من مفرزات الإشراك ظهرت في المشركين، وهو تكذيب الوحي المنزل على الرسول، وجر هذا إلى التكذيب بكل ما يخبر به الرسول عن الله تعالى، فقرر الله صدق ما أنزل وصدق رسوله بقوله: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ ﴾.

فالقادر على إنزال العذاب بمن كفر به؛ قادر على إنزال الملائكة بالوحي على من اختارهم الله واصطفاهم لرسالاته، فإن أمر الرسالة ليس كسبياً، والوحي الذي ينزله الله تعالى على رسله فيه من العلم ما يحيي قلوباً ميتة بالضلال والكفر، وينور عقولاً أظلمت بالجهل والخرافات، (فالقرآن والوحي به تكمل المعارف الإلهية ، والمكاشفات الربانية، وهذه المعارف بها يشرق العقل ويصفو ويكمل، والعقل به يكمل جوهر الروح، والروح به يكمل حال الجسد، وعند هذا يظهر أن الروح الأصلي الحقيقي هو الوحي والقرآن، لأن به يحصل الخلاص من رقدة الجهالة، ونوم الغفلة، وبه يحصل الانتقال من حضيض البهيمية إلى أوج الملكية).[٢]

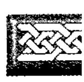
ثم يبين الله تعالى مقصد إرسال الرسل وتأييدهم بالمعجزات؛ راسماً عنوان الوحي المنزل على عباده بقوله: ﴿أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ مخوفين ومخبرين بعظم شأن التوحيد: ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾.

---

(١) تفسير أبي السعود: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٥/ ٩٥ ط دار إحياء التراث بيروت، د.ت.

(٢) الرازي ١٩ / ١٧٤.





قال قتادة: (إنما بعث الله المرسلين لِأَن يوحد الله وحده، ويطاع أمره ويجتنب سخطه).[١]

(إنها الوحدانية... روح العقيدة، وحياة النفس. ومفرق الطريق بين الاتجاه المحيي والاتجاه المدمر. فالنفس التي لا توحد المعبود؛ نفس حائرة هالكة تتجاذبها السبل، وتخايل لها الأوهام وتمزقها التصورات المتناقضة، وتناوشها الوساوس، فلا تنطلق مجتمعة لهدف من الأهداف!).[٢]

وبذلك نجد أن مطلع السورة أبان مقصد القضايا التي ستناقشها السورة في ثناياها وهي التوحيد والتسليم لله تعالى فيما أمر ونهى ؛لأن الله أعلم بما يصلح شؤون خلقه كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤].

(فعندما يفتتح القرآن إحدى سوره ويشيد في مطلعها بمبدأ أو يندد بفكرة لا يلبث أن يتبع ذلك بآيات شرحاً وتقريراً حتى يأتي في ذلك على جميع ما يتعلق بالمبدأ والفكرة من عقائد وواجبات وأخلاق وحقوق).[٣]

---

(١) أخرجه ابن جرير ١٤ / ٥٤.

(٢) ظلال القرآن ٤/ ٢١٦٠.

(٣) المدخل إلى علم أصول الفقه، د. محمد معروف الدواليبي صـ ٢٨ ط الخامسة ١٣٨٥ هـ دار العلم للملايين.



دلائل الوحدانية والقدرة

٢- ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾﴾.

*** مناسبة الآيات:**

لما خوف الله المشركين بعذابه ثم نزه نفسه عن النقص والشريك لأنه كامل القدرة، متفرد بالإيجاد، مطلق في الحكمة والعلم، ثم قرر بعد ذلك أمر التوحيد والنبوة والقدرة، جاءت الآيات هنا لتبرهن على ما قرر في الآيتين السابقتين عارضاً لهذه البراهين فوجاً فوجاً ومجموعة مجموعة بادئاً بخلق السماء والأرض ثم الإنسان ثم الأنعام.

*** غريب الآيات:**

خَلَقَ: يقول الراغب: (الخلق أصله التقدير المستقيم، ويستعمل في إبداع الشيء من غير أصل ولا احتذاء قال: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، أي: أبدعهما بدلالة قوله: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة:١١٧]).(١)



---

(١) المفردات للراغب ١/ ١٥٧.

بِالْحَقِّ: الباء هنا للملابسة أي: إن الخلق ملبوس بالحق، والحق ههنا ضد العبث واللعب، ويعني الحكمة والجد، أي: خلقهما ملبوستان بالحكمة والجد، ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝٣٨ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الدخان:٣٨ - ٣٩]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ﴾ [ص:٢٧] والحقّ والصدق يطلقان وصفين لكمال الشيء في نوعه.[١]

وقيل: المراد للدلالة على الوحدانية والقدرة[٢]، فتكون الباء هنا قد ضمنت معنى لام التعليل، أي: لأجل الدلالة على الحق وهو الله تعالى الواحد القادر، وهو توجيه قوي والقول الأول لا يأباه.

نُطْفَةٍ: الماءُ الصّافِي قَلَّ أَو كَثُرَ، فمِنَ القَليلِ نُطْفَةُ الإنْسانِ.[٣]

خَصِيْمٌ مُبِيْنٌ: **خَصِيْمٌ**: فعيل مبالغة في معنى مفاعل، أي: مخاصم شديد الخصام.

مُبِيْنٌ: من أبان بمعنى بان، أي: ظاهر الخصومة.[٤]

---

(١) انظر: التحرير والتنوير ١٤/ ١٠١.

(٢) انظر: فتح القدير للشوكاني٣/ ١٤٨ط دار المعرفة بيروت د.ت، وقال مثل هذا القول البغوي ولكن في تفسير الآية ٧٣ من سورة الأنعام: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ﴾ تفسير البغوي ٣/ ١٥٧ ط: دار طيبة.

(٣) انظر: معجم مقاييس اللغة ٥/ ٤٤٠. تاج العروس مادة: نطف.

(٤) انظر: القرطبي ١٠/ ٤٦.

وَالْأَنْعَامَ: اسم للإبل والبقر والغنم خاصة[١].

جَمَالٌ: الجمال: ما يتجمل به ويتزين، والجمال: الحسن، والمعنى هنا: لكم فيها تجمل وتزين عند الناظرين إليها.[٢]

تُرِيحُونَ: حين تردُّونها إلى مراحها، وهو المكان الذي تأوي إليه.

تَسْرَحُونَ: ترسلونها بالغداة إلى مراعيها.[٣]

أَثْقَالَكُمْ: الأثقال: جمع ثقل، وهو متاع المسافر من طعام وغيره، وسمي ثقلاً لأنه يثقل الإنسان حمله.[٤]

بِشِقِّ الْأَنْفُس: أي لم تكونوا بالغيه إلا بجهد من أنفسكم شديد، ومشقة عظيمة[٥]، وقيل أيضاً: الشق بالكسر النصف، فيكون معنى الآية:لم تكونوا تبلغوه إلا بنصف قوى أنفسكم وذهاب النصف الآخر.[٦]

قَصْدُ السَّبِيْلِ: قال في اللسان: (القصد استقامة الطريق، قَصَد يَقْصِدُ قصداً فهو قاصِد وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: على الله تبيين الطريق المستقيم والدعاءُ إليه بالحجج والبراهين الواضحة).[٧]

---

(١) انظر: القرطبي ١٠/ ٦٨. والبغوي ٥/ ٩ ط دار طيبة.

(٢) فتح القدير ٣ / ١٤٨. ط دار المعرفة بيروت.

(٣) انظر: في معنى تريحون وتسرحون زاد المسير٤ / ٣١٤.

(٤) انظر: زاد المسير ٤ / ٣١٤، وفتح القدير ٣ / ١٤٨.

(٥) انظر: ابن جرير ١٧/ ١٦٩ تحقيق شاكر ط الرسالة أولى ٢٠٠٠.

(٦) انظر: القرطبي ١٠/ ٧٢. والبغوي ٥/ ٩ ط دار طيبة.

(٧) اللسان، مادة: قصد.



وَمِنْهَا جَائِرٌ: الجور: العدول عن كل حق، ﴿وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾ أي: عادل عن المحجة.(١)

*** تفسير الآيات:**

لما بين في الآية السابقة أنه هو الذي أوحى بالقرآن لنبيه صلى الله عليه وسلم، وأنه هو الذي أرسل الرسل، وكان المشركون يكذبون بذلك ويستعجلون عذاب الله تعالى تحدياً للرسل، وإنكاراً لقدرة الله تعالى؛ دلل القرآن على ما قرره قبلُ مع التهديد المضمَّن فيه؛ فقال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ أي: إن الذي رفع السماء وبسط الأرض وسخرهما لكم هو الذي نزّل القرآن بأمره على رسوله، وهو الذي سيأتي أمره وسيسحتكم بعذاب أليم، لأن عذابكم صار حقاً لتكذيبكم وإشراككم، ولتعاميكم عن الحق الذي ألبسه الله للسموات حين رفعها، وللأرض حين دحاها، فتعاظَم شأنه وتعالى جده عن دعواكم وتماديكم في الشرك.

يقول البقاعي: (ولما كان ذلك [أي خلق السموات والأرض] من صفات الكمال المستلزمة لنفي النقائص، وكان قاطعاً في التنزه عن الشريك، لأنه لو كان، لزم إمكان الممانعة ، فلزم العجز عن المراد ، أو وجود الضدين المرادين لهما، وكل منهما محال، فإمكان الشريك محال، ولأنهما وكل ما فيهما ملكه وفي تصرفه ، لا نزاع لمن أثبت الإله في ذلك، تلاه بقوله -نتيجة لذلك دالة على أنه تعالى ليس من قبيل الأجرام: ﴿تَعَٰلَىٰ﴾ أي: تعالياً فات الوصف: ﴿عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾- عرياً عن افتتاحه بالتنزيه كالأولى).(٢)

---

(١) المفردات للراغب صـ ١٠٣ . وانظر: اللسان مادة: قصد.

(٢) نظم الدرر ١١/ ١٠٦ وما بين [ ] زيادة مني لتوضيح السياق.



ولقائل أن يقول: وكيف للمشركين أن يستدلوا على الله بخلق السماء والأرض وهم جاهلون بها، ولا يعلمون شيئاً عن أطوارها، وليس لديهم أسباب كشفها؟!.

فالجواب: إن الله سبحانه وتعالى قد قص عليهم قبل هذه الآية آيات تتحدث عن خلق السموات والأرض، وكشف عن غوامض أطوارها وميزان تقديرها، وفهمها العرب بعلو فصاحتهم وسلامة قريحتهم العربية، فكان الكلام هنا مجملاً تذكيراً بما فصل من قبل، وبما سينزل من زيادة بيان فيما بعد في المدينة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنبياء:٣٠].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأعراف:٥٤].

فقوله تعالى: ﴿بِالْحَقِّ﴾، إشارة إلى الميزان الذي وضعه الله لنظام السموات والأرض، والتقدير الذي جعله فيهما لينتفع الإنسان بهما، وكأن الحقَّ قد لَبِس السمواتِ والأرضَ، وهذا لفظ يحمل من الدلالة الكونية على نظام الكون بأكمله ما لا ينتهي إلى يوم القيامة، والآية لم تتحدث عن سماء واحدة وإنما سموات، وقد بين الله عددها سبعاً طباقاً، وبين أن لكل سماء شأنها ونظامها فقال تعالى: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ [فصلت:١٢].



وعندما نتحدث عن نظام الشمس والأرض والكوكب وأبعادها وجريانها وما فيها من دقة في الجريان وبعد المسافات، فإننا نتكلم عن أفراد صغيرة في كون لا يتصوره العقل تحت قبة السماء الدنيا، كأننا نتكلم عن ذرة في فلاة، فما بالك بسبع سموات.

ومن غرائب التفسير: تفسير السموات بالكواكب والمجرات والنجوم..، واعتباره من الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، ويستدلون بكلام الفلكيين الغربيين على صحة قولهم، كما يقول أحدهم: (فقد أثبت العلم أن الشمس والقمر والنجم والمذنبات والنيازك والشهب والسدم والمجرات؛ إنما هي سماوات فوق سموات تألف منها عوالم الكون، ويقول العلامة آرثر فندلاي في كتابه (على حافة العالم الأثيري) إن العلم أثبت أن السموات السبع هي أفضية مناسبة يتبعثر خلالها ويرتد ضوء الشمس الفيزيقية من كل جانب، وأكد أن الأراضي السبع هي كرات أثيرية تحيط بالكرة الأرضية وتتخللها).[1]

ويقول آخر: (أما أنواع السماوات (الأجرام) فسبعة هي: الغلاف الجوي، الشهب، النيازك، الأقمار، الكواكب السيارة، المذنبات، الشمس)[2]، ثم يكمل فيقول: (ويتحدث القرآن فقط عن سبع سموات..أي سبع أنواع من الأجرام، توجد في داخل

---

(١) ظواهر جغرافية في ضوء القرآن الكريم، إبراهيم حسن نصيرات صـ١٠٠ ط جمعية عمال المطابع التعاونية عمان، الثالثة ١٩٨٣. وهو نقله من عبد الرزاق نوفل في كتاب الله والعلم الحديث صـ١٣٧.

(٢) هندسة النظام الكوني في القرآن د. عبد العليم عبد الرحمن خضر صـ١٤٧ ط دار تهامة جدة الأولى ١٤٠٣هـ.

المجموعة الشمسية، وتتعدد المجموعات الشمسية داخل المجرة الواحدة مثل مجرتنا المعروفة باسم الطريق اللبني إلى ما شاء الله... وهذا ما يشير إليه اللفظ القرآني ﴿طباقاً﴾ في الآية الكريمة: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ الآية [الملك:٣]، أي: أن السبعة أنواع إنما تتكرر داخل مجموعات إلى ما شاء الله...).[١]

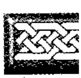
أقول: وهذا مخالف لنصوص الشرع والعقل، يقول الشيخ عبد الله سراج الدين[٢] رحمه الله: (فلا يجوز تأويل سبع سموات طباق إلى معنى آخر، فإن القرآن أنزل بلسان عربي مبين، وكيف يسوغ تأويل طبقة السماوات السبع إلى معنى آخر وقد جاء في أحاديث المعراج الواردة في الجوامع والسنن والمسانيد أن النبي ﷺ لما عرج به إلى السماوات استفتح له جبريل عليه السلام أبواب السماوات سماء بعد سماء، وصعد بها سماء فوق سماء، فهي طباق قطعاً، ومن هنا يعلم الإنسان علم اليقين الجازم الذي لا يداخله الشك قطعاً أن تأويل السماوات السبع بالكواكب السيارات السبع هذا افتراء صريح على الله تعالى وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم، وهو كلام باطل ومردود..).[٣]

---

(١) المصدر السابق صـ ١٥١. هندسة النظام الكوني.

(٢) عبدالله بن محمد سراج الدين الحسني، المحدث الحافظ المفسّر الفقيه، له مؤلفات عديدة في التفسير والحديث وغيرهما، توفي رحمه الله ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م. انظر ترجمته: صفحات من حياة الإمام شيخ الإسلام عبدالله سراج الدين الحسني، د. نورالدين عتر، ط: دار الرؤية، أولى ٢٠٠٢م.

(٣) هدي القرآن الكريم إلى معرفة العوالم والتفكر في الأكوان، الشيخ المحدث عبد الله سراج الدين صـ ٨٥ ط دار الفلاح حلب، الأولى ١٩٩١.



ثم إن علماء الفلك ما يزالون يكتشفون الكواكب السيارة والأجرام والمجموعات في هذا الكون الفسيح، فكيف يحصر هؤلاء عدد الكواكب والمجموعات بسبع، ويتكلفون في إسقاطها بجرأة على كلام الله، وقد بين الله تعالى أن ثمة كواكب؛ لكنه سبحانه وصف هذه الكواكب بأنها زينة للسماء الدنيا كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴾ [الصافات:٦]، (ومن المعلوم لغة وعرفاً وعقلاً أن زينة السقف غير السقف).[١]

إن الله يخبرنا عن عالم من خلقه وهو عالم السماوات، لها نظامها وميزانها كما قال تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ [فصلت:١٢]، وهو عالم مادي موجود ولكن أنى للإنسان أن يكتشفه عياناً وهو لم يصل لما هو أقرب من مجموعته الشمسية، فينبغي التوقف عند ما أخبرنا الله ورسوله به، والتزام أدب التفسير مع كتاب الله تعالى.

(وبعد ما نبّه على صنعه الكليِّ المنطوي على تفاصيل مخلوقاتِه، شرَع في تعداد ما فيه من خلائقه فبدأ بفعله المتعلق بالأنفس فقال: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴾ أي: هذا النوعَ غيرَ الفرد الأول منه: ﴿مِن نُّطْفَةٍ ﴾ جماد لا حسَّ له ولا حَراكَ، سيالٍ لا يحفظ شكلاً ولا وضعاً: ﴿فَإِذَا هُوَ﴾ بعد الخلق: ﴿ خَصِيمٌ ﴾ مِنطيقٌ مجادِلٌ عن نفسه مكافِحٌ للخصوم: ﴿مُّبِينٌ ﴾ لحجته لقِنٌ بها).[٢]

---

(١) هدي القرآن صـ ٨٦.

(٢) أبو السعود ٥/ ٩٦.



والتنبيه على أصل خلق الإنسان القريب ـ وهو النطفة ـ فيه من التقريع والتعريض بجهلهم وتماديهم في غيهم ما يستدعي العاقل للسؤال: نفسهم أقرب للعبرة من السماء والأرض؛ أعميت بصائرهم إلى درجة نسيان خلق أنفسهم، وفي هذا الخلق من الدلالة على وحدانية الله تعالى وقدرته مالا يحتاج لكثير تفصيل، فإذا هو يجادل ويخاصم ويحاجج من أجل إثبات الشريك لله سبحانه!!

وإن استخدام (إذا) الفجائية مع فاء التعقيب؛ فيها مبالغة في بيان جهل الإنسان المشترك، والتعجب من المصير الذي وصل إليه؛ مع تمكنه من آلات النظر والبحث، ووجه المفاجأة أن ذلك الإِنسان خُلق ليعبد الله ويعلم ما يليق به؛ فإذا لم يجر على ذلك فكأنه فاجأ بها لم يكن مترقباً منه، مع إفادة أن الخصومة في شؤون الإِلهية كانت بـما بـادرَ به حين عقَل، (فذكْر حرف المفاجأة جعل الكلام مفهماً أمرين هما:

- التعجيب من تطوّر الإنسان من أمهن حالة إلى أبدع حالة، وهي حالة الخصومة والإبانة الناشئتين عن التفكير والتعقل.

- والدلالة على كفرانه النعمة وصرفه ما أنعم به عليه في عصيان المنعِم عليه. فالجملة في حدّ ذاتها تنويه ، وبضميمة حرف المفاجأة أدمجت مع التنويه التعجيب. ولو قيل: فهو خصيم أو فكان خصيماً لم يحصل هذا المعنى البليغ).[1]

ولنقف عند أصل الإنسان الذي ذكره الله تعالى وهو النطفة، لنستنبط من النظم القرآني معاني وإشارات:

---

(١) التحرير والتنوير ١٤/ ١٠٣.

● **أولها**: إن الآية عبرت عن الخلق المتكامل للرجل والأنثى بـ (الإنسان)، وفي هذا التعبير تغيير لما استقر في عقول أهل مكة من انتقاص لمكانة العبيد والإماء والنساء، وتأسيس لما سينزل في المدينة من أحكام وتشريعات تضمن لهم حقوقهم على أساس المساواة في الخلق والعدل في الحقوق، فكلاهما -الرجل والمرأة أحراراً وعبيداً- من أصل واحد وهو: نطفة.

● **ثانيها**: نصت الآية على أصل خلق الإنسان (نطفة)، دون تقييد كونها من الرجل أو المرأة، ولكن القرآن الكريم والسنة المطهرة بيّنا أن هذه النطفة جزء من ماء الرجل وماء المرأة، أي أن النطفة تطلق على ما في ماء الرجل (الحيوان المنوي)، وعلى ما في ماء المرأة (البويضة).

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾ [القيامة:٣٧]، فهذه الآية دلت على أن النطفة هي بعض المني، والمني يخرج من الرجل والمرأة كما دل عليه حديث النبي صلى الله عليه وسلم: «**مَاءُ الرَّجُلِ أَبْيَضُ وَمَاءُ الْمَرْأَةِ أَصْفَرُ فَإِذَا اجْتَمَعَا فَعَلَا مَنِيُّ الرَّجُلِ مَنِيَّ الْمَرْأَةِ أَذْكَرَا بِإِذْنِ اللهِ وَإِذَا عَلَا مَنِيُّ الْمَرْأَةِ مَنِيَّ الرَّجُلِ آنَثَا بِإِذْنِ اللهِ**»[1]، فمجموع دلالة الآية والحديث؛ أن النطفة هي بعض مني الرجل وبعض مني المرأة، ويقوي ذلك ما ورد في حديث اليهودي الذي سأل النبي صلى الله عليه وسلم: مم يخلق الإنسان؟، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**يَا يَهُودِيُّ: مِنْ كُلٍّ يُخْلَقُ مِنْ نُطْفَةِ الرَّجُلِ وَمِنْ نُطْفَةِ الْمَرْأَةِ، فَأَمَّا نُطْفَةُ الرَّجُلِ فَنُطْفَةٌ غَلِيظَةٌ مِنْهَا الْعَظْمُ وَالْعَصَبُ،**

---

(١) أخرجه مسلم كتاب الحيض باب بيان صفة مني الرجل والمرأة رقم(٣١٥) من حديث ثوبان.



وَأَمَّا نُطْفَةُ الْمَرْأَةِ فَنُطْفَةٌ رَقِيقَةٌ مِنْهَا اللَّحْمُ وَالدَّمُ»، فَقَامَ الْيَهُودِيُّ فَقَالَ: هَكَذَا كَانَ يَقُولُ مَنْ قَبْلَكَ.(١)

وبعبارة اختصاصية:

(النطفة جزء من السائل الذي يحمل عناصر الإخصاب في الذكر والأنثى، وهي خلايا التناسل المعبر عنها بالحيوان المنوي عند الرجل، والبويضة عند المرأة)(٢)، فإذا التقت النطفتان صارتا نطفةً أمشاج، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان:٢] أي: خليط من نطفة الرجل ونطفة المرأة.(٣)

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى في التفسير رقم (٩٠٧٥)، من حديث ابن مسعود، قال الهيثمي: (رواه أحمد والطبراني والبزار باسنادين وفي أحد إسناديه عامر بن مدرك وثقه ابن حبان وضعفه غيره، وبقية رجاله ثقات، وفي إسناد الجماعة عطاء بن السائب وقد اختلط) مجمع الزوائد ٨/ ٢٤١.

(٢) انظر: القرار المكين د. مأمون الشقفة صـ ١٤٦ ط دار الآداب الشارقة ودار حسان الربط ثانية ١٤٠٧هـ.

(٣) ينظر: لسان العرب مادة: مشج ٢/ ٣٧٦ ط دار صادر، القرار المكين صـ١٥٠، ويحسن الإشارة هنا إلى أن النطفة عند العرب كانت تطلق على الماء القليل، ثم كثر استعمال النطفة في المني حتى صار لا يعرف بإطلاقه غيره.

انظر: الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري صـ٢٥٧ تحقيق حسام الدين القدسي ط دار الكتب العلمية ١٩٨١م. في الفرق بين النطفة والمني. ولسان العرب مادة: نطف.



وفي هذا بيان للناس لمعرفة أصلهم ومبدأ خلقهم، وهذا كان محل بحث ونظر عند المهتمين بأصل الإنسان لآلاف السنين.(١)

● **ثالثاً:** الإتيان بـ ﴿نطفةٍ﴾ منكراً؛ لها دلالتها في السياق الذي أتت به، فالسياق سياق توبيخ وتقريع، والتنكير في هذا السياق يدل على القلة المتناهية في حجم النطفة للتخصيب والخلق، إضافة لما تعنيه ﴿النطفة﴾ من القلة والصغر كما تقدم لغة، أي: من نطفة متناهية في الصغر؛ فكان منها هذا الإنسان الجاحد.

وهذا استدلال بإشارة النص على حجم النطفة التي يخلق منها الإنسان بما فيه من مشاعر وأحاسيس وأعضاء، وما تركبت منه من أجل تشكيل الإنسان.

فالرجل يقذف من ٣٠٠ إلى ٤٠٠ حيوان منوي، يهلك معظمها قبل أن يصل للبويضة.

وأما البويضة (النطفة) عند المرأة؛ فهي أكبر من نطفة الرجل بكثير، وقطرها حوالي ١٥٠ إلى ٢٠٠ ميكرون، والإخصاب: هو اتحاد حيوان منوي واحد مع بويضة ناضجة واحدة -من أصل ٣٠٠ إلى ٤٠٠ بويضة-؛ لتكونا نطفة أمشاج فيها جميع الصفات والمورثات، في أصغر حجم وأضعفه.(٢)

---

(١) انظر كتاب: ما أصل الإنسان؟ إجابات العلم والكتب المقدسة، تأليف: موريس بوكاي، ترجمة وطباعة: مكتب التربية العربي لدول الخليج، الطبعة الثانية عشر ١٩٨٥م.

(٢) ينظر: علم حياة الإنسان جيولوجيا الإنسان د. عايش زيتون من صـ ٤٣٥ إلى صـ ٤٤٣ ط دار الشروق الأردن ، الثانية ١٩٩٦م. والقرار المكين د. مأمون شقفة الصفحة ١٦٠ إلى الصفحة ١٦٢.

(ويا لها من نقلة ضخمة بين المبدأ والمصير، بين النطفة الساذجة والإنسان المخاصم المجادل، الذي يخاصم خالقه فيكفر به ويجادل في وجوده أو في وحدانيته، وليس بين مبدئه من نطفة، وصيرورته إلى الجدل والخصومة فارق ولا مهلة. فهكذا يصوره القرآن، ويختصر المسافة بين المبدأ والمصير، لتبدو المفارقة كاملة، والنقلة بعيدة، ويقف الإنسان بين مشهدين وعهدين متواجهين: مشهد النطفة المهينة الساذجة، ومشهد الإنسان الخصيم المبين).[1]

(ولما صار التوحيد بذلك كالشمس، وكان كل ما في الكون - مع أنه دال على الوحدانية - نعمة على الإنسان يجب عليه شكرها، شرع يعدد ذلك تنبيهاً له على وجوب الشكر بالتبرؤ من الكفر، فقال مقدماً الحيوانات لأنها أشرف من غيرها، وقدم منها ما ينفع الإنسان لأنه أجلّ من غيره، مبتدئاً بما هو أولاها بالذكر لأنه أجلّها منفعة في ضرورات المعيشة، وألزمها لمن أنزل الذكر بلسانهم.

﴿ وَٱلۡأَنۡعَٰمَ ﴾ أي: الأزواج الثمانية: الضأن والمعز والإبل والبقر).[2]

قوله تعالى: ﴿ وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَا ﴾: العطف هنا إما أن يكون عطف مفرد على مفرد، أي: عطف الأنعام على الإنسان، أي: خلق الإنسان من نطفة والأنعامَ، ثم يبدأ الكلام: خلقها لكم، فيحصل اعتبار بهذا التكوين العجيب لشبهه بتكوين الإنسان، وتكون جملة ﴿ خَلَقَهَا ﴾ بمتعلقاتها مستأنفة، فيحصل بذلك الامتنان.

(١) انظر: ظلال القرآن ٤ / ٢١٦٠.

(٢) نظم الدرر ١١/ ١٠٨.



فالأنعام التي تسير مع الإنسان أين سار وينتفع بها أكثر انتفاع؛ مخلوقة من نطفة كالإنسان، ولكن فرق كبير بين المخلوقَين؛ فالأنعام مسخرة للإنسان، وليس لها عقل كعقله، ولم يملكها الله ما ملكه للإنسان من أدوات النظر والبحث العلمي، وهذا من عظيم الامتنان الذي يستوجب الشكر.

أو أن يكون عطفَ الجملة على الجملة ، (فيكون نصب ﴿ وَٱلۡأَنۡعَٰمَ ﴾ بفعل مضمر يفسّره المذكور بعده على طريقة الاشتغال؛ والتقدير: وخلق الأنعام خلقها، فيكون الكلام مفيداً للتأكيد، لقصد تقوية الحكم؛ اهتماماً بما في الأنعام من الفوائد؛ فيكون امتناناً على المخاطبين، وتعريضاً بهم، فإنهم كفروا نعمة الله بخلقها فجعلوا من نتاجها لشركائهم وجعلوا لله نصيباً. وأي كفران أعظم من أن يتقرّب بالمخلوقات إلى غير من خلقها، وليس في الكلام حصر على كلا التقديرين).[1]

وفي الآية التفات إلى المخاطبة بعد الإخبار؛ ليحصل عصف ذهني يوقظ الغافل لينتبه ويرتبط بكونه، لينسجم معه في توحيد خالقه، فليس الخطاب خاصاً بالمشركين بل لكل إنسان إلى يوم القيامة لتضمن الخطاب الامتنان، وينتظم فيه المشركون ابتداءً.

ثم يشير القرآن إلى عموم المنافع ويخص منها الدفء بالذكر للعناية به، ولأن أمر الدفء قلما تستحضره الخواطر[2]، فيقول تعالى: ﴿لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾.

---

(١) انظر القولين: التحرير والتنوير ١٤/ ١٠٣، ١٠٤ وعلى كلا القولين فالمنة موجودة والمعنى متصل.

(٢) انظر التحرير والتنوير ١٤/ ١٠٥. أي: أنه عطف العام على الخاص.

ثم يذكر الأكل بأسلوب الاهتمام: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ لما في الأكل من نعمة التغذي وقوامة الحياة، كما أن الإنسان شديد الرغبة لأكل اللحم، وجاءت: ﴿تَأْكُلُونَ﴾ بصيغة المضارعة لأن ذلك يتكرر من الإنسان، وهذا يستدعي استمرار خلقها ودوام جنسها لحياة الإنسان وغذائه باستمرار إنتاجها للحم، وفي هذا امتنان آخر ودليل على التوحيد؛ إذ من الذي يقدر بقاء جنس الأنعام مسخرة للإنسان مع شدة حاجته لها!!؟.

وفي قوله تعالى: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾، التفات من الإخبار إلى المخاطبة، يقول أبوالسعود[1]: (وتغييرُ النظم للإيماء إلى أنها لا تبقى عند الأكل كما في السابق واللاحقِ، فإن الدفءَ والمنافعَ والجَمال يحصل منها وهي باقيةٌ على حالها، ولذلك جُعلت محالَّ لها بخلاف الأكل، وتقديمُ الظرف [منها] للإيذان بأن الأكلَ منها هو المعتادُ المعتمدُ في المعاش..، ويحتمل أن يكون معنى الأكلِ منها؛ أكلَ ما يحصل بسببها؛ فإن الحبوبَ والثمارَ المأكولة تُكتسب بإكراء الإبلِ وبإثمار نِتاجها وألبانها وجلودها).[2]

وهذا الاحتمال الثاني وجيه؛ لأن (من) إن كانت للتبعيض فيكون المعنى: وأكلكم حاصل ببعض ما تنتجه الأنعام، كالصوف والوبر والحليب..، وإن كانت سببية فالمعنى: وأكلكم حاصل بسبب إكرائها وحرثها وبيع صوفها ولبنها...الخ.

(١) محمد بن محمد بن مصطفى العمادي، أبو السعود، مفسر أصولي فقيه شاعر، له التفسير الشهير: «إرشاد العقل السليم» وله حواشي على الكشاف والبيضاوي، (ت ٩٨٢هـ). انظر: الشذرات ٨/ ٣٩٨، معجم المفسرين لنويهض ٢/ ٦٢٥.

(٢) أبو السعود ٥/ ٩٧ هذا مع التحفظ على القول بمراعاة الفواصل في الآية، فهذا لا يتناسب مع بلاغة القرآن لما في المراعاة من التكلف، والله أعلم.

ثم يعدد القرآن نعم الله المسخرة في الأنعام للإنسان بأسلوب الاهتمام، مع مراعاة ما يعتري الإنسان من أحوال نفسية؛ كالمفاخرة والتجمل والتملك وحب المال وزيادة الثروات والبهاء، فيذكر أولاً ما يشبع رغبة الإنسان الفطرية وراحته النفسية فيقول: ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ ﴾ الآية[1]، ثم يذكر ما يريح الإنسان جسدياً في أسفاره فيقول: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ ..﴾ الآية، وقد بين الله تعالى في آية أخرى أن منفعة الحمل ليست على كلها، وليست فقط للأثقال بل أيضاً للإنسان؛ فقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُواْ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ [غافر:٧٩].

(والقرآن إذ يعرض هذه النعمة هنا ينبه إلى ما فيها من تلبية لضرورات البشر وتلبية لأشواقهم كذلك: ففي الأنعام دفء من الجلود والأصواف والأوبار والأشعار، ومنافع في اللبن واللحم وما إليها. ومنها تأكلون لحماً ولبناً وسمناً، ومنافع في حمل الأثقال إلى البلد البعيد الذي لا يبلغونه إلا بشق الأنفس. وفيها كذلك جمال عند الإراحة في المساء وعند السرح في الصباح. جمال الاستمتاع بمنظرها فارهة رائعة صحيحة سمينة. وأهل الريف يدركون هذا المعنى بأعماق نفوسهم ومشاعرهم أكثر مما يدركه أهل المدينة).[2]

---

(١) يذكر ابن جني في الخصائص أن النوق والجمال كانت ما يتحسنون به ويتباهون به؛ ولذلك سميت جَمَل على وزن فَعَل من الجَمَال، انظر: الخصائص ٢/ ١٢١ تحقيق علي النجار ط دار الكتاب العربي، وانظر: العين مادة: جمل باب الجيم واللام والميم ، واللسان مادة: جمل: ١١ / ١٢٣.

(٢) ظلال القرآن ٤/ ٢١٦١.



(وتقديم الإراحة على التسريح: لأن الجمال عند الإراحة أقوى وأبهج، لأنها تقبل حينئذٍ مَلأى البطون حافلة الضروع مَرحة بمسرّة الشبع ومحبّة الرجوع إلى منازلها من معاطن ومرابض فيفرح أهلها بها بخلاف تسريحها إلى المرعى فإنها تخرج جائعة البطون ضامرة الضروع ثم تأخذ بالتفرق والانتشار للمرعى ولكن جمالها حاصل في رجاء عودتها مالئة مجتمعة؛ فليس في التسريح تجمل كما في الإراحة).[١]

(والإتيان بالمضارع في ﴿تُرِيحُونَ﴾ و﴿تَسْرَحُونَ﴾ لأن ذلك من الأحوال المتكررة، وفي تكررها تكرر النعمة بمناظرها).[٢]

وأما المراد بالبلد: فاللفظ والسياق يدل على عموم الأماكن دون تحديد، وقد عرف الله تعالى البلد بقوله: ﴿لَّمْ تَكُونُواْ بَـٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ﴾، وأما ما ورد في تعيين البلد بأنها مكة أو الشام أو اليمن فإنما هو على سبيل المثال بالنظر إلى قائلها،[٣]

وقد أفاد قوله: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾ معنى تحملكم وتبلغكم بطريقة الكناية القريبة من التصريح ولذلك عقب بقوله: ﴿لَّمْ تَكُونُواْ بَـٰلِغِيهِ ..﴾.[٤]

ولما كانت فواصل الآيات مقاصد لما تضمنته معانيها من الدلالات؛ ختم الله الآية بما ينبغي للعاقل أن يتوصل إليه من معرفة هذه النعم، وهو: إن الذي خلقكم واعتنى

---

(١) انظر: التحرير والتنوير ١٤/ ١٠٧، والسراج المنير للشربيني ٣/ ٣١٦.

(٢) التحرير والتنوير ١٤/ ١٠٧.

(٣) انظر: أبو السعود: ٥ / ٩٧.

(٤) انظر: التحرير والتنوير ١٤/ ١٠٦.

بكم هذا الاعتناء العظيم في كل طور من أطوار حياتكم؛ ينبغي أن تشكروه وتوحدوه ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: لأنه بكم رؤوف رحيم، يقول ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: إن ربكم أيها الناس ذو رأفة بكم، ورحمة، من رحمته بكم خلق لكم الأنعام لمنافعكم ومصالحكم، وخلق السموات والأرض أدلة لكم على وحدانية ربكم ومعرفة إلـٰهكم لتشكروه على نعمه عليكم، فيزيدكم من فضله).[1]

(ولما كانت الأنعام أكثر أموالهم ، مع أن منافعها أكثر، بدأ بها ثم ثنى بما هو دونها، مرتباً له على الأشراف فالأشراف، فقال الله تعالى: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، ﴿وَٱلْخَيْلَ﴾ أي: الصاهلة ﴿وَٱلْبِغَالَ﴾ أي: المتولدة بينها وبين الحمر ﴿وَٱلْحَمِيرَ﴾ أي: الناهقة، ولما كان الركوب فعل المخاطبين، وهو المقصود بالمنفعة، ذكره باللام التي هي الأصل في التعليل فقال: ﴿لِتَرْكَبُوهَا﴾)[2]؛ وهو (تعليلٌ بمعظم منافعها وإلا فالانتفاعُ بها بالحمل أيضاً مما لا ريب في تحققه)[3]. (وقد اقتصر على منّة الركوب والزينة في الخيل والبغال والحمير، ولم يذكر الحمل عليها كما قال في شأن الأنعام: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾ [النحل:٧]، لأنهم لم تكن من عادتهم الحمل على الخيل والبغال والحمير، فإن الخيل

---

(١) ابن جرير ١٧/ ١٧١ ط الرسالة.

(٢) نظم الدرر ١١/ ١١٠.

(٣) أبو السعود: ٥ / ٩٨.

كانت تركب للغزو وللصيد، والبغال تركب للمشي والغزو. والحمير تركب للتنقل في القرى وشبهها).(١)

أقول: وقد يكون الاقتصار على ذكر الركوب لهذه الأصناف بيان ما لأجله خلقت ابتداءً؛ ليحسن الإنسان استخدامها في ضمن طاقتها التي خلقها الله تعالى عليها، فتكون الآيات إرشاداً للإنسان في تربية الحيوان لمعرفة طاقة الحيوان الذي يربيه؛ فلا يحمله فوق ما يطيق، فما تحمله الإبل لا تقدر الخيل والبغال والحمير على حمله وهكذا.

وبعدما ذكر إحدى حاجات الناس لهذه الأصناف الجسدية؛ أتبعها بالحاجات النفسية فقال: ﴿وَزِينَةً﴾، فقد جعلها الله تعالى زينة مقصودة في نفسها؛ (وهذه اللفتة لها قيمتها في بيان نظرة القرآن ونظرة الإسلام للحياة. فالجمال عنصر أصيل في هذه النظرة وليست النعمة هي مجرد تلبية الضرورات من طعام وشراب وركوب؛ بل تلبية الأشواق الزائدة على الضرورات. تلبية حاسة الجمال ووجدان الفرح والشعور الإنساني المرتفع على ميل الحيوان وحاجة الحيوان).(٢)

ثم يختم الذكر الحكيم الآية بما يدل على قدرة الله تعالى بتجديد النعم، لتبقى صورة التجديد في الخلق مستحضرة لدى الإنسان فتبقى معها عظمة الله تعالى مستحضرة، فيقول تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. ويقول البقاعي: (ولما دل على قدرته بما ذكر في سياق الامتنان، دل على أنها لا تتناهى في ذلك السياق، فنبه على أنه خلق لهم أموراً لو عدها لهم لم يفهموا المراد على سبيل التجديد والاستمرار في الدنيا والآخرة..).(٣)



---

(١) التحرير والتنوير ١٤/ ١٠٧.

(٢) ظلال القرآن ٤/ ٢١٦١.

(٣) نظم الدرر ١١ / ١١٠.



(فيدخل في ذلك ما هو غير معهود أو غير معلوم للمخاطبين وهو معلوم عند أمم أخرى، كالفيل عند الحبشة والهنود، وما هو غير معلوم لأحد ثم يعلمه الناس من بعد، مثل دواب الجهات القطبية كالفقمة والدُب الأبيض، ودواب القارة الأمريكية التي كانت مجهولة للناس في وقت نزول القرآن، فيكون المضارع مستعملاً في الحال للتجديد، أي هو خالق ويخلق).[1]

وقد حملت هذه الفاصلة القرآنية من الدلالات ما لا يمكن التعبير عنه بغيرها في هذا السياق، وفتحت للبحث والكشف العلمي أبواباً لا تغلق إلى يوم القيامة؛ لمجيئها في إطار التحدي وسياق دلائل القدرة؛ فكان فيها إغراء للعاقل ليستكشف أنواع مستجدات خلق الله وعجائبها.

وقد اهتم المعاصرون بهذه الفاصلة من الآية وتناولوها باهتمام بالغ، وذكروا فيما يدخل في دلالتها من المستجدات[2]، فيقول ابن عاشور رحمه الله: (فالذي يظهر لي أن هذه الآية من معجزات القرآن الغيبية العلمية، وأنها إيماء إلى أن الله سيلهم البشر اختراع مراكب هي أجدى عليهم من الخيل والبغال والحمير، وتلك العجلات التي يركبها الواحد ويحركها برجليه وتسمى (بسكلات)، وأرتال السكك الحديدية، والسيارات المسيّرة بمصفّى النفط وتسمى (أطوموبيل)، ثم الطائرات التي تسير بالنفط المصفّى في الهواء.

---

(١) التحرير والتنوير ١٤/ ١١٠.

(٢) انظر: صـ ٢٦٧ من البحث للتوسع في بعض ما قيل من المأثور في هذه الفاصلة من الآية.





فكل هذه مخلوقات نشأت في عصور متتابعة، لم يكن يعلمها من كانوا قبل عصر وجود كل منها، وإلهام الله الناس لاختراعها هو ملحق بخلق الله، فالله هو الذي ألهم المخترعين من البشر بما فطرهم عليه من الذكاء والعلم وبما تدرجوا في سلّم الحضارة واقتباس بعضهم من بعض إلى اختراعها ، فهي بذلك مخلوقة لله تعالى لأن الكلّ من نعمته).[1]

ويقول الشيخ أبو زهرة[2]: (أي: ويخلق ما نعلم وما لا نعلم، وما كان يعلمه العرب وما لا يعلمونه، ولو أن المتأمل المستبصر تعرف إعجاز القرآن في إخباره بما كان مغيباً في زمان نزوله لوجده في مثل هذه الآية، فإن مما خلقه الله تعالى مما كان العرب لا يعلمونه، ولم يكن قط في عصر نزول القرآن -السيارات التي تنهب الأرض نهباً، والطائرات التي تقطع أجواء الفضاء قطعاً، ومما يجري الآن في عصر الفضاء-؛ فإن ذلك كله خلقه الله تعالى، ومكن الإنسان في عصره ما لم يكن ليعلمه، وسنرى مما يخلقه الله، ويعلمه من بعدنا ولا نعلمه نحن).[3]

---

(١) التحرير والتنوير ١٤ / ١١١، وانظر نحو هذا الكلام: ظلال القرآن ٤/ ٢١٦١، فقد جعل في الآية تهيئة للمسلمين نحو الانفتاح، والأساس في التفسير للشيخ سعيد حوى ٦/ ٢٩١٧، والتوحيد والشكر في سورة النحل للشيخ عبد الحميد طهماز صـ ١٧، قالوا نحو ذلك.

(٢) محمد بن أحمد أبو زهرة: من أكبر علماء الشريعة الإسلامية في عصره، تدرج في مناصب التدريس وله أكثر من أربعين مؤلفاً في الفقه والأصول والتفسير والأديان ت ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م انظر: الأعلام للزركلي ٦/ ٢٥.

(٣) زهرة التفاسير للإمام محمد أبو زهرة ٨/ ٤١٣٥، ط دار الفكر العربي مصر دون تاريخ.

وذهب بعضهم إلى أن هذا التعبير بقوله: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (لفتة دقيقة إلى ما سيخلقه الله من وسائل أخرى للركوب.. فعبر عنها بـ(ما) التي تفيد العموم لأنه لو ذكرها بأسمائها وأوصافها لم يتقبلها الناس في ذلك الزمان حيث لم يبلغوا من الرقي والتقدم في مجال الاختراع والتصنيع ما بلغه الناس في هذا الزمان وربما كانت مدعاة للكفار للتكذيب بالقرآن وصد الناس عنه، وهذا سر من أسرار إعجاز القرآن الكريم في الإخبار عن الأمور العلمية المستقبلية).(١)

أقول: إن ما قاله المفسرون المعاصرون في تفسير الآية؛ إنما هو أمثلة لأفراد عام لا ينتهي عده، ذلك لأن خلق الله تعالى لا ينقطع، ولا ينحصر فيما قاله المفسرون.

ويرى الباحث أن قوله تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ لا تقتصر دلالتها على سياق المركوبات والمأكولات من الحيوانات في الآيات قبلها، وإنما يستصحب في دلالتها أول آية ذكرت الخلق في سورة النحل، وهي قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾، ثم قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾، ثم قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ..﴾، ثم قوله: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ﴾ أي وخلق الخيل..الخ، ثم يقول: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، كما هو معروف في أسلوب التمكين.(٢)

---

(١) د. عبد الله بن إبراهيم الوهيبي في تعليقه على تحقيق تفسير القرآن، للعز بن عبد السلام عند تفسير هذه الآية من سورة النحل ٢/ ١٨٧ ط الإحساء السعودية ١٩٩٦.

(٢) التمكن مصطلح بلاغي يوضح العلاقة بين الفاصلة القرآنية والآية قبلها، وقد عرفه الزركشي في البرهان: (هو أن تمهد قبلها تمهيداً تأتي به الفاصلة ممكنة في مكانها مستقرة في قرارها مطمئنة=



ويساعدنا في هذا الفهم؛ معرفة مناسبة ترتيب ذكر المخلوقات، فقد ذكر المفسرون مناسبات عدة لهذا الترتيب..

فذهب الرازي إلى أن هذا الترتيب بحسب الأشرف، وعد السماوات والأرض أشرف من جسم الإنسان فلذلك ابتدأ بها ثم بالإنسان.(١)

بينما ذهب البقاعي إلى أنه ابتدأ بالغيبي وهو خلق السماوات والأرض ثم بالمشاهد وهو خلق الإنسان والحيوان(٢)، وبعضهم يذهب إلى أن هذا الترتيب بالأعظم فالأعجب، أي ابتدأ بذكر خلق السماوات والأرض لعظمها ثم ذكر خلق الإنسان لأنه أعجب المخلوقات المشاهدة ثم بذكر خلق الحيوان لأنها تلي الإنسان في إتقان الصنع مع ما فيه من أنواع النعم.(٣)

= في موضعها غير نافرة ولا قلقة، متعلقاً معناها بمعنى الكلام كله تعلقاً تاماً بحيث لو طرحت لاختل المعنى واضطرب الفهم) البرهان ١/ ٧٩ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ط عيسى البابي الحلبي ١٩٥٧.

(١) انظر: الرازي ١٩/ ١٧٨، وتبعه في ذلك ابن عادل ٢/ ١١، وهذا استدلال منهم بهذا الترتيب لتصور الفلاسفة اليونان الذين يعتقدون أن الأفلاك مخلوقات علوية مقدسة وجعلوا بعضها مساكن للعقول العشرة التي خلقت العالم بزعمهم وأوجدوا عبادة الأفلاك ومنها الأصنام، وهذا تصور مخالف للشرع وللقرآن فقد قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

(٢) انظر: نظم الدرر ١١/ ١١١ وتبعه في ذلك الخطيب الشربيني في السراج ٣/ ٣١٥.

(٣) انظر: التحرير والتنوير ١٤/ ١٠١.







ويرى الباحث أن مناسبة هذا الترتيب يفسره قوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [سورة النازعات: ٢٧-٣٣].

فالآيات رتبت حسب الأشد في الخلق والتكوين، ثم فسرت معنى الخلق بمراحله الكبرى، فالسماء مرت بمرحلة البناء، ورفْع سمكها وتقدير ليلها ونهارها، وبعد الانتهاء من تمام خلق السماء، تم خلق الأرض بمراحلها وهي: دحاها ثم أخرج منها ماءها ومرعاها.

وكذلك الآيات في سورة النحل: ذكرت السماوات والأرض ثم الإنسان ثم الحيوان، هذا في مبدأ الخلق من حيث الشدة، ثم رتب الحيوان بحسب المنفعة، ولما كان في الأنعام منافع الإنسان الضرورية المستمرة والكثيرة وأهمها اللبس والأكل؛ قدمها على الخيل والبغال والحمير.

وبذلك نعلم أن قوله تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، ينسحب على ما سيخلقه الله تعالى من العجائب في السماء وفي الأرض بما فيهما، وفي الإنسان وفي الحيوان إلى يوم القيامة، مع استمرار جهل الإنسان بها، فكم من نجم في السماء يولد ويموت ولا علم لأحد به وكم من كوكب يخلق ويفنى ولا علم لمرصد به، وكم من عجائب في الأرض ما زالت خافية على العلماء مع تقدم وسائل الاستكشاف وربما انقرضت أعيانها وبقيت آثارها تدل عليها، وكم من حيوان انقرض في مسيرة الحياة على الأرض ولم يدر به أحد إلا من أثره، وكم من ابتكار علمي نشاهده اليوم في شتى المجالات العلمية





المستجدة ما يندهش له الإنسان اليوم وهو يعايشه...، كل هذا يندرج في سياق دلالة الآية وتبقى ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ مفتوحة الدلالة.

ويمكننا التعبير عن هذا المعنى بالقول: ويخلق الله من عجائب المخلوقات وبدائع الابتكارات، التي يلهمها الله لعباده من أشدها إلى أدناها، ومن أعجبها إلى أبسطها، إلى يوم القيمة ما لا تعلمون، والله أعلم.

يقول الآلوسي: (والعدول إلى صيغة الاستقبال للدلالة على الاستمرار والتجدد أو لاستحضار الصورة).[1]

وأما جعل الحكمة من هذا التعبير: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ عدم استيعاب الناس في ذلك الزمان، كي لا يستغل المشركون تعداد الأصناف هذه لتكذيب القرآن..؛ فهذه حكمة فيها نظر، فالمسلمون الموقنون بما أنزل الله صدّقوا بأبعد من هذا، ذلك أن القرآن حدثهم عن عجائب كثيرة ومخلوقات كثيرة، فحدثهم عن خلق أنفسهم طوراً طوراً، وعن خلق السماء والأرض، بل إنه حدثهم عن الإسراء والمعراج وهم قريبوا عهد به عند نزول الآيات، وصرح لهم الرسول صلى الله عليه وسلم بعجائب في السماوات، وصدق المسلمون بذلك وسلموا، وكذب بذلك المشركون وأخزاهم الله، وحصل التحدي بكل ذلك، واستوعبته عقول المؤمنين وخنس أمام ذلك المشركون.

إن هذا التعبير فيه من الحكمة أنه يهيئ عقول المسلمين لانفتاح علمي، ويوسع من مداركهم الفكرية على أصل عقائدي وينقلهم من ضيق البيئة والمحسوسات إلى أفق الاستكشاف والعلم، والله أعلم.



---

(١) الآلوسي ١٤/ ١٠٢.

وفي الآيات دلالة على أن الله تعالى خلق هذه المخلوقات - الأنعام والخيل والبغال والحمير-؛ وهيأها بما يشبع متطلبات الإنسان النفسية - الجمال والزينة-، والجسدية - الدفء والأكل والركوب وغيرها من المنافع-، وكذلك كل ما خلقه الله تعالى مسخراً للإنسان؛ هيأه الله بما يشبع فطرة الإنسان الحسية والمعنوية؛ إن أحسن الإنسان التسخير كما علمه الله، ولم يخالف فطرتها التي فطرها الله عليها.

وفي هذا إرشاد للعلماء أن يراعوا في ابتكاراتهم هذين الجانبين من متطلبات الإنسان، وأن لا يجنحوا إلى راحة الجسد وإشباعه مادياً دون ملاحظة الأثر النفسي وما يتطلبه الإنسان في فطرته ويصلحها، فإن تقدم الارتكاسات النفسية في الناس اليوم، مع تقدم الرفاهية الجسدية والمادية دليل على عدم توازن هذه الابتكارات لعدم مراعاتها تكامل متطلبات الإنسان، والله أعلم.

(ولما كانوا في أسفارهم واضطرابهم في المنافع بهذه الحيوانات وغيرها يقصدون أسهل الطرق وأقومها وأوصلها إلى الغرض، ومن عدل عن ذلك كان عندهم ضالاً سخيف العقل غير مستحق للعد في عداد النبلاء، نبههم على أن ما تقدم في هذه السورة قد بين الطريق الأقوم الموصل إليه سبحانه بتكفله ببيان أنه واحد قادر عالم مختار، وأنه هو المنعم، فوجب اختصاصه بالعبادة، وأخبرهم سبحانه أنه أوجب هذا البيان على نفسه فضلاً منه)[1]، فقال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾.

---

(١) نظم الدرر ١١/ ١١١.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾: هو على حذف مضاف، أي وعلى الله بيان طريق الحق والهداية من طريق الضلال والغواية بالحجج والبراهين.(١)

وقد يكون المعنى: وعلى الله قاصد السبيل، أي هداية قاصد الطريق المستقيم، بموجب وعده المحتوم وتفضله الواسع(٢)، فصار القصد مصدر بمعنى فاعل، ولكن بقي التقدير موجود وإن اختلف اعتباره.

ويؤيد تقدير الهداية، -أي: وعلى الله هداية قاصد الطريق المستقيم- قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ [الليل:١٢].

والمعنيان يلتقيان في سياق واحد، أي: وعلى الله بيان طريق الحق وهداية قاصده(٣)، ومن السبيل ما هو عادل عن المحجة، وقيل: السبيل الجائر هي الطرق المتفرقة، وقصد السبيل هي: الصراط المستقيم، قابلهما الله هنا كما قابلهما في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا

---

(١) انظر: ابن جرير ١٧ / ١٧٤ ط الرسالة.

(٢) انظر: فتح القدير للشوكاني ٣/ ١٤٩.

(٣) ذهب ابن تيمية بعد بحث طويل إلى أن معنى الآية: الصراط المستقيم الذي يدل على الله، أي طاعته وعبادته، واستدل لذلك بلغة العرب، وأنهم يقولون: هذه الطريق على فلان، إذا كانت تدل عليه، وهذا غير كونها (عليه) بمعنى أن صاحبها يمر عليه، إلى أن قال: (وهو سبحانه قد أخبر أنه على صراط مستقيم فعليه الصراط المستقيم، وهو على صراط مستقيم سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً). انظر: دقائق التفسير ٣/ ٣١٤، ٣٢٤ تحقيق د. محمد السيد الجليند ط مؤسسة علوم القرآن الثانية ١٩٨٤؛ لكن في كلامه رحمه الله نظر من حيث سياق الآية، فإذا كان المعنى: وإلى الله يدل الطريق المستقيم؛ فإلى من يذهب الضمير في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾.

صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام:١٥٣].

أقول: وهو قول متجه ولا يعارض ما تقدم، بل يدخل فيه من حيث إن بيان الطريق المستقيم بالحجج والبراهين هي سبيل الله، وطرق الضلالة هي الطرق الجائرة التي ينبغي على الإنسان الحذر منها، والله أعلم.

يقول ابن عاشور: (جملة معترضة اقتضَتْ اعتراضَها مناسبة الامتنان بنعمة تيسير الأسفار بالرواحل والخيل والبغال والحمير، فلما ذكرت نعمة تيسير السبيل الموصلة إلى المقاصد الجثمانية ارتُقِي إلى التذكير بسبيل الوصول إلى المقاصد الرُّوحانية وهو سبيل الهدى، فكان تعهّد الله بهذه السبيل نعمة أعظمَ من تيسير المسالك الجثمانية لأن سبيل الهدى تحصل به السعادة الأبدية. وهذه السبيل هي موهبةُ العقل الإنساني الفارق بين الحقّ والباطل، وإرسال الرسل لدعوة الناس إلى الحقّ، وتذكيرهم بما يغفلون عنه، وإرشادهم إلى ما لا تصل إليه عقولهم أو تصل إليه بمشقّة على خطر من التورّط في بنيّات الطريق).(١)

﴿ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (يقول: ولو شاء الله للطف بجميعكم أيها الناس بتوفيقه، فكنتم تهتدون وتلزمون قصد السبيل، ولا تجورون عنه، فتتفرّقون في سبل عن الحقّ جائرة).(٢)

---

(١) التحرير والتنوير ١٤/ ١١٢.

(٢) ابن جرير ١٧/ ١٧٦ ط الرسالة.



من مظاهر عناية الله تعالى بعباده

٣- ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَـٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ ﴾.

*** مناسبة الآيات:**

ما زالت الآيات تقيم الحجة على وحدانية الله وقدرته، وتنوع في الأدلة المادية، وها نحن الآن أمام لون جديد من دلائل وحدانية الله وقدرته وإنعامه على عباده، يقول البقاعي: (ولما كان ما مضى كفيلاً ببيان أنه الواحد المختار، شرع يوضح ذلك بتفصيل الآيات إيضاحاً يدعه في أتم انكشاف في سياق معدّد للنعم مذكر بها داع إلى شكرها).[١]

*** غريب الآيات:**

شراب: الشَّرابُ ما شُرِب من أَيِّ نوْعٍ كان وعلى أَيّ حال كان[٢]. كما أن الشُّرْب تناولُ كل مائع ماء كان أو غيره.[٣]

يقول ابن عاشور في تفسير الشراب: (وهو المائع الذي تشتفّه الشفتان وتُبلغه إلى الحلق فيبلعَ دون مضغ).[٤]

---

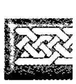
(١) نظم الدرر ١١/ ١١٦. وانظر: أبو السعود ٥/ ١٠٠.

(٢) اللسان مادة: شرب ١/ ٤٨٧.

(٣) المفردات للراغب صـ ٢٥٧.

(٤) التحرير والتنوير ١٤/ ١١٣.





تُسِيمُونَ: السوم: أصله الذهاب في طلب الشيء فهو لفظ لمعنى مركب من الذهاب والابتغاء وأجرى مجرى الذهاب في قولهم سامت الإبل فهي سائمة، وهو الرعي أيضاً[١]، وهو المعنى المناسب هنا.

لَآيَةً: يقول الراغب: (الآية هي العلامة الظاهرة)[٢].

والعلامة هنا: الدلالة على الله تعالى، إذ جاءت في سياق تعداد النعم التي أظهرت عناية الخالق بخلقه.

*** تفسير الآيات:**

قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ ابتدأت الآيات بضمير الغيبة (هو) تعظيماً لشأن الخالق وتعريضاً بغباء المشركين والملحدين، إذ كيف يغيب عنكم الاعتقاد بالله ووحدانيته وعظيم قدرته؛ ودلائلُ وجوده محسوسةٌ لديكم وملتصقةٌ بكم!!؟.

فكان هذا الابتداء فيه من المهابة التي تهجم على القلب لتهيأه للدليل القاصف الذي يعيد طريقة تفكيره نحو الصواب.

والماء: في قوله: ﴿مَآءً﴾ عام مخصوص؛ كما أشار لذلك أبو السعود إذ قال: (أي نوعاً منه وهو المطرُ)[٣]، وفائدة التنكير لبيان أن الماء المنزل قد يكون قليلاً أو كثيراً؛

---

(١) المفردات للراغب صـ٢٥٠ وينظر اللسان، وأساس البلاغة للزمخشري مادة: سوم.

(٢) انظر: المفردات للراغب صـ٣٣.

(٣) أبو السعود ٥/ ١٠٠.

ولكنه بقدر يقدره الله تعالى، أي ينزل من السماء مطراً بقدر مناسب؛ ويدل على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الزخرف:١١]، وعن أبي هريرة[١] رضي الله عنه قال: (مَا نَزَلَ قَطْرٌ إِلّا بِمِيزَانٍ)[٢]؛ وكذلك يؤيده سياق الآية؛ إذ لو زاد المطر على الحاجة لهلك الزرع، ولو نقص أيضاً هلك الزرع فلا تحصل المنن المذكورة في الآية كالشراب ونبات الشجر والإسامة.

وفي هذا دليل على وجود الله ووحدانيته وحكمته، إذ من يقدِّر هذه الأمور، ومن يخصص لكل زرع حاجته من الماء، ولو كان هناك إلهان لامتنع الرزق من باب التمانع والتوارد، يقول ابن عاشور: (وصيغة تعريف المسند إليه والمسند أفادت الحصر، أي هُوَ لا غيرُه، وهذا قصر على خلاف مقتضى الظاهر، لأن المخاطبين لا ينكرون ذلك، ولا يدّعون له شريكاً في ذلك، ولكنهم لما عَبدوا أصناماً لم تنعم عليهم بذلك؛ كان حالهم كحال من يدّعي أن الأصنام أنعمت عليهم بهذه النّعم، فنزلوا منزلة من يدّعي الشركة لله في الخلق، فكان القصر قصر إفراد تخريجاً للكلام على خلاف مقتضى الظاهر).[٣]

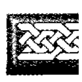
---

(١) اختلف في اسمه اختلافاً كبيراً ورجح النووي عبد الرحمن بن عامر الدوسي، كناه الرسول صلى الله عليه وسلم بأبي هر ثم غلب عليه، الصحابي الجليل أكثر الصحابة رضي الله عنهم رواية بسبب دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم له ت٧٥ كما رجح ابن حجر. انظر: الاستيعاب ٤/ ٢٠٢، الإصابة ٤/ ٢٠٢.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٧٧٢٨) عند تفسير [الأنعام:٩٩].

(٣) التحرير والتنوير ١٤/ ١١٣.





ويمكننا الاستفادة من هذه اللفتة البلاغية لدلالة أخرى، فحصر إنزال المطر بالله تعالى؛ بيان لقصر عقول من علق الآمال على المطر الاصطناعي، وظن أنه بذلك يستغني عن ماء السماء، وأقام الدنيا ولم يقعدها في تهويل عمله وتعظيم شأنه، مع أنه لم يفعل شيئاً سوى الاستفادة من العوامل الطبيعية المؤهلة لإنزال المطر؛ فمع تجدد التجارب لإنزال المطر؛ فإنها لم تنجح إلا في أماكن معينة كانت مؤهلة لنزول المطر أصلاً، وبتكاليف كبيرة وبحجم لقطرة الماء لا تلبي الغرض وإنما أشبه بالرذاذ.[١]

كما أننا نستنبط من دلالة التخصيص بنوع من أنواع المياه، أن هذا الماء النازل المخصوص بالمطر هيأه الله تعالى للإنبات والإسقاء، فليس كل ماء نازل من السماء أهلاً لينبت الزرع والثمرات، ويسقي الإنسان، بل لابد أن يكون له قدر معين ليحصل به ذلك.

وقد بينت الآية أن مكان نزول هذا المطر: جهة السماء، وجمهور المفسرين أن السماء هي السحاب ومنها ينزل المطر بالمشاهدة، وهذا على سبيل الاستعارة أو المجاز المرسل، أو أن السماء جهة العلو.[٢]

---

(١) حصلت تجارب في اسبانيا باختيار، ثم تبين أن الظروف كانت كافية لنزول مطر طبيعي، ولكن كمية المطر زادت بنسبة ١٠ إلى ١٥٪ على شكل قطرات صغيرة الحجم أصغر من قطرات الماء الطبيعي، انظر المياه في القرآن صـ ٣٠، وكتاب إعجاز علم الحياة (البيولوجيا) في القرآن الكريم لمحمود يحيى الخطيب نشر المؤلف ط أولى ١٤٢٢هـ فقط أطال في هذا كثيراً في كتابه.

(٢) ينظر ابن كثير:١/ ١٤٩، و ٤/ ٥١٦ ط دار طيبة، أبو السعود ٥/ ١٠٠، الآلوسي١٤/ ١٠٥، الرازي ١٩/ ١٨٥ البغوي ١/ ٧١ ط طيبة عند تفسير البقرة٢٢.

وقد اهتم المفسرون ببيان هذا النظم ودلالته في كيفية إنزال المطر من السماء لتكرره في القرآن بهذه الصيغة: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ كما في: [البقرة:٢٢، الأنعام:٩٩، الرعد:١٧، إبراهيم:٣٢، النحل ١٠، ٦٥، طه: ٥٣، الحج: ٦٣، فاطر:٢٧، الزمر:٢١].

نموذج لمنهج التعامل مع المأثور في التفسير العلمي للقرآن

وقد ورد من الآثار عن بعض الصحابة والتابعين في تفسير نزول المطر من السماء: فَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه قَالَ: «يُرْسِلُ اللهُ الرِّيحَ فَتَحْمِلُ الْمَاءَ مِنَ السَّحَابِ فَيَمُرُّ بِهِ السَّحَابُ فَتُدِرُّهُ كَمَا تُدِرُّ النَّاقَةُ، وَثَجَّاجٌ[١] مِثْلُ الْعَزَالَى[٢] غَيْرَ أَنَّهُ مُفَرَّقٌ».[٣]

وعن مُعَاذِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ حَبِيبٍ الْجُهَنِيِّ[٤]، قَالَ: رَأَيْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَبَّاسٍ، مَرَّ بِهِ تَبِيعٌ ابْنُ امْرَأَةِ كَعْبٍ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، فَسَأَلَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ: هَلْ سَمِعْتَ كَعْبًا يَقُولُ فِي السَّحَابِ شَيْئًا ؟، قَالَ: نَعَمْ، سَمِعْتُهُ يَقُولُ: «إِنَّ السَّحَابَ غِرْبَالُ الْمَطَرِ، لَوْلا السَّحَابُ حِينَ يَنْزِلُ الْمَاءُ مِنَ السَّمَاءِ، لأَفْسَدَ مَا يَقَعُ عَلَيْهِ، قَالَ: سَمِعْتُ كَعْبًا يَقُولُ فِي الأَرْضِ:

---

(١) **الثَّجُّ**: شِدَّة انصباب المَطَرِ والدَّمِ، تقول: ومَطَرٌ ثجاجٌ، وسحاب ثجاج، أي: شديد الانصباب والهطول، انظر: ثجج في اللسان ٢/ ٢٢١.

(٢) العزالى جمع عزلاء، مَصَب الماء من الراوِيَة حيثُ يُستَفْرَغُ ما فيها. وبذلك سمَيَتْ عَزَالي السحَاب تَشْبيهاً بها، يُقال: أرْسَلَتِ السماءُ عَزالِيَها. انظر مادة: عزل اللسان ١١/ ٤٤٠، وأضاف د. نور: (أي: اضطراب لغزارته).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم رقم (٢٢٤).

(٤) قال في التقريب ٢/ ١٩٢ ط دار الكتب العلمية: (معاذ بن عبد الله بن خبيب بالمعجمة مصغر الجهني المدني صدوق ربما وهم من الرابعة).

تُنْبِتُ الْعَامَ نَبَاتًا وَعَامَ قَابِلٍ غَيْرَهُ ؟، قَالَ: نَعَمْ، سَمِعْتُهُ يَقُولُ: إِنَّ الْبِذْرَ يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ»، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: سَمِعْتُ ذَلِكَ مِنْ كَعْبٍ يَقُولُهُ.(١)

عَنْ عِكْرِمَةَ، قَالَ: (يُنْزِلُ اللهُ الْمَاءَ مِنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَتَقَعُ الْقَطْرَةُ مِنْهُ عَلَى السَّحَابَةِ مِثْلَ الْبَعِيرِ)(٢)..

وعن الحسن أنه سئل: المطر من السَّماء أم من السحاب؟ قال: (من السماء، إنما السَّحاب عَلَمٌ ينزل عليه الماء من السَّماء).(٣)

عن خالدِ بنِ مَعْدان(٤) رضي الله عنه قَالَ: «إِنَّ الْمَطَرَ مَاءٌ يَخْرُجُ مِنْ تَحْتِ الْعَرْشِ، فَيَنْزِلُ مِنْ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ، يَجْتَمِعُ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيَقَعُ فِي شَيْءٍ يُقَالُ لَهُ الإِبْزَمُ فَيَجْتَمِعُ فِيهِ، ثُمَّ يَجِيءُ السَّحَابُ السَّوْدَاءُ فَتَدْخُلُهُ فَتَشْرَبُهُ مِثْلَ شُرْبِ الإِسْفِنْجَةِ، فَيَسُوقُهَا اللهُ حَيْثُ يَشَاءُ».(٥)

---

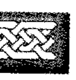
(١) أخرجه ابن أبي حاتم (١٤٧٧)عند تفسير البقرة [١٦٤].

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم برقم (٧٧٢٩) عند تفسير [الأنعام:٩٩] وأبو الشيخ كما في الدر المنثور [البقرة٢٢]١/ .

(٣) أخرجه أبو الشيخ في العظمة كما في الدر المنثور ١/ عند تفسير [البقرة: ٢٢]، وأبو الشيخ كما في الدر المنثور ١/ ١٨٢-١٨٣، تحقيق: عبدالمحسن التركي، ط: دار هجر.

(٤) خالد بن معدان الكلاعي الحمصي ثقة من كبار العلماء المقتدى بهم في بلاد الشام وفقهائها بعد الصحابة ت ١٠٣هـ. انظر: تهذيب التهذيب ٣/ ١٠٢، سير أعلام النبلاء ٤/ ٥٣٦.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم برقم (٢٢٣)، والخرائطي في مكارم الأخلاق (٩٧٩) وأبو الشيخ كما في الدر المنثور ١/ ١٨٢ [البقرة ٢٢].



عَنْ خَالِدِ بْنِ يَزِيدَ(١)، قَالَ: «مِنْهُ مِنَ السَّمَاءِ، وَمِنْهُ مَا يَسْقِيهِ الْغَيْمُ مِنَ الْبَحْرِ فَيُعْذِبُهُ الرعد والبرق، فَأَمَّا مَا كَانَ مِنَ الْبَحْرِ فَلا يَكُونُ لَهُ نَبَاتٌ، وَأَمَّا النَّبَاتُ فَمِمَّا كَانَ مِنَ السَّمَاءِ».(٢)

وعن وهب قال: لا أدري المطرُ أُنزِل قَطْرةً من السَّماء في السَّحاب، أم خُلق في السَّحابِ فأمطر؟.(٣)

فمجموع الروايات تفيد أن المطر ينزل من السماء ويصب في السحاب ثم يفرق على الأرض، ولكن نجدها تختلف من أي سماء ينزل المطر!، فبعضها تقول: إن نزوله يتدرج من العرش إلى كل سماء حتى يصل للسحاب كما في رواية ابن معدان، ومنها يقول: إن ابتداء النزول من السماء السابعة كما في رواية عكرمة، ورواية ابن عباس عن كعب تصور لنا أن الماء ينزل دفقة واحدة من السماء ثم يغربل السحاب هذه الدفقة، بينما نجد بعض التابعين يقسم المطر إلى نوعين:

الأول: من السماء وهذا الذي ينبت.

والثاني: من البحار، فيعذبه الرعد وهذا لا ينبت كما هي رواية خالد بن يزيد، بينما يتوقف ابن وهب في تفسير نزول المطر من السماء.

---

(١) خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان الأموي أبو هاشم الدمشقي تابعي صدوق مذكور بالعلم مات سنة تسعين، انظر: تقريب التهذيب ١/ ٢٦٥ ط دار الكتب العلمية. تهذيب التهذيب ٣/ ١١٠.

(٢) وأخرجه ابن أبي حاتم (٧٧٣٠)، وأبو الشيخ كما في الدر المنثور [البقرة ٢٢].

(٣) أخرجه أبو الشيخ كما في الدر المنثور.







وفي هذا الاختلاف دليل على أن ما ورد عنهم ليس بتوقيف أو سماع من المعصوم صلى الله عليه وسلم، وإنما باجتهاد منهم بما فهموه من النص القرآني، بل نجد ابن عباس يروي من الإسرائيليات ليستعين على تفسير نزول المطر من السماء، ومثلها رواية عكرمة مولى ابن عباس.

وهذا بدوره أثر على المفسرين بعدهم، فقد جعل الرازي هذا النزول من السماء إلى السحاب، ومن السحاب إلى الأرض كما تقدم في الروايات، مع أنه قدم أن نزول المطر بسبب الأبخرة الصاعدة من الأرض إلى المنطقة الباردة من الهواء فتجتمع هناك وينزل المطر.(١)

وقد رد الآلوسي هذا التفسير للسماء فقال:

(وأما كون إنزال المطر نفسه من جرم السماء المعروفة نفسها؛ فكثير ما يرتفع سحاب ويمطر مطراً غزيراً وهناك من هو على ذروة جبل لا سحاب عنده ولا مطر، والتزام أن المطر في ذلك نازل من جرم السماء أيضاً على السحاب؛ لكن لا يشاهده من هو مشرف على السحاب وواقف فوق الجبل لا يخفى حاله).(٢)

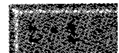
وذكر الآلوسي احتمالاً آخر لمعنى السماء فقال:

(وقيل: الأجرام العلوية وكون إنزال المطر منها باعتبار أنه بأسباب ناشئة منها فإن تصاعد الأبخرة وتكون الغيوم بسبب جذب الشمس واختلاف أوضاعها ونحو ذلك؛

---

(١) ينظر: الرازي ٢/ ١٠٢.

(٢) الآلوسي ٢٣/ ٢٥٥.



من الأسباب التي يعلمها الله تعالى)[١]، إلا أن هذا القول فيه تأثر ببعض الفلسفات الفاسدة كانجذاب الغيوم بالشمس، وهي مخالفة للواقع العلمي لنزول المطر، فليس للأجرام العلوية دخل في نزول المطر.[٢]

والسياق القرآني يبين أن السماء هنا هي جهة العلو، فقد تقدم في الآية الثالثة من السورة ذكر خلق السموات، ثم هنا يذكر نزول المطر من السماء، ولا ريب أن دلالة السماء (بالمفرد) بما تحمله من عهد ذهني؛ تختلف عن دلالة السموات (بالجمع)، ولذلك نجد المفسرين يذكرون جهة العلو عند ذكر نزول المطر من السماء؛ كما يذكرون السحاب، ولكن لا يمكن القول أن أحد هذه السموات السبع هي السماء التي ينزل منها المطر مشاهدة، بل إن القرآن دل على أن السماء هي جهة العلو التي يبسط فيها السحاب، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ

---

(١) الآلوسي ٢٣/ ٢٥٥ عند تفسير قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر:٢١].

(٢) وهذا في الأصل وصف أرسطو للسحاب وتفسيره لنزول المطر في كتابه الثالث عن الأرصاد الجوية إذ يرجع عملية تكون السحاب إلى الشمس، ويرجع عمليتي التبخر والتكاثف لقرب الشمس وبعدها. ينظر كتاب إعجاز القرآن الكريم في وصف الرياح والسحاب والمطر، البحث الثالث منه في وصف السحاب الركامي، تأليف مجموعة من الدكاترة في كلية الأرصاد الجوية والبيئة وزراعة المناطق الجافة صـ٤٣ ط رابطة العالم الإسلامي مكة، هيئة الإعجاز العلمي، الثانية ١٤٢١هـ.

يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [الروم:٤٨].

كما أن القرآن بين أن ابتداء النزول هو من السماء التي بسط فيها السحاب يقول تعالى ذكره: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ [النور:٤٣].

فالآيتان تبين إجمالاً أن الله تعالى يرسل الرياح، فتثير السحاب، ثم يبسطه في السماء، فينزل المطر من خلاله إما رحمة وإما عذاباً بإذنه تعالى.

فالمراد بالسماء التي ينزل منها المطر هي جهة عالية بعلو مقدر؛ يصلح فيه نزول المطر من السحاب، لأن الآيات التي ذكر فيها نزول المطر؛ دلت أن الأسباب المباشرة لنزول المطر إنما حاصل في السماء وهي جهة العلو(١)، وعلى هذا تكون (من) في قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ لابتداء الغاية، ولعل ما ثبت بالمشاهدة والتتبع لدى علماء الأرصاد والمياه يؤيد هذا الاستدلال، فالمطر يمر بمرحلتين أساسيتين حتى ينزل من السحاب:

نموذج لمنهج استخدام العلوم في اتجاه التفسير العلمي للقرآن.

إحداهما: عملية التنوية: وهي حين يتكاثف بخار الماء حول ذرة غبار صغيرة جداً أو أية ذرة تشبه ذرة الغبار؛ كبلورات الملح الناتجة من تبخر البحار، أو نواتج الأتربة

---

(١) ينظر: معاني السماء والأرض في القرآن د. أحمد الحوفي صـ٩، ط مؤسسة الخليج العربي. دون تاريخ.

والمركبات الكبريتية، فتكوّن طبقة رقيقة من الماء تغلف ذرة الغبار، ثم تليها أخرى وهكذا حتى تتكون قطرة مطر، ولكنها صغيرة لا تسقط بل ترتفع لأن قوة جذب الأرض لها ضعيفة.

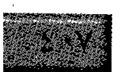
المرحلة الثانية: وهنا يتكاثف بخار الماء على شكل طبقات متراكمة متداخلة، ذات محتوى رطوبي عال، فيسبب في زيادة وزن القطرات المائية؛ التي تسبب سقوط المطر بالجاذبية الأرضية بإذن الله، وهذا يحصل عندما تكون السحابة في طبقة جو عالية باردة.(١)

فكان التعبير بالسماء إشارة إلى طبقة عالية من الجو تصل إليها السحاب؛ فتتهيأ مع عوامل سقوط المطر في هذه الطبقة لنزوله، وفصَّل هذه العوامل القرآن الكريم في آيات أخرى؛ فيكون المعنى: هو الذي أنزل من جهة العلو ابتداءً ماءً من خلال السحاب كما ترون مشاهدة، وهذا من باب تخصيص الدلالة بالواقع، ولا يتعارض مع اللغة وسياق الآيات، والله أعلم.

وبذلك نستفيد من نظم الآية دلالة كونية أخرى، وهي: أن المطر لا ينزل إلا من جهة عالية، فلو كان السحاب منخفضاً أو قريباً من الأرض؛ فإن المطر لا ينزل، فهناك فرق بين: وينزل من السحاب ماء، وقوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ إذ ليس كل سحاب ممطر؛ إلا إذا اكتملت فيه عوامل الإمطار، فالضباب في أصله سحاب، لكنه

---

(١) ينظر: أساسيات هندسة الري والصرف د. محمود حسان عبد العزيز صـ٥، ٨ ط دار عكاظ جدة الأولى ١٤٠٠هـ، المياه في القرآن الكريم أحمد عامر الديليمي (ماجستير علم المياه) صـ٢٨، ٣٠ ط دار النفائس أولى ٢٠٠٢م.



قريب من الأرض ولذلك لا يمطر، ولعل هذا سبب التعبير بالسماء بدل السحاب في الآية، ليدل على علم الله وحكمته في تدبير أحوال العالم وإصلاحه للناس.

وجاء النظم القرآني باسم الموصول: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ﴾، ولم يقل: (هو المنزل)؛ ليتصور الإنسان هذه العملية بأسبابها.

ثم يذكر القرآن منافع المطر النازل من السماء، فابتدأ بذكر منّتين ينتفع بهما الإنسان، وقدم المنفعة الأهم للإنسان، فقال تعالى: ﴿لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ﴾، ثم ثنى بالمنفعة التي يشترك فيها الإنسان والحيوان، وهي قوله: ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ﴾: تقدم أن الشَّراب ما شُرِب من أيِّ نوْعٍ كان، وعلى أيِّ حال كان؛ وابتلعه الحلق دون مضغ، وجاءت في الآية بصيغة المصدر؛ لأن الماء أصل لكل ما يشربه الإنسان ويدخل في تركيبه، كاللبن والعصائر المختلفة، وغير ذلك مما يتطلب خلطه بالماء لتمييعه وسهولة بلعه، كما أن الماء في أصله شراب للإنسان لا يمكنه الاستغناء عنه.[1]

و(من) في قوله: ﴿مِنْهُ﴾ للتبعيض[2].

---

(١) ينظر: الرازي ١٩/ ١٨٥.

(٢) كما ذهب إلى ذلك أبو حيان في البحر ٥/ ٤٧٨ ط دار إحياء التراث د.ت، والعكبري في التبيان صـ ٧٩١ تحقيق إبراهيم عوض ط البابي الحلبي أولى ١٩٦١، انظر: الدر المصون ٧/ ١٩٧، تحقيق أحمد الخراط ط دار القلم بدمشق الأولى ١٩٩٤م، وذهب جامع العلوم الباقولي إلى أن (من) هنا بمعنى: (هو) أي هو شراب، انظر: كشف المشكلات وإيضاح المعضلات جامع العلوم علي بن الحسين الأصبهاني الباقولي ٢/ ٦٧٩، تحقيق د. محمد أحمد الدالي ط مجمع اللغة العربية الأولى ١٤١٥هـ.



فيصير المعنى: إن الله أنزل من السماء ماءً لكم في بعضه شراب، لأن الإنسان لا يشرب كل الماء النازل من السماء، ويمكن أن نعتبر هذه الآية من هذه الجهة في الاستدلال رداً على كل من يعتبر ازدياد السكان سبباً لنفاد الماء من الأرض، ونزيد هذا بياناً بقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة:٣٦]، ووجود الماء أهم أسباب استقرار الإنسان وأمنه، وقد هيأ الله تعالى الأرض بما يحفظ الماء النازل من السماء لينعم الإنسان بشربه والاستفادة منه، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر:٢٠].

وأسكنه في الأرض كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ [المؤمنون:١٨].

وخزنه في الصخور أيضاً كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ﴾ [البقرة:٧٤].

ثم ابتدأ بالقسم الثاني من منافع الماء؛ وهو إسامة الأنعام والحيوانات لمصلحة الإنسان؛ إذ هو جزء من استقراره وصلاح شأنه، ومصدر من مصادر غذائه الأساسية، قال تعالى: ﴿مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾.



اختلفت أقوال المفسرين في معنى (من) هنا، فذهب بعضهم بأنها للتبعيض على سبيل المجاز، فلما كان سقيه بالماء جعل كأنه من الماء[1]، وكأنهم جعلوا الواقع قرينة في هذا المعنى، فالشجر - كما يشاهدون - ليس من الماء، بل بعض ما ينبته الماء.

وذهب أبو البقاء إلى أن (من) هنا سببية[2]، أي: بسبب الماء.

أما ابن الأنباري فقد قدر مضافاً محذوفاً يدل عليه السياق، ومحل هذا المضاف: إما قبل الضمير في (منه)، فيكون المعنى: من سقي الماء وجهته شجر، أو بعد الضمير، فيكون المعنى: منه شرب شجر، أو حياة شجر.[3]

أما ابن عاشور فذهب إلى أنها للابتداء، فقال: (نظير قوله: ﴿مِّنْهُ شَرَابٌ﴾، وأعيد حرف «من» بعد واو العطف؛ لأن حرف «من» هنا للابتداء)[4]، أي: ابتداء نباته من الماء، ويرى الباحث أن المعنى الذي ذكره العكبري أقوى المعاني، ويندرج فيه باقي المعاني جملة، ولا حاجة لتقدير مضاف؛ إذ المعنى له وجه قوي بدون تقدير.

وأما فائدة إعادة (منه) بعد واو العطف؛ ففيها إشارة إلى أن هذا الشجر يحتاج إلى ماء كثير لينبت، حتى كأن إنباته مقتصر على الماء، يقوي هذا المعنى: مناسبة ذكره مع منة الشراب للإنسان؛ بجامع أن الإنسان محتاج للماء في غالب حياته، وكذلك الشجر يحتاج

---

(١) نقله في الدر المصون عن بعضهم ٧/ ١٩٧.

(٢) التبيان للعكبري ٢/ ٧٩.

(٣) نقله في الدر المصون ٧/ ١٩٧.

(٤) التحرير والتنوير ١٤/ ١١٤.

للماء في إنباته، إذ يدخل الماء في تركيب المادة الحية (البروتوبلازم) حيث يكون أكثر من ٥٠٪ من الوزن الرطب للنباتات الخشبية، وما بين ٨٠، ٩٠ ٪ من الوزن الرطب لكثير من النباتات العشبية حسب نوع النبات.[١]

وعبر النظم عن المراعي بقوله (شجر)؛ ليشمل كل أنواع المراعي التي تنتفع بها الأنعام، فالشجر من النبات الصلبة ماله ساق، ويطلق على العشب والكلأ تغليباً[٢]، والمرادُ به ما ينبُت من الأرض سواءٌ كان له ساق أو لا[٣]، فغلَّب العشب والكلأ هنا لأن غالب المراعي كذلك مراعاة لواقع الحال، وهذا لا يعني خروج ما له ساق من الشجر عن المرعى التي تسوم فيها الأنعام، ويدل لذلك: جواب موسى عندما سأله الله عن عصاه فقال تعالى: ﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴾ [طه:١٨]. أي: أهز بها الشجرة ليسقط ورقها، لترعاه غنمي.[٤]

وفي حديث ضالة الإبل قال ﷺ: «فَإِنَّ مَعَهَا حِذَاءَهَا وَسِقَاءَهَا تَرِدُ الْمَاءَ وَتَأْكُلُ الشَّجَرَ حَتَّى يَجِدَهَا رَبُّهَا».[٥]

---

(١) ينظر: العلاقات المائية في النباتات د. محمد حمد الوهيبي صـ٦ ، ط جامعة الملك سعود الرياض١٩٨٤م.

(٢) المفردات للراغب صـ٢٥٦ مادة: شجر، التحرير والتنوير ١٤/ ١١٤.

(٣) أبوالسعود ٥/ ١٠٠.

(٤) انظر: ابن كثير ٥/ ٢٧٩ ط دار طيبة.

(٥) أخرجه البخاري في اللقطة باب في ضالة الغنم برقم (٢٢٩٦)، ومسلم في كتاب اللقطة رقم (١٧٢٢). من حديث زيد بن خالد الجهني، وفي هذا دليل على أن الشجر لا يختص بما ليس له ساق.





كما أن الحيوانات الطويلة كالجمل يمكن أن ترعى من أوراق الأشجار ذات الساق كما ترعى مما لا ساق له، والأنعام تتغذى مما ينبت في أسفل الأشجار من السيقان الصغيرة الغضة والخضراء المتفرعة من أسفل جذعها؛ كما تتغذى على العشب.

وتنكير الشجر في سياق الامتنان؛ للدلالة على عموم المنفعة وتقديرها في أنواع الشجر، فإن مساحة المراعي ونوعها وحجمها بتقدير الله تعالى، وقد جعلها الله سبحانه مهيأةً للسوم؛ ومتنوعةً بما يتناسب مع تنوع الحيوانات السائمة وما يصلح لها، ونظراً لهذا التنوع في الشجر الذي دل عليه التنكير؛ فإن المراعي الطبيعية هي أفيد للحيوان لتسمينها وفائدة لحمها من المراعي الاصطناعية والسماد الكيميائي لما تحويه من بروتينات تساعد على تسمين السائمة(١)، وفي ذلك تنبيه للإنسان الذي لا يستغني عن موارد الحيوانات السائمة؛ للعناية بهذه المراعي وأن يشكر الله عليها برعايتها والعناية بها والمحافظة عليها.

والآية بهذا السياق والمدلول؛ توضح علاقة الإنسان بالبيئة التي يقتات منها، والتي تتلخص في المياه والأرض والحيوان والنبات.

يقول ابن عاشور:

(من الدقائق البلاغية: الإتيان بحرف «في» الظرفية، فالإسامة فيه تكون بالأكل منه، والأكل مما تحته من العشب).(٢)

---

(١) ينظر للاستفادة أكثر: تغذية الحيوان المقننات الغذائية والعلائق الاقتصادية، د. أحمد غنيم صـ٦٤٣ فما بعد ط مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة ١٩٦٧م.

(٢) التحرير والتنوير ١٤ / ١١٤.





والدلالة تحتمل ما قاله ابن عاشور؛ ولكن هذا لا يعني أنها تقصد في سومها أكل الجذور، لأن الجذور تقتلع مع السائمة عندما تكون النبتة ضعيفة، وقد أفادني بعض المهندسين الزراعيين أن الأنعام تأكل الأعشاب الدرنية، التي تنبت تحت الأرض من جذورها؛ كالبطاطا والجزر ونحو ذلك، وتقصدها بالأكل.[1]

ويحتمل النظم معنى آخر على اعتبار الظرفية، وهو أن المرعى لكثرته وكبره وتنوعه فإن السائمة مظروفة ومحتواة فيه كاحتواء الظرف لمظروفه، وفائدة هذا المعنى بيان فضل الله تعالى على عباده.

وتحتمل (في) في الآية معنى التبعيض[2]، أي: فتأكل بعضه السائمة.

ونسبة الإسامة للإنسان؛ إرشاد له ليقوم هو بتنظيم الرعي من حيث الوقت وعدد السائمة التي ترعى، بقدر لا يضر بالسائمة ولا يضر بالمرعى؛ بتحميله أكثر مما يحتمل، ذلك لأن الرعي الجائر يضر في البيئة النباتية ويستنزف موارد البيئة بشكل عام، كما يضر بالأنعام أيضاً.[3]

وقد يكون نسبة الإسامة للإنسان؛ لأن منافع السوم عائدة لمصلحة الإنسان كاللبن والوبر والصوف واللحم والعظم.

---

(١) وهو الدكتور محمد الأنصاري دكتوراه بالرعي الحيواني والتغذية الحيوانية المدرس في كلية الزراعة جامعة القصيم في السعودية.

(٢) انظر: كتاب حروف المعاني: لأبي القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي صـ٨٢ تحقيق د. علي توفيق الحمد، ط: دار الأمل الأردن، ومؤسسة الرسالة الثانية ١٤٠٦ هـ.

(٣) انظر: أسس علم البيئة النباتية د. عبد الفتاح بدر ود عبد العزيز عبد الله قاسم صـ ١٣٥ ط جامعة الملك عبد العزيز الأولى ١٩٩٣م.

ولما كان الشجر منه ما ينفع الحيوان -وقد ذكره-، ومنه ما ينفع الإنسان؛ شرع سبحانه يفصله تنويعاً للنعم وتذكيراً بالتفاوت، إشارة إلى أن الفعل بالاختيار، فقال مبتدئاً بالأنفع في القوتية والائتدام والتفكه[1]، قال تعالى: ﴿ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل:١١].

لقائل أن يقول: إن هذا الكلأ والشجر من جملة ما ينبته الله تعالى أيضاً، فلم لم يذكره الله تعالى مع الآية قبلها؟

والجواب:

إن هذا الشجر المذكور في الآية السابقة، مما ينبت بدون تدخل الإنسان في بذره، وإنما بتقدير الله تعالى، أما المزروعات والثمرات والأعناب والنخيل، فإن للإنسان دخل في بذرها وسقايتها، فكان التنبيه بقوله: ﴿ يُنۢبِتُ لَكُم ﴾ أي: هو، لا أنتم بزراعتكم وسقايتكم، والله أعلم.

يقول الرازي: (اعلم أن الإنسان خُلق محتاجاً إلى الغذاء، والغذاء إما أن يكون من الحيوان أو من النبات.

والغذاء الحيواني أشرف من الغذاء النباتي، لأن تولد أعضاء الإنسان عند أكل أعضاء الحيوان أسهل من تولدها عند أكل النبات لأن المشابهة هناك أكمل وأتم والغذاء الحيواني إنما يحصل من إسامة الحيوانات والسعي في تنميتها بواسطة الرعي، وهذا هو الذي ذكره الله تعالى في الإسامة.

---

(١) انظر: نظم الدرر ١١/ ١١٨.

وأما الغذاء النباتي فقسمان: حبوب، وفواكه، أما الحبوب فإليها الإشارة بلفظ الزرع، وأما الفواكه فأشرفها: الزيتون، والنخيل، والأعناب.

أما الزيتون: فلأنه فاكهة من وجه، وإدام من وجه آخر؛ لكثرة ما فيه من الدهن؛ ومنافع الأدهان كثيرة في الأكل والطلي واشتعال السرج.

وأما امتياز النخيل والأعناب من سائر الفواكه فظاهر معلوم، وكما أنه تعالى لما ذكر الحيوانات التي ينتفع الناس بها على التفصيل، ثم قال في صفة البقية: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٨]؛ فكذلك ههنا لما ذكر الأنواع المنتفع بها من النبات، قال في صفة البقية: ﴿مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَاتِ﴾؛ تنبيهاً على أن تفصيل القول في أجناسها وأنواعها وصفاتها ومنافعها لا يمكن ذكره في مجلدات، فالأولى الاقتصار فيه على الكلام المجمل).[1]

وهذا الكلام بديع في بابه، فالآيات على ما ذكره الرازي ترسم الهندسة الغذائية للمجتمع الصحي والإنسان السوي، وتنبه للمحافظة على الأمن الغذائي وتظهر مدى عناية الله بالإنسان وإصلاح ما يمس أمنه العام بشكل مباشر.

وتخصيص الزيتون والنخيل والأعناب بالذكر من بين المزروعات والثمار مع أنها من جملتها؛ لبيان شرفها وفضلها[2]؛ وإن اختصاصها بالذكر من بين جملة الثمرات في

---

(١) الرازي: ١٩/ ١٨٧.

(٢) يقول أبو حاتم السجستاني: (وثمرة النخلة سيد كل ثمرة، وكذلك ثمر الرمان. وقال قوم لا علم لهم بكلام العرب: ليس النخل ولا الرمان من الفاكهة حين سمعوا قول الله جل وعز: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ [الرحمن:٦٨]، فغلطوا، وإنما ذكرهما الله تبارك وتعالى في الجملة=

سياق الامتنان؛ فيه إشارة إلى محل التفضيل والاختصاص، وهو ما جعل الله فيها من الفوائد الغذائية المقدرة التي تعود على الإنسان بما يصلح شأنه ويكفل أمنه الغذائي، يقول أبو حيان[١]: (وخص الأربعة بالذكر لأنها أشرف ما ينبت، وأجمعه للمنافع. وبدأ بالزرع لأنه قوت أكثر العالم، ثم بالزيتون لما فيه من فائدة الاستصباح بدهنه، وهي ضرورية مع منفعة أكله والائتدام به وبدهنه، والاطلاء بدهنه، ثم بالنخل لأنّ ثمرته من أطيب الفواكه، وقوت في بعض البلاد، ثم بالأعناب لأنها فاكهة محضة).[٢]

ولكن بتقدم أدوات التحليل يتبين لنا من فضائل الزيتون والنخيل والأعناب وبركة نفعها إضافة لما قاله أبو حيان؛ ما يجعلنا نقول: بأنها ذات أهمية غذائية تميزه، وأنها مع بعضها تشكل تكاملاً غذائياً لما يتطلبه الإنسان من ضروريات لصحة جسمه.[٣]

= ثم أفردهما تفضيلاً، كما قال: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٩٨]، تفضيلاً لهما على سائر الملائكة..)، كتاب النخل لأبي حاتم السجستاني صـ ٤٠، تحقيق د. إبراهيم السامرائي، ط مؤسسة الرسالة الأولى ١٩٨٥.

(١) محمد بن يوسف بن علي بن حيان الأندلسي، المفسر المحدّث المقرئ، النحوي المؤرخ، الأديب اللغوي صاحب التفسير البحر (ت سنة ٧٤٥هـ). انظر: طبقات المفسرين للداودي ٢/ ٢٨٧.

(٢) البحر المحيط ٥/ ٤٧٨.

(٣) أما الزيتون: فيحتوي على الأملاح المعدنية والفوسفور والكبريت والبوتاسيوم والمنغيزيوم والكلسيوم والحديد والنحاس والكلور، بالإضافة إلى قليل من البروتين ومعظم الفيتامينات، (أ، ب، ج، و) بنسب معينة، وتعطي المئة غرام منه (٢٢٤)حرورة من حاجة الجسم، بالإضافة إلى فوائد زيته الناتج منه، وهو مع كونه مغذٍّ؛ فإنه مدر للصفراء، ومفتت الحصى ومحارب=

....

= الإمساك، ومفيد لمرض السكر، وفقر الدم إن لم يكثر منه، وله فوائد طبية في معالجة جسم الإنسان مما يطول ذكره. **انظر**: قاموس الغذاء والتداوي بالنبات تأليف أحمد قدامة صـ٢٦٧، ٢٦٨ ط: دار النفائس بيروت ثانية ١٩٨٢، والوقاية الصحية على ضوء الكتاب والسنة، تأليف لولوة بنت صالح آل علي صـ٧٠١، ٧٠٢ ط: دار ابن القيم الأولى ١٩٨٩م.

وأما **ثمار النخل**، فإن التمر يحوي على نسب من الكربوهيدرات، والدهن والماء والأملاح المعدنية والألياف، وكميات من الكورامين والفيتامينات (أ، ب١، ب٢، ج)، وكميات من البروتين والسكر والزيت والمنغنيز والكلورين والنحاس والكالسيوم والمنغيزيوم، بل لقب التمر في العلم الحديث بأنه منجم غني بالمعادن، كما أنه غني بالسكاكر وهي سريعة الامتصاص، تذهب رأساً إلى الدم.. ولها فوائدها للكبد خاصة، والكيلو الواحد من التمر يعطي الطاقة الحرارية اللازمة للجسم بما يكفيه يومه، فهو غذاء متكامل لوحده، يقوت الجسم ويغذيه؛ خاصة في الشدائد والقحط ونقص المؤن، هذا غير فوائده النفسية في أنه يضفي السكينة والدعة على النفوس القلقة. **ينظر**: قاموس الغذاء والتداوي صـ ١١٥ فما بعد، الوقاية الصحية صـ٦٩٦ فما بعد. الغذاء ولا الدواء صـ ١١٩ فما بعد، ط دار العلم للملايين الثالثة ١٩٦٦.

وأما العنب: فيعسر حصر فوائده، حتى جعله بعض العلماء أكثر فائدة من الحليب، فله قيمة غذائية عالية لما يحتويه من السكر، إذ يحوي العنب مادتي الكيليكوز والفريكتوز اللتين يمتصهما الجسم دونما حاجة منها للهضم، بالإضافة إلى أن العنب يحوي معادن عديدة ذات نفع كبير للجسم كالفوسفور والبوتاسيوم والكالسيوم والمنغيزيوم والكوبالت والزنك ومجموعة من الفيتامينات. **ينظر**: الوقاية الصحية صـ٦٩٩، ٧٠٠، وموسوعة عالم النبات إعداد إلفانا مصطفى حمود، مراجعة محمد حمود صـ ١٨٠، ط دار الفكر اللبناني بيروت ط ثانية ١٩٩٧، والغذاء ولا الدواء صـ ٦٨ فما بعد.

ولما كان للزيتون والنخيل والعنب أنواعاً، كانت أل التعريف فيها للجنس، بدلالة الاقتران مع أل التعريف في الزرع.

ولم يأت النظم نحو: ينبت لكم الزرع وثمرات الزيتون والنخيل والأعناب كما في قوله تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ﴾ الآية [النحل:٦٧]، وإنما عبر بالأصول ودخل الثمر في ذلك بقرينة الامتنان، وإنما عبر بأصولها لأن السياق في الأصل سياق دلالة على وحدانية الله وقدرته؛ وعنايته بالإنسان وإنعامه عليه بما يستوجب الشكر، لما يحتويه هذا الإنبات من عجائب ودلائل إيمانية؛ وفي ذلك يقول أبو حيان: (ألا ترى أنّ الحبة الواحدة إذا وضعت في الأرض ومر عليها مقدار من الزمان معين، لحقها من نداوة الأرض ما تنتفخ به، فينشق أعلاها فيصعد منه شجرة إلى الهواء، وأسفلها يغوص منه في عمق الأرض شجرة أخرى وهي العروق، ثم ينمو الأعلى ويقوى، وتخرج الأوراق والأزهار والأكمام، والثمار المشتملة على أجسام مختلفة الطبائع والطعوم والألوان والروائح والأشكال والمنافع، وذلك بتقدير قادر مختار وهو الله تعالى).(١)

فكل هذه الثمار وكل هذه المنافع الموجودة فيها مع اختلاف كل ثمرة في الهيئة والتكوين والنفع إنما سقي بماء واحد وهو الماء الذي أنزله الله من السماء، كما قال تعالى:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ

---

(١) انظر: البحر المحيط ٥/ ٤٧٨.

أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام:٩٩].

وكذلك قال تعالى: ﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرعد:٤].

ولما كانت المذكورات قوامَ معيشة الإنسان؛ وسببَ زيادة ثروته وتوسيع ملكه، قدم النظم القرآني ﴿لَكُم ﴾ -مع ما في اللام من معنى الاستحقاق[١]- على قوله ﴿بِهِ﴾ اهتماماً بحاجة الإنسان و إشباعاً لفطرته في حبه للتملك وإظهاراً لتخصصه بها في عموم النفع؛ فلئن كان الله قد فطر الإنسان على حب المال والحرث فلا ينبغي أن تحجبه هذه النعم عن المنعم عليه، وتصرفه عنه سبحانه.

أما ﴿بِهِ﴾ فالباء سببية، أي بسبب الماء النازل من السماء أنبت الله الزرع والزيتون..الخ، وفي هذا إشارة إلى أن الله تعالى جعل في الماء خصائص قد تهيأت لها النبتة بتقديره تعالى، لتنمو وتزهو وتنضج، وهذه الخصائص لا توجد في غير الماء، وقد نستبين هذا بما تكشفت عنه الأبحاث العلمية في معرفة خصائص الماء ودوره في عملية الإنبات ومن أهمها:[٢]

(١) انظر: معاني اللام في حروف المعاني للزجاجي صـ ٤٠، ومعاني الحروف لعلي بن عيسى الرماني صـ٥٥، تحقيق د. عبد الفتاح شلبي ط دار الشروق الثانية ١٤٠١هـ.

(٢) انظر: أسس الإنتاج النباتي تأليف نخبة من أعضاء هيئة التدريس بقسم الإنتاج النباتي كلية الزراعة صـ٢٨١، ط: جامعة الملك سعود الرياض، أولى ١٩٨٦م.





أ- زيادة سرعة امتصاص الماء وتوزعه في فجوات خلايا النبات.

ب- يشارك الماء في كثير من التفاعلات الكيميائية التي تحدث داخل الخلية كالتحلل المائي للنشاء إلى سكر أو التكثيف... وهذه الأنواع من التفاعلات مهمة لعملية الأيض.

ج- الماء مهم لاختزال ثاني أكسيد الكربون في عملية البناء الضوئي.

د- يذيب الماء معظم المواد التي تدخل في تفاعلات الخلية مثل السكاكر والأحماض، ويذيب أيضاً الغازات والمعادن التي تدخل إلى خلايا النبات، وإن وجوده في الخلايا النباتية يحافظ على شكل الخلية لما في الماء من خاصية عدم انضغاطه عند الضغط الجوي.

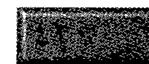
هـ- ويقوم الماء بفضل الله بعدة وظائف أخرى ككونه الوسط الذي تنتقل فيه الأمشاج في غالبية النباتات الأولية وبعضاً من النباتات الزهرية والأبواغ.

و- الماء يساعد في تدعيم المجموع الخضري لمثل النباتات المطمورة وشبه المطمورة، وبقائه في الوضع الأمثل بالنسبة لمعيشة النبات.

كما أن الماء داخل النبات في حركة دائمة، حيث يمتص بكميات كبيرة؛ ويفقد كذلك من معظم النبات على هيئة بخار، والماء بخواصه الفريدة والمميزة يساعد على ثبات درجة حرارة النبات.(١)

---

(١) ينظر العلاقات المائية في النبات د. محمد حمد الوهيبي صـ ٦ إلى ١٣، ط جامعة الملك سعود الرياض ١٩٨٤.



وجاء الفعل: ﴿ يُنۢبِتُ ﴾ مضارعاً، وقد سبقه فعل إنزال المطر ماضياً: ﴿أَنزَلَ ﴾؛ ليتخيل الإنسان هذا الإنزال والإنبات بمراحله؛ فيتعرف عظيم نعمة الله تعالى عليه وعنايته به؛ وكيف قدر لكل شيء قدره ووظيفته من أجل كمال معيشة الإنسان.

و (من) في قوله تعالى: ﴿مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ للتبعيض، لأنّ كل الثمرات لا تكون إلا في الجنة، وإنما أنبت في الأرض بعضاً من كلها للتذكرة[١]، (وتنبيهاً على أنّ تفصيل القول في أجناسها وأنواعها وصفاتها ومنافعها مما لا يكاد يحصر.

وختم تعالى الآية بقوله: ﴿لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾، لأنّ النظر في ذلك يحتاج إلى فضل تأمل واستعمال فكر).[٢]

وسيقت الأدلة على وحدانية الله بأسلوب فيه تشويق للعقل، وترقب للذهن؛ ليتمكن الدليل من النفس فيبقى أثره في تحريك الفكر، فالمطالبة بالتفكر تستدعي مقدماتها؛ من النظر والملاحظة والبحث العلمي، وجمع المعلومات، وإعمال العقل في التخييل والمقارنة والتحليل؛ ثم استخلاص الكليات من الجزئيات والنتائج من المقدمات[٣]، وهذه الظواهر التي ذكرها الله في السورة تشد الفضول العقلي للمساءلة والتفتيش، وإعمال مقدمات التفكر السابقة؛ للوصول إلى النتيجة المطلوبة؛ وهي

(١) انظر: البحر المحيط ٥/ ٤٧٨.

(٢) البحر المحيط ٥/ ٤٧٨.

(٣) ينظر: حول معنى التفكر في القرآن: القرآن وعلم النفس د. محمد عثمان نجاتي صـ١٣٧ ط دار الشروق الثامنة ٢٠٠٥م.



توحيد الله تعالى وشكره على ما أنعم، وتكوين الشخصية السليمة ذات العقلية العلمية العقائدية؛ المبنية على القناعة بالحجج والبراهين.

يقول ابن عاشور: (ونيطت دلالة هذه بوصف التفكير؛ لأنها دلالة خفية لحصولها بالتدريج، وهو تعريض بالمشركين الذين لم يهتدوا بما في ذلك من دلالة على تفرّد الله بالإلهية بأنهم قوم لا يتفكرون).[1]

إن المطالبة بالتفكر في سياق هذه المظاهر الكونية الدقيقة؛ دليل على أن نطاق التفكر إنما هو في المحسوسات والمعقولات، لا في الغيبيات والعقائد.

---

(١) التحرير والتنوير ١٤/ ١١٥.

من مظاهر عناية الله بالإنسان: إصلاح العالم العلوي والسفلي

٤- ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾.

*** مناسبة الآيات:**

في مناسبة هذه الآيات لما قبلها وجهان:

● **أحدهما**: أنه لما عدد سبحانه من الدلائل المنطوية على النعم بأنواعها على الإنسان في الأرض من الحيوانات والمزروعات والثمار؛ انتقل لذكر أنواع أخرى من الدلائل المنطوية على النعم التي سخرها الله تعالى للإنسان في السماء والبحار، وبيان وجه تسخيرها.

● **والمناسبة الثانية**: هي أن بعض الطبيعيين قد يقول: إنّ ما ذكر من النبات والزروع والثمار إنما نبت بتأثير النجوم والأفلاك الكونية، فبين الذكر الإلهي أن هذه الأفلاك إنما هي مخلوقة ومقدرة من الله تعالى خالق كل شيء، فإن كان لها تأثير فذلك بخلق الله عز وجل لأنها مقهورة بالخلق والتسخير، يقول البقاعي: (ولما كان ربما قال بعض الضلال: إن هذه الأشياء مستندة إلى تأثير الأفلاك، نبه على أنها لا تصلح لذلك بكونها متغيرة فلا بد لها من قاهر أثر فيها التغير، ولا يزال الأمر كذلك إلى أن ينتهي إلى واحد قديم فاعل بالاختيار، لما تقرر من بطلان التسلسل).(١)

---

(١) نظم الدرر ١١/ ١٢١.

*** غريب الآيات:**

سَخَّرَ: التسخير: سياق الشيء إلى الغرض المختص قهراً، وكُلُّ مَقْهُورٍ مُدَبَّرٍ لا يَملِكُ لِنَفْسِهِ ما يُخَلِّصه من القَهْرِ فذلك مُسَخَّر، والتسخير: التذليل، قال اللهُ تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ أي: ذَلَّلهما ﴿وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمْرِهِۦ﴾ قال الأَزْهَرِيّ: جارياتٌ مَجَارِيَهُنَّ.(١)

ذَرَأَ: الذرء إظهار الله تعالى ما أبداه.

يقال: ذرأ الله الخلق، أي: أوجد أشخاصهم(٢)، يقول ابن عاشور: (والذرء: الخلق بالتناسل والتوّلد بالحمل والتفريخ، فليس الإنبات ذرءاً، وهو شامل للأنعام والكراع ولغيرها مثل كلاب الصيد والحراسة، وجوارح الصيد، والطيور، والوحوش المأكولة، ومن الشجر والنبات).(٣)

وعامة المفسرين جروا على إعمال معنى الخلق على عمومها في ذرأ.(٤)

*** تفسير الآيات:**

قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمْرِهِۦٓ ﴾:

---

(١) انظر: المفردات صـ ٢٢٧ ، لسان العرب ٤/ ٣٥٢، تاج العروس مادة: سخر.

(٢) المفردات للراغب صـ ١٧٨.

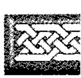
(٣) التحرير والتنوير ١٤/ ١١٧.

(٤) انظر مثلاً: زاد المسير ٤/ ٣١٧، الكشاف ٢/ ٥٥٩، ابن عادل ٢/ ٤٨، الشربيني الخطيب ٣/ ٣٢٠.

تقدم أن التسخير تذليل وفيه قهر، والنظام الذي تسبح فيه الشمس والقمر، ويتعاقب بسببه الليل والنهار وتجري به النجوم؛ نظام لا خيرة فيه لهذه الأفلاك أو أمثالها، ولا دخل فيه للإنسان، وإنما قهرها الله تعالى بهذا النظام التي هي عليه وذللها، بأمر كوني ووحي رباني؛ كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ١١، ١٢]، فقوله: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ كناية عن عدم البد في قبول الأمر، وقوله: ﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ يدل على معنى التسخير الذي جبل عليه ما في السماوات ومنها السماء الدنيا.

ومعنى (أمرها) أي شأنها، وهو يصدق على كل ما هو من ملابساتها من سكانها وكواكبها وتماسك جرمها والجاذبية بينها وبين ما يجاورها، فما السماء الدنيا إلا من جملة السماوات، وما الليل والنهار والشمس والقمر وآثارهما والنجوم والشُّهُب إلا من جملة أمرها.

ولذلك فإن الباحث يرى أن حمل التسخير على دلالته الحقيقة أولى في شأن الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم، لأن هذه المخلوقات لا مناص لها من أن تتشكل بالكيفية التي أرادها الله، وأن تتنجز بقدرة الله، فكان ذلك منزلاً منزلة القهر على الشيء، والتسييس على فعله، فلا حاجة لاستبعاد المعنى الحقيقي للتسخير كما ذهب



إليه بعض المفسرين[١]، والله أعلم. يقول أبوالسعود رحمه الله: (وليس المرادُ بتسخيرها لهم تمكينَهم من تصريفها كيف شاءوا كما في قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾ [الزخرف:١٣] ونظائرِه، بل هو تصريفُه تعالى لها حسبما يترتب عليه منافعُهم ومصالحُهم؛ كأن ذلك تسخيرٌ لهم وتصرفٌ من قبلهم حسب إرادتِهم، وفي التعبير عن ذلك التصريف بالتسخير إيماءٌ إلى ما في المسخَّرات من صعوبة المأخذ بالنسبة إلى المخاطبين، وإيثارُ صيغةِ الماضي للدلالة على أن ذلك أمرٌ واحدٌ مستمر وإن تجددت آثارُه).[٢]

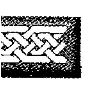
والإتيان بـ ﴿لَكُمُ﴾ بعد لفظ التسخير قبل المسخرات؛ فيه من العناية بالإنسان وإصلاح عالمه العلوي لأجله، وإتقان صنعه بما ينفعه في الدنيا والآخرة حتى كأنها حقاً له، مختصةً به، كأنه مالكها.[٣]

---

(١) نقل الاستبعاد: الآلوسي ١٤/ ١٠٨ عن بعضهم، وقدر رأيت هذا الرأي للرازي عند تفسير الآية ٣٣من سورة إبراهيم، وفي تفسير النحل ٢٠/ ٥، إذ جعل التسخير مجازاً لأن الليل والنهار والشمس والقمر جمادات لا تعقل ولا تقهر. ثم قال: إن معنى القهر ينسجم على طريقة أهل الهيئة، وتبعه في هذا ابن عاشور في التحرير والتنوير ٨/ ١٦٨، ١٦٩ عند تفسير الأعراف الآية (٥٤)، فقال: (فقوله: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [الأعراف:٥٤] أطلق التّسخير فيه مجازاً على جعلها خاضعة للنّظام الذي خلقها الله عليه بدون تغيير، مع أنّ شأن عظمها أن لا يستطيعَ غيره تعالى وضعها على نظام محدود منضبط).

(٢) أبو السعود ٥/ ١٠١، ومثله الآلوسي ١٤/ ١٠٨.

(٣) ينظر: اللامات دراسة نحوية شاملة في ضوء القراءات القرآنية صـ ٧٦ د. عبد الهادي الفضلي ط دار القلم بيروت، الأولى ١٩٨٠.حيث جعل هذا النوع من اللامات بمعنى شبه التمليك، وعرفها بقوله: (هي الداخلة على مختص بشيء اختصاص المالك إلا أنه لا يملك).



*** مظاهر تسخير الليل والنهار:**

أما مظاهر تسخير الليل والنهار فقد بين القرآن بعضها في آيات كثيرة، فجعل الله الليل مجمَعاً للنجوم فقال تعالى: ﴿ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ﴾ [الإنشقاق:١٧]، كما أنه مجمع للمخلوقات الحية حتى النبات، إذ فطرها الله على الاجتماع والإيواء لبيوتها في الليل؛ لما في الليل من خصائص السكن والراحة والسبات(١)، وجعله ظلمة وسكناً ووصفه باللباس، وجعل النهار معاشاً يبتغي الناس فيه من فضل ربهم، كما هو معاش للحيوان والنبات، ومبصراً ونشوراً، وجعل في تعاقبهما واختلافهما وتقلبهما آيات لذوي العقول والأسماع والأبصار، وكذلك سبباً من أسباب معرفة عدد السنين والحساب، والآيات الدالة على هذا كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَسۡمَعُونَ ﴾ [يونس:٦٧]، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةً لِّتَبۡتَغُواْ فَضۡلًا مِّن رَّبِّكُمۡ وَلِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ وَكُلَّ شَىۡءٍ فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلًا ﴾ [الإسراء:١٢]، وقوله تعالى: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةً لِّأُوْلِى ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴾[النور:٤٤]، وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴾ [الفرقان:٤٧]، وقال تعالى: ﴿ وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ

أنموذج طريقة التفسير الموضوعي في التفسير العلمي للقرآن.

(١) انظر: ابن كثير ٨/ ٣٥٨ ط دار طيبة ، وفيه عن ابن عباس في تفسيرها: أنه يجمع النجم والدواب.

لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴾ [النبأ: ١٠، ١١] وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [النمل: ٨٦].

وفي ورود هذه الألفاظ (لتسكنوا، سكناً، لباساً..) في الليل، و: (مبصراً، ونشوراً، معاشاً..) في النهار، و: (لتعلموا عدد السنين والحساب، يقلب الليل والنهار، يولج الليل في النهار وبالعكس، ويكور الليل على النهار) في الليل والنهار، وما تحمله هذه الألفاظ القرآنية من دلالات فلكية؛ ودلالات نفسية ترسم (سنن الفطرة) التي ترجع على الإنسان بالراحة والسكينة والأمن النفسي إن التزم بها.

أقول: إن في ورود هذه الألفاظ وما تضمنته دلالتها؛ ما يستدعي الأخصائيين الوقوف عندها والاستفادة من إشاراتها، لنعلم أوجهاً جديدة في التسخير الذي أشار الله إليه في هذه الآية وغيرها، ومدى ارتباط فطرة الإنسان بنظام الكون حتى أصبح الجميع نظاماً واحداً دالاً على وحدانية الله وقدرته وعلمه.

وقد ذكر العلماء حاجة الحياة عامة، والإنسان خاصة لهذا التبادل بين الليل والنهار، وضرورته في استمرار الحياة بصورها المختلفة إلى يوم القيامة.

(فبهذا التبادل بين الظلمة والنور يتم التحكم في درجات الحرارة والرطوبة على سطح الأرض في غلافها الغازي القريب من ذلك السطح، ويتم كذلك التحكم في كميات الضوء اللازمة للحياة في مختلف البيئات الأرضية، كما يتم التحكم في عديد من الأنشطة والعمليات الحياتية مثل التنفس والنتح والتمثيل الضوئي، والأيض وغير ذلك من تنظيم دورة المياه بين السماء والأرض وضبط الحركات والتيارات

المختلفة في البحار كالمد والجزر، والتحكم بسير الرياح وتسخير السحاب، وتركيز مختلف الثروات الأرضية...).[١]

فكل ما يذكر من فوائد الليل والنهار ومنافعهما للحياة في العلوم الفلكية وغيرها؛ يدخل في مدلول التسخير في الآية الكريمة مما يوسع معناها ما دام الإنسان يكتشف مظاهر هذا التسخير في أسرار الكون إلى يوم القيامة.

أنموذج استخدام القراءات في التفسير العلمي للقرآن.

ثم عطف فعل التسخير على الشمس والقمر - على قراءة الجمهور بالفتح -، مع ما تضمنته دلالة التسخير من معاني الخلق والجعل والقهر والتقدير، كل ذلك لأجل مصلحة الإنسان في نفسه وفي حياته.

أما على القراءة الأخرى للآية، برفع الشمس والقمر والنجوم ابتداءً على الاستئناف[٢]، فإنها تدل على تغاير التسخير والمنافع فيهما عن الليل والنهار، فنظام تسخير الليل والنهار يغاير نظام تسخير الشمس والقمر والنجوم؛ وإن كانوا يتفقون في بعض الأوجه كمعرفة السنين والحساب.

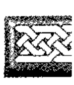
يقول ابن عاشور في التعليق على الفرق بين القراءتين في المعنى: (فنكتة اختلاف الإعراب الإشارة إلى الفرق بين التسخيرين)[٣].

---

(١) السماء في القرآن د. زغلول النجار صـ٤٢٢ مع بعض التصرف والاختصار، ينظر الكتاب للتوسع.

(٢) وهي قراءة ابن عامر انظر كتاب الإقناع في القراءات السبع ٢/ ٦٨١ لأحمد بن علي بن خلف الأنصاري ابن الباذش تحقيق د. عبد المجيد قطاش ط جامعة أم القرى مكة الثانية ١٤٢٢، والتحرير والتنوير ١٤/ ١١٧.

(٣) التحرير والتنوير ١٤/ ١١٧.



ونعود إلى القرآن الكريم لنورد مظاهر تسخير الشمس والقمر في آياته.

*** مظاهر تسخير الشمس والقمر:**

أنموذج طريقة التفسير الموضوعي في التفسير العلمي للقرآن.

فالآيات التي ذكرت مظاهر تسخير الشمس والقمر كثيرة، وقد حملت في طيات دلالاتها ونظم سياقها إشارات كونية تحتاج لوحدها كتاباً، وسنقتصر على عناوين عريضة منها:

الشمس والقمر **مصدر رئيس من مصادر الضوء**: فقد جعل الله تعالى **الشمس ضياءً والقمر نوراً**، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [يونس:٥].

وكون القمر مصدراً للضوء في الليل فإن منافع هذا الضوء غير الحراري متعددة بما يعود نفعه على الإنسان، فمن ذلك نشاط الصيد في مناطق ساحلية في الليالي المقمرة، بسبب النشاط الذي يبعثه ضوء القمر في الأصداف والأسماك[١]، ولا ندري ما ستكشفه التجارب من منافع ضوء القمر مع مرور الزمن.[٢]

---

(١) ينظر: الطريق إلى القمر م. سعيد شعبان صـ ١٢ ط الهيئة المصرية العامة ١٩٧١.

(٢) يربط بعضهم بين النشاط الزراعي والقمر بأن بينهما علاقة، وكذلك بين القمر وبعض المظاهر الجوية، ولكن يرى آخرون أن لا علاقة بينهم، وأن الأبحاث الجارية في هذه العلاقة كالتي فعلها العالم الفرنسي (فلامريون) لم تكلل بالنجاح في إثباتها، ينظر: الطريق إلى القمر صـ ١٢ فما بعد، علماً أني وجدت عدداً من المهندسين الزراعيين وكذلك الأطباء البيطريين يؤكدون لي عند مناقشتهم وسؤالهم عن أهمية ضوء القمر- على أهمية ضوء القمر في زيادة الإنتاج الزراعي=

والشمس والقمر أصل في حساب الوقت والتقويم: فإن نظام الدوران الذي يسبح فيه النيران؛ نظام دقيق، له قواعده ونظامه الحسابي، قال تعالى: ﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ [الرحمن:٥]. فهما أصل في معرفة السنين والحساب، قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ [الأنعام:٩٦].

وتختص الشمس بأنها مصدر من مصادر الحرارة الرئيسة، فقد وصفها الله تعالى بالسراج الوهاج ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح:١٦]، وقال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ [النبأ:١٣].

وتعتمد الحياة على الأرض بجميع صورها على ما ترسله الشمس من حرارة وضوء بانتظام، فلو زادت أو نقصت هذه الطاقة؛ فإن ذلك سيؤثر على مقدار سخونتها أو برودتها، وقد تصبح الأرض غير صالحة للحياة[1]، فعملية التركيب الضوئي في النبات تعتمد في الأساس على الشمس، وتعود منفعتها على الإنسان والحيوان والبيئة، كما يتأثر الطقس بالشمس؛ لأنها تعمل على تبخير المياه من الأنهار والمحيطات والبحيرات، ثم تسقط على هيئة أمطار أو ثلوج.

= والحيواني ودعموا كلامهم بتجارب لهم ولأساتذتهم في الكليات فالله أعلم، وقد علق فضيلة المشرف د. نور الدين حفظه الله هنا ما نصه: (الفستق لا ينضج ويتشقق إلا في الليالي المقمرة ويطرب المزارعون لصوت تشققه المتتابع) أ.هـ. ويبدوا أن أبحاث الفرنسي السابق كانت فاشلة لأسباب فيه!!

(١) انظر: الموسوعة العربية العالمية ١٤/ ٢٤٤ ط.

فتدفق الحرارة والأشعة من الشمس بانتظام من أنواع تسخير الشمس للإنسان.

والشمس مصدر للطاقة: فما يزال الإنسان يستخدم الشمس في الوقود الأحفوري أو الفحم الحجري، ويستخدم الشمس لتوليد الطاقة، كما أن طاقة الشمس لها أثر في توليد الرياح.(١)

والشمس السبب الأول في تكوين نطق الحماية المختلفة للأرض كالنطاق المغناطيسي، وأحزمة الأشعة، والنطاق المتأين، ونطاق الأوزون؛ الذي يعمل على حماية الأرض من كل من الأشعات فوق البنسفجية والكونية.(٢)

ومن نعم تسخير الشمس التي بينها الله تعالى في كتابه **معرفة أجزاء النهار** قال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴾ [الفرقان:٤٥].

---

(١) انظر: انظر الموسوعة ١٤/ ٢٤٥. أضف إلى أن الشمس تحتوي على الحديد، انظر: الحديد والشمس والعلقمة الحمراء أ.د. مسلم شلتوت أستاذ بحوث الشمس والفضاء، مجلة الإعجاز العلمي، العدد العاشر رجب ١٤٢٢ صـ٦٢. ينظر للاستزادة في موضوع الشمس: موسوعة الفلك، الكون البيئة التلوث صـ١٨، إعداد إلفان مصطفى حمود ط دار الفكر اللبناني، ١٩٩٧. والمنهج الإيماني للدراسات الكونية في القرآن الكريم د. عبد العليم عبد الرحمن خضر، صـ٧ إلى صـ٨٢، ط الدار السعودية جدة الأولى ١٩٨٤.

(٢) انظر: السماء في القرآن د زغلول النجار صـ ٥٨٤. بل صارت تستخدم بديلاً عن طاقة النفط للسفن، وقد عبرت أول سفينة صغيرة المحيطَ بين ألمانيا ونيويورك على الطاقة الشمسية بسرعة مثالية فوق المتوقع وقد شاهدت ذلك في القناة الألمانية للأخبار في أواخر الشهر الرابع الميلادي ٢٠٠٧م.

كل هذا وغيره مما ذكره المختصون وما سيذكرونه بعدُ من منافع الشمس؛ يدخل في عموم دلالة التسخير في الآية الكريمة، والدلالة ما تزال مفتوحة لما يستجد من الاكتشافات العلمية لمنافع الشمس.. والله أعلم.

وقد قدر الله للقمر منازل ينزل فيها لمنافع حسابية وتقويمية زمنية، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ﴾ [يونس:٥].

ولما كان القمر يمر بمراحل في فلكه من ولادته إلى غيابه؛ في سنَّة مطردة كما قدرها الله لا تتبدل ولا تتغير، صار يستخدم عبر التاريخ في التقويم، كما استخدمت الشمس لذلك[١]، قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾ [البقرة:١٨٩]، فهو ينظم مواعيد الصوم والحج والأيام الفاضلة وتسجيل المواليد والديون والسجلات والوفيات وغير ذلك، بل صار القمر ـ كما الشمس ـ من علامات الزمن النسبي وتغير الفصول والحرارة.[٢]

ومن مظاهر تسخير القمر أن يكون بدراً، فأقسم الله بالقمر عندما يكون بدراً تنبيهاً لعجيب هذه الظاهرة وأثرها في مسار الحياة فقال تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾ [الإنشقاق:١٨]، أي: اكتمل نوره وصار بدراً[٣] له نوره وضوؤه وأثره.



(١) ينظر: التقويم وأنواعه وتاريخه للتوسع في ذلك الموسوعة العربية العالمية ٧/ ٧٥ فما بعد.

(٢) ينظر: هندسة النظام الكوني صـ ٦٧، و: القمر في الدين والأدب والعلم د. أحمد الشرباصي صـ ١٥، ١٦، ط دار الهلال ١٩٧٢.

(٣) الآلوسي ٣٠/ ٨٢. ورد في تفسير: ﴿ٱتَّسَقَ﴾ عن ابن عباس: (أي: استوى واجتمع وتكامل وتم واستدار)، الرازي ٣١/ ١٠٩ ط إحياء التراث.

وتذكر العلوم التطبيقية من أثر القمر على الأرض -خاصة عندما يكون بدراً- أنه يتسبب أساساً **بعملية المد والجزر بسبب جاذبية القمر**[١].

ولهذه الظاهرة وحدها من المنافع التي تعود على الإنسان الكثير، فالتيارات المائية الناتجة عن ظاهرة المد والجزر تعمل على تنظيف القنوات الرئيسية لتبقيها عميقة، وكذلك تنظف الموانئ البحرية إذ يقوم المد والجزر بنقل المخلفات من الشواطئ إلى الأعماق، والموانئ الكبيرة البحرية تستغل ظاهرة المد المرتفع لدخول السفن المحيطة والمراكب البخارية لدخول الموانئ ذات الممرات الضحلة.[٢]

واستفادت الكثير من الدول من ظاهرة المد والجزر؛ فاستخدمتها لتوليد الطاقة الكهربائية بطرق عدة[٣]. ويذكر المختصون أنه ينتج بفعل المد الذي يحصل في المحيطات -عندما تصطدم المياه بحافات القارات-؛ ينتج منه حرارة على حساب طاقة دوران

---

(١) إذ يجذب القمر الماء الواقع تحتها مباشرة أما على الجانب الآخر من الأرض فإن القمر يسحب جسم الأرض الصلب بعيداً عن الماء، ونتيجة لذلك يتكون في البحار والمحيطات مداً عالياً، ومع دوران الأرض ينتقل هذان النتوءان من الشرق إلى الغرب، ففي كل يوم يشهد كل مكان على الشاطئ مدين وجزرين. ينظر الموسوعة العربية العالمية ١٨/ ٣١٧.

(٢) ينظر: الموسوعة العربية العالمية ٢٢/ ٤٥٨. كما أن القمر يتسبب أيضاً بالمد والجزر في الهواء ولكنه بسيط لا يشعر به الإنسان ويسمى هذا المد بالرياح القمرية. انظر: الموسوعة العربية ٢٢/ ٤٦٠.

(٣) انظر: المدخل إلى علم الفلك والتقاويم، د. محمد عباس صـ٤١ ط دار المعرفة دمشق أولى ١٩٩٧.

الأرض حول محورها، وهذا من شأنه أن يقلل من سرعة دوران الأرض ويضبطها[١]، والله أعلم.

ومن منافع القمر التي تعود على الإنسان أنه يساعد مع الجبال على ضبط توازن الأرض بفعل الجاذبية المتبادلة بين الأرض والقمر.[٢]

ولما كان بناء الكون لا يقادر تصوره في خيال الإنسان، ولا ينحصر حيزه في الشمس والقمر والأرض، ولا ينتهي انتفاع الإنسان بما سبق ذكره في الآية؛ بين المولى سبحانه أن النجوم أيضاً مسخرة، ولكم نصيب منها تنتفعون به، فقال تعالى: ﴿وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓ﴾.

وهذه الجملة من الآية ﴿وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓ﴾ جاءت بأسلوب يغاير أسلوب صدرها، فهي هنا جملة اسمية، وليس فيها صيغة الاختصاص، وفي هذا النظم تأسيس لمعنى جديد تكلم فيه المفسرون، يقول أبو السعود: (أي سائر النجوم في حركاتها وأوضاعها من التثليث والتربيع ونحوهما؛ مسخرات لله تعالى، أو لما خلقن له بإرادته ومشيئته، وحيث لم يكن عود منافع النجوم إليهم في الظهور بمثابة ما قبلها من الملوين[٣] والقمرين؛ لم ينسب تسخيرها إليهم بأداة الاختصاص؛ بل ذكرها على وجه

---

(١) ينظر: المنهج الإيماني للدراسات الكونية صـ ١٦٣ .

(٢) ينظر: المنهج الإيماني للدراسات الكونية صـ ١٥١ .

(٣) أي الليل والنهار وطرفاهما وهذا اللفظ من المثنى الذي لا يفرد واحده، انظر: جنى الجنتين في تمييز نوعي المثنيين صـ ١٠٨ ، محمد أمين بن فضل الله المحبي ط دار الكتب العلمية دون تاريخ.





يفيد كونها تحت ملكوته تعالى من غير دلالة على شيء آخر، ولذلك عدل عن الحدوث إلى الاسمية المفيدة للدوام والاستمرار).[١]

أنموذج استخدام القراءات في التفسير العلمي للقرآن.

وهذا التفسير على قراءة حفص برفع النجوم على الابتداء، وهو مع وجاهته إلا أن فيه نظراً، لحصر دلالتها على كونها تحت ملك الله تعالى فقط من غير دلالة على شيء آخر، مع أن السياق يحتمل معنىً آخر، فمن فوائد الجملة الاسمية هنا تعظيم هذا التسخير لتنوعه وكثرته، ويدل لذلك أحد المعاني المترتبة على إحدى احتمالات إعراب قراءة الجمهور بنصب الجميع[٢]، فإن لها على ذلك ثلاثة أوجه من الإعراب، الثالث منها: أن النجوم معطوف على الكل، ومسخرات مصدر ميمي على أنه مفعول مطلق لسخر، جُمع لاختلاف الأنواع، والمعنى: سخرها أنواعاً من التسخير[٣]، وعلى ذلك

---

(١) أبو السعود ٣/ ٣٤٥ ط مكتبة الرياض الحديثة تحقيق عبد القادر أحمد عطا ١٤٠١هـ. وينبغي الإشارة هنا إلى أن هذا التفسير على قراءة حفص عن عاصم، أما الجمهور فقرؤوا بالنصب في الجميع مع نصب مسخرات على الحال، أو المفعول المطلق أو المفعول الثاني.
انظر: البحر المحيط ٥/ ٤٧٩.

(٢) انظر: السبعة في القراءات لابن مجاهد تحقيق شوقي ضيف صـ ٣٧٠ ط دار المعارف الثانية، والتبصرة في القراءات السبع لمكي بن أبي طالب تحقيق د. محمد غوث الندوي صـ٥٦٣ ط الدار السلفية الهند.

(٣) وقد قوى الآلوسي هذا الوجه ورد استبعاد أبي السعود له، فينظر في محله لزاماً: روح المعاني ١٤/ ١١٠. وأما الأوجه الأخرى لإعراب الآية:
الأول: أن النجوم مفعول به أول، ومسخرات مفعول به ثان والفعل مقدر دل عليه الفعل سخر، والمعنى: وجعل النجوم مسخرات بأمره. =



جرى البقاعي في تفسيره فقال: (﴿وَٱلنُّجُومُ﴾ أي: لآيات نصبها لها، ثم نبه على تغيرها بقوله: ﴿مُسَخَّرَٰتُۢ﴾ أي: بأنواع التغير، لما خلقها له على أوضاع دبرها).(١)

أي: إن الله تعالى قدرها وسخرها بأنواع مختلفة ومتعددة، لتنفع الإنسان وتصلح شأنه، وفي هذا المعنى تتعدد أوجه نعم الله على الإنسان، ودلائل وحدانية الله وقدرته وحكمته سبحانه بتعدد أنواع التسخير.

قوله تعالى: ﴿بِأَمْرِهِۦٓ﴾، يقول ابن عاشور: (والمراد بأمره أمر التكوين للنظام الشمسي المعروف)(٢)، ولكن أمر الله تعالى ليس للنظام الشمسي فقط؛ وإنما لكل ما ذكر في الآية من المسخرات، ومنها النجوم، وهي لا تنحصر بالنظام الشمسي.

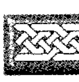
ويرى الباحث أن (الأمر) بمعنى: الشأن المتضمن للخلق والتقدير أقرب بقرينة دلالة السياق، إذ المذكورات في الآية من الجمادات ومنافعها، فيناسبها معنى التقدير، ولأن لفظ الأمر بمعنى الشأن والفعل موجود في القرآن، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠].(٣)

= الثاني: النجوم معطوف على المنصوبات الأخرى ومسخرات حال من الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم، والعامل فيه ما في سخر من معنى نفع على المجاز، أي نفعكم بها حال كونها مسخرات لله الذي خلقها ودبرها كيف شاء، أو لما خلقن له بإيجاده وتقديره أو لحكمه. ينظر: البحر المحيط ٥/ ٤٧٩، أبو السعود ٥/ ١٠٢، روح المعاني١٤/ ١٠٩.

(١) نظم الدرر ١٤/ ١٢١.

(٢) التحرير والتنوير: ١٤/ ١١٧.

(٣) انظر: الرازي: ٢٠/ ٥.



أي: إن هذا التسخير المتنوع متلبسٌ بخلقه تعالى وتقديره ليكون، (سبباً لصلاحكم وصلاح ما به قوامكم، ودلالة على وحدانيته وفعله بالاختيار، ولو شاء لأقام أسباباً غيرها أو أغنى عن الأسباب).(١)

أنموذج التفسير الموضوعي في التفسير العلمي للقرآن.

أما مظاهر تسخير النجوم في القرآن فقد أشار الله إليها في عدة آيات، وبين الله صفات بعضها مقسماً ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ﴾ [التكوير:١٥، ١٦]. لما في هذه الصفات من الدلالة على أحوال الزمن المرتبط بها.

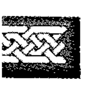
وأقسم الله بمواقعها، قال تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ [الواقعة:٧٥]، فإن تقدير كل نجم في موقعه؛ لينتفع الإنسان بالنجوم، ويستدل على الوحدانية والقدرة والإرادة؛ لعظيم هذا البناء الكوني المتماسك ودقيق هذا التقدير: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة:٧٦]، فهي في مواقعها مصدر هداية وإرشاد للناس؛ فالملاحة البرية والبحرية والملاحة السماوية؛ تعتمد على مواقع النجوم، قال تعالى: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل:١٦]، فساعدت الطيارين والبحارين وصانعي الخرائط في تحديد الاتجاهات والمواقع وقياس خطوط العرض.(٢)

---

(١) نظم الدرر ١٤/ ١٢١.

(٢) ينظر: الموسوعة العربية العالمية ٢٥/ ١٢٩-١٣٠، ومساقط الخرائط الجغرافية نقولا إبراهيم صـ١٦٢، ط منشأة المعارف الإسكندرية ١٩٧٥، الجغرافية العملية والخرائط د. أحمد نجم الدين فليجة صـ١٤٦، فما بعد ط مؤسسة شباب الجامعة ١٩٩٠ مصر.

وللاستزادة في موضوع منافع النجوم والشمس والقمر: كتاب مع النجوم في تطورها تأليف سيسليابابن جالوشكين، ترجمة د. صلاح الدين حامد، دار الطباعة الحديثة مصر، وهل نحن=



قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ [الأنعام:٩٧].

ومن تسخير النجوم أن الله جعلها زينة للسماء الدنيا، وجعلها رجوماً للشياطين قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الملك:٥].

ويذكر الزجاج من منافع النجوم: علمَ عدد السنين والحساب.(١)

واستبعده ابن عطية فقال: (وفي هذا نظر)(٢).

ولكن ما ذكره الزجاج صحيح، فقد استخدم الناس النجوم عبر التاريخ في التوقيت والحسابات الفلكية وصار ما يسمى باليوم النجمي والتوقيت النجمي وهو أقصر من اليوم الشمسي بدقائق.(٣)

=وحدنا في هذا الكون د. أحمد إسلام صـ٩٧ فما بعد ط مركز الأهرام، الأولى ١٩٩٠. وإسهام علماء المسلمين في تطور علوم الأرض د. زغلول النجار و د. علي عبد الله الدفاع صـ٢٤٢، ٢٤٣ ط مكتب التربية العربي لدول الخليج ١٤٠٩هـ.

(١) انظر: معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٦٣ تحقيق د. عبد الجليل شلبي ط عالم الكتب الأولى ١٩٨٨.

(٢) المحرر الوجيز ٨/ ٣٨٣ تحقيق عبد الله الأنصاري والسيد عبد العال السيد إبراهيم، ط قطر الأولى ١٤٠٥.

(٣) ينظر: الموسوعة العربية العالمية ٢٧/ ١١٧.





كما تحدث علماء الفلك عن أثر النجوم في توازن الكون مطولاً[١]، وظهر لهم حديثاً أن من النجوم (الثقوب السوداء) التي تنظف صفحة السماء.[٢]

وكيلا ينغمس الإنسان في هذه المظاهر فينشغل بالمخلوق عن الخالق، نبهه بالمقصد الذي ذكرت لأجله فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (وجمع الآيات هنا وذكر العقل -وأفرد فيما قبل وذكر التفكر-؛لأن فيما قبل استدلال بإنبات الماء وهو واحد، وإن كثرت أنواع النبات؛ والاستدلال هنا متعدد، ولأن الآثار العلوية أظهر دلالة على القدرة الباهرة وأبين شهادة للكبرياء والعظمة).[٣]

يقول أبو السعود: (وحيث كانت هذه الآثار العلوية متعددة ودلالة ما فيها من عظيم القدرة والعلم والحكمة على الوحدانية أظهر؛ جمع الآيات بمجرد العقل من غير حاجة إلى التأمل والتفكير، ويجوز أن يكون المراد: لقوم يعقلون ذلك، فالمشار إليه حينئذ تعاجيب الدقائق المودعة في العلويات؛ المدلول عليها بالتسخير، التي لا يتصدى لمعرفتها إلا المهرة من أساطين علماء الحكمة، ولا ريب في أن احتياجها إلى التفكير أكثر).[٤]

---

(١) ينظر: هندسة النظام الكوني صـ٩٣ فما بعد.

(٢) ينظر: السماء في القرآن صـ ٢١٥ إلى ٢٣٠ هنا أستدل بمعلومة كونية موثقة عن وجود نجوم تسمى بالثقوب السوداء وظيفتها تنظيف ما في الكون مما يدخل في نطاقها وهذا من أنواع التسخير والتقدير، ولا أستدل بها انتقدته في ضوابط التفسير فليتنبه.

(٣) انظر: البحر المحيط ٥/ ٤٧٩، ونظم الدرر ١١/ ١٢١.

(٤) أبو السعود ٣/ ٣٤٦ تحقيق عبد القادر أحمد عطا ط الرياض ١٤٠١هـ.

(ولما كان ما مضى موضعاً للتفكر المنتج للعلم بوحدة الصانع واختياره، وكان التفكر في ذلك مذكراً بما بعده من سر التفاوت في اللون، الذي لا يمكن ضبط أصنافه على التحرير، وكان في ذلك تمام إبطال القول بتأثير الأفلاك والطبائع، لأن نسبتها إلى جميع أجزاء الورقة الواحدة والحبة الواحدة واحدة، قال تعالى: ﴿ وَمَا ذَرَأَ ﴾).(١)

وهذا عطف على الليل والنهار، أي وسخر لكم ما ذرأ لكم في الأرض من عجائب الأمور ومختلفها من حيوان ونبات ومعادن.(٢)

وتقدم أن الذرء: الخلق عموماً سواء كان بالإيجاد والإبداع، أم بالتناسل والتولد بالحمل والتفريخ، وهو شامل للأنعام والكراع ولغيرها؛ ككلاب الصيد والحراسة، وجوارح الطير والصيد والوحوش المأكولة، والشجر والنبات والمعادن المختلفة.

وزِيد هنا وصف اختلاف الألوان؛ وهو زيادة للتعجب.(٣)

أي: من هيئات كخضرة وسواد وحمرة وبياض، أقول: ومن ذهب وفضة ونحاس..الخ من أنواع المعادن، (وغير ذلك على اختلاف أجناسها وأشكالها ومنافعها وخواصها).(٤)

---

(١) نظم الدرر ١١/ ١٢٢.

(٢) انظر: الزمخشري ٢/ ٥٥٩، الدر المصون ٧/ ١٩٩، التحرير والتنوير ١٤/ ١١٧.

(٣) انظر: التحرير والتنوير ١٤/ ١١٧.

(٤) انظر: تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن لمحمد الأمين العلوي الهرري ١٥/ ١٥٧ إشراف د. هاشم مهدي ط دار طوق النجاة بيروت.



ولكون محل الاستدلال هو اختلاف الألوان مع اتحاد أصل الذرء؛ أفردت الآية في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾[1]، ونيط الاستدلال باختلاف الألوان بوصف التذكر -وهو الاعتبار والاتعاظ- فقال: ﴿لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ لأنه استدلال يحصل بمجرد تذكر الألوان المختلفة إذ هي مشهورة.[2]

وأما وجه اختلاف الأوصاف في قوله تعالى: ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١١] وقوله: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل:١٢]، وقوله: ﴿لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾: (فإنه لمراعاة اختلاف شدّة الحاجة إلى قوة التأمل؛ فدلالة المخلوقات الناجمة عن الأرض يحتاج إلى التفكر، وهو إعمال النظر المؤدي إلى العلم.

ودلالة ما ذرأه في الأرض من الحيوان محتاجة إلى مزيد تأمّل في التفكير للاستدلال على اختلاف أحوالها وتناسلها وفوائدها، فكانت بحاجة إلى التذكّر، وهو التفكّر مع تذكّر أجناسها واختلاف خصائصها.

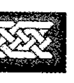
وأما دلالة تسخير الليل والنهار والعوالم العلوية فلأنها أدقّ وأحوج إلى التعمّق؛ فعبر عن المستدلّين عليها بأنهم يعقلون، والتعقّل هو أعلى أحوال الاستدلال).[3]

---

(١) التحرير والتنوير ١٤/ ١١٧.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير ١٤/ ١١٨، وحدائق الروح والريحان ١٥/ ١٥٧.

(٣) نقله ابن عاشور التحرير والتنوير ١٤/ ١٨٨عن الرازي في درة التنزيل. وينظر مثل هذا الوجه في الدر المصون ٧/ ٢٠٠، ابن عادل ٢/ ٤٩، الشربيني الخطيب ٣/ ٣٢١، وانظر لزاماً ما كتبه الشيخ عبد الرحمن حبنكة في قواعد التدبر الأمثل صـ٥٢٥ إلى صـ٥٢٨ عن مناسبة ختم كل مجموعة من هذه النعم بما يلائمها ففيه فائدة.



أقـول: وفي هـذه الجملـة ﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ﴾ فـتح لمعاني لا ينتهي عدها إلى يوم القيامة، وأنى للعقل أن يستوعبها حفظاً وإدراكاً وهـو غـير قادر على إحصاء ما في نفسه من النعم، ونحن نجد في القرآن أنـه كلـما يعـدد الله تعـالى نوعاً من مظاهر وحدانيته ونعمه وعنايته بعباده؛ يختم الآية بلفظ بـديع، أو جملـة جامعـة مفتوحة الدلالة، تستوعب الزمان بمستجداته إلى يـوم القيامـة، كـالمتن الـذي لا يكـون شرحه إلا بمعرفة خفايـا الكـون وأسراره وجديـده؛ فبعـد ذكـر خلـق الـسماء والأرض والإنسان والأنعام المركوبة والمأكولة؛ قال تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾، وبعد ذكر أنواع النبات والغذاء قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾، وبعد ذكر تسخير العالم العلوي؛ قال تعالى: ﴿وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ ﴾، لأن أعدادها كثيرة، وأنواع تسخيرها أكثـر، وعنـد ذكر تسخير العالم الأرضي الذي هو محل عيش الإنسان؛ أجمل كل نعمه ودلائل قدرتـه في قولـه تعـالى: ﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ﴾، لأن منهـا مـا علـم ومنها لم يعلم، ولكل زمان دلالة تناسبها، فسبحان الذي خلق فسوى وقدر فهدى.





دلائل وحدانيتة تعالى في تسخير البحر وخلق الجبال

٥- ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾.

* مناسبة الآيات:

بعدما عدد الله تعالى دلائل وحدانيته وقدرته، ومظاهر نعمه في تسخير ما في الأرض والسماء والنجوم والأفلاك، وما ينتج عنها بما يعود على الإنسان بالمصلحة والسعادة؛ أتبعها في هذه الآيات بدلائل جديدة، في لون جديد من ألوان خلقه ونعمه، فذكر المغمور والظاهر من البحر، ثم ذكر ما على الأرض من جبال وأنهار، وما في السماء من نجوم مسخرةً لوظائف معينة يحتاجها الناس في الدلالة والاسترشاد.(١)

* غريب الآيات:

الْفُلْكَ: الفلك السفينة، ويستعمل ذلك للواحد والجمع، وتقديراهما مختلفان فإن الفلك إن كان واحدا كان كبناء قُفْل، وإن كان جمعا فكبناء حُمُر.(٢)

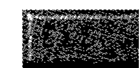
مَوَاخِرَ: يقول الراغب: (يقال مَخَرَت السفينةُ مَخْراً ومُخُوراً إذا شقت الماء بجؤجئها مستقبلة له، وسفينة ماخرة والجمع المواخر).(٣)

---

(١) ينظر: نظم الدرر ١١/ ١٢٤.

(٢) المفردات صـ٣٨٥.

(٣) المفردات صـ٤٦٤.



رَوَاسِيَ: جمع راسٍ، وهو وصف من الرَسْو بفتح الراء وسكون السين.

ويقال بضم الراء والسين مشددة وتشديد الواو، وهو الثبات والتمكن في المكان، قال الله تعالى: ﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ [سبأ:١٣].

ويطلق على الجبل راس بمنزلة الوصف الغالب.[١]

تَمِيدَ بِكُمْ: الميد اضطراب الشيء العظيم كالأرض في هذه الآية.[٢]

* تفسير الآيات:

نحن أمام دلائل جديدة على وجود الله ووحدانيته وقدرته وإرادته تعالى دلائل صدق الوحي وربانية مصدر القرآن، فإنه لم يعهد على الرسول صلى الله عليه وسلم أنه خاض البحر حتى يعرف صفاته وخصائصه بالمشاهدة والممارسة، ولم يعهد على العرب في مكة أيضاً الباع الطويل في معرفة البحار.

ولكنا نجد القرآن في هذه الآيات يتحدث عن عالم البحار وعن تهيئة هذا العالم لاستمرار واستقرار حياة الإنسان، بحيث يتمكن الناس من الانتفاع به؛ فقال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ ﴾ أي: لا غيره، إذ (خلقه على هيئة يمكن معها السبح والسير بالفلك، وتمكين السابحين والماخرين من صيد الحيتان المخلوقة فيه والمسخّرة لحيل الصائدين)[٣].



---

(١) انظر: المفردات صـ١٩٦، التحرير والتنوير ١٤/ ١٢١.

(٢) انظر: المفردات صـ٤٧٧.

(٣) التحرير والتنوير ١٤/ ١١٩.



وسخره إذ هيأه لعيش ما فيه من الحيوان وتكوّن الجواهر، والغوص فيه وغير ذلك من المنافع.[١]

وقد تكلم بعض المفسرين في المراد بالبحر في هذه الآيات، فقال ابن جرير: (وهو كلّ نهر، ملح ماؤه أو عذب)[٢]، وذهب الرازي إلى أن المراد بالبحر هنا: البحار السبعة المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان:٢٧]، وتبعه في ذلك البقاعي فقال: (والمراد به السبعة الأبحر الكائنة في الربع المرتفع عن الماء، وهو المسكون من كرة الأرض، المادَّة من البحر المحيط الغامر لثلاثة أرباع الأرض).[٣]

ويرى الباحث أن ما ذهب إليه ابن جرير أرجح؛ لأن القرآن استخدم لفظ البحر للنهر وللمحيطات الكبيرة، أي للعذب وللمالح، حتى جعل بعضهم المراد بالبحر في القرآن عموم الماء[٤]، يقول تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

---

(١) انظر: الرازي ٢٠/ ٦، نظم الدرر ١١/ ١٢٤.

(٢) ابن جرير ١٧/ ١٨٠ ط مؤسسة الرسالة، وقال مثله الآلوسي ١٤/ ١١١.

(٣) نظم الدرر ١١/ ١٢٤.

(٤) وهو أبو البقاء الكفوي في الكليات صـ٢٢٥ تحقيق د. عدنان درويش ومحمد المصري ط مؤسسة الرسالة الأولى ١٩٩٢. ثم عرف البحر صـ٢٢٦ بقوله: (كل كان واسع جامع للماء الكثير).

[فاطر:١٢]، فيمكن القول على هذا أن المراد بالبحر: كل جمع مائي كبير تنطبق عليه المنافع المذكورة في الآية، سواء كان مالحاً أم حلواً.

ولما كانت منافع البحار كثيرة؛ ذكر الله منها ما يعود على الإنسان بالاستقرار والأمن الغذائي والاقتصادي، مع ما تضمنته من دلائل الإلهيات والاعتبار، فعدد منها:

- **المنفعة الأولى: قوله تعالى: ﴿تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾:**

لـ (من) في الآية معنيان:

- **أحدهما**: أنها ابتدائية[1]، والمعنى المستفاد: إن اللحم الذي يؤكل من البحر ابتداء فيه هذه الصفة؛ وهو أزكى.

- **الثاني**: أنها تبعيضية، والكلام على حذف مضاف، أي: لتأكلوا من حيوانه لحماً طرياً.[2]

والمعنى الأول أقوى؛ لعدم التقدير فيه، والمعنى الذي يكون بعدم التقدير أولى من المعنى الذي فيه تقدير، وفيه إشارة إلى عظم المنافع التي تكون من أكل السمك بهذه الحال، أي: حال كونه لحماً طرياً.

وقد ورد من الآثار في تفسير اللحم الطري:

عن قتادة قال: (إنه حيتان البحر).[3]

---

(١) الآلوسي ١٤/ ١١٢.

(٢) الآلوسي ١٤/ ١١٢.

(٣) أخرجه ابن جرير ١٧/ ١٨١، ط الرسالة، وابن أبي حاتم رقم [١٢٤٨٣].

والأحسن منه قول السدي: (هو سمك البحر وما فيه من الدواب)[1]، لعمومه.

والعجيبة في اللحم الطري: أنه حلو نشأ أغلبه في ماء ملح زعاق، وقد اعتادت العرب أن تحفظ اللحم بالملح، ولكنها لمّا تأكله تأكله وفيه ملوحة ظاهرة، مع أن أصل خلقه لم يكن في ملح، بخلاف السمك، يقول الرازي: (واعلم أن في ذكر الطري مزيد فائدة، وذلك لو كان السمك كله مالحاً لما عرف به من قدرة الله تعالى ما يعرف بالطري، فإنه لما خرج من البحر الملح الزعاق؛ الحيوان الذي لحمه في غاية العذوبة؛ علم أنه إنما حدث لا بحسب الطبيعة، بل بقدرة الله وحكمته حيث أظهر الضد من الضد).[2]

ونعمة الله تعالى ليست في كونه لحماً طرياً فقط، بل وفي كون هذا اللحم الطري حلالاً ومتاعاً، كما قال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ [المائدة:٩٦].

• **المنفعة الثانية: ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾:**

أي: تبذلوا جهدكم في الغوص وما شابهه لإخراج ما تتزينون به، كاللؤلؤ والمرجان وغيرهما.

وقد تطرق المفسرون للإشكال في قوله (تلبسونها)، إذ الحلية للنساء، والخطاب بصيغة التذكير وليس التأنيث؟!، وأجابوا عن هذا بإجابات منها:

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم رقم [١٢٤٨٤]. أما تفصيل المذاهب الفقهية فيما يجوز منها وما لا يجوز فينظر في محله في كتب أحكام القرآن والفقه.

(٢) الرازي ٢٠/ ٦.

إن الخطاب للتغليب، يقول ابن عاشور: (وإسناد لباس الحلية إلى ضمير جمع الذكور تغليب، وإلا فإن غالب الحلية يلبسها النساء عدا الخواتيم وحلية السيوف).[١]

وعلله آخرون بأن الإسناد للرجال؛ لكونهم القوامين والآمرين، أو لأن النساء من الرجال، وزينتهن لأجلهم وبسببهم، يقول أبو السعود: (عبر في مقام الامتنان عن لبس نسائهم بلبسهم؛ لكونهن منهم، أو لكون لبسهن لأجلهم)[٢]. وقيل: غير ذلك.[٣]

وثمة رأي آخر للقرطبي يقول: (امتنَّ الله تعالى على الرجال كالنساء امتناناً عاماً بما يخرج من البحر، فلا يحرم عليه شيء منه، و إنما حرَّم الله تعالى على الرجال الذهب والحرير، قال صلوات الله و سلامه عليه في الحرير و الذهب: (هذا حرام على ذكور أمتي، حلٌ لإناثها).[٤]

وروى البخاري أن النبي اتخذ خاتماً من فضة ونقش فيه: محمد رسول الله[٥]).[٦]

---

(١) التحرير والتنوير ١٤/ ١١٩.

(٢) أبو السعود٥/ ١٠٣. وانظر مثله عند الرازي ٢٠/ ٧، الآلوسي١٤/ ١١٣.

(٣) انظر الأقوال في: الآلوسي ١٤/ ١١٣، ومن هذه الأقوال: أنه على اعتبار المجاز في طرف، وفسر تلبسون: تتمتعون وتتلذذون، ومنها أنه لا حاجة لكل ذلك فإنه لا مانع من تزيين الرجال بكل ذلك، ثم أورد الآلوسي ما تعقب على هذه الأقوال.

(٤) أخرجه الترمذي في اللباس ٤/ ١٨٩ باب ما جاء في الحرير و الذهب و أخرجه النسائي في الزينة باب تحريم لبس الذهب ٨/ ١٩٠ من حديث أبي موسى الأشعري، وأخرجه الإمام أحمد في مسنده ٤/ ٣٩٢.

(٥) البخاري في اللباس باب نقش الخاتم رقم (٥٥٣٤) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٦) القرطبي ١٠/ ٨٥.



أقول: إن ما ذهب إليه القرطبي اتجاه قوي، وفي هذا التعبير إشارة إلى جانب مهم في الصحة النفسية، وهو: ضرورة تلبية الحاجة النفسية لدى الإنسان فيما هو مباح؛ حتى لا ينحصر في الضروريات والحاجيات، والخطاب للذكور إنما جاء تلبية لأشواقهم الفطرية، فسعي الرجال الحثيث على استخراج اللؤلؤ والمرجان والصدف من البحار؛ إنما كان تلبية لحاجتهم الجمالية في النظر للحلي، واستخدامه للزينة في السيوف والرماح واللباس وفي النساء، وتلبية لحاجة النساء الفطرية في الزينة والتجمل للزوج، وتقوية لداعية الجماع فيهم، والمعبر عنها القرآن بقوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾.

ولما كان اللباس من أسباب الاستقرار النفسي والسكينة -وهو للرجال والنساء-؛ جاء الخطاب عاماً في هذه الآية، كما أن الأكل من اللحم الطري للرجال والنساء، والسفر في الفلك لهما، وما سبقهما من تسخير الليل والنهار والشمس والقمر... للرجال والنساء[1]، فالتغليب في الآية متجه، ولكن إشارته تختلف حسب الاعتبار، (ولا حاجة لما تكلفه بعض المفسرين من التخصيص بالنساء؛ لعدم وجود ما يحرم على الرجال التحلي بما يخرج من البحر؛ ما لم يستعمله على صفة لا تستعمله عليها إلا النساء خاصة).[2] والله أعلم.

ثم إن الامتنان بما يخرج من البحر للزينة والحلي؛ فيه إشارة إلى عجيبة من العجائب الكونية الدالة على وجود الله ووحدانيته وقدرته، فما أصل اللؤلؤ – مثلاً دون تخصيص

---

(١) وإن اعتبر أبو حيان أن الخطاب في قوله تلبسونها خاص بالنساء فقط. انظر: البحر ٥/ ٤٨٠.

(٢) انظر: حدائق الروح والريحان ١٥/ ١٦٠.



به-؛ إلا حبة رمل التصقت بجسم رخوي داخل محارة في مياه مالحة، فتتكلس الحبة لما يفرزه الجسم الرخوي لحماية نفسه، فيقدر الله لحبة الرمل التي لا ينظر لها أن تكون لؤلؤة غالية الثمن[١]، ويأتي الإنسان لينتفع بها دون أن يعتبر بخلقها.!

• المنفعة الثالثة: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾:

تعددت أقوال السلف في تفسير الآية هنا:

فعن مجاهد قال: (تمخر السفن الرياح ولا تمخر الريح من السفن إلا الفلك العظام).[٢]

ويقول عكرمة: (تشق الماء بصدرها)[٣]، ويقول الضحاك: (السفينتان تجريان بريح واحدة، كل واحدة مستقبلة الأخرى).[٤]

وقد جمع الطبري بين هذه الأقوال بقول يتفق مع اللغة ونظم الآية، فقال: (وهو في هذا الموضع: صوت جري السفينة بالريح إذا عصفت، وشقها الماء حينئذ بصدرها، يقال منه: مخرت السفينة تمخر مخراً ومخوراً، وهي ماخرة..)[٥]، أي: وترى السفن تجري في البحر تشق البحر والريح شقاً بمقدمها وصدرها.

---

(١) انظر في تكوين اللؤلؤ: العظمة في كل مكان هارون يحيى صـ ٧٤ ط مؤسسة الرسالة الأولى ٢٠٠٣م.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم رقم [١٢٤٨٦].

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة وابن جرير ١٧/ ١٨١ ط الرسالة، وابن أبي حاتم [١٢٤٨٧]. انظر: الدر المنثور ٤/ ١١٣.

(٤) أخرجه ابن أبي المنذر و ابن أبي حاتم رقم [١٢٤٨٨]. انظر: الدر المنثور ٤/ ٤١٣.

(٥) ابن جرير ١٧/ ١٨٢.



(فهي لفتة إلى متاع الرؤية وروعتها: رؤية الفلك ﴿مَوَاخِرَ﴾ تشق الماء وتفرق العباب).[١]

وفي الآية تنبيه إلى القوة التي تحرك السفن فتدفعها إلى حيث يريد الإنسان؛ دون أن تستلمها أمواج البحر فتسيرها إلى حيث تريد هي، فهذا الشق الذي تحدثه المواخر أثر قوتين متصارعتين، والله يقدر لهما.

- **المنفعة الرابعة: ﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾:**

أي: لتطلبوا طلباً عظيماً بركوب البحر، وتتوصلوا بالسفن المواخر التي تحملكم وما معكم؛ للتوصل بها إلى البلدان الشاسعة للمتاجرة وغير ذلك، يقول ابن عاشور: (والابتغاء من فضل الله: التجارة كما عبّر عنها بذلك في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة:١٩٨])[٢]. وهو قول السدي[٣]، ومجاهد.[٤]

ويرى الباحث أن دلالة الآية لا تنحصر في التجارة، وإن كان غالبها لذلك، فركوب البحر للسياحة والتنقل من أجل الأعمال وزيارة الأرحام والأصدقاء والدعوة إلى الله، وأداء الحج والعمرة..كل ذلك ابتغاء لفضل الله، والله أعلم.

---

(١) انظر: ظلال القرآن ٤/ ٣١٦٣.

(٢) التحرير والتنوير ١٤/ ١٢٠.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم رقم [١٢٤٨٩].

(٤) أخرجه ابن جرير ١٧/ ١٨٣ .ط الرسالة.



ولما عدد عناوين الانتفاع بالبحر، وكان آخرها الانتفاع بالركوب ابتغاء فضل الله؛ ختم الآية بالمقصد من ذكر هذه المنافع، فقال تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، أي: تقومون بحق الله تعالى في الطاعة له والتوحيد، يقول الآلوسي: (ولعل تخصيص هذه النعمة، [أي الابتغاء من فضل الله] بالتعقيب بالشكر؛ لأنها أقوى في باب الإنعام من حيث إنه جعل ركوب البحر مع كونه مظنة الهلاك..سبباً للانتفاع وحصول المعاش، وهو من كمال النعمة؛ لقطع المسافة الطويلة في زمن قصير مع عدم الاحتياج إلى الحل والترحال، والحركة مع الاستراحة والسكون..).[1]

(ولما كانت الآية مبنية على قصد الاعتبار وتعداد النعم والاستدلال بها على وحدانية الله وقدرته، ناسب ذلك عطف بعضها على بعض بالواو لأنه مظنة الإطناب والتفصيل، فهذه نعم جليلة؛ وفي كل منها مجال للاعتبار، ومتسع للتفكر والنظر).[2]

ولما ذكر الله تعالى بعض نعمه في البحار، وكيف هيأها لمنفعة الإنسان؛ أتبعها بذكر نعمه على الإنسان في الأرض، وكيف أنه جلت قدرته وتنزهت ذاته، ثبتها وصورها؛ لتتم النعمة عليكم، فقال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.



(١) الآلوسي ١٤/ ١١٤.

(٢) انظر: ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل ٢/ ٥٩٨ تحقيق د. محمود كامل أحمد، ط دار النهضة العربية بيروت ١٤٠٥.

وفي هذه الجملة من الآية: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾، بيان لإحدى وظائف الجبال وهي تثبيت الأرض، وفيها نعم عديدة:

● **إحداها:** ما تضمنته دلالة (ألقى) من الجعل المنبئ عن الوضع المتقن، أي: (وضع فيها الجبال وضعاً كأنه قذفها فيها قذفاً)[1]، (فهو تصوير لعظمته، وتمثيل لقدرته، وإن كل عسير فهو عليه يسير)[2]، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا﴾ [الرعد:٣].

● **ثانيتها:** ما تضمنته دلالة (رواسي) من التمكين في الوضع والقوة في ثبات الجبال، وكأن هذه اللفظة صارت قيداً في دلالة الإلقاء، أي إلقاءً منظماً حكيماً بحيث صارت رواسي.

● **ثالثتها:** ما لأجله كان هذا الإلقاء والتمكين والثبات، وهو ما دل عليه قوله تعالى: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾، أي: كراهة أن تضطرب بكم وتميل عن مسارها يميناً

---

(١) نظم الدرر ١١/ ١٢٦. وجمهور المفسرين على أن ألقى بمعنى جعل ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ [الرعد:٣]، ولكن ذهب ابن عطية أن ألقى لها دلالة أخص من الجعل، وجعل المعنى أن الله خلق الجبال ليس من الأرض، ولكن بقدرته وحكمته، ثم ألقاها في الأرض. واستدل على ذلك بما روي عن وهب بن منبه والحسن من القصص. وهي إسرائيلية ورأي الجمهور أوجه ودليلهم لا ينازع فيه. انظر: ابن عطية ١٠/ ١٦٩، والبحر ٥/ ٤٨٠، ٤٨١ ، والدر المصون ٧/ ٢٠٢.

(٢) حدائق الروح والريحان ١٥/ ١٦١.

وشمالاً[١] فتخرج عن مسارها الذي سيرها الله فيه بثبات بعدما جعل الأرض قراراً بسبب هذه الجبال[٢]، وفي الحديث عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَـمَّا خَلَقَ اللهُ الْأَرْضَ جَعَلَتْ تَمِيدُ فَخَلَقَ الْجِبَالَ فَعَادَ بِهَا عَلَيْهَا فَاسْتَقَرَّتْ فَعَجِبَتْ الْمَلَائِكَةُ مِنْ شِدَّةِ الْجِبَالِ».[٣]

فبدلالة الآية مع الحديث نستفيد أن الأرض خلقت أولاً بدون جبال، وكانت في مرحلة الدحية، وكانت حركتها مضطربة اضطراباً لا يصلح معها عيش ولا حياة، ولا يستقر فوقها شيء، ثم خلق فيها الجبال، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ [النازعات: ٣٠إلى ٣٢]، وهذا على سنة الله في الكون في إقامة الخلق بالأسباب والمسببات، فصارت هذه الجبال ضابطاً

---

(١) **الفرق بين الميل والميد**: أن الميل يكون في جانب واحد، والميد هو أن يميل مرة يمنة ومرة يسرة، انظر: معجم الفروق اللغوية الحاوي لكتاب أبي هلال العسكري وجزءا من كتاب السيد نور الدين الجزائري صـ٥٢٦ تحقيق مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم.

(٢) انظر: نظم الدرر ١١/ ١٢٦.

(٣) وهو جزء من حديث أنس بن مالك أخرجه الترمذي في التفسير باب ومن سورة المعوذتين رقم [٣٣٦٩] وقال: (هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ لَا نَعْرِفُهُ مَرْفُوعًا إِلَّا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ) وأحمد ٣/ ١٢٤، وأبويعلى رقم [٤١٩٧]، وابن أبي حاتم رقم [١٢٩٣٦]، والبيهقي في الشعب رقم [٣٢٨٧] كلهم من طريق يزيد بن هارون عن العوام بن حوشب عن سليمان بن أبي سليمان عن أنس بن مالك، وهؤلاء رجال الصحيح، وله ما يقويه عن علي رضي الله عنه موقوفاً بنحوه رواه الطبري بإسناد حسن كما في الفتح ٨/ ٣٨٥.

للأرض في مجموعها، وكذلك ضابطاً للقارات من الاضطراب بصورة لولاها؛ لما سمح لتربة أن تتجمع، ولا لماء أرضي أن يخزن، ولا لنبتة أن تخرج، ولا لعمران أن يقام[1]، يقول ابن عاشور: (ولعل الله جعل نتوء الجبال على سطح الأرض معدلاً لكرويتها؛ بحيث لا تكون بحد من الملاسة يخفف حركتها في الفضاء تخفيفاً يوجب شدة اضطرابها).[2]

● **رابعتها**: ما في هذا النظم من فائدة تربوية وهي التعليم بأسلوب التخييل والتصوير الذي ينمي مدارك الفكر ويفتقها، فشبه الأرض التي تسبح في الفضاء بالسفينة على وجه الماء، وشبه الجبال التي تثبت الأرض في سبحها بالرواسي التي تثبت السفن في مكانها، وفي هذا التمثيل إعطاء تصور لحقيقة كونية، وهي تثبيت الجبال للأرض بما فيها[3]، والله أعلم.

---

(١) ينظر: المفهوم العلمي للجبال في القرآن الكريم د. زغلول النجار صـ١٩ ط مكتبة الشروق الدولية الأولى ٢٠٠٢م. وتنبيه العقول الإنسانية لما في آيات القرآن من العلوم الكونية والعمرانية لمحمد بخيت المطيعي من صـ ١٢٤، إلى صـ ١٣٣ تحقيق عبد الرحمن عيسى ط مكتبة الشرق حلب.

(٢) التحرير والتنوير ١٤/ ١٢١، وقال بنحوه الرازي ٢٠/ ٩.

(٣) ينظر: المفهوم العلمي للجبال في القرآن صـ٣٠، المعجزات القرآنية هارون يحيى صـ٣١ ط مؤسسة الرسالة الأولى ٢٠٠٣. ولا بد من التنبيه لما نقله الرازي عن الجمهور من أن الأرض كانت على وجه الماء فمادت فوضع الله فيها الثقال أي الجبال فثبتت !! إن هذا الكلام لعله آخر ما بلغهم من معارفهم أو ما أدى إليه اجتهادهم في فهم التمثيل في الآية، ولذلك ناقشوه مناقشة جدلية، وكان آخر كلام الرازي في هذه الفرضية الجدلية أن قال: (والذي عندي في هذا الموضع=

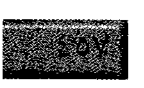
ولما ذكر الله نعمة الجبال، وهي من ضروريات أسباب الحياة على الأرض؛ أتبعها بذكر نعمة الأنهار؛ لكونها أيضاً من ضروريات أسباب العيش وتنظيم البيئة، (فإن منها شرابهم وسقي حرثهم، وفيها تجري سفنهم لأسفارهم)[1]، فقال تعالى: ﴿وَأَنْهَرًا﴾ أي: وألقى في الأرض أنهاراً، وقدر لها أبو البقاء[2] فعلاً مناسباً وهو: شق فيها أنهاراً.[3]

=المشكل أن يقال ثبت بالدلائل اليقينية أن الأرض كرة، وثبت أن هذه الجبال على سطح هذه الكرة جارية مجرى خشونات تحصل على وجه هذه الكرة. إذا ثبت هذا فنقول: لو فرضنا أن هذه الخشونات ما كانت حاصلة بل كانت الأرض كرة حقيقية خالية عن الخشونات والتضريسات لصارت بحيث تتحرك بالاستدارة بأدنى سبب لأن الجرم البسيط المستدير إما أن يجب كونه متحركاً بالاستدارة على نفسه وإن لم يجب ذلك عقلاً إلا أنه بأدنى سبب يتحرك على هذا الوجه، أما لما حصل على ظاهر سطح كرة الأرض هذه الجبال وكانت كالخشونات الواقعة على وجه الكرة، فكل واحد من هذه الجبال إنما يتوجه بطبعه نحو مركز العالم وتوجه ذلك الجبل نحو مركز العالم بثقله العظيم وقوته الشديدة يكون جارياً مجرى الوتد الذي يمنع كرة الأرض من الاستدارة، فكان تخليق هذه الجبال على وجه الأرض كالأوتاد المغروزة في الكرة المانعة لها عن الحركة المستديرة، فكانت مانعة للأرض من الميد والميل والاضطراب بمعنى أنها منعت الأرض من الحركة المستديرة، فهذا ما وصل إليه بحثي في هذا الباب والله أعلم بمراده.) ا.هـ الرازي ٢٠/ ٩، وانظر: أثر وهب بن منبه والحسن عند القرطبي ١٠/ ٦٠. والدر المنثور ٤/ ١٢٧.

(١) التحرير والتنوير ١٤/ ١٢٢.

(٢) عبد الله بن الحسين البغدادي الحنبلي المقرئ المفسر الفرضي اللغوي المؤدب الصدوق صاحب التصانيف الكثيرة وأهمها التبيان في إعراب القرآن ت٦١٦هـ. انظر: طبقات المفسرين للداودي ١/ ٢٣١، بغية الوعاة ٢/ ٣٨.

(٣) العكبري ٢/ ٧٩.



وهو تقدير يناسب واقع الأنهار، ويدخل في دلالة الجعل الأول لمعنى (ألقى)[1]، ويرى الباحث أن معنى الجعل المتضمَّن في دلالة (ألقى) في الآية؛ يختلف بحسب المجعول؛ فيصير المعنى: وجعل في الأرض رواسي، ولكن هذا الجعل هو بتقدير أماكن الجبال ونشوئها، وتقدير طولها وعمقها.

وجعل فيها أنهاراً، وهذا الجعل: بشق مجراها وتفجير عيونها ومنابعها وتعيين منتهاها.

وذكر الرازي مناسبة اقتران الأنهار بالجبال في الآية: وهو أنه ثبت في العلوم العقلية أن أكثر الأنهار إنما تتفجر منابعها من الجبال؛ فلهذا لما ذكر الجبال أتبع ذكرها بتفجير العيون والأنهار[2]، وهذه مناسبة قوية وتصلح لتكون تعليلاً لاقتران الجبال والأنهار في فعل واحد، وفي سياق واحد.

ولمّا بين ما يتوصل به المخلوقات فيما بينهم عن طريق المياه؛ أتبعه بنعمته سبحانه بأن جعل لهم طرقاً مذللة وسهلة، ليتواصلوا فيما بينهم عن طريق البر في أسفارهم وغيرها، فقال تعالى: ﴿سُبُلًا﴾، أي: وجعل في الأرض سبلاً، قال تعالى: ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ [طه:٥٣]، ومعنى الجعل هنا، يختلف عن جعل الجبال والأنهار، ولذلك قدر بعضهم فعلاً يناسبه فقال: (أي وذلل)[3]، أي: وذلل الأرض لتجعلوا فيها طرقاً.

---

(١) ينظر: نظم الدرر ١١/ ١٢٧.

(٢) الرازي ٢٠/ ٩.

(٣) ابن عادل ٢/ ٦٢ ، وينظر: الدر المصون ٧/ ٢٠٢.

ثم بين وجه الجعل بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾، أي: لكي تهتدوا إلى مقاصدكم في ترحالكم وسفركم، (وقيل: تهتدون أي: بالنظر في دلالة هذه المصنوعات على صانعها، فهو من الهداية إلى الحق ودين الله).[1]

والمعنيان لا يتعارضان، يقول ابن عاشور: (وهو كلام موجه، يصلح للاهتداء إلى المقاصد في الأسفار، من رسم الطرق وإقامة المراسي على الأنهار، واعتبار المسافات؛ وكل ذلك من جعل الله تعالى؛ لأن ذلك حاصل بإلهامه، ويصلح للاهتداء إلى الدّين الحقّ وهو دين التوحيد، لأن في تلك الأشياء دلالة على الخالق المتوحّد بالخلق).[2]

(ولما ذكر الله تعالى أنه أظهر في الأرض سبلاً معينة؛ ذكر أنه أظهر فيها علامات مخصوصة حتى يتمكن المكلف من الاستدلال بها؛ فيصل بواسطتها إلى مقصوده)[3]، (ولما كانت الأدلة في الأرض غير محصورة فيها)[4]، قال: ﴿وَعَلَامَاتٍ﴾، أي: والله خلق لكم علامات، ويصح تقدير: سخر[5] لكم؛ لدلالة الكلام على كليهما في السياق.

والمعنى: إن الله تعالى خلق لكم ما تستكملون فيه معاشكم، وتأمنون به في حياتكم، واستقراركم وتأمين سبل مواصلاتكم من أمارات ودلائل مختلفة.

---

(١) البحر ٥/ ٤٨١.

(٢) التحرير والتنوير ١٤/ ١٢٢.

(٣) الرازي ٢٠/ ١٠.

(٤) نظم الدرر ١١/ ١٢٧.

(٥) ينظر: كشف المشكلات ٢/ ٦٨٠.

* وقد تعددت الأقوال في بيان العلامات، **فمن المأثور ثلاثة أقوال:**[١]

أحدها: أنها معالم الطرق بالنهار، رواه العوفيّ عن ابن عباس.

والثاني: أنها النجوم أيضاً، منها ما يكون علامة لا يُهتدى به، ومنها ما يُهتدى به، قاله مجاهد وقتادة والنخعي.

والثالث: الجبال، قاله ابن السائب، ومقاتل.

هذه الأقوال إنما هي من باب التمثيل، لأن لفظ الآية وسياقها يحتمل من المعاني الكثيرة المتجددة المفتوحة، منها ما خلقه الله تعالى في الأرض من الأمارات الظاهرة، فاستفدتم منه؛ كالجبال والوديان والهضاب وألوان التربة، وغير ذلك مما يستفاد ليكون علامة لمقصد من مقاصدكم الدنيوية.

ومنها أمارات (ألهم الله الناس أن يضعوها أو يتعارفوا عليها لتكون دلالة على المسافات والمسالك المأمونة في البر والبحر فتتبعها السابلة)[٢]، ومنها أمارات هي عبارة عن (صورة يعلم بها المعنى من خط، أو لفظ أو إشارة أو هيئة، وقد تكون علامة وضعية، وقد تكون برهانية)[٣]، ولما كانت الدلائل في العلامات مفتوحة ولا تقتصر على ما مر من الأقوال، فلا غرابة أن نجد من المفسرين من يذكر من المعالم ما وجد في عصره مالم يذكره غيره من المتقدمين.. يقول الرازي: (والمراد بالعلامات معالم الطرق وهي الأشياء التي بها يهتدي، وهذه العلامات هي الجبال والرياح، ورأيت جماعة يشمون التراب وبواسطة ذلك الشم يتعرفون الطرق).[٤]

---

(١) انظر الأقوال في: ابن جرير ١٤/ ٦٣، الدر المنثور ٤/ ١٢٧، زاد المسير ٤/ ٣١٨.

(٢) التحرير والتنوير ١٤/ ١٢٢.

(٣) نظم الدرر ١١/ ١٢٨.

(٤) الرازي ٢٠/ ٩.



ويروي ابن عطية عن أبيه قال:

(إنه سمع بعض أهل العلم بالمشرق يقول: إن في بحر الهند الذي يجري فيه من اليمن إلى الهند حيتاناً طوالاً رقاقاً كالحيات في التوائها وحركاتها وألوانها، وإنها تسمى علامات، وذلك أنها علامة الوصول إلى بلد الهند، وأمارة إلى النجاة والانتهاء إلى الهند لطول ذلك البحر وصعوبته، وإن بعض الناس قال: إنها التي أراد الله تعالى في هذه الآية).[1]

فقد ذكر الرازي التراب في علامات البر، وذكر ابن عطية الحيتان من علامات البحر، مع أن التراب والحيتان لم يذكرا في أقوال السلف رضي الله عنهم، ونحن نرى اليوم الأضواء والألوان والخرائط واللوحات الإرشادية والمرورية، والتقنيات الحديثة، كلها تدخل في الأمارات الهادية للناس في البر والبحر والجو، وما زالت الأيام تكشف لنا عن أمارات ومعالم بحسب حاجة الناس، وكل ذلك يدخل في دلالة الآية، والله أعلم.

وما أحسن قول ابن جرير: (وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله تعالى ذكره عدّد على عباده من نعمه، إنعامه عليهم بما جعل لهم من العلامات التي يهتدون بها في مسالكهم وطرقهم التي يسيرونها، ولم يخصص بذلك بعض العلامات دون بعض، فكلّ علامة استدلّ بها الناس على طرقهم، وفجاج سبُلهم، فداخل في قوله: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ﴾).[2]

---

(١) المحرر الوجيز ١٠/ ١٧٠.

(٢) ابن جرير ١٤/ ٦٣، ٦٤.



(ولما كانت الدلالة بالنجم أنفع الدلالات وأعمها وأوضحها براً وبحراً ليلاً ونهاراً، نبه على عظمها بالالتفات إلى مقام الغيبة لإفهام العموم لئلا يظن أن المخاطب مخصوص، وأن الأمر لا يتعداه، فقال تعالى: ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾).[1]

*** وفي هذه الفاصلة من الآية مسائل:**

● **أحدها**: التعريف في قوله (بالنجم) هل لنجم معين أم لعموم النجوم وجنسها؟

ذهب السدي[2] وابن السائب[3] وغيرهما وتبعهم بعض المفسرين[4] أنه نجم معين، وذكروا أنه الجدي والفرقدان، وزاد السدي الثريا وبنات نعش، ونقل القرطبي عن ابن عباس حديثاً مرفوعاً أنه الجدي[5]، أقول: ولم أجده بسند، وكما يقول الآلوسي: (ولو صح هذا لا يعدل عنه).[6]

---

(١) نظم الدرر ١١/ ١٢٨.

(٢) البغوي ٣/ ٦٤ ط دار المعرفة، الرازي ٢٠/ ٩، ١٠، زاد المسير ٤/ ٣١٨.

(٣) زاد المسير ٤/ ٣١٨.

(٤) كابن جرير ١٤/ ٦٤، والقرطبي ١٠/ ٦١، والماوردي كما نقل عنه ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٣١٨.

(٥) القرطبي ١٠/ ٦١، يقول ابن قتيبة: (والجدي الذي تعرف به القبلة هو جدي بنات نعش الصغرى وبنات نعش الصغرى بقرب الكبرى على مثل تأليفها، أربع منها نعش، وثلاث بنات، فمن الأربع الفرقدان وهما المتقدمان ومن البنات: الجدي وهو آخرها) أدب الكاتب ص١٧٥، تحقيق محمد طعمة الحلبي ط دار المعرفة أولى ١٩٩٧.

(٦) الآلوسي ١٤/ ١١٥.

وذهب آخرون إلى أن المراد بالنجم هنا جميع النجوم، فالنجم هنا اسم جنس(١)، وهو قول عامة المفسرين، وهو الصحيح إن شاء الله، ويكون المقصود بالنجم جنس النجوم التي تعارفها الناس للاهتداء في سفرهم وتقدم الكلام في ذلك، والله أعلم.

• **المسألة الثانية: هل المقصود بالاهتداء في البر أم البحر أم كلاهما؟.**

قال بعض المفسرين هو خاص بالبحر، واستدلوا بالسياق، أي أن الله تعالى بعدما ذكر صفة البحر والأنهار ومنافعها بين أن من يسير فيهما يهتدي بالنجوم(٢)، وهذا بعيد لوجود نص قرآني في أن الاهتداء مطلق في البر والبحر وهو قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ [الأنعام:٩٧] وإن كانت حاجة البحارة لمعرفة النجوم ألح من المسافر في البر، يقول الشيخ سعيد حوى(٣): (ومن المعلوم أن الدول البحرية تصدر كتباً سنوية ليستطيع البحارة بواسطة آلات معينة أن يعرفوا مكانهم من خلال مواقع النجوم في اللحظة التي هم فيها)(٤)، ويمكننا

---

(١) انظر: زاد المسير ٤/ ٣١٨، الرازي ٢٠/ ٩، ابن عادل ٢/ ٦٤، أبو السعود: ٥/ ١٠٤، التحرير والتنوير ١٤/ ١٢٢.

(٢) نقله الرازي ٢٠/ ٩.

(٣) سعيد بن محمد ديب حوى الحموي ولد في حماة ١٣٥٤هـ مفسر وله اشتغال بالحديث ومن أبرز الدعاة المعاصرين، وله العديد من المؤلفات من أبرز كتبه: الأساس في التفسير، والأساس في اللغة. ت١٤٠٩هـ انظر: تتمة الأعلام للزركلي محمد خير رمضان ١/ ٢٠٧، ط دار ابن حزم بيروت ١٩٩٨م الموسوعة الميسرة ١/ ٩٦٣.

(٤) الأساس في التفسير ٦/ ٢٩٢٠. وينظر تفسير الآية ١٢ من النحل صـ ٤٢٣ من الرسالة.

الاستدلال على حاجة البحارة لمعرفة النجوم أكثر من البر بالسياق، دون تخصيص الأمر بالبحارة.

ولفظ (ظلمات) تدل بمنطوقها إلى الليل؛ أي: إن الاهتداء بالنجوم محله في الليل، وهذا يقوي قول ابن عباس رضي الله عنه: (علامات: يعني معالم الطرق في النهار، وبالنجم يعني في الليل).[1]

قال ابن عطية: (وأحسن الأقوال المذكورة، قول ابن عباس رضي الله عنه: لأنه عموم في المعنى فتأمله).[2]

- **المسألة الثالثة: ما المراد بهذا الاهتداء؟**

في ذلك قولان: أحدهما: الاهتداء إلى القبلة، والثاني: إلى طريق السفر.[3]

أقول: الكلام في ذلك مترتب على معرفة جهة المخاطب في قوله تعالى: ﴿هُمْ يَهْتَدُونَ﴾.

وتقدم أن الله تعالى سخر النجوم للإنسان عموماً، ومن مظاهر هذا التسخير الاهتداء بها في السفر في ظلمات البر والبحر، وهذا لا ينفي أنواعاً أخرى من الاهتداء، فاللفظ يحتمله كالاهتداء إلى القبلة، وهو اهتداء يستفيد منه المسلمون لتكتمل عبادتهم، ولكن الخطاب للإنسان مسلمه وكافره؛ يعرِّفه بنعمة الله تعالى عليه وكرامته عنده

---

(١) أخرجه ابن جرير ١٤/ ٥٣، وابن أبي حاتم وابن مردويه انظر الدر المنثور ٤/ ١٢٧.

(٢) المحرر الوجيز ١٠/ ١٧١.

(٣) انظر: زاد المسير ٤/ ٣١٨.

تعالى، وليستدل بهذه المخلوقات المسخَّرة على خالقها الذي سخرها في أحسن نظام وأكمل صورة، فيعظم المسلم ربه ويزداد إيمانه، ويهتدي الكافر إلى وجود الله ووحدانيته؛ فيدخل في ذلك قريش دخولاً أولياً في هذا العموم لا على سبيل التخصيص[1]، والله أعلم.

- **المسألة الرابعة: ما الحكمة في ذكر النجوم بالجمع في قوله تعالى: ﴿وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ﴾ [النحل:١٢]، وأفردها على صيغة اسم جنس هنا؟**

سياق النظم في كل آية يبين الفرق بينهما، فالأولى جمعت النجوم؛ لبيان كثرتها وأن منها ما سخر للإنسان ومنها لم يخص نفعها من أجله، وما كان مسخراً للإنسان؛ فإن منافعها متعددة وأوجه تسخيرها مستجدة متكاثرة.

أما هنا: فإن السياق يتحدث عن منفعة مخصوصة في النجوم، وهي الهداية والاسترشاد بها في السفر، وهذا في نجوم مخصوصة متعارف عليها عند أهلها، لا في كلها. فهي مخصوصة بالعرف العملي، والله أعلم.

---

(١) وهذا توجيه لقول المفسرين من أن المراد بـ(هم) قريش، يقول أبو السعود: (ولعل الضميرَ لقريش فإنهم كانوا كثيري الترددِ للتجارة مشهورين بالاهتداء بالنجوم في أسفارهم) أبو السعود ٥/ ١٠٤.

وجوب إفراد الله تعالى بالعبادة والتوحيد

٦- ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾.

*** مناسبة الآيات لما قبلها:**

هذه الآيات خاتمة ما تقدم من ذكر النعم التي سخرها الله تعالى للإنسان، مع ما ضمنها من دلائل على وجوده ووحدانيته وقدرته وحكمته، وتمهيداً لما سيذكر من الآيات بعدها، التي تركز على مقصد السورة من تقرير قضايا الإلهيات، وأهمها وحدانية الله تعالى، ثم باقي صفاته سبحانه، والحذر من عاقبة الكفر والتكذيب، فكانت هذه الآيات النتيجة لتلك المقدمات، والتقرير لهم بعد تقديم الدلائل والبينات.

يقول الرازي: (اعلم أنه تعالى لما ذكر الدلائل الدالة على وجود القادر الحكيم على الترتيب الأحسن والنظم الأكمل وكانت تلك الدلائل كما أنها كانت دلائل ، فكذلك أيضاً كانت شرحاً وتفصيلاً لأنواع نعم الله تعالى وأقسام إحسانه أتبعه بذكر إبطال عبادة غير الله تعالى والمقصود أنه لما دلت هذه الدلائل الباهرة ، والبينات الزاهرة القاهرة على وجود إله قادر حكيم ، وثبت أنه هو المولي لجميع هذه النعم والمعطي لكل هذه الخيرات فكيف يحسن في العقول الاشتغال بعبادة موجود سواه لا سيما إذا كان ذلك الموجود جماداً لا يفهم ولا يقدر ، فلهذا الوجه قال بعد تلك الآيات: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴾).[1]

---

(١) الرازي ٢٠ / ١١. وينظر نحوه: نظم الدرر ١١/ ١٢٨.

*** غريب الآيات:**

نِعْمَةَ: النعمة الحالة الحسنة، والنعمة للجنس تقال للقليل والكثير كما في هذه الآية.[١]

*** تفسير الآيات:**

بعدما ذكر تعالى دلائل وحدانيته في الآيات السابقة، وعظمة قدرته قال: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴾، يقول الطبري: (يقول تعالى ذكره لعبدة الأوثان والأصنام: أفمن يخلق هذه الخلائق العجيبة التي عددناها عليكم وينعم عليكم هذه النعم العظيمة، كمن لا يخلق شيئاً ولا ينعم عليكم نعمة صغيرة ولا كبيرة؟).[٢]

(وهو تبكيت للكفرة، وإبطال لشركهم وعبادتهم غيره تعالى من الأصنام؛ بإنكار ما يستلزمه ذلك من المشابهة بينه سبحانه وبينهم، بعد تعداد ما يقتضي ذلك اقتضاء ظاهراً، وتعقيب الهمزة بالفاء لتوجيه الإنكار إلى ترتب توهم المشابهة المذكورة على ما فعل سبحانه من الأمور العظيمة الظاهرة الاختصاص به تعالى شأنه، المعلومة كذلك فيما بينهم حسبما يؤذن به غير آية.

والمرادُ بمن لا يخلق: كلُّ ما هذا شأنُه كائناً ما كان).[٣]

ثم فرع على عدم التسوية بالاستفهام الاستنكاري على الغفلة الحاصلة ممن كرمهم الله تعالى بالعقل والنطق، فقال: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾، يقول الطبري: (يعرّفهم

---

(١) انظر: المفردات للراغب صـ٤٩٩، العكبري ٢/ ١٨٨.

(٢) ابن جرير ١٧/ ١٨٦.

(٣) أبو السعود ٥/ ١٠٤.

بذلك عظم جهلهم، وسوء نظرهم لأنفسهم، وقلّة شكرهم لمن أنعم عليهم بالنعم التي عدّدها عليهم، التي لا يحصيها أحد غيره، قال لهم جلّ ثناؤه موبخهم: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أيها الناس، يقول: أفلا تذكرون نعم الله عليكم، وعظيم سُلطانه وقُدرته على ما شاء، وعجز أوثانكم وضعفها ومهانتها، وأنها لا تجلب إلى نفسها نفعا ولا تدفع عنها ضرّا، فتعرفوا بذلك خطأ ما أنتم عليه مقيمون من عبادتكموها وإقراركم لها بالألوهة؟).[1]

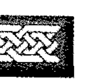
ولما كانت نعم الله تعالى الدالة عليه لا يقادر قدرها ولا ينتهي عدها، ولا يبلغ حصرها، أيحيط ما يفنى بما لا ينفد؟؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾، (أي: لا تضبطوا عددها، ولا تبلغه طاقتكم مع كفركم لها، وإعراضكم جملة عن شكرها)[2]، فالعلم بنعم الله تعالى على التفصيل غير حاصل للعبد، لأن نعم الله كثيرة وأقسامها عظيمة فمنها الظاهر ومنها الباطن كما قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗ﴾ [لقمان:٢٠]، وعقل الخلق قاصر عن الإحاطة بمبادئها فضلاً عن غاياتها، لكن الطريق إلى ذلك أن يشكر الله على جميع نعمه مفصلها ومجملها.

ولما كانت النعم ما زالت تتوالى عليهم، مع إقامتهم على أعظم أسباب زوال النعم، ككفرهم وجحودهم ومجادلتهم ومخاصمتهم في ربهم؛ بين الله تعالى سبب استمرار هذه

---

(١) ابن جرير ١٧/ ١٨٦، ١٨٧. ط الرسالة.

(٢) نظم الدرر ١١/ ١٣٠.



النعم أنه من آثار رحمة الله وصبره على عباده، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فلذلك هو يدر عليكم نعمه وأنتم منهمكون فيما يوجب نقمه، فيقابل ظلمكم بالغفران، كما في هذه الآية من النحل، ويقابل كفركم بالرحمة كما في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤].[١]

والحكمة في تخصيص آية النحل بوصف النعيم وآية إبراهيم بوصف المنعَم عليه؛ (أن سياق الآية في سورة إبراهيم في وصف الإنسان وما جبل عليه؛ فناسب ذكر ذلك عقيب أوصافه، وأما آية النحل فسيقت في وصف الله تعالى وإثبات ألوهيته وتحقيق صفاته فناسب ذكر وصفه سبحانه).[٢]

---

(١) ينظر: البرهان للزركشي ١/ ٨٦ ط عيسى البابي الحلبي.

(٢) انظر: البرهان للزركشي: ١/ ٨٦.

ترك الله تعالى الكافر يتنعم في الدنيا إمهال لا إهمال

٧- ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

* **مناسبة الآيات:**

يقول ابن عاشور:

(فبعد أن أُثبت أن الله منفرد بصفة الخلق دون غيره بالأدلّة العديدة، ثم باستنتاج ذلك بقوله: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾؛ انتقُل هنا إلى إثبات أنه منفرد بعموم العلم، ولم يقدَّم لهذا الخبر استدلال ولا عُقِّب بالدّليل لأنه مما دلّت عليه أدلّة الانفراد بالخلق، لأن خالق أجزاء الإنسان الظاهرة والباطنة يجب له أن يكون عالماً بدقائق حركات تلك الأجزاء وهي بين ظاهر وخفيّ).[1]

---

(١) التحرير والتنوير ١٤/ ١٢٤، وانظر: نظم الدرر ١١/ ١٣٠ فقد ذكر مناسبة تقارب هذه ولكن ما قاله ابن عاشور أقرب لسياق الآيات واتصال معانيها مع انسجامها مع مقصد السورة، والله أعلم.



* غريب الآيات:

يشعرون: شعر يشعر بمعنى علم، ويأتي بمعنى أدرك وعقل وتفطن[١]، يقول الراغب: (والمشاعر الحواس وقوله: ﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ ونحو ذلك معناه: لا تدركونه بالحواس ولو قال في كثير مما جاء فيه لا يشعرون: لا يعقلون، لم يكن يجوز؛ إذ كان كثير مما لا يكون محسوساً قد يكون معقولاً).[٢]

أَيَّانَ: اسم استفهام عن الزمان، مركبة من (أي)، و (آن) بمعنى أي زمن، وهي معلقة لفعل ﴿يَشْعُرُونَ﴾ عن العمل بالاستفهام، والمعنى: وما يشعرون بزمن بعثهم.[٣]

مُسْتَكْبِرُونَ: (الاستكبار يقال على وجهين، أحدهما: أن يتحرى الإنسان ويطلب أن يصير كبيراً؛ وذلك متى كان على ما يجب وفي المكان الذي يجب، وفي الوقت الذي يجب فمحمود، والثاني: أن يتشبع؛ فيظهر من نفسه ما ليس له، وهذا هو المذموم وعلى هذا ما ورد في القرآن).[٤]

منكرة: الإنكار ضد العرفان، وأصله أن يرد على القلب ما لا يتصوره، وذلك ضرب من الجهل، وقد يستعمل ذلك فيما ينكر باللسان، وسبب الإنكار باللسان هو الإنكار بالقلب، لكن ربما ينكر اللسان الشيء؛ وصورته في القلب حاصلة، ويكون في ذلك كاذباً.[٥]

---

(١) انظر: لسان العرب ٤ / ٤١٠.

(٢) المفردات للراغب صـ ٢٦٢.

(٣) التحرير والتنوير ١٤/ ١٢٧.

(٤) المفردات صـ ٤٢١.

(٥) المفردات صـ ٥٠٥.



لَا جَرَمَ: الجَرم بالتحريك: أصلهُ البُدّ.

وكثر في الاستعمال حتى صار بمعنى حَقّاً[1]، وهي كلمة مركبة من كلمتين: حرف وفعل، فقد ركبت (لا)، مع: (جرم)، وجعلتا كلمة واحدة، فصارت مصدراً بمعنى: (حقاً)، أو فعلاً بمعنى: (حق وثبت).[2]

*** تفسير الآيات:**

إن إيراد الدلائل على وجود الله تعالى ووحدانيته وتفرده بالخلق، لهو في الحقيقة دلائل على إثبات لوازم هذه القضية العقائدية، فكون الله تعالى خالق كل شيء على هذا النظام البديع والصورة القويمة؛ لدليل على صفات الإرادة والقدرة والعلم بأسرار هذه المخلوقات ووظائفها ومنافعها، كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤]، ولما كان هذا الأمر من بدهيات الاستنتاج عند العقلاء، والكافرون يعلمون به، ولكنهم يخفون معرفتهم؛ هددهم الله تعالى أنه لا ينبغي على الإنسان الغفلة عن حقيقة أن الله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾، والمخاطبون في هذا هم المخاطبون في قوله تعالى: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾، وفي قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، أي: يعلم ما تضمرونه من العقائد وما تعلنونه، وما تضمرونه من المكر بالدين وإنكار الوحي وما تعلنونه من الجهر بالكبر والعداء.

وفي هذه الآية دليل على بطلان ألوهية الأصنام وكل معبود سوى الله، لأنها لا تملك هذه الصفة.

---

(١) التحرير والتنوير ١٤/ ١٢٩.

(٢) حدائق الروح والريحان ١٥/ ١٧١.



(ولما أثبت لنفسه تعالى كمال القدرة وتمام العلم وأنه المنفرد بالخلق ، شرع يقيم الأدلة على بعد ما يشركونه به من الإلهية بسلب تلك الصفات)[١]، فقال الله تعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾.

(فإن قيل: أليس قوله في أول الآية: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴾ يدل على أن هذه الأصنام لا تخلق شيئاً، وقوله ههنا: ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا﴾ يدل على نفس هذا المعنى، فكان هذا محض التكرير.

فالجواب: إن المذكور في أول الآية أنهم لا يخلُقون، والمذكور ههنا أنهم لا يخلُقون شيئاً وأنهم مخلوقون لغيرهم؛ فكان هذا زيادة في المعنى، وكأنه تعالى بدأ بشرح نقصهم في ذواتهم وصفاتهم؛ فبين أولاً أنها لا تقدر أن تخلق شيئاً، ثمّ ثانياً أنها كما لا تخلق غيرها فهي مخلوقة لغيرها).[٢]

(ولما كان من المخلوقات الميت والحي، وكان الميت أبعد شيء عن صفة الإله، قال نافياً عنها الحياة - بعد أن نفى القدرة والعلم - المستلزم لأن يكون عبدتها أشرف منها، المستلزم أنهم بخضوعهم لها في غاية السفه: ﴿ أَمْوَٰتٌ ﴾، ولما كان الوصف قد يطلق على غير الملتبس به مجازاً عن عدم نفعه وإن كان قائماً به عريقاً فيه قال: ﴿غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾، مبيناً أن المراد بذلك حقيقة سلب الحياة على ضد ما عليه الله من كونه حياً لا يموت).[٣]

---

(١) نظم الدرر ١١/ ١٣١.

(٢) انظر: الرازي ٢٠/ ١٤.

(٣) نظم الدرر ١١/ ١٣٢.



يقول ابن عاشور في تفسير الآيات:

(وظاهر أن الخطاب هنا متمحّض للمشركين وهم بعض المخاطبين في الضمائر السابقة، والمقصود من هذه الجملة التصريح بها استفيد ضمناً مما قبلها، وهو نفي الخالقية ونفي العلم عن الأصنام؛ فالخبر الأول وهو جملة: ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا﴾؛ استفيد من جملة: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾، وعطف ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ ارتقاء في الاستدلال على انتفاء إلهيتها.

والخبر الثاني وهو جملة ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ تصريح بما استفيد من جملة: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ بطريقة نفي الشيء بنفي ملزومه، وهي طريقة الكناية التي هي كذكر الشيء بدليله، فنفي الحياة عن الأصنام في قوله: ﴿غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ يستلزم نفي العلم عنها، لأن الحياة شرط في قبول العلم، ولأن نفي أن يكونوا يعلمون ما هو من أحوالهم؛ يستلزم انتفاء أن يعلموا أحوال غيرهم بدلالة فحوى الخطاب، ومن كان هكذا فهو غير إله.

وأسند ﴿يَخْلُقُونَ﴾ إلى النائب لظهور الفاعل من المقام، أي وهم مخلوقون لله تعالى، فإنهم من الحجارة التي هي من خلق الله، ولا يخرجها نحت البشر إيّاها على صور وأشكال عن كون الأصل مخلوقاً لله تعالى، كما قال تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام قوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات:٩٦].

وجملة: ﴿غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ تأكيد لمضمون جملة: ﴿أَمْوَٰتٌ﴾، للدلالة على عراقة وصف الموت فيهم بأنه ليس فيه شائبة حياة لأنهم حجارة، ووصفت الحجارة بالموت باعتبار كون الموت عدم الحياة).[1]

وزاد القرآن على نفي العلم عنها؛ نفي التعقل والفطنة والإدراك اللازم عن العلم في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ أي: وما تدري الأصنام التي تعبدونها من دون الله متى يُبعث عبدتها، أو متى تبعث هي، أقول: بل لا يدري كلاهما معاً -العبدة والمعبود من دون الله- متى يبعثون والله أعلم.

(وفيه تنبيه إلى أن البعث من لوازم التكليف لأنه جزاء على العمل من خير أو شر، وأن معرفته من علوم الألوهية)[2]، ولذلك يقول ابن عاشور: (وجملة: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ إدماج لإثبات البعث عقب الكلام على إثبات الوحدانية لله تعالى، لأن هذين هما أصل إبطال عقيدة المشركين، وتمهيدٌ لوجه التلازم بين إنكار البعث وبين إنكار التوحيد في قوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾، والمقصود من نفي شعورهم بالبعث تهديدهم بأن البعث الذي أنكروه واقع وأنهم لا يدرون متى يبغتهم، كما قال تعالى: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ [الأعراف:١٨٧]).[3]

---

(١) التحرير والتنوير ١٤/ ١٢٦. وينظر لزيادة البيان أيضاً: الدر المصون ٧/ ٢٠٥، الرازي ٢٠/ ١٣.

(٢) انظر: حدائق الروح والريحان ١٥/ ١٧٠.

(٣) التحرير والتنوير ١٤/ ١٢٦.



ولما أقام حجج الوحدانية وصفات الخالق المنفرد بالعلم والقدرة والإرادة، ونصب أعلام أدلة البعث، وأبطل طريق عبدة الأوثان وبين فساد مذهبهم، وعجز شركائهم؛ صرح بالنتيجة التي لا تردد فيها فقال تعالى: ﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾.

(والتعبير عن المشركين بالموصول وصلته ﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾ لأنهم قد عُرفوا بمضمون الصّلة، واشتهروا بها اشتهارَ لمز وتنقيص عند المؤمنين، وللإيماء إلى أن لهذه الصّلة ارتباطاً باستمرارهم على العناد، لأن انتفاء إيمانهم بالبعث والحساب قد جرّأهم على نبذ دعوة الإسلام ظهرياً فلم يتوقعوا مؤاخذة على نبذها، على تقدير أنها حقّ فينظروا في دلائل أحقّيتها مع أنهم يؤمنون بالله ولكنّهم لا يؤمنون بأنه أعدّ للناس يوم جزاء على أعمالهم).(١)

وفي الآية بيان طبيعة نفوس المشركين والكافرين من التركيب الغليظ لما اجتمع فيهم من الاستكبار والإنكار للحق، وكل صفة على انفرادها كبيرة، فكيف إذا اجتمعت في نفس واحدة!. ونسبت الآية الإنكار لدلائل التوحيد والإيمان إلى قلوبهم، وهذا يدل على التكلف في الكفر؛ لأنه مخالف للفطرة؛ وهذا التكلف يُعدم الأمن النفسي في الإنسان، ويجعله كثير الاضطراب همجي التصرف عدواني الأفكار كما سنرى عندما يذكر القرآن موقفهم من ولادة البنات، وكل هذا من آثار غياب مقومات الصحة النفسية؛ التي أهمها صحة العلاقة مع الله تعالى والخوف من عاقبة التصرفات.

---

(١) انظر: التحرير والتنوير ١٤/ ١٢٨.

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ: عَنْ النَّبِي ﷺ قَالَ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ»، قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً!؟، قَالَ: «إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ».[1]

(١) أخرجه مسلم في الإيمان باب تحريم الكبر وبيانه (١٤٧)، والترمذي في البر والصلة باب ما جاء في الكبر (١٩٩٩) وأحمد في المسند ١/ ١٥٤.
قال ابن الأثير في النهاية: (**الغمط**: الاستهانة والاستحقار وهو مثل الغمص) النهاية ٣/ ٣٨٧، و«غمص» بالصاد المهملة رواية في الحديث.



إبطال حجج المنكرين المستكبرين ونقض إصل دعواهم

٨- ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

*** مناسبة الآيات:**

لما أبطل الله تعالى دعوى المشركين في إنكارهم أصل دعوة الرسالة وهي وحدانية الله تعالى وفضح استكبارهم واستنكارهم ونصب الأدلة على وحدانيته وقدرته وعلمه؛ أردف بمناقشة إنكارهم لما تفرع عن هذا الأصل -وهو إنكارهم للوحي والنبوة- وإبطال حججهم وشبههم وضرب لهم مثلاً بالأمم السابقة.[1]

*** غريب الآيات:**

أَسَاطِيرُ: جمع أسطورة، نحو أرجوحة وأراجيح، يعني بها القصص لا كل كتاب مسطور، أي: شيءٌ كتبوه كذباً وميناً فيما زعموا، نحو قوله تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام:٢٥]، وقوله حكاية لزعمهم: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الفرقان:٥][2].

---

(١) ينظر: حدائق الروح والريحان ١٥/ ١٩٢، الرازي ٢٠/ ١٥.

(٢) انظر: المفردات صـ ٢٣٢.

عن قتادة: (أَيْ أَحَادِيثُ الأَوَّلِينَ وَبَاطِلُهُمْ).[١]

أَوْزَارَهُمْ: أصل الوزر الثقل، ثم استعمل للذنوب، وذلك لأنّه يُثقل فاعله عن الخلاص من الألم والعناء، فأصل ذلك استعارة بتشبيه الجرم والذّنب بالوزر.[٢]

مَكَرَ: احتال في خُفية[٣]، وهو بصرف الغير عما يقصده بحيلة.[٤]

فَخَرَّ: أي فسقط سقوطاً يسمع منه خرير.[٥]

* تفسير الآيات:

بعدما تقرر التوحيد في الآية السابقة، وتقرر أن المشركين كفروا وكذبوا لا لبينة أو حجة، وإنما استكباراً وإنكاراً للحق بعد وضوحه؛ عطف على ذلك ما يترجم حالهم، فقال: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾.

(وذكر فعل القول يقتضي صدوره عن قائل يسألهم عن أمر حدث بينهم، وليس على سبيل الفرض، وأنهم يجيبون بما ذكر مكراً بالدين وتظاهراً بمظهر الناصحين للمسترشدين المستنصحين).[٦]

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم رقم (٧٢٣٢).

(٢) انظر: المفردات صـ ٥٢١ ، وينظر صـ٧٩ من المفردات مادة: ثقل.

(٣) انظر: اللسان (مكر) ٥/ ١٨٣.

(٤) انظر: المفردات صـ ٤٧١.

(٥) ينظر: اللسان (خرر) ٤/ ٢٣٤ ، المفردات صـ١٤٤.

(٦) التحرير والتنوير ١٤/ ١٣٠.

ووجود (إذا) الشرطية مؤذن بتكرر هذين القولين، ففي زمن نزول القرآن ورسالة خير الأنام ﷺ اشتهر بهذا النضر بن الحارث.(١)

والمقتسمون: الذين اقتسموا طرق مكة ليستقبلوا الوفود كما روي عَنْ قَتَادَةَ في الآية قَالَ: «إِنَّ أناساً مِنْ مشركي العَرَب كانوا يقعدون بطريقِ منَ أتى نَبيّ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإذا مروا سألوهم، فأخبروهم بما سمعوا مِنَ النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالوا: إنما هُوَ أساطير الأولين».(٢)

ونحن نجد هذا القول يتكرر كما تكرر من قبل، وسيبقى يتكرر ما دام في الأرض مستكبرون ومنكرون، كما نسمع اليوم من مقتسمي عصرنا ومستكبريهم ومنكريهم من مقالات تصف ما أنزل الله بأنه من مخلفات اليهودية والنصرانية وعادات الجاهلية وأنه رجعية وإرهاب.

(ولما كان من المعلوم أن من ضل كان عليه إثم ضلاله، ومن أضل كان عليه وزر إضلاله، وكانوا يدعون أنهم أبصر الناس بالخفيات فكيف بالجليات)(٣)؛ قال تعالى:

﴿ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ

---

(١) في سيرة ابن هشام١/ ٣٠٠: (قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ: وَكَانَ ابْنُ عَبّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - يَقُولُ فِيمَا بَلَغَنِي: نَزَلَ فِيهِ ثَمَانِ آيَاتٍ مِنْ الْقُرْآنِ قَوْلُ الله - عَزّ وَجَلّ -: ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [القلم: ١٥]. وَكُلّ مَا ذُكِرَ فِيهِ مِنْ الْأَسَاطِيرِ مِنْ الْقُرْآنِ). انظر: الروض الأنف للسهيلي ٢/ ١٤٢، ١٤٣، ط عيسى بابي الحلبي والجمالية ١٩١٤م، في: (إيذاء النضر بن الحارث للرسول ﷺ).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم رقم (١٣٣٥٩).

(٣) انظر: نظم الدرر ١١/ ١٣٦.

عِلْمٍ﴾، أي: لتكون عاقبة قولهم أن يحملوا ذنوب أنفسهم دون نقصان[١]، (وإضافة الأوزار إلى ضميرهم لأنّهم مصدرها، ووصفت الأوزار بـ ﴿كَامِلَةً ﴾ تحقيقاً لوفائها وشدّة ثقلها ليسري ذلك إلى شدّة ارتباكهم في تبعاتها، إذ هو المقصود من إضافة الحمل إلى الأوزار)[٢]. وقول الله تعالى: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ (فيه إشارة إلى أن هذه الأوزار مآلها عذاب دائم أليم).[٣]

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾، وذلك بأن يحملوا أوزاراً ناشئة لهم عن تسببهم في إضلال أتباعهم، هي من جنس أوزار أتباعهم؛ دون أن ينقص من ذنوب أتباعهم شيء[٤]، كما في حديث النبي صلى الله عليه وسلم: «كان عليه وزرها ووزر من عمل بها».[٥]

---

(١) هذا ما ترجح للباحث من أن اللام للعاقبة، **وفيها قولان آخران: أحدهما**: أنها لام الأمر الجازمة على معنى الحتم عليهم. **والثاني**: أنها تعليل. انظر المسألة: البحر ٥/ ٤٨٤، المحرر١٠/ ١٧٥، الرازي٢٠/ ١٦، الدر المصون ٧/ ٢٠٧، السراج المنير٣/ ٣٢٦.

(٢) انظر: التحرير والتنوير ١٤/ ١٣٢.

(٣) زهرة التفاسير ٨/ ٤١٥٨.

(٤) هذا على اعتبار أن (من) سببية وللجنس معاً وهو الذي ترجح للباحث، وقيل هي تبعيضية وقيل هي للجنس فقط، انظر: البحر ٥/ ٤٨٤، الدر المصون ٧/ ٢٠٨، العكبري ٢/ ٧٩، ابن عادل ٢/ ٨٠، التحرير والتنوير١٤/ ١٣٣.

(٥) جزء من حديث جرير بن عبد الله البجلي مرفوعاً أخرجه مسلم في الزكاة باب الحث على الصدقة رقم (١٠١٧)، والنسائي في الزكاة باب التحريض على الصدقة ٥/ ٧٥، وابن ماجه في المقدمة باب من سن سنة حسنة أو سيئة رقم (٢٠٣)، وأحمد في المسند ٤/ ٣٧٥.



(وبين الله تعالى أن هذا الضلال حصل بسبب حال اعترى المضلَّلين - بفتح اللام- أي: يضلون ناساً غير عالمين يحسبون إضلالهم نصحاً)[١]، (والمقصود من هذه الحال تفظع التضليل لا تقييده، فإن التضليل لا يكون إلا عن عدم علم كلاً أو بعضاً)[٢]، والفائدة من هذا النظم: الإشعار بأن مكرهم لا يروج عند ذوي لب، وإنما يتبعهم الأغبياء، وللتنبيه على أن جهلهم هذا ليس عذراً لهم؛ إذ يجب عليهم التحري والبحث والتمييز بين المحق الحقيق بالاتباع وبين المبطل.[٣]

ثم ختم الآية بما ينبه بخطورة مكر الضالين والتحذير من الوقوع فيه فقال تعالى: ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾، وفي هذا الخطاب تهديد ووعيد لهم.

فإن قيل: إن الله تعالى حكى هذه الشبهة عنهم -وهي إنكار كون القرآن من عند الله-، ولم يجب عليها، بل اقتصر على الوعيد؟!.

فالجواب: أن جواب شبهتهم ما تقدم في سورة النحل، فلما حدثهم عن خلق السماوات والأرض وخلق أنفسهم وأنعامهم وأصناف تسخيرها، ثم عن عجائب تسخير المطر والنبات والشمس والقمر والنجوم والليل والنهار، وعن عجائب ومنافع البحار والأنهار والجبال وما خلق في الأرض من أصناف شتى، ومنها ما يجهلونه؛ فلما حدثهم عن هذه الأمور وما تضمنته من دلائل ونعم دل على أن القرآن حوى من

---

(١) التحرير والتنوير ١٤/ ١٣٣ وعلى هذا تكون حال من مفعول (يضلونهم). انظر: الدر المصون٧/ ٢٠٩.

(٢) التحرير والتنوير ١٤/ ١٣٣.

(٣) انظر: السراج المنير ٣/ ٣٢٧، حدائق الروح والريحان ١٥/ ١٩٨.

الغيبيات والعلوم ما لا يستطيع أحد أن يدعيه لنفسه من الجن والإنس، وذلك لا يتأتى إلا من عند علام الغيوب وعالم أسرار السماء والأرض وهو الله تعالى، والله أعلم.[١]

(ولما كان المراد من هذا الاستكبار محو الحق وإخفاء أمره من غير تصريح بالعناد، بل مع إقامة شُبهٍ ربما راجت -وإن اشتد ضعفها- على عقول هي أضعف منها؛ شرع يهدد الماكرين ويحذرهم وقوع ما وقع بمن كانوا أكثر منهم عدداً وأقوى يداً، ويرجي المؤمنين في نصرهم عليهم، بما له سبحانه من عظيم القوة وشديد السطوة، فقال تعالى: ﴿ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾)[٢]، وهذا تهديد بأن يقع فيهم ما وقع في أمثالهم في الدنيا من الخزي والعذاب، مع التأييس من أن يبلغوا مأربهم في تحقيق مكرهم بالمؤمنين، بل إنهم خائبون كما خاب الذين مكروا من قبلهم برسلهم.[٣]

ثم شبه هيئة القوم الماكرين في المنعة والعزة، وأخذهم بسرعة وذلة، بهيئة قوم أقاموا بنياناً عظيماً ذا دعائم وآووا إليه، ودعوا إليه أناساً يناصحونهم أنهم في مأمن معهم، فاستأصله الله من قواعده فخر سقف البناء دفعة على من تحته، ورافق هذا السقوط صوت

---

(١) طرح هذا السؤال الرازي في تفسيره، وأجاب عنه بجوابين ملخص الأول: إن القرآن تحدى المشركين وفي هذا التحدي إعجاز، والثاني قريب من الجواب الذي كتبته، ولكن الفرق بين ما كتبته وجواب الرازي هو أني ربطت الجواب بسورة النحل لا بسورة أخرى كما فعل الرازي، وذلك لبيان الوحدة الموضوعية في السورة وربطها بمحاورها ومقصدها والله أعلم، انظر: الرازي ٢٠/ ١٦.

(٢) انظر: نظم الدرر ١١/ ١٣٨.

(٣) انظر: التحرير والتنوير ١٤/ ١٣٣.



فظيع فلم يفلت السقف أحداً[1]، قال تعالى: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

وأما المراد بالذين من قبلهم؛ فالصحيح أنه عام في جميع المبطلين الذين يحاولون إلحاق الضرر والمكر بالمحقين، والله أعلم.[2]

ولما كان اعتمادهم على ما بنوه وظنوه منعة لهم ثم تولد البلاء والعذاب من الذي صنعوه بأيديهم، قال الله تعالى: ﴿وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾، فلم يكونوا يدركون أو يفطنون أو يعلمون أن عملهم هو عذابهم، كما في المثل: (يداك أوكتا وفوك نفخ).[3]

---

(١) انظر: التحرير والتنوير ١٤/ ١٣٥.

(٢) وهو قول الرازي ٢٠/ ١٧، وتبعه ابن عادل ٢/ ٨٣.

(٣) هذا مثل يطلق في ذوق الجاني وبال أمره، وقصته ما زعم أن قوماً كانوا في جزيرة من جزائر البحر في الدهر الأول ودونها خليج من البحر، فأتاها قوم يريدون عبورها فلم يجدوا معبراً، فجعلوا ينفخون أسقيتهم ثم يعبرون عليها، فعمد رجل منهم فأقل النفخ وأضعف الربط، فلما توسط الماء جعلت الريح تخرج حتى لم يبق في السقاء شيء، وغشيه الموت فنادى رجلاً من أصحابه أن يا فلان إني قد هلكت. فقال: ما ذنبي يداك أوكتا وفوك نفخ، فذهبت مثلاً. أمثال العرب ص ١١٧، المفضل بن محمد بن يعلى الضبي، تحقيق إحسان عباس، ط دار الرائد العربي، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ أوكيت رأس السقاء: إذا شددته.



عاقبة المنكرين المتكبرين

٩- ﴿ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

* مناسبة الآيات:

بعدما بين الله تعالى في الآيات السابقة عقاب المنكرين في الدنيا لوحدانية الله تعالى والمستكبرين عن عبادته وحده وشكر نعمه، بين في هذه الآيات عقابهم في الآخرة ونكرانهم لذنبهم، فاستحقوا على ذلك الذلة والعذاب الأليم.

* غريب الآيات:

يُخْزِيهِمْ: خَزِيَ الرجلُ، لحقه انكسار إما من نفسه وإما من غيره[١]، يعني: الذلة والهوان، والسوء يعني: عذاب الله على الكافرين.[٢]

تُشَاقُّونَ فِيهِمْ: المُشاقَّة: المُشادة في الخصومة، كأنّها خصومة لا سبيل معها إلى الوفاق، إذ قد صار كلّ خصم في شِقّ غير شقّ الآخر[٣].

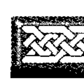
---

(١) المفردات صـ ١٤٧.

(٢) انظر: عمدة الحفاظ للسمين الحلبي ٢/ ١٠٠٨ تحقيق: أحمد عبد السلام التنوخي ط دار الكتب الوطنية ليبيا، أولى ١٩٩٥، وابن جرير ١٧/ ١٩٥ ط الرسالة.

(٣) التحرير والتنوير ١٤/ ١٣٦.





وأصله: من شاققت فلانا فهو يشاقّني، وذلك إذا فعل كلّ واحد منهما بصاحبه ما يشقّ عليه.(١)

والمعنى: أي تخالفون المسلمين بسبب الأصنام فتعبدونهم، والمسلمون يعبدون الله، وتنازعون فيهم وتخاصمون لأجلهم وتخالفون أمر الله بسببهم.(٢)

بَلَى: لها عدة معان، وهي هنا رد لكلامهم(٣) حين ادعوا أنهم ما فعلوا من سوء.

مَثْوَى: اسم مكان، أصلها: ثوى، والثواء الإقامة مع الاستقرار يقال ثوى يثوى ثواء(٤)، فالمثوى مكان إقامتهم واستقرارهم.

*** تفسير الآيات:**

بعدما هددت الآية السابقة المنكرين والمستكبرين بالعقاب في الدنيا والآخرة، وكان عقاب الدنيا له حقيقة في الأقوام السابقة المكذبة؛ جاءت الآيات هنا تصور لنا جزاءهم في الآخرة شرحاً لقوله تعالى السابق ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾، فقال تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾، وفي ابتداء الآية بحرف التراخي (ثم) في الآية فوائد عدة، تنطوي كلها تحت معنى التهديد والوعيد لهؤلاء المنكرين المستكبرين، ولأمثالهم من يمشي على سنتهم إلى يوم القيامة، ومن هذه الفوائد:

---

(١) ابن جرير ١٧/ ١٩٥. ط الرسالة.

(٢) انظر: المفردات صـ٢٦٥، زاد المسير ٤/ ٣٢٢، الرازي: ٢٠/ ١٨.

(٣) انظر المفردات صـ ٦٢.

(٤) المفردات صـ ٨٤.

(معنى الإمهال من غير إهمال)[1]، ومنها: أنها للترتيب الرتبي، بمعنى إن كان عذاب الدنيا كما وصفت لكم؛ فإن عذاب يوم القيامة أعظم من استئصال نعيم الدنيا.[2]

ومنها: الإشارة إلى ما في قلوبهم من استبعاد لذلك اليوم العظيم [3]، فهم ليسوا منكرين ومستكبرين فقط؛ بل وجاحدين بيوم الدين، فمهما طالت حياتكم؛ فإن مردكم إلى هذا اليوم الذي تستصغرون فيه كل عذاب مر عليكم في الدنيا.

وتقديم الظرف: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ للاهتمام بيوم القيامة لما فيه من العذاب المهول للسامعين[4]، ولأن الإخبارَ بجزائهم في الدنيا مؤذِنٌ بأن لهم جزاءً أخروياً فتبقى النفسُ مترقبة إلى وروده سائلةً عنه بأنه ماذا، مع تيقنها بأنه في الآخرة[5]، فهو تقرير لذلك اليوم في نفوسهم مع أنهم منكرون له.

وسؤالهم عن شركائه الذين قتلوا المسلمين من أجلهم، وخاصموهم وجادلوهم وحاربوهم إرضاء لهم؛ بدعوى أنهم شفعاء لهم يوم القيامة؛ فها هو يوم الحقيقة: ﴿وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ﴾ - سبحانه وتعالى عن الشريك- فسؤالهم هذا إنما هو مخاطبة لهم باعتقادهم وزعمهم[6]، وفي هذا تهكم بهم، واستحقار لدعوتهم واستخفاف بعقولهم مع ما يعانونه من الخزي الذي يستحيى منه.

---

(١) زهرة التفاسير ٨/ ٤١٦١.

(٢) انظر: التحرير والتنوير ١٤/ ١٣٦.

(٣) انظر: نظم الدرر ١١/ ١٤٢.

(٤) انظر: التحرير والتنوير ١٤/ ١٣٦.

(٥) انظر: أبو السعود ٥/ ١٠٨.

(٦) كما قال الزجاج في المعاني ٣/ ١٩٥.





(ولبيان عدل الله تعالى وإنجاز وعده لأوليائه بتفريحهم وإشماتهم بأعدائهم، قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْيَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ في سياق الجواب عن سؤال من قال: هل علم بذلك المؤمنون؟).[١]

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾، هم **الملائكة**[٢]، لأنهم كانوا يكتبون ما يعملون، **وهم الأنبياء والمرسلون** أيضاً لأنهم أوتوا علم النبوة وسيكونون شهداء عليهم يوم القيامة، **وهم المؤمنين من أهل الموقف** الذين عندهم علم دلائل التوحيد والغيبيات بما صدقوا به المرسلين -كما قال جمهور المفسرين[٣]-، فالكل يشهد شهادة واحدة ويتكلمون بحقيقة واحدة: ﴿إِنَّ ٱلْخِزْيَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، (وتأكيد الجملة بحرف التوكيد وبصيغة القصر، والإتيان بحرف الاستعلاء الدال على تمكن الخزي والسوء منهم يفيد معنى التعجب من هول ما أعد لهم).[٤]

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾، وهم الذين لا يؤمنون بالآخرة وقلوبهم منكرة وهم مستكبرون، ووصفهم بالظالمين لأنهم وضعوا فطرتهم في

---

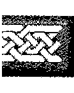
(١) ينظر: نظم الدرر ١١/ ١٤٣.

(٢) زاد المسير ٤/ ٣٢٢، الرازي ٢٠/ ١٨، وهو مروي عن ابن عباس.

(٣) انظر: البغوي ٥/ ١٦ط طيبة، البحر المحيط ٥/ ٤٨٥، زاد المسير ٤/ ٣٢٢، الرازي٢٠/ ١٨، ابن كثير:٤/ ٥٦٧ط طيبة، ابن عادل٢/ ٨٩، السراج المنير ٣/ ٣٣٠، أبو السعود٥/ ١٠٨، الآلوسي ١٤/ ١٢٧، التحرير والتنوير ١٤/ ١٣٧، حدائق الروح والريحان ١٥/ ٢٠٢، زهرة التفاسير ٨/ ٤١٦٢.

(٤) التحرير والتنوير ١٤/ ١٣٧.





غير جادتها، وجعلوا أنفسهم في المكان الذي لا يليق بالمكرّم، وهذا الوصف (ظالمي أنفسهم) (يرمي إلى أن توفي الملائكة إياهم ملابس لغلظة وتعذيب)[1]، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الأنفال: ٥٠].

ثم صور القرآن موقفهم من الشهادة التي بغتتهم: ﴿فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ﴾، أي استسلموا وانقادوا وأظهروا الخضوع والذلة، ونزلوا عما كانوا عليه من المكابرة والمشاقة، (وأصل الإلقاء في الأجسام، فاستعمل في إظهارهم الانقياد وإشعاراً بغاية خضوعهم وانقيادهم، وجعل ذلك كالشيء الملقى بين يدي القاهر الغالب).[2]

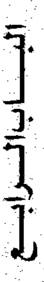
ولكن القلوب المنكرة أبت إلا أن تُظهر من النكران للحقائق حتى في آخر لحظات حياتهم وعند نزع أرواحهم، فقالوا: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ﴾، أي: من شرك، (يقولون ذلك للملائكة الّذين ينتزعون أرواحهم ليكفّوا عنهم تعذيب الانتزاع، يحسبون أنهم إن كذبوهم رَاج كذبهم على الملائكة فيكفّون عنهم العذاب، لذلك جحدوا أن يكونوا يعملون سوءاً من قبل).[3]

---

(١) التحرير والتنوير ١٤/ ١٣٨.

(٢) الآلوسي ١٤/ ١٢٩.

(٣) التحرير والتنوير ١٤/ ١٣٩-١٤٠.



وينتهي المشهد بالحقيقة التي لا يستطيع مجادل قلبها، وبالنهاية الحتمية المخزية لهؤلاء المتكبرين المنكرين، عندما تجيبهم الملائكة[١] مضربة عن قولهم نافية نفيهم، مثبتة إحالتهم إلى علام الغيوب: ﴿بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾، من الإضلال وتزييف الحقائق والصد عن سبيل الله، ثم تنتقل بنا الآيات لتبين عاقبة نكرانهم واستكبارهم، فيقول تعالى (معقباً مسبباً)[٢] بالعطف بالفاء: ﴿فَٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ﴾، (وجاء إدخالهم بصيغة الأمر؛ للدلالة على أنهم مجبرون في هذا الدخول لا مخيرون).[٣]

قال تعالى: ﴿فَلَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ ذكرهم بعنوان التكبر للإشعار بعليته لثوائهم فيها[٤]، والتعبير عن مقرهم الدائم في جهنم بـ (مثوى) تهكم بهم، فلم يعبّر عن جهنّم بالدار كما عبّر عن الجنّة فيما يأتي بقوله تعالى: ﴿وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٠] تحقيراً لهم وأنهم ليسوا في جهنّم بمنزلة أهل الدّار، بل هم متراصّون في النار وهم في محل ثواء.[٥]

---

(١) بعض المفسرين يرجح أن القائل هو الله تعالى، كأبي زهرة مثلاً (زهرة التفاسير ٨/ ٤١٦٣)، ولكن السياق يدل على أن القائل هم الملائكة، وهذا لا يمنع أن يكون القائل هو الله، وثمة قول ثالث لكنه بعيد وهو أن القائل هم أولوا العلم، انظر: الأقوال في الرازي ٢٠/ ١٩، وحدائق الروح والريحان ١٥/ ٢٠٣.

(٢) نظم الدرر ١١/ ١٤٥.

(٣) انظر: زهرة التفاسير ٨/ ٤١٦٤.

(٤) انظر: الآلوسي ١٤/ ١٣٠.

(٥) انظر: التحرير والتنوير ١٤/ ١٤٠، زهرة التفاسير ٨/ ٤١٦٤.

عاقبة المؤمنين المتقين

١٠- ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ (٣٠) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (٣١) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٢)﴾.

*** مناسبة الآيات:**

بعد أن بين الله تعالى موقف المنكرين المستكبرين والكافرين من القرآن والرسالة، وبين عاقبتهم في الدنيا والآخرة، ذكر موقف المؤمنين واصفاً لهم بأعلى الأوصاف، وواعداً لهم بأحسن الجزاء في الدنيا، ومبيناً منزلتهم في دار الكرامات.(١)

*** غريب الآيات:**

أَحْسَنُوا: الإحسان يقال على وجهين أحدهما: الإنعام على الغير يقال أحسن إلى فلان، والثاني إحسان في فعله وذلك إذا علم علما حسنا، أو عمل عملا حسنا، وعلى هذا قول أمير المؤمنين رضي الله عنه: (الناس أبناء ما يحسنون) أي: منسوبون إلى ما يعلمون وما يعملونه من الأفعال الحسنة.(٢)

حَسَنَةٌ: الحسنة يعبر بها عن كل ما يسر من نعمة تنال الإنسان في نفسه وبدنه وأحواله.(٣)

---

(١) ينظر: نظم الدرر ١١/ ١٤٦، وحدائق الروح والريحان ١٥/ ١٩٢.

(٢) المفردات صـ ١١٩.

(٣) المفردات صـ ١١٨.



طَيِّبِينَ: يطلق الطيب على محاسن الأخلاق وكمال النفس على جهة المجاز، فتوصف فيه المحسوسات وتوصف فيه المعاني والنفسيات، وهي هنا تجمع كل المعاني المحسوسة والمعنوية والنفسية(١)، يقول الراغب: (والطيب من الإنسان من تعرى من نجاسة الجهل والفسق وقبائح الأعمال، وتحلى بالعلم والإيمان ومحاسن الأعمال، وإياهم قصد بقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ﴾).(٢)

* **تفسير الآيات:**

قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ ﴾.

هذه مقابلة بين الإيمان والتقوى، والكفر والاستكبار، ففي الآيات السابقة عبر القرآن عن الكافرين بما تركب فيهم: النكران والاستكبار، فكان جواب من هذا وصفه عندما سئل عن الوحي المنزل: أساطير الأولين، وهنا عبر عن المؤمنين بوصف التقوى؛ (إشعاراً بأن ما صدر عنهم من الجواب ناشئ عن التقوى).(٣)

فسلك المؤمنون في الجواب مسلك السؤال من غير تلعثم ولا تغيير في الصورة، فكان الجواب بأوجز بيان وأجمعه في الكشف عن حقيقة القرآن ﴿قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ ﴾، أي: أنزل خيراً؛ (لأنه شامل لكل خير في الدنيا وكل خير في الآخرة)(٤)، أما الكفرة

---

(١) انظر: التحرير والتنوير ١٤/ ١٤٤.

(٢) المفردات صـ٣٠٩.

(٣) أبو السعود ٥/ ١١٠.

(٤) التحرير والتنوير ١٤/ ١٤١.

فعدلوا بالجواب عن السؤال، فقالوا: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، أي: ليس من الإنـزال في شيء.(١)

عَنْ السُّدِّيِّ قَالَ: (اجتمعت قريش، فقالوا: إِنَّ محمداً رجل حلو اللسان، إِذَا كلمه الرجل ذهب بعقله، فانظروا أناساً مِنَ أشرافكم المعدودين المعروفة أنسابهم، فابعثوهم في كُلّ طَرِيق مِنْ طرق مكة عَلَى رأس كُلّ ليلة أو ليلتين، فمن جاء يريده فردوه عنه، فخرج ناس منهم في كُلّ طَرِيق، فكان إِذَا أقبل الرجل وافداً لقومه ينظر مَا يَقُولُ مُحَمَّد، فينزل بهم، قالوا لَهُ: أنا فلان ابن فلان، فيعرفه بنسبه، ويقول: أنا أخبرك عَنْ مُحَمَّد، هُوَ رجل كذاب، لَمْ يتبعه عَلَى أمره إلا السفهاء والعبيد ومن لا خير فيه، وأما شيوخ قَوْمِهِ وخيارهم، فمفارقون لَهُ فيرجع أحدهم، فذلك قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، فإذا كَانَ الوافد ممن عزم الله لَهُ عَلَى الرشاد، فقالوا لَهُ مثل ذَلِكَ في مُحَمَّد، قَالَ: بئس الوافد أنا لقومي إن كنت جئت حتى إِذَا بلغت إلا مسيرة يَوْم؛ رجعت قبل أن ألقى هَذَا الرجل وأنظر مَا يَقُولُ، وآتي قومي ببيان أمره.

فيدخل مكة فيلقى المؤمنين فيسألهم: ماذا يَقُولُ مُحَمَّد؟ فيقولون: ﴿خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾، يَقُولُ: قَالَ: ﴿وَلَدَارُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌ﴾، وهي الجَنَّة).(٢)



---

(١) انظر: البحر ٥/ ٤٨٧، الدر المصون ٧/ ٢١٤.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم رقم (١٣٣٥٨).

(والّذين أحسنوا: هم المتقون فهو من الإظهار في مقام الإضمار توصّلا بالإتيان بالموصول إلى وجه بناء الخبر، أي جزاؤهم حسنة لأنهم أحسنوا).[١]

يقول قتادة: (أي آمنوا بالله وأمروا بطاعة الله، وحثوا أهل طاعة الله على الخير ودعوهم إليه).[٢]

ثم أبهم الله تعالى نوع الحسنة التي يجازيهم بها في الدنيا؛ ليتصور الإنسان أعظم معاني الإحسان من الكريم المنان سبحانه وتعالى، الذي يجزي المحسنين بأحسن ما كانوا يعملون، وبين أن الجزاء في الدنيا والآخرة، ولكن لما كانت الدار الدنيا زائلة ونعيمها منقطع؛ قال سبحانه: ﴿وَلَدَارُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌ﴾، أي في الجزاء والمصير على الإطلاق[٣]، ثم مدح الله تعالى دارهم ومقامهم مبينا الوصف الذي استحقوا هذه الدار لأجله، فقال: ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

يقول ابن عاشور: (وقوله تعالى: ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٣٠ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾، مقابل قوله تعالى في ضدّهم: ﴿ فَٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾).[٤]

---

(١) التحرير والتنوير ١٤/ ١٤٢.

(٢) ابن جرير ١٧/ ١٩٧ ط الرسالة.

(٣) ينظر: نظم الدرر ١١/ ١٤٧، وأبو السعود ٥/ ١١٠.

(٤) التحرير والتنوير ١٤/ ١٤٣.

(ولما كان هذا المدح مشوقاً لتفصيل ذلك؛ قال)[1]: ﴿ جَنَّتُ عَدْنٍ ﴾، وهي بيان إما عن دار المتقين، أو عن خير أجر الآخرة، وعلى كلا الحالين فإن مقامهم في هذه الجنات الموصوفة بقوله تعالى: ﴿يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾، أي: جنات إقامة لا ظعن فيها، تجري من تحت غرفها الأنهار، يقول ابن مسعود رضي الله عنه: (هي بُطْنَان الجنة، أي: وسطها).[2]

ولما كانت الدنيا دار ابتلاء وكان هذا الابتلاء محل حرمان وكدر؛ بيَّن الله كمال كرامة المحسنين والمتقين في هذه الجنات بقوله تعالى: ﴿ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ﴾، يقول الآلوسي: (وذكر بعضهم أن تقديم (فيها) للحصر، و(ما) للعموم بقرينة المقام؛ فيفيد أن الإنسان لا يجد جميع ما يريده إلا في الجنة فتأمله)[3]، يقول أبو السعود: (﴿كَذَٰلِكَ ﴾ مثلَ ذلك الجزاءِ الأوفى ﴿يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ اللام للجنس، أي: كلَّ من يتقي من الشِرْك والمعاصي، ويدخُل فيه المتقون المذكورون دخولاً أولياً، ويكون فيه بعثٌ لغيرهم على التقوى، أو [اللام] للعهد فيكون فيه تحسيرٌ للكفرة).[4]

---

(١) نظم الدرر ١١/ ١٤٧.

(٢) البغوي ٤/ ٧٣ ط طيبة. وانظر: ابن جرير ١٤/ ٣٥١ فما بعد في الأقوال الواردة في جنات عدن.

(٣) الآلوسي ١٤/ ١٣٢، وهذا القول مفاد كلام البقاعي في نظم الدرر ١١/ ١٤٨، وهو وجيه وقوي والله أعلم.

(٤) أبو السعود ٥/ ١١١. وانظر: الآلوسي ١٤/ ١٣٢.

وفي تصدير الآيات بصفة المتقين وختامها بهذه الصفة بعد ذكر جزائهم؛ بيان شرف المتقين، وبيان معنى حقيقة التقوى بأنها التصديق بالتنزيل والعمل به واتباع الرسول ﷺ.

وفي هذه المقابلة بين المتقين المؤمنين المصدقين، والمنكرين المستكبرين في التصرفات والعواقب: تربيةٌ للمسلمين وإرشادٌ لهم لأهمية العقيدة والإيمان في سلامة الأقوال والأعمال والمواقف، فمن خبث قلبه وعقله خبثت جوارحه وأعماله، وكان سبباً لفساد الأرض، ومن صلح قلبه وعقله صلح به المجتمع والكون.

(ثم حث تعالى على ملازمة التقوى بالتنبيه على العبرة بحال الموت)[1]؛ مقابلة لخاتمة المنكرين المستكبرين، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾، أي: تقبض أرواحهم وافية من نقص شيء من الروح، وهم في حالة كونهم طيبين، أي: طاهرين من ظلم أنفسهم بالكفر، متحلين بحلية الإيمان، زاكية أفعالهم وأقوالهم، طيبة وفاتهم سهل خروج أرواحهم[2]، تخاطبهم الملائكة: ﴿يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ﴾، (وهو سلام تأنيس وإكرام حين مجيئهم ليتوفوهم).[3]

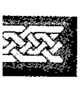
ثم بين الله كرامة المتقين؛ فيقال لهم عند الجزاء يوم القيامة: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، أي: ادخلوا الجنة بسبب عملكم الذي عملتموه غير مدَّخرين في

---

(١) نظم الدرر ١١/ ١٤٨، السراج المنير ٣/ ٣٣٢.

(٢) انظر: زاد المسير ٤/ ٣٢٤، نظم الدرر ١١/ ١٤٨.

(٣) التحرير والتنوير ١٤/ ١٤٤.



سبيل الخير، ودلالة (تعملون) المضارعة تدل على استمرار عملهم، مع دلالة (كان) للماضي، أي أن عملهم مستمر من إسلامهم إلى وفاتهم[1]، وهذا مقابل موقف الكافرين يوم القيامة حين قيل لهم: ﴿ فَٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ ﴾؛ بإذلال وصغار.

(١) انظر: زهرة التفاسير ٨/ ٤١٦٨.

سنة الله في المنكرين المستكبرين

١١- ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

* مناسبة الآيات:

لما تمت المقارنة بين موقف المعاندين للحق، المستكبرين على الرسالة، وبين المنقادين العاقلين المتقين، وقد سبق هذه المقارنة توهية لشبه المنكرين المستكبرين، وبيان لمستوى تفكيرهم وحقيقة طباعهم، بين هنا أنهم ظالمون لأنفسهم، وأوجبوا سنة الله فيهم لإنكارهم واستكبارهم بإنزال العذاب عليهم، ثم تابع القرآن في تفنيد ما تبقى لهم من حجج في إنكار الوحدانية والنبوة.[1]

* غريب الآيات:

وَحَاقَ: أي: نزل بهم وأصابهم، والحَيْقُ: ما يَشْتَمِلُ على الإنْسانِ من مَكْرُوهِ فِعْلِه.[2]

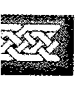
* تفسير الآيات:

لما ختم في الآية السابقة بالعاقبة الطيبة للمتقين؛ لسلامة قلوبهم وصدقهم وتصديقهم، جاءت الآية هنا بالتهديد الرباني المتضمن نفي النظر المتعقل من هؤلاء

---

(١) ينظر: الرازي ٢٠/ ٢٢، نظم الدرر ١١/ ١٤٩.

(٢) انظر: المفردات صـ ١٣١، نظم الدرر ١١/ ١٥٠، ومادة: حاق واوية ويائية. انظر: القاموس المحيط، مادة: حوق، واللسان، مادة: حيق.



المنكرين المستكبرين وقد ظهرت لهم الحجج القاهرة والمعجزات الباهرة؛ بسبب الغشاوة على عيونهم لتعاليهم واستكبارهم: فقال تعالى: ﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَ ﴾. إما أن تأتيهم الملائكة بالعذاب والتهديد، أو يأتي أمر الله بعذاب الاستئصال.(١)

(والكلام موجه إلى النبي صلى الله عليه وسلم؛ تذكيراً بتحقيق الوعيد وعدم استبطائه، وتعريضاً بالمشركين بالتحذير من اغترارهم بتأخّر الوعيد، وحثّاً لهم على المبادرة بالإيمان، وإسناد الانتظار المذكور إليهم جار على خلاف مقتضى الظاهر بتنزيلهم منزلة من ينتظر أحد الأمرين، لأنّ حالهم من الإعراض عن الوعيد وعدم التفكّر في دلائل صدق الرسول ﷺ مع ظهور تلك الدلائل وإفادتها التحقّق كحال من أيقن حلول أحد الأمرين به فهو يترقّب أحدهما).(٢)

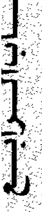
ثم بين الله تعالى أن هذه سنة الكافرين المستكبرين في الدنيا من قبل، كذبوا الرسل والأنبياء فأهلكهم الله، وأنزل بهم ما يستحقونه من العذاب، وهي الآن تتكرر في موقف المشركين مع الرسول صلى الله عليه وسلم ورسالة الإسلام، فينبغي أن يعتبروا بمن قبلهم إن كانوا عاقلين.

(والتعبير بـ ﴿ كَانُوٓاْ ﴾ دال على استمرارهم في أسباب ظلم أنفسهم، من إنكار وجحود ومكابرة، وتقديم كلمة ﴿أَنفُسَهُمۡ ﴾ على ﴿يَظۡلِمُونَ ﴾، للإشارة إلى أن

---

(١) ينظر: الرازي ٢٠/ ٢٢، السراج المنير ٣/ ٣٣٢، التحرير والتنوير ١٤/ ١٤٥، زهرة التفاسير ٨/ ٤١٦٩.

(٢) التحرير والتنوير ١٤/ ١٤٥.





ما ارتكبوا من آثام كان يقع على أنفسهم، لا على غيرهم وللاهتمام والتخصيص).[1]

وقد أكد الله هذا المعنى فقال: ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾، أي: ترتب على ظلمهم لأنفسهم وإساءتهم واستهزائهم أن أصابهم جزاء سيئات ما عملوا، ونزل بهم على وجه الإحاطة والتمكين عقاب استهزائهم.[2]

---

(١) انظر: زهرة التفاسير ٨/ ٤١٧٠.

(٢) ينظر: الدر المصون ٧/ ٢١٧، الرازي ٢٠/ ٢٢.

تقرير النبوة ورد استدلال المشركين على شركهم بالقدر

١٢ - ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

* مناسبة الآيات:

بعدما تمت المقارنة في الآيات السابقة بين جزاء المؤمنين المحسنين؛ وبين الكافرين المستكبرين المنكرين، فجعل الله المشركين بين ترهيب وترغيب؛ استكمل القرآن تفنيد باقي الحجج التي تمسك بها المستكبرون في شركهم وإنكارهم للنبوة، وأبطل زعمهم الذي دل على تأصل الاستكبار فيهم في عزوهم الإشراك لإرادة الله تعالى.[١]

* غريب الآيات:

الطَّاغُوتَ: هو الشيطانُ، وكلُّ ما يدعو إلى الضلالة.[٢]

قال الراغب: (والطاغوت عبارة عن كل متعد وكل معبود من دون الله ويستعمل في الواحد والجمع).[٣]



---

(١) ينظر: الرازي ٢٠/ ٢٢، البقاعي ١١/ ١٣٥.

(٢) أبو السعود ٥/ ١١٢.

(٣) المفردات صـ ٣٠٥ مادة: طغى.



عَاقِبَةُ: العقب والعقبى يختصان بالثواب، وإذا أطلقت العاقبة اختصت بالثواب فقط، نحو قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف:١٢٨]، وبالإضافة قد تستعمل في العقوبة، نحو قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟﴾ [الروم:١٠].[١]

وهي هنا بمعنى جزاؤهم وآخر أمرهم.[٢]

تَحْرِصْ: يقول الراغب: (الحرص: فرط الشره وفرط الإرادة، قال عزَّ وجل: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ﴾، أي: إن تفرط إرادتك في هدايتهم).[٣]

*** تفسير الآيات:**

سبق أن وصف الله الذين كفروا بقوله: ﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾، وهما -الإنكار والاستكبار- علامتان بارزتان من علامات العداء والمخاصمة، فمن كانت هذه صفته لابد أن يلبس جحوده ونكرانه بشيء من المنطق والحجة التي يحسبها مفحمة، إذن فنحن الآن أمام حكاية حال من أحوال الكافرين المبرزة لهاتين الصفتين: النكران والاستكبار، فقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾.

---

(١) انظر: المفردات صـ ٣٤٠ مادة: عقب.

(٢) انظر: السراج المنير ٣/ ٣٣٤.

(٣) المفردات صـ١١٣، مادة حرص.

وهذه الحجة التي قالوها؛ إنما هي رد لما كان ينزل عليهم من تحريمِ السائبة والبحيرة وغيرهما، والتهديدِ بأن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون، وأن الله لا يرضى أن يعبد سواه من دونه أو معه، فقالوا منكرين ذلك كله، ومنكرين معه ضمناً النبوة والوحي: لو شاء الله أن لا نعبد أصناماً لما أقدرنا على عبادتها، ولو شاء أن لا نحرم ما حرمنا؛ لما أقرنا على التحريم، ولو شاء هدايتنا لما أرسلك إلينا، بل لحصل الإيمان لنا سواء جئت أم لم تجئ.[1]

يقول ابن عاشور رحمه الله: (وهذا ردّه الله عليهم بتنظير أعمالهم بأعمال الأمم الذين أهلكهم الله، فلو كان الله يرضى بما عملوه لما عاقبهم بالاستئصال، فكانت عاقبتهم نزول العذاب بقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾، ثم بقطع المحاجّة بقوله تعالى: ﴿فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾، أي: وليس من شأن الرسل عليهم السلام المناظرة مع الأمّة.

وقال في سورة الأنعام (الآية:١٤٨): ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ﴾، فسمّى قولهم هذا تكذيباً كتكذيب الذين من قبلهم، لأن المقصود منه التكذيب وتعضيد تكذيبهم بحجّة أساءوا الفهم فيها، فهم يحسبون أن الله يتولّى تحريك الناس لأعمالهم كما يُحرّك صاحب خيال الظلّ ومحرّك اللعب أشباحه وتماثيله،

---

(١) ينظر: الرازي ٢٠/ ٢٣، أبو السعود ٥/ ١١٢، التحرير والتنوير ١٤/ ١٤٧.

وذلك جهل منهم بالفرق بين تكوين المخلوقات وبين ما يكسبونه بأنفسهم، وبالفرق بين أمر التكذيب وأمر التكليف، وتخليط بين الرضى والإرادة، ولولا هذا التخليط لكان قولهم إيماناً).(١)

ثم بين الله تعالى أن سنته في عباده أن يرسل الرسل، وأن يظهر على أيديهم مراده سبحانه من العقيدة والشريعة، والأصل في رسالتهم التي أمروا بتبليغها: إفراد الله تعالى بالعبادة، وترك كل ما يدعوا إلى الضلالة والشرك وتحكيم الهوى، فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾.

فلو كانت حجتكم أيها المشركون صحيحة؛ لم أرسل الله الرسل من لدن آدم، وكلهم يدعون إلى التوحيد ونبذ الشرك، قال تعالى: ﴿ وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٤٥]، وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ (فكيف يسوغ لأحد من المشركين بعد هذا أن يقول: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ ﴾ فمشيئته تعالى الشرعية منتفية؛ لأنه نهاهم عن ذلك على ألسنة رسله، وأما مشيئته الكونية، وهي تمكينهم من ذلك قدراً، فلا حجة لهم فيها لأنه تعالى خلق النار وأهلها من الشياطين والكفرة، وهو لا يرضى لعباده الكفر، وله في ذلك حجة بالغة وحكمة قاطعة).(٢)

---

(١) التحرير والتنوير ١٤/ ١٤٧.

(٢) انظر: ابن كثير ٤/ ٥٧٠ ط دار طيبة.

ولما بين لهم أنه ما خلت أمة من قبلهم إلا أتاها رسول؛ بين أنه تسبب عن هذا الإرسال انقسام الأمم إلى قسمين اتجاه الرسل: فمنهم من هداه الله إلى الحق وثبتت له الهداية والجنة، ومنهم من ثبتت عليه الضلالة فكان جديراً بها منافحاً عنها، يقول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾.

يقول البقاعي: (ثم التفت إلى مخاطبتهم إشارة إلى أنه لم يبق بعد هذا الدليل القطعي في نظر البصيرة إلا الدليل المحسوس للبصر، فقال: ﴿فَسِيرُوا﴾ أي: فإن كنتم أيها المخاطبون في شك من إخبار الرسل فسيروا ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أي: جنسها ﴿فَانظُرُوا﴾ أي: إذا سرتم ومررتم بديار المكذبين وآثارهم، وعبر هنا بالفاء المشيرة إلى التعقب دون تراخ؛ لأن المقام للاستدلال المنقذ من الضلال الذي تجب المبادرة إلى الإقلاع عنه، وأشار بالاستفهام إلى أن أحوالهم مما يجب أن يسأل عنه للاتعاظ به فقال: ﴿كَيْفَ كَانَ﴾ أي: كوناً لا قدرة على الخلاص منه، ﴿عَاقِبَةُ﴾ أي: آخر أمر: ﴿الْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: من عادٍ ومن بعدهم الذين تلقيتم أخبارهم عمن قلدتموهم في الكفر من أسلافكم، فإنهم كذبوا الرسل فيما أمرتهم بإبلاغه مخالفة لأمري وعملاً بمشيئتي، فأوقعت بهم لأنهم خالفوا أمري باختيارهم مع جهلهم بإرادتي، فقامت عليهم الحجة على ما يتعارفه الناس بينهم).[1]

---

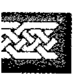
(١) نظم الدرر ١١/ ١٥٨.





ولما كان النبي صلى الله عليه و سلم قد أرسل رحمة للعالمين، فكاد يقتل نفسه حرصاً على إيمان الكافرين ليخرجهم من الظلمات إلى النور، وشفقة عليهم وهو صلى الله عليه وسلم الرؤوف الرحيم؛ وجه الله تعالى الخطاب ملتفتاً إليه، معرضاً عمن أعرض عن الآيات المحسوسة والنظر السديد؛ فقال تعالى: ﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾، أي: (إن تحرص يا محمد على هداهم، فإن من أضله الله فلا هادي له، فلا تجهد نفسك في أمره، وبلغه ما أرسلت به لتتم عليه الحجة ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾. أي: وما لهم من ناصر ينصرهم من الله إذا أراد عقوبتهم، فيحول بين الله وبين ما أراد من عقوبتهم).[1]

(١) انظر: ابن جرير ١٧/ ٢٠٢ ط الرسالة.



تقرير البعث بعد الموت

١٣- ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٨) لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ (٣٩) إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٤٠)﴾.

*** مناسبة الآيات:**

(بعدما أبطل حجتهم في الإشراك وتكذيب النبوة، انتقل لحكاية مقالة أخرى من شنيع مقالاتهم في كفرهم، واستدلال من أدلّة تكذيبهم الرسول ﷺ فيما يخبر به إظهاراً لدعوته في مظهر المحال، وذلك إنكارهم الحياة الثانية والبعث بعد الموت)[1]، فالآيات هنا شروع في بيان فن آخرَ من أباطيلهم وهو إنكارُ البعث.

*** سبب النزول:**

عن أبي العالية[2] قال: كان لرجل من المسلمين على رجل من المشركين دين، فأتاه يتقاضاه، فكان فيما تكلم به: والذي أرجوه بعد الموت إنه لكذا ، فقال المشرك: إنك تزعم أنك تُبعث بعد الموت، فأقسم بالله جهد يمينه: لا يبعث الله من يموت، فأنزل الله

(١) انظر: التحرير والتنوير ١٤/ ١٥٣، نظم الدرر ١١/ ١٦١.

(٢) رفيع بن مهران الرياحي البصري المقرئ المفسر الفقيه التابعي قال ابن أبي داود: ليس أحد بعد الصحابة أعلم بالقرآن من أبي العالية وبعده ابن جبير. له التفسير، ت ٩٣ على الأصح. انظر: سير أعلام النبلاء ٤/ ٢٠٧، طبقات المفسرين للداودي ١/ ١٧٨.





الآيــة: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.(١)

* غريب الآيات:

جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ: مصدرٌ في موقع الحال، أي: جاهدين في أيمانهم(٢)، يقول ابن كثير: (اجتهدوا في الحلف وغلظوا الأيمان).(٣)

* تفسير الآيات:

قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، هذه شبهة أخرى من شبهات المستكبرين المنكرين للنبوة والبعث، ووجه إنكارهم للنبوة في مقالتهم هذه؛ هو أن دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم تقوم في أحد أركانها العقدية على الإيمان بالبعث بعد الموت، فعندما يبطل هذا الركن بطل أصل الدعوة القائمة عليها(٤)، ولكن لما كانت

---

(١) أخرجه ابن جرير ١٧/ ٢٠٣ ط الرسالة، والواحدي في أسباب النزول صـ٢٨٤ تحقيق السيد أحمد صقر، ط دار القبلة، الثانية ١٩٨٤، والسيوطي في لباب النقول في أسباب النزول صـ ١٧٤ تحقيق: عبد المجيد طعمة الحلبي، ط دار المعرفة بيروت الأولى ١٩٩٧. ومن الواضح أن الرواية مرسلة.

(٢) أبو السعود ٥/ ١١٣.

(٣) ابن كثير ٤/ ٥٧١ ط دار طيبة.

(٤) ينظر: الرازي ٢٠/ ٢٥، ٢٦.



حجتهم في نفي البعث ضعيفة، لجؤوا إلى الحلف بالأيمان المغلظة ما استطاعوا مما يحفظونه أو يخترعونه ليقرروا دعواهم.

يقول الرازي: (ثم إنه تعالى بين أن القول بالبعث ممكن **ويدل عليه وجهان:**

- **الوجه الأول:** أنه وعد حق على الله تعالى، فوجب تحقيقه، ثم بين السبب الذي لأجله كان وعداً حقاً على الله تعالى، وهو التمييز بين المطيع وبين العاصي، وبين المحق والمبطل، وبين الظالم والمظلوم، وهو قوله: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ﴾.

- **والوجه الثاني:** في بيان إمكان الحشر والنشر؛ أن كونه تعالى موجداً للأشياء ومكوناً لها لا يتوقف على سبق مادة ولا مدة ولا آلة، وهو تعالى إنما يكونها بمحض قدرته ومشيئته، وليس لقدرته دافع ولا لمشيئته مانع، فعبر تعالى عن هذا النفاذ الخالي عن المعارض بقوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ وإذا كان كذلك، فكما أنه تعالى قدر على الإيجاد في الابتداء وجب أن يكون قادراً عليه في الإعادة، فثبت بهذين الدليلين القاطعين أن القول بالحشر والنشر والبعث والقيامة حق وصدق).[1]

(والعدول عن (الموتى) إلى ﴿مَن يَمُوتُ﴾ لقصد إيذان الصّلة بتعليل نفي البعث، فإن الصّلة أقوى دلالة على التعليل من دلالة المشتق على عليّة الاشتقاق، فهم جعلوا الاضمحلال منافياً لإعادة الحياة، كما حكي عنهم ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا

(١) الرازي ٢٠/ ٢٦.



وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴾ [النمل:٦٧])[1]، فهم إذن أرادوا أن يلبسوا دعواهم بدليل محسوس، فاستدلوا على فناء أعضاء الإنسان وذهاب طباعه ومزاجه على عدم عوده بعينه إن عاد، فكان جواب الله عليهم في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾. أي: (لا يعلمون كيفيّة ذلك فيقيمون من الاستبعاد دليل استحالة حصول البعث بعد الفناء، والاستدراك ناشيء عن جعله وعداً على الله حقّاً، إذ يتوهّم السامع أن مثل ذلك لا يجهله أحد فجاء الاستدراك لرفع هذا التوهّم، ولأن جملة: ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا ﴾ تقتضي إمكان وقوعه والناس يستبعدون ذلك).[2]

ثم علل القرآن الحكمة البالغة في تقرير البعث بعد الموت، وأنه وعد على الله حق بقوله: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴾، أي: جعل البعث ليبيّن للناس منذ أن خلقهم إلى يوم القيامة من المؤمنين والمشركين؛ الشيءَ الذي يختلفون فيه من الحقّ والباطل، فيظهر حقّ المحقّ ويظهر باطل المبطل في العقائد ونحوها من أصول الدّين وما ألحق بها، وعطف على هذا التعليل تعليلاً آخر خاصاً بأصحاب الدعوى ورداً عليهم، فقال: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ ﴾[3]، أي عريقين في الكذب في إنكارهم للمعاد وزعمهم أنهم المختصون بالمفاز[4]، (و﴿ كَانُواْ

---

(١) التحرير والتنوير ١٤/ ١٥٤.

(٢) التحرير والتنوير ١٤/ ١٥٤.

(٣) ينظر: زاد المسير ٤/ ٣٢٦.

(٤) انظر: نظم الدرر ١١/ ١٦٣.

﴿كَٰذِبِينَ﴾ أقوى في الوصف بالكذب من (كذَبوا أو كاذبون)، لما تدلّ عليه (كان) من الوجود زيادة على ما يقتضيه اسم الفاعل من الاتّصاف، فكأنه قيل: وُجِد كذبهم ووصفوا به. وهذا يستلزم تعذيبهم عقوبة على كذبهم، ففيه شتم صريح وتعريض بالعقاب).[1]

ولما بين أن يوم البعث واقع لا محالة وعداً عليه حقاً، وبين الحكمة في وقوعه، أعطاهم الدليل القاطع فيه ويُسْرِه عليه وخفته لديه، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

يقول ابن عاشور:

(هذه الجملة متّصلة بجملة ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، لبيان أنّ جهلهم بمَدى قدرة الله تعالى هو الذي جرّأهم على إنكار البعث واستحالته عندهم، فهي بيان للجملة التي قبلها ولذلك فُصلت، ووقعتْ جملة: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾، إلى آخرها اعتراضاً بين البيان والمبيّن، والمعنى: أنه لا يتوقف تكوين شيء إذا أراده الله إلا على أن تتعلّق قدرته بتكوينه؛ وليس إحياء الأموات إلا من جملة الأشياء، وما البعث إلا تكوين، فما بَعْث الأموات إلا من جملة تكوين الموجودات، فلا يخرج عن قدرته).[2]

---

(١) التحرير والتنوير ١٤/ ١٥٥.

(٢) التحرير والتنوير ١٤/ ١٥٥.

(فشبّه الشيء الممكن حصوله بشخص مأمور، وشبّه انفعال الممكن لأمْرِ التكوين بامتثال المأمور لأمر الآمر، وكلّ ذلك تقريب للناس بما يعقلون، وليس هو خطاباً للمعدوم، ولا أن للمعدوم سمعاً يعقل به الكلام فيمتثل للآمر).[1]

عن أبي هريرة يقول: (قال الله: سَبّني ابن آدم، ولم يكن ينبغي له أن يسبّني، وكذّبني ولم يكن ينبغي له أن يكذّبني فأما تكذيبه إياي، فقال: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ قال: قلت: ﴿بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ وأما سبه إياي، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ وقلت: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾).[2]

(١) انظر: أبو السعود ٥/ ١١٥، والتحرير والتنوير ١٤/ ١٥٦، وحدائق الروح والريحان ١٥/ ٢١٧.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم كما ذكر ابن كثير ٤/ ٥٧٢ ط: طيبة، وابن جرير ١٧/ ٢٠٤ ط الرسالة، موقوفاً على أبي هريرة هكذا، والحديث له أصل في البخاري (٤٢١٢) من حديث ابن عباس مرفوعاً.



ثواب الهجرة في سبيل الله فراراً بالدين

١٤- ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ (٤١) ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٤٢) ﴾.

*** مناسبة الآيات:**

لما حكى في الآيات السابقة عن أحوال الكفار ومقالاتهم، وآخرها أنهم أقسموا جهد أيمانهم في إنكار البعث بعدما جحدوا أصل بعثة الرسل وهي عبادة الله وحده لا شريك له، دل ذلك على تماديهم في الغي والجهل، ومن هذا حاله لا يبعد إقدامه على إيذاء المسلمين بالضرب والأذى، وحينئذ يلزم المؤمنين أن يهاجروا إلى الله عن ديارهم ومساكنهم، فرغبهم الله تعالى في هذه الآيات بالهجرة بذكر ما أعده للمهاجرين في سبيل الله من الحسنة في الدنيا والآخرة.[1]

وثمة مناسبة أخرى ذكرها ابن عاشور وهي نفيسة قال: (لما ثبتت حكمة البعث بأنها تبيين الذي اختلف فيه الناس من هدى وضلالة، ومن ذلك أن يتبين أن الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين، يعلم منه أنّه يتبين بالبعث أن الذين آمنوا كانوا صادقين بدلالة المضادة، وأنهم مثابون ومكرمون. فلما علم ذلك من السياق وقع التصريح به في هذه الآية، وأدمج مع ذلك وعدهم بحسن العاقبة في الدنيا مقابلة وعيد الكافرين بسوء

(١) انظر: البحر ٥/ ٤٩١، الرازي ٢٠/ ٢٨، ابن عادل ٢/ ١١٢، حدائق الروح والريحان ١٥/ ٢١٤.



العاقبة فيها الواقع بالتعّريض في قوله تعالى: ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [النحل:٣٦]).[1]

*** سبب النزول:**

الصحيح في سبب نزول الآيات - وهو قول الجمهور كما قال ابن عطية- ما روي عن قتادة: (هم أصحاب الرسول ﷺ ظلمهم أهل مكة وأخرجوهم من ديارهم حتى لحق طائفة منهم بالحبشة، ثم بوّأهم الله المدينة بعد ذلك فجعلها الله لهم دار هجرة وجعلهم أنصاراً)[2]، لأن الآية مكية ونزلت قبل الهجرة إلى المدينة[3]، يقول ابن كثير: (ويحتمل أن يكون سبب نزول هذه الآية الكريمة في مُهاجرة الحبشة الذي اشتد

---

(١) التحرير والتنوير ١٤/ ١٥٧.

(٢) أخرجه ابن جرير ١٤/ ٧٣، وعبد بن حميد ابن المنذر وابن أبي حاتم (١٣٣٧٣)، انظر الدر المنثور ٤/ ١٣٢، والبغوي ٣/ ٦٩، ابن عطية في المحرر ١٠/ ١٨٦، ابن عادل ٢/ ١١٣.

(٣) تذكر كتب التفسير وأسباب النزول أن الآية نزلت في أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بمكة: بلال وصهيب وخباب وعامر وجندل بن صهيب، أخذهم المشركون بمكة فعذبوهم وآذوهم، فبوأهم الله تعالى بعد ذلك المدينة، انظر أسباب النزول للواحدي صـ ١٨٨ ط البابي الحلبي، وصـ ٢٨٥ ط دار القبلة، ولباب النقول للسيوطي صـ ١٧٥، والبغوي ٣/ ٦٩، زاد المسير ٤/ ٣٢٧، الكشاف ٢/ ٥٦٧، الرازي ٢٠/ ٢٨، ابن عادل ٢/ ١١٢، وقال في زاد المسير: (رواه أبو صالح عن ابن عباس)، وضعفه ابن عطية في المحرر ١٠/ ١٨٦. وجعله أبو السعود ١٠/ ١١٥ مناسباً إن كانت السورة أو هذه الآية مدنية على قول الأصم ولكنها مكية، وفي لباب النقول عن داود بن أبي هند أنها نزلت في أبي جندل بن سهيل، أخرجه ابن أبي حاتم (١٣٣٧٢)، وهذا يدخل في رواية ابن عباس السابقة.

أذى قومهم لهم بمكة، حتى خرجوا من بين أظهرهم إلى بلاد الحبشة، ليتمكنوا من عبادة ربهم).[١]

* غريب الآيات:

هاجروا: الهجرة الترك، والخروج من أرض إلى أرض.[٢]

لَنُبَوِّئَنَّهُمْ: أي ننزلهم ونسكنهم منزلاً[٣] وجعل بعضهم معناها (لنحسنن إليهم)[٤] وهذا معنى أعم ويدخل فيه ما قبله.



حسنة: صفة لمصدر محذوف، أي: مباءةً حسنة ومنزلاً طيباً[٥].

* تفسير الآيات:

﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ﴾، أي: إن الذين تركوا أملاكهم وأوطانهم، وتعروا من مساكنهم، وفارقوا أرحامهم؛ من أجل عقيدتهم بالله، ويقينهم بالبعث وبالجزاء يوم القيامة، وفراراً من ظلم الكافرين وأعداء الدين، لن يتركهم الذي أمرهم بذلك دون كرامة، فلئن تركوا مساكنهم وأوطانهم فإن الله تعالى وعدهم مقسماً ومؤكداً بقوله: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾، واختلف في هذه الحسنة:

---

(١) ابن كثير: ٤/ ٥٧٢، ط دار طيبة.

(٢) انظر: القاموس المحيط واللسان مادة هجر، وحدائق الروح والريحان ١٥/ ٢٣٧.

(٣) انظر مادة: بوأ في لسان العرب ١/ ٣٦.

(٤) الدر المصون ٧/ ٢٢٠.



(٥) انظر: الدر المصون ٧/ ٢٢٠، أبو السعود ٥/ ١١٥، ونقله عن قتادة ثم قال: (وهو الأنسب من كون السورة غير ثلاث آيات من آخرها مكية).



فقيل: هي المدينة المنورة، وقيل: الغلبة على أهل الشرق والغرب.[1]

ويرى الباحث أن معنى الحسنة يرجع إلى تقدير معنى التبوئة، فمن جعلها بمعنى الإقامة والإنزال؛ قال بأن الحسنة هي المدينة المنورة وأكرم به مقاماً في الدنيا.

ومن جعلها بمعنى الإنزال المعنوي والرتبي؛ كانت الحسنة هي الغلبة على كفار مكة والعرب قاطبة وأهل المشرق والمغرب.

أقول: وإذا نظرنا إلى التبوئة بمعنى الإحسان إليهم؛ دخلت المعاني السابقة وغيرها في معنى الحسنة، ويدخل في النظم من هاجر من مكة إلى الحبشة، ثم من هاجر من مكة إلى المدينة، ثم كل من يهاجر من بلده في سبيل الله وفراراً بدينه من الظلم والفتنة يرجوا الله واليوم الآخر إلى يوم القيامة، وهو ما أميل إليه والله أعلم، فيكون المعنى: لنحسنن إليهم إحساناً عظيماً يليق بهم، لا يقادر قدره والله أعلم.

فالمسلمون سكنوا المدينة وهي خير لهم، ووجدوا فيها العيش الحسن، ثم فتحت لهم البلاد وسادوها، وجاءهم خراجها وفيؤها وغنائمها، يروى أن عُمر رضي الله عنه كان إذا أعطى رجلاً من المهاجرين عطاء قال له: (هذا ما وعدك ربّك في الدنيا، وما ذخر لك في الآخرة أكبر)[2]؛ وما يرجونه من الله يوم القيامة أعظم: ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾، فهي النعيم المقيم والجنات التي تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، وفي ذلك اليوم يكون الذين آمنوا من الكفار يضحكون.[3]

---

(١) انظر: زاد المسير ٤/ ٣٢٧، الرازي ٢٠/ ٢٩، أبو السعود ٥/ ١١٥.

(٢) أخرجه ابن جرير ١٤/ ٧٤، وابن المنذر الدر المنثور ٤/ ١٣٢، وذكره القرطبي ١٠/ ٧١.

(٣) ينظر: أبو السعود ٥/ ١١٥، ١١٦، التحرير والتنوير ١٤/ ١٥٧، ١٥٨، وزهرة التفاسير ٨/ ٤١٨١، ٤١٨٢، وحدائق الروح والريحان ١٥/ ٢٣٨.



وقوله ﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ جملة معترضة، وهي استئناف بياني ناشئ عن جملة الوعد كله، والضمير فيها إما للكفار، فيكون المعنى لو علم الكفار هذا الجزاء لاقتدوا بالمهاجرين وآمنوا معهم، وإما للمؤمنين المهاجرين فتكون بياناً لفضل ما يلاقونه وعظيم شأنه، كأنه فوق الخيال والتصور[1]، **وقد بينت الآية شروطا هذا الأجر:**

- **أحدهما:** في قوله تعالى: ﴿هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ﴾، أي بأن تكون الهجرة لأجل الله، فالفاء سببية وهذا يوميء إلى أنه صارت أحاسيسهم وقلوبهم وكيانهم كلها لله تعالى نسأل الله أن نكون منهم.

- **والثاني:** في قوله تعالى ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ﴾ أي: بأن تكون الهجرة بعد وقوع الظلم والحيف بهم، ففروا من الفتنة التي هي أشد من القتل، خوفاً على إيمانهم وعقيدتهم.

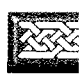
ولما كان في هذا الإحسان من أول الأمر نوع غموض؛ لظهور الكفرة في بادي الرأي؛ وصف المهاجرين بما يستكملون به كرم الله وإحسانه، بياناً لأصل ما حملهم على ما استحقوا به هذا الأجر الجزيل، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ أي: استعملوا الصبر على ما نابهم من المكاره من الكفار وغيرهم في الإقامة بين أظهرهم مدة، ثم في الهجرة بمفارقة الوطن الذي هو حرم الله المشرب حبه لكل قلب، فكيف بقلوب من هو مسقط رؤوسهم ومألف أبدانهم ونفوسهم، وفي بذل الأرواح في الجهاد وغير ذلك، وقال تعالى: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾ أي: المحسن إليهم بإيجادهم وهدايتهم وحده ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾ في كل حالة يريدونها؛ رضى بقضاء الله تعالى.[2]



---

(١) ينظر: التحرير والتنوير ١٤/ ١٥٩.

(٢) نظم الدرر ١١/ ١٦٥.



فالآية بينت صفة المستحقين لهذا الأجر عطفاً على شرطي استحقاقه، فكـل شرط لا بد له من الصبر والتوكل على الله وحده، وكأن هاتين الصفتين هما أثر العقيـدة الـصافية ومظهر التربية الإيمانية ونجاح الصادق في الامتحان.

تقرير النبوة ووعيد المنكرين

١٥- ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾.

* مناسبة الآيات:

لما أجابهم في الآيات السابقة على استدلالهم بالقدر على شركهم وعدم الحاجة للرسل، ثم قرر البعث بعد الموت، جاءت الآيات هنا لدفع ما ترتب على إنكاراتهم السابقة وهي إنكار أصل النّبوّة، بعدما أفحمهم بالحجج العقلية والفطرية.

* غريب الآيات:

مَكَرُوا: المكر صرف الغير عما يقصده بحيلة[1]، يقول ابن الجوزي: (ومكرهم السيئات: شركهم وتكذيبهم، وسمي ذلك مكراً، لأن المكر في اللغة: السعي بالفساد، وهذا استفهام إنكار، ومعناه: ينبغي أن لا يأمنوا العقوبة).[2]

يَخْسِفَ: الخسوف: الذهاب بالشيء، والغور في الأرض.



---

(١) انظر: المفردات صـ ٤٧١ مادة: مكر. وينظر: الدر المصون ٧/ ٢٢٤، ينظر: أبو السعود ٥/ ١١٧.

(٢) زاد المسير ٤/ ٣٢٩.

ويقال: خسف القمر إذا ذهب بعضه أو كله، والمعنى: أن يذهب الله بهم في الأرض.(١)

يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ: ورد في معناها أربعة أقوال، هي باختصار(٢): أسفارهم، منامهم، ليلهم ونهارهم، الرابع: جميع ما يتقلبون فيه في مسائرهم ومتاجرهم، والأخير يجمع ما تقدمه من أقوال، ولعله الأقرب للمعنى؛ لأن عذاب الله ليس له وقت أو حال مخصصة وإنما يأتيهم بغتة، كما في قوله تعالى: ﴿ **فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ** ﴾ [الأنعام: ٤٤]، وقال الله تعالى: ﴿ **وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ** ﴾ [العنكبوت:٥٣].

بِمُعْجِزِينَ: أي: فما هم بممتنعين أو فائتين بالهروب والفرار.(٣)

عَلَىٰ تَخَوُّفٍ: التخوف النقص، يقال: تخوّفه الدهر وتخوّنه؛ إذا نقصه وأخذ ماله وحشمه.

*** تفسير الآيات:**

زعم المشركون أن الرسالة لا تليق بالبشر، فكيف يعقل - في زعمهم - أن يبعث الله رسولاً بشراً يمشي في الأسواق ويأكل الطعام، فأجابهم الله تعالى بما يقطع الألسن،

---

(١) انظر: المفردات صـ١٤٨.

(٢) انظر: الأقوال في: الطبري ١٤/ ٧٦، ٧٧، زاد المسير ٤/ ٣٢٩، الدر المنثور ٤/ ١٣٣.

(٣) انظر: أبو السعود ٥/ ١١٧، والمفردات صـ٣٢٢ مادة: عجز.

فقال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ (والمعنى: أن عادة الله من أول زمن التكليف؛لم يبعث رسولاً إلا من البشر، وهذه العادة مستمرة، فلا يلتفت إلى طعن هؤلاء الجهال).(١)

ولما كان مشركو مكة مقرين بأن اليهود والنصارى هم أهل العلم بما أنزل الله في التوراة والإنجيل، ولهم علاقات معهم بحكم رحلاتهم وتجارتهم إلى المدينة المنورة وبلاد الشام، وجه لهم الخطاب إليهم فقال: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ عن ابن عباس رضي الله عنه قال: (لما بعث الله محمداً رسولاً أنكرت العرب ذلك، ومن أنكر منهم قالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً مثل محمد، فأنزل الله: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ﴾ [يونس:٢]، وقال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ يعني: فاسألوا أهل الذكر والكتب الماضية: أبشراً كانت الرسل الذين أتتهم أم ملائكة؟، فإن كانوا ملائكة أتتكم -وعند الطبري: أنكرتم-، وإن كانوا بشراً فلا تنكروا أن يكون رسولاً. ثم قال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓ﴾ [يوسف:١٠٩] أي: ليسوا من أهل السماء كما قلتم).(٢)

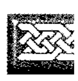
---

(١) ابن عادل ٢/ ١١٨.

(٢) أخرجه ابن جرير ١٧/ ٢٠٨، ط الرسالة، وابن أبي حاتم رقم (١٣٣٧٦) واللفظ له، وبلفظ ابن جرير ذكره ابن كثير في تفسيره ٤/ ٥٧٣ ط دار طيبة، وبلفظ ابن أبي حاتم ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ١٣٢ وهو من طريق الضحاك. ولا خلاف بين رواية الطبري وابن أبي حاتم=







وهكذا روى مجاهد عن ابن عباس، أن المراد بأهل الذكر: أهل الكتاب، وقاله مجاهد، والأعمش.[١]

ويحتمل النظم القرآني أن يراد بأهل الذكر أيضاً كل من يذكر بعلم وتحقيق، ويساعد عليه أن خاتمة الآية قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، ففيها إشارة إلى أن أهل الذكر هم أهل العلم والمعرفة.

ولعل هذا ملحظ الزجاج في قوله: (فاسألوا كل من يذكر بعلم وتحقيق)[٢]، فيدخل في ذلك علماء الآثار والتاريخ[٣]، الذين ينقبون في تاريخ الأمم وآثارهم، ويقرؤون ما تبقى من لوحات كتبوها ومخطوطات أثرت عنهم، والله أعلم.

= إن شاء الله، والمعنى:إن كان قد أتاكم الرسل ملائكة فقد أثبتم الرسالة وأن الله قد أرسل الرسل وبقي الإنكار على كون الرسول المرسل إليكم بشراً وليس ملائكة فعندها لكم أن تنكروا. ولا يمكن اعتبار هذه الرواية سبباً لنزول هذه الآية بالذات، وذلك لأن الإنكار تكرر منهم مرات، والإجابة بالآيات القرآنية تعددت، ولذلك جعلها السيوطي في أسباب نزول سورة يوسف وليس هنا، وإنما هذه الآية تأكيد لما نزل سابقاً وزيادة حجة بسؤال أهل الكتاب عما أرسل الله، والله أعلم.

(١) ابن كثير ٤/ ٥٧٣ ط دار طيبة.

(٢) معاني الزجاج ٣/ ٢٠١.ط دار المعرفة.

(٣) انظر: مفردات القرآن عبد الحميد الفراهيدي صـ٢٨٠، تحقيق د. محمد أجمل أيوب الإصلاحي ط دار الغرب الإسلامي الأولى ٢٠٠٢، قال صـ٢٨١ في أهل الذكر في الآية: (أي الذين عندهم تاريخ الأمم، وهم اليهود، المراد كتبهم).

وفي الآية رد على من يدعي إرسال الله تعالى رسلاً من النساء؛ متأثراً بدعاوى المساواة بين الرجل والمرأة، فالآية حصرت الرسالة في الرجال نصاً، وفي سورة الأنبياء: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [الآية:٧]، والنكتة المستفادة من الآيتين: إن آية النحل نفت إرسال الرسل من النساء والملائكة والجن بأقرب عهد لبعثة النبي صلى الله عليه وسلم.

وآية الأنبياء نفتها من أول زمن التكليف، فكان المستفاد حصر إرسال الرسل بالرجال من أول زمن التكليف من عهد آدم إلى زمن بعثة النبي ﷺ، والله أعلم.

(ولما كانت رسل الملوك تقترن بما يعرف بصدقهم، قال - جواباً لمن كأنه قال: بأي دلالة أرسلوا؟)[1]..

فأجاب: ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ﴾، أي: متلبسين بالأدلة والحجج الواضحة التي تشهد لهم بصدق نبوتهم، وبالكتب التي تشمل على التكاليف والشرائع التي يبلغونها من الله إلى العباد.[2]

ولما ثبت بالأدلة التاريخية التي لا تنكر والحجج العقلية أن القرآن المنزل على الرسول محمد صلى الله عليه وسلم إنما هو وحي رباني، وليس أساطير الأولين؛ ذكر النتيجة المقصودة منه، إذ صار بالدليل والبرهان أعظم حجة.[3]

---

(١) نظم الدرر ١١/ ١٦٧.

(٢) انظر: الكشاف ٢/ ٥٦٨، الدر المصون ٧/ ٢٢٢، حدائق الروح والريحان ١٥/ ٢٤١.

(٣) انظر: التحرير والتنوير ١٤/ ١٦٢.



فقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ﴾ (أي: الكتاب الموجب للذكر، المعلي للقدر، الموصل إلى منازل الشرف: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ كافة بما أعطاك الله من الفهم الذي فقت فيه جميع الخلق، واللسان الذي هو أعظم الألسنة وأفصحها، وقد أوصلك الله فيه إلى رتبة لم يصل إليها أحد: ﴿مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ من هذا الشرع الحادي إلى سعادة الدارين بتبيين المجمل، وشرح ما أشكل، من علم أصول الدين الذي رأسه التوحيد، ومن البعث وغيره، وهو شامل لبيان الكتب القديمة لأهلها ليدلهم على ما نسخ، وعلى ما بدلوه فمسخ).[1]

والآية بينت الوظيفة الأساسية للسنة النبوية، وهي: بيان القرآن الكريم، كما بينت أن من مقاصد القرآن تفتيق مدارك العقل لبيان شرف العلم؛ فقال تعالى: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (إذا نظروا أساليبه الفائقة، ومعانيه العالية الرائقة، فيصلوا بالفكر فيه - بسبب ما فتحت لهم من أبواب البيان - إلى حالات الملائكة، بأن تغلب أرواحهم على أشباحهم، فيعلموا أنه تعالى واحد قادر فاعل بالاختيار، وأنه يقيم الناس للجزاء فيطيعونه رغبة ورهبة).[2]

وفي الآيات إشارة إلى أن الحركة العقلية المنتجة لما ينفع الناس، والموصلة إلى النتائج السليمة الصحيحة؛ ينبغي أن تستند أولاً إلى العلم الصحيح المأخوذ من أهله، وأن تقترن بالحجة الواضحة، وأن أية دعوى لا تتوافر فيها ذلك فهي محض جهل وزبد خرافة، والله أعلم.

---

(١) نظم الدرر ١١/ ١٦٨.

(٢) انظر: نظم الدرر ١١/ ١٦٨، ١٦٩. و أبو السعود٥/ ١١٦.



ولما نبه سبحانه على التفكير بعد التعليم، وأخْذِ العبرة والعظة ممن قص الله سنته فيهم في القرآن؛ حذرهم وخوفهم من الوقوع في سنة الله في المكذبين؛ قال سبحانه:

﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾، والهمزة فيه للاستفهام التوبيخي التقريعي، المتضمن للتعجب من حالهم في استرسالهم بالإنكار، غير ناظرين في النتائج، حتى صار حالهم كحال من هم آمنون بأس الله وعذابه[1]، والمعنى: كيف يعرض هؤلاء عن الإيمان والتصديق، ويسترسلون في الكيد والمكر خفية لإيذاء رسولي الذي أرسلته، واسترسالهم في الصد عن سبيل الله؛ ويأمنون عذابي، أفأمنوا: ﴿أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ ﴾، أي: أن يغور الله بهم فيها كما فعل بقارون وأصحابه، ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾، بأن يصيبهم العذاب، وهو ما يعم كل ما فيه تأليم، من مكان لا يترقبون منه الضر ولا يستطيعون دفعه، فكان الآتي من حيث لا يشعرون عذاباً غير معهود ولا يطيقونه، فيهلكهم كما حصل في القرون السابقة كقوم لوط الذين أخذتهم الصيحة.

﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ ﴾، أي: أن يأخذهم وهم يسعون في شؤون الحياة من متاجرة ومعاملة وسفر ومحادثة ومزاحمة..الخ في ليلهم أو نهارهم، كما قال الله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧، ٩٨].[2]

---

(١) انظر: التحرير والتنوير ١٤/ ١٦٤، حدائق الروح والريحان ١٥/ ٢٤٢.

(٢) انظر: التحرير والتنوير ١٤/ ١٦٦.



قوله: ﴿فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾، أي: فما هم بممتنعين أو فائتين بالهرب والفرار على ما يوهمه حال التقلب والسير، وهي جملة اعتراضية، أي فإن أخذ الله لهم في هذه الحالة لا يعجزه سبحانه مهما اجتمعوا وتعاونوا أو تفرقوا.[١]

﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ أي: ينقص من أطرافهم ونواحيهم الشيء بعد الشيء حتى يهلك جميعهم[٢]، وقيل: أي على مخافة وحذرٍ من الهلاك والعذاب، بأن يُهلك قوماً قبلهم فيتخوفوا، فيأخذهم العذاب وهم متخوفون.[٣]

ولا تعارض بين الرأيين أو المعنيين، ويمكن القول أن الله يمهلهم بالعذاب، فيتدرج بهم بأن يهلك أقواماً آخرين بأنواع من العذاب ونقص من الأموال والأنفس والثمرات، ثم يمتد العذاب إليهم لعتوهم فيصيبهم ما أصاب من قبلهم فيهلكون وهم خائفون والله أعلم. وحرف: على، مستعمل في التمكين على كلا المعنيين.[٤]

ثم ختم الله تعالى أصناف التعذيب الذي يصيب من أنكر وصد عن سبيل الله تعالى بقوله: ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، أي: يمهل في أكثر الأمر؛ لأنه رؤوف رحيم، والمراد بذكر الأحوال الثلاث بيان قدرة الله تعالى على إهلاكهم بأي وجه كان، لا الحصر فيها.[٥]

---

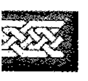
(١) انظر: أبو السعود ٥/ ١١٧، التحرير والتنوير ١٤/ ١٦٦.

(٢) انظر: المفردات صـ ١٦١، ابن جرير ١٤/ ٧٧، البغوي ٣/ ٧٠، ابن عادل: ٢/ ١٢٥.

(٣) وهو الذي قدمه أبو السعود٥/ ١١٧.

(٤) انظر: التحرير والتنوير ١٤/ ١٦٧.

(٥) ينظر: ابن عادل ٢/ ١٢٦، حدائق الروح والريحان ١٥/ ٢٤٣.



سجود الكون لخالقه الواحد الأحد

١٦- ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾ ﴾.

*** مناسبة الآيات:**

ذكرت الآية السابقة أدلة تقرير النبوة والوحي، ولما كان الطعن في هذين الأمرين -أعني الوحي والنبوة- هو طعن في علم الله وقدرته وحكمته وإرادته سبحانه وتعالى؛ عادت الآيات إلى تقرير الأصل الذي تهدف إليه السورة وهو الإلهيات من خلال ذكر عجائب الخلق وانقياده لله تعالى، والله أعلم.[١]

*** غريب الآيات:**

يَتَفَيَّأُ: الفيء الرجوع[٢]، وهل يطلق اسم الفيء على الظل؟

أكثر أهل اللغة يطلقون الظل على ما كان قبل زوال الشمس، والفيء على رجوع الظل بعد منتصف النهار[٣].

---

(١) ينظر ما قيل في المناسبة أيضاً: الطبري ١٧/ ٢١٦ط الرسالة، الرازي ٢٠/ ٣٣، ابن عادل ١٢٧/٢. التحرير والتنوير ١٤/ ١٦٨.

(٢) معجم مقاييس اللغة ٤/ ٤٣٥.

(٣) تهذيب اللغة للأزهري ١٥/ ٥٧٨، تحقيق طائفة من العلماء ط الدار المصرية ١٩٧٦م، واللسان ١/ ١٢٤-١٢٥، والمصباح المنير صـ٣٩٦ (مادة: فيأ)، الدر المصون ٧/ ٢٢٧، المحرر الوجيز ١٠/ ١٩٢. =

بينما أنكر بعضهم ذلك، وقالوا: الفيء هو مطلق الظل، سواء كان قبل الزوال أو بعده[١]، واستدلوا بقول الشاعر[٢]:

فسلام الله يغدوا عليهم * وفُيُوؤ الفردوس ذاتِ الظلال

فأوقع اسم الفيء على ما لم تنسخه الشمس، لأن ظل الجنة ما حصل بعد أن كان زائلاً بسبب ضوء الشمس، ورجح هذا السمين الحلبي فقال: (وهو الموافق لمعنى هذه الآية).[٣]

أقول: ومما يقوي هذا قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۩﴾ [الرعد:١٥]، أي: أن الظلال تسجد لله تعالى في الغدو والآصال، أي: في هذين الزمنين عندما تغدوا الناس في الصباح لحوائجها، وفي الآصال جمع أصيل: وهو وقت الشمس في آخر المساء، (والمقصود من ذكرهما استيعاب أزمنة أجزاء الظل)[٤].

= وخطأ ابن قتيبة من أطلق الفيء على ما قبل الزوال، واستدل بالاشتقاق؛ لأن معنى الفيء الرجوع، وهو متحقق بها بعد الزوال ولأن الظّل يرجع إلى جهة المشرق. انظر: القرطين (كتابي مشكل القرآن وغريبه لابن قتيبة) لابن مطرف الكتاني ١/ ٢٤٤، ط: دار المعرفة، د.ت.

(١) انظر: اللسان مادة (ظل) ١١/ ٤١٥ ونقل هذا الرأي عن رؤبة، وانظر: المحرر الوجيز ١٠/ ١٩٢، الرازي ٢٠/ ٣٤، وابن عادل ٢/ ١٢٩.

(٢) ديوان النابغة الجعدي صـ٢٣١ تحقيق عبد العزيز رباح، ط المكتب الإسلامي ١٩٦٤.

(٣) الدر المصون ٧/ ٢٢٧.

(٤) التحرير والتنوير ١٣/ ١١١، في تفسير الرعد.

فسمّت الجميع ظلاً، ويزيد هذا الرأي قوة ما روي عن ابن عباس أنه كان يقول في تفيؤ الظلال في الآية: (تتمايل)[١].

ورجح ابن جرير تأويل ابن عباس على اعتبار التمايل هو السجود.[٢]

ظِلَالُهُ: جمع ظل، وهو صورة الجسم المنعكس إليه النور.[٣]

دَاخِرُونَ: أي: صاغرون، يقال منه: دخر فلان لله: إذا ذلّ له وخضع.[٤]

دَابَّةٍ: يقول الراغب: (الدب والدبيب مشى خفيف، ويستعمل ذلك في الحيوان وفى الحشرات أكثر، ويستعمل في الشراب والبلى ونحو ذلك مما لا تدرك حركته الحاسة، ويستعمل في كل حيوان وإن اختصت في التعارف بالفرس..، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ قال أبو عبيدة: عنى الإنسان خاصة، **والأولى إجراؤها على العموم**).[٥]

---

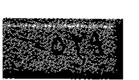
(١) أخرجه ابن جرير ١٧/ ٢١٦. ط الرسالة.

(٢) انظر: الطبري ١٧/ ٢١٨ ط الرسالة، والتمايل: هو أحد المعاني المجازية التي ذكرها الزمخشري للفيء في أساس البلاغة مادة: فيأ، ويقويه أيضاً ما أخرجه ابن جرير عن ابن عباس قال: «ألم تر أنك إذا صليت الفجر، كان ما بين مطلع الشمس إلى مغربها ظلاً، ثم بعث الله عليه الشمس دليلاً وقبض الله الظلّ». فسمى الحاصل من تحرك الشمس في جميع أجزاء اليوم ظلاً، والله أعلم.

(٣) التحرير والتنوير ١٣/ ١١١، وفرق العسكري بين الظل والفيء فذكر أن الفيء لا يكون إلا بالنهار وهو ما فاء من جانب إلى جانب أي رجع، وأما الظل فيكون في الليل والنهار، الفروق اللغوية صـ٢٥٣ ط الكتب العلمية.

(٤) انظر: المفردات مادة: دخر، صـ١٦٦، الطبري ١٧/ ٢١٨.

(٥) المفردات ص ١٦٤. مادة دبب. وينظر اللسان مادة: دبب ١/ ٣٦٩، ٣٧٠.



* تفسير الآيات:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾، استفهام تقريع للتعريض بالمنكرين المستكبرين، أي: أعميت أبصارهم ولم ينظروا متوجهين إلى ما خلق الله[1]، والرؤية هنا بصرية، ولذلك وصلت بـ (إلى)؛ لأن المراد بها الاعتبار، والاعتبار لا يكون نفس الرؤية حتى يكون مع النظر إلى الشيء الكامل في أحواله.[2]

﴿إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ أي: ينظروا إلى عموم خلق الله تعالى من الموجودات والمحسوسات صغيرها وكبيرها، وصفة هذا الشيء أنه: ﴿يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَـٰلُهُۥ﴾، أي: تتمايل ظلاله وتتحرك حسب حركة الشمس، (وإضافة الظلال إلى ضمير المفرد؛ لأن مرجعه وإن كان مفرداً في اللفظ - وهو قوله: ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ﴾ -؛ لكنه كثير في المعنى).[3]

﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ﴾ أي: عن جهات اليمين وجهات الشمائل، وحالها: ﴿سُجَّدًا لِّلَّهِ﴾؛ (أي: أن ذلك التفيُّؤ يقارنه السجود مقارنة الحصول ضمنه).[4]

---

(١) انظر: أبو السعود ٥/ ١١٨.

(٢) انظر: الطبري ١٧/ ٢١٦، الرازي ٢٠/ ٣٣، ابن عادل ٢/ ١٢٧.

(٣) انظر: الوسيط في تفسير القرآن المجيد علي بن أحمد الواحدي ٣/ ٦٥، تحقيق عادل عبد الموجود وآخرون، ط دار الكتب العلمية أولى ١٤١٥. الرازي ٢٠/ ٣٤.

(٤) التحرير والتنوير ١٤/ ١٦٩، فهي حال من التفيؤ.

وحالها أيضاً مع سجودها ﴿وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ أي: صاغرون أذلاء لله تعالى، واستخدم صيغة الجمع الخاصة بالعقلاء تغليباً؛ لأن في جملة الخلائق التي تسجد ظلالها العقلاء وهم الجنس الأهم[1]، **وفي الآية مسائل يحسن التعرض لها:**

- **المسألة الأولى: ما معنى سجود الظلال؟!**

يقول ابن عاشور رحمه الله: (ومعنى سجود الظلال أن الله خلقها من أعراض الأجسام الأرضية، فهي مرتبطة بنظام انعكاس أشعة الشمس عليها وانتهاء الأشعة إلى صلابة وجه الأرض؛ حتى تكون الظلال واقعة على الأرض وُقوعَ الساجد، فإذا كان من الناس من يأبى السجود لله أو يتركه اشتغالاً عنه بالسجود للأصنام فقد جعل الله مثاله شاهداً على استحقاق الله السجود إليه شهادة رمزية...، فهذا من رموز الصنعة التي أوجدها الله وأدقّها دقة بديعة، وجعل نظام الموجودات الأرضية مهيئة لها في الخلقة لحكم مجتمعة، منها: أن تكون رموزاً دالّة على انفراده تعالى بالإلهية، وعلى حاجة المخلوقات إليه، وجعل أكثرها في نوع الإنسان لأن نوعه مختص بالكفران دون الحيوان، والغرض من هذا الاستدلال الرمزي التنبيه لدقائق الصنع الإلهي كيف جاء على نظام مطّرد دال بعضه على بعض).[2]

ومع نفاسة ما قاله ابن عاشور ولكن الباحث يميل إلى أن معنى السجود كما قال أبو حيان: (عبارة عن الانقياد، وجريانها على ما أراد الله من ميلان تلك الظلال ودورانها، كما يقال للمشير برأسه إلى الأرض على جهة الخضوع: ساجد).[3]

---

(١) انظر: أبو السعود ٥/ ١١٨، التحرير والتنوير ١٤/ ١٦٩.

(٢) التحرير والتنوير ١٣/ ١١١، في تفسير سورة الرعد.

(٣) البحر ٥/ ٤٩٨، وهذا ما ذهب إليه الغزنوي في باهر البرهان ٢/ ٨٠.



والمعنى: إنّ الظلال منقادة لله غير ممتنعة عليه فيما سخرها له من التفيؤ، والأجرام في أنفسها داخرة صاغرة منقادة لأفعال الله فيها لا تمتنع[1]، والظل من جملة المخلوقات التي تسبح لله تعالى وتصلي له صلاتها التي علمها الله عز وجل، كما قال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [النور:٤١]، وكذلك الظلال علمها الله تعالى صلاتها وسجودها من خلال تفيُّؤها، والله تعالى أعلم.

● **المسألة الثانية: ما الحكمة في إفراد اليمين وجمع الشمائل؟.**

لقد أجيب عن هذا السؤال بأجوبة متعددة أوصلها بعضهم إلى سبعة[2]، ويمكن أن تصل إلى أكثر لمن دقق واستطرد، ولكن أقتصر على ذكر ما أراه الأقوى من هذه الأقوال من حيث اللغة، والأنسب للسياق والفائدة:

منها: أن معنى اليمين - وإن كان واحداً - الجمع.

يقول القرطبي: (ولو قال: عن الأيمان والشمائل، والأيمان والشمال، أو اليمين والشمال لجاز، لأن المعنى للكثرة، وأيضاً: فمن شأن العرب إذا اجتمعت علامتان في شيء واحد؛ أن تجمع إحداهما وتفرد الأخرى، كقوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾ [البقرة:٧]، وكقوله تعالى: ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [المائدة:١٦]، ولو قال: على أسماعهم، وإلى الأنوار

---

(١) انظر: البحر ٥/ ٤٩٨. والكشاف ٢/ ٥٦٩.

(٢) انظر: ابن عادل ٢/ ١٣٢، إلى صـ١٣٤.

لجاز، ويجوز أن يكون رد اليمين على لفظ (ما)، والشمال على معناها، ومثل هذا في الكلام كثير).[١]

ومنها: ما قاله ابن الصائغ[٢]:

(أفرد وجمع بالنظر إلى الغايتين، لأنّ ظل الغداة يضمحل حتى لا يبقى منه إلا اليسير، فكأنه في جهة واحدة، وهو بالعشي على العكس؛ لاستيلائه على جميع الجهات، فلحظت الغايتان في الآية: هذا من جهة المعنى، وفيه من جهة اللفظ المطابقة، لأنّ: ﴿سُجَّدًا﴾ جمع فطابقه جمع الشمائل لاتصاله به، فحصل في الآية مطابقة اللفظ للمعنى، ولحظهما معاً وتلك الغاية في الإعجاز)[٣]، وهذا كلام بديع وهو مترتب في الفائدة على ما قبله، ومتصل به.

ويقرب منه ما قاله الشيخ أبو زهرة:

(وفي التعبير عن اليمين بالمفرد إشارة إلى نهايته، وإلى أنه لا يرى إلا قصيراً، بينما الشمال لا يرى إلا طويلاً، ويزداد شيئاً بعد شيء ولذا عبر فيه بالجمع - وهو شمائل - والاثنان جمع، فهو أفياء كما ذكرنا، والتعبير بـ(فيء)؛ ليضمنها معنى المجاوزة، أي: إن تجاوز إلى اليمين أو تجاوز إلى الشمائل تكون أفياء).[٤]

---

(١) القرطبي ١٠/ ٧٦، وإلى مثله ذهب الزمخشري في الكشاف ٢/ ٥٦٩.

(٢) علي بن محمد بن يوسف الإشبيلي أبو الحسن إمام في النحو واللغة له شرح الجمل وشرح الكتاب لسيبويه ت ٦٨٠هـ. انظر: بغية الوعاة ٢/ ٢٠٤.

(٣) نقل عنه أبو حيان في البحر ٥/ ٤٩١ بقوله: قال شيخنا... الخ، وفي الدر المصون ٧/ ٢٣٢.

(٤) زهرة التفاسير ٨/ ٤١٩٠.



• **المسألة الثالثة: ما المراد باليمين والشمائل؟**

ذهب بعضهم إلى أن اليمين هو المشرق، والشمال شماله وهو المغرب، لأن أقوى الإنسان جانباه وهما يمينه وشماله.(١)

بينما رأى غيرهم أن العبرة في الآية لمستقبل الجنوب، فيكون الظل عن يمينه عند الشروق، ثم ينتقل إلى شماله عند الغروب، وإليه ذهب قتادة وابن جريج(٢) وابن عطية والزمخشري والبقاعي.(٣)

وذهب غيرهم إلى أن ابتداء الظل على طلوع الشمس من خلف الشخص، ثم تفيؤه من اليمين والشمال على ارتفاعها إلى الأمام على الغروب.(٤)

بينما ذهب آخرون إلى أن المراد باليمين والشمال: جنس الجهة لا خصوصها، يقول الكرماني(٥): (يحتمل أن يراد بالشمال: الشمال والخلف والقُدَّام، لأن الظل يفيء من الجهات كلها، فبُدئ باليمين لأن ابتداء التفيؤ منها، أو تيمناً بذكرها، ثم جمع الباقي

---

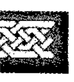
(١) ذكره في الدر المصون ٧/ ٢٣٠.

(٢) عبدالملك بن عبدالعزيز بن جريج الأموي، مولاهم، أبو الوليد المكي، الإمام الفقيه، أول من صنف الكتب في الحجاز، طلب العلم في الكهولة (ت ١٥٠هـ)، انظر: البداية والنهاية ١٠/ ١٧٠، طبقات المفسرين للداودي ١/ ٣٥٢.

(٣) المحرر الوجيز ١٠/ ١٩٣. والزمخشري ٢/ ٥٦٩، والبقاعي في نظم الدرر ١١/ ١٧٢.

(٤) وهو مذهب الغزنوي في باهر البرهان ٢/ ٨٠١.

(٥) محمود بن حمزة بن مضر أبو القاسم، تاج القراء وأحد العلماء الفهماء النبلاء اشتهر بدقة الفهم والاستنباط، عاش في حدود المئة الخامسة ومات بعدها، له: لباب التفسير، والبرهان في متشابه القرآن، انظر: طبقات المفسرين للداودي ٢/ ٣١٢، بغية الوعاة ٢/ ٧٧٧.



على لفظ الشمال؛ لما بين اليمين والشمال من التضاد، ونزل القدام والخلف منزلة الشمال لما بينهما وبين اليمين من الخلاف).[1]

إذن فمنهم من حمل اليمين والشمائل على حقيقتهما ثم اختلفوا في اعتباره وسمته، ومنهم من جعله على المجاز، وأن المراد التقابل أو التضاد بالجهة.

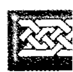
ولو نظمنا الكلام على السياق الذي أتت به الآية، لوجدنا كلام الكرماني أقرب لعموم دلالة الظل على الجهات حسب حركة الشمس، وأقرب لسياق الآية، ويجمع بين كل ما سبق من الأقوال عموماً جمعاً لائقاً، فالسياق هو الاستدلال على عظمة الله وقدرته وعلمه وإرادته، وكل هذه الصفات يلزم منها الحكمة والدقة في الخلق، فالذي اختار الرسل وأرسلهم لسعادة عباده وإخراجهم من الظلمات إلى النور؛ هو الذي هيّأ الأسباب ونظّم الأوقات، وأحكم المسار لحركة الظل وتمايله واختلافه في نظام خاضع منقاد لله تعالى، إذن فالآية تأمر القوم بأسلوب استفزازي محرض على البحث لمعرفة أسباب اختلاف أطوال الظل وحركته، لأن ذلك دليل على انقياد الكون كله لخالقه القادر الحكيم العليم، فمن أنتم أيها المنكرون حتى تستكبروا على الانقياد لرسالة الرسل من عند الله، والخضوع والسجود لله تعالى وأن تنسجموا مع الفطرة الكونية.

وفي الآية إشارة إلى اختلاف مطلع الشمس ومغربها، واختلاف حركة الشمس في مسارها ما بين الشروق والغروب كل يوم، بقرينة اختلاف تفيؤ الظلال تبعاً لحركة الشمس بتقدير العزيز الحكيم، ولو شاء الله لجعل الظل ساكناً، ولكنه خبير لطيف.

---

(١) نقله عنه في الدر المصون ٧/ ٢٣١، وابن عادل ٢/ ١٣٣. وإلى هذا ذهب ابن عاشور في التحرير والتنوير ١٤/ ١٦٩، وقال: (فالمخالفة بالإفراد والجمع تفنن).





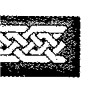
وبيان ذلك أن نشوء الظل وحركته يتبع أموراً لابد منها، وهي: مكان الضوء وحركته - وهو هنا الشمس-، والأرض التي يقع عليه الظل، والجسم الذي يحجب الضوء عن الأرض فيقع مكانه ظله، وسمْتُ الضوء الساقط على الجسم الذي يحدد شكل الظل.

ومن المعلوم أن الشمس يختلف مكان وزمان شروقها وغروبها كل يوم تغيراً طفيفاً، وذلك يتبع الميل الاستوائي للشمس، ويزداد ذلك بزيادة قيم خطوط العرض، ودوران الأرض حول الشمس، وميل محور دورانها عن المحور الرأسي[1]، فما إن يقع الضوء على الجسم حتى يرتسم في مقابل جهة الضوء ظلُّ الجسم بطولٍ وقامةٍ حسب قوة الضوء وضعفه وقربه وبعده، وبتحرك مصدر الضوء؛ يتحرك الظل ويزداد طوله وقصره حسب سمت مصدر الضوء من جهة، وحسب طول الجسم واستقامته من جهة أخرى، ثم يمتد الظل حتى غياب مصدر الضوء واختفائه فيختفي معه الظل.

ولما كانت المشاهدة تعطينا اختلاف أشكال الظلال كل يوم طولاً وعرضاً قامة وظهوراً؛ دل ذلك على أن حركة الشمس ليست واحدة في محورها من الشروق إلى الغروب، وأن مسافتها عن الأرض كذلك ليست واحدة، بل هي مختلفة بنظام مقدر يصلح حياة الإنسان ويحقق استقراره وأسباب سعادته.

---

(١) ينظر: الرازي ٢٠/ ٣٥، ولمزيد من التفصيل: من أسرار القرآن، الإشارات الكونية في القرآن ومغزى دلالتها، تفسير المشارق والمغارب، د. زغلول النجار، على موقعه الرسمي: www.elnaggarzr.com ، وقد نشره مقالاً في جريدة الأهرام العدد (٤٢٣٢٢)، تاريخ٢١/ ١٠/ ٢٠٠٢، والاستدلال هنا بالمعلومة العلمية لكون د. زغلول يتكلم في اختصاصه، وليس بالمقال كله.



قال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ [الفرقان:٤٥].[١]

ثم بين الله تعالى أن كل ما خلقه منقادٌ وخاضع لله تعالى، فقال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾، يقول الطبري: (ولله يخضع ويستسلم لأمره ما في السموات وما في الأرض من دابَّة يدبّ عليها، والملائكة التي في السموات، وهم لا يستكبرون عن التذلل له بالطاعة: ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ وظلالهم تتفيأ عن اليمين والشمائل سجداً لله وهم داخرون).[٢]

فقوله: ﴿مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾؛ بيان لـ (ما) في الآية، ولفظ الدابة يشمل العقلاء وغيرهم؛ فدخل بذلك الإنس والجن والحيوان.

---

(١) وبذلك نجد أن قول القرطبي السابق في الحكمة من إفراد اليمين وجع الشمائل قوي ووجيه، لأنه ينسجم مع أساليب العرب وتحدي القرآن لهم، وأن القول الذي يذهب إلى عدم المراد باليمين والشمال حقيقتهما ولكن عموم الجهة، وهو قول الكرماني، وجيه وقوي وفيه مجاز وإعجاز، وأما باقي الأقوال فتندرج في عموم هذين القولين لأنها لا تخالفه، ويتبين لنا بُعد قول من ذهب إلى تحديد اليمين لمن استقبل الجنوب نحو الكعبة واستدبر الشمال، لأن الخطاب متوجه للناس كافة على وجه الأرض فمنهم من كانت قبلته نحو الغرب ومنهم قبلته نحو الشرق فيكون الظل أمامه و خلفه عند الشروق والغروب، والله أعلم.

(٢) ابن جرير ١٧ / ٢١٩ .ط الرسالة.



والآية دليل على أن في سمائه تعالى خلق يدبون، كما في الأرض[١]، يقول الرازي في وجه اختصاص ذكر الدواب والملائكة: (إنه تعالى بين في آية الظلال أن الجمادات بأسرها منقادة لله تعالى، وبين بهذه الآية أن الحيوانات بأسرها منقادة لله تعالى؛ لأن أخسها الدواب وأشرفها الملائكة، فلما بين في أخسها وفي أشرفها كونها منقادة لله تعالى كان ذلك دليلاً على أنها بأسرها منقادة خاضعة لله تعالى).[٢]

يقول قتادة: (لَمْ يدع شيئاً مِنْ خلقه إلا عبده طائعاً أو كارهاً)[٣]، فكيف لهؤلاء أن يشذوا عن فطرة المخلوقات، ويخرجوا عن سنة الموجودات.

وقد بين الله تعالى صفات الملائكة: أنهم لا يستكبرون، ويخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون، وجاءت هذه الصفات في سياق بيان خضوع كل شيء وانقياده لإرادة الله تعالى، وكأنها إشارة لمعنى الخضوع الذي ينبغي أن يكون عليه العاقل: بأن لا يستكبر على عبادة ربه؛ ويخافه مجلاً له ومعظماً إياه ويفعل ما يؤمر به ما استطاع.

---

(١) انظر: ابن جرير ١٧/ ٢٢٠ط الرسالة، الكشاف ٢/ ٥٦٩، الرازي ٢٠/ ٣٦، البحر ٥/ ٤٩٩، الدر المصون ٧/ ٢٣٣، ابن عادل ٢/ ١٣٨، حدائق الروح والريحان ١٥/ ٢٤٧.

(٢) الرازي ٢٠/ ٣٦.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (١٣٣٨٥).



إنما هو إله واحد

١٧- ﴿ ۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَـٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾.

*** مناسبة الآيات:**

اختلفت عبارة المفسرين في بيان مناسبة هذه الآيات مع ما قبلها ولكنها اتفقت من حيث النتيجة على أن هذه الآيات نهي عن الشرك بأشكاله بعد كثرة الأدلة الحسية والمعنوية - العقلية والنقلية - على التوحيدِ الذي هو أساس بعثة الرسل، وانقيادِ وخضوع كل المخلوقات في الأرض والسماء لله تعالى.[١]

*** غريب الآيات:**

فَارْهَبُونِ: يقول الراغب: (الرهبة والرَّهب: مخافة مع تحرز واضطراب، ..﴿فَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ أي: فخافون).[٢]

واصباً: وصب وصوباً، دام، ووصب الدين: وجب، وعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قال: (﴿وَاصِبًا﴾: دائماً).[٣] وهو قول مجاهد أيضاً.[٤]

---

(١) انظر: الرازي ٢٠/ ٣٩، نظم الدرر ١١/ ١٧٥، واعتبر ابن عاشور أن هذه الآيات انتقال إلى إبطال نوع آخر من الشّرك متّبع عند قبائل من العرب وهو الإشراك بإلهية أصلين للخير والشرّ كما هي عقيدة المجوسية، فقد تقلّدت ذلك قبائل العرب المجاورة بلاد فارس والساري فيهم سلطان كِسرى وعوائدُهم، مثلُ بني بكر بن وائل وبني تميم. انظر: التحرير والتنوير ١٤/ ١٧١.

(٢) المفردات صـ ٢٠٤، مادة: رهب.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (١٣٣٨٩).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (١٣٣٨٧).







* **تفسير الآيات:**

لما ذكر في الآية السابقة أن الملائكة من أعظم الموحدين كما كانوا من أعظم الساجدين من أهل السماوات والأرض، أتبعها بالدليل النقلي على وجوب إفراده تعالى بالعبادة، وتسليكاً بأحوال الملائكة[1]، فقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ﴾: الله: الذي خلق الإنسان من نطفة...، الله: الذي سخر الأنعام لمنافع الإنسان ومهما يحصي الإنسان نعم الله لا يبلغها...، الله: الذي أنزل من السماء ماء؛ فأخرج به ثمرات كل شي...، الله: الذي سخر الشمس والقمر والنجوم والليل والنهار والفلك والبحر والظل وقدرها لكم...، الله: الذي نصب دلائل وحدانيته في كل ما خلقه، هو يقول لكم: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾.

(وصيغة التّثنية من قوله: ﴿إِلَٰهَيۡنِ﴾ أكدت بلفظ: ﴿ٱثۡنَيۡنِ﴾ للدّلالة على أن الإثنينية مقصودة بالنّهي إبطالاً لشرك مخصوص من إشراك المشركين، وأن لا اكتفاء بالنّهي عن تعدّد الإله بل المقصود النّهي عن التّعدد الخاص، ...وإذ نُهوا عن اتخاذ إلهين؛ فقد دلّ بدلالة الاقتضاء على إبطال اتخاذ آلهة كثيرة)[2]؛ ثم حصر الألوهية به سبحانه وتعالى فقال: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ (للدلالة على أن المقصودَ إثباتُ الوحدانية وأنها من لوازم الإلهية).[3]

---

(١) ينظر: نظم الدرر ١١/ ١٧٥.

(٢) التحرير والتنوير ١٤/ ١٧٢. وانظر: الكشاف ٢/ ٥٧٠، الرازي ٢٠/ ٣٩، البحر ٥/ ٥٠١، الدر المصون ٧/ ٢٣٥. للتوسع في تفسير ذكر العدد وإنما ذكرت هنا قول ابن عاشور لأنه زبدة كلامهم رحمهم الله جميعاً.

(٣) أبو السعود ٥/ ١١٩.

ولما كان الخطاب مجللاً بالعظمة، ولا يستشعر هذا المعنى كثير من المتكبرين المنكرين؛ التفت في الخطاب إليهم متكلماً لهم فقال: ﴿فَإِيَّٰىَ فَٱرۡهَبُونِ ﴾.

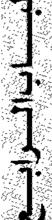
يقول أبو السعود:

(التفاتٌ من الغيبة إلى التكلم لتربية المهابةِ وإلقاءِ الرهبة في القلوب؛ ولذلك قدّم المفعولَ وكرر الفعلَ أي إن كنتم راهبين شيئاً فإيايَ فارهبون لا غيرُ، فإني ذلك الواحدُ الذي يسجُد له ما في السموات والأرض).[١]

(ولما كان أسلوب الغيبة من الحاضر دالاً على التردي بحجاب الكبر المؤذن بشدة البطش وسرعة الانتقام وبعد المقام، رجع إليه فقال تعالى: ﴿ وَلَهُۥ ﴾ أي: حصراً ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ أي: مما تعبدونه وغيره، فكيف يتصور أن يكون شيء من ذلك إلهاً وهو ملكه، مع كونه محتاجاً إلى الزمان والمكان وغيرهما).[٢]

(فدخل جميع ما في السماء والأرض في مفاد لام الملك، وأفاد أن ليس لغيره شيء من المخلوقات خيرها وشرّها، فانتفى أن يكون معه إله آخر لأنه لو كان معه إله آخر لكان له بعض المخلوقات إذ لا يعقل إله بدون مخلوقات).[٣]

قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ﴾: أي: (وله الطاعة والإخلاص دائما ثابتا واجبا)[٤]، (فليس من أحد يدان له ويطاع إلا انقطع ذلك عنه بزوال أو هلاك، غير الله

(١) أبو السعود ٥/ ١١٩ وانظر: الآلوسي ١٤/ ١٦٣.

(٢) انظر: نظم الدرر ١١/ ١٧٨. والتحرير والتنوير ١٤/ ١٧٥.

(٣) التحرير والتنوير ١٤/ ١٧٥.

(٤) ابن جرير ١٧/ ٢٢١ ط الرسالة.

عزوجل، فإن الطاعة تدوم له ولا تنقطع)[١]، وفي هذا يدخل ما ورد من المأثور في المراد بالدِّين عن مجاهد أنه الإخلاص وعن ابن جبير أنه العبادة وعن عكرمة أنه شهادة أن لا إله إلّا الله ، وإقامة الحدود، والفرائض، وعن ابن قتيبة أنه الطاعة.[٢]

يقول الراغب: (توعدٌ لمن اتخذ إلهين، وتنبيه أن جزاء من فعل ذلك عذاب لازم شديد، ويكون الدين ههنا الطاعة، ومعنى الواصب الدائم أي حق الإنسان أن يطيعه دائما في جميع أحواله كما وصف به الملائكة حيث قال: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ ويقال: وصب وصوبا دام، ووصب الدين وجب).[٣]

ثم أنكر الله عليهم إشراكهم بأسلوب الاستفهام الومي بجهلهم وعدم عقلانيتهم فقال: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴾، (أي: أعَقيبَ تقرّرِ الشؤون المذكورةِ من تخصيص جميعِ الموجودات للسجود به تعالى وكونِ ذلك كلِّه له، ونهيِه عن اتخاذ الأندادِ وكونِ الدين له واصباً؛ المستدعي ذلك لتخصيص التقوى به سبحانه غيرَ الله الذين شأنُه ما ذكر تتقون فتطيعون).[٤]

---

(١) البغوي ٥/ ٢٤ ط دار طيبة. وهذا القول لابن قتيبة كما في القرطبين ١/ ٢٤٥.

(٢) انظر هذه الأقوال في زاد المسير ٤/ ٣٣٢.

(٣) المفردات صـ٥٢٤ مادة: وصب.

(٤) أبو السعود ٥/ ١٢٠.



التوحيد نظرة في الإنسان

١٨- ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾.

* مناسبة الآيات:

لما تقررت وحدانية الله تعالى بالأدلة العقلية والنقلية، جاءت هذه الآية بالأدلة الفطرية على وحدانيته سبحانه وتعالى.

* غريب الآيات:

مَسَّكُم: الـمَسُّ يقال فيها يكون معه إدراك بحاسة اللمس، (ويقال في كل ما ينال الإنسان من أذى)[١]، كما في هذه الآية.

الضُّرَّ: يقول الراغب: (الضُّر: سوء الحال إما في نفسه؛ لقلة العلم والفضل والعفة، وإما في بدنه؛ لعدم جارحة ونقص، وإما في حالة ظاهرة من قلة مال وجاه).[٢]

ولا يبعد حمل الضر في الآية على الثلاثة مجتمعة أو متفرقة عافانا الله.

تَجْأَرُونَ: جأر إذا أفرط في الدعاء والتضرع تشبيها بجؤار الوحشيات كالظباء ونحوها.[٣]

(١) انظر: المفردات صـ٤٦٧ .اللسان مادة ٦/ ٢١٧، والمصباح المنير صـ٤٦٨، مادة: مسس.

(٢) المفردات صـ ٢٩٣، مادة: ضر.

(٣) المفردات صـ١٠٣، مادة: جأر.




* تفسير الآيات:

قوله تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴾.

الباء في قوله تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم ﴾ للمصاحبة والملابسة معاً، أي: وما صاحبكم ولابسكم من أي نعمة كانت صغيرة أو كبيرة؛ فابتداؤها واصلة إليكم من الله تعالى[١]، و(ثم) في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ ﴾ للتراخي الرتبي[٢]، أي: إن إخبار الله تعالى لكم أن ما بكم من نعمة فهي من عنده؛ أمر عجيب عندكم، ولكن أن تلجؤوا إليه عند نزول الضر بكم، وأنتم تشركون وتكفرون به؛ أمر أعجب من هذا، وما تضمنه لجوؤكم لله تعالى من إقراركم نفسياً وفطرياً بوحدانية الله تعالى، مع ما يبدر منكم من سلوك مخالف لهذه الفطرة؛ أعجب من الإقرار أن كل ما في الإنسان من نعمة فهي من عند الله تعالى.

و(﴿إِذَا ﴾ في الآية شرطية)[٣]، وكأن حال الالتجاء لا يكون لو لم يمسهم الضر، والتعبير عن حال التجائهم لله تعالى وارتمائهم متوسلين بين يديه سبحانه بالجؤار؛ للدلالة على حالتهم النفسية المرعبة، ومظهرهم المنكوب لشدة وقع الضر عليهم، وجاءت بفعل المضارعة لتكرر ذلك منهم كلما وقع الضر عليهم، وليتصور السامع سلوكهم الدال على إقرارهم الفطري في هذه الحالة بوحدانية الله وعظمته وقدرته،

---

(١) انظر: أبو السعود ٥/ ١٢٠، التحرير والتنوير ١٤/ ١٧٧.

(٢) التحرير والتنوير ١٤/ ١٧٧.

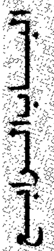
(٣) الدر المصون ٧/ ٢٤٠.



لأنهم يعلمون في قرارة أنفسهم أن ضرهم لا يكشفه إلا الله، (فكأنه تعالى قال لهم: فأين أنتم عن هذه الطريقة في حال السلامة والرخاء).[١]

ومعنى (ثم) في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ﴾ للترتيب الرتبي، فإن حصول الإعراض عن الله والكفر به بعد الإقرار فطرة وسلوكاً حال نزول البلاء؛ أمر مستبعد أن يصدر من سليمي النفس والعقل، بل هو أعجب من حال من أقبل على الله بعد أن أعرض عنه[٢]، يقول أبوالسعود: (وكلمةُ (ثم) ليست للدلالة على تمادي زمانِ مِساس الضرّ ووقوعِ الكشفِ بعد برهة مديدةٍ بل للدلالة على تراخي رتبةِ ما يترتب عليه من مفاجأة الإشراك المدلولِ عليها بقوله سبحانه: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ فإنّ ترتبها على ذلك في أبعد غايةٍ من الضلال).[٣]

و(إذا) في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ﴾ فجائية[٤]، (للدّلالة على إسراع هذا الفريق بالرجوع إلى الشرك، وأنه لا يتريث إلى أن يبعد العهد بنعمة كشف الضرّ عنه، بحيث يفجأون بالكفر دفعة دون أن يترّقبه منهم مترّقب، فكان الفريق المعني في قوله تعالى: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم﴾ فريق المشركين، ثم شبهت مقارنة عودهم إلى الشرك بعد كشف الضرّ عنهم؛ بمقارنة العلّة الباعثة على عملٍ لذلك العمل [وهي كفر



(١) انظر: الرازي ٢٠/ ٤٢، ابن عادل ٢/ ١٥٨.

(٢) ينظر: نظم الدرر ١١/ ١٨٠، التحرير والتنوير ١٤/ ١٧٨.

(٣) أبو السعود ٥/ ١٢٠.

(٤) الدر المصون ٧/ ٢٤٠.

النعمة بعد فعل الشرك]؛ فقال تعالى: ﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْۚ فَتَمَتَّعُواْۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾، ووجه الشبه مبادرتهم لكفر النّعمة دون تريّث؛ فاستعير لهذه المقارنة لام التعليل، وهي استعارة تبعيّة تمليحيّة تهكميّة، وقد سمى كثير من النحاة هذه اللام لام العاقبة).(١)

ومعنى: ﴿بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْۚ ﴾ أي: أنعمنا عليهم من كشف الضر وإزالة المكروه، وبما أرسلنا به رسلنا من التوحيد والوحي والشرائع.(٢)

ثم هددهم وتوعدهم بقوله ﴿فَتَمَتَّعُواْ﴾، أي انتفعوا بما أنعمت عليكم كيف تحبون وليلهكم الأمل بكفركم إلى أمد، كما قال تعالى: ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾[الحجر:٣].

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ عاقبة أمركم وجزاء كفركم، وما ينزل بكم من العذاب الذي وعدكم الله به في قوله: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[النحل:١].

---

(١) التحرير والتنوير ١٤/ ١٧٩، وانظر: الكشاف ٢/ ٥٧١، الرازي ٢٠/ ٤٣، الدر المصون ٧/ ٢٤١.

(٢) ينظر: الرازي ٢٠/ ٤٣، ابن عادل ٢/ ١٦٠، التحرير والتنوير ١٧٩.

أثر انحراف العقيدة على الأمن النفسي والاجتماعي

١٩- ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ ۗ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

*** مناسبة الآيات:**

بعدما بين في الآيات السابقة ما يتفرع عن كفرهم وإشراكهم من الأحوال المتضاربة المتناقضة، عطف عليها هنا حالة أخرى من أحوال كفرهم لها أثر على أمنهم النفسي وسلوكهم الاجتماعي واضطرابهم العقلي.

*** غريب الآيات:**

تَفْتَرُونَ: الافتراء هو الاختلاق، والاسم: الفرية، وهي الكذبة، ويقال افترى الكذب أي: اختلقه.(١)

بُشِّرَ: التبشير لغة مختص بالخير الذي يفيد السرور، إلا أن أصله عبارة عن الخير الذي يؤثر في تغيير البشرة، ولكن كما أن السرور يوجب تغيير البشرة، فكذا الحزن يوجبه، فوجب أن يكون التبشير حقيقة في القسمين، ويؤكده قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران:٢١]، واعتبره الرازي أدخل في التحقيق(٢).

---

(١) انظر: لسان العرب ١٥/ ١٥١، المصباح المنير صـ٣٤٨ مادة: فرا.

(٢) انظر: الرازي ٢٠/ ٤٥، ومادة: بشر في: المفردات صـ٤٦، عمدة الحفاظ للسمين الحلبي ١/ ٢٩٩.

ظَلّ: من أخوات كان، وهي إما على بابها من كونها تدل على الإقامة نهاراً على الصفة المسندة إلى اسمها، أو أن تكون بمعنى صار، وهو الراجح لدلالة السياق فإن وجههم لا يبقى مسودّاً في النهار فقط بل يبقى كذلك أياماً بلياليها، والله أعلم.[1]

مُسْوَدّاً: أي كئيباً مغموماً، والعرب تقول لكل مغموم قد تغير لونه من الغم: اسود وجهه، إذ ترهقه غبرة، فشبهت بالسواد مبالغة.[2]

كَظِيمٌ: حزين يخفي غيظه، ولا يشكو ما به، فهو غضبان ممتلىء غماً وحنقاً.[3]

يَتَوَارَى: يستخفي[4]، (وَلَا يُقَالُ اخْتَفَى بِمَعْنَى تَوَارَى بَلْ يُقَالُ اسْتَخْفَى)[5]، إذن: فالتواري هو طلب الاختفاء والاستتار عن الناس.

هُونٍ: ذُلّ[6]، وفي لغة قريش الهُوْن والهَوان بمعنى واحد، وبنو تميم يجعلون الهُون مصدر الشيء الهيِّن.[7]

يَدُسُّهُ: الدس: الإِخْفاءُ، ودَسَسْتُ الشيء في التراب أَخفيته فيه.[8]

---

(١) انظر: الدر المصون ٧/ ٢٤٤، ابن عادل ٢/ ١٦٧، التحرير والتنوير ١٤/ ١٨٤.

(٢) انظر: معاني القرآن للنحاس ٤/ ٧٥، التحرير والتنوير ١٤/ ١٨٤.

(٣) انظر: معاني القرآن للنحاس ٤/ ٧٥، الرازي ٢٠/ ٤٥.

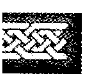
(٤) أبو السعود ٥/ ١٢١.

(٥) المصباح المنير صـ١٥٠ مادة: خفي.

(٦) أبو السعود ٥/ ١٢١.

(٧) معاني القرآن للنحاس٤/ ٧٦، ونقله عن الكسائي. والهوان قراءة شاذة في الآية نقلت عن الجحدري. انظر: الشواذ صـ٧٧، ابن جرير ١٤/ ٨٤، الدر المصون ٧/ ٢٦٤.

(٨) انظر: المفردات صـ١٦٩، ترتيب القاموس ٢/ ١٧٨، المصباح المنير صـ١٦٣.



* تفسير الآيات:

نحن أمام آيات تذكر حقيقة تاريخية، وتصف نمطاً سلوكياً ذا مرجعية عقدية، تصور لنا الحالات النفسية التي يعيشها هؤلاء المنكرون المستكبرون الجاحدون؛ ليكونوا أنموذجاً حياً لتوصيف حالة كل مخالف للفطرة من حيث الصحة النفسية والعقلية، والسلوك المتعجرف المتناقض.

- فأول سلوك عجيب متناقض فيهم ذكره تعالى في قوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾، إذ جعلوا في أموالهم حقاً للأصنام التي لم ترزقهم شيئاً، ولا تضرهم ولا تنفعهم، عن قتادة قال: (وهم مشركو العرب، جعلوا لأوثانهم نصيباً مما رزقناهم، وجزءاً من أموالهم يجعلونه لأوثانهم)[1]، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا..﴾ [الأنعام:١٣٦]، إلا أنه اقتصر هنا على ذكر ما جعلوه لشركائهم دون ما جعلوه لله؛ لأن المقام هنا لتفصيل كفرانهم النعمة في قوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾.[2]

---

(١) أخرجه ابن جرير ١٧/ ٢٢٦، وأخرجه أيضاً عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم، انظر: الدر المنثور ٤/ ١٣٥.

(٢) انظر: التحرير والتنوير ١٤/ ١٨٠.



*** والتناقض في سلوكهم هذا من جهتين:**

إحداهما: أنهم يجعلون نصيباً من الحرث والأموال لجماد لا حول له ولا قوة؛ خوفاً من ضره وتقرباً من نفعه.

والثاني: أنهم يعطونهم هذا النصيب من رزق الله تعالى المنعم عليهم كل نعمة ظاهرة وباطنة، فبدل أن يشكروه؛ أشركوا به وشكروا من لا يضر ولا ينفع.

واقترن سلوكهم بالتبرير، المشار إليه بالافتراء في قوله تعالى: ﴿تَاللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾، فالقسم بالتاء (يختص بها يكون المقسم عليه أمراً عجيباً ومستغرباً.. أي: إنهم يُسألون سؤالاً عجيباً بمقدار غرابة الجرم المسؤل عنه)[1]، وهو أنكم: ﴿تَفْتَرُونَ﴾ أي: تختلقون الحجج والتبريرات لما تفعلون وتقولون بأن هذه الجمادات آلهة، وأنكم ما تعبدونها إلا لتقربكم من الله زلفاً، (والإتيان بفعل الكون وبالمضارع للدّلالة على أن الافتراء كان من شأنهم، وكان متجدداً ومستمراً منهم، فهو أبلغ من أن يقال: عمّا تفترون، وعمّا افتريتم).[2]

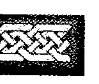
- السلوك الثاني:

هو في اعتقادهم، وتناقض هذا الاعتقاد مع رغباتهم، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴾.

---

(١) التحرير والتنوير ١٤/ ١٨١.

(٢) التحرير والتنوير ١٤/ ١٨٢.



* **وفي هذه الآية بيان ثلاثة أمور أساسية:**

- **إحداها**: اعتقادهم بأن الملائكة بنات، إذ الجعل هنا أعم من كونه بالقول[١]، فهو اعتقاد وقول، قال الله تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ﴾ [الزخرف:١٩].

- **والثاني**: اعتقادهم نسبتها لله تعالى؛ بأن زعموا أن الملائكة بنات الله من سروات الجن[٢]، كما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ﴾ [الصافات:١٥٨]، وكان هذا اعتقادَ كِنانة وخزاعة من العرب[٣].

- **الثالث**: رغبتهم في أن تكون ذريتهم ذكوراً؛ لأن ذلك محل شرف ورفعة وقوة لهم، مع اعتقادهم نسبة البنات لله تعالى !!.

فنزه الله تعالى ذاته العظيمة بقوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ عما ينسبه المشركون من جعلهم لله تعالى البنوة أساساً.[٤]

ثم ذكر الله تعالى أن الواحد منهم لا يرضى لنفسه بالبنت، فكيف ينسبه لله تعالى، فقال عزَّوجل فاضحاً لهم: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ

---

(١) انظر: أبو السعود ٥/ ١٢١، وفسر الجعل في التحرير والتنوير ١٤/ ١٨٢ بالقول.

(٢) أي: أن الملائكة أتت من ظهور الجن، والسروات الظهر. انظر: القاموس المحيط، مادة: سرو.

(٣) انظر: البغوي ٥/ ٢٤، القرطبي ١٠/ ٧٧، الرازي ٢٠/ ٤٤، زاد المسير ٤/ ٣٣٤.

(٤) انظر: الرازي ٢٠/ ٤٤، أبو السعود ٥/ ١٢١.

فِي ٱلتُّرَابِۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾، عن ابن عباس قال: (يجعلون لَهُ البنات، يرضونهن لَهُ ولا يرضونهنّ لأنفسهم، وذلك أنهم كانوا في الجاهلية إِذَا ولد للرجل منهم جارية أمسكها عَلَى هون، أو دَسَّها في التراب وهي حية).[1]

فالآية تخبر أن هؤلاء الذين نسبوا البنت لله سبحانه على سبيل البنوة، وهم يعتقدون بوجوده رباً، تراه إذا أعلم بولادة الأنثى له؛ صار وجهه كئيباً قد غمَّ، وأثر علمه بولادة البنت على بشرته بدلالة قوله تعالى: ﴿بُشِّرَ﴾ يقول ابن عاشور: (فالتعبير به يفيد تعريضاً بالتهكم بهم، إذ يعدّون البشارة مصيبة..)[2] وصار حاله: أنه يخفي الغضب الذي ملأ كيانه وقلبه، وانتشر في أعضائه وظهر على بشرته وسلوكه؛ يطلب الانكفاء عن الناس والابتعاد عنهم من سوء العار الذي لبسه - باعتقاده -، ويحتار فيما يفعل، ويضطرب في حكمه، وتراه كأنه يضرب الكف على الكف ويترنح متردداً في شأنه، ويحدث نفسه يقول: أأُبقي هذه البنت حية حبيسة عندي، وأقيم على الذل والهوان الذي أصابني وتتحدث بي العرب؛ أم أئدها وأدفنها في التراب، وأخفي هذا العار، وبذلك يبقى رأسي مرفوعاً عزيزاً.

---

(١) أخرجه ابن جرير ١٧/ ٢٢٨ ط الرسالة، وابن المنذر وابن أبي حاتم (١٣٣٩٧)، وابن مردويه، انظر: الدر المنثور ٤/ ١٣٥. كما ورد أن قيس بن عاصم وارى ثمان بنات في الجاهلية وأمره النبي صلى الله عليه وسلم أن يعتق عن كل بنت منهن نسمة. أخرجه البزار والطبراني ورجال البزار رجال الصحيح انظر: مجمع الزوائد للهيثمي ٧/ ٢٣٨، والإصابة لابن حجر ٣/ ٣٥٣ ط دار صادر.

(٢) التحرير والتنوير ١٤/ ١٨٤.



﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴾ لأنهم بلغوا من الاستنكاف من البنت أعظم الغايات؛ ويجعلون ما هذا شأنه عندهم من الهون والحقارة لله سبحانه وتعالى وهو المتعالي عن الصاحبة والولد: ﴿ أَلَآ إِنَّهُم مِّنۡ إِفۡكِهِمۡ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصۡطَفَى ٱلۡبَنَاتِ عَلَى ٱلۡبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ﴾ [الصافات: ١٥١ - ١٥٤].

إنّ هذه الآيات توجب على المختصين في علم النفس أن يدخلوا الجانب العقدي في دراسة الشخصية والصحة النفسية، وأن يركزوا في أثر الاعتقادات الفاسدة على سلوك صاحبها وصحته الشخصية.(١)

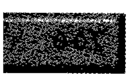
فالناظر في الأنماط السلوكية التي ذكرها القرآن؛ يجد أن القرآن يركز على الدور العقدي لدوافع السلوك، ويصور الحالة النفسية الداخلية التي يلعب فيها الاعتقاد الدور الرئيس، فالآيات هنا تنكر نمطاً سلوكياً واجتماعياً فظيعاً نابعاً من اعتقاد

---

(١) إن دراسة علماء النفس للشخصية اتسمت بالقصور والنقص؛ لأنها تقتصر على جوانبها البيئية والوراثية والثقافية والاجتماعية والفردية، ويهملون الجانب الروحي والعقدي في تكوين الشخصية وأثره في سويتها وأمنها النفسي، وينظرون إلى الشخصية باعتبارها الأبنية والعمليات النفسية الثابتة التي تنظم خبرات الفرد، وتشكل أفعاله واستجاباته للبيئة التي يعيش فيها؛ التي تميزه عن غيره من الناس، ويقسمون الشخصية إلى: شخصية سوية وشخصية غير سوية مهملين الجانب العقدي وأثره في كلا القسمين.

ينظر للتوسع: علم النفس في القرآن، د. عثمان نجاتي صـ ٢٢٣، والشخصية لريتشارد لازاروس، ترجمة محمد غنيم وعثمان نجاتي صـ ١٩-٢٢، ط: دار الشروق بيروت ١٩٨١م.





منحرف، كان موجوداً في بعض عادات العرب في الجاهلية، وبقي إلى أول بعثة النبي صلى الله عليه وسلم، فتُصوِّر الانفعالات النفسية لهم، وأثرها على سويتهم الشخصية والسلوكية، في سياق عقدي وقالب بياني ذو دلائل نفسية.[1]

(فالانحراف في العقيدة لا تقف آثاره عند حدود العقيدة، بل يتمشى في أوضاع الحياة الاجتماعية وتقاليدها، فالعقيدة هي المحرك الأول للحياة، سواء ظهرت أو كمنت... وانحرافهم عن العقيدة الصحيحة سول لهم وأد البنات أو الإبقاء عليهن في الذل والهوان من المعاملة السيئة والنظرة الوضيعة).[2]

إنّ اسودادَ الوجهِ، وحالةَ الكظيم: انفعالاتٌ محرقة ودوافعُ قويةٌ لطبعٍ عدواني، والتواري عن الناس وحديثُ النفسِ فيما يقوم به من سلوك: اضطرابٌ في الشخصية والبنية النفسية.

---

(١) وهذا ما يصطلح عليه في علم النفس بالموقف النفسي، والموقف في الحياة النفسية هو: مجموعة من العوامل الانفعالية التي تجعل صاحبها يقوم بنوع مركزي من السلوك تدور، حوله تلك الانفعالات بجوانبها الإيجابية والسلبية.

فالموقف في الدراسات النفسية يتضمن ثلاثة عوامل متفاعلة:

أ- النمط السلوكي وما خلفه من دوافع خاصة تؤثر في نوعية السلوك ودرجته.

ب- الإنسان نفسه في مجموعه ككل في أبعاده التكوينية.

ج- المحيط البيئي بكل مقوماته المتعددة ولا سيما المجال النفسي الاجتماعي الذي يعيشه ذلك الإنسان.

انظر: لمحات نفسية في القرآن الكريم د. عبد الحميد محمد الهاشمي صـ١٢٨، ط رابطة العالم الإسلامي من سلسلة دعوة الحق العدد ١١ السنة ١٤٠٢ هـ.

(٢) ظلال القرآن ٤/ ٢١٧٧.

وفقدانَ السيطرة على هذه الانفعالات، وعدمَ تحكيمها للفطرة الربانية ينشأ عنها الفعل الإجرامي: الوأد، أو جريمة اجتماعية: إهانة البنت وإذلالها، وينعدم بذلك الأمن النفسي، والأمن الاجتماعي والبيئي.

هذه الدوافع والانفعالات والسلوكيات الفاسدة والمنحرفة والمتطرفة؛ ليست قاصرة على مشركي العرب وأبناء جاهليتهم، بل هي مثال لكل من يخالف الفطرة الربانية، ويعتقد عقائد فاسدة، وواقعنا الذي نعيشه يعج بأمثال هؤلاء، وأثرهم على الأمن الاجتماعي أجلى من أن يقام له دليل، ولو ألقينا نظرة إلى نسب الانتحار ـ مثلاً ـ في الدول التي انحرفت عن الفطرة لتجلى لنا حقيقة المواقف النفسية للمخالفين للفطرة الربانية الطاهرة.

أثر الإيمان في الاستقرار والأمان

٢٠- ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٠) وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٦١) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ (٦٢) تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣) وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٦٤) ﴾.

*** مناسبة الآيات:**

هذه الآيات تتمة لما سبقها في الإنكار على المشركين مقالتهم واعتقادهم في الله وملائكته، فبعدما بين خفة عقولهم وسخافة معتقداتهم وسوء أحوالهم؛ بين في هذه الآيات ضعف خلقهم وكمال ذاته سبحانه ولطفه بعباده، وهددهم بالجزاء الذي يستحقونه إن استكبروا عن الحق.

ويمكن القول أيضاً:

بعدما بين الله تعالى في الآيات السابقة انعدام الأمن النفسي فيمن أشرك بالله تعالى وأفسد فطرته، بين في هذه الآيات نعمة الإيمان في الأمن النفسي والاستقرار على المؤمنين، والله أعلم.

*** غريب الآيات:**

مَثَلُ السَّوْءِ: أي: النقص إنما ينسب إليهم، والقبيح من المثل، وما يسوء من ضرب له ذلك المثل[(١)].

و(صفة السَّوْء من احتياجهم إلى الولد، وكراهتهم للإناث، خوف الفقر والعار).[(٢)]

الْـمَثَلُ الأَعْـلَى: أي: الكمال المطلق من كل وجهه، وهو الأفضل والأطيب، والأحسن، والأجمل[(٣)]، و(الصفة العليا من تنزُّهه وبراءته عن الولد).[(٤)]

يُؤَاخِذُ: (المؤاخذة: الأخذ المقصود منه الجزاء، فهو أخذ شديد، ولذلك صيغت له صيغة المفاعلة الدالة على الكثرة، فدلّ على أن المؤاخذة المنتفية بـ ﴿لَوْ﴾ هي الأخذ العاجل المناسب للمجازاة، لأن شأن الجزاء في العرف أن لا يتأخر عن وقت حصول الذنب).[(٥)]

مُفْرَطُونَ: مَنسِيُّونَ مَتْرُوكونَ في النارِ، أو مُقَدَّمُونَ مُعَجَّلُونَ إليها.[(٦)]

وَلِيُّهُمْ: أي: ناصرهم.[(٧)]

---

(١) ابن جرير ١٧/ ٢٢٩ ط الرسالة، ابن كثير ٤/ ٥٧٨ ط طيبة.

(٢) انظر: زاد المسير ٤/ ٣٣٥.

(٣) ابن جرير ١٧/ ٢٢٩ ط الرسالة، ابن كثير ٤/ ٥٧٨ ط طيبة.

(٤) انظر: زاد المسير ٤/ ٣٣٥.

(٥) التحرير والتنوير ١٤/ ١٩٠.

(٦) انظر: اللسان ٧/ ٣٦٦، المفردات صـ٣٧٦، معاني القرآن للفراء ٢/ ١٠٧، الكشاف ٢/ ٥٧٣.

(٧) الدر المصون ٧/ ٢٤٩.

* تفسير الآيات:

ختمت الآية السابقة بقوله تعالى: ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾، ومن كان حكمه كذلك؛ فإنه لا يستحق أن يوصف بأوصاف النزاهة والمعالي؛ لفساد طرق تفكيره، وانعدام أركان الصحة ومدارك القوة في أحكامه، فقال تعالى: ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ فكانوا أحق بأوصاف السوء، وكل ما تحمله السوء من دلالة منفرة - كالذل والفقر والحاجة للولد والرعونة - تليق بهؤلاء؛ لما يظهر منهم من أحوال بسبب فقدهم الإيمان باليوم الآخر، ونسيانهم أن لهم رباً سيحاسبهم على قتل أولادهم، وعلى ضعف ثقتهم بخالقهم في أن الرازق الكافي، ولو اطمأنت نفوس الدعاة لتحديد النسل في عصرنا لهذا الركن العظيم من أركان الإيمان لما أقدموا على إفساد عقائد الناس وتقزيم مجتمعاتهم.

﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾: أي ولله سبحانه الصفات الكاملة العجيبة الشأن، التي تليق بجلاله به من صفات الجمال والجلال والكمال.[1]

يقول ابن عاشور: (هذه الجملة معترضة جواباً عن مقالتهم التي تضمّنها قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ﴾ [النحل:٥٨] فإن لها ارتباطاً بجملة: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ﴾ [النحل:٥٧]، فهي بمنزلة جملة ﴿سُبْحَٰنَهُۥ ﴾، غير أن جملة ﴿سُبْحَٰنَهُۥ ﴾ جواب بتنزيه الله عمّا نسبوه إليه، وهذه جواب بتحقيرهم على ما يعاملون به البنات مع نسبتهم إلى الله هذا الصّنف المحقرّ عندهم).[2]

---

(١) ينظر: أبو السعود ٥/ ١٢٢.

(٢) التحرير والتنوير ١٤/ ١٨٦.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ (المنفردُ بكمال القدرة لا سيما على مؤاخذتهم بذنوبهم ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي يفعل كلَّ ما يفعل بمقتضى الحكمةِ البالغةِ، وهذا أيضاً من جملة صفاتِه العجيبة تعالى).[1]

(ولما كان السياق للحكمة، وكان الظلم - الذي هو إيقاع الشيء في غير موقعه - شديد المنافاة لها، وكان الشرك أظلم الظلم، قال: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم ﴾ أي: يأخذهم أخذاً شديداً؛ بسبب ظلمهم وشركهم.

قوله تعالى: ﴿مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا﴾، أي: الأرض المعلوم أنها مستقرهم سواء ظاهرها وباطنها، وأعرق في النفي، فقال تعالى: ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ أي: نفس تدب على وجه الأرض، لأن الكل إما ظالم يعاقب بظلمه، وإما من مصالح الظالم فيهلكه عقوبة للظالم).[2]

سمع أبو هريرة رجلاً وهو يقول: إن الظالم لا يضر إلا نفسه، فالتفت إليه فقال: (بلى، والله إن الحُبارى لتموت في وكرها هزالاً بظلم الظالم).[3]

ويقول ابن مسعود:

(خطيئة ابن آدم قتلت الجُعْل).[4]

---

(١) أبو السعود ٥/ ١٢٢.

(٢) نظم الدرر ١١/ ١٨٦. وانظر: أبو السعود ٥/ ١٢٢.

(٣) أخرجه ابن جرير ١٧/ ٢٣١، ط الرسالة، وابن حميد وابن أبي الدنيا. انظر: الدر المنثور ٤/ ١٣٥.

(٤) أخرجه ابن جرير ١٧/ ٢٣١.

عن أبي الأحوص قال: (كاد الجُعْل أن يعذّب بذنب بني آدم، وقرأ: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾).(١)

ففي الآية تربية للمؤمنين وتهيئة لهم على المواظبة في إقامة العدل في مجتمعهم ودولتهم التي سينتقلون إليها؛ وأساس هذا العدل: التوحيد والعقيدة السليمة والعمل الصالح، وفي الآية بيان أثر فساد العقيدة على البيئة والحياة، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم:٤١]. ففي الآية إشارة إلى أسباب الأمن البيئي والاجتماعي.

(﴿وَلَٰكِن ﴾: لا يفعل بهم ذلك فهو: ﴿يُؤَخِّرُهُمْ ﴾ إمهالاً بحكمته وحلمه: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ ضربه لهم في الأزل).(٢)

(﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ ﴾ أي: الوقت الذي وُقّت لهلاكهم ﴿لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴾ عن الهلاك ساعة فيمهلون ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ له حتى يستوفُوا آجالهم).(٣)

---

(١) أخرجه ابن جرير ١٧/ ٢٣١.

وأبو الأحوص عوف بن مالك بن نضلة الجشمي، وهو تابعي ثقة معروف، قتل في زمن ولاية الحجاج على الكوفة. انظر: التقريب ١/ ٧٦٠ط دار الكتب العلمية، تهذيب التهذيب ٨/ ١٥٠.

(٢) نظم الدرر ١١/ ١٨٧.

(٣) ابن جرير ١٧/ ٢٣٠.

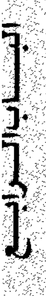
وبعد أن بين أثر اعتقادهم على الأمن البيئي والحيواني والاجتماعي، وهددهم بما سبق، عاد القرآن لذكر بلية أخرى من مقالاتهم، ولون قبيح من تلون أحوالهم، فقال تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ﴾، أي: يقولون بأن البنات لله تعالى ويحكمون بذلك، ويصفون الملائكة بالبنات وينسبونها لله تعالى، وهم يكرهونها لأنفسهم، ويقولون - أي كفار قريش كما ورد عن مجاهد -: لله البنات ولنا الذكور.[1]

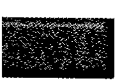
وقد حمل الزمخشري الكراهية في قوله تعالى: ﴿مَا يَكْرَهُونَ ﴾ على أعم من نسبة البنات لله تعالى، وفسرها بجعل أرذل أموالهم لله تعالى وأكرمها لأصنامهم[2]، وبذلك تكون الآية قررت ما سبق بيانه في البنات، وأسست معنى جديداً وزادت أنواعاً أخرى في الجعل، وهو أنهم لم يقتصروا في الإساءة في حق الله تعالى بنسبة البنات له؛ وإنما في أمور أخرى منها ما يتعلق بالمال والقرابين.. الخ، وهو يتناسب مع عموم اسم الموصول: (ما) في الآية، فتكون هذه الآية أعم من آية: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ ﴾، وهذا أنسب لسياق التوبيخ والتقريع الذي مشت عليه الآيات، ولسياق شرح أحوال المشركين وسوء طويتهم، والله أعلم.

ثم عطف على حالهم تلك حالةً أخرى، فقال: ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾، أي: وتذكر ألسنتهم بشرح وبيان وتفصيل الكذب، والآية

(١) أخرجه ابن جرير ١٧/ ٢٣٢.

(٢) انظر: الكشاف ٢/ ٥٧٣، وهو الاحتمال الثاني الذي ذكره ابن عاشور في التحرير والتنوير ١٤/ ١٩١.





جعلت عين قولهم ذاتاً للكذب[1]، وإسناده إلى اللسان لبيان أنه مجرد قول لا حقيقة له بوجه[2]، والآية ذكرت المجرم - المشركين - مع أداة جريمته: - اللسان -، وصفة الجرم:- يجعلون لله ما يكرهون وتصف ألسنتهم الكذب -، وبيّن كذبهم بقوله: ﴿أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾.

ولا يبعد تفسير الحسنى بما يقابل معنى الجعل المتضمن في (ما) الموصولة في قوله: ﴿مَا يَكْرَهُونَ﴾؛ فإن كان ما يكرهون: البنات، كانت الحسنى الذكور كما ورد عن قتادة ومجاهد ومقاتل[3]، وإن ما يكرهون: عاماً كما مر عن الزمخشري؛ كانت الحسنى كل ما يقابلها في العموم، فهم جعلوا لله شريكاً؛ وهم لا يرضون بأن يشاركهم أحد في ملكهم، وجعلوا لله البنات، وهم لا يرضون إلا بالذكور؛ وكأن النساء تختار مولودها، وجعلوا من فسادهم وباطلهم حسناً وحقاً؛ وزعموا أن لهم الجنة والجزاء الحسن[4]؛ وقد رد الله عليهم أشد رد في قوله: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾، أي: حقاً بلا شك ولا تردد ولا ظن أن النار حقاً وملكاً ومأوىً لهم، وأنهم مقدَّمون إليها، ويسبقون أصحابها إليها لأنهم أحق أصحابها بها؛ جزاء على اعتقادهم ووصفهم وكبرهم وغرورهم.

---

(١) انظر: التحرير والتنوير ١٤/ ١٩٢.

(٢) انظر: نظم الدرر ١١/ ١٨٨.

(٣) أخرج ذلك ابن جرير ١٧/ ٢٣٢، ط الرسالة، وابن أبي حاتم وابن المنذر وعبد الرزاق انظر الدر المنثور ٤/ ١٣٥، وأما النقل عن مقاتل فه في زاد المسير ٤/ ٣٣٦.

(٤) ورد عن يمانٍ في تفسير ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾: الجنة. ذكره البغوي ٣/ ٧٤ ط المعرفة، ونقله ابن الجوزي عن شيخه أبي سليمان الدمشقي، زاد المسير ٤/ ٣٣٦.

ثم قال تعالى تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم؛ وبياناً لسنة الله تعالى في المنكرين المستكبرين[١]: ﴿ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾، وهذا القسم بالإضافة إلى كونه تسلية للنبي والمؤمنين، فإن فيه وعيد شديد للمشركين، فقد أرسل الله رسلاً في أزمنة وأمكنة مختلفة، وأصناف من البشر مختلفة، وأقربها عهداً عيسى عليه السلام إلى بني إسرائيل، ولكنهم التقوا على أمر جامع بينهم، وهو ما قاله تعالى:﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾، أي: فأعقب إرسال الرسل بالهداية لهم أن زين لهم قبيح أعمالهم حسناً، وباطلهم حقاً، وسخافتهم منطقاً، وخرافتهم عقلاً، وظلمهم عدلاً، وأتاهم من قبل شهواتهم وأهوائهم والخوف على مصالحهم؛ قال تعالى: ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾، فهو ناصرهم الآن، أما في الآخرة فلهم عذابٌ مؤلم إيلاماً لا يقادر قدره، ويكونون بلا ولي.[٢]

والآية دليل على أن الإنسان أضعف من أن يستقل بالمعرفة لوحده، وأن يرسم التصورات الحقيقية للمخلوقات، وأن يصل إلى الحقيقة بيقين اعتماداً على عقله دون

---

(١) ينظر: أبو السعود ٥/ ١٢٣، التحرير والتنوير ١٤/ ١٩٣.

(٢) ينظر: أبو السعود ٥/ ١٢٣، والتحرير والتنوير ١٤/ ١٩٣، زهرة التفاسير ٨/ ٤٢٠٦، وقد فسر الرازي اليوم بيوم القيامة والمعنى أن وليهم الشيطان يوم القيامة ولا ولاية له، توبيخاً لهم وسخرية منهم، الرازي ٢٠/ ٥٠، وهو وجه محتمل، ولكن أرى ما أثبته ـ وقد رجحه ابن عاشور ـ من باب أن الله وصف كيد الشيطان بالضعف فوليهم في الدنيا ذو كيد ضعيف فكيف تصح ولايته في الآخرة، بل من جملة عذابهم براءته منهم، والله أعلم.





قيادة الرسل الذين أرسلهم الله تعالى، ولا يمكنه أن يصل إلى علة السعادة مستقلاً بنفسه دون أن يستند إلى حقائق لا يمكنه تحصيلها إلا عن طريق من أرسلهم الله تعالى هادين ومبشرين.

وقد يقول قائل: فنحن نعتمد على القرآن الذي أنزله الله وفيه بيان كل شيء وهو وحي من عنده سبحانه، فيمكننا أن نعتمد عليه وحده في إدراك المعرفة والحق، ونستغني عن سنة الرسول ﷺ.

فجوابه في قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾.

*** فقد حصر الله مقصد إنزال القرآن في ثلاثة أمور:**

- إحداها:

ليبين الرسول صلى الله عليه وسلم لهم ما اختلفوا فيه، وذكر محل البيان أنه فيما اختلفوا فيه، أي: من أمر (دينهم ودنياهم)[1]، ففي الآية بيان أصل وظيفة السنة النبوية، وهي بيان القرآن الكريم.[2]

والقصر في الآية له فائدتان:

● إحداهما: لقصد الإحاطة بالأهم من غاية القرآن وفائدته التي أنزل لأجلها.

---

(١) انظر: نظم الدرر ١١/ ١٩٠.

(٢) ينظر كتاب: نسخ وتخصيص وتقييد السنة النبوية للقرآن الكريم دراسة نظرية وتطبيقية د.عارف بن عوض الركابي ط مكتبة الرشد أولى ١٤٢٧هـ في بيان وظيفة السنة النبوية.



● والثانية: لتفنيد أقوال من زعم من المشركين أن القرآن أنزل لذكر القصص وللتفكه والمسامرة، حتى ادعى بعضهم أنه يأتي بقصص أحسن، فكشف لهم القرآن جهالاتهم وهداهم إلى أسس الحق ومجامع الخير.[1]

(وقد عبر عن ضلالهم بطريقة الموصولية: ﴿ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ﴾، للإيماء إلى أن سبب الضلال هو اختلافهم على أنبيائهم، فالعرب اختلفت ضلالتهم في عبادة الأصنام، عبدت كل قبيلة منهم صنماً وعبد بعضهم الشمس والكواكب، واتخذت كل قبيلة لنفسها أعمالاً يزعمونها ديناً واختلفوا مع المسلمين في ذلك).[2]

- **المقصد الثاني، والثالث**، من مقاصد إنزال القرآن:

الهداية والرحمة: في قوله تعالى: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: دالاً على الهداية ومسبباً لمن تدبر فيه الرحمة؛ لقوم صار الإيمان فيهم سجية لا ادعاء، والعمل بما أنزل طبعاً، وهذه الهداية والرحمة لما كانت من أفعال منزل القرآن صارت صفة للقرآن.

وفي الآية إرشاد للمسلمين إلى الأسس العلمية والمعنوية لإقامة مجتمعهم في المستقبل وحصول الأمن فيه؛ وذلك بأن يلتزموا بالقرآن المنزل على رسول العالمين، وأن يحافظوا على سنة الرسول صلى الله عليه وسلم؛ لأنها بيان القرآن، فتتحقق بذلك الرحمة والهداية، ويرتفع العذاب بارتفاع الخلاف كما قال صلى الله عليه وسلم في حجة

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير ١٤/ ١٩٦.

(٢) التحرير والتنوير ١٤/ ١٩٦.



الوداع: «وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنْ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ كِتَابُ الله وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي)[1]، وفي لفظ آخر للحديث: «تَرَكْتُ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا كِتَابَ الله وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ».[2]

(١) أخرجه مسلم في الحج باب صفة حج النبي صلى الله عليه وسلم رقم (٢١٣٧)، وأبو داود في الحج باب صفة حجة النبي صلى الله عليه وسلم (١٦٢٨). من حديث جابر.

(٢) أخرجه مالك في الموطأ من بلاغاته كتاب الجامع باب النهي عن القول بالقدر رقم (١٣٩٥).



نِعَمٌ وعِبَرٌ ودلائلُ

٢١- ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

* مناسبة الآيات:

هذه الآيات عودة إلى تقرير المقصد الأعظم من سورة النحل وهو الإلهيات، كوجود الله تعالى ووحدانيته وقدرته وباقي صفاته سبحانه، ووجوب تحقيق مستلزمات الإيمان بها كالعبادة والشكر؛ من خلال بيان النعم التي هيأها الله تعالى للإنسان في إصلاح عالمه العلوي والسفلي، وحول هذا تدور عبارات المفسرين.[1]

وقد جعل ابن عاشور هذه الآيات متصلة بسياق أول النحل إلى قوله تعالى: ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل:١٦]، وجعل ما بينهما كلام معترض؛ وإنما كان سياق أول سورة النحل سياق استدلال فيه امتنان، وهنا سياق امتنان فيه استدلال[2]، وهذا لا يتعارض مع ما سبق بل يلتقي معه، والله أعلم.

* غريب الآيات:

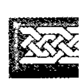
لَعِبْرَةً: العِبْرَة: الاعتبار، أي: الاتعاظ والتذكير.

---

(١) ينظر: الرازي ٢٠/ ٥٠، نظم الدرر ١١/ ١٩١.

(٢) انظر: التحرير والتنوير ١٤/ ١٩٧.





وأصله من العبَر: وهي تجاوز من حال إلى حال، وكان الاعتبار والعبرة: تجاوز من الحالة التي يتوصل بها من معرفة المشاهد إلى معرفة ما ليس بمشاهد.(١)

نُسْقِيكُمْ: هي من أسقى، ولو كانت من سَقَى لكان لفظها بفتح النون: نَسقيكم، يقول ابن جرير: (بمعنى: أنه أسقاهم شرابًا دائمًا. وكان الكسائيّ يقول: العرب تقول: أسقيناهم نَهْرا، وأسقيناهم لبنا: إذا جعلته شِرْبا دائماً، فإذا أرادوا أنهم أعطوه شربة قالوا: سقيناهم فنحن نَسْقِيهم، بغير ألف)(٢).

فصار المعنى: إنّ الله جعل مما في بطون الأنعام شراباً دائماً ليس لهم التصرف في كونه والله أعلم.

بُطُونِهِ: جمع بطن، وأصل البطن الجارحة، خلاف الظهر في كل شيء وهو مذكر، ويقال لكل غامض بطن ولكل ظاهر ظهر.(٣)

يقول ابن عاشور في تفسير البطن في الآية: (وهو اسم للجوف الحاوية للجهاز الهضمي كله من معدة وكبد وأمعاء).(٤)

فَرْثٍ: وهي فُضالةُ ما يبقى من العلف في الكَرِش المنهضمةِ بعدَ الانهضام وكثيفُ ما يبقى في الأمعاء.(٥)

---

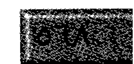
(١) انظر: المفردات صـ ٣٢٠، لسان العرب ٤/ ٥٢٩، المصباح المنير صـ٣١٧ مادة: عَبَرَ.

(٢) ابن جرير ١٧/ ٢٣٧ ، وانظر: المفردات صـ ٢٣٦ مادة: سقى ، الدر المصون ٧/ ٢٥٢، ابن عادل ٢/ ١٨٩.

(٣) انظر: المفردات صـ ٥١ ، والمصباح المنير صـ٥٣ مادة: بطن.

(٤) التحرير والتنوير ١٤/ ١٩٩.

(٥) أبو السعود ٥/ ١٢٤، انظر: المفردات صـ ٣٧٤، اللسان ٢/ ١٧٦، مادة: فرث، معاني القرآن للنحاس ٤/ ٨١.



سَائِغًا: سَاغَ يَسُوغُ سَوْغًا مِنْ بَابِ قَالَ، سَهُلَ مَدْخَلُهُ وانحداره فِي الْحَلْقِ.(١)

قال ابن الجوزي: (سهلاً في الشرب لا يشجى به شاربه، ولا يَغصّ. وقال بعضهم: سائغاً، أي: لا تعافه النفس وإن كان قد خرج من بين فرث ودم).(٢)

سَكَرًا: قد مر في بحث الناسخ والمنسوخ في السورة الاختلاف في تفسير السكر، فمنهم من ذهب إلى أنه الخمر، ومنهم من ذهب إلى أنه عام في كل مطعوم ويدخل في ذلك الخمر.(٣)

وما سوى هذين القولين فإنه يدخل في معناهما.(٤)

ولكن لابن جرير رأي وجيه، فبعدما بين أن الآية غير منسوخة لعدم ورود دليل على ذلك من آية أو خبر أو إجماع، قال: (فوجب القول بما قلنا من أن معنى السَّكَر في هذا الموضع: هو كلّ ما حلّ شربه، مما يتخذ من ثمر النخل والكرم، وفسد أن يكون معناه الخمر أو ما يسكر من الشراب، وخرج من أن يكون معناه السَّكَر نفسه، إذ كان السَّكَر ليس مما يتخذ من النَّخْل والكَرْم، ومن أن يكون بمعنى السكون).(٥)

---

(١) انظر: لسان العرب ٨/ ٤٣٥، المفردات صـ٢٤٩.

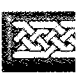
(٢) زاد المسير ٤/ ٣٣٨.

(٣) انظر: صـ ٣٢٥-٣٢٩ من البحث.

(٤) انظر: الدر المصون ٧/ ٢٦٠ ، ٢٦١ فقد ذكر خمسة أقوال هي باختصار: الخمر، السكر مصدر ثم سمي الخمر به، اسم للخل بلغة الحبشة، اسم للعصير ما دام حلواً، اسم للطعم. وذكر في باهر البرهان ٢/ ٨٠٥، ثلاث أوجه في تفسيرها وهي: المعتصر من الثمرات، النبيذ وهو حلال عند أبي حنيفة، الخمر.

(٥) ابن جرير ١٧/ ٢٤٧ ط الرسالة.





فقد أبى دخول الخمر في معاني السكر في الآية، وقول ابن جرير قوي من حيث إن الآية من العام الذي خصص، أي: إن الله تعالى منَّ عليهم بكل ما يشربونه من المطعوم، وكان من بينها الخمر؛ لأنه لم يكن محرماً وقتئذ، ولما حرم الخمر بقيت المنة في كل مطعوم مشروب وخرج من معانيها الخمر، والله أعلم.(١)

* تفسير الآيات:

تبدأ الآيات بواو الاستئناف لما تقدم ذكره من الدلائل في أول سورة النحل، وباسم الجلالة الذي لم يسم به أحد من قبل؛ لما له في النفس من وقع المهابة والخوف والتعظيم؛ ولما في تقديم ذكر اسمه سبحانه من فائدة التخصيص، فقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ﴾ يقول ابن جرير: (يقول تعالى ذكره منبهاً خلقَه على حججه عليهم في توحيده، وأنه لا تنبغي الألوهية إلا له، ولا تصلح العبادة لشيء سواه: أيها الناس معبودكم الذي له العبادة دون كلّ شيء، ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾)(٢)، وقد تقدم تفسير هذا النظم بما يغني عن إعادته.(٣)

---

(١) بقي أن نذكر أن (سكر)؛ ذكرها السيوطي في المعرَّب في القرآن، ونقل عن ابن عباس قال: (السكر بلسان الحبشة الخل). فيكون العرب قد وسعوا مدلولها بعد ذلك في كل مطعوم، والله أعلم.. انظر: المهذب فيما وقع في القرآن من المعرب لجلال الدين السيوطي صـ١٠١، تحقيق د.التهامي الراجي الهاشمي ط صندوق إحياء التراث الإسلامي المشترك بين المغرب والإمارات د.ت وممن نقل ذلك عن ابن عباس البغوي ٣/ ٧٥ ط المعرفة، زاد المسير ٤/ ٣٣٩. وقد ضبط محقق المهذب (السكر) بتشديد الكاف ولم أجدها قراءة.

(٢) ابن جرير ١٧/ ٢٣٦ ط الرسالة.

(٣) انظر: صـ ٤٠١ من البحث.

ثم بين الله تعالى أن هذا الماء النازل بإذنه إلى الأرض؛ كان سبباً لحياتها وازدهارها وصلاح معيشة الإنسان عليها، لما جعل الله تعالى في الماء من خصائص الحياة والإنبات، فقال تعالى: ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾، وموت الأرض: يبس زرعها وتشقق أرضها بسبب الجفاف، وموت بذورها، وذهاب الناس والحيوان عنها، وهجرها حتى صارت موحشة مخيفة لا روح فيها، وإحياؤها: هو إخراج الكلأ والشجر، والتئام الأرض واهتزاز التربة بما يسبب نبات الزرع وانتعاش البذور، لتصلح للحياة وعودة الناس إليها وإخراج كل ما فيه الحياة منها، كما في قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج:٥].

ولما كان مظهر إنزال المطر وإحياء الأرض لا يخفى على عاقل بصير؛ لما فيها من الدلالة على وحدانية الله تعالى قال سبحانه: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾، يقول أبو السعود: (أي: في إنزال الماء من السماء وإحياءِ الأرض الميتةِ به ﴿لَءَايَةً﴾ وأيّةُ آيةٍ دالةٍ على وحدته سبحانه وعلمه وقدرتِه وحكمتِه ﴿لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ هذا التذكيرَ ونظائرَه سماعَ تفكرٍ وتدبُّر، فكأن مَنْ ليس كذلك أصمُّ).[1]

يقول ابن عاشور: (والسمع: هنا مستعمل في لازم معناه على سبيل الكناية، وهو سماع التدّبر والإنصاف لما تدبّروا به، وهو تعريض بالمشركين الذين لم يفهموا دلالة ذلك على الوحدانية، لذلك اختير وصف السمع هنا المراد منه الإنصاف والامتثال؛

(١) أبو السعود ٥/ ١٢٤.





لأن دلالة المطر وحياة الأرض به معروفة مشهورة، ودلالة ذلك على وحدانية الله تعالى ظاهرة لا يصدّ عنها إلا المكابرة)(١)، فأصنامهم التي يعبدونها مع الله لا تقدر على فعل ذلك، كما قال تعالى: ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٤٠].

كما أن في الآية إشارة إلى معنىً آخر يعرض بالمشركين ويرشد المؤمنين، فالأرض متهيأة لتلقي ماء السماء لتحيا، وكذلك القلوب إذا تهيأت لتلقي ماء السماء ، وهو ما أنزله الله.

يقول ابن كثير: (وكما جعل تعالى القرآن حياة للقلوب الميتة بكفرها، كذلك يحيي الله الأرض بعد موتها بما ينزله عليها من السماء من ماء).(٢)

نموذج التفسير العلمي للقرآن بطريقة التفسير التحليلي.

(ولما ذكر سبحانه هذا الأمر العام [أي إنزال الماء من السماء]، ونبه على ما فيه من غريب الصنع الذي غفل عنه لشدة الإلف به، أتبعه بعض ما ينشأ عنه من تفاصيل الأمور المحتوية على عجائب المقدور، وبدأ بأعمها وأشدها ملابسة لهم، وأكثرها في نفسه وأعظمها منفعة ودخلاً في قوام عيشهم)(٣)، فقال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً﴾: (عظيمةً وأيَّ عبرةٍ!، تَحار في دركها العقولُ ويهيم في فهمها ألبابُ الفحول).(٤)

---

(١) التحرير والتنوير ١٤/ ١٩٨.

(٢) ابن كثير ٤/ ٥٨٠ ط طيبة.

(٣) نظم الدرر ١١/ ١٩٢.

(٤) أبو السعود ٥/ ١٢٤.



وكأن سائلاً سأل عن هذه التذكرة والعظة العجيبة التي تحار في تقديرها العقول؛ لما في نظامها من العجائب: أين هي في الأنعام ؟!، فكان الجواب في قوله تعالى: ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾.

فهذا امتنان فيه استدلال على عجيب خلق الله وقدرته، وتفرده بهذا الخلق والتقدير، فلو كانت هذه الأصنام التي يعبدها المشركون تخلق شيئاً؛ فأين محلها في خلق اللبن في بطن الأنعام.

ولو لم يكن ثمة خالق؛ فمن يقدِّر هذا الغذاء الذي يعد من مقومات الأمن الصحي للإنسان، يخرج من أماكن ومواد يعافها الإنسان بلون أبيض وطعم يشتهى.

*** وفي الآية أوجه عديدة في الامتنان:**

منها أن الخارج ليس في أصله محلاً مناسباً يستسيغه الإنسان للشرب، ولكن الله جعله شراباً دائماً ترغب به النفس ويطلبه الجسم، ولذا عبر النظم القرآني بقوله: ﴿نُّسْقِيكُم﴾ مقدماً لهذا الفعل على عملية إخراجه؛ لأنه المقصود من عملية إخراج اللبن، فتضمن فعل السقي في الآية معنى الجعل، أي: جعلناه سقيا دائمة لكم والله أعلم، يقول ابن عاشور: (ووقع البيان بـ ﴿نُّسْقِيكُم﴾ دون أن يقال: تشربون أو نحوه، إدماجاً للمنّة مع العبرة).[1]

وأما الأوجه الأخرى من الامتنان؛ فهي في أوصاف اللبن المذكورة في الآية وفي إشارة الآية إلى كيفية نشوئه:



(١) التحرير والتنوير ١٤/ ٢٠٠.

إحداها: في قوله تعالى: ﴿مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ﴾:

قوله: ﴿مِّمَّا﴾: ﴿من﴾ إما ابتدائية، و﴿ما﴾: بمعنى شيء وقد فسَّره الواقع وهو العلف، لأن اللبن يفرز عن العلف الذي في البطون ابتداءً، فتكون ﴿ما﴾ دالة على العلف أو الغذاء الذي في البطون[1]، والمعنى: إن ابتداء جعل هذا اللبن يكون في العلف حين تتمكن منه بطن الأنعام، والله أعلم.

أو أن تكون: ﴿من﴾ تبعيضية، على اعتبار أن اللبن بعضُ ما في بطونه، فتكون: ﴿ما﴾ دالة على اللبن اعتداداً بحالة مُروره في داخل الأجهزة الهضمية قبل انحداره في الضرع.[2]

والذي يراه الباحث هو ورود المعنيين معاً في الآية، ولكن يختلف الاعتبار فيهما، أي: هي ابتدائية باعتبار ابتداء الجعل للَّبن، كما سيأتي في ذكر معدات الأنعام وكما سيظهر عند ذكر تولد اللبن ونشأته.

وتبعيضية باعتبار أن هذا اللبن بعض ما يخرج من البطون، وهذا الجمع أنسب لسياق الامتنان والاستدلال والله أعلم.

وفي هذه الفاصلة من الآية مسألتان أساسيتان:

إحداهما: في تذكير الضمير في قوله تعالى: ﴿بُطُونِهِۦ﴾، **والثانية:** في جمع البطن.

---

(١) وهو الذي قدمه ابن عاشور: التحرير والتنوير ١٤/ ٢٠٠.

(٢) وهذا ما ذهب إليه البقاعي وأبو السعود والآلوسي وغيرهم، انظر: الدر المصون ٧/ ٢٥٢، ابن عادل ٢/ ١٩١، نظم الدرر ١١/ ١٩٣، أبو السعود ٥/ ١٢٤، الآلوسي ١٤/ ١٧٨، التحرير والتنوير ١٤/ ٢٠٠، القرطبي ١٠/ ٨٢.



• **المسألة الأولى: في تذكير الضمير في قوله تعالى: ﴿بُطُونِهِۦ﴾:**

ورد لفظ (الأنعام) في القرآن الكريم في ست وعشرين موضعاً، وبلفظ: (أنعاماً) في موضعين، وبلفظ (أنعامكم) في ثلاثة مواضع، وكل موضع فيه ضمير يعود على الأنعام نجده يعود بضمير المؤنث، إلا في هذه الآية؛ فإنه بضمير المذكر، ونجد الآية الشبيهة لهذه الآية وهي قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [المؤمنون:٢١]، يذكر نعمة الإسقاء مما في بطون الأنعام ولكن الضمير العائد على الأنعام بالمؤنث.

وقد تكلم المفسرون في سبب ذلك وتعددت أقوالهم، وأقوى الأقوال في ذلك أن الضمير عاد على الأنعام بالمذكر: باعتبار لفظ الجمع، أو باعتباره مفرداً مذكراً في سورة النحل، وعاد بالمؤنث في المؤمنون باعتبار لفظ الجماعة، أو معنى الجمع في الأنعام.[1]

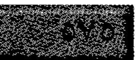
وقد كان عود الضمير في سورة النحل بالمذكر على الأنعام سبباً لاستنباط بعض العلماء أن لبن الفحل يفيد التحريم[2]، وهذا استنباط بإشارة النص، ولكن هل يمكن الاستفادة من عود الضمير بالمذكّر في معرفة إشارة علمية أخرى غير فقهية؟!.

إن سياق الآيتين – في النحل والمؤمنون – يفيدنا في بيان إشارة علمية دل عليها تذكير الضمير في سورة النحل، فالسياق في المؤمنون هو سياق تعداد نعم بالجملة مما في

---

(١) انظر: الكشاف ٢/ ٥٧٤، القرطبي ١٠/ ٨٢، ملاك التأويل ٢/ ٥٩٦، البحر المحيط ٥/ ٥٠٩، الدر المصون ٧/ ٢٥٢، ابن عادل ٢/ ١٩١.

(٢) نقله القرطبي عن القاضي إسماعيل ١٠/ ٨٢.





أثر السياق في التفسير العلمي واستنباط معارف علمية.

الأنعام دون تفصيل أو تعيين لنعمة ما، أما في النحل فإن السياق هو سياق عبرة ومنة في تولد اللبن وكيفية نشوئه وجعله سقيا دائمة، فالسياق في الآيتين مختلف، ولذلك سيتبين لنا من خلال تفسير الآية الإشارات الكثيرة التي دلت عليها الآية بضمائرها وألفاظها ونظمها، ومنها هذا الضمير.

فقد فسر بعضهم عود الضمير بالمذكر في هذه الآية (تفسيراً علمياً مباشراً لا يحتاج إلى تأويل) -كما قال-، وجعل المعنى: (مما يوجد في بطون ذكور الأنعام)[1]، ثم دلل على ذلك لغة فقال: (وجاء هذا الضمير في صيغة المفرد لتأكيد ذلك، لأن الضمير هنا إذا جاء في صيغة الجمع لا يميز بين الذكور والإناث، ولو قيل: نسقيكم من بطونها؛ لكانت تعني من بطون الأنعام بصفة عامة، ومن بطون الأنعام الإناث بصفة خاصة؛ لأن الإناث هي التي تفرز اللبن، ولا يجوز أن يقال: نسقيكم من بطونه؛ لأن اللبن لا ينزل من بطون الذكور، ولكن بقوله: نسقيكم مما في بطونه؛ **أي مما يوجد في بطون ذكور الأنعام**؛ لأن النطفة الذكرية إذا سببت الإخصاب وتكوين الجنين في بطن الأنثى؛ تعمل في نفس الوقت على تنشيط ونمو الغدد اللبنية حتى يكتمل إفرازها بولادة الصغير، أي: يوجد تزامن بين الحمل وتنشيط الغدد اللبنية وبين الوضع وإدرار اللبن، **وقد عرف حديثاً أن النطفة الذكرية التي تسبب الحمل تعمل على تنشيط الغدد** المفرزة لهرموني بروجسترون واستروجين وغيرهما في جسم الأنثى، وأن هذه الهرمونات هي **المنبهة للغدد اللبنية**، وقد ثبت بالتجارب العلمية أن هذه الهرمونات إذا حقنت في

---

(١) نحل العسل في القرآن د. محمد علي البنبي صـ٥٧، ط مركز الأهرام القاهرة أولى ١٩٨٧م.



الإناث العقيمة فإنها تفرز اللبن بدون أن تلد، ولكن النطفة الذكرية تحت الظروف الطبيعية هي المسببة لإدرار اللبن).[١]

أقول: إن هذا التفسير شتت معنى الآية وبعثر دلالتها، وقطعها عن سياقها، وتأول فيها تأولاً بعيداً مردوداً؛ فهو جعل (ما) في قوله تعالى: ﴿مِّمَّا﴾ بمعنى الذكر من الأنعام، وجزم بأن المراد بما في بطن الذكر هو النطفة.

فصار المعنى عنده: نسقيكم من النطفة الموجودة في بطون ذكور الأنعام، وجعل نطفة الذكر السبب الأقوى في تولد اللبن؛ مع أن الآية بيّنت محل تولد اللبن في قوله تعالى: ﴿مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا﴾.

فالآية بينت خروج اللبن في البطون أنه من بين فرث ودم؛ هذا من جهة سياق الآية، فتقدير الذكور لا تحتمله الآية في هذا السياق؛ فكيف بإضافة النطف؟!

وما قدمه من افتراضات حول التعليل في إرجاع الضمير بالمذكر الفرد لا تساعده عليه القواعد الأصولية واللغوية، فمن المعلوم أن الجمع المعرف بالإضافة يفيد العموم[٢]، وهو كذلك هنا في الآية أفاد عموم البطون في الذكور والإناث، ولكنه عموم مخصص بالواقع والمشاهدة، والمراد منه خصوص الإناث.

أما من الناحية الاختصاصية -في الطب البيطري- فإن الإلقاح لا علاقة له باللبن، فإناث الأنعام تُلَقَّح من الذكور في مواسم معيّنة، ثم لا يقربها الذكر بعدها، كما أن



---

(١) المصدر السابق صـ٥٧، ٥٨.

(٢) انظر: الوجيز في أصول التشريع الإسلامي د. محمد حسن هيتو صـ١٧١، ط مؤسسة الرسالة الثالثة ١٩٩٠.

الأنثى ترفض الذكر في غير هذه المواسم، ثم يحصل إدرار اللبن قبيل الولادة بقليل ويكثر بعد الولادة، وفي هذه المرحلة لا يوجد إلقاح أو نطف ذكرية.(١)

أقول: ويبقى السؤال عن فائدة تذكير الضمير في (بطونه) قائماً، فإن تولد اللبن ليست عملية عضوية فحسب، وإنما تلعب الحالة النفسية (الفيزيولوجية) دوراً مهماً في تولد اللبن في الأنعام، ولعل في تذكير الضمير في سياق العبرة من تولد اللين: الإشارة إلى الدور النفسي الذي يلعبه المولود في إنتاج اللبن عند الأم، والله أعلم.

- **المسألة الثانية: في جمع البطن:**

تقدم أن البطن هي الجوف الحاوي للجهاز الهضمي كله من معدة وكبد وأمعاء، وإن ذكر الدم والفرث في الآية قرينة على أن المراد بالبطن: آلات نشوء الدم والفرث، وهي المعدات والأمعاء للفرث، والكبد للدم، والله أعلم.

لكن هل في جمع البطن هنا - وفي سورة المؤمنون - إشارة يستفاد منها في عملية تولد اللبن التي هي محل العبرة؟

قد يقال جواباً على ذلك بأن جمع البطن بسبب جمع الأنعام جمع تكسير، أو: لأن الأنعام اسم جنس ناسب جمع البطون لمعنى الجمع في الأنعام، ولكن لو قال: مما في بطنها أو بطنه لصح عربية، وهذا أمر ظاهر من حيث اللغة.

أقول: إن جمع البطون في الآية تحتمل الدلالة على تعدد المعدات في جوف الأنعام لكونها المصنع الأول للَّبن، وسياق الآية في ذكر المنّة والعجائب في تولد اللبن قرينة

---

(١) هذا ما أفادني به عدد من الأطباء البيطريين عندما راجعتهم في المعلومات السابقة وعن دور النطفة في إنتاج اللبن.



مقوية لذلك، وهذا كان أمراً خافياً غير معروف لدى العرب والأطباء، فنحن نجد المفسرين عندما يتكلمون عن بطن الأنعام فإنهم لا يذكرون إلا الكرش في تفسير البطن كما سبق في غريب الآية وكما سيتبين في كلام الرازي، حيث جعل الكرش مقابل معدة الإنسان.

وقد صار من المحتم في الطب البيطري وعلم التشريح أن البقر والجواميس والإبل والغنم والماعز لها أربع معدات في جوفها البطني:(١)

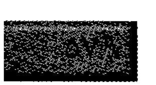
الأولى: وتعرف بالكرش، وهي أكبر المعدات الأربع حجماً وتشغل ثلاثة أرباع فراغ التجويف البطني، وهي مبطنة بغشاء مغطى بحلمات كبيرة لهرك الغذاء، ووظيفتها خزن الغذاء وتنديته بالماء والمخاط ليسهل اجتراره.

الثانية: تسمى الشبكية أو القلنسوة، وهي موضوعة بالعرض بين الحجاب الحاجز والجزء المقدم من يسار الكرش، ووظيفتها غربلة الغذاء من الأجسام الصلبة أو الحادة الغريبة، وتندية الغذاء بالماء الموجود بها.

المعدة **الثالثة**: تسمى الوريقية، وهي موضوعة بين الجزء المقدم من يمين الكرش والمعدة الرابعة، ووظيفتها عصر الكتلة الغذائية لاستخلاص الجزء السائل منها الذي يمر إلى المعدة الرابعة.

---

(١) انظر: الطب البيطري د. إبراهيم نجيب محمود ص٣٨ ط دار الفكر العربي مصر د.ت، وللاستزادة والتفصيل ينظر: الدليل لتشريح المجترات الأليفة، تأليف روبرت إي.هيبل، ترجمة د. علي عبد الله طه، من ص٥٤، إلى ص١١١، ط جامعة الملك سعود للنشر العلمي ١٤٢٠. وقد ذكرت المعدات مع وظائفها لأنه سيفيدنا في معرفة تولد اللبن في تفسير البينية فيما بعدُ في الآية كما سيأتي، فصار ذكرها حاجة للبحث والله أعلم.





المعدة **الرابعة**: وتسمى الأنفحة أو المعدة الحقيقية، وهي تفرز العصارة المعدية وتتصل بنهايتها بالأمعاء الدقيقة.

وهذه المعدات لها دور في تولد اللبن - الذي هو محل العبرة في الآية - إما ابتداءً أو إسهاماً -كما سيأتي -، وبذلك يكون علم التشريح قد ساعدنا في تفسير مفردة قرآنية؛ ووسع من مدلولها لتشمل معنى أوسع مما كان معهوداً من قبل، والله أعلم.

وأما (في) الظرفية في قوله: ﴿فِي بُطُونِهِۦ﴾ فإنها تدل على تمكن المعدة من الغذاء في عملية الهضم حتى تتم عملية تولد اللبن منه، والله أعلم.

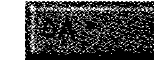
الثاني: من صفات اللبن -: **في قوله تعالى**: ﴿مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا﴾.

اختلف المفسرون في معنى ﴿مِنۢ﴾ هنا، والأكثر على أنها ابتدائية[1]، (لأن بين الفرث والدم مبدأ الإسقاء، وتعلق الجار والمجرور في قوله: ﴿مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ﴾ وقوله: ﴿مِنۢ بَيۡنِ﴾ بعامل واحد -وهو قوله: ﴿نُّسۡقِيكُم﴾- لاختلاف مدلوليهما).[2]

---

(١) انظر: الدر المصون ٧/ ٢٥٨، ابن عادل ٢/ ١٩٦، أبو السعود ٥/ ١٢٤، الآلوسي ١٤/ ١٧٨، القرطبي ١٠/ ٨٢، ولعل سبب ذهابهم إلى جعل (من) الأولى تبعيضية والثانية ابتدائية؛ ليهون الأمر لأنهم لو جعلوا الثنتين ابتدائية لتعين أن يكون مجرور (من) الثانية بدلاً من مجرور (من) الأولى، حتى لا يتعلق عاملان لفظاً ومعنى بمعمول واحد وهو ممتنع، انظر: الدر المصون٧/ ٢٥٧.

(٢) انظر:الآلوسي ١٤/ ١٧٨، حدائق الروح والريحان ١٥/ ٢٨٥. ويجوز تخريجها على أنها بدل اشتمال كما ذكر الآلوسي.





وذهب الزمخشري إلى أنها حال من اللبن، وعلل تقديم الحال على فاعله لأنه في موضع العبرة فهو قمن بالتقديم.(١)

ثمة رأي ثالث لابن عاشور إذ قال بأنها: (زائدة لتوكيد التوسّط ، أي: يفرز في حالة بين حالتي الفرث والدم).(٢)

أقول: لما كان قوله: ﴿نُّسۡقِيكُم﴾ متضمناً لمعنى الجعل، فإن ابتداء هذا الجعل في العلف عندما تتمكن منه البطن – كما تقدم–، وبيان نشوئه تفصيلاً لهذا الابتداء كان بين فرث ودم، وعلى ذلك تكون (من) هنا بيانية، أي: بيان نشوء جنس اللبن، ولذلك ذُكر الفرث والدم هنا؛ ولم يذكرا في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٞ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾ [المؤمنون:٢١]، لأن سياقها في المؤمنون يختلف عنه هنا، فالعبرة في تولد اللبن من بين فرث ودم في النحل، وأما في المؤمنون فالعبرة في منافع الأنعام العامة.

ومما يرجح معنى بيان الجنس: أن ﴿مِنۡ﴾ سبقها (ما) في قوله ﴿مِّمَّا فِي﴾.(٣)

---

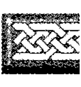
(١) الكشاف ٢/ ٥٧٥.

(٢) التحرير والتنوير ١٤/ ٢٠٠. وعلى ذلك فلا تعلق لها، مع أن كلامه يفهم أنها حالية.

(٣) فقد ذكر ابن هشام من معاني (من)، المعنى الثالث: لبيان الجنس، وكثيراً ما تقع بعد ما ومما ومهما، انظر: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام ١/ ٣٥٤، تحقيق د. مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، ط دار نشر الكتب الإسلامية لاهور ١٣٩٩ هـ، الإتقان للسيوطي ١/ ٣٥٨ ط السعودية.







ولعل ما يؤكد هذا المعنى -أي كون (مِن) بيانية- هو معرفة كيفية نشوء اللبن وتولده عند الأنعام على ما سنذكره بعد قريباً إن شاء الله.

منهج التعامل مع المأثور في التفسير العلمي.

وأما قوله تعالى ﴿بَيْنِ﴾: فإن (دلالتها تقتضي متعدداً، وهو هنا الفرث والدم فيكون مقتضى ظاهر النظم توسط اللبن بينهما).[١]

ولذلك فإننا نجد أكثر المفسرين يستدلون بأثر ابن عباس رضي الله عنه في تفسير الآية، قال: (إذا استقر العلف في الكرش صار أسفله فرثاً وأعلاه دماً، وأوسطه لبناً فيجري الدم في العروق، واللبن في الضروع، ويبقى الفرث كما هو).[٢]

قال الآلوسي: (وروى نحوه عن ابن جبير، فالبينية على حقيقتها وظاهرها).[٣]

وقد ذكر ابن حجر أثر ابن عباس في الفتح بلفظ: (إن الدابة إذا أكلت العلف واستقر في كرشها طبخته، فكان أسفله فرثاً، وأوسطه لبناً وأعلاه دماً، والكبد مسلطة

---

(١) الآلوسي ١٤/ ١٧٨، وبين: توضع للخلل بين شيئين وقد تستعمل ظرفاً وتستعمل اسماً أو كليهما، ولا تستعمل إلا فيما له مسافة كـ: بين البلدين، أو له عدد، اثنين فصاعداً، كـ: بين رجلين، انظر: الإتقان ١/ ٣٢٢ ط السعودية.

(٢) رواه الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، انظر: البغوي ٣/ ٧٥ ط المعرفة، القرطبي ١٠/ ٨٣، زاد المسير ٤/ ٣٣٨، الرازي ٢٠/ ٥٢، النيسابوري ١٤/ ٨٥ هامش ابن جرير ط دار المعرفة، ابن عادل ٢/ ١٩٧، نظم الدرر ١١/ ١٩٤، السراج المنير ٣/ ٣٥٠، أبو السعود ٥/ ١٢٤. وقال ابن حجر في الفتح: (أخرجه القزاز) فتح الباري ١٠/ ٧١ ط دار المعرفة تحقيق محب الدين الخطيب ١٩٩٤.

(٣) الآلوسي ١٤/ ١٧٧، ولم أجد الأثر عن ابن جبير عند غير الآلوسي.

عليه، فتقسم الدم وتجريه في العروق، وتجري اللبن في الضرع، ويبقى الفرث في الكرش وحده).(١)

ولكن تعقب الرازي هذا الأثر ـ وتبعه على ذلك عدد من المفسرين(٢) ـ من حيث المتن، وردوه من حيث المعنى بالحس والمشاهدة والتشريح، مما حمل بعض المفسرين على تأويل أثر ابن عباس بطريقة ينسجم فيها الأثر مع ما توصلت إليه معارفهم في عصرهم، وفسروا هذا النظم القرآني على أساس ذلك.

يقول أبو السعود بعدما ذكر أثر ابن عباس: (ولعل المرادَ به أن أوسطَه يكون مادةَ اللبن وأعلاه مادةَ الدم الذي يغذو البدنَ، لأن عدم تكونهما في الكرش مما لا ريب فيه، بل الكبِدُ تجذب صفاوة الطعام المنهضِمِ في الكرش ويبقى ثفلُه وهو الفرثُ، ثم يُمسكها ريثما يهضمها، فيُحدثُ أخلاطاً أربعة معها مائيةً، فتُميِّز تلك المائيةُ ما زاد على قدر الحاجة من المِرَّتين الصفراءِ والسوداء، وتدفعها إلى الكِلْية والمرارة والطِّحال، ثم توزِّع الباقي على الأعضاء بحسبها، فتجري على كلٍّ حقَّه على ما يليق به بتقدير العزيز العليم، ثم إن كان الحيوانُ أنثى زاد أخلاطَها على قدر غذائها لاستيلاء البردِ والرطوبةِ على مزاجها فيندفع الزائدُ أولا لأجل الجنينِ إلى الرحم، فإذا انفصل انصب ذلك الزائدُ أو بعضُه إلى الضروع، فيبيّض لمجاورته لحومَها الغذوية البِيضِ ويلَذّ طعمُه فيصيرُ لبناً).(٣)

---

(١) فتح الباري ١٠/ ٧١، وذكر أن القزاز أخرجه كما تقدم في الحاشية (٢).

(٢) انظر: الرازي ٢٠/ ٥٣، ابن عادل ٢/ ١٩٨، النيسابوري ١٤/ ٨٥، الآلوسي ١٤/ ١٧٧.

(٣) أبو السعود ٥/ ١٢٤. وما بين [ ] إضافة مني للبيان.





وعلق الآلوسي على كلام أبي السعود فقال:

(والداعي إلى ذلك مخالفة ما يقتضيه الظاهر للحس ولما ذكره الحكماء أهل التشريح، ويؤيد ما ذكروه ما أخبرني به من أثق به من أنه قد شاهد خروج الدم من الضرع بعد اللبن عند المبالغة في الحلب، والله أعلم).[1]

أقول: وقد تقدم نقد سند أثر ابن عباس وتبين أنه مردود سنداً؛ لأنه من رواية أبي صالح عن ابن عباس، وألمحنا باختصار إلى نقد المتن هناك[2]، ونزيد الأمر تفصيلاً هنا في نقد المتن.

يقول الرازي في تفسير تولد اللبن عند الأنعام متعقباً أثر ابن عباس وراداً له:

(بل الحق أن الحيوان إذا تناول الغذاء وصل ذلك العلف إلى معدته إن كان إنساناً، وإلى كرشه إن كان من الأنعام وغيرها، فإذا طبخ وحصل الهضم الأول فيه فما كان منه صافياً انجذب إلى الكبد، وما كان كثيفاً نزل إلى الأمعاء، ثم ذلك الذي يحصل منه في الكبد ينطبخ فيها ويصير دماً، وذلك هو الهضم الثاني، ويكون ذلك الدم مخلوطاً بالصفراء والسوداء وزيادة المائية، أما الصفراء فتذهب إلى المرارة، والسوداء إلى الطحال، والماء إلى الكلية، ومنها إلى المثانة، وأما ذلك الدم فإنه يدخل في الأوردة، وهي العروق النابتة من الكبد، وهناك يحصل الهضم الثالث، وبين الكبد وبين الضرع عروق كثيرة فينصب الدم في تلك العروق إلى الضرع، والضرع لحم غددي رخو أبيض

---

(١) الآلوسي ١٤/ ١٧٧.

(٢) انظر: صـ ٢٧١ من البحث. في موقف المفسر من المأثور.



فيقلب الله تعالى الدم عند انصبابه إلى ذلك اللحم الغددي الرخو الأبيض من صورة الدم إلى صورة اللبن فهذا هو القول الصحيح في كيفية تولد اللبن).[١]

ولا يختلف ما ذكره الرازي كثيراً عما توصلت إليه معارف عصرنا في تفسير تولد اللبن في بطون الأنعام من حيث المعنى العام، اللهم إلا في زيادة التفصيلات وهي مهمة في تفسير الآية وتجلية إشاراتها العلمية في تولد اللبن كما سيأتي.

فالآية في ظاهرها دلت أن اللبن يبتدئ طبخه في البطون، ـ وتقدم أنها المعدات إذ يتوالى الطعام عليها، ثم الأمعاء والكبد -وهي مصانع الفرث والدم-، وبينت الآية أن اللبن استُخلِص من بين الفرث والدم.

ولكن يتطرق للباحث عدة أسئلة أثارها نظم الآية، وهي:

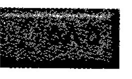
هل عطف الدم على الفرث يفيد الترتيب أم الجمع؟.

وهل تحتمل الآية أن نقول: إن المعنى: يخرج اللبن مستخلصاً من بين الفرث ومن بين الدم، أي: أن نقدر (بين) بعد العطف، كما يقول الآلوسي بعدما ذكر خلاصة كلام الرازي: (وحينئذ فالمراد أن اللبن **إنما يحصل من بين أجزاء الفرث، ثم من بين أجزاء الدم فالبينية على هذا مجازية**)[٢]، فالواو على ذلك للترتيب، مع جواز التقدير الذي أشرنا إليه، والقرينة في ذلك هي شرح تولد اللبن على النحو الذي ذكره الرازي والآلوسي.

---

(١) الرازي ٢٠/ ٥٣، وقد تقدم أن إطلاق البطن على الكرش اقتصار على مفرد من عام، لا يؤاخذ عليه الرازي لأنه اعتمد على ما توصلت إليه معارفه في زمنهم. وربما كان اعتماده في ذلك على اللغة، ولكن تبين لنا اليوم أن الجمع فيه إشارة إلى جمع المعدات في البطن، ولعل هذا يصلح مثالاً لاشتراك العلوم في خدمة توسيع الدلالة اللغوية، والله أعلم.

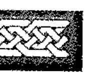
(٢) الآلوسي ١٤/ ١٧٨.



الواقع إن معرفة جواب السؤالين يتطلب ذكر ما توصل إليه المختصون في ذكر **مراحل تولد اللبن**، ويتطلب أيضاً **معرفة أهم خصائص اللبن ومصادر تركيبه**، وسأذكرها هنا مختصراً بما يخدم البحث:

*** مراحل تولد اللبن:**

بعد هضم الطعام وتحويل المواد الغذائية المعقدة التركيب إلى مواد أبسط منها سهلة الامتصاص، وذلك عن طريق الفم والمعدات، يصل الغذاء إلى الأمعاء الدقيقة، فيمتزج بالصفراء وعصارة البنكرياس وإفرازات الغدد المعوية، ويتحول إلى مادة لبنية معدة للامتصاص تسمى الكيلوس، وفي الأمعاء الدقيقة تبدأ عملية الامتصاص، وهي **استخلاص الغذاء المهضوم في حالته السائلة ونقله إلى مجرى الدم واللمف**، فتمتص الأمعاء الدقيقة بواسطة الخلايا الطلائية الاسطوانية ـ التي تتركب منها الخمائل ـ معظم الغذاء المهضوم، وتوجد بالخمائل الشعيرات الدموية، والأوعية اللمفاوية، فتقوم الشعيرات الدموية بحمل المواد السكرية والزلالية المهضومة، وتقوم اللمفاوية بحمل الدهنية المهضومة، وفي الأمعاء الغليظة يتم امتصاص بواقي الغذاء والماء، فيصل ما تحمله الشعيرات الدموية - عن طريق الوريد المعوي ثم الأوردة الطحالية والبنكرياسية- إلى الكبد؛ فيختزن السكر ثم يذهب إلى القلب، وتحمل الأوعية اللمفاوية الدهون إلى القناة الصدرية ثم إلى القلب، ثم يتأكسد عندما يلامس الهواء في الرئتين، ثم يتوزع في الأنسجة عن طريق الشرايين الممتدة خلال الجسم، ومن هذه الشرايين شريان كبير مسمى بالأورطة، إذ يمتد فرع منه إلى أسفل لداخل الضرع، ويحيط بالضرع أيضاً شرايين كثيرة مشكلة شبكة كبيرة من الشعيرات التي تمد أسناخ



الغدة اللبنية بالدم، وتنضم إلى الأسناخ أيضاً ضفائر كبيرة من الأوردة الدموية التي يتدفق من خلالها الدم بسرعة ضعيفة، كي تأمن التروية الغنية للضرع، وتتهيّأ الظروف المناسبة لتكوين الحليب، فالأبقار تحتاج حتى تنتج ليتراً واحداً من الحليب إلى (٥٠٠ ليتر من الدم)، وحوالي (٢٠-٣٠٪) من كمية الدم التي يضخها القلب في دقيقة واحدة تسخر خلال فترة الحلابة لخدمة الغدة اللبنية.[١]

أما عملية تحويل بعض مكونات الدم والفرث واستحالته إلى لبن عن طريق الشعيرات الدموية التي على سطح الحويصلة؛ فهي غير معروفة بالضبط.[٢]

وإنما يكتفي الأطباء البيطريون بتعريف تكوين وإفراز الدم:

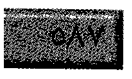
إنها عملية فسيولوجية معقدة تعتمد الصفات البيلوجية لأجهزة الحيوان وحالته من ناحية التربية والغذاء والإدارة.[٣]

---

(١) انظر: كتاب: إنتاج اللبن واللحم، د مصطفى كمال عمر حمادة من صـ ١٧١، إلى صـ ١٧٣ وينظر الصفحات: ١٧٥، ١٧٧، ط دار المطبوعات الجديدة بمصر د.ت، الطب البيطري د. إبراهيم نجيب من صـ٣٩، إلى صـ٤٦، المجترات، تأليف: د. ياسين المصري، د. شحادة قصقوص ص ٨٨، وينظر أيضاً الصفحات ٥٠، ٥٦، ٨٠، منشورات جامعة دمشق وكتاب: التهابات الضرع عند الأبقار، إعداد عدد من الباحثين صفحة ٢٨ ط: الوكالة الألمانية للتعاون التقني المشترك، دمشق ١٩٩٨.

(٢) انظر: مبادئ تكنلوجيا الألبان، إعداد مجموعة من الدكاترة المدرسين في كلية الزراعة في جامعة الإسكندرية صـ١٧، ط دار المطبوعات الجديدة مصر ١٩٧٥.

(٣) انظر: إنتاج اللبن واللحم صـ١٧٥، مبادئ تكنولوجيا الألبان صـ١٦.



* خصائص اللبن ومصادر تركيبه:

أما ما يتعلق بأهم خصائص اللبن ومصادر تركيبه؛ فيذكر المختصون في التركيب الكيميائي لِلَّبن: إنَّه يحتوي على أنواع مختلفة من **السكريات** بنسب مختلفة، ويعتبر **سكر اللبن** من أهمها، وهو يتكون من وحدة من سكر العنب (الجلوكوز) وهو مصدر سكر اللبن، وأخرى من **الجلاكتوز** مرتبطين برباط مقلوب، أما الجلوكوز فهو في الأساس من **محتويات الأمعاء** قبل أن يتم امتصاصه، **ثم يمتصه الدم** ويرتبط بالجلاكتوز بحيث لا يمكن فصلهما أبداً.

أي: **إن تكوين سكر اللبن (السكريات) حاصل من الفرث والدم**.(١)

ويحتوي اللبن على أنواع عدة من **البروتينات**، ويدخل في تركيبها الأحماض الأمينية، وهذه الأحماض تستخلص إما من **بروتينات الدم**، أو تصنعها البكتريا في الأمعاء ثم تنتقل بواسطة الدم، **أي: إن بروتينات اللبن حاصل من الفرث والدم**.(٢)

كما يحتوي اللبن على (**دهن اللبن**) ويتكون من مركبات أهمها: (الجليسيرول والأحماض الدهنية) **وتؤخذ من كلٍّ من الدم والفرث مباشرة أو غير مباشرة**.

---

(١) انظر: إعجاز القرآن في التركيب الكيميائي للَّبن، أ.د. أحمد محمد الوصيف أستاذ الكيمياء الحيوية جامعة المنصورة، صـ٣٣، ط رابطة العالم الإسلامي، هيئة الإعجاز العلمي، الثانية ١٤٢١، وينظر للاستزادة والتوسع كتاب: الألبان وتحليلها، د. إبراهيم الحجراوي، ط مكتبة الأنجلو المصرية، الأولى، د.ت.

(٢) انظر: المصدر السابق صـ٣٦.

فالأحماض الدهنية (القصيرة السلسلة الكربونية) يتكون من الخل المتكون في الأمعاء بسبب عملية التخمر المعوي للسكريات، وينتقل بواسطة الدورة الدموية إلى الثدي.

وأما الأحماض الدهنية المستمدة من الأنسجة **فتؤخذ من الفرث مباشرة**.[١]

كما يحتوي اللبن على **المعادن الرئيسية والثانوية**، فأما الكالسيوم والفوسفور **مصدرهما الفرث**، وفسفور بروتين اللبن **مصدره من الفرث والدم**، وثمة معادن أخرى ذات تركيز ضئيل في اللبن **تؤخذ مباشرة من الفرث**.[٢]

وأما **فيتامينات اللبن فإن جميعها مستخلصة من الفرث**.[٣]

وبذلك نجد أن مكونات اللبن تأتي إما من الفرث، أو من الدم، أو منهما معاً.

وفي ضوء ما تقدم؛ يمكن تفسير الآية ومعرفة معنى الواو فيها على اعتبارين:

- **الأول**: على اعتبار مراحل تكوين اللبن الأساسية، فإنه يتكون أولاً: الفرث، ثم يتكون الدم من بين الفرث، ثم يتكون اللبن من بين الدم، فتكون الواو على ذلك تعني الترتيب. أي: يخرج ابتداءً من بين فرث، ثم يخرج من بين دم.

- **الثاني**: تفسير الآية على اعتبار مكونات اللبن، فيكون المعنى: من بين مكونات الفرث، ومن بين مكونات الدم، أو من بين مكوناتهما معاً يتولد اللبن الذي نسقيكموه، وعلى هذا تكون الواو أفادت معنى مطلق الجمع مع التخيير، والله أعلم.

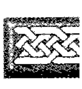
---

(١) انظر: المصدر السابق من صـ٣٧، إلى صـ ٤١.

(٢) انظر: المصدر السابق صـ ٤٢.

(٣) انظر: المصدر السابق صـ ٤٢، ٤٣.





ويتبين لنا أيضاً جواز احتمال تقدير (من بين دم) بعد الواو، فيصير تفسير الآية: نسقيكم مما يتولد ابتداءً في بطون الأنعام، وبيان هذا التولد: من بين مكونات الفرث، ومن بين مكونات الدم، ومن بين مكوناتهما معاً لبناً خالصاً، والله أعلم.

الثالث والرابع: من الصفات -: قوله تعالى: ﴿لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾.

أما الثالث: ففي قوله تعالى: ﴿خَالِصًا﴾ يقول ابن جرير: (خلص من مخالطة الدم والفرث، فلم يختلطا به)(١)، يقول ابن كثير: (أي: يتخلص اللبن بياضه وطعمه وحلاوته من بين فرث ودم في باطن الحيوان).(٢)

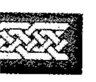
ويقول أبو السعود: (خَالِصًا عن شائبة ما في الدم والفرثِ من الأوصاف ببرزخٍ من القدرة القاهرة الحاجزةِ عن بغي أحدِهما عليه مع كونهما مكتنفين له).(٣)

حول هذه الأقوال تدور عبارات المفسرين، ولهذا التفسير دلالته العلمية في ضوء ما تقدم شرحه في مراحل تولد اللبن وتركيبه، ويرى الباحث أن دلالة قوله تعالى: ﴿خَالِصًا﴾ تحمل إشارة إلى عملية استخلاص تحصل في غدد الثدي المسؤولة عن إنتاج اللبن، بالإضافة إلى إشارتها إلى عملية استخلاص متقدمة في المعدات والأمعاء الدقيقة والغليظة، وبذلك تكون دلالة المفردة القرآنية شملت حالتي الاستخلاص من البطون ومن الدم ومن الفرث، وهذا الاستخلاص يشمل الامتصاص والتهيئة، فاللبن يخرج

(١) ابن جرير ١٧/ ٢٤٠ ط الرسالة.

(٢) ابن كثير ٤/ ٥٨١ ط طيبة.

(٣) أبو السعود ٥/ ١٢٥.



من الضرع مستخلصاً من الفرث والدم لا ترى فيه شائبة فرث ولا دم نقياً مما يضاده أو يعكره كما تقدم في كلام المفسرين، وهذه تسمّى عند الأطباء البيطريين بالاستحالة، وقد تقدم بيان ذلك في مراحل تولد اللبن، والله أعلم.

أما قوله تعالى: ﴿سَآئِغًا﴾:

فيقول ابن جرير:

(يسوغ لمن شربه فلا يَغَصّ به كما يَغَصّ الغاصّ ببعض ما يأكله من الأطعمة. وقيل: إنه لم يَغصّ أحد باللبن قَطُّ).[1]

فالله تعالى أحاله من بين الفرث والدم – وهما غير مستساغين –، وجعله مستساغاً لا تعافه النفس، وينحدر إلى الحلق بسهولة ويستطيب الناس طعمه وحلاوته، ويستسيغه الجسم لما يحتويه من أساسيات الغذاء الضرورية له.

وقد جعل بعضهم هذه المفردة ﴿سَآئِغًا﴾ تحمل الدلالة على وجود سكر اللبن[2]، وهو محتمل من حيث أنه يعطي حلاوة للبن فيجعله مستساغاً للشرب، ولكن يرى الباحث أن المفردة أعم من ذلك، واللغة تدل على أكثر من كونه مستطاباً للشرب، ولا ندري ما ستكشفه الأبحاث والتحاليل من خصائص اللبن ما يمكن دخوله تحت دلالة هذه المفردة، كسهولة انحداره في الحلق فلا يغص شاربه، وفي سريانه في الجسم إذ لا تجد جسماً يرفض تقبل اللبن وهضم ما فيه، والله أعلم.

---

(١) ابن جرير ١٧/ ٢٤٠ ط الرسالة. ابن كثير ٤/ ٥٨١ ط طيبة.

(٢) انظر: إعجاز القرآن في التركيب الكيميائي للبن صـ ٤٣.



وفي حديث ابن عباس رضي الله عنه أنه أُتِيَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِلَبَنٍ فَشَرِبَ فَقَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا أَكَلَ أَحَدُكُمْ طَعَامًا فَلْيَقُلْ اللهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِيهِ وَأَطْعِمْنَا خَيْرًا مِنْهُ، وَإِذَا سُقِيَ لَبَنًا فَلْيَقُلْ اللهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِيهِ وَزِدْنَا مِنْهُ، فَإِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ يُجْزِئُ مِنْ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ إِلَّا اللَّبَنُ».(١)

إنّ هذا الحديث مع ما تحمله مفردة: ﴿سَآئِغًا﴾ في الآية هنا ليفتح الباب لدراسات تحليلية للبن الأنعام وتجلية ما يحتويه من خصائص وفوائد يكتب فيها السبق للمسلمين.

يقول ابن عاشور: (وهذا الوصف العجيب من معجزات القرآن العلمية، إذ هو وصف لم يكن لأحد من العرب يومئذٍ أن يعرف دقائق تكوينه ، ولا أن يأتي على وصفه بما لو وَصف به العالم الطبيعي لم يصفه بأوجز من هذا وأجمعَ).(٢)

والتنكير في قوله تعالى: ﴿فَرْثٍ﴾، ﴿وَدَمٍ﴾، ﴿لَّبَنًا﴾، ﴿خَالِصًا﴾، ﴿سَآئِغًا﴾، أفاد العموم والاختلاف في النوع، أي أن تولد اللبن لا يختص بغذاء دون غذاء، وإنما يتولد اللبن باختلاف عموم الغذاء المأكول وجودته، أي: إن اختلاف الغذاء يؤدي لاختلاف صفة وتركيب الدم والفرث، وهذا بدوره يؤدي إلى اختلاف تركيبة اللبن

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن كتاب الأشربة، باب ما يقول إذا شرب اللبن رقم (٣٢٤٢)، والترمذي في كتاب الدعوات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما يقول إذا أكل طعاماً رقم (٣٣٧٧) وحسنه، وابن ماجه في كتاب الأطعمة، باب اللبن (٣٣١٣)، وعنده بلفظ: «فَإِنِّي لَا أَعْلَمُ مَا يُجْزِئُ مِنْ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ إِلَّا اللَّبَنُ».

(٢) التحرير والتنوير ١٤/ ٢٠١.



وجودته لأنه متولد منهما، واختلاف صفة اللبن وتركيبه يؤدي لاختلاف درجات كونه خالصاً وسائغاً.

ومن المعلوم أن جودة اللبن لا تكون على صفة واحدة عند الأنعام وإنما تختلف باختلاف نوع الغذاء (المرعى)، وصحة الأنعام وإدارتها والله أعلم.

وقد اعتبر بعض المفسرين المعاصرين هذه الآية من دلائل الإعجاز العلمي في القرآن الكريم فقال أنها:

(معجزة زائدة على الإعجاز العام الموجود في هذا القرآن، وهذه المعجزة تتمثل في كون القرآن تحدث عن موضوع لم يعرف بمنتهى الدقة العلمية على ما حدث به القرآن إلا بعد قرون).[1]

ويرى الباحث أنه يمكن اعتبار الآية كذلك، إن كانت المعلومات التي فسرت الآية بها -كما تقدم- من الحقائق الثابتة التي أقر المختصون بعدم تغيرها بحكم تراكم التجارب والأبحاث، وأما زيادة المعلومات واكتشاف شيء جديد لا يعني إلغاء ما سبق، وقد أكد لي عدد من المختصين صحة المعلومات وثبوتها واعتبارها من المسلمات عندهم -إضافة لتأكيدات المراجع المختلفة والمؤلفة في أزمنة متقدمة-، فإن كان الأمر كذلك فإن الآية فيها إعجاز علمي من حيث سبقها -كما تقدم في تعريف الإعجاز العلمي- إلى الدلالة لتكوين اللبن بدقة وأسلوب معجز؛ خاصة أنها نزلت في زمن كانت مثل هذه الأمور من المغيبات، بل ربما تكون من أسباب تكذيب القرآن من حيث استبعاد تصور تكوين اللبن الذي يشربونه من الدم الذي تعافه النفس والفرث الذي

---

(١) الأساس في التفسير سعيد حوى ٦/ ٢٩٦٥.



تستقذره الطباع، فثبوت ما أشارت إليه الآية يقيم الحجة على المنكرين لربانية القرآن والوحي في أن هذا الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين، والله أعلم.[1]

وفي الآية دلالة علمية نفسية أخرى، وهي في أثر النظر والتفكر السليم في تنمية الشخصية النفسية الصحيحة للإنسان، إذ جعلت معرفة كيفية تولد اللبن عبرة، وتقدم في المعنى اللغوي للعبرة أنها تجعل صاحبها ينتقل من حال إلى حال، فالمنكر المستكبر للرسالة والوحي في حال كفر وجحود، والبحث والنظر في هذه الظاهرة التي لا تنفك عن حياة الإنسان تجعل هذا المنكر المستكبر يبدأ بالتحول إلى حال أخرى ولو بالتدرج، إذ لا يد أن يؤدي التمعن فيها إلى تفتيق العقل على أسئلة تعصف بعقله، وتلقي في فكره بذرةً يكون توالي الظواهر الكونية في القرآن ماؤها، فتنموا لتثمر الإيمان بالخالق الواحد القدير الحكيم العليم، وهذا المعنى استفدناه من دلالة قوله تعالى: ﴿لَعِبْرَةً﴾ استناداً للأصل اللغوي كما تقدم.

وبذلك تكون الآية ارتبطت بمقصد السورة مع محاورها العامة بالإضافة لدلالتها العلمية وعجائب ما تضمنته في نظمها المعجز.

ولما بين عجائب خلقه ودليل قدرته وعظيم منته في تولد اللبن، وقد سبقها نعمة الماء؛ -وهما من مشروبات الإنسان الأساسية-؛ ذكر بعدها نعمة فيها عجائب خفية ومنة عظيمة ليست دون اللبن أهمية في حياة الإنسان وصلاح معيشته، وهي من المشروبات أيضاً، بل من هذه المشروبات ما هو أنفس عند المشركين من اللبن، فقال

---

(١) وقد ذكر الرازي سبعة أوجه أخرى فيما تضمنته الآية من العبر والعجائب والدلائل على وجود الله ووحدانيته، وعلى ثبوت البعث والحشر فلتنظر في محلها، الرازي ٢٠/ ٥٤-٥٥.

تعـالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل:٦٧].

فهو إذن (عطف منةٍ على منةٍ).[١]

يقول ابن جرير: (ولكم أيضًا أيها الناس عِبرةٌ فيما نسقيكم من ثمرات النخيل والأعناب ما تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً، مع ما نسقيكم من بطون الأنعام من اللبن الخارج من بين الفرث والدم).[٢]

و«من»: الأولى ابتدائية، وجملة: ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾ في موضع الحال[٣]، أي نسقيكم ابتداءً من ثمرات النخيل والأعناب، حال كونكم تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً.

(ولما كان لهم مدخل في اتخاذ ما ذكر منه بخلاف اللبن الذي لا صنع لهم فيه أصلاً، أسند الأمر إليهم)[٤]، فقال: ﴿تَتَّخِذُونَ﴾، (أي: باصطناع منكم وعلاج).[٥]

---

(١) التحرير والتنوير ١٤/ ٢٠٢.

(٢) ابن جرير ١٧/ ٢٤٠ ط الرسالة. وعلى تقدير نسقيكم أيضاً ذهب أكثر المفسرين، انظر: الكشاف ٢/ ٥٧٥، البحر ٥/ ٥١٠، التحرير والتنوير ١٤/ ٢٠٢.وانظر في أوجه تقدير تعلق الجار والمجرور: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ﴾ في الدر المصون ٧/ ٢٥٨.

(٣) انظر: التحرير والتنوير ١٤/ ٢٠٣.

(٤) نظم الدرر ١١/ ١٩٤.

(٥) نظم الدرر ١١/ ١٩٤.



يقول ابن الجوزي: (والكناية في ﴿حَسَنًا﴾ عائدة على «ما» المضمرة. وقال الأخفش: إنما لم يقل: منهما، لأنه أضمر الشيء، كأنه قال: ومنها شيء تتخذون منه سَكَراً).[1]

وعلى هذا يصير تفسير الآية في مجملها: إن لكم لعبرة أيضاً فيما نسقيكم ابتداءً من ثمرات النخيل والأعناب شيئاً حال كونكم تتخذون من هذا الشيء سكراً ورزقاً حسناً، وعليه فإن «من» الثانية بيان للنكرة الموصوفة المقدرة والله أعلم.

وتقدم أن الراجح لدى الباحث في تفسير السكر أنه الطعم عموماً؛ وهو يشمل الأقوال الأخرى سوى الخمر، لأنه حرِّم؛ فتكون الآية من العام المخصوص، ونحن نفسر الآية على ما استقر عليه الحكم الشرعي، وإن كان داخلاً في الآية قبل التحريم من حيث اعتقاد المشركين بأنه منفعة.

وقد فسر الرزق الحسن بالرزق الحلال الطيب، أي: ما يبس منهما من تمر وزبيب، وما عمل منهما من طلاء -وهو الدِّبس -وخل ونبيذ، حلال يشرب قبل أن يشتد، كما وردت السنة بذلك[2]، وذلك مقابلة لتفسير السكر بالخمر أو بما حرم، فيكون من باب عطف المتغايرات[3].

وإلى ذلك ذهب من قال بنسخ الآية.

---

(١) زاد المسير ٤/ ٣٣٨.

(٢) انظر: ابن كثير ٤/ ٥٨١. ط طيبة وينظر الدر المنثور ٤/ ١٣٦. القرطبي ١٠/ ٨٥.

(٣) انظر: الدر المصون ٧/ ٢٦١.

ولكن ثمة آراء أخرى ذكرناها قبل -في بحث الناسخ والمنسوخ في سورة النحل-، ونزيد عليها هنا بعض الآراء، يقول ابن عاشور: (والرزق: الطعام، ووصف بـ ﴿حَسَنًا ﴾، لما فيه من المنافع، وذلك التمر والعنب لأنهما حلوان لذيذان يؤكلان رطبين ويابسين قابلان للادخار، ومن أحوال عصير العنب أن يصير خلاً ورُبّاً).[١]

وذكر البغوي عن الشعبي قال: (السَّكَرُ: ما شَرِبْتَ، والرِّزق الحسن: ما أَكَلْتَ).[٢]

أقول: الآية في سياق الامتنان المتضمن للاستدلال على الإلهيات، ومنافعُ استخدام ثمرات النخيل والعنب متعددة، وأكثرها ما كان معهوداً عندهم من الأشربة، ولما ترجح لدينا أن السكر هو كل مطعوم حلال - بعد استقرار الأحكام وبيان حرمة الخمر الذي يدخل في عموم هذا المطعوم -، فتكون المنة بأن الله تعالى هيأ لهم هذه الثمار على الوجه الذي ينتفعون به في معيشتهم أكلاً وشرباً؛ على الطريقة الحلال التي بينها الله تعالى لهم فيما بعد في مجتمع المدينة المنورة ذات التشريع، ونكّرت ﴿وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾ لاختلاف أنواع الأشربة التي كانت تتخذ من هذه الثمار.

وأما الرزق الحسن فما تقدم من تفسيرها أنها المأكولات أو منافع الثمار المذكورة في الآية حين تؤكل ولا تعصر، إنما هو من المعاني التي يحتملها النظم في هذا السياق، وقد يحتمل اللفظ منافع أخرى كالبيع والشراء، فإن المتتبع لمادة (رزق) في القرآن يجد أنها تأتي إما في سياق الأكل والطعام -وهو أغلبها- أو في سياق العطاء العام في الدنيا والآخرة، أو بمعنى الغذاء، يقول الراغب: (الرزق يقال للعطاء الجاري تارة دنيوياً



---

(١) التحرير والتنوير ١٤/ ٢٠٣. والرُّبُّ: دِبْسُ كل ثمرة. انظر: اللسان ١/ ٤٠٣ ربب.

(٢) البغوي ٥/ ٢٨ ط طيبة، وأورده صاحب باهر البرهان ٢/ ٨٠٥ عن الحسن.

كان أم أخروياً، وللنصيب تارة، ولما يصل إلى الجوف ويتغذى به تارة.. ﴿ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ﴾ [ق: ١٠، ١١] قيل عنى به الأغذية، ويمكن أن يحمل على العموم فيما يؤكل ويلبس ويستعمل)[١]، ولذلك فإن الباحث يرى حمل الآية هنا على العموم، وذلك أولى وأنسب لسياق الامتنان الحامل لبراهين التوحيد، وموافقة لدلالة التنكير في سياق الامتنان على العموم، فيصير المعنى: تتخذون من ثمرات النخيل والأعناب عصائر ومشروبات أحلها الله لكم، وتنتفعون بها حلالاً فيما يؤكل ويستعمل وغذاءً قدره الله تعالى، ومن المنافع المحتملة التجارة بهما لكونهما من جملة العطاء الجاري في الدنيا، والله أعلم.

وقد تقدم أن ثمر النخيل -الرطب والتمر-، والعنب يحويان على منافع كثيرة مشتركة، كما ينفرد كل واحد منهما بخصائص تكمل الآخر، فيعتبران غذاء متكاملاً يحتويان على ما يحتاجه الجسم من السكر والحديد وغير ذلك[٢]، هذا بالإضافة إلى أنهما ينبتان في بيئة مشتركة، فالنخيل والعنب ينموان بشكل أفضل في المناطق الحارة والمعتدلة ويتحملان الجفاف وتغير الحرارة[٣]، وهذه إشارة لطيفة من لطائف إشارات القرآن في بيان غلبة اقتران النخيل والأعناب في الآيات القرآنية، والله أعلم.

---

(١) المفردات صـ١٩٤.

(٢) انظر: صـ٣٤٨، ٣٤٩ من البحث. وانظر للاستزادة في غذائهما كتاب الغذاء لا الدواء د. صبري القباني من صـ٩٦، إلى صـ١٠٤عن التمر، ومن صـ٥٤، إلى صـ٥٧ عن العنب وفوائد عصيره. ط دار العلم للملايين الثامنة والعشرون ٢٠٠٠.

(٣) انظر: موسوعة عالم النبات صـ ١٧٨. ونخلتك إعداد يوسف محمد النصف صـ ٦٦ فما بعد ط الكويت الخامسة ١٩٩٧م.

يقول البقاعي: (ولتقارب آيتي الأنعام والأشجار جمعهما سبحانه فقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾، أي: الأمر العظيم من هذه المنافع ﴿لَآيَةً﴾ ولوضوح أمرهما في كمال قدرة الخالق ووحدانيته قال تعالى: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾)[1]. أي: (يستعملون عقولهم في الآيات بالنظر والتأمل).[2]

يقول ابن عاشور: (والإشارة إلى جميع ما ذكر من نعمة سقي الألبان وسقي السكر وطعم الثمر، واختير وصف العقل هنا لأن دلالة تكوين ألبان الأنعام على حكمة الله تعالى يحتاج إلى تدبّر فيها وصفته الآية هنا، وليس هو ببديهي كدلالة المطر كما تقدم).[3]

أي من كان عاقلاً علم بالضرورة أن هذه المنافع وأن هذا التقدير الذي قدِّرت عليه لا يقدر عليها إلا الله تعالى؛ فيحتجَّ بحصولها على وجود الله القادر الحكيم.[4]

---

(١) نظم الدرر ١١/ ١٩٦.

(٢) أبو السعود ٥/ ١٢٥.

(٣) التحرير والتنوير ١٤/ ٢٠٤.

(٤) انظر: الرازي ٢٠/ ٥٦، ابن عادل ٢/ ٢٠٩.



عجائب النحل

٢٢- ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

*** مناسبة الآيات:**

بعد أن ذكر القرآن نعمة المطر وما تحمله من حياة الأرض، ذكر الأنعام من الحيوانات وما تنتجه من منافع، ثم ذكر النبات وما أودع الله فيها من الخيرات والمنافع، ثم ذكر من الحشرات النحل وما انطوت عليه من العجائب في خلقها وسلوكها وإنتاجها؛ لتجد لوحة من منظومة حياتية مترابطة يكتمل فيها التسخير لمصلحة الإنسان الذي كرمه الله، فالمطر يحيي الأرض وينبت الزرع والثمار، وتستفيد الحيوانات والحشرات من الزرع والثمر كما يستفيد الإنسان، فتأكل الأنعام مما ينبته المطر من الزرع فتدر لبناً خالصاً سائغاً، وتأكل النحلة من الثمرات فتخرج شراباً مختلفاً ألوانه فيه شفاء للناس لينتفع الإنسان بذلك كله، فاكتملت العناية الربانية بهذا المخلوق الذي جحد نعمة ربه، والله أعلم.

أما عن وجه مناسبة تأخير ذكر النحل عن الأنعام وما تقدم عليها من النعم؛ يقول البقاعي: (ولما كان أمر النحل في الدلالة على تمام القدرة وكمال الحكمة أعجب مما تقدم وأنفس؛ ثلث به وأخره لأنه أقل الثلاثة عندهم، وغير الأسلوب وجعله من وحيه إيماء إلى ما فيه من غريب الأمر وبديع الشأن..).[1]

---

(١) نظم الدرر ١١/ ١٩٦. وللبقاعي في ختام تفسير الآيات كلام طويل نافع ونفيس ينظر في محله.



يقول ابن عاشور: (عطف عبرة على عبرة، ومنَّة على منَّة، وغُيِّر أسلوب الاعتبار لما في هذه العبرة من تنبيه على عظيم حكمة الله تعالى، إذ أودع في خلقة الحشرة الضعيفة هذه الصنعة وجعل فيها هذه المنفعة كما أودع في الأنعام ألبانها وأودع في ثمرات النخيل والأعناب شراباً، وكان ما في بطون النحل وسطاً بين ما في بطون الأنعام وما في قلب الثمار، فإن النحل تمحص ما في الثمرات والأنوار من المواد السكرية العسلية ثم يخرجه عسلاً كما يخرج اللبن من خلاصة المرعى).[١]

والمتأمل في الآيات يجد ملحظاً آخر في هذا الترتيب وهو أن الله تعالى تدرج بهم من المشاهد القريبة إلى أذهانهم والأسهل في النظر والاعتبار، إلى الأقل معاشرة ومشاهدة للغالب والأعقد في الخلقة والتركيب، وكأن الله ينبههم إلى عجائب نظام المخلوقات بأنواعها ليدلل أن هذا النظام لا يكون ولا يستمر بدون خالق حكيم خبير لطيف، والله أعلم.

* غريب الآيات:

أَوْحَى: قال ابن فارس: (الواو والحاء والحرف المعتل، أصل يدل على إلقاء علم في إخفاء أو غيره، وكل ما في باب الوحي فراجع إلى هذا الأصل الذي ذكرناه).[٢]

وفي المفردات: (أصل الوحي الإشارة السريعة)[٣]، ولا تعارض بين قول الراغب وابن فارس فالإشارة السريعة داخلة في جملة الإشارة الدالة على العلم.

---

(١) التحرير والتنوير ١٤/ ٢٠٤.

(٢) معجم مقاييس اللغة ٦/ ٩٣ مادة: وحى.

(٣) المفردات صـ ٥٣٦.

ويمكننا حصر الأقوال الواردة في معنى الوحي في الآية هنا بـ: الإلهام[1]، الأمر[2]، التسخير[3]، أي: أنه يأتي بمعنى خاص في حق الحيوانات.[4]

ويمكن الجمع بين هذه الأقوال بأن الله أمرها أمراً كونياً فطرها عليه، وعلمها سبيل تنفيذ هذا الأمر وسخر لها من الأدوات ما يسهل لها أسباب عملية صنع ما يخرج من بطونها.

يقول الغزنوي: (ألهمها، أي جعله في طباعها ومكنها منه حتى صارت سبله لها مذللة سهلة).[5]

يقول ابن عاشور: (وأطلق الوحي هنا على التكوين الخفي الذي أودعه الله في طبيعة النحل بحيث تنساق إلى عمل منظم مرتب بعضه على بعض لا يختلف فيه

(١) وهو قول ابن عباس ومجاهد والضحاك ومقاتل كما في زاد المسير ٤/ ٣٣٩، اعتمده ابن كثير صـ ٧٤٢ ط الرسالة وقرن الإلهام بالهداية والإرشاد، ونقله ابن عادل ٢/ ٢١٠ عن أبي العباس المهدوي، وقال القرطبي ١٠/ ٨٨: (لا خلاف بين المتأولين أن الوحي هنا بمعنى الإلهام)، واعتمد هذا المعنى النسفي ٢/ ٢٩٢ ط دار الفكر بيروت.

(٢) رواه العوفي عن ابن عباس وروى مجاهد عن أبيه قال: أرسل إليها كما في زاد المسير ٤/ ٣٣٩.

(٣) ذكره الراغب في المفردات صـ ٥٣٦.

(٤) وهو قول ابن عادل ٢/ ٢١١.

(٥) باهر البرهان في معاني مشكلات القرآن ٢/ ٨٠٦.

الغزنوي: هو محمود بن أبي الحسن بن الحسين النيسابوري، الملقب «بيان الحق»، أبو الفضل، محدّث مقرئ، مفسر من أكابر فقهاء الحنابلة، له تفسير باهر القرآن (ت ٥٩٩هـ). انظر: طبقات المفسرين للداودي ٢/ ٢٩١، معجم المفسرين لنويهض ٢/ ٦٥٤.

آحادها تشبيهاً للإلهام بكلام خفي يتضمن ذلك الترتيب الشبيه بعمل المتعلم بتعليم للمعلم، أو المؤتمر بإرشاد الآمر الذي تلقاه سراً، فإطلاق الوحي استعارة تمثيلية).(١)

يَعْرِشُونَ: قال ابن فارس: (العين والراء والشين أصل صحيح يدل على ارتفاع في شيء مبني ، ثم يستعار في غير ذلك)(٢)، ولذلك يقال لكل فياء يستظل به عرش وعريش.

وأما ما ورد في معنى يعرشون في التفسير:

أي: ما يعرشون من الكروم.(٣)

أنها سقوف البيوت(٤)، أنها كل شيء عرش من كرم أو نبات أو سقف.(٥)

أنه ما يبنونه للنحل من الأماكن التي تلقي فيها العسل ولولا التسخير ما كانت تأوي إليها.(٦)

ويدخل في القول الأخير خلايا النحل التي تبنى في البيوت.(٧)

---

(١) التحرير والتنوير ١٤/ ٢٠٥. والاستعارة التمثيلية هي: اللفظ المركب المستعمل في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقي. انظر: البيان في ضوء أساليب القرآن صـ ١٩٠ د. عبد الفتاح لاشين ط دار المعارف مصر الثالثة ١٩٩٢م.

(٢) معجم مقاييس اللغة ٤/ ٢٦٤، وانظر: المفردات صـ ٣٣٢ ، مادة: عرش.

(٣) وهو قول ابن زيد كما في زاد المسير ٤/ ٣٣٩.

(٤) قاله الفراء كما في زاد المسير٤/ ٣٣٩ .

(٥) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٣٣٩ .

(٦) ذكر هذا القول البغوي في التفسير٣/ ٧٦ وابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٣٣٩.وذكر نحوه الرازي٢٠/ ٥٧.

(٧) ذكر هذا القول ابن عادل ٢/ ٢١٣.





وتجمتع هذه الأقوال في قول واحد هو أن معنى يعرشون: ما يصنع للنحل من بيوت سواء من كرم أو نبات أو سقف أو قضبان، سواء في البيوت أو ما يدخل في تعهدات الناس ورعايتهم كالمزارع والحدائق ونحوها، لأن ما ورد في هذه الأقوال إنما جاء على سبيل المثال، والله أعلم.

الثمرات: جمع ثمرة وهي مؤنث، والثمر مذكر جمعه ثمار، وهُوَ اسم لكل ما يتطعم من أعمال الشجر، أو هو الْحَمْلُ الَّذِي تُخْرِجُهُ الشَّجَرَةُ سَوَاءٌ أُكِلَ أم لَا، فَيُقَالُ ثَمَرُ الْأَرَاكِ وَثَمَرُ الْعَوْسَجِ وَثَمَرُ الدَّوْمِ وَهُوَ الْـمُقْلُ، كَمَا يُقَالُ ثَمَرُ النَّخْلِ وَثَمَرُ الْعِنَبِ.

قَالَ الْأَزْهَرِيُّ: (وَأَثْمَرَ الشَّجَرُ أَطْلَعَ ثَمَرُهُ أَوَّلَ مَا يُخْرِجُهُ فَهُوَ مُثْمِرٌ وَمِنْ هُنَا قِيلَ لِمَا لَا نَفْعَ فِيهِ لَيْسَ لَهُ ثَمَرَةٌ).[١]

سُبُلَ رَبِّكِ: أي: طرق ربك[٢] وسيأتي تفصيل المراد منها في التفسير.

ذُلُلاً: جمع ذلول، ومعناها يرجع لإعرابها، ولها إعرابان:[٣]

أحدهما: أنها حال من السبل: أي فاسلكي الطريق مذللة لك، وهو الذي رجحه ابن كثير ونقله عن مجاهد[٤].. قال ابن كثير: (أن تسلك الطرق التي جعلها الله تعالى مذللة، أي سهلة عليها حيث شاءت في هذا الجو العظيم).[٥] واستدلوا بقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾ [الملك:١٥].

---

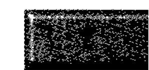
(١) انظر: المفردات صـ٨١، اللسان ٤/ ١٠٦، المصباح المنير صـ ٧٩. مادة: ثمر.

(٢) ابن جرير ١٧/ ٢٤٨.ط الرسالة.

(٣) وانظر: الدر المصون ٧/ ٢٦٣.

(٤) ابن كثير صـ٧٤٢.

(٥) ابن كثير صـ ٧٤٢.



والثاني: أن ذللاً حال من الضمير في اسلكي، وهي النحلة، أي: إن النحل تسلك مذللةً، مطيعةً، كقوله تعالى: ﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [يس:٧٢].(١)

وصوب ابن جرير كلا القولين، واختار الأول، أن يكون نعتا للسُّبل لأنها إليها أقرب.(٢)

وهو القول الذي قدمه النسفي(٣)، وسيأتي الترجيح في محله في التفسير مع التفصيل.

مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ: في الألوان قولان:

- أحدهما: أي: إنَّ ألوان الذي يخرج من النحل مختلف فمنها الأحمر والأصفر والأبيض.(٤)

- والثاني: أنَّ الألوان بمعنى الأنواع، فعبّر باللون عن النوع (كالجامد والسائل)(٥)، ويدخل في هذا القول: (اختلاف الطعم)(٦)، لأن اختلاف الطعم عائد لاختلاف نوع المرعى.

يقول الراغب: (ويعبر بالألوان عن الأجناس والأنواع، يقال: فلان أتى بالألوان من الأحاديث، وتناول كذا ألوانا من الطعام).(٧)

---

(١) وهو قول عبدالرحمن بن زيد بن أسلم ذكره ابن كثير صـ ٧٤٢.

(٢) تفسير ابن جرير ١٧/ ٢٤٩، ط الرسالة .

(٣) النسفي ٢/ ٢٩٢.

(٤) انظر: ابن جرير ١٧/ ٢٤٩، القرطبي ١٠/ ٨٩.

(٥) القرطبي ١٠/ ٨٩.

(٦) كما قال أبو حيان، البحر ٥/ ٥١١.

(٧) المفردات صـ ٤٥٧.

كلا القولين لا تنافي بينهما، لأنهما يدخلان في المراد من الآية من باب حمل المشترك على معانيه.

ولذلك قال القرطبي رحمه الله: (يريد أنواعه من الأحمر والأبيض والأصفر والجامد والسائل).[1]

* مدخل:

استحوذت هذه الآيات على اهتمام كثير من الباحثين في التفسير والمختصين بالأغذية والطب وسلوك الحشرات والرياضيين والطبيعيين، وتناولوها باهتمام بالغ لبيان أهمية العسل في الشفاء وتصور حياة هذه الحشرة الصغيرة، بل كانت حافزاً قوياً لكثير من الأطباء لاستكشاف حيثيات العلاج فيما يخرج من النحل، وتكاد الأبحاث والمقالات التي كتبت في هذه الآيات لا تحصى لكثرتها، ولكن أكثر ما ألف فيها كان يقتصر على موضوع أهمية العسل والاستشفاء به، وقلما تناولوها من أولها إلى آخرها بالتفسير وبيان الإشارات العلمية الدقيقة فيها.

ويظهر جلال هذه الآيات عندما نعلم أن حياة النحل بالتفاصيل التي دلت عليه ألفاظ الآية لم تكن معروفة أثناء نزول القرآن؛ اللهم إلا معلومات يسيرة مما يرونه من حركتها وشكل بيتها؛ وكون العسل شفاء لبعض الأمراض فقد كانت هذه المعلومات الظاهرية السطحية المشاهدة في حياة النحلة والعسل معروفة قبل نزول القرآن ببضع آلاف من السنين، واستمرت حتى اكتشفت المسافة النحلية عام ١٨٥١م في أقراص الشمع، ثم صممت بعد ذلك الإطارات المتحركة؛ فأتاحت دراسة حياة النحل

---

(١) القرطبي ١٠/ ٨٩.



وسلوكه حتى عرفتنا على كثير من خفايا حياته وأسراره - وما زالت هذه الأبحاث تتطور- وغيرت من المفاهيم الكثير[1]؛ مما يساعد على فهم الآيات فهماً أعمق.

* تفسير الآيات:

قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ ﴾:

كما أن الله هيأ الأنعام منذ أول خلقها على در اللبن لنفع الإنسان إلى يوم القيامة، وهيأ الأعناب والتمر على صفاته ومركباته ومنافعه من أول خلقه؛ كذلك خلق الله تعالى النحل وعلمه عمله، وجعله مسخراً لنفع الإنسان.

وتقدم أن الوحي هنا له دلالة تناسب هذه الحشرة، وهو التعليم الفطري الذي أودعه الله في طبيعة النحل منذ خلقها الله تعالى بحيث تتابع عملها ووظيفتها على أساسه وعلى أكمل وجه.

يقول القرطبي: (وما يخلق الله سبحانه فيها من درك منافعها واجتناب مضارها وتدبير معاشها)[2]، ويقول الرازي: (والمعنى: إنه تعالى قرر في أنفسها هذه الأعمال العجيبة التي يعجز عنها العقلاء من البشر..).[3]

---

(١) ينظر: نحل العسل في القرآن والطب د محمد علي البنبي صـ٦، النحلة تسبح الله، محمد حسن الحمصي صـ٢٥ ط دار الرشيد الرابعة ١٩٧٩، مملكة النحل إبراهيم عبدالرحمن العتيق صـ ٣٤ ط مطابع الحميضي الرياض الأولى١٤٢٣هـ، المسافة النحلية: هي التي يستعملها النحل ممراً يعبر منه بين الأقراص وبينها وبين جدران الخلية.

(٢) القرطبي ١٠/ ٨٨.

(٣) الرازي ٢٠/ ٥٦.





يقول ابن عاشور:

(فافتتحت الجملة بفعل ﴿أَوۡحَىٰ﴾ دون أن تفتتح باسم الجلالة مثل جملة ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ﴾، لما في ﴿أَوۡحَىٰ﴾ من الإيماء إلى إلهام تلك الحشرة الضعيفة تدبيراً عجيباً وعملاً متقناً وهندسة بالجبلة، فكان ذلك الإلهام في ذاته دليلاً على عظيم حكمة الله تعالى، فضلاً على ما بعده من الدلالة على قدرة الله تعالى ومنة منه).[1]

والآية دليل على أن ما تقوم به النحل ليس غريزة سلوكية فرضتها الطبيعة عليها، أو كانت على سبيل الصدفة، أو تعلماً ورثته من سابقتها، بل إن التعبير بقوله تعالى: ﴿أَوۡحَىٰ﴾، و﴿ٱتَّخِذِي﴾ يدل على جهد مقصود وتمكين في الفعل على علم[2]، أي: إنه سلوك عاقل مدرك لما يفعل، وله دلالة الاختيار الفطري في المكان وشكل البناء.

يقول الشيخ عبد الله سراج الدين:

(فإذا فكر العاقل في عجائب هذا الحيوان ـ أي النحل ـ وإحكام نظامه، ودقة هندسة بنيانه، ومحافظته على نظافة وكره، والتزامه؛ علم أن للنحل إدراكاً وشعوراً مناسباً لها، ويعبر عن ذلك بعض الحكماء: بالنفوس المدركة).[3]

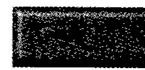
ويرى بعض المختصين في النحل أن اختصاص النحل بهذا اللفظ ﴿أَوۡحَىٰ﴾ دون سائر ما ذكر في القرآن من المخلوقات كالنمل والأنعام؛ لأن الأفعال التي ذكرت من

---

(١) التحرير والتنوير ١٤/ ٢٠٤.

(٢) ينظر: مادة: أخذ في لسان العرب.

(٣) هدي القرآن الكريم صـ ٣٧٦.





بناء البيوت بالشكل العجيب وجمع الغذاء وإخراج ما فيه شفاء منه أمر يختص به النحل ولا يشاركه به أحد من المخلوقات حتى الإنسان.(١)

وإذا ضممنا إليه في السياق لفظ ﴿رَبُّكَ﴾، وهي إضافة كاف الخطاب المتوجهة للنبي صلى الله عليه وسلم أولاً، ويدخل فيه الإنسان بعد ذلك؛ فذلك للإشارة إلى أن الله الذي خصك واجتباك وخلقك وسواك وعدلك وميزك بميزة الإدراك والعقل، هو الذي اختص النحل أيضاً وميزها على سائر الحشرات بأرقى وأسمى فطرة وطبائع تمكنه من بناء بيتها بناءً عجيباً وإخراج أفضل شراب يخدم البشرية.

نموذج الاستدلال بالقرآن في الرد على التصورات العقلية المنسوبة للعلم.

ففي الآية رد على الطبيعيين وأصحاب نظرية التطور، الذين ينسبون سلوك الحيوانات والحشرات والنباتات للغريزة أو للانتخاب الطبيعي؛ اعتماداً على تصورات عقلية وفلسفية، تسقط أمام الوقائع المشاهدة والتدبر المنصف لسلوك الحيوانات والحشرات.(٢)

والآية أيضاً بيان وتعليم صريح للطبيعيين وللعالم -وفي مقدمتهم: الدارسين لسلوك الحيوانات والحشرات-، أن سلوك الحشرة هذا ليس سلوكاً اضطرارياً فرضته

---

(١) نحل العسل في القرآن والطب د. البنبي صـ٢٨.

(٢) الغريزة يعبر بها عن آلية معينة توجد في مكان ما داخل جسم الحيوان تفسر قابليته على القيام بسلوك معين منذ الولادة، والانتخاب الطبيعي يعني أن الكائن الحي يختار أي تغيير مفيد وصالح سواء كان هذا التغيير هيكلياً أو سلوكياً ثم يورثه للأجيال اللاحقة وتعتبر الطبيعة هي المحك والقوة المؤثرة في هذا الانتخاب حسب تعبير الداروينيين، وتعتبر هذه النظرية الحجر الأساس عندهم. انظر حول ذلك كتاب: التضحية عند الحيوانات هارون يحيى صـ١٨، إلى صـ٣٦ ط مؤسسة الرسالة ناشرون أولى ٢٠٠٣.



الطبيعة عليها، ولا مكتسباً من الآباء بالتعليم، وإنما هو تعليم رباني خلقها الله عليه، وهيأ الله له آلاته ومداركه من أول مجتمع نحل وجد على الأرض، والله أعلم.

وقد ذكر الرازي عدة وجوه في بيان مظاهر الوحي الرباني في النحل، فذكر ما يتصل بالآية وما لا يتصل[1]، والحقيقة أن كل سلوك يسلكه النحل في دقائق حياته وفي نظام تكوينه الاجتماعي يدفع العاقل المتفكر أن يسجد متذللاً للخالق الذي علّم النحل كيف يحافظ على جنسه ويستمر في نفعه، وكتب النحل التي ألفها المختصون في بيان أنماط سلوك النحل، ونظام حياته، وتقسيم أعماله، وتكوين مجتمعه؛ كلها تضطر العاقل لتفسير هذا السلوك بالوحي الرباني، وسيأتي بعض أنماط حياته في تفسير اتخاذ البيوت وإنتاج العسل من الأعاجيب؛ فإن فيها من البراهين على علم الله وحكمته ووحدانيته ما يغني عن ذكر تفاصيل دقائق حياة النحل.[2]

يجب على المفسر الاقتصار في التفسير العلمي على بيان دلالة الآية دون الخروج عن ذلك.

وما ينبغي التنبيه إليه، هو أن جملة (أن اتخذي..والأوامر بعدها) هي جمل تفسيرية للقول المتضمن في الوحي[3]، أي: إن بيان الوحي وتفسيره: اتخاذ البيوت والسلوك والأكل، ولذلك فإن التفسير ينبغي أن يقتصر على المذكورات في الآية، دون الدخول في تفاصيل حياة النحل مما لا علاقة له بتفسير الآية، ثم ننسى توضيح العجائب الدقيقة

---

(١) الرازي ٢٠/ ٥٦.

(٢) ينظر للاستزادة والتفصيل: التكوين الاجتماعي لمجتمع النحل كما صوره القرآن الكريم تأليف م. حاتم البشتاوي، بحث مقدم للمؤتمر العالمي السابع للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، وما سيذكر من المراجع فيما بعد.

(٣) انظر: الرازي ٢٠/ ٥٧، التحرير والتنوير ١٤/ ٢٠٦.

التي أشارت إليها[1]، وذلك لأن الآية ذكرت أعظم أعمال النحل في بيان نعمة الله على الإنسان كاتخاذ البيوت وأكلها من كل الثمرات، وكيفية صنعها للعسل ودلالتها على وجود الله ووحدانيته وقدرته وعلمه وحكمته سبحانه.

قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾.

يقول البقاعي: (ولما كان في الإيحاء معنى القول، أتى بـ ﴿أَنِ﴾ المفسرة فقال تعالى: ﴿أَنِ ٱتَّخِذِى﴾ أي: افعلي ما يفعله المتكلف من أن يأخذ ﴿مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ أي: بيوتاً ما أعجبها! ﴿وَمِنَ ٱلشَّجَرِ﴾ أي: الصالحة لذلك في الغياض والجبال والصحارى، ﴿وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ أي: يرفع الناس من السقوف والجدران وغيرها..).[2]

إن كلام البقاعي السالف يضعنا أمام فوائد بلاغية ذات دلائل علمية، فالاتخاذ تضمن معنى التكلف في العمل المقصود، وهذا يعني أن النحل تتكلف في اختيار المكان

---

(١) انظر على سبيل المثال: كتاب: وجوه متنوعة من الإعجاز العلمي في القرآن والسنة د عبد البديع حمزة زللي صـ ٢٤١ إلى صـ ٢٥٠ إذ نجد يتكلم عن الملكة وكيفية تلقيحها والزفاف الملكي وأعمال الشغالات داخل الخلية وخارجها وعن حياة الذكور بتفصيل، وهذا كله لا يخدم تفسير الآية، وإنما يشغل القارئ بتفاصيل حياة النحل وينسى أساس الموضوع، مع أن المؤلف له لفتات جميلة في كتابه. ومثل هذه الملاحظات أيضاً توجه لكتاب: النحلة تسبح الله، وبحث التكوين الاجتماعي لمجتمع النحل كما صوره القرآن، للمهندس حاتم البشتاوي، فقد استطرد في بحثه استطراداً خرج عن مقتضى التفسير العلمي فمثلاً ذكر قصيدة لأحمد شوقي في وصف النحل وتكلم عن تفاصيل لا تدخل في دلالة الآية.

(٢) نظم الدرر ١١/ ١٩٧.





بالفطرة التي فطرها الله عليها وأوحاها لها، ثم تتكلف الجهد في هندسة بناء الخلية التي هي بيوت النحل.

وجاءت البيوت منكرة؛ للدلالة على ما في هذه البيوت من العجائب في دقة البناء والتنظيم، فالنحلات تبني البيت بمقاس يلائمها من حيث الحجم والسعة والدخول والخروج.

ويحدثنا المختصون بالنحل عن طريقة بناء النحلة للخلية فيذكرون أن الشمع يتجمد فور خروجه من فتحة الغدة الشمعية، وتبدأ النحلة ببناء أول قرص شمعي، ثم تضع النحلة المهندسة على سقف الخلية قليلاً من غراء النحل، ثم تسحب بفكيها القويين صفيحة الشمع وتبلها بلعابها، وتلصقها بالسقف في المكان الذي وضعت فيه الغراء، ثم تأتي زميلة لها لتحذو حذوها وتلصق صفيحتها الشمعية بالتي قبلها، وهكذا تتنامى الأقراص الشمعية متدلية من السقف نحو الأسفل بين آلاف النحلات، ويستمر العمل في عتمة البناء، **وعند النهاية تدرك دلالةَ التنكير في الآية - وهي التعجب لما في طريقة البناء وشكله من العجائب - عندما ترى البيت مكتملاً بدقة متناهية**، إذ يبني النحل نوعين من العيون السداسية أحدها صغير الحجم لتربية الشغالة، والثاني أكبر لتربية الذكور، والعيون السداسية تميل قواعدها إلى أعلى المحور الوسطي[1]، والشكل السداسي هو الشكل الوحيد بين جميع الأشكال الهندسية الذي لا يترك شيئاً من الفراغات بينها دون فائدة، حتى قال بعضهم: (لقد سبق النحل الرياضيين بدهور حين

---

(١) انظر: علم النحل ومنتجاته أ.د. محمد عباس عبد اللطيف ومجموعة أكاديميين بدرجة دكتور صـ١٢٤ إلى صـ١٢٨، ط دار المروة مصر د.ت والنحلات صيدلانيات ملهمات صـ٢٦.



صممت المسدسات الشمعية لتتسع لأكبر كمية من العسل بأقل استهلاك من الشمع)، والفراغ الوحيد الذي يتركه النحل: هو (المسافة النحلية)(١). فتبارك الله الذي أوحى للنحل ذلك، وعلمها كيف تتخذ البيوت.

ولما كان الاتخاذ متضمناً لمعنى التكلفِ في العمل، والقصدِ في الاختيار مع اختلاف أنواع النحل في القصد والاختيار؛ فإن ﴿مِنَ﴾ في قوله ﴿مِنَ ٱلْجِبَالِ﴾ وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ حملت معنى التبعيض وهو مذهب جمهور المفسرين، وذلك أن النحل لا يبني بيته في كل جبل وشجر وعريش، بل يتخير منها ما يلائم بناء بيته والطبيعة التي تساعده على إتمام عمله من حرارة وبرودة ورطوبة ونقاوة جو كما أوحي لها، ويقول الرازي: (في مساكن توافق مصالحها وتليق بها)(٢)، وهو مذهب جمهور المفسرين.(٣)

---

(١) النحلات صيدلانيات ملهمات صـ ٢٥ نقله د. الدقر عن الفيزيائي الفرنسي ديوموز. وينظر: كتاب التضحية عند الحيوان صـ٢٨. حيث نقل نفس الكلام بصيغة التساؤل رداً على نظرية الانتخاب الطبيعي لداروِن. وينظر: الرازي ٢٠/ ٥٦، وابن عادل ٢/ ٢٠٩، والنحلة تسبح الله صـ٢٤ .إلى صـ٢٩.

(٢) الرازي ٢٠/ ٥٧.

(٣) انظر: المحرر الوجيز ١٠/ ٢٠٦، الكشاف ٢/ ٥٧٦، البحر ٥/ ٥١١، الرازي ٢٠/ ٥٧، وكتاب: أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب التنزيل، محمد بن أبي بكر الرازي صـ٢٥٨، تحقيق عبد الرحمن المنصوري ط عالم الكتب السعودية أولى ١٤١٢هـ، الدر المصون ٧/ ٢٦٢، ابن عادل٢/ ٢١٢. تفسير القاسمي ١٠/ ١٢٦.





وذهب ابن عاشور إلى أن «من» في الآية بمعنى «في»، أي: في الجبال وفي الأشجار..، وقال: (وأصلها «من» الابتدائية، فالتعبير بها دون «في» الظرفية؛ لأن النحل تبني لنفسها بيوتاً، ولا تجعل بيوتها جحور الجبال ولا أغصان الشجر ولا أعواد العريش).[1]

وفي الواقع فإن كلام ابن عاشور رحمه الله تحصيل حاصل بالنسبة لتفسير الجمهور، فهو يلتقي معه بالنتيجة[2]؛ لأن النحل يبني بيته في بعض الجبال والأشجار والعرائش.

وعلى ما تقدم يحمل كلام أحد مربي النحل إذ يقول: (فمن حيث السكنى فإن نحل العسل في حياته البرية: إما أن يبني أقراصه الشمعية معلقة تحت صخور الجبال أو أفرع الأشجار، أو يبنيها داخل جحور تكون قد نشأت طبيعياً بفعل عوامل الزمن والظروف البيئية والأشجار، ولا تكاد تصلح لسكنى أي كائن آخر سواء كان نافعاً أو ضاراً، إذ إن الجحر الذي يناسب النحل يكون واسعاً من الداخل لكي يبني فيه أقراصه، ومدخله عبارة عن ثقب صغير لكي يتمكن من حراسته ولا يسمح بتسرب الرياح أو الأمطار..).[3]

وعلى ذلك فإن النحل المستأنس لا يسكن في الخلايا المصنوعة التي لا توافق ما فطرها الله عليه ولم تناسب طبيعتها واستمرار عملها، والله أعلم.

---

(١) التحرير والتنوير ١٤/ ٢٠٦.

(٢) علق فضيلة المشرف د. نور الدين عتر هنا فقال: (ثم هو خروج عن ظاهر المعنى اللغوي).

(٣) نحل العسل في القرآن والطب د. محمد علي البنبي صـ٢٨، ط مركز الأهرام للنشر مصر الأولى ١٤٠٧، والدكتور البنبي أستاذ علم النحل في كلية الزراعة جامعة عين شمس وله عدة مؤلفات في النحل منها نحل العسل ومنتجاته.

يقول ابن عاشور رحمه الله: (ولما كانت بيوت النحل معروفة للمخاطبين اكتفي في الاعتبار بها بالتّنبيه عليها والتذكير بها[1]. وأشير إلى أنها تتّخذ في أحسن البقاع من الجبال أو الشجر أو العُرُش دون بيوت الحشرات الأخرى، وذلك لشرفها بما تحتويه من المنافع، وبما تشتمل عليه من دقائق الصّنعة؛ ألا ترى إلى قوله تعالى في ضدّها: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ [العنكبوت:٤١]).[2]

ومن غرائب التفسير أن بعض الكاتبات جعلت من ترتيب (الجبال، الشجر، العرائش)؛ دلالة على التطور عند النحل!!، إذ اعتبرت في هذا الترتيب تنبيهاً للعقل البشري (إلى أن النحل اتخذ أول ما اتخذ بيوته من الجبال ثم انحدر منها إلى الأشجار، ثم تطور إلى المعيشة في الخلايا بأنواعها، ثم بَيَّن للنحل ما تأكل...)[3]، ووجه الغرابة فيه أن الواقع العلمي والعملي لا يؤيد هذا الاستدلال، وكان الأجدر بها أن تثبت هذا التطور عند النحل أولاً قبل إقحامه في معنى الآية، وأحسب أن في هذا الكلام تأثراً بنظرية التطور ومسايرة لها.

وفي الحقيقة فإن النحل البري -وهو أحد أنواع النحل- أفضل من حيث الجودة والغذاء والسلالة من النحل المستأنس، وهو ما زال موجوداً، فأين مكان هذا التطور؛

---

(١) ولكن لم تكن معروفة لدى المخاطبين عند نزول الآيات على الصورة التفصيلية التي نعرفها اليوم، والسياق يستدعي معرفة هذه البيوت لما دل عليه التنكير في البيوت: أي بيوتاً عجيبة، كما أفاد كلام البقاعي كما تقدم، والله أعلم.

(٢) التحرير والتنوير ١٤/ ٢٠٦.

(٣) معجزة القرآن تأليف نعمت صدقي صـ٧٣ ط دار الاعتصام القاهرة، الثانية ١٩٧٨.



ثم إن سلمنا بصحة هذا التفسير؛ فإنه قاصر جداً وغير دقيق علمياً، ولا يناسب عموم الدلالة في الآية على أنواع النحل؛ لأنه يقتصر على نوع واحد من النحل يسمى: بـ (الجامع للعسل)[1]، ولكنه لم يتدرج في التطور الذي ذكرته الكاتبة وإنما روّض ليستأنس، والله أعلم.

والآية قسمت أنواع النحل من حيث البيئة التي يعيش فيها إلى: نحل جبلي، ونحل شجري، ونحل عرائشي، ويمكن إجمالها في نوعين أساسيين (بري، وأهلي) كما فعل الرازي إذ قال:

(واعلم أن النحل نوعان:

- **النوع الأول**: ما يسكن في الجبال والغياض ولا يتعهدها أحد من الناس.
- **والنوع الثاني**: التي تسكن بيوت الناس وتكون في تعهدات الناس.

فالأول: هو المراد بقوله: ﴿أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ﴾.

والثاني: هو المراد بقوله: ﴿ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ وهو خلايا النحل).[2]

وهذان النوعان يدخل فيهما جميع طوائف النحل على مختلف بيآته وأشكاله واعتباراته، إذ يوجد في العالم - من حيث الجملة - أربعة أنواع من النحل، ثلاثة من هذه الأنواع تعيش على حالتها البرية وهي: (النحل الكبير والنحل الصغير والنحل الهندي).

---

(١) انظر هذا النوع في كتاب: تربية نحل العسل د. الحنفي صـ١٣٢.

(٢) الرازي ٢٠/ ٥٧. ولعل مراده بالخلايا نفس البيوت، والله أعلم.

أما النوع الرابع ويسمى بالنحل الغربي، وهو المنتشر في جميع أنحاء العالم فلا يوجد على الحالة البرية وهو المعروف بالنسبة للنحل المستأنس.[1]

وبمعرفة أوصاف هذه الأنواع من النحل يمكن القول: إن النحل الكبير والنحل الصغير يدخل في النوع الأول مما ذكره الرازي؛ وهو المراد في قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ﴾، إذ يسكن هذان النوعان فيما ذكر في الآية، ويفضلان الحرية والضوء والهواء الطلق، ولا يمكن استئناسهما وإسكانهما الخلايا المصنوعة مع تعدد المحاولات البشرية لذلك، وأما النحل الهندي والغربي فإن أغلبه يدخل في النوع الثاني، وهو قوله تعالى: ﴿ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ إذ أمكن استئناسهما وتربيتهما في الخلايا المصنوعة، والله أعلم.

وفي الآية مسألتان:

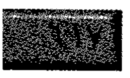
*** المسألة الأولى: تأنيث الخطاب بالأمر في قوله تعالى: ﴿ٱتَّخِذِى﴾، وكذلك في قوله تعالى: ﴿كُلِى﴾، ﴿فَٱسْلُكِى﴾، ﴿بُطُونِهَا﴾ هل له دلالة علمية ؟.**

لا ضير أن التأنيث هنا له مبرره عند النحاة واللغويين وهو أن النحل اسم جنس يذكر ويؤنث، والتأنيث لغة أهل الحجاز[2]، وعلى ذلك خرَّج المفسرون التأنيث في

---

(١) ينظر تفاصيل أنواع النحل وصفاته: مملكة النحل د. محمد حسن حسانين د. فاروق محمود خليل صـ٨١، إلى صـ٨٣ ط مكتبة الأنجلوا المصرية ١٩٧٠، تربية نحل العسل د. عبد المنعم الحنفي صـ١٢٥، إلى صـ١٤٦، ونحل العسل ومنتجاته د. محمد علي البنبي صـ ٨١ فما بعد ٣٣٧ط دار المعارف مصر د.ت، نحل العسل في القرآن والطب د. البنبي صـ٣٧.

(٢) انظر: الدر المصون ٧/ ٢٦٢، حياة الحيوان للدميري ٢/ ٣٠٤ ط دار الألباب بيروت د.ت.



الآية؛ لأنه مشكل لما يعرفونه عن النحل من أنه ذكر، وأن له ملكاً ذكراً يسمى اليعسوب[١]، يقول أبو السعود: (وتأنيث الضمير مع أن النحل مذكَّر؛ للحمل على المعنى أو لأنه جمع نحلة، والتأنيث لغة أهل الحجاز).[٢]

ولكن لما لم يذكر النحل في القرآن إلا في هذه الآية، وجاءت الإشارة إليها بالتأنيث فلا بد أن يكون وراء ذلك إشارة بالنص.

يقول الشيخ عبد الحميد طهماز:

(ولعل تأنيث الضمير في قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱتَّخِذِى﴾ يشير إلى حقيقة هامة، وهي أن إناث النحل هن العاملات اللواتي يقمن بجميع أعمال البناء وصنع العسل، أما الذكور فلا عمل لهم سوى تلقيح النحلة الملكة..).[٣]

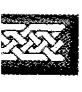
يؤكد هذه الفائدة معرفة مجتمع النحل، فهو يتألف من الذكور والإناث وتديرهم ملكة من الأنثى لها شكل خاص وغذاء خاص، أما ذكور النحل فلا عمل له سوى تلقيح الملكات، وليس مهيّأً من حيث الخلقة والتركيب لجمع الرحيق، ولا توجد فيه الغدد الشمعية أو الغدد المصنعة للعسل، بل هو عالة على الإناث يستجدي العسل

---

(١) انظر: كتاب الحيوان للجاحظ ٥/ ٤١٧ تحقيق عبد السلام هارون، ط: القاهرة ١٩٦٥.

(٢) أبو السعود ٥/ ١٢٥.

(٣) التوحيد والشكر في سورة النحل صـ ٧٠. وأول من رأيته أشار لذلك قبل الشيخ طهماز حفظه الله، د. البنبي في كتابه نحل العسل صـ٣٧، ٣٨ مع توقف على بعض كلامه من حيث اللغة مما يطول بحثه، ثم وجدت د. عبد البديع زللي قد تطرق لذلك في كتابه وجوه متنوعة من الإعجاز العلمي صـ٢٤٨ إلى صـ٢٥١، واعتبره من إعجاز القرآن في توجيه الضمير.



التي تصنعه الإناث[1]؛ أما الأفعال التي ذكرت في الآية وهي اتخاذ البيوت، والأكل من كل الثمرات، وسلوك الطرق وصنع ما يخرج من بطونها؛ إنما تقوم به النحلات الأنثى فقط، وهذه النحلات قد هيَّأها الله تعالى بآلات للقيام بكثير من الوظائف وهي غير موجودة في الذكور أو الملكات.

ومما يقوي ذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم عندما يذكر مفرد النحل؛ فإنه يذكرها بالتأنيث في سياق الثناء والصفات الحسنة، وذلك عند تشبيه المؤمن بالنحلة، يقول صلى الله عليه وسلم: «**مثل المؤمن كمثل النحلة تأكل طيباً وتضع طيباً**»[2]، فذكر النبي صلى الله عليه وسلم النحلة بالتأنيث وبين أنها هي التي تقوم بالأكل، وأنها هي التي تضع العسل؛ وهاتان من الصفات التي ذكرتها الآيات هنا للنحل، وذكرت الأحاديث مما يستثنى من الدخول في النار من الذباب، أيضاً بصيغة التأنيث، يقول صلى الله عليه وسلم: «**كلُّ ذُبابٍ في النارِ إلَّا النَّحلة**».[3]

---

(١) انظر: عالم النحل ومنتجاته صـ ٥٨، ، والنحلات صيدلانيات ملهمة من صـ ٢٠، إلى صـ ٢٢. تشير بعض الأبحاث أن لذكور النحل مدخلاً في حضن البيض إذ تحوم فوق ثقوب الخلايا الحاوية للبيض لتبعث فيه الدفئ وهو مع ذلك ولا يجمع الرحيق ولا يتغذى به.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك كتاب الإيمان برقم (٢٣٤) ط دار الكتب العلمية، والبيهقي في الشعب رقم (٥٥٢٥)، وابن أبي شيبة في مصنفه رقم(١١٣) من حديث عبد الله بن عمرو بهذا اللفظ، وسيأتي شاهد له عن أبي رزين العقيلي بنحوه مخرجاً عند الكلام على عموم الثمرات.

(٣) الحديث روي بطرق متعددة عن عدد من الصحابة، فروي عن ابن عمر: أخرجه الطبراني في الأوسط والكبير، قال الهيثمي: (بأسانيد رجال بعضها ثقات كلهم، ورواه البزار باختصار)، مجمع الزوائد ٤/ ٤١، وعن ابن عباس أيضاً، يقول الهيثمي: (رواه الطبراني ورجاله رجال=





وهذه الإشارة تحمل أيضاً دلائل علمية أخرى من حيث مفهوم النص، إذ لما كانت إناث النحل هن الغالبات في مجتمعهنّ، وهن اللواتي يقمن بكل أعباء الطائفة، ومنها الأعمال المذكورة في الآية، وليس للذكور مدخل في ذلك إلا ما ذكرنا قبل، فإن عدد الذكور بالنسبة للإناث عدد ضئيل جداً.

أثر السياق والنظم في استنباط العلوم الكونية في القرآن.

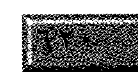
*** المسألة الثانية: ذكر الجبال والشجر والبيوت على هذا الترتيب في الآية هل له دلالة علمية؟**

تقدم أن الآية أشارت إلى أنواع النحل من حيث البيئة التي يعيش فيها، ولكن لما كان الشراب الخارج من النحلات له ارتباط بنوع الغذاء الذي يأكله والبيئة التي يعيشها، فينبغي الاستفادة من نظم الآية للتعرف إن كان لهذا الترتيب دلالة علمية أم لا؟.

وقد ذهب ابن القيم[1] رحمه الله إلى أن الواو تفيد الترتيب، وجعل دلالة هذا الترتيب على الأكثرية في بناء النحل بيوتها وفي إنتاج العسل، فقال: (تأمل كيف أكثر بيوتها في

= الصحيح غير إبراهيم بن محمد بن حازم وهو ثقة) مجمع الزوائد ٤/ ٤١. وكلهم بلفظ تأنيث النحلة، أما رواية ابن عمر في مصنف عبد الرزاق (٨٤١٧) بلفظ: «الذبان في النار إلا النحل»، ورواية أنس بن مالك مرفوعة بلفظ: (..والذباب كله في النار إلا النحل) قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٢/ ٥٢: (ورواه أبو يعلى ورجاله ثقات)، فتحمل على التخصيص بالإناث كما هي أكثر الروايات، أو هي اسم جنس والله أعلم.

(١) محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الدمشقي، الإمام المحدث الفقيه، الأصولي المفسر، صاحب التصانيف الكثيرة (ت ٧٥١هـ). انظر: طبقات المفسرين للداودي ٢/ ٩٠، معجم المفسرين لنويهض ٢/ ٥٠٣.



الجبال والشقفان -وهو البيت المقدم في الآية-، ثم في الأشجار، -وهي من أكثر بيوتها-، وما يعرش الناس، وأقل بيوتها بينهم حيث يعرشون، وأما في الجبال والشجر فبيوت عظيمة يؤخذ منها من العسل الكثير جداً).[1]

ولعل ما تقدم من الكلام حول الإشارة إلى أنواع النحل يجعل استدلال ابن القيم وجيهاً من حيث إن أكثر أنواع النحل عدداً هو النحل البري، ولكن هذا بالنسبة لزمنه، أما في عصرنا فإن المناحل الصناعية وما يعرشه الناس ربما يوازي بل يفوق بكثير المناحل البرية[2]، وإنما تكلم ابن القيم حسب ما كان متعارفاً عليه في زمنه.

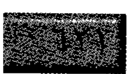
وهذا لا يمنع من وجود وجوه أخرى يدل عليها النظم، ولها ما يقويها من الواقع العلمي، فقد استدل بعض الباحثين من هذا النظم على ترتيب أنواع العسل حسب الأفضلية، وذكر (أن ترتيب ألفاظ الآية القرآنية يدلنا على أن عسل الجبال يأتي في المقام الأول، يليه عسل الشجر، وأخيراً عسل العريش)[3]، واعتبره وجهاً جديداً من وجوه الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، واستدل عليه بما أكدته آليات التحليل الكيميائي.[4]

(١) الضوء المنير على التفسير ٤/ ٤٥ وهو كتاب يجمع ما قاله ابن القيم في التفسير من كتبه، جمعه علي الحمد المحمد الصالحي، ط مؤسسة النور ودار السلام الرياض د.ت.

(٢) هذا من حيث الإحصاء البشري، أما من حيث العموم فكلام ابن القيم له اعتباره، فربما يظهر حين الاستقراء التام أن بيوت النحل البرية أكثر من بيوت النحل المستأنسة في الخلايا كما أفادني بعض المختصين بتربية النحل والله أعلم.

(٣) د. عبد البديع حمزة زللي في كتابه وجوه متنوعة من الإعجاز العلمي في القرآن والسنة صـ٨٨.

(٤) انظر: المصدر السابق صـ٧٧.



نموذج منهج استخدام العلوم الكونية كقرائن ترجيح إحدى دلالات النظم القرآني.

ثم شرح أسباب أفضلية العسل الجبلي على غيره؛ بأن قلة المياه، وتنوع النبات وتباعده عن بعضه مع قلته أيضاً، كل ذلك يؤدي إلى تركيز رحيق النباتات الجبلية، ويوفر الزمن الكافي لتحويل النشويات والسكريات في الرحيق للحصول على العسل الناضج.(١)

أما عسل الشجر فلا تتوافر فيه ظروف العسل الجبلي؛ لكثرة الأزهار وتقاربها من بعضها، فقرب الأزهار من بعضها وقربها من بيوت النحل لا يعطي للنحل فرصة كافية لتركيز الرحيق من الماء في معدة العسل كما يحصل في الجبلي؛ فيزيد بذلك إنتاج النحل للعسل بجودة أقل؛ بسبب زيادة نسبة الماء في الرحيق الذي يحمله النحل.(٢)

أما عسل العرائش فإن شروط جودة العسل فيه أقل بكثير من العسل الشجري، بسبب قرب الغذاء من النحل وزيادة نسبة الماء فيه، وعدم بقاء الرحيق في معدة العسل فترة أطول، وعدم توفر الغذاء المختلف له خاصة في حالة تغذيته بالمحاليل السكرية مما يزيد من إنتاجه دون نضج كامل.(٣)

وأرى أن هذا الوجه في تفسير ترتيب المذكورات في الآية وجه قوي، وذلك بقرينة النتائج المخبرية والتجارب الطبية وشروط جودة العسل كما يذكرها أهل

---

(١) انظر: وجوه متنوعة من الإعجاز العلمي صـ٨٨، إلى صـ٩٠.

وللاستزادة في أسباب جودة العسل ينظر: عالم النحل ومنتجاته صـ٢٣٢ فما بعد. ونحل العسل ومنتجاته صـ٢٣٥ فما بعد.

(٢) انظر: المصدر السابق صـ٩٠، ٩١.

(٣) المصدر السابق صـ٩١، إلى صـ٩٣.

الاختصاص[1]، وقد أجريتْ تجاربُ لأفضل أنواع العسل في دول متعددة واتفقت جميعها على جودة العسل البري على جميع الأنواع مع اختلاف نوع البر الذي يعيش فيه النحل[2]، وهذه قرينة واقعية تقوي معنى الترتيب في الواو في الآية.

ولكن أود لفت الانتباه إلى أن ما ينتجه النحل ليس العسل فقط -كما سنذكر بعد إن شاء الله- بل ينتج الشمع والغذاء الملكي وسم النحل أيضاً، فأرى أن الآية تدل على ترتيب أنواع ما يخرج من بطونها حسب الأفضلية سواء كان عسلاً أم غيره، والله أعلم.

وعلى هذا تكون الآية قد دلت بظاهر النص على أنواع النحل، ودلت بإشارة النص إلى أفضلية أنواع ما يخرج من النحل، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾:

الأصل في دلالة «ثم» في الآية للترتيب مع التراخي، أي: إن بناء بيتها يكون أولاً، ثم يأتي بعد ذلك أكلها لإنتاج ما يخرج من بطونها، وإلى ذلك ذهب ابن القيم.[3]

ووسع البقاعي في معنى «ثم»؛ فجعلها للترتيب والتراخي، مع إفادتها التعجب في الصنيع، واستدل لذلك بالسياق، فقال: (ولما كان أهم شيء للحيوان بعد الراحة من همّ المقيل الأكل، ثنى به، ولما كان عاماً في كل ثمر، ذكره بحرف التراخي إشارة إلى عجيب الصنع في ذلك وتيسيره لها، فقال تعالى: ﴿ ثُمَّ كُلِي ﴾).[4]

---

(١) ينظر: تربية نحل العسل صـ٣٧٩، إلى صـ٣٩٦، نحل العسل في القرآن والطب صـ٨١.

(٢) ينظر: العسل شفاء لكل داء، صلاح بادويلان صـ١٤٦، ١٤٧.

(٣) الضوء المنير على التفسير ٤/ ٤٥.

(٤) نظم الدرر ١١/ ١٩٨.





وذهب ابن عاشور، إلى أن «ثم» للترتيب في العجائب الذي اختصت به فصيلة النحل، يقول ابن عاشور:

(﴿ ثُمَّ ﴾ للترتيب الرتبي، لأن إلهام النحل للأكل من الثمرات يترتّب عليه تكوّن العسل في بطونها، وذلك أعلى رتبة من اتخاذها البيوت لاختصاصها بالعسل دون غيرها من الحشرات التي تبني البيوت، ولأنه أعظم فائدة للإنسان، ولأن منه قوتها الذي به بقاؤها).[1]

ويبدي أحد المختصين في النحل إعجابه بموقع الحرف «ثم» هنا في الآية وما يدل عليه من معنى الترتيب مع التراخي، ثم يجعله دالاً على ظاهرة التطريد عند النحل[2]، فقال: (إذ إن النحل حين يخرج من مسكنه قاصداً عشاً جديداً - ظاهرة التطريد -؛ يكون مالئاً بطنه بكمية كبيرة من العسل قد تفوق وزن جسمه استعداداً للرحلة المجهولة، وبعد عثوره على المسكن لا يمكن أن يبحث عن الغذاء إذ يكون متخماً

---

(١) التحرير والتنوير ١٤/ ٢٠٧.

(٢) ويعرفها مربو النحل بأنها نوع من التكاثر الطبيعي لحفظ النوع حيث تخرج الملكة مع عدد كبير من شغالات الطائفة لتكون طائفة جديدة بعد أن تتأكد أنها تركت وراءها عديداً من بيوت الملكات التي ستخرج منها العذارى سريعاً وتحل إحداهن محل الملكة القديمة، ويسمى هذا النحل والملكة بالطرد، يذهب الطرد أولاً إلى شجرة قريبة أو سياج بالمنحل، ويتعلق بفرع من فروعه حتى يجد مأوى مناسباً يحميه من المؤثرات الجوية فيتخذه وكراً.

تربية نحل العسل د. الحنفي صـ٢٨٥، ولا بد من التعليق على أن التطريد هذا ليس غريزة طبيعة تحركها العوامل والظروف المؤثرة على الطائفة كما يذكر مربو النحل، بل هي إحدى مظاهر التعليم الذي علمها الله إياه المتضمنة في قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ ﴾.



بالعسل، ولا يستطيع التخلص من هذا العسل إلا بعد أن يحول جزءً منه إلى شمع يبني به أقراصه ذات العيون السداسية، فيفرغ فيها ما يبقى في جوفه من عسل، وبعد ذلك يبدأ في البحث عن الغذاء).[1]

وهذا استدلال غريب؛ أخرج الآية من سياقها، وتكلف في تأويلها تكلفاً لا يستسيغه المنطق العلمي في التفسير، فالنحل عندما يريد بناء بيته؛ يستنفد جهده وغذاءه للبناء والتربية؛ فهو لا يجمع غذاءً لينتج ما يخرج من بطنه حتى يتم بناء مخازن إنتاجه، ويستكمل إطعام يرقاته لتصبح مؤهلة للعمل[2]، و(بمجرد أن تشعر الشغالة بعدم وجود أي عمل لتأديته في الخلية؛ تترك الخدمة الداخلية وتقوم بعمل رحلات لجمع الرحيق وحبوب اللقاح والماء وغذاء النحل (البروبوليس)[3]، وقد يموت في هذه الفترة نحلات وتتهيّأ أخريات.

ويرى الباحث أن ما ذهب إليه ابن عاشور أقوى وأنسب لمقصد الآية في ذكر عجائب النحل والمنة بما فيها، ودلالتها على قدرة الله تعالى، والله أعلم.[4]

---

(١) نحل العسل في القرآن والطب د. محمد علي البنبي صـ٤٠.

(٢) نحل العسل ومنتجاته د. البنبي صـ٦٣.

(٣) نحل العسل ومنتجاته د. البنبي صـ ٦٤، والبروبليس هو العلك الذي يجمعه النحل.

(٤) ولعل الحرف «ثم» هنا للدلالة على مرحلة في حياة النحل تفصل بين بناء بيته وأكله من الثمرات، وعبر عنها بـ «ثم» لغرض الانتقال إلى مرحلة أعجب في الخلقة والتقدير والله أعلم، ولعل ثمة دلالات تستخرج من الآية يقررها ما يستجد في عالم النحل يظهرها عمق التفكر، والله أعلم بمراده.



ثم نقف هنا حول مسائل علمية يثيرها النظم القرآني:

*** الأولى: ما الدلالة في قوله تعالى: ﴿كُلِي﴾؟**

ليس غريباً أن لا نجد كثيراً من المفسرين يقفون عند هذه المفردة لبيانها، ربما لأنهم حملوا الأكل على حقيقته المعروفة، أو كان عذرهم أن ثمة خفايا في حياة النحل ما تزال قيد الدراسة لديهم، ولكننا نجد ذلك متناولاً عند المتأخرين باختصار شديد، فالآلوسي انتهى إلى القول: (وأخبرني من أثق به أنه شاهد كثيراً حملها لأوراق الأزهار بفمها إلى بيوتها، وهو ما يستأنس به للأكل).(١)

أما مع تقدم المعارف حول النحل؛ صار من المعروف أن نحلة الحقل الشغالة عندما تقع على الزهرة التي فيها الرحيق تمد خرطومها، وتأخذ في امتصاص كل ما يكون في متناول الخرطوم من الرحيق، وتخزنه في معدتها الخاصة بالعسل (معدة العسل) حتى تمتلئ، ثم ترجع لخليتها، وأثناء طريقها؛ تقوم النحلة بأعقد التفاعلات الكيماوية في معدتها، إذ تقوم بتحليل الرحيق وتهيئته ليكون عسلاً، وعندما تصل إلى خليتها؛ تلقنه لواحدة أو أكثر من الشغالات داخل الخلية فماً بفم، ليستقر الرحيق مرة أخرى في معدة العسل في النحلة الآخذة، وتستكمل ما بقي من تحليل الرحيق وتهيئته في معدتها أيضاً، إلى أن يتم الإنضاج والإفراز.(٢)

فهي إذاً لا تأكل بالمعنى المتعارف عليه، وإنما تمتص امتصاصاً، ثم تلقف ما خزنته لنحلة أخرى من فمها.

---

(١) روح المعاني ١٤/ ١٨٣.

(٢) انظر: نحل العسل ومنتجاته د. البنبي صـ٧٦، ٧٧، عالم النحل ومنتجاته صـ ١٣٨، ١٣٩، ١٤٠، النحلات صيدلانيات ملهمات صـ ٦١، ٦٢، ٦٣، ٦٤.

ولذلك يقول ابن عاشور رحمه الله: (وسُمّي امتصاصها أكلاً لأنها تقتاته؛ فليس هو بشرب)[1]؛ وما ذهب إليه ابن عاشور مذهب وجيه إن كان المقصود بالاقتيات هو التخزين المؤقت مع التغذي على النحو الذي تقدم.

ولعل السبب في هذا الاستشكال هو حصر الخارج من بطون النحلة بالعسل، وإنتاج العسل في النحل من الرحيق، وهذا الرحيق تمتصه النحلة وتصنعه عسلاً، فهي لا تأكله ابتداءً على سبيل الاقتيات والتغذي، وإنما تمصه على سبيل الإنتاج للعسل.

وقد يجاب عن ذلك بأن الأكل حمل على معنى التناول بالفم أنى كان هذا التناول، يقول الراغب: (الأكل تناول المطعم)[2]، فالنحلة الشغالة تتناول الرحيق، لكن لا بطريقة المضغ وإنما المص من فمها، ويؤيده السياق إذ يدل على أن مقصود هذا الأكل أن يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه. وهو تفسير قوي مخرج باللغة.

أما إذا قلنا: إن الخارج من بطون النحلة ليس العسل فقط؛ بل والشمع والغذاء الملكي أيضاً؛ فيكون الأكل في الآية حمل معنيين:

- **أحدهما**: الامتصاص على ما سبق بيانه.

- **والثاني**: الأكل للتغذي، لأن المكونات الأساسية لما يخرج من بطون النحلة: الرحيقُ وحبوبُ اللقاح.

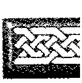
فأما الرحيق فهو معدن العسل، وأما حبوب اللقاح فيخرج منه الغذاء الملكي وبعض الإفرازات، وكما أن الرحيق يجمع من كل الثمرات؛ كذلك حبوب اللقاح

---

(١) التحرير والتنوير ١٤/ ٢٠٧.

(٢) المفردات صـ ٢٠.





تجمعه النحلة أيضاً من كل الثمرات -كما سيأتي بيانه قريباً-، وتخزنه في خليتها في العيون السداسية، وتحفظه بتغطيته بالعسل الذي تنتجه وبشيء من لعابها، ثم تأكل منه النحلة وتتغذى به، ويعتبر من أهم مصادر الغذاء للنحل ومصدراً أساسياً لنمو اليرقات، ويسميه النحالة (خبز النحل).(١)

أقول: وقد رأيت حبوب اللقاح وهي على شكل قطع تقارب الحبة السوداء في حجمها، وأخبرني أحد المختصين بتربية النحل أن النحلة تمضغ حبوب اللقاح مضغاً.(٢)

أقول: فإذا ثبت هذا فإن الأكل في هذا النوع من الطعام على معناه في التناول والمضغ والتغذي.

ولذلك فإن الباحث يرى أن **الأكل بمعنى: التناول والتغذي هو الأنسب**؛ وذلك لموافقته للمعنى اللغوي للأكل: التناول للمطعم كما سبق، ولأن الأكل يتضمن معنى التغذي إذ هو مقصوده كما يتناول معنى المضغ كم سبق، والنحل لا يتغذى على الرحيق كما هو معروف.

ويؤيد هذا المعنى دلالة (أكل) في القرآن، إذ وردت بمعان كثيرة مختلفة، منها: على الحقيقة في الأكل المعروف كما في قوله تعالى: ﴿مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ

---

(١) انظر: عالم النحل ومنتجاته صـ١٤٠، إلى صـ١٥٢ في تفصيل هذا. فنقصان حبوب اللقاح يؤثر على نشاط النحلات العملي ونموها الجسمي وقدرة غددها على الإنتاج.

(٢) وذلك عند لقائي مع د. رمضان هلال، المدرس في جامعة القصيم في السعودية لمادة النحل وتربيته؛ وقال لي أيضاً: إن حبوب اللقاح مادة بروتينية وفيها مكونات غذائية متكاملة تخزنها الشغالات.

قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ﴾ [المائدة:٧٥]، ومنها ما كان مجازاً، وهو كثير في القرآن كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ [النساء:١٠]، وغير ذلك من الآيات كثير، وكلها ترجع إلى معنى التناول والتغذي، وآية النحل من ذلك، والله أعلم

*** المسألة الثانية: ما معنى ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾؟**

إما أن تكون بمعنى التبعيض، أو بمعنى ابتداء الغاية[1]، وقد اعتمد الرازي معنى ابتداء الغاية بقرينة العلوم الطبية ومعارف عصره عن النحل، فقال: (ورأيت في «كتب الطب» أنه تعالى دبر هذا العالم على وجه، وهو أنه يحدث في الهواء طَلٌّ[2] لطيف في الليالي، ويقع ذلك الطل على أوراق الأشجار).

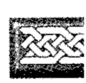
ثم قسم هذه الأجزاء الطلية إلى قسمين:

أحدهما: أجزاء طلية لطيفة صغيرة متفرقة على الأوراق والأزهار، وقد تكون كثيرة بحيث يجتمع منها أجزاء محسوسة، وهو الذي ألهم الله النحل الأكل منه والتغذي به، والادخار منه، فإذا اجتمع في بيوتها من تلك الأجزاء الطلية شيء كثير فذاك هو العسل.



(١) انظر: الدر المصون ٧/ ٢٦٣.

(٢) الطل: المطر الضعيف أو أخف المطر وأضعفه، أو الندى، أو فوقه ودون المطر. ترتيب القاموس ٣/ ٩٢.



أما القسم الثاني: فهو مثل الترنجبين[١]، فإنه طل ينزل من الهواء ويجتمع على أطراف بعض البلدان وذلك محسوس.

ثم يقول الرازي: (ومن الناس من يقول: إن النحل تأكل من الأزهار الطيبة والأوراق المعطرة أشياء، ثم إنه تعالى يقلب تلك الأجسام في داخل بدنها عسلاً، ثم إنها تقيء مرة أخرى فذاك هو العسل، والقول الأول أقرب إلى العقل وأشد مناسبة إلى الاستقراء، فإن طبيعة الترنجبين قريبة من العسل في الطعم والشكل، ولا شك أنه طل يحدث في الهواء ويقع على أطراف الأشجار والأزهار فكذا ههنا.

وأيضاً فنحن نشاهد أن هذا النحل إنما يتغذى بالعسل، ولذلك فإنا إذا استخرجنا العسل من بيوت النحل نترك لها بقية من ذلك لأجل أن تغتذي بها فعلمنا أنها إنما تغتذي بالعسل وأنها إنما تقع على الأشجار والأزهار لأنها تغتذي بتلك الأجزاء الطلية العسلية الواقعة من الهواء عليها).[٢]

بينما اكتفى البقاعي بنقل القولين مقدماً ما رجحه الرازي، واعتبر الآية دالة على تكثير الرزق فقال: (وأشار إلى كثرة الرزق بقوله تعالى: ﴿مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ قالوا: من أجزاء لطيفة تقع على أوراق الأشجار من الطل، وقال بعضهم: من نفس الأزهار والأوراق).[٣]

ولكن ترجيح الرازي ووجه استدلاله يرده تواتر الملاحظات العلمية حول سلوك وغذاء النحل، وسيأتي بيان ذلك عند الكلام على عموم كل الثمرات، بل إن المعلومات

---

(١) شيء حلو يسقط على الشجر، انظر مادة: منن في اللسان.

(٢) الرازي ٢٠/ ٥٨. وتبعه على ذلك ابن عادل ٢/ ٢١٣.

(٣) نظم الدرر ١١/ ١٩٨.

المتفق عليها فيما رأيته في كتب تربية النحل لا تؤيد ما ذهب إليه الرازي فإن غذاءها ليس مقتصراً على العسل بل على حبوب اللقاح وهو أكثره كما تقدم، وما رده الرازي هو الأقرب للواقع العلمي لحياة النحل مما رجحه واعتمده، والله أعلم.

يقول السمين الحلبي: (وأن تكون للابتداء، على معنى أنها تأكل شيئاً مما ينزل من السماء شبه الترنجبين على ورق الشجر وثمارها لا أنها تأكل نفس الثمرات وهو بعيد جداً)[1]. وسيأتي في المسألة الآتية ما يزيد الأمر وضوحاً.

وقد استظهر الآلوسي القول الثاني ـ وهو الأكل من نفس الأزهار والثمار ـ بدلالة السياقِ والواقعِ الطبي المتعارف عليه في عصره، فقال: (وأنت تعلم أن ظاهر (كلي) يؤيد القول الثاني، وهو أشد تأييداً له من تأييد مشابهة الترنجبين للعسل في الطعم والشكل للقول الأول، لا سيما وطبيعة العسل والترنجبين مختلفة..)[2]، ثم بين أن الترنجبين هو العسل الرطب بالفارسي لا طل الندى كما زعم الرازي، وأما تغذِّيها بالعسل فليس دائماً.[3]

والراجح لدى الباحث أن «من» هنا للتبعيض، (أي كلي جزءً أو شيئاً من كل الثمرات)[4]، ولكن هذا الجزء أو الشيء يختلف من ثمرة إلى ثمرة، فقد يكون رحيقاً، وقد يكون حبوب اللقاح؛ لا كما حصره ابن عطية بالنوار كما سيأتي إن شاء الله.

---

(١) الدر المصون ٧/ ٢٦٣.

(٢) روح المعاني ١٤/ ١٨٣.

(٣) انظر: روح المعاني ١٤/ ١٨٣.

(٤) المحرر الوجيز ٨/ ٤٦١ ط قطر الأولى.





*** المسألة الثالثة: هل العموم في قوله تعالى: ﴿كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ على حقيقته أم أنه مخصص؟**

وهذه المسألة مرتبطة بالتي قبلها في معنى ﴿مِن﴾، وجمهور المفسرين على أن العموم في الآية ليس مراداً، وإنما هو مخصوص، فبعضهم يخصصه بالعرف، وبعضهم بالعقل، وفي معنى هذا يدخل قول من خصص بالواقع أو العادة، وبعضهم جعل العموم عرفياً.

يقول البغوي: (ليس معنى الكل العموم، وهو كقوله تعالى: ﴿وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [النمل:٢٣])[١]، وهذا تخصيص بالعقل.

وفي زاد المسير: (قال ابن قتيبة: أي: من الثمرات، و«كلٌّ» هاهنا ليست على العموم، ومثله قوله: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءٍ﴾ [الأحقاف: ٢٥]. قال الزجاج: فهي تأكل الحامض والمرَّ، ومالا يوصَف طعمه، فيُحيل الله عز وجل من ذلك عسلاً)[٢]. وهذا تخصيص بالواقع، والمراد بعض الثمرات.

يقول الآلوسي: (والعموم في «كل» على ما يشير إليه كلام البعض عرفي، وجوز أن يكون مخصوصاً بالعادة، أي: كلي من كل ثمرة تشتهينها، وقيل: ﴿كُلِّ﴾ للتكثير، قال الخفاجي: ولو أبقى على ظاهره أيضاً جاز؛ لأنه لا يلزم من الأمر بالأكل من جميع الثمرات الأكل منها؛ لأن الأمر للتخلية والإباحة، وأياً ما: فـ «من» للتبعيض).[٣]

---

(١) البغوي ٥/ ٢٩ ط دار طيبة.

(٢) زاد المسير ٤/ ٣٤٠.

(٣) روح المعاني ١٤/ ١٨٢.



ويرى الباحث أن هذا العموم مخصص بالأكل من الطيب، وذلك لحديث الرسول صلى الله عليه وسلم: «**مَثَلُ الْـمُؤْمِنِ مِثْلَ النَّحْلَةِ لا تأكُلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَلا تضَعُ إِلَّا طَيِّبًا**»[1]، بحصر الأكل على الطيب فقط، ويكون معنى الطيب هنا: ما كان صالحاً للانتفاع به مستلذاً، أي: ما كان نافعاً مستلذاً؛ وهذا لا يعني استبعاد معنى ما تطيبه النفس كالرائحة والمذاق فإنها حاصلة فيها والله أعلم.

وأما تخصيصه بالعادة أو العرف بمعنى: كلي مما تعارفت عليه من الثمرات، أو مما اعتادت الأكل من الثمرات، فمنشؤه عند قائليه -والله أعلم- قلة المعلومات التي تسعفهم في معرفة مصادر غذاء النحل، أي: إن هناك أسراراً في حياة النحل ما زالت خافية عليهم فتخلصوا من ذلك بهذا القول والله أعلم.

وأما تعيين هذا البعض الذي تأكله النحلة فقد ذهب ابن عطية إلى القول: (أنها إنما تأكل النوار من الأشجار)[2]؛ وهذا ليس صحيحاً، لأن المشاهدة والمتابعة المتواترة لسلوك النحل وغذائه أثبتت أنه يجمع الرحيق، وحبوب اللقاح والماء والبروبوليس (العلك، غذاء النحل)، وكل واحدة من هذه لها مصدرها من الثمار، فهناك ثمار غنية بالرحيق ولكنها ليست مصدراً لحبوب اللقاح عند النحل، فالنخيل مثلاً (يجمع النحل

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى في تفسير سورة النحل (١١٢٧٨)، وابن حبان في صحيحه رقم (٢٤٧)، والشهاب القضاعي في مسنده رقم (١٢٤٦) تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي ط مؤسسة الرسالة أولى ١٩٨٥، كلهم من حديث أبي رزين العقيلي. بهذا اللفظ، وقد تقدم شاهد له من حديث عبد الله بن عمرو صـ ٥٤٩ من البحث.

(٢) المحرر الوجيز ٨/ ٤٦١ ط قطر.



منه حبوب اللقاح من النخيل المذكرة، ولكن النخيل المؤنثة لا تكون مغرية لزيارة النحل)[١]، والمانجو والعنب تفرز رحيقاً حسب الأصناف والظروف الجوية، ونباتات الزينة عندما تزهر فإن النحل يجمع من بعض أنواعها الرحيق فقط أو حبوب اللقاح فقط أو المادتين معاً، ويعتبر القطن المصدر الثاني بعد البرسيم للرحيق، وأما حبوب اللقاح التي تجمع منه فهي صغيرة جداً، وتعتبر الذرة الشامية مصدراً لحبوب اللقاح فقط وهكذا مما يطول شرحه.[٢]

ولذلك فإنا نجد أحد المختصين في تربية النحل لا يخفي إعجابه بالتعبير القرآني، إذ جمع بين التبعيض والشمولية؛ وذلك (لأن بعض أصناف الثمار لا تحتوي على خلايا ذكرية مثل الموز والبرتقال (أبو صرة) والعنب البناتي وغيرها من الثمار عديمة البذور، وهي أصناف ظهرت كطفرات من الأنواع النباتية البذرية تتكون ثمارها بكرياً بنمو مبيض الزهرة وحده)[٣]، فلا تكون مرغوبة للنحل ولا مغرية له، لكونها مصدراً للرحيق فقط دون حبوب اللقاح، (أي: أن النحل يأكل أجزاء من كل أنواع الثمرات).[٤]

وعلى ذلك صار المعنى: ثم كلي بعض أجزاء كل الثمرات التي تنفعك في الإنتاج والغذاء، والله أعلم.

---

(١) نحل العسل ومنتجاته د. البنبي صـ٦٦.

(٢) انظر: نحل العسل ومنتجاته د. البنبي صـ٦٦، ٦٧، ٦٨.

(٣) نحل العسل في القرآن والطب د. البنبي صـ٤٢.

(٤) نحل العسل في القرآن والطب صـ٤٤.

وقد يقول قائل: إن في هذا تعارض مع ما سبق في كون الآية مخصصة بأكل ما هو طيب بدليل حديث النبي صلى الله عليه وسلم؟

فالجواب أن لا تعارض، بل المعنى منسجم ومكتمل، وذلك لأن النحل يأكل البعض الذي يستطيبه من كل الثمرات، فإن كان ثمة ثمرة فيها ما لا يستطيبه، أو لا يستطيب هذه الثمرة تركها إلى غيرها، ومما يؤكد هذا أنه (لوحظ أن ٩٧٪ من نحل الحقل يحدد زيارته لأزهار نوع معين من النباتات في الرحلة الواحدة، وكذلك يحدد زياراته لأزهار نوع معين من النباتات في مساحة محددة، بدلاً من زيارة أي مكان من الحقل أينما اتفق، وبذلك يجمع أكبر محصول بأقل مجهود وأسرع وقت)[1] ويتوقف هذا الاختيار لعوامل مختلفة ليس محلها هنا، وهذا أيضاً مما يوسع مدلول الآية في قوله ﴿مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾.

ويقوي أيضاً قول الخفاجي[2] الذي نقله الألوسي: (قال الخفاجي: ولو أبقى على ظاهره أيضاً جاز لأنه لا يلزم من الأمر بالأكل من جميع الثمرات الأكل منها لأن الأمر للتخلية والإباحة).[3]

---

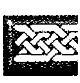
(١) نحل العسل ومنتجاته د. البنبي صـ٦٩، ٧٠. وينظر: مملكة النحل د. حسانين صـ٢٨٩ إلى صـ٢٩٨ ففيه ما يتصل بهذا الموضوع من حيث المعلومات والتجارب.

(٢) أحمد بن محمد بن عمر، شهاب الدين الخفاجي المصري، قاضي القضاة، فقيه مفسر أديب وطبيب، له مصنفات عديدة وحاشية مشهورة على البيضاوي (ت ١٠٦٩هـ). انظر: معجم المفسرين لنويهض ١/ ٧٥.

(٣) الآلوسي ١٤/ ١٨٢.







وعلى ما تقدم فإن الآية تحتمل معنيين يكمل أحدهما الآخر في نسق واحد يستوعبه النظم القرآني نلخصه بالآتي:

المعنى الأول: ثم كلي بعض أجزاء كل الثمرات مما ينفعك في إنتاجك ومما تستطيبينه، وبذلك تشير الآية إلى أن النحل قد علمها الله كيف تختار غذاءها وكيف تنتقيه في محله، وكيف تميز الثمرة التي فيها الرحيق من الثمرة التي فيها حبوب اللقاح من الثمرة التي فيها الإثنان معاً.

والمعنى الثاني: أنه علمها كيف تميز الثمار المستطابة لها والغنية، فتحصرها في مسافة معينة ولا تضيع وقتها في ثمار أقل غذاءً وإن كبرت مساحة زراعته، والله أعلم.

وهذا المعنى الثاني هو من لوازم الأمر بالأكل من كل الثمرات التي تستطيبها.

*** المسألة الرابعة: لم عبر عن الأزهار بالثمرات؟**

تبين لنا في غريب الآيات أن الثمرات جمع ثمرة، وتطلق على ما تحمله الشجرة سواء أكل أم لا، ويظهر أن المفسرين كانوا يمرونها على ظاهرها دون استشكال، بينما نجد الآلوسي يقف عندها ويعرض الآراء في بيانها فيقول: (وهي جمع ثمرة محركة: حمل الشجر، وأخذ بظاهر ذلك ابن عطية فقال: إنما تأكل النوار من الأشجار، وتقال الثمرة للشجرة أيضاً كما في «القاموس»، قيل: وهو المناسب هنا، إذ التخصيص بحمل الشجر خلاف الواقع لعموم أكلها للأوراق والأزهار والثمار. وتعقب بأنه لا يخفى أن إطلاق الثمرة على الشجرة مجاز غير معروف، وكونها تأكل من غيرها غير معلوم وغير مناف للاقتصار على أكل ما ينبت فيها).[1]

---

(١) الآلوسي ١٤/ ١٨٢، وانظر: المحرر الوجيز ٨/ ٤٦١ ط قطر، ومثله القرطبي ١٠/ ٨٩.والنور هو الزهر كما في المصباح المنير مادة: (نور).



فهو إذن يعتبرها من مشكلات القرآن، ولا يخفى ما في كلام الآلوسي من أمور فيها نظر؛ كأكل النحل من الأوراق مثلاً.

والأحسن منه ما قاله ابن عاشور: (والنحل يمتص من الأزهار قبل أن تصير ثمرات، فأطلق ﴿ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ في الآية على الأزهار على سبيل المجاز المرسل، بعلاقة الأولى).[1]

وهذا وجه قوي في أسلوب القرآن البياني، خاصة أنه بات من المعروف يقيناً أن الأزهار هي المصدر الأساسي لما يجمعه النحل سواء كان رحيقاً أو حبوب اللقاح أو غيرهما، وإن كان هناك (بعض المصادر الثانوية لجمع الرحيق وهي أقل أهمية من الأزهار، إذ قد يمتص النحل عصارة بعض ثمار الفواكه الزائدة النضج والمجروحة، ولكن لا يمكنها ثقب القشرة الخارجية للثمرة السليمة).[2]

لا يجوز جعل ما كان ثانوياً في حياة المخلوقات أصلاً في بيان القرآن دون دليل معتبر.

ولكنا في التفسير لا يمكن أن نعتبر ما كان ثانوياً في الواقع دالاً على معنى مفردة قرآنية دون دليل يرجحه، فالآية تظهر عجائب النحل في نظام حياتها وأعمالها، ومن التكلف العلمي وضعف البيان أن نجعل ما كان ثانوياً أو اضطرارياً في أعمال النحل أصلاً في تفسير الآية وبيان عجائبها، وإن كان أكلها من هذه الثمار الزائدة في النضج يدخل في دلالة الآية عموماً، والله أعلم.

---

(١) التحرير والتنوير ١٤/ ٢٠٧.

(٢) انظر: عالم النحل ومنتجاته صـ١٣٣.



*** ولكن هل في هذا الأسلوب دلالة علمية تشير إليها الآية؟**

من المعروف أن ذروة نشاط النحل في عمله هو في أيام الربيع عندما تزهر الأشجار والنباتات، وقد تقدم أن النحل قد يجمع الرحيق فقط من بعض الأزهار، ويجمع حبوب اللقاح من بعضها الآخر، وقد يجمع الاثنين معاً، وأثناء هذا الجمع وتنقله من زهرة إلى زهرة؛ يقوم بتلقيح الزهور فيكون ذلك سبباً في جعل الزهرة ثمرة وسبباً في زيادة المحاصيل الزراعية[1]، يقول د. البنبي: (فالنحل يأكل الرحيق وحبوب اللقاح من الأزهار، والأزهار هي أصل الثمار، علاوة على أن حبوب اللقاح التي يعتمد عليها النحل في تغذية صغاره وفي إخراج جميع منتجاته الشافية تدخل في تكوين الثمرات وتندمج فيها).[2]

وهذا من القرائن الواقعية التي تقوي قول ابن عاشور رحمه الله في التعبير بالثمرات عن الأزهار.

قوله تعالى: ﴿فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾:

الآية كما تقدم أمر كوني يفسر الوحي المتقدم في أول الآيات، وهذا يدل على أن سلوك النحل تعليم من الله، إذ علمها كيف تنتقل من زهرة إلى زهرة وكيف تختار الأزهار وتشق إليها الطرق، يقول ابن عباس: (أمرها أن تأكل من كل الثمرات وأمرها أن تتبع سبل ربها ذللاً).[3]

---

(١) ينظر: تربية نحل العسل د. الحنفي صـ٤٤٣ فما بعد.

(٢) نحل العسل في القرآن والطب د. البنبي صـ٤٤.

(٣) أخرجه ابن جرير ١٤/ ٩٣، وابن أبي حاتم رقم (١٣٤٣١).



أنموذج لأثر معاني الحروف في التفسير العلمي.

والفاء هنا عاطفة، وهي إما للتعقيب، أو التفريع، أو للسببية، أو الفصيحة؛ لتنبئ أن ما بعدها جواب الطلب المتضمن فيما قبلها[١]، وكل هذه المعاني واردة في الآية حسب اعتبار محل سلوكها.

والسلوك: (المرور وسط الشيء من طريق ونحوه)[٢]، وقد تعددت آراء العلماء في محل هذا السلوك في قوله تعالى: ﴿فَٱسۡلُكِي﴾.

فبعضهم جعل محل السلوك في الطرق لطلب الرزق، أي: ادخلي طرق ربك لطلب الرزق في الجبال وخلال الشجر. فالفاء هنا عاطفة للتفريع.[٣]

وقد جعلها ابن عاشور للتفريع على أنها تسلك في طلب الثمار طرقها، وتسلك الطرق في العودة إلى بيتها[٤]، وهو رأي ابن كثير من قبله إذ قال: (أن تسلك الطرق التي جعلها الله تعالى لها مذللة، أي: سهلة عليها حيث شاءت في هذا الجو العظيم والبراري الشاسعة، والأودية والجبال الشاهقة، ثم تعود كل واحدة منها إلى موضعها وبيتها، لا تحيد عنه يمنة ولا يسرة..).[٥]

وبعضهم جعل هذا السلوك في طريق العودة بعد الأكل من الثمرات، حين العودة إلى البيت، أي: إذا أكلت الثمار في الأمكنة البعيدة، فاسلكي إلى بيوتك راجعة في سبل

(١) انظر: حروف المعاني لأبي إسحاق الزجاجي صـ٣٩. الإتقان للسيوطي ١/ ٣٣٤ ط السعودية.

(٢) التحرير والتنوير ١٤/ ٢٠٨.

(٣) السراج المنير للخطيب ٣/ ٣٥٤.

(٤) التحرير والتنوير ١٤/ ٢٠٨.

(٥) ابن كثير ٤/ ٥٨٢ ط دار طيبة.



ربك، لا تضلين فيها، وهو اختيار أبي حيان وتبعه الآلوسي[1]، فالفاء هنا على معنى الشرط وجوابه، وتحمل معنى الترتيب الذكري.

وبعضهم جعل معنى الفاء السببية، أي: فتسبب عن الإذن في الأكل؛ الإذن في السير إليه.[2]

وبعضهم جعل معناها أن تسلك الطرق التي أفهمها الله وعلمها في صنع العسل، فهي على التعقيب؛ وتكون (سبل) مفعولاً به، وقدم هذا الرأي الزمخشري والرازي والنسفي والقاسمي.[3]

فكأن النحل على قولهم لها أنماط من السلوك علمها الله إياها تقوم به لصنع العسل، و هذا الرأي له وجاهته إذا قصرنا الشراب الذي يخرج من بطونها على العسل فقط، فتركيز الرحيق ليكون عسلاً يحتاج من النحلة اتباع طرق مختلفة ودقيقة علمها الله إياها؛ وبيان ذلك أن النحلة بعد أن تجمع الرحيق وتخزنه في حويصلة العسل تقوم بتركيزه إلى أن تصل إلى الخلية، فتسلمه لشغالات الخلية لتستكمل عملية التركيز، وأثناء عمليات التركيز -سواء عند النحلة المعطية أو المستقبلة- يمتزج الرحيق ببعض إفرازات الغدد اللعابية الغنية بالخمائر التي تقوم بتحليل السكريات المعقدة إلى سكريات بسيطة، وإذا لم يتبخر الماء بعد في معدة العسل؛ فإن النحلات تقوم بعمليات

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٥١٢ ، روح المعاني ١٤/ ١٨٣.

(٢) نظم الدرر ١١/ ١٩٨.

(٣) الكشاف ٢/ ٥٧٦، الرازي ٢٠/ ٥٨، النسفي ٢/ ٢٩٢، القاسمي ١٠/ ١٢٧، وانظر: الدر المصون٧/ ٢٦٣.

الإنضاج المكانيكي، وتتلخص في أن النحلة تفتح فكيها على مصراعيه، وتبرز خرطومها إلى الأمام والأسفل حتى تتدلى منه قطرة صغيرة جداً من الرحيق، ثم تعيدها مرة أخرى بسرعة لمعدة العسل، وتكرر هذه العملية بين ١٢٠ إلى ٢٤٠ مرة لكل قطرة، حتى تشعر النحلة بأن قوام الرحيق أصبح مناسباً، ثم تبحث عن نخروب سداسي لتطرحه فيه، وإذا بقي شيء من الماء في العسل غير الناضج في النخاريب فإن النحلة تقوم بنقله من نخروب إلى آخر حتى يتبخر ماؤه.

وثمة طريقة أخرى لتجفيف الماء من العسل، إذ تقف النحلات فوق النخاريب هذه، وتحرك بأجنحتها من أجل الهواء حتى تصل إلى ذبذبة مقدارها ٢٦ ألف مرة في الدقيقة، لتجفيف العسل من الماء حتى ينضج، ولا يبقى فيه أكثر من ١٨- إلى ٢٠٪ فيكون عندها قد نضج وعندها تغلق عليه النحلة بغطاء شمعي محكم يمكن أن يحفظ العسل داخله عشرات السنين.[1]

فيكون معنى الآية مسقط على مجموع الأعمال والطرق التي تقوم بها النحل لإنتاج العسل؛ ابتداءً من جمع الرحيق، وانتهاءً بتخزينه وإنضاجه.

وبعضهم جعل محل السلوك في الأماكن - المسالك - التي يحيل الله فيها ما تحمله عسلاً، أي: اسلكي ما أكلت في سبل ربك، أي: في مسالكه التي يحيل فيها بقدرته الرحيق عسلاً، فالفاء هنا للتعقيب، وتكون (سبل) منصوبة على الظرفية، والآية على

(١) انظر: النحلات صيدلانيات ملهمة د. محمد نزار الدقر صـ ٦١، إلى صـ ٦٦ ط دار المعاجم الأولى ١٩٩٥. العسل شفاء لكل داء صلاح بادويلان صـ ٣٣، ٣٤، ط مكتبة السعيد الأولى ١٤٢١ هـ. نحل العسل ومنتجاته د. محمد علي البنبي صـ ٧٤، إلى صـ ٧٨.



ذلك (مجاز عن طريق إحالة الغذاء عسلاً، والأمر (اسلكي) متعد من سلكت الخيط في الإبرة سلكاً).(١)

وقدم هذا المعنى البيضاوي في أنواره، فقال: (﴿فَٱسْلُكِى﴾ ما أكلت، ﴿سُبُلَ رَبِّكِ﴾ في مسالكه التي يحيل فيها بقدرته النور المرَّ عسلاً من أجوافك، أو ﴿فَٱسْلُكِى﴾ الطرق التي ألهمك في عمل العسل، أو فاسلكي راجعة إلى بيوتك).(٢)

وقدمه السمين في الدر المصون وابن عادل في تفسيره وأبو السعود.(٣)

وقد ناقش الآلوسي هذا الرأي، فقال:

(وتعقب بأن السلك في تلك المسالك ليس فيه لها اختيار حتى تؤمر به فلا بد أن يكون الأمر تكوينياً!.

ورد بأنه ليس بشيء لأن الإدخال باختيارها، فلا يضره كون الإحالة المترتبة عليه ليست اختيارية وهو ظاهر فليس كما زعم).(٤)

أقول: إذا قصرنا الشراب على العسل فقط، وأنها لا تخرج غيره؛ نعم ليس لها اختيار فيه، أما إذا علمنا أنها تخرج أكثر من نوع من الشراب؛ فتمييز المخرج حسب الحاجة لا بد أن يكون باختيارها كما علمها الله، والله أعلم.

---

(١) انظر: روح المعاني ١٤/ ١٨٤.

(٢) البيضاوي صـ ٣٧٠، تحقيق: محمد سالم محيسن، محمد شعبان، ط: مكتبة الجمهورية العربية، د. ت.

(٣) الدر المصون ٧/ ٢٦٣، ابن عادل ٢/ ٢١٥. أبو السعود ٥/ ١٢٥.

(٤) روح المعاني ١٤/ ١٨٤.



وقد جزم بعض المختصين بتربية النحل بهذا الوجه الأخير – أي: المسالك التي هيأها الله لصنع ما يخرج من بطونها –، واحتج بسياق الآية، فقال: (فوجود هذه الجملة فاصلة بين تغذية النحل على الثمرات وبين إخراجه للسوائل التي تشفي الناس؛ جعلت معناها بعيداً عن التفسير الدارج بأن تسلك سبل الله بالطيران في جو السماء، ولكنها أقرب إلى كونها سبلاً ممهدة لإخراج السوائل الشافية من بطون النحل، لا سيما وأنها تضمنت تعبير ﴿سُبُلَ رَبِّكِ﴾، أي: سبل الرب الذي خلق النحل، وذلك فيه تحديد بأن هذه السبل مخصصة للنحل فقط، ولا يوجد مثلها في كائن سواه، **وهذه السبل يمكن أن تفسر بأحد معنيين:**

- **المعنى الأول**: هو الطرق التي تصل بين معدة النحل وبين الغدد المختلفة التي تقوم بتحويل الغذاء إلى السوائل الشافية المتعددة.

- **المعنى الثاني**: هو الوسائل التي عملها الله للنحل وذللها له وغرسها في فطرته وأدخلها في غريزته لكي يحول غذاءه إلى أي من السوائل المختلفة الشافية للناس)[١]، ثم أكد ما ذهب إليه بأن النحل إذا أكل فإنه يسكن مباشرة دون عمل ظاهر بينما تعمل غدده على إفراز السوائل المطلوبة.[٢]

ثم رد ما هو متعارف عليه في تفسيرها من الأقوال السابقة وخاصة منها القول بأنها تطير بعد الأكل لتعود إلى بيتها دون أن تضل الطريق، واحتج أنها (لا تتوافق مع قوة هذه الآية ولا يتوافق هذا التفسير مع وحي الله للنحل، أي: إكسابه قدرة تفوق

---

(١) نحل العسل في القرآن والطب د. البنبي صـ٥١.

(٢) نحل العسل في القرآن والطب د. البنبي صـ ٥٢.





قدرات كل الكائنات الأخرى، فكل الكائنات عندما تأكل تعود إلى بيتها دون أن تضل طريقها).[١]

ويرى الباحث أن الوجه الأخير – أن السبل هي المسالك أو الطرق في بطنها التي يحيل الله فيها ما تأكله شراباً– هو أرجح الوجوه في تفسير هذه الجملة من الآية، وذلك – إضافة إلى ما تقدم من حيث الواقع العلمي – أنسب لسياق الآيات ومناسبتها لما قبلها، فقد تقدم كيف منَّ الله على عباده وأظهر لهم عظيم قدرته في خلق اللبن من بين فرث ودم، وكيف خلق لهم في ثمرات النخيل والأعناب ما يتغذون به ورزقاً حسناً، وفي ذلك دليل على توالي نعمته ومظاهر قدرته على عباده، وهنا يبين لهم مظاهر قدرته أيضاً في عجائب تعليمه للنحل في صنع ما يخرج من بطونها و في ما فطرها عليه، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن الآيات تخبرنا عن خفايا في عالم النحل ليست ظاهرة للناس مما يجعل في هذا الإخبار حجة قاطعة في أن هذا القرآن إنما هو من عند الله تعالى، وهذا من أحد أغراض سورة النحل.. ومما يؤيد ترجيح هذا الرأي لحق الآية في قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ﴾ إذ هي جملة بيانية كما سيأتي، وهي محل العبرة، فكأن ما تقدمها تمهيد وبيان لها؛ فسلوك الغذاء في المسالك التي ذللها للنحلة؛ هو سبب الخروج العجيب للشراب المختلف من بطونها، والله أعلم.

فيكون سياق الآية في سبقها ولحقها قرينة مرجحة لما ذهبت إليه، كما أنه يتفق مع أغراض السورة في الحديث عن أسرار وعجائب هذه الحشرة.[٢]

---

(١) انظر: نحل العسل في القرآن والطب صـ ٥٢.

(٢) علق فضيلة الدكتور المشرف على هذا الكلام بخطه: (كل الأقوال فيها هذه الدلالة، لكن الأخير أدخل فيها يليه القول بالطرق التي علمها الله في صنع العسل، وهو أقرب لدلالة الآية)ا.هـ



ولا يعني ترجيح هذا الوجه أن ما تقدمها من الأوجه ليس صحيحاً في نفس الأمر، بل كل هذه الأوجه تحتملها الآية، بل منها ما يحمل دلالة علمية كما تقدم في معنى اتباعها الطرق التي علمها الله في صنع العسل، وسنبين ما تحمله بعض الآراء الأخرى من دلالات علمية عند الكلام على قوله تعالى: ﴿ذُلُلًا﴾.

وبالجملة فجميع الأقوال لا يعارض بعضها بعضاً أبداً، بل إن الجميع تحتمله الآية، وإنما الترجيح بحسب القرائن والأدلة واجتهاد الباحث؛ والله أعلم.[١]

نموذج أثر الإعراب في التفسير العلمي للقرآن.

قوله تعالى: ﴿ذُلُلًا﴾.

تقدم أنها إما أن تكون حالاً من السبل، بأن ذللها الله تعالى لها، وهذا على اعتبار أن المراد بالسبل الطرق التي تسلكها النحل لطلب الثمرات لأكلها أو الرجوع لبيتها.

أو على اعتبار أن السبل هي الأعمال التي تقوم بها النحل لصنع العسل، وهو قول مجاهد[٢] واختيار الزجاج[٣] وعدد من المفسرين.[٤]

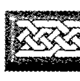
---

(١) ولا يبعد أن تكون هذه المعاني كلها مرادة في الآية، إذ يمكن الجمع بينها.

(٢) أخرجه ابن جرير ١٤/ ٩٤، وابن أبي حاتم برقم: (١٣٤٣٢).

(٣) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٣٤٠.

(٤) البقاعي في نظم الدرر ١١/ ١٩٨. والشربيني في السراج المنير ٣/ ٣٥٤. أبو السعود ٥/ ١٢٦، علق فضيلة المشرف هنا بخطه: (وهو أقرب لدلالة الآية كما سبق [أي في تعليقه السابق] ووجوده من قول جماعة من السلف يرجحه، إلا أنهم فهموه مجملاً وفهمناه في ضوء تقدم العلم مفصلاً معللاً) ا.هـ.



أو تكون حالاً من الضمير في قوله تعالى: ﴿فَٱسۡلُكِي﴾، أي: حال من النحل، على معنى منقادة ومطيعة ومسخرة، وهو قول قتادة(١)، والسدي(٢)، وهو مفاد كلام ابن زيد(٣) واختاره ابن قتيبة(٤) وغيره من المفسرين.(٥)

وذكر النحاس المعنيين احتمالاً دون ترجيح.(٦)

يقول ابن جرير فقال: (وكلا القولين غير بعيد من الصواب في الصحة وجهان مخرجان، غير أنا اخترنا أن يكون نعتا للسُّبل لأنها إليها أقرب).(٧)

وعلى ما ترجح لدى الباحث من أن من المراد بالسبل المسالك التي يحيل بها النحل ما في بطنه إلى شراب مختلف ألوانه، فإنه يرى أن ذلولاً حال من السبل على هذا المعنى، أي أن الله جعل هذه السبل منقادة مسخرة لاختيار النحلة في الشراب الذي تريد

---

(١) أخرجه ابن جرير ١٤/ ١٩٨.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم برقم (١٣٤٣٤) إذ يقول السدي: (ذليلة لذلك).

(٣) إذ فسرها على الانقياد ليعسوبها أو ملكها كما أخرج ابن جرير ١٤/ ٩٤ عنه أنه قال: (الذلول: الذي يُقاد ويُذهب به حيث أراد صاحبه، قال: فهم يخرجون بالنحل ينتجعون بها ويذهبون، وهي تتبعهم. وقرأ ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا خَلَقۡنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ أَنۡعَٰمٗا فَهُمۡ لَهَا مَٰلِكُونَ ٧١ وَذَلَّلۡنَٰهَا لَهُمۡ﴾[يس:٧١،٧٢].. الآية) ومثل ذلك ذهب البغوي في تفسيره ٣/ ٧٦ ط المعرفة، وعلق فضيلة المشرف هنا ما نصّه: (وهذا تقييد لا دليل عليه).

(٤) كما في زاد المسير ٤/ ٣٤٠.

(٥) كالقرطبي ١٠/ ٨٩، وابن عاشور في التحرير والتنوير ١٤/ ٢٠٨.

(٦) انظر: معاني النحاس ٤/ ٨٤.

(٧) ابن جرير ١٤/ ٩٤.

إخراجه حسب المصلحة والمنفعة على الوجه الأكمل[١]، أي: إن الله هيَّأ لها وسهل وهون عليها مسالك صنع الشراب الذي يخرج منها، (فإن إعداد عملية معقدة ودقيقة مثل عملية إعداد العسل -مثلاً- في النحل تحتاج من البشر إلى مصنع كبير تعادل مساحته مدينة طوكيو على أقل تقدير)[٢]، والله أعلم.

وعلى اعتبار أن ﴿ذُلُلًا﴾ حال من النحلة؛ ومعنى هذا التذليل التسخير، فيها إشارة إلى التكوين الخلْقي الذي خلقها الله عليه وبسببه يذلل لها طرق الحصول على الغذاء، يقول أحد المختصين في تربية النحل: (فقد جُعل من صدرها حجرة واسعة نتيجة انضمام الحلقة البطنية الأولى إلى حلقات الصدر الثلاث، حتى يحتوي هذا الصدر الكبير عضلاتٍ كثيرة قوية تزوَّد بها الأجنحة، وكذلك حتى يتسع للأكياس الهوائية التي تنتشر في فراغ الصدر والبطن فتزيد من خفة وزن النحلة فتسهل لها عملية الطيران، كما أن الصدر قد زُوِّد بزوجين من الأجنحة على كل جانب، وجُعلت هذه الأجنحة تتشابك مع بعضها دون عناء؛ ولتتمكن من أن تطير ولمسافات بعيدة لتبحث عن قوتها ومصدر غذائها)[٣]. فتبارك الله أحسن الخالقين.

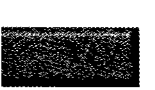
وعلى معنى أن ﴿ذُلُلًا﴾ حال من السبل، وأن السبل هي الطرق التي تسلكها النحلة إلى الثمرات؛ فالدلالة المستفادة في جمع السبل: بيان كثرة الطرق التي تسلكها

---

(١) ينظر: أبو السعود ٥/ ١٢٦.

(٢) انظر: النحلات صيدلانيات ملهمة د. محمد نزار الدقر صـ٦٣.

(٣) تربية نحل العسل د. عبد المنعم الحنفي صـ(ي) من المقدمة، وينظر نحل العسل ومنتجاته صـ٤٣ في وصف صدر النحلة وتركيبه.





النحلة للحصول على الغذاء الذي تصنعه شراباً نافعاً للإنسان، فإن إنتاج كيلوغرام واحد من العسل مثلاً يتطلب من النحل القيام بـ ٦٠٠.٠٠٠ – ٨٠٠.٠٠٠ طلعة والوقوف على ٦ – ٨ مليون زهرة لجمع الرحيق، تقطع خلالها النحلات مسافة نصف مليون كيلومتر، أي: أكثر من عشرة أضعاف محيط الكرة الأرضية.[1]

يقول ابن عاشور: (وإضافة السبل إلى ﴿رَبِّكِ﴾؛ للإشارة إلى أن النحل مسخرة لسلوك تلك السبل لا يعدلها عنها شيء، لأنها لو لم تسلكها لاختل نظام إفراز العسل فيها).[2]

وبذلك تجد أن جميع الأقوال لها ما يدعمها ويقويها، ولكل قول منها دلالة على جانب من جوانب حياة النحل، أو على عجيبة من عجائبه، واختلاف الأقوال لا يعني إلغاء قول على حساب قول آخر؛ وإن ترجح لدى الباحث أحدها، لكن يمكن الجمع بين هذه الآراء في نسق واحد كما تقدم، فنظم القرآن نظم معجز، ومن أحد مظاهر إعجازه أنه لا تنقضي عجائبه.

قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُۥ﴾:

(جملة مستأنفة استئنافاً بيانياً، لأن ما تقدم من الخبر عن إلهام النحل تلك الأعمال؛ يثير في نفس السامع أن يسأل عن الغاية من هذا التكوين العجيب، فيكون مضمون

---

(١) انظر: التكوين الاجتماعي لمجتمع النحل م. حاتم البشتاوي صـ٦ بحث مقدم لمؤتمر الإعجاز العلمي في دبي، النحلات صيدلانيات ملهمات صـ٦٢ مع اختلاف بسيط في عد المسافات في المرجعين، وسببه والله أعلم هو أن تقدير المسافات تقريبي، واعتمدت ما ذكره م. البشتاوي لأن بحثه أقرب وأحدث من حيث الزمن.

(٢) التحرير والتنوير ١٤/ ٢٠٨.





جملة: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾ بياناً لما سئل عنه، وهو أيضاً موضع المنة كما كان تمام العبرة).(١)

وفي الآية التفات من المخاطب إلى الغيبة، (والمقصود أن يحتج المكلف به على قدرة الله تعالى وحكمته وحسن تدبيره لأحوال العالم العلوي والسفلي).(٢)

يقول الآلوسي: (عدل به عن خطاب النحل إلى الكلام مع الناس؛ لبيان ما يظهر منها من تعاجيب صنع الله تعالى التي هي موضع عبرتهم، بعد ما أمرت بها أمرت).(٣)

(وجيء بالفعل المضارع للدلالة على تجدد الخروج وتكراره).(٤)

قوله تعالى: ﴿مِنْ بُطُونِهَا﴾:

نموذج لأثر النحو ومعاني الحروف في التفسير العلمي.

﴿مِنْ﴾ في الآية لابتداء الغاية، أي: يخرج الشراب ابتداءً من بطونها، وإلى ذلك ذهب الآلوسي فقال: (وذكر سبحانه مبدأ الغاية الأولى وهي البطون ولم يذكر سبحانه مبدأ الغاية الأخيرة..).(٥)

وقد تقدم في آية الأنعام تفسير البطن لغة أنه خلاف الظهر، ويطلق على الجارحة المعروفة، وقد استشكل على المفسرين المراد بالبطون في آية النحل هذه، حتى تكلف الرازي في تأويل البطون بأنها الأفواه؛ محتجاً أن كل تجويف في داخل البدن بطن،

---

(١) التحرير والتنوير ١٤/ ٢٠٨.

(٢) الرازي ٢٠/ ٥٨.

(٣) الآلوسي ١٤/ ١٨٤.

(٤) التحرير والتنوير ١٤/ ٢٠٩.

(٥) الآلوسي ١٤/ ١٨٤.

وبما أن داخل فمها غير ظاهر فهو بطن، وذلك استناداً إلى الحس والمشاهدة -كما قال[١]، ويقول ابن كثير: (فتبني الشمع من أجنحتها، وتقيء العسل من فيها، وتبيض الفراخ من دبرها، ثم تصبح إلى مراعيها).[٢]

يقول الآلوسي: (والجمهور على أنه يخرج من أفواهها، وزعم بعضهم أنه أبلغ في القدرة، ... وقال آخرون: لا ندري إلا ما ذكره الله..).[٣]

وبعدما عدد الآلوسي أقوال العلماء في المراد بالبطون وناقشها؛ قال: (وأنت تعلم أن الظاهر من البطن الجارحة المعروفة، فالآية تؤيد القول المشهور في تكون العسل، وفي «الكشف» أن في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ كُلِي ﴾ إشارة إلى أن لمعدة النحل في ذلك تأثيراً، وهو المختار عند المحققين من الحكماء، ومن جعل العسل نباتياً محضاً وفسر البطون بأفواه النحل؛ فليت شعري ماذا يصنع بقوله سبحانه: ﴿ ثُمَّ كُلِي ﴾).[٤]

فما تقدم من الأقوال في تفسير البطون يدل على أنهم إنما فسروا الآيات بما تيسر لهم من معارف عن النحل، أو بما اجتهدوه من النص في معرفته، وكذلك يدل على أن معلوماتهم عن النحل كانت يسيرة جداً تقتصر على المشاهدة البريئة؛ لعدم توفر الوسائل التي تجعلهم يلاحظون أسرار هذا العالم العجيب.

---

(١) انظر: الرازي ٢٠/ ٥٩.

(٢) ابن كثير ٤/ ٥٨٢.

(٣) الآلوسي ١٤/ ١٨٤.

(٤) الآلوسي ١٤/ ١٨٤.

ولو تتبعنا الآيات التي ذكرت فيها البطون في القرآن الكريم؛ لوجدناها كلها تدل على الجارحة المعروفة التي تحت الصدر كما ذكر الآلوسي، ولا تخرج دلالة البطن في هذه الآية عن ذلك، إنما الذي ألجأ المفسرين إلى أن يذهبوا إلى ما ذهبوا إليه من الحقيقة إلى المجاز هو قرينة الظاهر الحسي، وهم معذورون في ذلك ومأجورون فيما اجتهدوا به، بينما نجد من العلماء من توقف في تفسيرها كما نقل الآلوسي.

وأما مع تقدم وسائل العلم والتشريح بفضل الله؛ فقد أمكننا معرفة بيان الآية على الوجه الصحيح إن شاء الله..

فالآية ذكرت أن النحلة تأكل من كل الثمرات، ومحل الأكل الفم، وذكرت هنا أن الشراب يخرج من البطون بالجمع، فالبطن هنا إذن على حقيقتها، وجمع البطن مُخَرَّجٌ لغةً بالعود على معنى الجمع في النحل، ولكن هل هذا الجمع إشارة إلى إحدى عجائب النحل المنطوية في أسرار دلالات الآية، وحتى يتضح لنا ذلك؛ ينبغي معرفة ما يحتويه التجويف البطني (الجهاز الهضمي) للنحلة.

نموذج أهمية استخدام علم التشريح في بيان القرآن استناداً إلى اللغة.

* مكونات الجهاز الهضمي للنحلة:

تبدأ القناة الهضمية في النحلة بفتحة الفم، ويتصل بتجويف الفم طُلمبةٌ ماصَّة تشبه الكيس، تساعد الشغالات على امتصاص الرحيق، ويستدق الكيس عند نهايته مكوناً أنبوبة ضيقة وهي المري، ثم يتضخم المريء قرب نهايته مكوناً الحوصلة أو **معدة العسل أو كيس العسل**؛ وهي تعمل خزاناً للرحيق إلى حين عودتها إلى مسكنها لتضعه في العيون السداسية.



ثم تأتي القونصة (القانصة)، وهي جزء ضيق قصير يعمل كصمام أمان وينظم عملية مرور الرحيق من الحوصلة إلى المعدة، وتمتد القونصة من جزئها الخلفي داخل المعدة في شكل يشبه القمع ليمنع عودة الغذاء ثانية إلى الحوصلة.

يلي القونصة **المعدة الهاضمة** (الحقيقية) وهي تنطوي داخل تجويف الجسم على هيئة حرف: S، وفي داخل هذه المعدة تحدث عملية الهضم وامتصاص الغذاء، ويتميز جدار المعدة بأنه عديد الانحناءات، مما يتيح للغذاء المرور بمساحة كبيرة يسهل فيها هضمه وامتصاصه، فتقوم خلايا المعدة بإفراز الأنزيمات التي تساعد على هضم الغذاء.

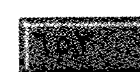
ثم تأتي الأمعاء وهي قسمان: قسم أمامي وهي الأمعاء الدقيقة، وتقوم بالتخلص من بقايا ونفايات الجسم وامتصاص الماء، والقسم الثاني: المستقيم الذي يفتح في تجويف آلة اللسع، وتخزن بقايا الغذاء فيه حتى تتخلص منها النحلة خارج الخلية من فتحة الشرج.

وعند منطقة اتصال المعدة بالأمعاء يوجد **عدد كبير من أنابيب دقيقة رفيعة** يبلغ عددها مئة أنبوب تقريباً تعرف بأنابيب (ملبيجي)، وهي التي تقوم بعملية استخلاص المواد التالفة وإخراجها عن عملية التمثيل، التي توجد في الدم مثل الأملاح، وتفتح هذه الأنابيب في مقدمة الأمعاء الدقيقة.

ويتصل بالجهاز الهضمي الغدد الفكية التي تفتح في الفكوك العليا عند الشغالة فقط، وكذلك الغدتان البلعوميتان اللتان تفرزان الغذاء الملكي -عند الشغالات فقط- ويفتح عند قاعدة الفم أيضاً زوج من الغدد اللعابية التي توجد بالصدر.[1]

---

(١) انظر: تربية نحل العسل د. عبد المنعم محمد الحنفي صـ ٩٦ إلى ٩٨. ط مركز النشر العلمي جامعة الملك عبد العزيز جدة، الأولى ١٤١٧، نحل العسل ومنتجاته د. محمد علي البنبي=





وبذلك يتضح أن في التجويف البطني للنحلة أكثر من معدة وأكثر من تجويف يعمل على إنتاج ألوان مختلفة من الأغذية والإفرازات، ولعل جمع البطون في الآية إشارة إلى ذلك كله، والله أعلم.

ويحتمل أن يكون جمع البطن في الآية إشارة إلى تعدد الحلقات البطنية الحاوية للغدد المفرزة والآلات المصنعة لما يخرج من النحلة من شراب، إذ هي تجاويف تحوي على آلات صنع ما يخرج من بطونها، فالعلوم التشريحية للنحلة تذكر أن لها مجموعة من الحلقات يختلف عددها عند الشغالات عن عددها عند اليرقات، والنحلات المنتجات (الشغالات) عدد حلقاتها البطنية ست، وتختلف عن الحلقات المكونة لكل من الرأس والصدر، وفي هذه الحلقات يوجد الجهاز الهضمي والتناسلي وشيئاً من الجهاز العصبي إضافة إلى الغدد الشمعية وغدد الرائحة وآلة اللسع وغدد أخرى لها إفرازات خاصة[1] والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُۥ﴾:

تقدم عند تفسير الآية (١٠) من النحل أن الشَّراب ما شُرِب من أَيِّ نوْعٍ كان وعلى أَيّ حال كان[2]. (وسماه شراباً إذ كان مما يجيء منه الشراب)[3]، وأكاد أجزم القول بأن

= صـ ٣٣٦، عالم النحل ومنتجاته أ.د. محمد عباس عبد اللطيف، وأ.د. محمد نجيب الأنصاري مع مجموعة من المختصين صـ٩٨، ٩٩ ط دار المروة الإسكندرية مصر د.ت. مملكة النحل د.محمد حسن حسانين ود. فاروق محمود خليل صـ٤٩ إلى صـ٥٤. وانظر: النحلات صيدلانيات ملهمات للدقر صـ٦٧ مقطع طولي في جسم النحلة العاملة تبين أجزاء جهازها الهضمي.

(١) انظر: تربية نحل العسل د. الحنفي صـ٨٩ ـ ٩٥.

(٢) اللسان مادة: شرب ١/ ٤٨٧.

(٣) باهر البرهان ٢/ ٨٠٨.




المفسرين مجمعون على آن هذا الشراب هو العسل، فلم آر مفسراً يقول بآن الشراب غيره، يقول ابن عاشور رحمه الله: (وعبّر عن العسل باسم الشراب دون العسل لما يومىء إليه اسم الجنس من معنى الانتفاع به وهو محل المنّة، وليرتب عليه جملة: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾. وسمّي شراباً لأنه مائع يشرب شرباً ولا يمضغ... ووصفه بـ: ﴿مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾ لأن له مدخلاً في العبرة، كقوله تعالى: ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾ [الرعد:٤]، فذلك من الآيات على عظيم القدرة ودقيق الحكمة).[1]

ولذلك فإنا نجد اهتمام المفسرين ينصب على العسل في تفسير هذه الآية، وبيان صفاته المذكورة فيها، وذلك والله أعلم لأنه الوحيد فيما ظهر لهم الذي يخرج من النحلة، وأما الشمع -مثلاً- فكما ذكر ابن كثير تبنيه بأجنحتها[2] حسب ما يعرفون.

ولكن وجدت بعض الباحثين في الطب وتربية النحل في عصرنا يقولون: إن الشراب هنا أعم من العسل، ولذلك فسروا الشراب بعموم ما يخرج من النحلة، وهي: العسل والعكبر وغذاء الملكة والشمع وسم النحل[3].

---

(١) التحرير والتنوير ١٤/ ٢٠٩. وفي كلامه نظر لأن العسل مصدره الرحيق فقط وإن اختلفت الأزهار.

(٢) ابن كثير ٤/ ٥٨٢.

(٣) انظر: نحل العسل في القرآن والطب صـ٥٥، ومقال د.حسان شمسي باشا، بعنوان أسرار العسل تتجلى في الطب الحديث، مجلة الإعجاز العلمي العدد ١٥ ربيع الأول ١٤٢٤هـ صـ٧. ومقال لـ د. زغلول النجار في تفسير الآية ٦٩ تحت عنوان الإشارات العلمية في القرآن الكريم ومغزى دلالتها العلمية (١٠٩) على موقع www.al-eman.com ونشر في الأهرام بتاريخ ١/ ١٢/ ٢٠٠٣م.

وزاد بعضهم حبوب اللقاح.[1]

وقد اعترض بعضهم على من عمم القول بدخول سم النحل والعكبر وغذاء الملكة؛ وخطأه محتجاً بأن حديث النبي صلى الله عليه وسلم: «صدق الله وكذب بطن أخيك اسقه عسلاً»[2] دليل على أن العسل هو المراد؛ فليس لمفسر أن يدلي برأيه بعد ذلك، ثم احتج باللغة، فقال:

(ثم إن الوصف اللغوي الذي جاءت به الآية أتى بصيغة المفرد ليدل أن الشراب نوع واحد وإن اختلفت ألوانه وهذا ينطبق على العسل، ثم إن شمع العسل ليس بشراب، والغذاء الملكي والعكبر يفرز من فم النحلة ولا يخرج من البطن - من الناحية التشريحية -؛ وأخيراً فإن سُمَّ النَّحل لو تناوله امرؤ على شكل شراب لفسد في معدته، فهو لا يفيد مطلقاً إذا ما أخذ على شكل شراب)[3] انتهى.

أقول: هذا حجر على الدلالة القرآنية، ولا يتفق مع أصول التفسير، أما من الناحية اللغوية فإن ﴿ شَرَابٌ ﴾ اسم جنس يطلق على القليل والكثير، وأطلق هنا على العسل وما يُتخذ منه، - هذا إذا قصرنا الشراب على العسل فقط-، ولذلك قال ابن عادل في

---

(١) د. إبراهيم عبد الله العريفي (دكتوراه في الخواص العلاجية للعسل ومنتجات النحل)، مقال بعنوان: (عسل النحل وصحتك) في مجلة الأمن والحياة، تصدر عن جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية صـ٦٥، العدد٢٨٢ ذي القعدة ١٤٢٦.

(٢) أخرجه البخاري: في الطب باب الدواء بالعسل رقم: (٥٣٦٠)، وسيأتي تخريجه مستوفى إن شاء الله.

(٣) النحلات صيدلانيات ملهمات د. الدقر صـ٤٦.







تفسيره: (أنه تارة يشرب وحده، وتارة يتخذ منه الأشربة)[١]، ولكن جاء اسم الجنس هنا منكراً، والنكرة في سياق الإثبات إن كانت للامتنان عمت[٢]، والسياق هنا سياق امتنان واستدلال، وهذا يؤيد عموم ما يخرج من بطون النحلة من شراب.

وأما كون شمع العسل والغذاء الملكي ليسا بشراب فقد تقدم أنه سمي الخارج منها شراب: لأنه يجيء منه الشراب، ولا يقتضي أن يخرج على الحقيقة شراباً، علماً أن المعلومات التشريحية تؤكد خلاف ما ذهب إليه المعترض، (فالشمع هو إفراز الغدد الشمعية التي تقع بين حلقات البطن، **وينضج الشمع من هذه الغدد إلى الخارج على شكل سائل حيث يتجمد إلى حراشيف مجرد ملامسة الجو وتنزعها النحلة بواسطة الملاقط** الموجودة في أرجلها الخلفية ثم تسحقها النحلة وتعجنها بفكها السفلي قبل الاستخدام).[٣]

فهو من حيث ابتداء خروجه سائل وإن تجمد بعد خروجه، فهناك أنواع من العسل تتجمد بعد جمعها وتعبئتها كالجبلي والكشميري، كما أن الشمع تتخذ منه شراب ويتداخل مع الأدوية، وينطبق عليه الأوصاف في الآية من كونه «مختلف ألوانه، وفيه شفاء».

---

(١) ابن عادل ٢/ ٢١٦.

(٢) وهو مذهب جماعة من الأصوليين منهم القاضي أبو الطيب، انظر: التمهيد لعبد الرحيم بن الحسن الأسنوي ١/ ٣٢٥ تحقيق د. حسن هيتو ط مؤسسة الرسالة الأولى ١٤٠٠ هـ، وانظر: الإبهاج لعلي بن عبد الكافي السبكي ٢/ ٩٠ تحقيق مجموعة من العلماء ط دار الكتب العلمية بيروت الأولى ١٤٠٤هـ، واعتبرها الآمدي من المطلق، انظر: إحكام الأحكام لعلي بن محمد الآمدي ٣/ ٣ تعليق الشيخ عبد الرزاق عفيفي ط المكتب الإسلامي الثانية ١٤٠٢ هـ.

(٣) انظر: النحلات صيدلانيات ملهمات صـ٢٤١، العسل شفاء لكل داء صـ٢٠٨.





(أما سم النحل فإن إفرازه يتم بواسطة جهاز معقد للدغ يقع **تحت الحلقة الأخيرة من حلقات البطن عن النحلة الشغالة**).[١]

أما العكبر (فكان يظن أنها تخرج من بطون النحلة قديماً، ولكن بعض الأبحاث العلمية تقول: إنه نتاج تجمعه النحلة من الأزهار وتختزنه في أرجلها، وعندما تخزنه تفرز فيه شيئاً من لعابها الغزير بالخمائر، فهو لا يدخل إلى بطنها)[٢]، فإذا ثبت هذا فلا يدخل في عموم الآية على ذلك.

وأما كون غذاء الملكة يخرج من فم النحلة لا من بطنها؛ فهذا من حيث النهاية أما من حيث ابتداء الخروج والصنع فهو في بطنها، ثم إلى الغدد التي تفرز الغذاء الملكي، كما أن العسل يخرج انتهاءً من فم النحلة أيضاً وهذا مثل هذا.

يقول الدكتور البنبي وهو من اختصاصي النحل: (إذ إن المعجزة الحقيقية التي يقوم بها النحل هي في تحويل المواد السكرية إلى شمع وفي تحويل حبوب اللقاح مع بعض الرحيق إلى غذاء ملكي أو إلى سم أو إلى أنزيمات متعددة الأشكال، تقوم بجميع التحويلات الغذائية بالإضافة إلى اكتساب المواد الناتجة للخواص العلاجية التي لم تكن في المواد التي نتجت منها..).[٣]



---

(١) انظر: النحلات صيدلانيات ملهمات صـ ١٥٧، والعسل شفاء من كل داء صـ١٩٠.

(٢) انظر: العسل شفاء لكل داء صـ١٦٨، ١٦٩.

(٣) نحل السل في القرآن والطب د. البنبي صـ٤٣. والشاهد هنا في المعلومة التشريحية لكون قائلها من أهل الاختصاص.

فإن قيل: وكيف دخل سم النحل في عموم ما يخرج من بطونها من الشراب، وهو لا يخرج من فمها، وإنما يخرج من دبرها، من آلة اللسع، (والجمهور على أن مكان الخروج الفم)[1] فكيف يصح إدراجه معهم؟

فالجواب: تقدم بأن (من) في قوله تعالى: ﴿مِنۢ بُطُونِهَا﴾ لابتداء الغاية، فيكون المعنى: يخرج ابتداءً من البطون شراب، فذكر ابتداء الخروج لا نهايته كما قال الآلوسي: (وذكر سبحانه مبدأ الغاية الأولى: وهي البطون، ولم يذكر سبحانه مبدأ الغاية الأخيرة..)[2].

فكل ما ينطبق عليه صفة الشراب، وينطبق عليه باقي الأوصاف المذكورة في الآية من كونه يخرج من بطون النحل ابتداءً سواء خرج من فمها انتهاءً أو من دبرها، ويكون مختلفاً ألوانه، وفيه شفاء؛ يدخل في دلالة الآية، والله أعلم.

وقد يقال: إن المفسرين -متقدميهم ومتأخريهم- متفقون بلا خلاف على أن المراد من الشراب هو العسل، والحديث ظاهر في ذلك فلا ينبغي الخروج عن قولهم؟

فالجواب: إن اتفاق المفسرين هنا على أن الشراب هو العسل، إنما يستند إلى مشاهدتهم لما يرونه بالدرجة الأولى، لأنه الوحيد فيما ظهر لهم الذي يخرج من النحلة، وأما الشمع -مثلاً- فمبلغ علمهم في خروجه أنه من أجنحتها كما ذكر ابن كثير[3]، وليس من بطنها، ولو رأوا غير العسل يخرج من النحلة لقالوا به، ويدل لذلك أيضاً ما

---

(١) الآلوسي ١٤/ ١٨٤.

(٢) المصدر السابق.

(٣) ابن كثير ٤/ ٥٨٢.

تقدم من أنهم فسروا البطون بالفم اعتماداً على مشاهداتهم، فالرازي اعتمد على المشاهدة في القول بأن النحلة لا تأكل من نفس الثمرات، وهذا مخالف لما استقرت عليه معلومات التشريح للنحلة وتواتر متابعة سلوكها، فكان قولهم بأن الشراب هو العسل أشبه بالاجتهاد المتواطئ، وكانت الأحاديث الواردة في ذلك دليلاً عندهم على صحة ما ذهبوا إليه.

وأما حديث أبي سعيد الخدري[1] رضي الله عنه: «أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: أَخِي يَشْتَكِي بَطْنَهُ فَقَالَ: اسْقِهِ عَسَلًا ثُمَّ أَتَى الثَّانِيَةَ فَقَالَ: اسْقِهِ عَسَلًا ثُمَّ أَتَاهُ الثَّالِثَةَ فَقَالَ: اسْقِهِ عَسَلًا ثُمَّ أَتَاهُ فَقَالَ: قَدْ فَعَلْتُ فَقَالَ: صَدَقَ اللهُ وَكَذَبَ بَطْنُ أَخِيكَ اسْقِهِ عَسَلًا، فَسَقَاهُ فَبَرَأَ».[2]

---

(١) سعد بن مالك بن سنان الخزرجي الخُدري، الصحابي الجليل، من المكثرين الرواية عن رسول الله ﷺ، من أهل الصفة وفقهاء الصحابة، (ت ٧٤هـ). انظر: الاستيعاب ٢/ ٤٧، الإصابة ٢/ ٣٥.

(٢) أخرجه البخاري في: الطب، باب التداوي بسقي العسل، رقم (٥٣٦٠)، وباب دواء المبطون رقم (٥٣٨٦)، ومسلم في: السلام، باب التداوي بالعسل، رقم (٢٢١٧)، والترمذي في: الطب، باب ما جاء في التداوي بالعسل، رقم (٢٠٨٢)، والحاكم في المستدرك، في: الطب ٤/ ٤٠٢ على شرط الشيخين، والبيهقي في السنن، في: الضحايا، باب أدوية النبي صلى الله عليه وسلم ٩/ ٣٤٤، وأبويعلى في المسند ٢/ ٨٨ رقم (١٢٥٦)، وأحمد في المسند ٣/ ١٩.
والطبري في التفسير ١٤/ ٩٤ عن قتادة مرسلاً. ومن ألفاظ الروايات الأخرى للحديث: «قد سقيته فلم يزد إلا استطلاقاً» أي: إسهالاً.



فلا يبعد القول أنها حادثة عين، يؤخذ منها أثر العسل في شفاء أمراض الجهاز الهضمي[١]، أي: أن النبي صلى الله عليه وسلم علم أن بطن هذا الرجل شفاؤها بالعسل، فداواه به، فيكون قد داواه ببعض ما يخرج من بطون النحل الذي فيه شفاء.

يقول ابن الجوزي: (فاستفاد النبي صلى الله عليه وسلم من عموم الآية في قوله تعالى: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ فقال صلى الله عليه وسلم (صدق الله) فلما سمع بذلك الرجل تلقاها بالقبول فبرء)[٢]، ولذلك نجد أن الأئمة: البخاري ومسلم والترمذي وغيرهم إنما أخرجوا الحديث في كتاب الطب وفي أبواب الأدوية، ولم يخرجوه في كتاب التفسير في باب تفسير هذه الآية من سورة النحل.

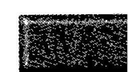
كما أن ذكر بعض أفراد العموم؛ لا يعني التخصيص به والاقتصار عليه، والله أعلم.

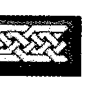
ويرى الباحث أن قرينة السياق في الآية ترجح معنى العموم في الشراب، فالعسل إنما هو نتاج جمع الرحيق فقط، والنحلة تأكل من كل الثمرات الرحيقَ وحبوبَ اللقاح

---

(١) لقد كان هذا الحديث حافزاً لمجموعة أطباء لبحث أثر العسل في شفاء أمراض في الجهاز الهضمي وقد سجلوا تجربتهم في بحث مع نتائجه انظر: العسل والجهاز الهضمي على موقع www.islamsat.com، وقولنا حادثة عين لا يعني خصوصية الاستشفاء بهذا الرجل فقط بل يستصحب على كل من كان فيه مثل مرضه، والله أعلم.

(٢) نقله عنه ابن حجر في الفتح عند شرح الحديث في الوجه الأول من الوجوه التي ذكرها في تعليل شفاء الرجل بالمرة الرابعة انظر فتح الباري ١٠/ ١٧٠ ط دار المعرفة. أما قوله ﷺ في الحديث: «صدق الله» وتفسيرها على أن المراد بها الآية هنا في سورة النحل، فإنه احتمال لم يُصرح به الحديث، ويحتمل أن يكون المراد بـ «صدق الله» أي: فيما أوحى إليَّ من أن شفاء بطن أخيك بالعسل، وعلى كلٍّ فكلام ابن الجوزي قوي ووجيه، والله أعلم.





أساساً، وكل واحد منهما يكوِّن ناتجاً يختلف عن الآخر، وقد يتداخلان في تركيب بعض ما يخرج من النحلة من الشراب ولكن بنسب قليلة.

ثم إن جمع البطون قرينة أخرى، فصنع العسل في النحلة له معدة خاصة فيه يجتمع فيها الرحيق المجموع، أما الغذاء الملكي والشمع والسم فهو من مصدر آخر في بطن النحلة ومن غذاء آخر غير الرحيق وهو حبوب اللقاح.

ولَحْقُ الآية في قوله تعالى: ﴿**مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُۥ**﴾ مرجح آخر، وقد تقدم أن اللون قد يطلق على النوع، كقولك أتى بألوان من الحديث، أي: أنواع منه، وصار معنى الآية على ذلك يخرج ابتداء من بطونها شراب مختلف الأنواع فمنه العسل ومنه الغذاء الملكي ومنه السم، والله أعلم.

وإذا قرنا في السياق الآيات التي تحدثت عن إخراج اللبن من الأنعام؛ فإننا نجد آية العبرة في تولد اللبن صرحت باسم الخارج من الأنعام نصاً بأنه لبن، وليس ثمة شراب آخر يخرج من الأنعام سواه، أما هنا في آيات النحل فلم يصرح بكون الخارج عسلاً فقط، إشارة إلى باقي ما يخرج منها بقرينة الواقع التشريحي مما يتطابق مع مدلول الآية واللغة، والله أعلم.

وتفسير الشراب على العموم لا يعني الخروج عما اتفق المفسرون عليه من أن المراد بالشراب العسل، بل هو زيادة في مدلولات الآية بقرينة حسية قوية (الواقع التشريحي)، ولا يعني أن العسل ليس مراداً في الآية، بل يدخل فيها دخولاً أولياً، لأن أكثر إنتاج النحلة هو العسل، وأما غيره من الغذاء الملكي والسم فإن إنتاج النحلة لهما مقارنة مع إنتاجها العسل قليل.

وأما الأحاديث والآثار الواردة في العسل فهي تؤكد على أهمية العسل في التداوي والاستشفاء، وتدخل في تفسير عموم الآية والتأكيد على الاستشفاء بالعسل خاصة، فمن ذلك: حَدِيث ابْن مَسْعُود مرفوعاً: «عَلَيْكُمْ بِالشِّفَاءَيْنِ: الْعَسَل وَالْقُرْآن»[1]، وحديث جَابِرَ بْنَ عَبْدِ الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنْ كَانَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَدْوِيَتِكُمْ أَوْ يَكُونُ فِي شَيْءٍ مِنْ أَدْوِيَتِكُمْ خَيْرٌ فَفِي شَرْطَةِ مِحْجَمٍ أَوْ شَرْبَةِ عَسَلٍ أَوْ لَذْعَةٍ بِنَارٍ تُوَافِقُ الدَّاءَ وَمَا أُحِبُّ أَنْ أَكْتَوِيَ»[2]، وَأَثَر عَلِيّ رضي الله عنه: «إِذَا اِشْتَكَى أَحَدكُمْ فَلْيَسْتَوْهِب مِنْ اِمْرَأَته مِنْ صَدَاقهَا فَلْيَشْتَرِ بِهِ عَسَلًا ، ثُمَّ يَأْخُذ مَاء السَّمَاء فَيُجْمَع هَنِيئًا مَرِيئًا شِفَاء مُبَارَكًا».[3]

مثال المشترك المحمول على معانيه في التفسير العلمي.

وعلى هذا، فإن قوله تعالى: ﴿مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾ تعني: أنواعه وألوانه، فكل نوع مما تنتجه النحلة يختلف لونه عن لون النوع الآخر، وقد يكون النوع نفسه ألوانه مختلفة، فالشمع (يختلف لونه من أصفر فاتح، إلى بني فاتح، أو داكن، أو بني محمر، وذلك

(١) ابن ماجه في الطب باب العسل رقم (٣٤٥٢)، والحاكم في الطب ٤/ ١٣٧ وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وأخرجه البيهقي في السنن في الضحايا باب أدوية النبي صلى الله عليه وسلم، ٩/ ٣٤٤، وأخرجه الحاكم موقوفاً على ابن مسعود في الطب ٤/ ٢٠٠، والبيهقي في السنن ٩/ ٣٤٥، قال ابن حجر في الفتح ١٠/ ١٧٠ (أَخْرَجَهُ اِبْن مَاجَهْ وَالْحَاكِم مَرْفُوعًا ، وَأَخْرَجَهُ اِبْن أَبِي شَيْبَة [رقم٢٣٦٨٩] وَالْحَاكِم مَوْقُوفًا، وَرِجَاله رِجَال الصَّحِيح)، قال البيهقي في السنن: (رفعه غير معروف والصحيح الوقف).

(٢) أخرجه البخاري في الطب باب الدواء بالعسل رقم (٥٣٥٩)، ومسلم في السلام باب لكل داء دواء (٢٢٠٥)، وابن ماجه في الطب باب الكي (٣٤٩١).

(٣) قال ابن حجر في الفتح ١٠/ ١٧٠: (أَخْرَجَهُ اِبْن أَبِي حَاتِم فِي التَّفْسِير [٤٨٢٥] بِسَنَدٍ حَسَن).

حسب المواد الصمغية فيه، أما الغذاء الملكي يتفاوت لونه ما بين الأبيض والأبيض المصفر حسب الزمن الذي ينتج فيه)[١]، والعسل يتفاوت لونه بتفاوت المصدر النباتي للرحيق الذي جمعه النحل[٢]، وعلى هذا فإن قوله تعالى: ﴿أَلْوَٰنُهُۥ﴾ في الآية، مشترك يحمل على معانيه، والله أعلم.

إن اختلاف ألوان أنواع الشراب الخارج من النحل عن بعضه وفي نفسه؛ له مدخل في العبرة من حيث القيمة الغذائية والدوائية التي تنتجها هذه الحشرة الضعيفة الصغيرة، ومن حيث كيفية صنعها في بطونها الصغيرة بهذه الكميات المتفاوتة والعمليات المعقدة، فسبحان الذي خلق فسوى.

قوله تعالى: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾: هذا الوصف الثاني للشراب الخارج من بطون النحلة بكونه شفاء[٣].

---

(١) ينظر: تربية نحل العسل د. الحنفي صـ٤٢٤.

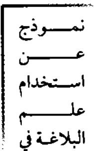
(٢) انظر: تربية نحل العسل صـ ٣٩٠.

(٣) أذكر هنا بقول مجاهد أن الضمير في (فيه) عائد على القرآن فقال: (في القرآن شفاء)، أخرجه ابن جرير ١٤/ ٩٤، وابن أبي شيبة وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٤/ ١٣٧. ولكنه بعيد لأن الضمير يجب عوده على أقرب مذكور كما قال الرازي ٢٠/ ٥٩ فأكتفي بهذا التنبيه.

وفي التحرير والتنوير لابن عاشور١٤/ ٢١٠: (ومن لطيف النّوادر ما في «الكشاف»: أن من تأويلات الروافض أن المراد بالنحل في الآية عليّ وآله. وعن بعضهم أنه قال عند المهدي: إنما النحل بنو هاشم يخرج من بطونهم العلم، فقال له رجل: جعَل الله طعامك وشرابك مما يخرج من بطون بني هاشم، فضحك المهدي وحدّث به المنصور فاتّخذوه أضحوكة من أضاحيكهم. قلت: الرجل الذي أجاب الرافضي هو بَشّار بن برد. وهذه القصّة مذكورة في أخبار بشّار). انتهى فنسأل الله الفهم الرشيد والرأي السديد.

(وهذا نص صريح في أن قيمة الشراب العلاجية تفوق بكثير قيمته الغذائية، وقد ثبت ذلك المعنى من نتائج البحوث العلمية الحديثة)(١).

لقد استحوذت هذه الفاصلة من الآية على اهتمام شرائح مختلفة من الأطباء والمخبريين ودفعتهم للبحث عن خصائص العسل الشفائية على اعتبار أن المراد بها العسل فقط.



نموذج عن استخدام علم البلاغة في التفسير العلمي.

يقول ابن عاشور: (وجعل الشّفاء مظروفاً في العسل على وجه الظرفية المجازية، وهي الملابسة للدلالة على تمكّن ملابسة الشفاء إياه، وإيماء إلى أنه لا يقتضي أن يطّرد الشفاء به في كل حالة من أحوال الأمزجة، أو قد تعرض للأمزجة عوارض تصير غير ملائم لها شرب العسل، فالظرفية تصلح للدّلالة على تخلّف المظروف عن بعض أجزاء الظرف، لأن الظرف يكون أوسع من المظروف غالباً؛ شبه تخلّف المقارنة في بعض الأحوال بقلّة كمية المظروف عن سعة الظرف في بعض أحوال الظروف ومظروفاتها، وبذلك يبقى تعريف الناس على عمومه، وإنما التخلّف في بعض الأحوال العارضة، ولولا العارض لكانت الأمزجة كلها صالحة للاستشفاء بالعسل).(٢)

ويقال مثل هذا الكلام في عموم الأشربة التي تخرج من بطون النحل، إذ قد ترجح لدينا بأن المراد من الشراب الشمع والعسل وسم النحل والغذاء الملكي.

ما دلالة التنكير في قوله تعالى: ﴿شِفَآءٌ﴾؟

فقد تعددت الآراء في دلالة التنكير في قوله تعالى: ﴿شِفَآءٌ﴾، **وأهمها ثلاثة آراء:**

---

(١) ينظر: نحل العسل في القرآن والطب د. البنبي صـ٥٥.

(٢) التحرير والتنوير ١٤/ ٢٠٩.

- **أحدها: أن التنكير لا يدل على العموم**، وإنما هو من باب المطلق، وهو الراجح عند القرطبي[١]، ومؤدى كلام الرازي ومثله النيسابوري، وذكره الآلوسي، فقد ذهبوا إلى أن الله تعالى لم يقل أنه شفاء من كل داء لكل الناس في كل حال، خاصة بعدما ثبت أنه يضر كما في الصفراء والمرارة، بل هو شفاء بالجملة، لأنه قل معجون من المعاجين إلا وكماله وتمامه يحصل بالعجن بالعسل؛ فهو شفاء إما بنفسه أو مع غيره.[٢]

يقول ابن عاشور رحمه الله: (وتنكير ﴿شِفَآءٌ﴾ في سياق الإثبات لا يقتضي العموم، فلا يقتضي أنه شفاء من كل داء، كما أن مفاد (في) من الظرفية المجازية لا يقتضي عموم الأحوال، وعمومُ التعريف في قوله تعالى: ﴿لِّلنَّاسِ﴾: لا يقتضي العموم الشمولي لكل فرد فرد؛ بل لفظ (الناس) عمومه بَدَلي. والشفاء ثابت للعسل في أفراد الناس بحسب اختلاف حاجات الأمزجة إلى الاستشفاء).[٣]

- **الثاني: أن التنكير أفاد العموم في كل حال**، وقد نقله القرطبي عن طائفة من العلماء، وأورد في ذلك آثاراً من عمل الصحابة كابن عمر وغيره.[٤]

---

(١) القرطبي ١٠/ ٩٠.

(٢) انظر: الرازي ٢٠/ ٥٩، والنيسابوري ١٤/ ٩١، الألوسي ١٤/ ١٨٥.

(٣) التحرير والتنوير ١٤/ ٢٠٩، وانظر: مسألة النكرة في سياق الإثبات في: المحصول للرازي ٢/ ٥٦٣ والبحر المحيط للزركشي ٣/ ١١٧.

(٤) القرطبي ١٠/ ٩٠. ثم قال بعدما رجح عدم العموم: (لكن قد حملته طائفة من أهل الصدق والعزيمة على العموم؛ فكانوا يستشفون بالعسل من كل الأوجاع والأمراض..)، ونقل الشربيني الخطيب في تفسيره عن ابن مسعود: (العسل شفاء من كل داء، والقرآن شفاء لما =

- **الثالث: أنه أفاد التعجب والتعظيم**، وهو مذهب البيضاوي، وذكره الآلوسي[1]، على معنى: فيه شفاء عظيم وعجيب.

ويرى الباحث أن النظر في هذه المسألة يكون باعتبار المراد من الشراب في الآية: فإن كان المراد هو العسل فقط؛ وهو قول كل المفسرين كما تقدم، فإن الإطلاق هو الأرجح، والأدلة العربية والأصولية في ذلك قوية، إضافة إلى الأدلة الحسية والطبية، لأنه لم يقع الجزم من أهل الاختصاص أن العسل شفاء من كل داء لكل الناس، بل يذكر المختصون بالعلاج بمنتجات النحل أن العسل له أضرار على الأطفال دون السنة، فقد تحدث له نزلة معوية وقد تحدث له وفاة، ومن حيث تركيب العسل فإن بعض منتجات العسل قد تؤدي أضراراً مختلفة فتحدث التهابات أو تقرحات نتيجة ارتفاع نسبة الحموضة فيه، وإذا كان العسل يحوي عناصر ثقيلة لأسباب ما فإنه يؤثر على الصحة أيضاً.[2]

ولذلك فإن العموم في الشفاء بالعسل مشكل، والإطلاق أصل في دلالته.

= في الصدور) أخرجه ابن جرير ١٤/ ٩٤، وجعل الشربيني احتمال العموم قوياً بضميمة العسل مع غيره بالشفاء، انظر: السراج المنير ٣/ ٣٥٥.

(١) انظر: البيضاوي ١/ ٣٧٠، الآلوسي ١٤/ ١٨٥. وهو قول الشيخ أبو زهرة رحمه الله، انظر: زهرة التفاسير ٨/ ٤٢١٥، وعلى هذا القول فإن التنكير لا يعني العموم، وقد ذكر الآلوسي وتبعه الشربيني الخطيب إذ من دلالات التنكير هنا أنها للتبعيض، انظر: الآلوسي ١٤/ ١٨٥، السراج المنير ٣/ ٣٥٥.

(٢) انظر: عسل النحل وصحتك مجلة الأمن والحياة صـ٦٥، ٦٦.



نمـوذج لاستخدام أصـول الفقـه في التفـسير العلمي.

أما إذا اعتبرنا أن المراد من الشراب كل ما يخرج من بطون النحل، (أي: العسل والغذاء الملكي وسم النحل والشمع)؛ فإن العموم لا يبعد عن الترجيح، خاصة إن علمنا بأن ثمة قرائن تعرض للنكرة فتجعلها عامة؛ كقرينة إمكان الاستثناء منه، يقول الزركشي في البحر المحيط: (ليس الاعتبار بالنفي ولا الإثبات، ولكن كل نكرة لا تحتمل الاستثناء فهي غير عامة على الاستغراق، وإن صح عمومها على البدل، وكل نكرة تحتمل الاستثناء فهي عامة).[1]

وكذلك قرينة السياق لها مدخل في عموم النكرة؛ فقد ذهب جماعة من الأصوليين إلى أن النكرة في سياق الإثبات إن كانت موصوفة تعم.[2]

كما تقدم أن النكرة في سياق الإثبات إذا كانت للامتنان فهي تعم.

والخلاصة: إن العموم وارد هنا في الآية؛ فالتنكير في قوله تعالى: ﴿شِفَآءٌ﴾ جاء في سياق الامتنان بجميع ما يخرج من بطون النحل؛ فهو يفيد العموم، إذ كل نوع من أنواع الشراب له أمراضه التي يداويها، وقد يشترك مع نوع آخر ولكن بطريقة مختلفة، وتكون معنى (في) الظرفية هنا أن الشفاء حاصل في مجموع هذه الأنواع من الشراب حسب المرض الذي تصلح له، لكون الظرف أوسع من المظروف، فقد يكون العسل

---

(١) البحر المحيط ٣/ ١١٧. وانظر مثله في: الآيات البينات حاشية على شرح جمع الجوامع لأحمد بن القاسم العبادي ٢/ ٣٨١ تحقيق زكريا عميرات ط دار الكتب العلمية الأولى ١٩٩٦.

(٢) انظر: البحر المحيط ٣/ ١١٩، الآيات البينات للعبادي ٢/ ٣٨١، تيسير التحرير لمحمد أمين المعروف بأمير شاه ١/ ٢١٩، ط مصطفى البابي مصر ١٣٥٠، وقد تقدم ذكر هذه المسألة من قبل عند الحديث عن النكرة في الشراب.



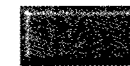


لوحده شفاء، وقد يكون مركباً مع غيره من الأدوية، وقد يكون مركباً مع السم أو غذاء الملكة، وكذلك سم النحلة فإن الشفاء مظروف فيها، وهكذا في كل نوع من أنواع الشراب.

فمجموع أنواع الأشربة التي تخرجها النحلة؛ قد جعل الله تعالى فيها من أنواع الأدوية لمعظم الأمراض، وقد اطلعت على التحاليل الكيميائية لهذه الأنواع في عدد من المراجع المختصة التي رجعت إليها عند تفسير هاتين الآيتين، ولأنواع مختلفة من العسل وسم النحل والشمع والغذاء الملكي؛ فوجدت أن كل نوع فيه من المكونات والتراكيب ما لا يوجد في غيره، وله قيمته الدوائية والغذائية، وإن اتفقت هذه الأنواع في مركب ما فإن نسبته تختلف، بل هذا الاختلاف حاصل في أنواع العسل نفسها[1]، وهذه منة من الله عظيمة لتصبح دائرة الأمراض التي تعالج مما يخرج من بطون النحلة أوسع مما يتصور الإنسان، والله أعلم.

---

(١) انظر: مثلاً كتاب تربية نحل العسل والجداول الموجودة فيه لكل نوع من أنواع العسل وغذاء الملكة والشمع من صـ٣٨١ إلى صـ٤٣٩، وكل المراجع الاختصاصية التي ذكرتها في تفسير الآيتين هنا عن النحل، كلها تذكر تركيب كل نوع وفائدة كل تركيب فيها والتجارب التي أجريت عليها والأمراض التي عالجتها لوحدها منفردة أو بعجنها وتركيبها مع غيرها ويذكر الدكتور البنبي في كتابه نحل العسل في القرآن والطب صـ٦٦ أنه أقيمت مستشفيات ومقرات طبية خاصة لبحث الاستشفاء بمنتجات النحل وكان أولها الذي في بوخرست في رومانيا عام ١٩٧٥، ثم في روسيا والصين واليابان.





ثم ختم الله تعالى الآية بقوله عَزَّوجل:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾:

أي: إن في ما سبق ذكره من دلائل قدرة الله تعالى في أعمال النحل -[باتخاذ البيوت والأكل من كل الثمرات والاستدلال عليها، بأن هيّأها الله تعالى على خِلقة تتذلل بها السبل، وعلمها كيفية صنع ما يخرج من بطونها، وفيما هيّأ الله في بطونها الصغيرة من الأسباب الدقيقة التي تخرج شفاءً للناس]-، في كل ذلك: عبرةٌ وعظةٌ وحجةٌ وبرهانٌ لقوم قدروا نعمة العقل؛ فحركوه فيما يهديهم إلى الحق ويدلهم على الطريق المستقيم، ويعرفهم بحقيقة أنفسهم وعظمة خالقهم، يقول الألوسي: (فإن من تفكر في اختصاص النحل بتلك العلوم الدقيقة والأفعال العجيبة التي مرت الإشارة إليها، وخروج هذا الشرب الحلو المختلف الألوان، وتضمنه الشفاء، جَزَمَ قطعاً أن لها رباً حكيماً قادراً ألهمها ما ألهم وأودع فيها ما أودع ، ولما كان شأنها في ذلك عجيباً يحتاج إلى مزيد تأمل ختم سبحانه الآية بالتفكر).[1]



(١) الألوسي ١٤/ ١٨٧.

وفي أنفسكم آيات أفلا تبصرون

٢٣- ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾.

*** مناسبة الآيات:**

لما كان المطر والنباتات والحشرات من المخلوقات التي قد اختصها الله تعالى بما اختصها من الإنتاج والغذاء والدواء، وفي كل من هذه المخلوقات ما لا يوجد على الطريقة العجيبة البديعة كما عند الآخر؛ ومن ذلك أن جعل الله تعالى بعض الأشربة في النباتات تفضل على بعض، وجعل بعض الحيوانات تفضل على بعض، وبعض المخلوقات تفضل على بعض؛ فإن سنة الله تعالى جارية أيضاً على الإنسان في تفضيل بعضهم على بعض في الأرزاق والأزواج والأبناء، وتفضيلهم على بعض في أطوار الحياة، وفي هذا التفضيل دليل يضاف إلى دلائل وجود الله تعالى ووحدانيته وحكمته جلَّ وعلا، والله أعلم.

فهو إذن (انتقال من الاستدلال بدقائق صنع الله على وحدانيته إلى الاستدلال بتصرّفه في الخلق التصرّفَ الغالب لهم؛ الذي لا يستطيعون دفعهُ على انفراده بربوبيّتهم، وعلى عظيم قدرته).(١)

---

(١) انظر: التحرير والتنوير ١٤/ ٢١١، وينظر: نظم الدرر ١١/ ٢٠٥.



* غريب الآيات:

أَرْذَلِ الْعُمُرِ: أرداه، بأن يرجع منكوساً إلى ابتدائه، فهو في السن إلى الأمام وفي القوى إلى الوراء والضعف والفناء[1]، وأما ما ورد عن بعض التابعين من تحديد أرذل العمر بالسنوات كقول قتادة: تسعون، وقول قطرب: ثمانون[2]؛ إنما هو من باب التفسير بالمثال؛ فأحوال الناس تختلف حسب استعداداتها العقلية والنفسية والإيمانية في حالة أرذل العمر بتقدير الله تعالى، والله أعلم.

* تفسير الآيات:

قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ﴾: لما كان السياق سياق منة واستدلال، بدأ باسم الجلالة ليتنبه السامع إلى ما تضمنه معنى الخلق والإماتة من صفات فاعلهما على سبيل التعظيم، وليتعرف هذا المخلوق على عظيم منة الإيجاد ومنة الوفاة، ففي الأولى نعمة لشرف الوجود والإنسانية وفي الثانية منة التخلص من أكدار الدنيا ومصائبها وآلامها، وإتاحة لمن يأتي بعده أن يقوم بدوره دون مزاحمة أو مشاحة[3]، والله يختص برحمته من يشاء.

وتوسط بين الحالين حرف الترتيب والتراخي (ثم)؛ إشارة إلى أن ما بينهما من تدبير وتقدير؛ إنما هو ممن خلقكم وتوفاكم.

---

(١) انظر: ابن عادل٢/ ٢٢٠، زهرة التفاسير ٨/ ٤٢١٧.

(٢) انظر: زاد المسير ٤/ ٣٤١، ابن عادل٢/ ٢٢٠.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير ١٤/ ٢١١.



وأما زمن التوفي وحاله فعلمه عند الله تعالى كما قال عَزَّوجل: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤].

يقول أبوالسعود: (حسبما تقتضيه مشيئتُه المبنيةُ على حِكَم بالغةٍ بآجال مختلفة أطفالاً وشباباً وشيوخاً).(١)

(ولما قوبل ﴿ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ﴾ بقوله تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾ علم أن المعنى: ثم يتوفّاكم في إبان الوفاة، وهو السنّ المعتادة الغالبة؛ لأن الوصول إلى أرذل العمر نادر)(٢)، فصار الوصول إلى أرذل العمر بمثابة الوفاة؛ لانطفاء قوة الإنسان وخمول ذكره وقلة العناية به، قال تعالى: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ [يس:٦٨].

﴿لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾، أي: ليصير حاله وعاقبته أن لا يعلم شيئاً بعد أن كان له علم، وليزول عنه استعداد قبول العلم ويبطأ عنده تلقيه، وفي هذا تنفير للناس في الرغبة بطول العمر والحياة حباً في الاستمتاع بالملذات والشهوات، وتنبيهاً على وجوب الإقصار من تلك الرغبة، فإن الله عليم بمقادير أعماركم، وقدير على كل شيء، يميت الشاب النشيط ويبقي الهرم الفاني، وكل ذلك بتقدير قادر حكيم عليم.(٣)

---

(١) أبو السعود ٥/ ١٢٦.

(٢) التحرير والتنوير ١٤/ ٢١١.

(٣) ينظر: الدر المصون ٧/ ٢٦٣، أبو السعود ٥/ ١٢٦، التحرير والتنوير ١٤/ ٢١٢.



يقول ابن عاشور: (وجملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾: تذييل؛ تنبيهاً على أن المقصود من الجملة الدلالة على عظم قدرة الله وعظم علمه، وقدم وصف العليم لأن القدرة تتعلّق على وفق العلم، وبمقدار سعة العلم يكون عظم القدرة، فضعيف القدرة يناله تعب من قوة علمه، لأن همّته تدعوه إلى ما ليس بالنائل).(١)

(ولما ذكر المفاوتة في الأعمار المنادية بإبطال الطبائع، الموجبة للمسابقة إلى الاعتبار لأولي الأبصار للخوف كل لحظة من مصيبة الموت، ثنى بالمفاوتة في الأرزاق فقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ ﴾)، (هذا اعتبار بحال أخرى من أحوال الإنسان؛ لأنَّا نرى أكيس النَّاس وأكثرهم عقلاً يفني عمره في طلب القدر القليل من الدنيا ولا يتيسَّر له ذلك، ونرى أجلاف النَّاس وأقلهم عقلاً وفهماً تنفتح عليه أبواب الدنيا، وكلُّ شيءٍ خطر بباله أو دار في خياله يحصل له في الحال، ولو كان السَّببُ هو جهد الإنسان وعقله لوجب أن يكون العاقل أفضل في هذه الأحوال، فلمَّا رأينا الأعقل الأفضل أقلُّ نصيباً، والأجهل الأخس أوفر نصيباً؛ علمنا أنَّ ذلك بسبب قسمة القسام؛ كما قال الله تعالى: ﴿نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾ [الزخرف:٣٢].

وهذا التفاوت غير مختصٍّ بالمال، بل حاصل في الذَّكاء والبلادة والحسن والقبح، والعقل والحمق والصحة والسقم وغير ذلك).(٢)

---

(١) التحرير والتنوير ١٤/ ٢١٣.

(٢) اللباب لابن عادل ٢/ ٢٢٢، وهو مختصر من الرازي ٢٠/ ٦٣، ٦٤. وانظر مثله في: التحرير والتنوير ١٤/ ٢١٣.



قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾.

يقول ابن جرير: (واللهُ أيها الناسُ فضّل بعضكم على بعض في الرزق الذي رزقكم في الدنيا، فما الذين فضَّلهم الله على غيرهم بما رزقهم ﴿بِرَآدِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ يقول: بمشركي مماليكِهم فيما رزقهم من الأموال، والأزواج. ﴿فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ يقول: حتى يستووا هم في ذلك وعبيدهم، فهم لا يرضَون بأن يكونوا هم ومماليكهم فيما رزقتهم سواء، وقد جعلوا عبيدي شركائي في ملكي وسلطاني، وهذا مَثَل ضربه الله تعالى ذكره للمشركين بالله. وقيل: إنما عنى بذلك الذين قالوا: إن المسيح ابن الله من النصارى)[1]، وهو قول ابن عباس وقتادة ومجاهد.[2]

(ورشاقة هذا الاستدلال أن الحالتين المشبّهتين والمشبّه بهما: حالتا مولى وعبد، كما قال تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [الروم:٢٨].

---

(١) ابن جرير ١٧/ ٢٥١ ط الرسالة.

(٢) انظر أقوالهم في: ابن جرير ١٧/ ٢٥٢، الدر المنثور ٤/ ١٣٨. وأما القول: إنها نزلت في نصارى نجران رواه أبو صالح عن ابن عباس كما في زاد المسير ٤/ ٣٤٢. فهو بعيد. فالآية مكية ووفد نجران كان في المدينة. عداك عن القدح في السند. وللتوسع في تفسير الآية انظر: الرازي ٢٠/ ٦٤.

والغرض من التمثيل تشنيع مقالتهم واستحالة صدقها بحسب العرف، ثم زيادة التشنيع بأنهم رضوا لله ما يرضونه لأنفسهم، كقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل:٥٧، ٦٠]).[1]

﴿أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾: إنكار على المشركين وتوبيخاً لهم، **ويجوز فيها معنيان:**

- **أحدهما**: أفبأن أنعم الله عليكم بالإيجاد والوفاة والتفضيل بالرزق تجحدون نعمة الله وتشركون به أصناماً لم تنفعكم ولم تضركم. وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت:١٧].[2]

- **المعنى الثاني**: أفبما أنعم الله عليكم بأن بين لكم ما تحتاجون إليه من الدلائل فأظهرها بحيث يفهمها كل عاقل، تجحدون نعمة العقل والفهم والاسترشاد.[3]

ولعل الوجه الأول أقرب لموافقته السياق، والله أعلم.

(وقد عُدّي فعل ﴿يَجْحَدُونَ﴾ بالباء لتضمّنه معنى يكفرون).[4]

---

(١) التحرير والتنوير ١٤/ ٢١٥.

(٢) هذا الوجه مستفاد من كلام الزجاج في المعاني٣/ ٢١٢، والتحرير والتنوير ١٤/ ٢١٦.

(٣) مستفاد أيضاً من المعنى الثاني الذي ذكره الزجاج ٣/ ٢١٢ والرازي ٢٠/ ٦٥.

(٤) التحرير والتنوير ١٤/ ٢١٧.



(ولما ذكر الخلق والرزق، أتبعهما الإلذاذ بالتأنس بالجنس من الأزواج والأولاد وغيرهما؛ اللازم له القيام بالمصالح)(١)، لتكون هذه النعمة حجة وبرهاناً على وجود الخالق الحكيم، فقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾، وهذا خطاب للكل ابتداء من آدم وحواء إلى يوم القيامة دون تخصيص بآدم وحواء(٢)، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء:١]، فيكون المعنى أن الله خلق لكم من جنسكم أزواجاً، فيتزوج ذكوركم من إناثكم، وهذه آية من آيات الله تعالى كما في قوله سبحانه: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم:٢١]، فكان في هذه الآية آيات، وفي هذه الآيات نعم لا تحصى ولذلك ختم الآية بذكر كفران نعمه تعالى؛ وذكر النعمة بصيغة المصدر فقال: ﴿وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾، يقول ابن عاشور رحمه الله: (وهذه نعمة إذ جعل قرين الإنسان متكوّناً من نوعه، ولو لم يجعل له ذلك لاضطُرّ الإنسان إلى طلب التأنّس بنوع آخر فلم يحصل التأنّس بذلك للزوجين.

---

(١) نظم الدرر ١١/ ٢١٠.

(٢) انظر: الرازي ٢٠/ ٦٥، فقد ذهب بعض المفسرين إلى تفسيرها بآدم وحواء وروي مثله عن قتادة كما أخرجه ابن جرير ١٤/ ٩٦، وهو وإن كان صحيحاً إذ خلق الله حواء منه ولكن الخطاب هنا عام، والله أعلم. انظر: معاني الزجاج ٣/ ٢١٢، زاد المسير٤/ ٣٤٢، الدر المنثور ٤/ ١٣٨.



وهذه الحالة وإن كانت موجودة في أغلب أنواع الحيوان؛ فهي نعمة يدركها الإنسان ولا يدركها غيره من الأنواع، والوصف بالزوج يؤذن بملازمته للآخر، فلذا سمّي بالزوج: قرينُ المرأةِ، وقرينةُ الرجل، وهذه نعمة اختصّ بها الإنسان إذ ألهمه الله جعل قرين له وجبله على نظام محبّة وغيرة لا يسمَحان له بإهمال زوجه كما تُهمل العجماوات إناثها وتنصرف إناثها عن ذكورها).(١)

أقول: وهذه الآية بيان سنة من سنن الفطرة؛ ينبهنا الله تعالى لها للمحافظة عليها وشكرها، لأن شكر هذه السنة الربانية سبب من أسباب الأمن النفسي والأمن الاجتماعي، وإن الخروج عن هذه السنة الفطرية الربانية ثمنه اختلال أمن المجتمع وضياع الأسر والأولاد وسيادة الفساد وخراب العالم، وليس أدل على ذلك مما نراه في المجتمعات التي تسمي نفسها بمجتمعات الحرية؛ إذ لا يدري الزوج أين باتت زوجته، ولا يدري إن كان من يربيهم وينفق عليهم أولاده أم لا، وغير ذلك من البلايا ما يجعلهم عبرة في عاقبة الخروج عن السنة الربانية والله أعلم.

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾: نعمة أخرى تضاف على نعمة جعل الزوجة من جنس الرجل، وفي هذه النعمة نعم كثيرة: كإشباع فطرة الإنسان في حب البنين ودوام النسل وبقاء الذكر، والتباهي بالكثرة والقوة؛ وضبط سلسلة النسب خاصة إن كانت على الوجه المشروع، وهذه ميزة يختص بها الإنسان فقط.

وقد ضمن هذه النعم براهين وجوده سبحانه؛ إذ عبر عنها بالجعل الذي حمل معنى الخلق، إذ ليس للإنسان مدخل في تكوين زوجه، ولا في تكوين أولاده، ولا في

---

(١) التحرير والتنوير ١٤/ ٢١٨.

أحفاده، وإنما الإنسان سبب؛ هيأه الله تعالى ليزرع النطفة في محلها المشروع على الوجه المشروع، وأما تكوينه وتحديد نوعه وصفاته ورزقه وحياته، إنما بتقدير من الله تعالى.

﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾: نعمة مضافة على ما سلف، فلما ذكر إنعامه عليهم بالمنكوح وما فيه من المنافع والمصالح؛ ذكر إنعامه عليهم بما يكفل صلاح معيشتهم ودوامها مع الاستقرار والأمن.

ولـ ﴿مِّنَ﴾ في قوله: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ معنيان:

- **أحدهما**: أنها بيانية[1]، أي: (رزقكم الطيبات).

- **والثاني**: أنها تبعيضية[2]، أي: ورزقكم بعض الطيبات، وهو الراجح؛ لأن الإنسان لا يأخذ من رزقه إلا ما قدر له، ويبقى من الطيبات الكثير، والله أعلم.

والطيبات: (صفة لموصوف محذوف دلّ عليه فعل رزقكم، أي: الأرزاق الطيّبات، والتأنيث لأجل الجمع..

وهنا الأرزاق الواسعة المحبوبة للناس كما ذكر في الآية في سورة آل عمران قال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [آل عمران:١٤]؛ أو المطعومات والمشروبات اللذيذة الصالحة).[3]

---

(١) ذهب إلى ذلك الشيخ أبو زهرة رحمه الله في زهرة التفاسير ٨/ ٤٢٢٠.

(٢) انظر: الدر المصون ٧/ ٢٦٦، التحرير والتنوير ١٤/ ٢١٩.

(٣) انظر: التحرير والتنوير ١٤/ ٢١٩.

ومع كل ما أنعم الله على الإنسان؛ أشرك أكثرهم به، وكفروا نعمه وكذبوا رسله، لذلك فرع على هذه المنن والحجج استفهاماً توبيخياً على إيمانهم بالباطل البين، فقال تعالى: ﴿ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾.

(وضمير الغيبة في قوله تعالى: ﴿ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ ضمير فصل لتأكيد الحكم بكفرانهم النّعمة؛ لأن كفران النّعمة أخفى من الإيمان بالباطل، لأن الكفران يتعلّق بحالات القلب، فاجتمع في هذه الجملة تأكيدان: التأكيد الذي أفاده التقديم، والتأكيد الذي أفاده ضمير الفصل، والإتيان بالمضارع في: ﴿ يُؤْمِنُونَ ﴾، و: ﴿ يَكْفُرُونَ ﴾، للدّلالة على التجدّد والتّكرير).[1]

وأما ما ورد في تفسير الباطل بأنه الأصنام، كما روي عن ابن عباس رضي الله عنه[2]، أو: الشيطان، كما روي عن قتادة رضي الله عنه[3]، أو: الشريك والولد، كما روي عن عطاء[4]، فكله يدخل في مسمى الباطل إذ هو ضد الحق، فكل ما يعبد من دون الله باطل، ودلالة الباطل في الآية مفتوحة؛ تشمل كل باطل في كل زمان ومكان.

---

(١) التحرير والتنوير ١٤/ ٢٢٠.

(٢) زاد المسير ٤/ ٣٤٣، القرطبي ١٠/ ٩٦.

(٣) الرازي ٢٠/ ٦٦، ابن عادل ٢/ ٢٣٠، وروي مثله عن ابن جريج أخرج ابن المنذر كما في الدر المنثور ٤/ ١٣٩.

(٤) زاد المسير ٤/ ٣٤٣، الرازي ٢٠/ ٦٦.



ومعنى النعمة يعود بيانها إلى معنى مقابلها في الآية، فمن ذهب إلى أن الباطل في الآية هي الأصنام؛ ذهب إلى أن النعمة هنا هي التوحيد، كما ورد عن ابن عباس رضي الله عنه[1]، ولا شك أن أعظم نعمة أنعمها الله على الناس هي التوحيد والإيمان.

ولكن ورود النعمة مضافة إلى ذات الله تعالى في سياق التوبيخ لمن يكفرها، وقد سبقها منن فيها نعم ودلائل على وجود الله ووحدانيته؛ تجعل دلالة النعمة على كل ما يصدق عليها؛ ابتداء بالتوحيد والإسلام وانتهاء بالموت والبعث والجزاء، والله أعلم.[2]

---

(١) نقله عنه ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٣٤٣، البغوي ٣/ ٧٧.

(٢) علق فضيلة المشرف د. نور الدين عتر حفظه الله ما نصّه: (عملاً بقاعدة: النكرة المضافة تعم ما أضيف إليها، ليشمل ما ذكره هنا وغيره) انتهى.



الحمد لله لا يستوون

٢٤- ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾﴾.

*** مناسبة الآيات:**

لما عدد الله عليهم النعم في السماء والأرض والحيوان والحشرات وفي أنفسهم، ثم أقام دليل الوحدانية لذاته العلية سبحانه في فطرتهم بضرب المثل لمن ملك مالاً؛ فإنه لا يرضى أن يشاركه فيه أحد، فرع عليها هنا توبيخاً زائداً وهي شكر من لا يستحق الشكر، وضرب لذلك مثلاً آخر.

*** سبب النزول:**

عن ابن عباس قال: (نزلت هذه الآية ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ﴾ في رجلين أحدهما عثمان بن عفان، ومولى له كافر، وهو أسيد بن أبي العيص،



كان يكره الإسلام، وكان عثمان ينفق عليه ويكفله ويكفيه المؤنة ، وكان الآخر ينهاه عن الصدقة والمعروف، فنزلت فيهما)[١].

وأما قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآية؛ فقد ورد عن مقاتل أنها نزلت في كفار مكة الذين سألوا الرسول صلى الله عليه وسلم: متى الساعة؟، فنزلت.[٢]

غريب الآيات:

الأمثال: جمع مثل، وهي الأشباه، وضرب المثل يعني بيانه، وجعله، ووصفه، وذكره. وشاع استعمال ضرب الأمثال في تشبيه حالة بحالة أو هيئة بهيأة[٣]، وهم هنا شبهوا الأصنام بالله، وأثبتوا لها صفات كصفات الله.

---

(١) أخرجه ابن جرير١٤/ ١٠١، وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه وابن عساكر انظر الدر المنثور٤/ ١٤٠، البغوي ٣/ ٧٨ ط المعرفة وزاد المسير ٤/ ٣٤٥. واقتصرت على ذكر حديث ابن عباس في سبب النزول لأنه أقرب الروايات للآية، وقد قيل في نزولها غير ذلك منها:
منها عن مقاتل أنها نزلت في هاشم بن عمرو بن الحارث القرشي وكان قليل الخير يعادي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعن عطاء أن الأبكم أبي بن خلف ومن يأمر بالعدل حمزة وعثمان وهذا أبعد الأقوال. انظر الدر المنثور ٤/ ١٤٠، القرطبي ١٠/ ٩٨، البغوي ٣/ ٧٨، ابن عادل ٢/ ٢٤٢، ٢٤٣.

(٢) زاد المسير ٤/ ٣٤٦. وعند البغوي ٣/ ٧٩، وابن عادل ٢/ ٢٤٥ أنها نزلت في الكفار الذين استعجلوا القيامة استهزاء، وهذا ليس بسبب بل هو عام في الجواب على كل من استعجل الساعة في كل زمان، والله أعلم.

(٣) انظر: ابن عادل٢/ ٢٣٤، التحرير والتنوير١٤/ ٢٢٢، زهرة التفاسير ٨/ ٤٢٢٢، الأمثال في القرآن الكريم د.محمد جابر الفياض صـ٦٠ و صـ٦٧ ط الدار العالمية للكتاب الإسلامي الثانية١٤١٥هـ، الأمثال القرآنية الشيخ عبد الرحمن حبنكة صـ٧ ط دار القلم الأولى ١٤٠٠هـ.

أَبْكَمُ: هو الذي يولد أخرس فلا يفهم ولا يُفهم، ويقال: بكم عن الكلام، إذا ضعف عنه لضعف عقله، فصار كالأبكم، ويقال لِأقطعِ اللِّسانِ: أبكم، لأنه لا يحسن الكلام، ويقال للأعجمي أيضاً: أبكم.(١)

كَلٌّ: الكَلُّ: أصله الثقل، ثم نشأت عنه معانٍ مجازية صارت كالحقيقة، كمعنى العالة على الناس، ومن لا ولد له ولا والد، وسمي اليتيم بذلك لثقله على كفيله.(٢)

مَوْلَاهُ: المولى: الذي يلي أمر غيره، والمعنى: يعول العبدَ ويلي أمرَه.(٣)

*** تفسير الآيات:**

لما وبخهم على إيمانهم بالباطل وكفرهم بالحق والنعمة؛ زاد هذا التوبيخ توبيخاً لأنهم شكروا من لا يستحق الشكر، فقال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾.. يقول ابن عاشور رحمه الله: (فإن العبادة شكر، فهم عبدوا ما لا يستحقّ العبادة ولا بيده نعمة، وهو الأصنام، لأنها لا تملك ما يأتيهم من الرزق لاحتياجها، ولا تستطيع رزقهم لعجزها. فمفاد هذه الجملة مؤكّد لمفاد ما قبلها مع اختلاف الاعتبار بموجب التّوبيخ في كلتيهما).(٤)

---

(١) انظر: المفردات صـ٥٨، ترتيب القاموس ٣/ ١٦٥، اللسان (بكم) الوسيط للواحدي٣/ ٧٥، ابن عادل ٢/ ٢٣٨.

(٢) انظر: اللسان (كل)، الدر المصون ٧/ ٢٦٩، ابن عادل ٢/ ٢٣٩، التحرير والتنوير ١٤/ ٢٢٨.

(٣) انظر: أبو السعود ٥/ ١٢٨، التحرير والتنوير ١٤/ ٢٢٨.

(٤) التحرير والتنوير ١٤/ ٢٢١. وفي هذا المعنى يقول ابن عطاء: (كيف لا تحب واجدك، وما انفككت من تواتر نعمته قط، ولا تنفك أبداً، ولكن ضعف اليقين، وكدورة المعرفة، ونقص الإيمان حجبك عن محبته والميل إليه)، أخرجه البيهقي في الشعب رقم (٤٩٦).



إن من الفطرة أن يميل الإنسان إلى من أحسن إليه، وأن يحفظ له معروفه، ومن الخيانة وقلة المروءة تضييع المعروف، فكيف إذا كان المنعم هو الله الذي خلقك، وخلق كل شيء وسخره لمصلحتك، فإن إنكار ربوبيته، والإشراك بوحدانيته، وشكر غيره والخضوع لغيره؛ انحراف عقلي وفطري عن الجادة، وسفاهة لا يقاربها سفاهة، وقد بين الله تعالى ذلك بأسلوب يجعلهم في أدنى دركات البهم، فنكر ﴿شَيْـًٔا﴾ مبالغة في النفي، (أي: لا يملكون جزاء قليلاً من الرزق).[1]

ولم يقتصر الأمر على نفي ملكيتهم لأن يرزقوهم ولو قطميراً، بل نفى عنهم أيضاً استطاعة أن يقوموا بشيء، فقال: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾، فحذف مفعول يستطيعون لقصد التعميم، أي: لا يستطيعون شيئاً؛ لأن ما يعبدون من دون الله لا تملك القدرة فكيف تستطيع[2]، (وأعيد الضمير لمن يعقل تهكماً بهم وعلى زعمهم أنها تعقل وتشفع).[3]

ولما استقام بما تقدم الحجج والبراهين على تفرد الله تعالى بالألهية ونفي الشريك فيما خلق وأنعم؛ فرع على ذلك كله بقوله: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾، أي (لا تشبهوا بشأنه تعالى شأناً من الشؤون)[4]، فإنه واحد لا مثيل له، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورى:١١].

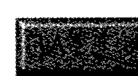
---

(١) انظر: التحرير والتنوير ١٤/ ٢٢١.

(٢) انظر: التحرير والتنوير ١٤/ ٢٢٢.

(٣) انظر: ابن عادل ٢/ ٢٣٣، ٢٣٤، زهرة التفاسير ٨/ ٤٢٢١.

(٤) أبو السعود ٥/ ١٢٨.



﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾، يقول ابن عاشور: (تعليل للنّهي عن تشبيه الله تعالى بالحوادث، وتنبيه على أن جهلهم هو الذي أوقعهم في تلك السخافات من العقائد، وأن الله إذ نهاهم وزجرهم عن أن يشبّهوه بما شبّهوه إنما نهاهم لعلمه ببطلان اعتقادهم.

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾؛ استدعاء لإعمال النّظر الصحيح ليصلوا إلى العلم البريء من الأوهام).[1]

(وحذف مفعول العلم اختصاراً أو اقتصاراً)[2]، ذلك ليعم كل ما يدل تحت مسمى العلم، أي: إن الله يعلم كيف يضرب الأمثال فيرشدكم إلى تصحيح عقيدتكم، وقوامة تفكيركم، ويقودكم إلى سعادتكم، وأنتم لا تعلمون خطأ ما تضربون من الأمثال التي يخيلها لكم الشيطان؛ فتزيد في فساد عقيدتكم والله أعلم.

ثم أرشدهم إلى حسن ضرب الأمثال، وجعل منهم واقعاً لذلك، فقال الله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدًا مَّمۡلُوكًا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٍ﴾، هذا مثل ضربه الله تعالى لنفسه وللأوثان[3]، يقول ابن عاشور: (أعقب زجرهم عن أن يشبّهوا الله بخلقه، أو أن يشبّهوا الخلق بربّهم بتمثيل حالهم في ذلك بحال من مثَّل عبداً بسيّده في الإنفاق)[4]،

---

(١) التحرير والتنوير ١٤/ ٢٢٣.

(٢) الدر المصون ٧/ ٢٦٩.

(٣) انظر: الأمثال في القرآن الكريم لابن القيم الجوزية صـ٢٠٤ تحقيق سعيد محمد نمر الخطيب ط دار المعرفة بيروت الثانية ١٤٠٣هـ.

(٤) التحرير والتنوير ١٤/ ٢٢٣.

فصفة العبد هنا المملوكية والعجز التام، وذلك تمييزاً له عن الحر لاشتراكهما في العبودية لله تعالى، ولتمييزه عمن يقدر كالمكاتب أو المأذون له.(١)

﴿وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا﴾ أي: ومن رزقناه رزقاً حلالاً طيباً أو مستحسناً عند الناس مرضياً، والسياق يفيد الكثرة، فهو ينفق منه تفضلاً وإحساناً، والفاء تفيد الترتيب، أي: بعدما رزقناه منا أنفق، وجاءت الجملة إسمية للدلالة على الثبات والاستقرار، وذلك الإنفاق في حالة السر والجهر، والمراد بيان عموم الإنفاق للأوقات.(٢)

(فشبّه حال أصنامهم في العجز عن رزقهم بحال مملوك لا يقدر على تصرّف في نفسه ولا يملك مالاً ، وشبّه شأن الله تعالى في رَزقه إيّاهم؛ بحال الغنيّ المالك أمر نفسه بما شاء من إنفاق وغيره ، ومعرفة الحالين المشبّهتين يدلّ عليها المقام ، والمقصود نفي المماثلة بين الحالتيْن ، فكيف يزعمون مماثلة أصنامهم لله تعالى في الإلهية)(٣)، ولذلك أعقبها بقوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوُۥنَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الاستفهام استنكاري، وجمع الضمير في (يستوون) لأن المراد جنس العبيد والأحرار المدلول عليهما بـ (عبد) و(من رزقناه).(٤)

والآية عامة في كل عبد بهذه الصفة وكل حر بهذه الصفة.(٥)

---

(١) انظر: أبو السعود ٥/ ١٢٩، الآلوسي ١٤/ ١٩٥.

(٢) انظر: الرازي ٢٠/ ٦٨، الدر المصون ٧/ ٢٦٩، أبو السعود ٥/ ١٢٩، الألوسي ١٤/ ١٩٥.

(٣) انظر: الأمثال في القرآن لابن القيم صـ٢٠٥، التحرير والتنوير ١٤/ ٢٢٣.

(٤) انظر: الدر المصون ٧/ ٢٦٩.

(٥) الرازي ٢٠/٦٨.

وأما ما ورد في هذه الآية مما يدرج في أسباب النزول بأن العبد فلان والذي ينفق فلان فلم يثبت ذلك.[١]

وقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ تأكيد لنفي التساوي، وكالنتيجة لما سلف، وكأنهم لما سمعوا المثل والسؤال، أجابوا: لا يستوون ونحن نعلم ذلك، وهي اعتراض، أي: كل الحمد له سبحانه وحده؛ لا يستحقه أحد غيره، فضلاً عن استحقاق العبادة[٢].

و(بل) للإضراب، أي: كان الإضراب عن علمهم البدهي بنفي التساوي الذي طمس فيه الهوى عقولهم وأغلق مداخل الفكر والعلم فيهم.[٣]

يقول البقاعي:

(أو يقال -وهو أرشق- لما كان الجواب قطعاً: لا يستوون والفاضل مثالك، فقد علم كل ذي لب أن لك المثل الأعلى، فترجم عن وصفه بقوله ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي: الإحاطة بصفات الكمال للملك الأعظم، وعن نسبتهم إلى علم ذلك بقوله تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: ليس لهم علم بشيء أصلاً، لأنهم يعملون في هذا بالجهل، فنسبتهم إلى الغباوة أحسن في حقهم من نسبتهم إلى الضلال على علم).[٤]

---

(١) انظر: الآلوسي ١٤/ ١٩٥.

(٢) انظر: نظم الدرر ١١/ ٢١٦، زهرة التفاسير ٨/ ٤٢٢٤، حدائق الروح والريحان ١٥/ ٣٠٧.

(٣) انظر: زهرة التفاسير ٨/ ٤٢٢٤.

(٤) نظم الدرر ١١/ ٢١٧.

ثم ضرب الله تعالى مثلاً ثانٍ للحالتين باختلاف وجه الشبه فقال سبحانه:

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾، فهذا مثل ضربه الله تعالى لنفسه ولما يعبدون من دونه، فأحد الرجلين موصوف بالبكم القلبي واللساني، والعالة والثقل وقلة الجدوى المتضمنة للحماقة والغباء، فلا ينفع في عمل لأن الخير هو ما فيه تحصيل الغرض من الفعل ونفعه، وهو مثل للذي يعبد من دون الله صنماً كان أو غيره.

والرجل الثاني وصفه بالذي يأمر بالعدل وهو: (الحق والصواب الموافق للواقع وعلى صراط مستقيم، أي: المحجة التي لا التواء فيها وأطلق الصراط المستقيم على العمل الصالح)[1]، وقد تضمن هذا الوصف أن صاحبه عالم قادر متكلم آمر متنزه عن ضده من الظلم والسفه والباطل، وهو مثل لله سبحانه وتعالى، وأمره بالعدل يتناول الأمر الشرعي والأمر الكوني المتجلي في قضائه وقدره وخلقه.[2]

ودلت صلة ﴿مَن﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ (على أن هذا الرجل حكيم عالم بالحقائق ناصح للناس، يأمرهم بالعدل، ولا يأمر به إلا من كان عالماً به متبصراً بحقيقته).[3]

---

(١) التحرير والتنوير ١٤/ ٢٢٨.

(٢) انظر: الأمثال في القرآن الكريم لابن القيم صـ٢٠٦، ٢٠٧.

(٣) التحرير والتنوير ١٤/ ٢٢٨. وانظر: زهرة التفاسير ٨/ ٤٢٢٧.

فمثل من يسوي بين الرجل الأول والرجل الثاني؛ كمثل الذي يسوي بين الله والأصنام التي يعبدها المشركون، أو: من يسوي الله بخلقه.

يقول ابن جرير: (وهذا مثل ضربه الله تعالى لنفسه والآلهة التي تُعبد من دونه)[١]، وهو مروي عن قتادة ومجاهد.[٢]

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: «هو مثل للكافر والمؤمن»[٣]، وهذا القول يتفق مع ما ورد في سبب نزولها، وقد حمله الرازي على عموم من يتصف بهاتين الصفتين بنفي المساواة بينهما؛ (لأن وصفه تعالى إياهم بكونهما رجلين يمنع من حمل ذلك على الوثن، ووصف الآخر بأنه على صراط مستقيم يمنع من حمله على الله تعالى)[٤]، وحمله على العموم أولى على القول أنه مثل للمؤمن والكافر.

والراجح لدى الباحث أنه مثل لنفي المساواة أصلاً بين الله وما يعبد من دونه، وذلك لأن الآيات في سياق ذكر منن الله تعالى على خلقه، والاستدلال بها على وحدانيته سبحانه، وهذه الأمثال إنما هي من قبيل التحريض العقلي لمن غلب الهوى على تفكيره لتحصل عنده اليقظة فينتبه إلى درك الجهالة التي سقط فيها فجعل المخلوق كالخالق، والله أعلم.

---

(١) ابن جرير ١٧/ ٢٦٢ ط الرسالة.

(٢) أخرجهما ابن جرير ١٧/ ٢٦٣ ط الرسالة.

(٣) ابن كثير ٤/ ٥٨٩ ط طيبة. وقد جعل ابن القيم قول ابن عباس في كتابه الأمثال قولاً ثانياً في الآيتين انظر: الأمثال في القرآن لابن القيم صـ٢٠٥ وصـ٢١١.

(٤) انظر: الرازي ٢٠/ ٧٠، ومثله فعل القرطبي في الحمل على العموم ١٠/ ٩٨.

يقول ابن القيم: (هذان مثلان متضمنان قياسين من قياس العكس، وهو نفي الحكم لنفي علته وموجبه، **فإن القياس نوعان:**

قياس طرد: يقتضي إثبات الحكم في الفرع لثبوت علة الأصل فيه،

وقياس عكس: يقتضي نفي الحكم عن الفرع لنفي علة الحكم فيه)[١]، وهذا من العلوم العقلية وأسس المناظرة والجدل.

ولما كان من كلامهم أن أقسموا لا يبعث الله من يموت؛ لاستحالة إعادة الحياة لما رمَّ من الموتى وما بلي بعد فناء العالم، وأقام الدلائل على بطلان زعمهم وبسط البراهين على قدرته ووحدانيته، وبين لهم أنه يمهلهم إلى أجل مسمى وحذرهم منه؛ ثم ضرب لهم الأمثال على عظيم جهلهم، وكمال علمه سبحانه، وتفرده بالألوهية وكمال الصفات، بسط لهم سلطان علمه على مالا يدركون كنهه، وخوفهم سبحانه بقدرته على إفناء العالم بأسرع مما يتصورون؛ فقال سبحانه: ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾، هذه اللام للملك، وتقديم لفظ الجلالة مع اللام؛ أفاد حصر العلم بهذه الغيوب بالله وحده[٢]، فكل ما غاب عن حاسة الإنسان غيب، فأنى للإنسان أن يدرك المغيبات في عوالم السماء وخفايا عوالم الأرض التي لا تصل إلى مشاهدتها حواسه، وأنى لعقل العاقل أن يتصور هذا الغيب وهو يجهل نفسه، فكيف لمن كان الأصل فيه الجهل أن يضرب الأمثال ويقرر ما يخالف حقائق الفطرة التي فطرها الله تعالى.

---

(١) الأمثال في القرآن صـ ٢٠٤.

(٢) انظر: ابن عادل ٢/ ٢٤٤، التحرير والتنوير ١٤/ ٢٢٩.

ثم بيّن كمال قدرته سبحانه وتعالى فقال: ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ﴾، (وأمر الساعة شأنها العظيم والساعة علم بالغلبة على وقت فناء العالم وهي من جملة غيب الأرض)[1]، وهذا من أعظم ما وقع فيه المماراة من الغيوب من حيث وقوعها وآثارها وما يحصل بعد وقوعها.[2]

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُ﴾ أي: كرجع الطرف من أعلا الحدقة إلى أسفلها[3]، ويطلق اللمح على النظر بسرعة؛ فيكون المعنى: إن الساعة مقدورة دون كلفة؛ لأن لمح البصر أمكن وأسرع حركات الجوارح.[4]

يقول ابن عاشور: (ووجه الشّبه يجوز أن يكون تحقّق الوقوع بدون مشقّة ولا إنظار عند إرادة الله تعالى وقوعه، وبذلك يكون الكلام إثباتاً لإمكان الوقوع، وتحذيراً من الاغترار بتأخيره.

ويجوز أن يكون وجهُ الشّبه السرعةَ، أي: سرعة الحصول عند إرادة الله، أي: ذلك يحصل فَجْأة بدون أمارات كقوله تعالى: ﴿لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةً﴾ [الأعراف:١٨٧]، **والمقصود**: إنذارهم وتحذيرهم من أن تبغتهم الساعة، ليقلعوا عمّا هم فيه وقت الإنذار.

و﴿أَوۡ﴾ في: ﴿أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُ﴾؛ للإضراب الانتقالي، إضراباً عن التشبيه الأول؛ بأن المشبّه أقوى في وجه الشبّه من المشبّه به، فالمتكلّم يخيّل للسامع أنه يريد تقريب

---

(١) التحرير والتنوير ١٤/ ٢٣٠.

(٢) انظر: أبو السعود ٥/ ١٣١.

(٣) نظم الدرر ١١/ ٢٢١، الآلوسي ١٤/ ١٩٨.

(٤) التحرير والتنوير ١٤/ ٢٣٠.



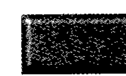
المعنى إليه بطريق التّشبيه، ثم يعرض عن التّشبيه بأن المشبّه أقوى في وجه الشّبه؛ وأنه لا يجد له شبيهاً فيصرّح بذلك، فيحصل التقريب ابتداء، ثم الإعراب عن الحقيقة ثانياً).[1]

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ أي: إن الله قادر على ما يشاء لا يمتنع عليه شيء أراده، فهو قادر على إقامة الساعة في أقرب من لمح البصر[2]، فليس ثمة زمان يحكم الله تعالى لأنه خالق الزمان والمكان.

---

(١) التحرير والتنوير ١٤/ ٢٣٠، وانظر: الدر المصون ٧/ ٢٧١، الآلوسي ١٤/ ١٩٩حول تفسير (أو) ومعناها في الآية واختلاف التفسير على ذلك، للتوسع.

(٢) حدائق الروح والريحان ١٥/ ٣١٢.



من مسالك الشكر: سلامة الاستبصار

٢٥- ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾.

*** مناسبة الآيات:**

بعدما تقدمت الأدلة على وحدانية الله تعالى وكمال علمه بذكر نعمه على عباده، في حياتهم ومعاشهم وتفاضلهم في الرزق، وضرب لهم الأمثال على وحدانيته سبحانه، ووبخهم على غفلتهم وغيهم واستكبارهم بالباطل؛ عادت الآيات هنا في ذكر لون جديد من نعم الله تعالى على عباده، يبين فيها أن الإشراك بالله تعالى لا ينبغي أن يصدر ممن ملكه الله عَزَّوجل وسائل البحث والمعرفة، ونصب له شواهد الألوهية والوحدانية أمام ناظريه؛ فما كان عليه إلا أن يجدَّ في الملاحظة ويخلص في الاستدلال.

*** غريب الآيات:**

وَالْأَفْئِدَةَ: جمع فؤاد.

يقول الراغب: (الفؤاد: كالقلب، لكن يقال له فؤاد إذا اعتبر فيه معنى التفؤد، أي: التوقد..، وتخصيص الأفئدة تنبيه على فرط تأثير له).[1]

---

(١) المفردات صـ ٣٨٦.

يقول ابن عاشور: (وأصله القلب، ويطلق كثيراً على العقل وهو المراد هنا).(١)

*** تفسير الآيات:**

لما بين الله تعالى في خاتمة الآية السابقة أنه على كل شيء قدير؛ بين دلائل قدرته في إخراج الإنسان، وما هيأه به لكسب المعرفة الموجبة لشكر الله، بأن يستخدم الإنسان نعمة الله فيها أمر، وأن يوظف مداخل الإدراك فيه ليعرف الله ببرهان ودليل؛ فقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ ﴾.

أنموذج للتفسير العلمي بطريقة التفسير الإجمالي مع اتباع أحسن طرق التفسير واستخدام العلوم التطبيقية وغيرها في بيان الدلائل الكونية

إن التذكير بمنة الإخراج من بطون الأمهات وحدها كافية ليسجد العقل موحداً لله تعالى، لما في هذا الإخراج من لطف الله تعالى وعلمه وحكمته وتقديره سبحانه.

وقد بين اللطيف الخبير محل البطن في قوله تعالى: ﴿يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ [الطارق:٧]، فالبطن هنا بين الصلب والترائب، أي: بين ضلوع الصدر وأسفل الظهر، ويقابل أسفل الظهر من البطن: العانة(٢)، وقد أحاط بالجنين في محل إقامته في هذا التجويف الضيق: الأمعاءُ والكبد والقلب والمعدة والرحم، يأتيه رزقه رغداً إلى أجل مسمى يقدره الله تعالى إلى وقت الخروج، قال سبحانه: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُ فِي قَرَارٖ مَّكِينٍ﴾، ﴿فَقَدَرۡنَا فَنِعۡمَ ٱلۡقَٰدِرُونَ﴾ [المرسلات: ٢١ إلى ٢٣].

وقد بين الله عزّوجل أنه قد يسر سبيل الإخراج، فقال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴾ [عبس: ٢٠]، بأن هيأ أسباب تيسير الإخراج والمخاض في أثناء الولادة، وذلك من

---

(١) التحرير والتنوير ١٤/ ٢٣٢.

(٢) انظر: مادة: صلب في اللسان ١/ ٥٢٦.

خلال إفراز الهرمونات التي تؤدي إلى تراخي أربطة مفاصل الحوض وتليِّن عنق الرحم، ثم يتقلص الرحم مما يؤمِّن بفضل الله القوَّةَ اللازمة لدفع الوليد من الرحم، وهيأ الله تعالى مع هذه التقلصات أغشية مائية تبرز من عنق الرحم كلما تقلص لتسهل تمدده وتؤمن سطحاً لزجاً ناعماً ينزلق عليه الجنين.[1]

(وعندما يستكمل الجنين الوقت المقدر له في قراره المكين، يتغير وضعه عبر تجويف الحوض من نزول وانثناء، ودوران داخلي، وتمدد واسترجاع لوضعه الطبيعي ثم خروج بسلام..

إن عملية دوران رأس الجنين مقدرة بلطف الله تعالى بدقة عجيبة؛ فهيأ الله تعالى من أجلها القناة الحوضية أشبه باسطوانة ملساء، وجعل فيها شوكين عظيمين بارزين، فإذا استمرت تقلصات الرحم تدفع الجنين إلى الأسفل حتى يصطدم بالشوكين المذكورين؛ فيوجهان الرأس بحيث يدور وتتطابق أقطاره مع أقطار المضيق السفلي، فالرأس يتدخل بالعرض ثم يدور في الحوض، ويتخلص منه بالطول، ولولا أن الحوض قد أعده الله على هذه الهيأة والمقاسات؛ لما أمكن الإخراج).[2]

فلو تفكر الإنسان محل إقامته الأول وحجم جسمه فيه، وحجم المخرج الذي خرج منه وكيفية إخراجه منه؛ لاكتفى بذلك ليعرف لطف الله وعظيم صنعه فيه، فيكون سبباً

---

(١) انظر: علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة تأليف: ت. ف. ن، برسود، عبد المجيد الزنداني، مصطفى أحمد صـ١٠٤، ١٠٥ ط رابطة العالم الإسلامي هيئة الإعجاز العلمي دون تاريخ.

(٢) انظر: القرار المكين د. مأمون الشقفة من صـ ٧٥، إلى ٨٠، والتوحيد والشكر في سورة النحل للشيخ عبد الحميد طهماز صـ٧٦.



ملزماً لشكره وإفراده بالعبودية، ولتكون طريقة الإخراج هذه دليلاً على البعث بعد الموت؛ لأن القادر على إخراجكم بالصورة التي تقدمت من بطون أمهاتكم، لا يصعب عليه أن يخرجكم من بطون الأرض بعد مماتكم.

ثم بين الله تعالى الحال التي خرج عليها الإنسان، فقال:

﴿لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ أي: وحالكم عند الإخراج أنكم لا تعلمون أدنى شيء، فإن صفحة وخلايا عقل الإنسان خالية من أيِّ معلومة يباشر بها الجنين حياته بعد الولادة على أساسها، وفي هذه الجملة من الآية إشارة إلى **أن الأمور المكتسبة لا تورّث ومنها العلم**، وهذا تسفيه لآراء وفرضيات التطوريين والداروينيين، وخاصة منهم أصحاب الداروينية الحديثة.

وإذا علمنا من الآية أن العلوم والخبرات والمكتسبات لا تورث كما تورث الصفات عن طريق الجينات والمورثات؛ علمنا بذلك سقوط زعم من تصور أن الأحياء – ومنها الإنسان – يورث خبرته لأبنائه ليتطور.[1]

---

(١) هذه فرع من فروع نظرية التطور لدارون، ولكن سبقه فيها أستاذه لامارك الباحث الفرنسي في علم الأحياء وكان صاحب فكرة مفادها أن الأحياء تتعرض لتكيفات معينة أثناء حياتها، وتورث هذه التكيفات إلى الأجيال اللاحقة، وأن تراكم هذه التكيفات من جيل إلى جيل يؤدي إلى ظهور أنواع جديدة من الأحياء. وقد أسقط هذه الفكرة علم الجينات والوراثة وعلماؤهم من أبناء هذه النظرية وخاصة أبناء الداروينية الحديثة.

انظر: كتاب الجديد في الانتخاب الطبيعي بيولوجياً، تأليف ريشارد دوكينز ترجمة أ.د. مصطفى إبراهيم فهمي صـ٢٣١ فما بعد في فصل التطور البناء ط المكتبة الأكاديمية القاهرة الأولى ١٩٩٥، التضحية عند الحيوان هارون يحيى صـ١٤٩، هالوك البشرية التطور وابنه الإلحاد=

ثم بين الله تعالى أنه جعل في الطفل آلات الإدراك وأصول التفكر، فقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾، فهذه أسباب المعرفة ومداخل الإدراك وأقوى وسائل التوصل للعلوم الضرورية.

والمنة هنا بالحواس، والأعضاء داخلة فيها لأنها محلها فلا تتصور بدونها، ولأن محل حصول المعرفة بالحواس أصلاً لا بالأعضاء فقط، فما فائدة أن يكون للإنسان عين لا يبصر بها، وأذن لا يسمع بها، ومخ لا يعقل به، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ [الأعراف:١٧٩]، **وفي هذه الجملة من الآية ثلاث مسائل:**

- **إحداها:** المفسرون على أن جعل السمع والبصر والأفئدة في بطون الأمهات قبل الولادة[١]، وعلى هذا فالواو في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ﴾ ليست للترتيب، قال أبو عبيدة: (وإنما جعل لهم السمع والأبصار والأفئدة قبل أن يخرجهم، غير أن العرب تقدِّم وتؤخِّر)[٢]، ويقول أبو السعود: (وليس فيه دلالةٌ على تأخر الجمعِ المذكورِ عن الإخراج لما أن مدلولَ الواو هو الجمعُ مطلقاً لا الترتيبُ، على أن أثر ذلك الجعلِ لا يظهر قبل الإخراج، أي: جعل لكم هذه الأشياءَ آلاتٍ تحصّلون بها العلمَ والمعرفة بأن تُحِسوا

= وحفيده الاستنساخ لـ رضوان الطلاع من صـ٣٦، إلى صـ٥٦ ط مطابع العصر الأولى ١٤٢٢هـ.

(١) انظر: ابن جرير ١٧ / ٢٦٦ ط الرسالة.

(٢) نقله في زاد المسير ٤/ ٣٤٧.



بمشاعركم جزئياتِ الأشياء، وتُدركوها بأفئدتكم وتتنبهوا لما بينها من المشاركات والمباينات بتكرر الإحساسِ فيحصل لكم علومٌ بديهيةٌ؛ تتمكنون بالنظر فيها من تحصيل العلومِ الكسبية).[١]

● **المسألة الثانية: في تقديم السمع على البصر:** من موجبات التدبر في كتاب الله تعالى أنه ما اقترن السمع والبصر بالذكر؛ إلا قدم السمع على البصر، كما في قوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة:٧]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء:٣٦].[٢]

أما إذا ذكر العضو: العين والأذن، فتُقدَّمُ العين على الأذن، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ [الأعراف:١٧٩]، وقد جعل بعضهم من هذا إعجازاً علمياً في القرآن الكريم؛ لأن وظيفة حاسة السمع عند الجنين تصبح جاهزة للعمل والقيام بمهامه في الشهر الخامس من عمره، فيسمع أصوات حركة أمعاء أمه ونبضات قلبها، وتتولد إشارات سمعية في أذنه الداخلية[٣]، وأما بعد

---

(١) أبو السعود ٥/ ١٣١.

(٢) وانظر الآيات: [البقرة:٢٠]، [الأنعام ٤٦]، [يونس:٣١]، [النحل:١٠٨]، وغير ذلك من الآيات، ومن ذلك تقديم الصم البكم على العمي أيضاً.

(٣) انظر: الإعجاز العلمي في آيات السمع والبصر في القرآن، البحث الأول منه تأليف أ. د صادق هلالي صـ٢٠، ٢١، ط رابطة العالم الإسلامي هيئة الإعجاز العلمي الأولى ١٤١٤هـ.



الولادة فإن الطفل يسمع بشكل طبيعي بعد بضعة أيام من ولادته، بعد أن تمتص كل السوائل وفضلات الأنسجة المتبقية في أذنه الوسطى والمحيطة بعظيماتها، ثم يصبح السمع حاداً بعد أيام قلائل من ولادة الطفل.[1]

أما العين فلا يتم تكامل طبقتها الشبكية الحساسة للضوء إلا بعد الأسبوع الخامس والعشرين من الحمل، أي بعد حوالي ستة أشهر وأسبوع[2]، أما عند الولادة فإن حاسة البصر تكون ضعيفة حتى تكاد تكون معدومة، ويصعب على المولود التمييز بين الضوء والظلام، ولا يبدأ بتمييز شكل أمه إلا في الشهر الثالث أو الرابع، ويتمكن من تمييز الأشخاص في الشهر السادس[3]، وهذا كله يعني أن نضوج حاسة السمع وأعضائها تسبق بكثير نضوج حاسة البصر وأعضائها في الخلقة، وتقديم السمع على البصر في هذه الآية وشبيهاتها من آيات كتاب الله تعالى إشارة إلى ذلك.

أقول: وهذا استنباط وجيه وقوي، استفادةً من إشارة النص بقرينة ما دلت عليه الآيات الأخرى المشابهة.

وقد يعترض عليه: بأن هذا الاستدلال فيه نظر؛ لأن نظم الآية قدم السمع والبصر على العقل، فهما مخلوقان قبله، والسمع والبصر لا يحصلان بدون العقل، فلماذا تأخر ذكره عنهما إذن؟

أقول: يجاب على ذلك بأن المنة بالحاسة والأثر، لا بالعضو فقط، فالطفل - وإن كان يسمع في بطن أمه- فإنه لا يعقل ما يسمعه، وإن كان يرى بعد الولادة بزمن إلا أنه لا



---

(١) انظر: الإعجاز العلمي في آيات السمع والبصر في القرآن صـ٢٣.

(٢) انظر: المصدر السابق صـ٢٠.

(٣) انظر: المصدر السابق صـ٢٤.



يعقل إلا بعد أشهر، وإن كانت محالّ التعقل مخلوقة؛ لكنها غير مدرِكَة إلا بعد الولادة، وقد تقدم قول الراغب: (وتخصيص الأفئدة تنبيه على فرط تأثير له)، وهذا التأثير لا يحصل إلا بعد الولادة.

أنموذج لاستخدام الوقف والابتداء في التفسير العلمي للقرآن.

يقول ابن جرير: (وإنما أعطاهم العلم والعقل بعد ما أخرجهم من بطون أمهاتهم)[1]، قال البغوي: (﴿لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ تم الكلام، ثم ابتدأ فقال جل وعلا: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ لأن الله تعالى جعل هذه الأشياء لهم قبل الخروج من بطون الأمهات، وإنما أعطاهم العلم بعد الخروج)[2]، أي: بعد تمام خلق السمع والبصر والأفئدة.

ولذلك يقول أبوالسعود: (على أن أثر ذلك الجعلِ لا يظهر قبل الإخراج؛ أي: جعل لكم هذه الأشياءَ آلاتٍ تحصّلون بها العلمَ والمعرفة، بأن تُحِسوا بمشاعركم جزئياتِ الأشياء، وتُدركوها بأفئدتكم، وتتنبهوا لما بينها من المشاركات والمباينات بتكرر الإحساسِ فيحصل لكم علومٌ بديهيةٌ تتمكنون بالنظر فيها من تحصيل العلومِ الكسبية).[3]

ويصير المعنى على ذلك: وجعل لكم السمع والبصر، وجعل لكم أيضاً آثار كمالهما من اتقاد الأفكار وحصول العلم بهما، فَتَحَصُّلَ العلم والتعقل بالسمع والبصر حاصل بعد كمالهما، والله أعلم.

---

(١) ابن جرير: ١٧/ ٢٦٦ ط الرسالة.

(٢) البغوي ٥/ ٣٤ ط طيبة.

(٣) أبو السعود ٥/ ١٣١.



● **المسألة الثالثة: قسمت هذه الآية العلوم المكتسبة إلى ثلاثة علوم أساسية يدخل** فيها كل معارف الدنيا: علوم سمعية، وعلوم تجريبية تطبيقية بحثية، وعلوم عقلية.

فقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ﴾، وهو قسم العلوم السمعية، (والسمع مصدرٌ لفظه واحد والمراد به جنس ما يشمله)[1]، أي: وجعل لكم الإحساس الذي به إدراك الأصوات بآلاته لتتوصلوا إلى العلوم السمعية أساساً، وهي العلوم الغيبية التي لا تدرك بالبصر والعقل، وإنما مصدرها الوحي كمعرفة الله تعالى والجنة والنار وغير ذلك. ويدخل في هذا القسم العلوم اللغوية لأنها في الأصل سمعية.. ولا نغفل دور السمع في تعليم باقي المعارف، فالسمع أصل في العملية التعليمية ونقل المعارف.

وقوله: ﴿وَٱلْأَبْصَـٰرَ﴾: يدخل فيه العلوم التجريبية والبحثية والتطبيقية...ونحوها من العلوم التي يتوقف معرفتها على الملاحظة والنظر، والبصر أصل ثانٍ من أصول التعليم وتوصيل المعارف، فالمبصرات أوسع من المسموعات، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ قسم العلوم العقلية، وهو لا يتم إلا بتمام السمع والبصر وباقي الحواس في الإنسان؛ ولذلك أخره كما تقدم. وبواسطة العقل يدرك الإنسان العلوم البدهية، والعلوم النظرية المكتسبة المستندة أصلاً إلى البدهيات وتحصل هذه العلوم أيضاً بربط المعارف والموجدات ومعرفة حركتها وعملها، وحسن التصور لها وأهم أسباب ذلك السمع والبصر، ثم باقي حواس الإنسان.[2]

---

(١) انظر: زاد المسير٤/ ٣٤٧.

(٢) ينظر ما قاله الرازي ٢٠/ ٧٢ وتبعه ابن عادل ٢/ ٢٤٦، وابن عاشور في التحرير والتنوير ١٤/ ٢٣٣ في تفصيلات العلوم العقلية والبدهية والنظرية والكلام فيها.

والأفئدة جمع قلة، قال الزجاج: (ولم يجمع فؤاد على أكثر العدد، وما قيل: فئدان، كما يقال: غراب، غربان)[١].

والحكمة من جمعه جمع قلة: تنبيهاً على أن السمع والبصر كثير إلا أن الفؤاد - التعقل - قليل لأن الفؤاد إنما خلق للمعارف الحقيقية والعلوم اليقينية وأكثر الخلق ليسوا كذلك، فكأن فؤادهم ليس بفؤاد.[٢]

(وهذه العلوم نعمة من الله تعالى ولطف، لأن بها إدراكَ الإنسان لما ينفعه؛ وعَمَل عقله فيما يدلّه على الحقائق، ليسلم من الخطأ المفضي إلى الهلاك والأرزاء العظيمة، فهي نعمة كبرى)[٣]، ولذلك أعقبها بقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾، أي: ليكون حالكم حال من يشكر الله تعالى على عظيم هذه النعم، فإن الله تعالى أخرجنا جهالاً بالأشياء وخلق لنا الآلات التي نتوصل بها إلى العلم.[٤]

ولما كان البصر أوسع مدارك العلوم، وأعظمها حاسة وألصقها بدلائل وحدانية الله تعالى وعظمته وبديع صنعه، إذ لا يستطيع الإنسان أن يكذب عينه وينكر ضوء الشمس؛ نبههم الله تعالى إلى آية من آياته؛ تُحرك فيهم مدرك النظر والعقل، فقال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ﴾.

---

(١) معاني الزجاج ٣/ ٢١٤.

(٢) انظر: الرازي ٢٠/ ٧٣، ابن عادل ٢/ ٢٤٨.

(٣) انظر: التحرير والنوير ١٤/ ٢٣٣.

(٤) انظر: زاد المسير ٤/ ٣٤٧.

أي: أولم ينظر هؤلاء المنكرون للوحدانية والقدرة بأبصارهم التي جعلها الله تعالى فيهم إلى الطيور في الفضاء بين السماء والأرض، مذللات للطيران بما خلق الله لهن من الأجنحة والأسباب المساعدة لهن، كرقة قوام الهواء وإلهامها بسط الجناح وقبضه، ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أي: ما يمسكهن في الجو في حال القبض والبسط عن السقوط على الأرض إلا الله تعالى؛ ذلك لثقل أجسامهن بالنسبة للهواء، فيحركوا عقولهم ليسألوا أنفسهم: كيف لا يسقط هذا الطير إذ ليس تحته ما يدعمه، ولا فوقه ما يتعلق به، فيعلم بالعقل أن له ممسكاً قادراً؛ وهو الله تعالى.(١)

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ﴾ [الملك:١٩].

والاستفهام إنكاري، معناه: (إنكار انتفاء رؤيتهم الطير مسخّرات في الجوّ بتنزيل رؤيتهم إيّاها منزلة عدم الرؤية، لانعدام فائدة الرؤية من إدراك ما يدلّ عليه المرئيّ من انفراد الله تعالى بالإلهية)(٢).

أنموذج التفسير العلمي بطريقة التفسير الإجمالي وتنوع الدلالات.

وفي هذه الجملة من الآية مسألتان أساسيتان:

إحداهما: في قوله تعالى: ﴿مُسَخَّرَٰتٍ﴾ إشارة إلى أمرين:

الأمر الأول: أي أنها مذللة للطيران، ففيها إشارة إلى الخلق التام الذي خلق الله عليه جنس الطيور بأنواعها، والتصميم الدقيق لتتمكن بإذن الله تعالى من الطيران، إذ

---

(١) انظر: القرطبي ١٠/ ١٠٠، الرازي ٢٠/ ٧٣، الدر المصون ٧/ ٢٧٤، ابن عادل ٢/ ٢٥٠، أبو السعود ٥/ ١٣١، حدائق الروح والريحان ١٥/ ٣١٤.

(٢) التحرير والتنوير ١٤/ ٢٣٥.



خلقها الله تعالى بصورة وجسم وملكات تمكنها من الطيران، فآلية الطيران في الطيور تعتمد على عدة أمور: تركيبة جسم الطائر ووزنه، وتصميم ريشه، والطاقة اللازمة لاستمرار الطيران، والهواء المساعد على الطيران.

أما جسم الطائر: فقد خلق الله تعالى الطير بعظام مجوفة للتخفيف من وزن الجسم الكلي[1]، كما أن رأسه أخف من جسمه بكثير، وذلك حتى لا ينحني الطائر أثناء الطيران فيختل نظام التوازن فيه[2]، كما زود جسم الطائر بأكياس هوائية وعضلات صدر قوية وقلوب كبيرة، والقوة التي يتمتع بها جسم الطائر في غاية الانسجام مع بنيته واحتياجاته ووزنه.[3]

وأما تصميم الريشة في الطيور: فهي تتكون من قصبة مركزية رئيسة، يتفرع عنها المئات من القصبات في كلا الاتجاهين، بأحجام ونعومة متفاوتة ونسق بديع، وكل قصبة فيها الآلاف من الخيوط التي تدعى القصيبات؛ وتتلاصق القصيبات مع بعضها بواسطة شويكات خطافية، حتى تتشابك على شكل أسنان الزالق (السحاب) المتعشق مع بعضه؛ كي لا تسمح للهواء المتسبب عنها باختراقها؛ لتكون بذلك سبباً في تحديد الديناميكية الهوائية للطائر. وحتى يضمن الطائر لنفسه استمرارية الطيران والحياة: ينبغي عليه أن يحافظ على نظافة ريشه، وقد خلق الله تعالى له الغدة الزيتية في أسفل

---

(١) انظر: التصميم في الطبيعة هارون يحيى صـ٤٨. وصـ٥٦، ط مؤسسة الرسالة ناشرون الأولى ٢٠٠٣، وتربية الدواجن د. غسان غادري ود. محمد حلبي ١/ ٢٩. منشورات جامعة حلب ط الثالثة ١٩٩٦.

(٢) انظر: التصميم في الطبيعة صـ ٥١.

(٣) انظر: التصميم في الطبيعة صـ٤٨.

الذيل لصيانة ريشه وتلميعه وتنظيفه، كما تحافظ عليه من البلل والماء عند السباحة أو المطر كي لا يعيقها عن الطيران.[١]

وأما الطاقة:

فإن الطير يحتفظ بكمية من الطاقة تساعده على إتمام رحلته عند الهجرة لمسافات بعيدة، وفي نفس الوقت يحافظ على أخف وزن لجسمه، مع اختلاف سرعة الطيران[٢]، وقد هيأه الله تعالى بأكبر نسبة من الخلايا العضلية في كتلته الجسمية بين الكائنات الحية، فالطائر الزقزاق الذهبي مثلاً يقطع ٤٠٠٠كم من بداية رحلته إلى نهايتها فوق المياه دون توقف، وتستغرق رحلته حوالي ٨٨ ساعة، وهذا يعني أنه ضرب ٢٥٠٠٠٠ ضربة بجناحيه ليصل إلى غايته دون توقف.[٣]

الأمر الثاني: إشارة إلى أنها مذللة للإنسان يستعملها في حوائجه وما ينفعه، كالبريد وأكل الحشرات لتحميه من آفة الزرع وغير ذلك، فهي مسخرة للإنسان في نفعها[٤]، ويضاف إلى ذلك الفائدة الجمالية والنفسية أيضاً، ومن شكل الطير وأشكال طيرانه.[٥]

---

(١) انظر: التصميم في الطبيعة هارون يحيى صـ٤٣، ٤٥.

(٢) انظر: التصميم في الطبيعة صـ٥١، ٥٢.

(٣) انظر: التصميم في الطبيعة صـ٥٢، ٥٣.

(٤) انظر: زهرة التفاسير ٨/ ٤٢٣٢.

(٥) فثمة بعض الأنواع من طيور الزينة وطيور الحمام يقوم بحركات تلفت الأنظار أثناء الطيران؛ فيقوم بعملية الانقلاب رأساً على عقب عدة مرات ثم يعود إلى وضعه الطبيعي في الطيران وتسمع لهذه الحركات صوت فرقعة، انظر: تربية الدواجن د. غسان غادري، ود. محمد الحلبي٣/ ٥٦٤.

تخصيص الدلالة بالحس والواقع.

* المسألة الثانية: قوله تعالى: ﴿فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ﴾، الجو: الهواء.[١]

والسماء هنا جهة العلو التي يطير فيها الطير عادة، والمعنى: مسخرة في هواء الجهة العالية، أي: أنها مذللة بأنواع التسخير المختلفة في هواء السماء، ففيها إشارة إلى دور الرياح والهواء لإتمام عملية الطيران، فسخر الله الرياح والهواء للطير كما سخره للإنسان، وعلم الله تعالى الطيور كيف تستخدم جسمها المهيّأ للاستفادة من الرياح والهواء للطيران، ومقاومة الجاذبية الأرضية والمحافظة على قوتها وطاقتها، (فهي تحلق عندما تزيد من شدة التيار الهوائي فوق أجنحتها، وتستطيع أن تبقى معلقة في الهواء حتى في التيارات القوية)[٢].

ولكل طير طريقته في استخدام التيارات الهوائية من أجل عملية التحليق والطيران.[٣]

وحتى لا ينغمس الإنسان في الأسباب والمسببات وينسى الخالق القادر المختار سبحانه وتعالى، الذي خلق الطير وهيأه للطيران ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، ثم بين الله

---

(١) المفردات صـ١٠٣، جو.

(٢) انظر: التصميم في الطبيعة صـ٥٧ إلى صـ٦٠.

(٣) هناك ثلاثة أنواع من التحليق عند الطيور: التحليق المنحدر إذ يستفيد الطيور التي تنحدر من قمة المرتفعات والطيور التي تغوص في الخلجان من التيارات الهوائية الساكنة لتطير، والتحليق الحراري: وتكون في المناطق الحارة عندما تصل أشعة الشمس إلى الأرض فتقوم الأرض بتسخين الهواء الملامس لها فيخف وزنه ويأخذ بالارتفاع فيستفيد منها الطائر للتحليق والطيران، والتحليق الديناميكي وهو التحليق الاعتيادي لها انظر: التصميم في الطبيعة صـ٥٧، ٥٨.

تعالى أن في هذا الخلق والتقدير آيات لمن كان لـه قلـب أو ألقـى الـسمع وهـو شـهيد، فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَالِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوۡمٍ يُؤۡمِنُونَ ﴾ (خـص هـذه الآيـات بـالمؤمنين لأنهـم المنتفعون بها).[1]

(١) انظر: الرازي ٢٠/ ٧٤، ابن عادل ٢/ ٢٥١.



مظاهر الأمن النفسي والاجتماعي والبيئي

٢٦- ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

* مناسبة الآيات:

يقول ابن عاشور: (هذا من تعداد النّعم التي ألهم الله إليها الإنسان، وهي نعمة الفكر بصنع المنازل الواقية والمرفّهة وما يشبهها من الثياب والأثاث عطفاً على جملة: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [النحل:٧٨]، وكلّها من الألطاف التي أعدّ الله لها عقل الإنسان وهيّأ له وسائلها).(١)

* غريب الآيات:

ظَعْنِكُمْ: أي يوم سيركم ورحيلكم.(٢)

---

(١) التحرير والتنوير ١٤/ ٢٣٦.

(٢) انظر: القاموس صـ١٠٤٩، واللسان ١٣/ ٢٧٠ مادة: ظعن، والدر المصون ٧/ ٢٧٤. =



أثاثاً: الأثاث متاع البيت إن كان كثيراً، وأصله من أث الشعر: إذا كثف وتكاثر.[1]

قال الزمخشري: (والأثاث: ما جد من فرش).[2]

أَكْنَانًا: مفرد كُنّ، قال الراغب: (والكُنُّ ما يحفظ فيه الشيء، يقال: كَننت الشيء كَنًّاً جعلته في كُنٍّ، وخص كننت بها يستر ببيت أو ثوب وغير ذلك من الأجسام، قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الصافات:٤٩]).[3]

والمعنى: ما حفظ من الريح والمطر كالغار في الجبال.[4]

سَرَابِيلَ: السربال القميص الذي يلبس على البدن من قطن أو كتان أو أي جنس كان[5]. قال الزجاج: (كل ما لبسه فهو سربال من قميص أو درع أو جوشن أو غيره)[6]، فهو على ذلك أعم من الثوب.

بَأْسَكُمْ: أي: تقي بعضكم من بأس بعض[7]. كالدروع الملبوسة في الحرب.[8]

= وفرق العسكري بين الظعن والرحل فذكر أن الظعن هو الرحيل في الهودج ومن ثم سميت المرأة إذا كانت في هودجها ظعينة. انظر: الفروق اللغوية صـ٢٤٤ ط دار الكتب العلمية.

(١) انظر: الدر المصون ٧/ ٢٧٥، ابن عادل ٢/ ٢٥٥.

(٢) الكشاف ٣/ ٣٨ في تفسير مريم الآية ٧٤.

(٣) المفردات صـ ٤٤٢.

(٤) انظر: الدر المصون ٧/ ٢٧٦.

(٥) انظر: المفردات صـ٢٢٩، البحر المحيط ٥/ ٥٢٣.

(٦) معاني الزجاج ٣/ ٢١٥، والجوشن: اسم الديد الذي يلبس من السلاح.

(٧) المفردات صـ ٢٢٩.

(٨) انظر: الدر المصون ٧/ ٢٧٦، ابن عادل ٢/ ٢٥٩.



تَوَلَّوْا: وتولى إذا عدى بعن لفظاً أو تقديراً اقتضى معنى الإعراض وترك قربه، ومنه قوله: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ والتولى قد يكون بالجسم وقد يكون بترك الإصغاء والائتمار.(١)

قال الله عز وجل: ﴿وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾ أي: لا تفعلوا ما فعل الموصوفون بقوله: ﴿وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا﴾ ولا ترتسموا قول من ذكر عنهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾.(٢)

*** تفسير الآيات:**

هذه نعم جديدة توجب على الإنسان شكر الله تعالى وتوحيده، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾.

أنَّ حاجة الإنسان إلى مأمن يسكن إليه ويحفظ نفسه وعائلته ويحميهم من المخاطر ضرورة فطرية، ودافع اجتماعي، يجعله يحرك كل طاقاته التي أنعم الله بها عليه، مسخراً كل ما يستطيع تسخيره من النعم حوله في سبيل الحصول على أمنه الفطري والنفسي

---

(١) انظر: المفردات صـ ٥٣٤.

(٢) انظر: المفردات صـ ٥٣٤.

والاجتماعي، وفي الآيات إشارة إلى ذلك من خلال تعداد أنواع البيوت التي تؤمن له ذلك، فقدمت لفظ الجلالة؛ للدلالة على قصر الجعل في الله سبحانه وتعالى، فهو الذي يخلق السكينة والطمأنينة والأمن فيكم لا أحد غيره.

وقد قسمت الآيات بيوت الإنسان إلى قسمين رئيسين، (أحدهما: البيوت المتخذة من الحجر والمدر، وثانيهما: البيوت المتخذة من القباب والخيام والفساطيط).(١)

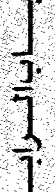
فابتدأت الآيات بالقسم الأول: بيوت التمدن التي للإقامة الطويلة، وهي أعظم وأكثر بيوت الإنسان، **فقال تعالى**: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنًا﴾:

والجعل هنا بمعنى التصيير، فتتعدى لمفعولين؛ فيكون المفعول الأول سكناً، والمفعول الثاني أحد جملة الجار والمجرور قبله، والمعنى: والله جعل سكناً لكم من بيوتكم.

ويجوز أن يكون الجعل هنا بمعنى الخلق والإيجاد فتتعدى إلى مفعول واحد، أي: والله خلق وأوجد لكم من بيوتكم سكناً.(٢)

وفيها عدة إشارات نفسية تتضمن دلائل التوحيد:

منها: في تقديم قوله تعالى: ﴿لَكُم﴾ أي: (لمصلحتكم ومنفعتكم)(٣)، ففيها إظهار اللطف والعناية الربانية بالإنسان.



---

(١) انظر: الرازي: ٢٠/ ٧٤، والفساطيط جمع فسطاط بضم الفاء تطلق على مجتمع أهل الكورة وعلى السرادق من الأبنية انظر القاموس مادة: فسط صـ٦١٣ تحقيق: يوسف الشيخ ومحمد البقاعي ط دار الفكر ١٩٩٩.

(٢) انظر: الدر المصون ٧/ ٢٧٢، التحرير والتنوير ١٤/ ٢٣٧.

(٣) انظر: أبو السعود ٥/ ١٣٢.



ومنها: في إضافة البيوت للإنسان، وفي ذلك تنبيه إلى إشباع فطرة الإنسان للتملك، فهي إضافة اختصاص وتمليك، فالخطاب توجه إلى الإنسان مراعياً الخصائص الفطرية والنفسية فيه.

ومنها: في قوله تعالى: ﴿سَكَنًا﴾، والسكن ما سكنت إليه وما سكنت فيه[1]، فما تحمله هذه المفردة من معاني الأمن النفسي والاجتماعي، كالطمأنينة والاستقرار والراحة والسعادة والحرية التي يجدها الإنسان في البيت الذي يأوي إليه وفيه ابتداءً.

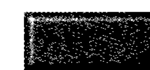
والقسم الثاني من البيوت: البيوت المتخذة من القباب وجلود الأنعام المعدة للنقلة والرحلة مع الإنسان، **فقال تعالى**: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَـٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾، والمعنى: وجعل لكم من جلود الأنعام ما يؤمن لكم السكن والأمن؛ فتستخفون حمله معكم يوم رحيلكم وسيركم في البادية أو الصحراء أو القفار، سواء كان لطلب رزق، أو لطلب ماء أو مرتع أو مستقر، فتنشئونها يوم إقامتكم وتحملونها يوم رحيلكم، والله أعلم.

قال ابن عطية: (ويحتمل أن يعم به بيوت الأدم وبيوت الشعر وبيوت الصوف لأن هذه من الجلود لكونها ثابتة فيها).[2]

---

(١) انظر: الكشاف ٢/ ٥٨٣. وسكناً إما مصدر وهو ما ذهب إليه ابن عطية في المحرر٨/ ٤٨١، أو بمعنى المفعول أي المسكون وإليه ذهب أبو البقاء وأبو حيان. انظر: العكبري ٢/ ٨٤، البحر ٥/ ٥٢٣. ومنع أبو حيان من كونها مصدراً دون أن يبين السبب. انظر للتوسع: الدر المصون ٧/ ٢٧٣.

(٢) المحرر الوجيز ٨/ ٤٨٢. والأدم: هو الجلد المدبوغ وغير المدبوغ. انظر: القاموس، مادة: أدم صـ٩٦٩.



ولما ذكر معدن السكن؛ أتبعه بما يكمله ويزيد عليه، فقال تعالى: ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾، أي: وجعل لكم من أصواف الأنعام وهي هنا: الغنم، وأوبارها وهي: للإبل، وأشعارها وهي: للمعز والبقر(١).

وتقدم أن الأثاث هو ما جد وكثر من متاع البيت.

وفي هذه الآية منة أخرى ينتفع بها الإنسان من الأنعام؛ استكمالاً لمنافعها التي ذكرت في أول السورة من الدفء والأكل والركوب والحمل، وفي شرب اللبن منها خالصاً سائغاً للشاربين قبل آيات، ويذكر هنا من منافعها استخدام جلودها للبيوت وأثاثه، فوزع منافعها في السورة حسب مناسبتها لسياق النعم المذكورة، فعند ذكر المنافع الرئيسة للحيوانات ذكر الدفء وأكل اللحم والركوب وأجمل الباقي، فقال تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [النحل: ٥]، وفي جو الأشربة والأمن الغذائي كالماء والعسل وثمرات النخيل والأعناب؛ ذكر اللبن من منافعها، وفي مستلزمات الأمن النفسي والاجتماعي ذكر منافع جلدها، وهذا من التناسق القرآني الذي ينبغي على المتدبر أن لا يغفله في تفسير الآيات وخاصة في اتجاه التفسير العلمي لأنه يجلي الفكرة ويوضح العبرة.

ملاحظة في أهمية السياق واعتباره في التفسير العلمي للقرآن.

ولما كانت منافع الجلود كثيرة، كصنع الأحذية والاستخدامات الطبية وغير ذلك، أجملها في قوله تعالى: ﴿وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾، (أي: شيئاً يُتمتّع به بفنون التمتع إلى أن

---

(١) انظر: المحرر الوجيز ٨/ ٤٨٢.

تقضوا منه أوطارَكم، أو إلى أن يبلى ويفنى، فإنه في معرض البلى والفناء، وقيل: إلى أن تموتوا).(١)

(والمقصود الوعظ بأنها أو أنهم صائرون إلى زوال يحول دون الانتفاع بها ليكون الناس على أهبة واستعداد للآخرة فيتّبعوا ما يرضي الله تعالى).(٢)

وبعدما ذكر ما يحقق لهم الأمن النفسي والاجتماعي، شرع بذكر مظاهر الأمن البيئي؛ ليظهر تمام نعمته عليهم ولطفه بهم ورعايته سبحانه وتعالى لمصالحهم وكمال معيشتهم، فيكون ذلك سبباً في استسلامهم وانقيادهم لله تعالى، **فقال تعالى:** ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾.

ولعل المتدبر يلحظ تكرر لفظ الجعل في الآيات وقد تقدم معناه، ذلك لأن كل نعمة مذكورة بالجعل هنا كافية لتكون حجة على وحدانية الله تعالى لوحدها، وسبباً مقنعاً لانقياد الإنسان لخالقه سبحانه وتعالى، يقول ابن عاشور: (وهذا امتنان بنعمة الإلهام إلى التوقّي من أضرار الحرّ والقُرّ في حالة الانتقال، أعقبت به المنّة بذلك في حال الإقامة والسكنى، وبنعمة خلق الأشياء التي يكون بها ذلك التوقّي باستعمال الموجود وصنع ما يحتاج إليه الإنسان من اللباس، إذ خلق الله الظّلال صالحة للتوقّي من حَرّ الشمس،

---

(١) انظر: البغوي ٣/ ٧٩ ط المعرفة، ابن عادل ٢/ ٢٥٦، أبو السعود ٥/ ١٣٣.

(٢) التحرير والتنوير ١٤/ ٢٣٧.

وخلقَ الكهوف في الجبال ليمكن اللجأ إليها، وخلق مواد اللباس مع الإلهام إلى صناعة نسجها ، وخلق الحديد لاتّخاذ الدروع للقتال).(١)

وبدأ في هذه الآيات بمنة الظلال، فقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا ﴾، أي هو لا غيره الذي خلق لكم ما يقيكم حر الشمس، سواء كان غماماً أو بيوتاً أو شجراً أو حائطاً(٢)، أو مظلة حتى الثياب أو غير ذلك مما سيخلق إلى يوم القيامة ويصلح أن يستظل به، و«من» في قوله ﴿مِّمَّا﴾ ابتدائية.(٣)

فالله تعالى هيّأ هذه المخلوقات؛ فجعلها كثيفة تمنع وصول أشعة الشمس المؤذية لكم، فتكون من عوامل الأمن البيئي الذي يحفظ الإنسان من الأمراض، سواء في سفركم أو انتقالكم من محل إلى محل، أو في عملكم أو نحو ذلك، ذلك لأن التعرض للشمس مباشرة ودائماً يعني التعرض للأشعة الخطيرة، وأهمها فوق البنفسجية المكونة لأشعة الشمس الحارة، التي لها آثاراً تدميرية على الخلايا الحية في الإنسان وتسبب أمراضاً سرطانية وحروقاً مؤذية.(٤)

---

(١) التحرير والتنوير ١٤/ ٢٤٠.

(٢) انظر: زاد المسير ٤/ ٣٤٨.

(٣) انظر: التحرير والتنوير ١٤/ ٢٤٠.

(٤) انظر: بحث: (سرابيل تقيكم الحر) للطبيبة سميحة مراد المقدم للمؤتمر العالمي الثامن للإعجاز العلمي في القرآن والسنة في الكويت ١٤٢٨، والاستشهاد بالمعلومات الطبية التي فيه عن خطورة التعرض للشمس بشكل مباشر. ولما تضمنه البحث من دراسات حديثة حول ذلك، وانظر: الحاشية ٢ في صـ٧١٨ الآتية.



ثم ذكر نعمة أكثر حفظاً وأمناً؛ خاصة عند المخاطر المتعددة، فقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾، كالكهوف والمغارات، فهي تحفظ من الحر والبرد والمطر والثلج والبرَد، ومن مخاطر الحيوانات المفترسة والمؤذية، و«من» هنا تبعيضية[1] فليس في كل الجبال أكنان تحفظ.

ولم يصف الأكنان هنا بالسكن؛ لأنها ليست مستقر الإنسان، ولا مأمنه الدائم، كما أن البيت يبنيه صاحبه بالهيئة التي يطلبها ويرسمها ليسكن فيه، أما هذه الكهوف والمغارات؛ فالله خلقها لحفظ الإنسان في الحاجات لا للسكن، ولذلك وصف ما كان للإنسان دخل في صناعته في الجبال: بالبيوت -المتضمنة معنى السكن- في قوله سبحانه: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ﴾ [الشعراء:١٤٩]، والله أعلم.

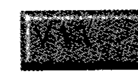
قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾.

أي: وجعل لكم من اللباس ما يقيكم الحر، وما يقيكم الشدة والضرب والطعن كالدروع في الحرب.

وقد ناقش المفسرون سبب ذكر الحر وعدم ذكر البرد، وأجابوا عن ذلك: بأن العرب الذين نزل عليهم القرآن؛كانوا أصحاب حر أكثر من كونهم أصحاب برد؛ فحاجتهم إلى ما يقي من الحر أشد، وأن ما يقي من البرد يقي من الحر.

---

(١) التحرير والتنوير ١٤/ ٢٤٠.



وأجابوا أيضاً بأن ذكر أحد الضدين تنبيه على الآخر[١]، ويروون في ذلك قول عطاء الخراساني[٢] رحمه الله: (إنما أنزل القرآن على قدر معرفتهم، فقال: وجعل لكم من الجبال أكناناً، وما جعل لهم من السهول أكثر وأعظم، ولكنهم كانوا أصحاب جبال كما قال: ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ﴾، لأنهم كانوا أصحاب وبر وشعر، وكما قال: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾ [النور:٤٣]، وما أنزل من الثلج أكثر، ولكنهم كانوا لا يعرفون الثلج، وقال: ﴿تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ وما تقي من البرد أكثر، ولكنهم كانوا أصحاب حر).[٣]

مدلولات القرآن تستوعب ما يجد في العصور والأقوام بما يألف الناس.

ويرى الباحث أن الأولى عدم تعليل خطاب القرآن ببلاد العرب، لأنه خطاب عام للعالمين ويدخل العرب فيه دخولاً أولياً، وإنما الحجة بلغتهم، فإن ذكر الحر دون البرد فيه إشارة يتجدد مدلولها في كل زمن بما يناسب أهلها، ولا يلغي ما سبقها والله أعلم،

(١) انظر: ابن جرير ١٤/ ١٠٤، ١٠٥، معاني الزجاج ٣/ ٢١٥، زاد المسير ٤/ ٣٤٩، الرازي ٢٠/ ٧٦، القرطبي ١٠/ ١٠٥، البحر ٥/ ٥٢٤، الدر المصون ٧/ ٢٧٦. ابن عادل ٢/ ٢٥٨.

(٢) عطاء بن أبي مسلم الخراساني، اسم أبيه ميسرة، وقيل: عبدالله، مفسّر محدث، صدوق يهم كثيراً، له: تنزيل القرآن، وتفسير القرآن، والناسخ والمنسوخ، (ت ١٣٥هـ). انظر: طبقات المفسرين للداودي ١/ ٣٨٥، ميزان الاعتدال ٣/ ٧٣.

(٣) البغوي: ٥/ ٣٦ ط طيبة، زاد المسير ٤/ ٣٤٩. ولكن يرد عليه أن الرسول صلى الله عليه وسلم ذكر الثلج في دعائه كما في الصحيح: (واغسلني من خطاياي بالماء والثلج والبرد)، فالعرب وإن لم تره ولكن لا يعني أنها تجهله، وفي قوله بأن الثلج أكثر نظر يحتاج لتحرير، ثم إن سياق الآية في ذكر ما يقي ويحفظ وهل السهول تحفظ وتكنّ كالجبال!.

ويعجبني في ذلك كلام الشيخ سعيد حوى رحمه الله: (إن القرآن خاطب البشر كلهم بما يسع البشر جميعاً، ومن إعجازه أن هذا الخطاب للبشر كان من الإعجاز بحيث وسع العصور والأقوام بما يقربهم ولا يبعدهم، وبما يألفون لا بما ينكرون، ثم نجد أهل كل عصر فهموا القرآن بثقافة عصرهم، ولم يجدوا فيه مستنكراً وهكذا، ومن ثم فإنه ما دام يخاطب العرب أولاً؛ فإن العربي يشعر أنه يخاطب من حيث يعرف).[١]

وقد جعلت إحدى الكاتبات من قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ إعجازاً علمياً دالاً على حكمة تشريع اللباس في الإسلام للمرأة والرجل في الوقاية من أشعة الشمس، وقدمت في ذلك بحثاً مطولاً[٢]، استهلته بنقل أقوال بعض المفسرين للآية، ثم تكلمت عن الجلد وتركيبته ووظيفته، ثم تكلمت عن **أشعة الشمس** وخطرها المدمر المتسبب بالسرطانات والأمراض، ثم تكلمت عن أخطار التعرض

---

(١) الأساس في التفسير ٦/ ٢٩٨٤.

(٢) بحث: (الإعجاز العلمي في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾) كتبته الطبيبة: سميحة بنت على مراد، مجلة الإعجاز العلمي العدد ١٨ جمادى الأول ١٤٢٥ صـ ٢٢، وتبعها في ذلك الدكتور زغلول النجار في مقال نشره في جريدة الأهرام بتاريخ ٢/ ٥/ ٢٠٠٥، وعلى موقعه الخاص على الإنترنت ، ثم قدمته الكاتبة بحثاً في المؤتمر العالمي الثامن للإعجاز العلمي في الكويت لعام ٢٠٠٧، ١٤٢٨ هـ بعدما زادت عليه ووسعته بذكر نتائج الأبحاث والدراسات الأجنبية حول مخاطر التعرض للشمس مباشرة، ويلاحظ أن أغلبها مترجم بلغة غير واضحة وركيكة للغاية وقد أقحمت في بحثها ما يمكن الاستغناء عنه والاقتصار بالإشارة إليه، انظر: بحوث المؤتمر العالمي الثامن للإعجاز العلمي في القرآن والسنة في الكويت قسم علوم الطب الجزء الأول صـ٣٩٧ ط وزارة الأوقاف الكويت ١٤٢٨هـ.

المباشر لحر الشمس - هكذا قالت ولم تقل **أشعة الشمس** -، وما يسببه من حروق وأكزيما وحساسية للضوء وسرطان الجلد وغير ذلك، ثم تكلمت الباحثة عن كيفية حماية جلودنا من الأشعة القاتلة، ثم تكلمت عن نعمة الملابس وأن فقدها عقوبة، ثم ذكرت أقوال علماء المسلمين في خطورة التعرض للشمس وما يحدثه من أمراض، ثم عقدت عنواناً عن وجه الإعجاز في الآية، والنتيجةِ التي خلصت الباحثة إليها في هذا المقال، فقالت: (**تذكر الآية الكريمة حقيقتين:**

- **الأولى:** هناك أخطار محدقة بالإنسان عند التعرض لحرارة الشمس.

- **الثانية:** ضرورة ارتداء الملابس الساترة لكل الجسد والمعبر عنها بالسرابيل للوقاية من هذه الأخطار، وهذا ما أثبته العلم يقيناً...

وقد خص الملابس بفائدة **الوقاية** من الحر في زمن لم تعرف فيه هذه الأمراض التي تنتج عن التعرض **لأشعة الشمس** الحارة دون حائل، والتي تحوي الأشعة فوق البنسفجية غير المرئية والتي تسبب سرطانات الجلد المختلفة...).[1]

الكل يتفق مع الباحثة في ضرورة اللباس؛ لأننا مأمورون به شرعاً ومن فوائده الوقاية من أشعة الشمس، إلا أنها اضطربت علمياً في بحثها، لأنها ذكرت فيه أن الوقاية من أشعة الشمس ليس مختصاً باللباس، ثم هي تارة تتكلم عن أشعة الشمس، وتارة عن حر الشمس، مع أن هناك فارقاً بين الأمرين، لأن الحر من أسباب حصوله أشعة الشمس.

وليت الباحثة عرضت نتيجتها على سبيل فهمها للآية، ولم تعرضه باسم الإعجاز العلمي فإنه مجازفة خطيرة في كتاب الله تعالى.

---

(١) صـ ٢٧ من مجلة الإعجاز المصدر السابق.



وقد يقول قائل: إن «أل» التعريف في «الحر»، للعهد، والمعهود في الحر زمن النزول هو الشمس.

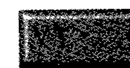
فالجواب: إنَّ هذا بعيد لغة؛ فالحرارة خلاف البرودة، فكما تكون البرودة بالليل كذلك تكون بالنهار، وكما تكون الحرارة بالنهار، كذلك تكون بالليل، وهناك رياح الحرور وهي الريح الحارة تكون بالليل والنهار[1]، وقد يكون الحر في الظل أيضاً؛ وإن كان أقل شدة وأثراً، ويُقيد الحر بالإضافة فيقال مثلاً: حر الشمس، لتقييد مصدر الحرارة، وكذلك تقول: حر النار، وحر جهنم، قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّاۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة:٨١]، فجمعت الآية هنا بين الحر مطلقاً ومقيداً، وذلك لما تخلف المنافقون أيام غزوة تبوك عند شدة الحر، وكان الوقت صيفاً[2]، والشمس موجودة في كل مكان، ولكن جو الصحراء وحرارة المنطقة واقتراب الشمس ووهج الرمال؛ كل ذلك ساعد على ارتفاع مدى الحر، ولذلك فاللغة لم تعرِّف الحرَّ بالشمس، وإنما عرَّفته بالضد وهي البرودة.

ولما كان البرد يقابل الحر، وكانت مصادر البرودة متعددة، كذلك فإن وجود الحر ليس مختصاً بأشعة الشمس ومدى ثبات قوة إشعاع الشمس ونشاطه وزيادة مداه فقط، بل هناك عوامل أخرى تؤثر في زيادة الحر، منها عوامل تتعلق بالشمس تؤدي لارتفاع المدى الحراري للإشعاع الشمسي، كاختلاف طول المسافة بين الشمس والأرض حسب دوران الأرض حول الشمس، ومدى شفافية طبقات الغلاف الجوي وسماكته؛

---

(١) انظر: معجم مقاييس اللغة ٢/ ٧ والمفردات صـ ١٠٩ والقاموس مادة: حر.

(٢) انظر: ابن كثير ٦١٤.



لما له من أثر في الحماية من الأوزون، وكاختلاف عدد ساعات إشراق الشمس خلال اليوم الواحد من مكان إلى آخر على سطح الأرض، وزاوية ميل الأشعة الشمسية على سطح الأرض.[1]

ومنها عوامل تزيد بالحر ولا علاقة للشمس فيها: كالمد والجزر، وكذلك النبات وجوف الأرض، وغير ذلك مما يكثر مصادره في الطبيعة.

وهناك عوامل صناعية تساعد على زيادة المدى الحراري، كالتفجيرات الذرية في الجو أو قرب سطح الأرض أو تحت الأرض، وكذلك المفاعلات النووية وثاني أكسيد الكربون الناتج من احتراق الوقود الأحفوري، وغير ذلك من العوامل الصناعية[2]، كما أننا نشهد اليوم مخاوف بيئية مما يسمى بالاحتباس الحراري الذي بات خطراً يهدد

---

(١) وانظر: كتاب الكون من الذرة إلى المجرة د. حمادي العبيدي صـ ٧٨ ط دار الوحي دمشق الأولى ٢٠٠٢، وانظر كتاب من الإعجاز العلمي في القرآن في ضوء الدراسات الجغرافية الفلكية والطبيعية ٢/ ٤٣ ط مكتبة العبيكان الأولى ١٤١٦.وانظر ٢/ ٣٦ في اختلاف حرارة الليل والنهار، والميزانية الحرارية على سطح الأرض.

(٢) ينظر: كتاب التلوث وحماية البيئة صـ ١٢٨ د. محمد عبدو العودات ود. عبد الله بن يحيى باصهي ط جامعة والملك سعود ١٤١٣. ومجلة العلوم الصادرة عن مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، المترجمة عن مجلة سايتنفيك الأمريكية مقال: هل يمكننا دفن الاحترار العالمي h.r. سوكولو ترجمة تيسير الشامي وغدر زيزفون العدد ١٠ - ١١ أكتوبر ونوفمبر ٢٠٠٥، ومقال بعنوان: احتباس ثاني أكسيد الكربون في باطن الأرض مقال ترجمه محمد مصطفى دنيا ونشره في مجلة الفيصل العلمية صـ١٢، ٢١ المجلد الرابع العدد الرابع محرم وربيع الأول ١٤٢٨، فبراير وإبريل ٢٠٠٧م.



الأحياء الحية على الأرض وخصوصاً الإنسان، ويستنفر العالم في البحث عن سبل الحماية منه.

فالحرارة إذن: هي أثر عملية تفاعلية بين عدة مكوناتٍ وعواملَ تؤثر في ارتفاعها وانخفاضها.

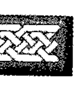
ولذلك يرى الباحث أن الحر في هذه الآية أوسع من كونه في الشمس فقط؛ ويدل لذلك سياق الآية، فأولها كان الامتنان بجعل الظل؛ وهو يقي الإنسان من التعرض لأشعة الشمس المباشرة، وقد قابل القرآن بين الظل والشمس في سياق عدم المساواة في قوله سبحانه: ﴿وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ﴾ [فاطر:٢١]، والحرور يكون بالنهار مع الشمس[1]، فلم يذكر الحر مع الظل في آية النحل، بينما صرح بالحر عند السرابيل ولم يذكر البرد، وإنما فهمت بالمقابلة.

وذكرت الآية السرابيل مع الحر؛ كما ذكرت السرابيل مع البأس؛ ولم يفصل بينهما بفعل الجعل كما في كل نعمة مذكورة بالآية، يقول البقاعي: (ولما كانت السرابيل نوعاً واحداً، لم يكرر «جعل»)[2]، وهذا يدل على مساواتها في معنى الشدة للوقاية؛ للإشارة إلى أن المراد: لباس خاص يقي بأس الحر؛ بدلالة الاقتران بالسرابيل التي تقي من بأس الحرب والشدائد، فكما أن سرابيل الحرب لباس خاص، له خصوصية الوقاية من الضربات والطعنات؛ ويختلف نوعه من زمن إلى زمن، فقديماً كانت الدروع، ونحن

---

(١) انظر: البغوي: ٦ / ٤١٨ ط طيبة، وقد ورد في تفسيرها غير ذلك، وقد روى الأزهري في تهذيب اللغة -مادة حر- عن الليث أن الحرور هي الشمس.

(٢) نظم الدرر ١١/ ٢٢٦.



نجد اليوم نوعاً خاصاً من الألبسة تستعمل في الحروب تقي المسؤولين والجنود من الرصاص والمتفجرات، وألبسة تقي الناس من حوادث التصادم والسقوط، كذلك يكون الأمر في الحر، فإن له لباساً يختلف نوعه باختلاف نوع الحر ونوع لابسيه وزمن ومكان اللباس، فحر المناطق الاستوائية يختلف عن حر المناطق المعتدلة، وحر الأرياف يختلف عن حر المدن الصناعية، وحرنا اليوم يختلف عن حر زمن نزول القرآن، لأن له أسباباً طبيعية وصناعية.

والآية هنا ترشد بدلالتها إلى سبيل من سبل الوقاية من الحرارة، وهي: بالسرابيل، ولكل زمن سرابيله التي تقي من الحرارة مع اختلاف أسبابها.

ولما كان عصرنا يعاني من ارتفاع الحر على كل الكرة الأرضية، وأصبحت ظاهرة الاحتباس الحراري مصدر خوف للبشرية؛ فإن في الآية إرشاداً للوقاية من هذا الخطر المحدق بنا، بلباس قوي خاص وتبقى مهمة التجارب العلمية التخصصية كشف هذا الأمر، وارتباطه بعوامل ومكونات الحرارة، والله أعلم.[1]

(١) والحقيقة فقد بحثت مطولاً عن دراسة تكلمت عن أثر اللباس في الوقاية من مصادر الحرارة في الأرض بشكل عام والاحتباس الحراري بشكل خاص، وإن كان العلماء قد توصلوا إلى اختراع للباس مخصوص يمكن استخدامه في الحماية من مخاطر الحر، كما سألت أطباء باختصاصات مختلفة ومنها الجلدية فلم أجد حول ذلك شيئاً وليت المختصين يتوجهون في دراسة أنواع الخيوط والألبسة التي يمكن أن تستخدم في الوقاية من مصادر الحرارة وخاصة الصناعية مستفيدين من هذه الآية القرآنية، كما نعلم بأن العاملين في معامل الصهر أو المعامل الذرية والنووية لهم لباس خاص يحميهم من حر الصهر والانفجارات والله الموفق وهو أعلم. =



وقد اعتدنا في النظم القرآني أن اختيار الألفاظ لها دلالتها المتضمنة لمعارف متجددة، لا ينوب عنها لفظة أخرى وإن رادفتها، كل هذا يجعل الباحث يذهب إلى أن «ال» في «الحر» هي للجنس، وأن السرابيل التي تقي من الحر نوع خاص من اللباس فيه خاصية الحماية من الحرارة بأنواعها ويختلف هذا زماناً ومكاناً وعرفاً، والله أعلم.

ولما تم ذكر مظاهر الأمن النفسي والاجتماعي والبيئي بما يضمن مصالح الإنسان وكمال معيشته قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾، أي كما أتم نعمة الإيجاد والإخراج والجعل عليكم هذا الإتمام العظيم بهذه المذكورات ونبهكم عليها؛ يتم نعمته عليكم في الدنيا والدين بالهداية والبيان لطريق النجاة والمنافع، والتنبيه على دقائق ذلك ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾، أي ليكون حالكم بما ترون من كثرة إحسانه بما لا يقدر عليه غيره مع وضوح الأمر؛ حال من يرجي منه إسلام قياده لربه فلا يسكن ولا يتحرك إلا في طاعته.(١)

وبعدما أظهر لهم نعمه عليهم وإصلاح عالمهم رعاية لمصالحهم، وكانوا في نفوسهم منكرين مستكبرين؛ والمتوقع من أمثال هؤلاء الإعراض ولكن قد يكون إعراضهم سبباً في حرج الرسول أو التأذي منهم؛ قال تعالى مسلياً نبيه ومرشداً لمن يحمل لواء

= وللاستزادة ينظر بحث: لإعجاز العلمي في السرابيل من منظور القرآن الكريم، تأليف: حسن يوسف شهاب الدين، منشور على موقع أسرار الإعجاز البياني في القرآن الكريم بتاريخ ١/ ٤/ ٢٠٠٨م: www.bayanv.com

(١) انظر: نظم الدرر ١١/ ٢٢٧.



الدعوة إلى الله من بعده: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ (أي: فإن تكلفوا الإعراض ومتابعة الأهواء، فلا يلحقك من ذلك عيب ولا تقصير، وليس عليك إلا ما فعلت من التبليغ).[1]

وحتى لا يظن ظانٌّ أن إعراضهم كان لشبهة لبستهم؛ أو جهلٍ عرض عليهم، وإنما لاستكبارهم وإنكارهم، قال تعالى: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾، والمعنى: هم يعلمون نعمة الله المعدودة عليهم في الآيات المتقدمة، فإنهم منتفعون بها، ومع تحقّقهم أنها نعمة من الله ينكرون شكرها فإن النّعمة تقتضي أن يشكُر المنعَمُ عليه بها من أنعم عليه؛ فلما عبدوا ما لا ينعم عليهم فكأنهم أنكروها[2]، و«ثم» هنا للدلالة على أن إنكارهم أمر يستبعد بعد حصول المعرفة، لأن حق من عرف النعمة أن يعترف لا أن ينكر.[3]

﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ استشكل بعضهم قول الله تعالى: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ﴾؛ مع أن كلهم كافرون؟، وأجيب عنه بجوابين:

أحدهما: لأنه كان فيهم من لم تقم عليه الحجة، كالصبي وناقص العقل، فأراد بالأكثر: البالغين والأصحاء[4]، ويدخل في هذا قول من قال: (إن الذين وصفوا بأنهم

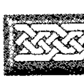
---

(١) انظر: البقاعي ١١/ ٢٢٨، ابن عادل ٢/ ٢٥٩.

(٢) التحرير والتنوير ١٤/ ٢٤٢.

(٣) الرازي ٢٠/ ٧٦.

(٤) انظر: الرازي ٢٠/ ٧٧، ابن عادل ٢/ ٢٦٠.



الكافرون هم غالب المشركين لا جميعهم، فيحمل المراد بالغالب على دهماء المشركين، فإن معظمهم بسطاء العقول بعداء عن النّظر فهم لا يشعرون بنعمة الله، فإن نعمة الله تقتضي إفراده بالعبادة؛ فكان إشراكهم راسخاً، بخلاف عقلائهم وأهل النظر، فإن لهم تردّداً في نفوسهم، ولكن يحملهم على الكفر حبّ السيادة في قومهم).[1]

والجواب الثاني: أنه ذكر الأكثر وأراد الجميع لأن أكثر الشيء يقوم مقام الكل كقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٧٥][2] والله أعلم بالصواب.

عن مجاهد أن أعرابيًا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله، فقرأ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ قال الأعرابي: نعم، قال: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ قال الأعرابي: نعم. ثم قرأ عليه، كل ذلك يقول الأعرابي: نعم، حتى بلغ: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ فولى الأعرابي، فأنزل الله: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.[3]

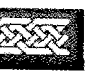
---

(١) التحرير والتنوير ١٤/ ٢٤٣.

(٢) انظر: الرازي ٢٠/ ٧٧، ابن عادل ٢/ ٢٦١.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (١٣٤٧٩)، وذكره ابن كثير في تفسيره٤/ ٥٩٢، ط طيبة، والحديث مرسل كما هو ظاهر، وليس سبباً لنزول الآية كما يظن البعض.





من مشاهد يوم الفصل والشهادة

٢٧- ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾.

*** مناسبة الآيات:**

بعدما بين في الآيات السابقة أنهم منكرون لنعمة الله بعد بيانها لهم ومعرفتها منهم، وأنهم مستكبرون على شكرها والانقياد لخالقهم الذي أنعم عليهم بها، وأن أكثرهم كافرون؛ ذكر في هذه الآيات عاقبتهم يوم القيامة، وأنه لا ينفع معهم إلا الوعيد والترهيب بعد تقديم الحجج الكونية والعقلية والفطرية على التوحيد ووجوب الشكر للواحد الخالق سبحانه.

*** غريب الآيات:**

شَهِيدًا: هو الشاهد المشاهد للشيء.(١)

يُسْتَعْتَبُونَ: العَتْبُ المَوْجِدَةُ، والعُتْبَى اسم على فُعْلى يوضع موضع الإِعْتاب، وهو الرجوعُ عن الإِساءة إلى ما يُرْضِي العاتِبَ.

ويقال أعتبته، أي: أزلت عتبه عنه، الاستعتاب: طلب العتبى، والعتبى: الرضى بعد الغضب، واسْتَعْتَبه طَلَب إِليه العُتْبَى تقول اسْتَعْتَبْتُه فأَعْتَبَنِي، أَي: اسْتَرْضَيْته فأَرْضاني، وتقول: قد أَعْتَبَني فلانٌ، أَي: تَرَكَ ما كنتُ أَجد عليه من أَجلِه ورَجَع إِلى ما أَرْضاني عنه بعد إِسْخاطِه إِيَّايَ.(٢)

السَلَم: الاستسلام، أي: الطاعة وترك العناد.(٣)

*** تفسير الآيات:**

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾:

يخبر تعالى عن شأن المشركين في الدار الآخرة، يوم يبعث من كل أمة شهيداً، وهو نبيها، يشهد عليها بما أجابته فيما بلغها به عن الله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: في الاعتذار؛ لأنهم يعلمون بطلان كفرهم(٤)، ﴿وَلَا هُمْ

---

(١) المفردات صـ٢٦٩.

(٢) انظر: لسان العرب ١/ ٥٧٦، والمفردات صـ٣٢١، مادة: عتب، التحرير والتنوير ١٤/ ٢٤٤.

(٣) التحرير والتنوير ١٤/ ٢٤٨.

(٤) انظر: ابن كثير: ٤ / ٥٩٢ ط طيبة.

﴿يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي: ولا يكلفون أن يرضوا ربهم في ذلك اليوم، لأن الموقف الآن موقف حساب لا رجعة فيه[1]، كما قال: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ (٣٥) وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٥ ، ٣٦] وقال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [الروم:٥٧].

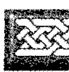
ولهذا قال: ﴿ وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ ﴾ أي: إذا رأى المشركون العذاب الموعود والموصوف في القرآن وعلى لسان الرسول صلى الله عليه وسلم؛ فإنه لا يفتر عنهم ساعة واحدة ولو طلبوا تخفيفه، كما أخبر تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ (٤٩) قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ [غافر:٤٩، ٥٠].

﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ أي: ولا يؤخر عنهم، بل يأخذهم سريعاً من الموقف بلا حساب.

ولما بين الله تعالى عاقبتهم، بين لهم حالهم مع شركائهم يوم القيامة، وكيف يتبرؤون منهم، فقال: ﴿ وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ ﴾ ، أي: وإذا رأى المشركون - الذين رأوا العذاب، الذين لا يستعتبون- شركاءهم.

---

(١) انظر: تفسير الخازن ٣/ ٦٣٢ط دار إحياء التراث، التوحيد والشكر في سورة النحل عبد الحميد طهماز صـ٩١.



والشركاء هنا: كل ما عُبد من دون الله تعالى؛ من غير اختصاص بالأصنام أو الشياطين والله أعلم؛ قال تعالى: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [الصافات:٢٢، ٢٣].

﴿قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدۡعُواْ مِن دُونِكَ﴾ أي: قال الذين أشركوا، وقولهم هذا: إما من قبيل الاعتراف عن غير إرادة فضحاً لهم، كقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ﴾ [النور:٢٤]، وإما من قبيل التنصل وإلقاء التبعة على المعبودات، كأنهم يقولون هؤلاء أغرونا بعبادتهم، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا﴾ [البقرة:١٦٧].(١)

ثم بين الله سبحانه أن الأصنام تكذبهم في هذا الموقف لتزيد حسراتهم، فقال تعالى: ﴿فَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلَ إِنَّكُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾، الفاء للتعقيب، للدلالة على سرعة المبادرة بالتكذيب، (أي: بادروا به حتى كان إسراعه إليهم إسراع شيء ثقيل يلقى من علو).(٢)

﴿وَأَلۡقَوۡاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوۡمَئِذٍ ٱلسَّلَمَۖ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ أي: عندما أقرت ألسنتهم وكذبتهم آلهتهم باعتقادهم أنهم كاذبون مشركون، وثبتت عليهم الجريمة وعلموا أن لا فرار ولا مناص؛ عندها: ألقى المشركون سلاح المعاندة

(١) انظر: الرازي ٢٠/ ٧٨، ابن عادل ٢/ ٢٦٤، التحرير والتنوير ١٤/ ٢٤٧.

(٢) انظر: نظم الدرر ١١/ ٢٣١.



والمحاجة، واستسلموا لمصيرهم المحتوم وعذابهم الأليم، وأقروا بوحدانية الله تعالى، وغاب عنهم وزايلهم ما كانوا يفترونه في الدنيا، وبطل قولهم عن آلهتهم أنها ستشفع لهم.[١]

ولما ذكر عذاب المشركين وحالهم مع شركائهم؛ أتبعه بوعيده لمن ضم إلى ذلك الصد عن سبيل الله تعالى[٢] فقال: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴾، أي: إن الذين ضموا إلى كفرهم الصدَّ عن طريق الحق والسبيل الموصلة إلى الله تعالى، قال ابن عباس: (منعوا الناس من طاعة الله والإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم)[٣]، فإن لهم فوق ما تقدم من العذاب عذاباً آخر، ونُكِّرَ تهويلاً له، أي: عذاباً لا يخطر بالبال.[٤]

وقد ورد في صفة هذا العذاب الزائد آثارٌ، منها: عن ابن عباس قال: (خمسة أنهار من نار صبها الله عليهم، يعذبون ببعضها بالليل وببعضها بالنهار).[٥]

---

(١) انظر: زاد المسير ٤/ ٣٥١، الرازي ٢٠/ ٧٨، ٧٩.

(٢) انظر: الرازي ٢٠/ ٧٩، نظم الدرر ١١/ ٢٣١، التحرير والتنوير ١٤/ ٢٤٩.

(٣) زاد المسير ٤/ ٣٥١.

(٤) انظر: الرازي: ٢٠/ ٧٩، ابن عادل ٢/ ٢٦٦، التحرير والتنوير ١٤/ ٢٤٩.

(٥) أخرجه أبو يعلى وابن المنذر وابن أبي حاتم انظر الدر المنثور ٤/ ١٤٢، وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٣٩٠): (رجاله رجال الصحيح)، وروي مثله مرفوعاً كما في الدر المنثور: (وأخرج ابن مردويه عن جابر، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «الزيادة خمسة أنهار تجري من تحت العرش على رؤوس أهل النار، ثلاثة أنهار على مقدار الليل ونهران على مقدار النهار، فذلك قوله: ﴿زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾ الآية» الدر المنثور ٤/ ١٤٢.





عن عبيد بن عمير[1] قال: (إن في جهنم لجباباً فيها حيات أمثال البخت، وعقارب أمثال البغال، يستغيث أهل النار من تلك الجباب إلى الساحل، فتثب إليهم، فتأخذ جباههم وشفارهم فتكشط لحومهم إلى أقدامهم، فيستغيثون منها إلى النار، فتتبعهم حتى تجد حرها فترجع وهي في أسراب).[2]

ثم انتقل إلى تهديد آخر، وتحذيرٍ من صد المشركين عن سبيل الله، مع تذكير للمؤمنين المسلمين بنعمة الله عليهم، إذ بعث فيهم شهيداً يشهد لهم بما ينفعهم وبما يضر بأعدائهم، وتسلية نبيه صلى الله عليه وسلم ببيان فضله وفضل ما بعثه به، فقال تعالى مكرراً لشبيهتها من الآيات السابقة[3]: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾، أي: نبياً يشهد على أمته أو قومه الذين أرسل فيهم: ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ﴾، وأفرد مجيء الرسول صلى الله عليه وسلم عن مجيء باقي الرسل والأنبياء لأن رسالته لجميع الأمم، وشهادته - فداه أبي وأمي- على جميع الأمم، كما قال تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء:٤١].

---

(١) عبيد بن عمير بن قتادة الليثي الجندعي المكي، المفسر الواعظ، ولد في حياة الرسول ﷺ وحدّث عن كبار الصحابة، توفي قبل ابن عمر، وقيل سنة ٧٤هـ. انظر: سير أعلام النبلاء ٤/ ١٤٢.

(٢) أخرجه ابن جرير ١٤/ ١٠٨، وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور، وروي مثله عن ابن مسعود أخرجه ابن جرير ١٤/ ١٠٧، وعبد الله بن عمرو أخرجه ابن جرير ١٤/ ١٠٧، ومجاهد انظر: الدر المنثور ٤/ ١٤١، ١٤٢، زاد المسير ٤/ ٣٥٢، البغوي ٣/ ٨١، القرطبي ١٠/ ١٠٨.

(٣) انظر: أبو السعود ٥/ ١٣٥، الرازي ابن عادل ٢/ ٢٦٧، التحرير والتنوير ١٤/ ٢٥١. التوحيد والشكر في سورة النحل صـ٩٥.



ولما بين الله كرامة نبيه في شهادته على أعظم الأمم وكل الأمم، بين كرامته وشرفه صلى الله عليه وسلم في رسالته وعلمه؛ فقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾، والكتاب هو القرآن، وقد وصفه الله تعالى بأربعة أوصاف:

أولها: ﴿تِبْيَٰنًا﴾: مفعول لأجله، والتبيان مصدر دال على المبالغة في المصدرية، ثم أريد به اسم الفاعل فحصلت مبالغتان[1]، ولذلك قال أبو السعود (بياناً بليغاً)[2]، وأما قوله تعالى: ﴿لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾، فيفيد العموم، وبعضهم جعل هذا العموم مقتصراً على الحلال والحرام، كقول مجاهد: (كل حلال وحرام)[3]، وعن ابن جريج، قال: (ما أُمِروا به، ونهوا عنه)[4]، ولذلك قال بعض المفسرين: (تبياناً لكل شيء يحتاج إليه من الأمر والنهي والحلال والحرام).[5]

وبعضهم حمله على عمومه الحقيقي، كقول ابن مسعود: (وقد بين لنا في هذا القرآن كل علم، وكل شيء).[6]





---

(١) انظر: معاني الزجاج ٣/ ٢١٧، الدر المصون ٧/ ٢٧٩، التحرير والتنوير ١٤/ ٢٥٣.

(٢) أبو السعود ٥/ ١٣٥.

(٣) أخرجه ابن جرير ١٧/ ٢٧٨ط الرسالة، وذكره ابن كثير ٤/ ٥٩٤ ط طيبة.

(٤) أخرجه ابن جرير ١٧ / ٢٧٨. ط الرسالة.

(٥) البغوي ٣/ ٨١، ابن عادل ٢/ ٢٧٠، وانظر مثله في: زاد المسير ٤/ ٣٥٢.

(٦) ذكره ابن كثير ٤/ ٥٩٤.

وقال أيضاً رضي الله عنه: (إن الله أنزل في هذا الكتاب تبياناً لكل شيء، ولقد علمنا بعضاً مما بين لنا في القرآن، ثم تلا: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾).[1]

قال ابن كثير: (وقول ابن مسعود: أعم وأشمل؛ فإن القرآن اشتمل على كل علم نافع من خبر ما سبق، وعلم ما سيأتي، وحكم كل حلال وحرام، وما الناس إليه محتاجون في أمر دنياهم ودينهم، ومعاشهم ومعادهم).[2]

ويدخل في ذلك -كما قال ابن عاشور بعدما قال أنه عموم عرفي-: (ما لمثله جاء الدين وقررت الشرائع، من صلاح النفوس وإكمال الأخلاق وتقويم المجتمع المدني وتبيين الحقوق وما تتوقف عليه الدعوة من الاستدلال على الوحدانية، وصدق الرسول صلى الله عليه وسلم، وما يأتي من خلال ذلك من الحقائق العلمية والدقائق الكونية ووصف أحوال الأمم، وأسباب فلاحها وخسارها ، والموعظة بآثارها بشواهد التاريخ ، وما يتخلّل ذلك من قوانينهم وحضاراتهم وصنائعهم.

وفي خلال ذلك كلّه أسرار ونكت من أصول العلوم والمعارف صالحة لأن تكون بياناً لكل شيء على وجه العموم الحقيقي إن سلك في بيانها طريق التفصيل واستنير فيها بما شرح الرسول صلى الله عليه وسلم وما قفّاه به أصحابه وعلماء أمّته ، ثم ما يعود إلى الترغيب والترهيب من وصف ما أعدّ للطائعين وما أعدّ للمعرضين ، ووصف عالم

---

(١) أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم انظر الدر المنثور ٤/ ١٤٢.

(٢) ابن كثير ٤/ ٥٩٤ ط طيبة.

الغيب والحياة الآخرة، ففي كل ذلك بيان لكل شيء يقصد بيانه للتبصّر في هذا الغرض الجليل، فيؤول ذلك العموم العرفي بصريحه إلى عموم حقيقي بضمنه ولوازمه، وهذا من أبدع الإعجاز).[1]

والوصف الثاني والثالث والرابع: أنه هدى ورحمة وبشرى، أي يهدي للرشاد والحق، وفيه الرحمة للعالمين، ويبشر المؤمنين بما أعد لهم يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾[الإسراء:٩].

إن اقتران البيان بالهداية بالرحمة والبشارة؛ يدل على أن الأمة إذا فهمت كتاب ربها حق الفهم، واستفادت من بيان نبي الرحمة له، والتزمت بما في القرآن من إشارات ودلالات التي فيها بيان كل شيء؛ بلغت من الحضارة والرحمة وقيادة العالم للخير والسلام والاستقرار، مبلغ السراة الذين لا تخبو لهم راية، وتاريخ سلفنا الصالح وحضارتنا الإسلامية خير دليل، والله أعلم.



(١) التحرير والتنوير ١٤/ ٢٥٣.

أسس الأمن والسعادة في الدولة الإسلامية

٢٨- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾.



* مناسبة الآيات:

بينت الآيات السابقة عاقبة المنكرين المستكبرين لتوحيد الله تعالى وشكره بعد بيان الدلائل والحجج القاطعة على ذلك، وختمت الآيات بأن القرآن فيه بيان كل شيء، فأتت هذه الآيات تبين - مما بينه القرآن - أسس الدولة الإسلامية الآمنة واجتماعياً ونفسياً وخلقياً وغير ذلك وبيّنت عاقبة التكبر والتعالي على أمن دولة المسلمين، إذ كل مأمور من المأمورات، وكل منهي عنه من المنهيات جاء مفرداً معرفاً ليشمل كل ما يدخل فيه من مناحي الحياة، والله أعلم.

كما بينت عاقبة النفاق والتكبر والتعالي على أمن دولة المسلمين، والله أعلم.

* غريب الآيات:

بالعدل: ما قام في النفوس أَنه مُسْتقيم وهو ضِدُّ الجَوْر، ويقتضي معنى المساواة في المعاملة والمكافأة، أي: الإنصاف.[١]

الإِحْسَانِ: ضد الإساءة[٢]، قال الراغب: (فالإحسان فوق العدل، وذاك أن العدل هو: أن يعطى ما عليه ويأخذ ماله، والإحسان أن يعطى أكثر مما عليه ويأخذ أقل مما له، فالإحسان زائد على العدل، فتحرى العدل واجب، وتحرى الإحسان ندب وتطوع)[٣].

الْفَحْشَاءِ: ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال.[٤]

---

(١) انظر: لسان العرب ١١/ ٤٣٠ المفردات صـ٣٢٥، مادة: عدل .

(٢) انظر: لسان العرب ١٣/ ١١٤ مادة: حسن.

(٣) المفردات صـ ١١٩ مادة: حسن.

(٤) المفردات صـ ٣٧٤، مادة: فحش.

وورد عن ابن عباس رضي الله عنه أنها الزنا[١]، وورد أنها المعاصي.[٢]

وَالْمُنكَرِ: كل ما تستقبحه الشريعة الإسلامية والعقول الصحيحة[٣]، ويدخل في ذلك كل ما ورد من المأثور وأولها: الشرك[٤]، أو هي ما لا يعرف في شريعة ولا سنة[٥]، أو أنه ما وعد الله عليه النار[٦]، وكل هذه المعاني متفقة في المقصد والمعنى وإن اختلفت باللفظ.

وَالْبَغْيِ: أصل البغي تجاوز الحد، وقد يطلق على الاستطالة على الناس وعلى قصد الفساد[٧]، قال الراغب: (طلب تجاوز الاقتصاد فيما يتحرى، تجاوزه أو لم يتجاوزه، فتارة يعتبر في القدر الذي هو الكمية، وتارة يعتبر في الوصف الذي هو الكيفية، يقال بغيت الشيء: إذا طلبت أكثر ما يجب، وابتغيت كذلك..وهو تجاوز الحق إلى الباطل أو تجاوزه إلى الشبه)[٨]، وروي أنه الظلم والتكبر[٩]، وهذا يدخل في عموم ما تقدم من طلب تجاوز الاقتصاد والحق.

---

(١) أخرجه ابن جرير ١٧/ ٢٧٩ ط الرسالة.

(٢) قاله مقاتل كما في زاد المسير ٤/ ٣٥٣.

(٣) المفردات صـ ٥٠٥ مادة: نكر.

(٤) قاله مقاتل انظر: زاد المسير ٤/ ٣٥٣. البغوي ٣/ ٨٢.

(٥) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير.

(٦) قاله ابن السائب، انظر: زاد المسير٤/ ٣٥٣. البغوي ٣/ ٨٢.

(٧) انظر: اللسان ١٤/ ٧٥، بغا.

(٨) المفردات صـ٥٥ بغى.

(٩) انظر: زاد المسير ٤/ ٣٥٣، البغوي ٣/ ٨٢، الرازي ٢٠/ ٨٢، ابن عادل٢/ ٢٧٥.

تَنقُضُوا: النقض انتشار العقد من البناء والحبل، والعقد وهو ضد الإبرام.[١]

كَفِيلًا: الكفالة الضمان[٢]، وورد أن معناها: شهيداً وكيلاً، وحفيظاً مراعياً لعقدكم[٣] وكل هذه الأقوال متقاربة.

أَنكَاثًا: جمع نِكْث، والنَّكْثُ نَقْضُ ما تَعْقِدُه وتُصْلِحُه من بَيْعَةٍ وغيرها، ومعناه في الآية: هو الغَزْلُ من الصوف أَو الشعر تُبْرَمُ وتُنْسَجُ فإِذا خَلَقَتِ النسيجةُ؛ قُطِّعَتْ قِطَعاً صِغاراً ونُكِثَتْ خيوطُها المبرومة، وخُلِطت بالصوف الجديد ونَشِبَتْ به ثم ضُربت بالمطارق وغزلت ثانية واستعملت، والذي ينكُثها يقال له نَكَّاثٌ، ومن هذا نَكْثُ العهد: وهو نَقْضه بعد إِحْكامه كما تُنْكَث خيوطُ الصوف المغزول بعد إِبْرامه، ومنه قيل لمن أعطاك بيعته على السمع والطاعة ثم نقضها ناكث، كما تفعل الناكثة بغزلها.[٤]

دَخَلاً: الدَّخَل في كلام العرب: كل أمر لم يكن صحيحاً[٥]، قال الراغب: (الدَّخَلُ كناية عن الفساد والعداوة المستبطنة...، قال تعالى: ﴿تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ﴾)[٦].

(١) انظر: المفردات صـ ٥٠٤.

(٢) انظر: المفردات ص ٤٣٦ كفل.

(٣) انظرها في: زاد المسير ٤/ ٣٥٤.

(٤) انظر: لسان العرب ٢/ ١٩٦، نكث. تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة صـ٣٨٦.

(٥) انظر: ابن جرير ١٤/ ١١٢ ط المعرفة.

(٦) المفردات ص ١٦٦ دخل.



والمعنى: لا تَغْدِروا بقوم لِقِلَّتهم وكثرتكم، أَو كثرتهم وقِلَّتِكم؛ وقد غَرَرْتُموهم بالأَيْمان فسَكَنوا إِليها.(١)

أَرْبَى: أي لأن يكون قوم أغنى من قوم، أو أعلى منهم، أو أزبد في العدد والقوة والشرف.(٢)

فتزل: الزلل: تزلق الرِّجْل وتنقلها من موضعها دون إرادة صاحبها بسبب ملاسة الأرض من طين رطب أو تخلخل حصى... فيسقط الماشي على الأرض، وزلل القدم تمثيل لاختلال الحال والتعرض للضر؛ لأنه يترتب عليه السقوط أو الكسر، كما أن ثبوت القدم تمكن الرجل من الأرض، وهو تمثيل لاستقامة الحال ودوام السير.(٣)

يَنفَدُ: النفاد: الفناء والذهاب، يقال نفِد ينفَد نفُوداً، ويقال أنفد القوم إذا فني زادهم.(٤)

طَيِّبَةً: الطيب: ما يطيب ويحسن، وضده الخبيث والسيء.(٥)

*** تفسير الآيات:**

تبدأ الآيات بأسلوب التقرير المؤكَّد بحرف التوكيد: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ﴾، وصرح بلفظ الجلالة فيه؛ ليستحضر المتدبر لهذه الآية في ذهنه ما سبق هذا التقرير المهيب من

---

(١) لسان العرب نقله عن الفراء: ١١/ ٢٣٩، دخل، وانظر: تأويل مشكل القرآن صـ٣٨٦ مثله.

(٢) انظر: تأويل مشكل القرآن صـ٣٨٧، والرازي ٢٠/ ٨٧.

(٣) التحرير والتنوير ١٤/ ٢٦٨، ٢٦٩.

(٤) انظر: ترتيب القاموس ٤/ ٤١١، المفردات صـ٥٢٠، الدر المصون ٧/ ٢٨٣.

(٥) التحرير والتنوير ١٤/ ٢٧٣.

آيات تحدثت عن عظمة الله ووحدانيته وقدرته في السورة، كأن المعنى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ الذي خلق السموات والأرض بالحق، وخَلقَ الإنسانَ من نُطفة، والأنعامَ خلقَها، وسخَّر لكمُ الشَّمسَ والقمرَ، والذي سخَّرَ البحرَ، وأنزل من السماء ماءً، وخلقكم ثم يتوفاكم، وفضل بعضكم على بعض في الرزق، وجعل لكم من أنفسكم أزواجاً، وأخرجكم من بطون أُمَّهاتكم، وجعل لكم من بيوتكم سكناً، وجعل لكم مما خلق ظلالاً، ..نعم: إن الله الذي أصلح لكم عالمكم العلوي والسفلي، وسخر لكم ما في السماء والأرض، وجعلها قائمة بالعدل، هو الذي يأمركم وينهاكم، ليستنتج المتدبر أن مأمورات الله ومناهيه هي أسس الإصلاح الاجتماعي والأمني والاقتصادي..، وأن مأمورات الله بالعدل والإحسان يدخل فيها ما يصح العدل والإحسان فيه مما سبق ذكره.

أثر معرفة محاور السورة ومقاصدها في تفسير المفردات القرآنية في الآية بما يدخل في أثر السياق والوحدة الموضوعية في التفسير.

فالسكن في البيوت يحتاج إلى العدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وترك الفحشاء والمنكر والبغي، والنعم التي أنعم الله بها علينا من الماء والظلال والثمرات وغير ذلك؛ تتطلب من الإنسان أن يكون عادلاً بإخراج حقها لأهلها، ومحسناً غير مانع لهذه النعم عن الآخرين، وغير متفحشٍ ولا متعد بها، فلا يجعل ما خلقه الله لنفع الإنسان ليكون لدماره أو للعبث واللهو، وبذلك تدخل كل المعاني الواردة من المأثور في المأمورات والمنهيات في الآية، بل تتوسع دلالتها لتشمل كافة مناحي الحياة البيئية والأمنية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والقضائية ومعاملات الناس وغير ذلك، وبذلك ندرك معنى قول ابن مسعود أنها أجمع آية في كتاب الله للخير والشر.[1]

(١) أخرجه ابن جرير ١٤/ ١٠٩ ط المعرفة، وانظر: الدر المنثور ٤/ ١٣٤.

أما **العدل** فكل ما ورد فيه من الآثار يدخل في أصل معنى العدل وهو: الإنصاف، وهو إعطاء كل ذي حق حقه، يقول ابن عاشور: (وهو الأصل الجامع للحقوق الراجعة إلى الضروري والحاجي من الحقوق الذاتية وحقوق المُعاملات، إذ المسلم مأمور بالعدل في ذاته، قال تعالى: ﴿ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ [البقرة:١٩١]، ومأمور بالعدل في المعاملة، وهي معاملة مع خالقه بالاعتراف له بصفاته وبأداء حقوقه؛ ومعاملة مع المخلوقات من أصول المعاشرة العائلية والمخالطة الاجتماعية وذلك في الأقوال والأفعال، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ﴾ [الأنعام:١٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ [النساء:٥٨]، ومن هذا تفرّعت شعب نظام المعاملات الاجتماعية من آداب، وحقوق وأقضية، وشهادات، ومعاملة مع الأمم، قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة:٨].

ومرجع تفاصيل العدل إلى أدلّة الشريعة، فالعدل هنا كلمة مُجملة جامعة فهي بإجمالها مناسبة إلى أحوال المسلمين حين كانوا بمكّة، فيصار فيها إلى ما هو مقرّر بين الناس في أصول الشرائع وإلى ما رسمته الشريعة من البيان في مواضع الخفاء، فحقوق المسلمين بعضهم على بعض من الأخوّة والتناصح قد أصبحت من العدل بوضع الشريعة الإسلامية).[1]

---

(١) التحرير والتنوير ١٤/ ٢٥٥.

أما الإحسان فقد تقدم أنه ضد الإساءة، وهو المعاملة بالمحبوب، وله مراتب يختلف معنى الإحسان في كل مرتبة فيها، أعلاها **الإحسان مع الله تعالى**، وهي كما في حديث النبي صلى الله عليه وسلم: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فهو يراك»[١]، ثم يأتي **الإحسان في كل شيء** كما في حديث النبي صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ»[٢]، ومن ذلك **الشفقة على خلق الله**، وهي مراتب كثيرة، أعلاها شأناً **الإحسان في حق الوالدين**؛ كما قال تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ [الأنعام:١٥١]، وهكذا تتدرج مراتب الإحسان حسب الأدلة الشرعية الواردة فيها لتعم جميع البشر على اختلاف ألوانهم وألسنتهم واعتقاداتهم.

ثم الإحسان في حق الحيوانات المنتجة للحوم، الوارد ذكرها في سورة النحل كالأنعام والطيور المسخرة لأكل لحمها؛ فإن الإحسان إليها كما في بقية حديث النبي صلى الله عليه وسلم السابق: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ».

والنصوص الشرعية في الإحسان للحيوان وغيره كثيرة وهي مندرجة في عموم معنى الإحسان المأمور به في هذه الآية، وهكذا يتوسع معنى الإحسان في الآية ليشمل كل شيء.[٣]

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان باب الإسلام والإيمان ١/ ٣٦، من حديث عمر بن الخطاب ﷺ.

(٢) أخرجه مسلم في الذبائح باب الأمر بإحسان الذبح رقم (٣٦١٥)من حديث شداد بن أوس.

(٣) انظر: التحرير والتنوير ١٤/ ٢٥٥ فلابن عاشور كلاماً موسعاً في الآية.





والخلاصة فإن المتدبر في الآية؛ يجد شمول هذه المأمورات لكل أفعال الخير، ولجميع مناحي الحياة، فأخلاق المسلم قائمة عليها، وتشريع المسلمين قائم عليها، وأمن المسلمين قائم عليها، ولذلك لم يذكر (متعلقات العدل والإحسان والبغي؛ ليعم جميع ما يعدل ويحسن به وإليه، ولذلك لم يذكر المفعول الثاني للإيتاء ونص على المفعول الأول؛ حضاً عليه لإدلائه بالقرابة).[1]

وأما قوله تعالى: ﴿وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾، فهو تخصيص إثر تعميم؛ اهتماماً بشأن الأرحام والأقارب[2]، فإن إتيانهم صدقة وصلة، وهي أفضل كما ورد عن الرسول صلى الله عليه وسلم: «أسرع الخير ثواباً صلة الرحم».[3]

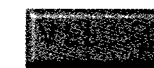
ثم ذكر المنهيات فقال تعالى: ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، أما الفحشاء فعنوان جامع لكل فظيع مستقبح يفسد فطرة الإنسان وسمعة المجتمع وأمنه، سواء كان فعلاً: كالزنا والسرقة والحرابة

---

(١) انظر: الدر المصون ٧/ ٢٨٠.

(٢) انظر: أبو السعود ٥/ ١٣٦.

(٣) أخرجه ابن ماجه في الزهد باب البغي (٤٢١٢)، من حديث عائشة، وفيه صالح بن موسى الكوفي وهو متروك كما في التقريب صـ٢٤٧، وأخرجه ابن حبان في صحيحه برقم (٤٥٦، ٤٥٧)، وقد ذكر المنذري الحديث في الترغيب ٣/ ٣٤٣ بصيغة التضعيف، ولكن له شاهد من حديث أبي بكرة بلفظ: (إن أعجل البر ثواباً لصلة الرحم..)، رواه الطبراني في الكبير عن شيخه عبد الله بن موسى الأنطاكي قال الهيثمي: لم أعرفه وبقية رجاله ثقات، انظر مجمع الزوائد ٨/ ٢٧٨.



والقمار والفساد في الأرض، ونحو ذلك من الكبائر، أو اعتقاداً باطلاً: كالشرك والإلحاد، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف:٣٣].

والمنكر عنوان لكل ما استنكره الشرع والطباع السليمة من المعاصي والأعمال العرفية عند العقلاء.

(وخصّ الله بالذّكر نوعاً من الفحشاء والمنكر، وهو البغي اهتماماً بالنّهي عنه وسدّاً لذريعة وقوعه، لأن النفوس تنساق إليه بدافع الغضب، وتغفل عما يشمله من النهي من عموم الفحشاء بسبب فُشُوّه بين الناس؛ وذلك أن العرب كانوا أهل بأس وشجاعة وإباء، فكانوا يكثر فيهم البغي على الغير إذا لقي المُعجَب بنفسه من أحد شيئاً يكرهه، أو معاملةً يعُدّها هضيمة وتقصيراً في تعظيمه؛ وبذلك كان يختلط على مُريد البغي حُسْنُ الذبّ عما يسمّيه الشرف، وقُبْحُ مجاوزة حدّ الجزاء، فالبغيُ هو الاعتداء في المعاملة، إما بدون مقابلة ذنب؛ كالغارة التي كانت وسيلة كسب في الجاهلية، وإما بمجاوزة الحدّ في مقابلة الذنب؛ كالإفراط في المؤاخذة، ولذا قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ [البقرة:١٩٤].

وقال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ﴾ [الحج:٦٠].

هذه الآية جمعت أصول الشريعة في الأمر بثلاثة، والنهي عن ثلاثة، بل في الأمر بشيئين وتكملة، والنّهي عن شيئين وتكملة).(١)

ولما كان معرفة ذلك كله لا يكون إلا بالعلم والفهم الصحيح ومجاهدة النفس ومغالبتها؛ ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، (أي ليكون حالكم حال من يرجى تذكره، لما في ذلك من المعالي بما وهب الله من العقل، الداعي إلى كل خير، الناهي عن كل ضير، فإن كل أحد من طفل وغيره يكره أن يفعل معه شيء من هذه المنهيات، فمن كان له عقل واعتبر بعقله؛ علم أن غيره يكره منه ما يكره هو منه، ويعلم أنه إن لم يكف عن فعل ما يكره أخوه؛ وقع التشاجر، فيحصل الفساد المؤدي إلى خراب الأرض، هذا في الفعل مع أمثاله من المخلوقين، فكيف بالخالق بأن يصفه بما لا يليق به سبحانه، وعز اسمه، وتعالى جده، وعظم أمره!).(٢)

قوله تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾.

(لما أمر الله المؤمنين بملاك المصالح ونهاهم عن ملاك المفاسد؛ فكان ذلك مناسبة حسنة لهذا الانتقال الذي هو من أغراض تفنّن القرآن، وأوضح لهم أنهم قد صاروا إلى كمال وخير بذلك الكتاب المبيّن لكل شيء؛ لا جرم ذكّرهم الوفاء بالعهد الذي عاهدوا

---

(١) التحرير والتنوير ١٤/ ٢٥٨. وذكر ابن عاشور ١٤/ ٢٦٠ أن للشيخ العز بن عبد السلام رسالة بين فيها أن هذه الآية اشتملت على جميع الأحكام الشرعية في سائر الأبواب الفقهية وسماها السبكي في الطبقات شجرة المعارف.

(٢) انظر: نظم الدرر ١١/ ٢٣٩.

الله عليه عندما أسلموا، وهو ما بايعوا عليه النبي وقت ابتداء الإسلام في مكة مما فيه: أن لا يعصوه في معروف، وتكررت البيعة قبيل الهجرة وبعدها على أمور أخرى، مثل النّصرة التي بايع عليها الأنصار ليلة العقبة، ومثل بيعة الحديبية، فقال تعالى: ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ ﴾.

والخطاب للمسلمين في الحفاظ على عهدهم بحفظ الشريعة، وإضافة العهد إلى الله؛ لأنهم عاهدوا النبي على الإسلام الذي دعاهم الله إليه، والمقصود: تحذير الذين كانوا حديثي عهد بالإسلام من أن ينقضوا عهد الله)[1]؛ ولكن هذا لا يمنع من عموم اللفظ لكل عهد يقطعه المسلم في فعل ما هو خير ويؤكده على نفسه[2]، ومن ذلك الأيمان؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾، أي: ولا تنكثوا وتخلفوا في أيمانكم بعد توثيقها؛ لما في ذلك من مظاهر الكذب والخلف بالعهد، وهذا تحذير شديد من مغبة الخلف، وحالكم أنكم قد جعلتم الله شهيداً وأقسمتم باسمه، وجعلتموه حفيظاً يرعى عهودكم عليكم بالوفاء، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾، أي: إن الله مطلع على فعلكم فيحذركم من المخالفة.[3]

---

(١) انظر: التحرير والتنوير ١٤/ ٢٦٠.

(٢) ينظر: زاد المسير ٤/ ٣٥٤.

(٣) انظر: زاد المسير ٤/ ٣٥٤، نظم الدرر ١١/ ٢٤١، أبو السعود ٥/ ١٣٧، التحرير والتنوير ١٤/ ٢٦٢.

يقول ابن عاشور:

(ولم يذكر المفسرون سبباً لنزول هذه الآية وليست بحاجة إلى سبب، وذكروا في الآية الآتية وهي قوله: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ ﴾ [النحل:١٠٦] أن آية: ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ ﴾ إلى آخرها نزلت في الذين رجعوا إلى الكفر بعد الإيمان لما فتنهم المشركون كما سيأتي، فجعلوا بين الآيتين اتصالاً).[1]

ثمّ نهاهم عن التشبه بالمنافقين الذين لا يرعون العهود والمواثيق، وبين لهم على طريقة التمثيل أن هذا الوفاء قوة، وأن الخلف فيه علامة على وجود خبل في العقل؛ فقال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا ﴾، (هذه الآية متصلة بما قبلها، والتقدير: وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها فإنكم إن فعلتم ذلك كنتم مثل امرأة غزلت غزلاً وأحكمته فلما استحكم نقضته فجعلته أنكاثاً)[2]، (والإتيان بالموصول لبيان أنه ليس المراد امرأة بعينها، بل كل امرأة كانت صفتها كذلك، ولأن المراد بالمثل الوصف دون التعيين وإن كان له شاهد في الواقع، لأن القصد من الأمثال صرف المكلف عن الفعل إن كان قبيحاً، والدعاء إليه إن كان حسناً، وإظهار محاسن أو مساوئ الأفعال، وهو هنا تشبيه حال الناقض للعهد بحال الناقض في أخس أحواله تحذيراً منه، وأن ذلك ليس من فعل العقلاء،

(١) التحرير والتنوير ١٤/ ٢٦٣.

(٢) انظر: تأويل مشكل القرآن صـ٣٨٦، القرطبين ١/ ٢٤٩، ابن عادل ٢/ ٢٠/ ٧٨، زهرة التفاسير ٨/ ٤٢٥٧.

وصاحبه داخل في عداد حمقى النساء)[١]، لأنها أتعبت نفسها في العمل والنقض، ولم تستفد من جهدها شيئاً.

وفي ضرب المثل في الآية؛ دلالة على أن الوفاء بالعهد من أمارات كمال العقل وقوة الإيمان وثبات الإرادة، وأن النقض من علامات خبث الطبع ودناءة النفس وفساد العقل، والله أعلم.

﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾، أي: وحالكم أنكم تتخذون عهدكم وحلفكم خديعة ومكراً ومفسدة وخيانة، ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾، أي: بسبب أن تكون أمة هي أزيد عدداً وأوفر مالاً من الأمة التي عاقدتموها وأعطيتموها عهدكم وعقدكم، فتريدون أن تقتطعوا بأيمانكم حقوقاً لهؤلاء، فتجعلوها لهؤلاء[٢]، قال مجاهد: (كانوا يحالفون الحلفاء، فإذا وجدوا قوماً أكثر منهم وأعز؛ نقضوا حلف هؤلاء وحالفوا الأكثر)[٣]، ثم بيّن الله تعالى أن وجود الأعز الأقوى؛ ابتلاء وامتحان في صدق إيمان المعاهد والتزامه بشرع ربه، فقال: ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾، أي: إنما يختبركم الله بكونهم

---

(١) انظر: الرازي ٢٠/ ٨٧، المحرر الوجيز ١٠/ ٢٢٦، ابن عادل ٢/ ٢٨٦، الآلوسي ١٤/ ٢٢١. وقد قيل أنها امرأة بعينها ثم اختلف بتعيينها. انظر: البغوي ٣/ ٨٢، زاد المسير ٤/ ٣٥٤.

(٢) انظر: تأويل مشكل القرآن صـ٣٨٧، الأساس في التفسير ٦/ ٢٩٩١.

(٣) أخرجه ابن جرير ١٤/ ١١٢، وابن المنذر وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٤/ ١٤٤، انظر: أيضاً زاد المسير ٤/ ٣٥٥، البغوي ٣/ ٨٣.



أربى؛ لينظر - وهو أعلم - أتتمسكون بحبل الوفاء بعهد الله تعالى، وما وكّدتم من أيمان الحلف، أم تغترون بظاهر الحياة الدنيا وتخيفكم مظاهر المادية والأبهة، فيجازيكم الله على أعمالكم ثواباً وعقاباً، ويميز لكم يوم القيامة الحق من الباطل، ويزول ما كنتم فيه تختلفون.(١)

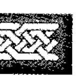
ثم بين الله تعالى لهم أن هذا الاختلاف الحاصل بينكم في الدنيا إنما هو بمشيئته سبحانه، لتكون الحياة منازعة ومسابقة، ولما في هذا الاختلاف من أسباب التجدد والابتلاء بين الناس والأمم، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾، إن الله الذي أمركم بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، ونهاكم عن الفحشاء والمنكر وأمركم بالوفاء بالعهود والأيمان؛ إنما أمركم لأنكم مختارون لأفعالكم واعتقاداتكم، وكان أمره ابتلاء واختباراً لكم، وستلقون جزاءه يوم القيامة، فلو أراد الله منكم جميعاً الطاعة بدون اختيار لجعلكم أمة واحدة طائعة لا تعصي الله ﴿وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾، أي: ولكن الله يضل من علم منه اختيار الضلالة ويهدي إلى الصراط المستقيم من علم منه اختيار الهداية، ولما كانت الأعمال ترجمة النوايا والعزائم والاختيارات قال تعالى: ﴿وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، فإن كانت خيراً فخير وإن كانت شراً فعاقبتكم من جنس عملكم.(٢)

(ثم حذر تعالى عباده عن اتخاذ الأيمان دخلاً، أي: خديعة ومكرًا، لئلا تَزل قدم بعد ثبوتها: مثل لمن كان على الاستقامة، فحاد عنها وزل عن طريق الهدى، بسبب الأيمان

---

(١) انظر: الآلوسي ١٤/ ٢٢٢، زهرة التفاسير ٨/ ٤٢٥٩، الأساس في التفسير ٦/ ٢٩٩١.

(٢) ينظر: الآلوسي ١٤/ ٢٢٢، ٢٢٣.



الحانثة المشتملة على الصد عن سبيل الله)[١]؛ فتكون عاقبته على من كان سبباً في ذلك كما بينت الآية، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ﴾، وهذا ليس تكريراً للنهي السابق؛ بل هو نهي خاص بعد نهي عام.

فالنهي الأول عن نقض العهود بين الدول كما بينت الآية بسياقها في قوله تعالى: ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾، وهذه الآية نهي عن الخديعة بالأيمان التي يراد بها اقتطاع حقوق المسلمين أو غيرهم، قال أبوحيان: (لم يتكرر النهي عن اتخاذ الأيمان دخلاً، وإنما سبق إخبار بأنهم اتخذوا أيمانهم دخلاً معللاً بشيء خاص وهو: أن تكون أمة هي أربى من أمة، وجاء النهي بقوله: ولا تتخذوا، استئناف إنشاء عن اتخاذ الإيمان دخلاً على العموم، فيشمل جميع الصور من الحلف في المبايعة، وقطع الحقوق المالية، وغير ذلك).[٢]

ثم قال سبحانه: ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾، أي: فتحيدوا عن المحجة الحق بعد رسوخ قدمكم فيها بالإيمان، قال الزمخشري: (فإن قلت: لم وحدت القدم ونكرت؟ قلت: لاستعظام أن تزلّ قدم واحدة عن طريق الحق بعد أن ثبتت عليه ، فكيف بأقدام كثيرة؟).[٣]

---

(١) ابن كثير ٤/ ٦٠٠.

(٢) البحر ٥/ ٥٣٢، وانظر: الآلوسي ١٤/ ٢٢٣ في مناقشة هذا الرأي، لأن الرأي الآخر في الآية أنه تصريح بالنهي بعد أن كانت الآيات قد تضمن النهي تضمناً.

(٣) الكشاف ٢/ ٥٩٠.

﴿وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾، والمراد بالسوء: العذاب الدنيوي، من القتل والأسر والنهب والجلاء وغير ذلك مما يسوء.

وما في قوله تعالى: ﴿بِمَا﴾ مصدرية، و﴿صَدَدتُّمۡ﴾ إما من الصدود، والمعنى: وتذوقوا العذاب الدنيوي بسبب صدودكم وإعراضكم عن سبيل الله، أو من الصدِّ، والمعنى: بسبب صدكم غيركم ومنعه عن سبيل الله[1]، لأن الكافر إذا رأى أن المؤمن قد عاهده ثم غدر به، لم يبق له وثوق بالدين، فانصدَّ بسببه عن الدخول في الإسلام، وينتظم في معنى ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الوفاء بالعهد والأيمان؛ فإن من نقض العهد أو البيعة يكون قد سن سنة سيئة لغيره، ويكون أيضاً قد أعطى صورة سيئة للمسلم على غير ما أراد الله تعالى[2]، أما في الآخرة فإن لهم عذاب عظيم لا يعلم عظمه إلا الله تعالى.

قال ميمون بن مهران: (ثلاث يؤدين إلى البر والفاجر: الرحم توصل برة كانت أو فاجرة، والأمانة تؤدى إلى البر والفاجر، والعهد يوفى به للبر والفاجر).[3]

ثم أكد ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾، أي: لا تنقضوا عهودكم، تطلبون بنقضها

---

(١) انظر: الدر المصون ٧/ ٢٨٢، الآلوسي ١٤/ ٢٢٤.

(٢) انظر: البغوي ٣/ ٨٣، ابن عادل ٢/ ٢٩٢، نظم الدرر ١١/ ٢٤٧، الآلوسي ١٤/ ٢٢٤.

(٣) تهذيب الكمال ٢٩/ ٢٢٠.

وميمون بن مهران الخزري أبو أيوب الرقي التابعي الفقيه نشأ بالكوفة ثم نزل الرقة وروى عن كبار الصحابة توفي سنة ١١٦هـ في الجزيرة. انظر: تهذيب الكمال ٢٩/ ٢١٠، تذكرة الحفاظ ١/ ٩٨.

عَرَضاً يسيراً من الدنيا، إِنَّ ما عند الله من الثواب على الوفاء هو خير لكم من العاجل[١]، (إن كنتم ممن يتجدد له علم بما عند الله ولم تكونوا في عداد البهائم.

ثم بين خيريته وكثرته بقوله تعالى على سبيل التعليل)[٢]: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾، أي: إن ما عندكم من أعراض الدنيا وزخرفها وتتعاطونه بطباعكم؛ ذاهب بدون رجعة ومنقطع فان، فصاحبه منغص العيش، وما عند الله تعالى الذي بيده خزائن كل شيء، وله الأمر باقٍ، فلؤتينكم منه إن ثبتم على عهده ووفيتم بشرعه[٣]، ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾، أي: ليجعلن الله جزاء من وفى بعهده وصبر على ذلك في السراء والضراء أحسن ما يكون الجزاء، وأفضل من أعمالهم.[٤]

لما بين في الآيات السابقة أسس الدولة الآمنة اجتماعياً وسياسياً واقتصادياً وغير ذلك، من خلال الأمر بالعدل والإحسان والإنفاق والوفاء بالعهود والأيمانات والنهي عن الفحشاء والمنكر والبغي، وختمت بقوله تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾، أي: من يصبر على المأمورات والمنهيات والوفاء بالعهود، ذيل عليها تعقيباً أن كل من ساواهم في الثبات على الإسلام والعمل الصالح

---

(١) زاد المسير ٤/ ٣٥٦.

(٢) انظر: نظم الدرر ١١/ ٢٤٧.

(٣) ينظر: الرازي ٢٠/ ٨٩، نظم الدرر ١١/ ٢٤٧، ٣٤٨.

(٤) انظر: الدر المصون ٧/ ٢٨٤، الرازي ٢٠/ ٨٩. فأحسن هنا على بابها في أفعل التفضيل.

ذكراً كان أو أنثى؛ فإنه في الأجر مثل من صبر على ما تقدم في الآيات السابقة، فليس الأمر مختصاً بمن ثبت على العهود والله أعلم، فقال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾.

والعمل الصالح لفظ يشمل كل ما وافق شرع الله تعالى وعاد بالنفع على الناس، سواء كان قليلاً أم كثيراً حقيراً أم عظيماً، واشترطت الآية في استحقاق الجزاء أن يكون العامل مؤمناً، فقال تعالى: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾، أي: حال كونه مؤمناً، والمؤمن في عرفنا الشرعي: هو من اكتملت فيه أركان الإيمان المذكورة في الحديث الصحيح المشهور: (أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر)[1]، فمن انتقص واحدة خرج من دائرة الإيمان، ومن أنكر جزئية مقررة في الدين من هذه الأركان خرج من دائرة الإيمان.

فمن أنكر نبوة سيدنا محمد فقد كفر ولو آمن بكل الرسل، ومن أنكر كون القرآن وحياً من عند الله فقد كفر، وإن أرعد وأزبد بمحبته للإسلام والمسلمين، وهذه الآية شديدة على مدعي وحدة الأديان ودعاة نجاة غير المسلمين من النار؛ بحجة الأخوة الدينية، يقول الآلوسي: (وقُيِّد به؛ إذ لا اعتداد بأعمال الكفرة الصالحة في استحقاق الثواب إجماعاً).[2]

---

(١) أخرجه مسلم في: الإيمان، باب: الإسلام والإيمان ١/ ٣٦ من حديث عمر الخطاب رضي الله عنه.

(٢) الآلوسي ١٤/ ٢٢٦.

ومن فوائد ذكر اشتراط الإيمان: التنبيه على شرط آخر في استحقاق الأجر، وهو أن يكون الدافع للعمل الصالح: الإيمان لا المصلحة الشخصية أو النفسية؛ فالعبرة بحال العامل لا بكلامه، والله أعلم

ومن عظيم بيان الآية: تفصيل من يستحقون الأجر؛ إذ ذكرت الذكر والأنثى، قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ﴾ وفي ذلك تحريض للأمة جميعها أن تقوم بما تقدر عليه من العمل الصالح، فهناك من الأعمال الصالحة المختصة بالأنثى، كالحجاب والحمل والولادة والعفة وترك الزينة، وطاعة الزوج، وغير ذلك، وهناك من الأعمال لا تقدر عليها المرأة عادة؛ كالقتال في سبيل الله، وكثرة السفر وكل ما يشق عليها، وهناك أعمال يقوم بها الإثنان وهي أغلب الأعمال الصالحة كالإنفاق وصلة الرحم وبر الوالدين والصدق.. وغير ذلك الكثير الكثير، ففي ذلك استنهاض الأمة في تعميق التكافل الاجتماعي؛ وتوكيد روابط الأمة ببعضها أفراد وجماعات، يقول ابن عاشور: (تبيين للعموم الذي دلّت عليه ﴿ مَنْ ﴾ الموصولة؛ وفي هذا البيان دلالة على أن أحكام الإسلام يستوي فيها الذكور والنساء عدا ما خصّصه الدين بأحد الصّنفين. وأكّد هذا الوعدُ كما أكّد المبيّن به).[1]

﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ جعل بعضهم هذه الحياة في الآخرة[2]، والأقرب والله أعلم أنها في الدنيا، ويؤكد هذا سياق الآية؛ إذ عطف عليها الجزاء في الآخرة، وهذه على سياق التي قبلها في بيان أجر من صبر على الوفاء بالعهود.

---

(١) التحرير والتنوير ١٤/ ٢٧٣.

(٢) الآلوسي ١٤/ ٢٢٦.

وما ورد من المأثور في تفسير الحياة الطيبة يؤكد أنها في الدنيا، يقول ابن عباس: (الحياة الطيبة: الرزق الحلال في هذه الحياة الدنيا، وإذا صار إلى ربه جازاه بأحسن ما كان يعمل)[١]، وعن الضحاك قال: (يأكل حلالاً ويلبس حلالاً)[٢]، وقال الحسن: (هي القناعة)[٣]، ولا خلاف بين هذه الأقوال فكل واحدة منها تبعث السعادة في نفس المؤمن، فكل ما يطيِّب المؤمن في حياته ويحسن معيشته فإن الله تعالى يوفقه إليه، ولكن أعظم أسباب الحياة الطيبة ومعدن السعادة فيها هي الرضى عن الله تعالى، والقناعة بما قسم، والصبر على ما قضى وقدر، فمن وفقه الله إلى ذلك كان ملكاً في دنياه، وغنياً في فقره، وسيداً في ذله، مسغنياً بالله عن الخلق، والله أعلم.

﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ هذا يوم القيامة[٤]، فجمع الله لهم بذلك سعادة الدنيا والآخرة.

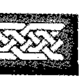
---

(١) أخرجه عبد الرزاق والفريابي وسعيد ابن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم. انظر: الدر المنثور ٤/ ١٤٤.

(٢) زاد المسير ٤/ ٣٧٥. وروي مثله عن ابن جبير وعطاء. انظر: البغوي ٣/ ٨٣.

(٣) انظر: البغوي ٣/ ٨٣، زاد المسير ٤/ ٣٥٧، القرطبي ١٠/ ١١٤.

(٤) انظر: الرازي ٢٠/ ٩٠.



أسباب الحفظ من الشيطان

٢٩- ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾.

*** مناسبة الآيات:**

أحسن ما قيل في مناسبة هذه الآيات لما قبلها؛ ما ذكره ابن عاشور أن الفاء متّصل بالفاء بما سبق من قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل:٨٩].

وذلك لأنه تعالى لما منّ على النبي بإنزال كتاب جامع لصفات الكمال وأنه تبيان لكل شيء، ونبّه على أنه تبيان لكل شيء بالكلمة الجامعة وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ﴾ [النحل:٩٠] الآية؛ وعطف عليه ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ ﴾ [النحل:٩١]، وأكّده ذلك التأكيد، قال بعد ذلك: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾.[1]

(١) انظر: التحرير والتنوير ١٤/ ٢٧٤، وهو كلام شرف الدين الطيبي نقله عنه ثم قال ابن عاشور: (وهذا أحسن الوجوه وقد انقدح في فكري قبل مطالعة كلامه ثم وجدته في كلامه فحمدت الله وترحّمته عليه، وعليه فما بين جملة ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا ﴾ [النحل:٨٩] الخ، وجملة ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ جملة معترضة والمقصود بالتفريع الشروع في التنويه بالقرآن).

*** غريب الآيات:**

فاسْتَعِذْ: السين للطلب، (والعوذ اللجوء إلى ما يعصم ويقي من أمر مضر)[١]، أي: فاطلب العوذ بالله من الشيطان.

سُلْطَانٌ: السلطان مصدر بوزن الغفران، وهو التسلط والتصرف المكين.[٢]

*** تفسير الآيات:**

قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾، أي: إذا أردت قراءة القرآن[٣]؛ أي: إذا شرعت في قراءة هذا الكتاب الشريف الجامع الذي نُبهتَ على بعض ما اشتمل عليه، ونازعك فيه الشيطان بهمزه ونفثه؛ فاستعذ بالله منه والمقصود إرشاد الأمّة.

والخطاب للنبي ﷺ والمراد أمته بقرينة السياق[٤]؛ إذ قال الله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾، أي: إن الأمر بالاستعاذة عند إرادة القرآن معلل بأنه ليس للإبليس تسلط واستيلاء على الذين آمنوا، الذين

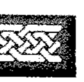
---

(١) التحرير والتنوير ١٤/ ٢٧٥.

(٢) التحرير والتنوير ١٤/ ٢٧٩.

(٣) انظر: الدر المصون ٧/ ٢٨٦، ابن عادل ٢/ ٢٩٨، الألوسي ١٤/ ٢٢٨. النشر في القراءات العشر لابن الجزري ١/ ٢٥٤، ٢٥٥، تحقيق محمد علي الضباع ط دار الفكر د.ت والإضاءة في بيان أصول القراءة محمد علي الضباع صـ٨. مراجعة محمد خلف ط مصر د.ت، التحرير والتنوير ١٤/ ٢٧٤.

(٤) انظر: الرازي ٢٠/ ٩٢، ابن عادل ٢/ ٣٠٠، التحرير والتنوير ١٤/ ٢٧٦.



يفوضون أمورهم لله تعالى، ويحرصون على تطبيق شرعه، ويأخذون بالأسباب ويعتمدون على ربهم.

﴿ إِنَّمَا سُلْطَـٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ ﴾، أي: إنما تسلطه وتحكمه حاصل على الذين ألقوا إليه أنفسهم انقياداً؛ لتحقيق شهواتهم ومصالحهم، وجعلوه والياً عليهم فيحبونه ويطيعونه ويستجيبون لدعوته[1]، ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾، أي: والذين بسببه يشركون بالله.[2]

فالآية بينت أسباب الغواية والإشراك: بأنها الانقياد لدعوات الشيطان وتزيينه، لما فيها من تحقيق الشهوات النفسية والمصالح الشخصية، وبينت أسباب الحفظ من سلطان الشيطان بالإيمان العملي، والتوكل الحقيقي بإسلام الأمر لله تعالى وتفويض الأمر إليه، وبينت الآية أن مفاتيح تدبر القرآن وإدراك أسراره والظفر بلؤلؤ معانيه بدوام اللجوء إلى الله تعالى والإخلاص في الافتقار إليه سبحانه.

---

(١) روي عن ابن عباس ومجاهد في معنى يتولونه أي يطيعونه أخرجه ابن جرير ١٤/ ١١٧.

(٢) انظر: الرازي ٢٠/ ٩٢، الدر المصون ٢٠/ ٢٨٦، الآلوسي ١٤/ ٢٣٠.



القرآن .. مصدره .. ومقاصد تنزّله

٣٠- ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ (١٠٣) ﴾.

*** سبب النزول:**

قال المشركون: إن محمداً عليه الصلاة والسلام سخر بأصحابه، يأمرهم اليوم بأمر، وينهاهم عنه غداً، أو يأتيهم بما هو أهون عليهم، وما هو إلا مفتري يقوله من تلقاء نفسه، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.(١)

عن ابن عباس رضي الله عنه قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم قيناً بمكة اسمه بلعام، وكان نصرانياً أعجمي اللسان فكان المشركون يرون رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخل عليه ويخرج من عنده ، فقالوا: إنما يعلمه بلعام فأنزل الله ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾).(٢)

---

(١) أسباب النزول للواحدي صـ١٦١، وفي زاد المسير ٤/ ٣٥٩: (رواه أبو صالح عن ابن عباس).

(٢) أخرجه ابن جرير ١٤/ ١١٩، وسنده ضعيف كما قال السيوطي في الدر المنثور ٤/ ١٤٦.



وعن عكرمة وقتادة: كان النبي صلى الله عليه وسلم يقرئ غلاماً لبني المغيرة أعجمياً ، قال سفيان: أراه يقال له: يَعِيش، وعند قتادة أنه غلام لبني الحضرمي، وكان يقرأ الكتب، فقالت قريش: إنما يعلمه بشر[1]، فأنزل الله ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ﴾ الآية. وقيل في سبب نزولها غير ذلك.[2]

* مناسبة الآيات:

لما ذكرت الآيات السابقة أسباب حفظ الإنسان من مكائد الشيطان، المانعة عن إيقاظ الهمم بالقرآن، ذكرت هذه الآيات حفظ القرآن من التبديل أو التحريف أو التلاعب فيه، وقررت أنه من عند الله أنزله بواسطة جبريل على خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم.[3]

* غريب الآيات:

بَدَّلْنَا: التبديل رفع الشيء مع وضع غيره مكانه، وهو هنا النسخ.[4]

رُوحُ الْقُدُسِ: يعني جبريل وأطلق عليه ذلك من حيث أنه ينزل بما يطهر النفوس بالقرآن والحكمة والفيوض الإلهية.[5]

---

(١) أخرجها ابن جرير ١٤/ ١١٩.

(٢) انظر: أسباب النزول للواحدي صـ١٦٢، الدر المنثور للسيوطي ٤/ ١٤٦.

(٣) ينظر ما كتبه ابن عاشور رحمه الله في مناسبة هذه الآيات واتصالها بغرض من أغراض سورة النحل وهو تقرير ربانية القرآن فهو نفيس وطويل: التحرير والتنوير ١٤/ ٢٨٠.

(٤) انظر: الرازي ٢٠/ ٩٣، البحر ٥/ ٥٣٦، ابن عادل ٢/ ٣٠٢، الآلوسي ١٤/ ٢٣١.

(٥) انظر: الكشاف ٢/ ٥٩٢، الآلوسي ١٤/ ٢٣١.

يُلْحِدُونَ: اللحد في اللغة: الميل، يقال: لحد وألحد، إذا مال عن القصد، ومنه يقال للمائل عن الحق: ملحد، والمعنى: لسان الذي يميلون القول إليه أعجمي.(١)

أَعْجَمِيٌّ: عجم في أصلها للإبهام والإخفاء، وضده البيان والإيضاح، ويقال لمن لا يفصح: أعجم وللمرأة عجماء، ولمن لا يتكلم العربية: أعجمي، ولكل من في لسانه عجمة أعجمي سواء كان من العرب أم غيرهم لكونه لا يفصح عن مراده ولا يبين في كلامه، والمعنى: أن لسان من ينسبون التعلم منه: أعجمي، وهذا قرآن عربي مبين.(٢)

*** تفسير الآيات:**

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

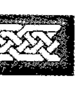
(المراد بالتبديل هنا: ذهب ابن عاشور إلى أن التبديل في الآية أوسع من معنى النسخ المعروف وأن مطلق التغاير بين الأغراض والمقامات، أو التغاير في المعاني واختلافها باختلاف المقاصد والمقامات مع وضوح الجمع بين محاملها، ويدخل في ذلك النسخ، وليس المراد بالتبديل هنا النسخ فقط، ذلك لأنه قليل في القرآن وأكثره كان في المدينة بعد الهجرة؛ حين قامت دولة المسلمين)(٣).

---

(١) انظر: المفردات صـ٤٦٣، المعاني للفراء ٢/ ١١٣، معاني الزجاج ٣/ ٢١٩.، ابن عادل ٢/ ٣٠٩.

(٢) انظر: المفردات صـ٣٢٦، الدر المصون ٧/ ٢٨٧، ٢٨٨، الرازي ٢٠/ ٩٤، ابن عادل ٢/ ٣١٠.

(٣) انظر: التحرير والتنوير ١٤/ ٢٨١، وانظر: أثر مجاهد في ابن جرير ١٤/ ١١٩.



فيكون النسخ محمولاً على التخصيص للعام والتقييد للمطلق، ويكون المشركون استغلوا ما ظاهره التعارض بين العموم والخصوص والمطلق والمقيد؛ وقالوا هذه الشبهة مكراً من عندهم، ويكون التبديل يعني: مطلق التغاير المقتضي للزيادة في البيان بأساليب مختلفة؛ تمنهج العقل على الاستقراء والاستنتاج من كتاب الله تعالى؛ لتحرره من ربقة التقليد، إذ مصطلح النسخ كما مر في مبحث الناسخ والمنسوخ في سورة النحل عن المتقدمين لم يكن بمعنى النسخ المصطلح عليه عند المتأخرين، والله أعلم.

ومن فظاعة افترائهم: قصر صفة الافتراء على النبي الصادق الأمين صلى الله عليه وسلم، فلم يقتصروا على أن تبديل القرآن افتراء، بل جعلوا الرسول صلى الله عليه وسلم مقصوراً على كونه مفترياً؛ لإفادة أن القرآن الوارد مقصور على كونه افتراء، أي: اختراع من عنده نسبه إلى الله سبحانه.[1]

و(بل) في قولته تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ للإضراب الإبطالي على كلامهم، وهو من طريقة النقض الإجمالي في علم المناظرة.[2]

ثم جاء الجواب القاطع بأسلوب مهيب ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾، أي: قل يا محمد أن هذا القرآن وما حصل فيه من تبديل ليس افتراءً على الله؛ بل هو تنزيل من عند الله تعالى ابتداءً متلبساً بالحق لا ريب فيه، وفي وصف التنزيل بالحق إيقاظ للناس بأن ينظروا في حكمة اختلاف أغراضه وما حصل من تبديل، وأنها

(١) ينظر: التحرير والتنوير ١٤/ ٢٨٣.

(٢) انظر: التحرير والتنوير ١٤/ ٢٨٣.





حق[1]. ثم علل الله تعالى حكمة التنزيل بالحق فقال: ﴿لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾، أي: لثبت الذين آمنوا على الإيمان لما في ذلك التبديل من الدلائل الساطعة على كون هذا القرآن من عند الله، ولما فيه من رعاية مصالح العباد والتدرج بهم إلى الأكمل ولا يدرك هذا إلا متعقل مستبصر، وهدايةً وبشارةً للمسلمين.[2]

ثم اختلقوا شبهة أخرى، فقالوا أن القرآن إنما تعلَّمه محمد من بشر، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾؛ ومهما يكن من اختلاف الروايات في اسم البشر؛ لكنها اتفقت في ذكر الحادثة التي ذكرتها الآية في أن المشركين كانوا يشككون في ربانية القرآن والوحي، ويشيعون ذلك بين الناس، كما نسمع اليوم من المستشرقين ما يماثل هذا القول، ويقولون هو من تأليف محمد صلى الله عليه وسلم تعلمه من بحيرة الراهب[3]، أو تعلمه الرسول صلى الله عليه وسلم من كتب اليهود والنصارى، ثم تلقف هذه الكذبة العلمانيون والليبراليون والملحدون ومرتزقة التنصير يلوكونها بألسنتهم.

---

(١) انظر: الآلوسي ١٤/ ٢٣١، التحرير والتنوير ١٤/ ٢٨٥.

(٢) انظر: الدر المصون ٧/ ٢٨٦، التوحيد والشكر في سورة النحل صـ١٠٧.

(٣) انظر: الاستشراق رسالة الاستعمار د محمد إبراهيم الفيومي صـ٢٩٥، ط دار الفكر العربي القاهرة ١٩٩٣.



وقد عرض الله بعقول المنكرين المستكبرين الأوائل من مشركي العرب؛ لتفاهة ما يقولون، فإنكم يا كفار قريش في زمن نزول القرآن أفصح العرب وأعلاهم بلاغة، كيف تضحكون على أنفسكم، وتكذبون عقولكم وقلوبكم، وتفترون هذه الكذبة.

ويدخل في هذا التوبيخ والتعريض متفيقهوا العصر وأمثالهم إلى يوم القيامة، يقول الرازي: (إن أمر التعلم لا يتأتى في جلسة واحدة ولا يتم في الخفية، بل التعلم إنما يتم إذا اختلف المعلم إلى المتعلم أزمنة متطاولة ومدداً متباعدة، ولو كان الأمر كذلك لاشتهر فيما بين الخلق أن محمداً عليه السلام يتعلم العلوم من فلان وفلان... وإن العلوم الموجودة في القرآن كثيرة؛ وتعلمها لا يتأتى إلا إذا كان المعلم في غاية الفضل والتحقيق، فلو حصل فيهم إنسان بلغ في التعليم والتحقيق إلى هذا الحد لكان مشاراً إليه بالأصابع في التحقيق والتدقيق في الدنيا، فكيف يمكن تحصيل هذه العلوم العالية والمباحث النفيسة من عند فلان وفلان؟).[١]

(وقد كشف القرآن هذا اللّبس هنا بأوضح كشف إذ قال قولاً فصلاً دون طول جدال: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾، أي: كيف يعلّمه وهو أعجميّ لا يكاد يبين، وهذا القرآن فصيح عربي معجز).[٢]

---

(١) الرازي ٢٠/ ٩٥، ٩٦.

(٢) التحرير والتنوير ١٤/ ٢٨٧.





تهديد ووعيد للكافرين وعذر وثناء للمؤمنين الصادقين

٣١- ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَـٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾ ۞ يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَـٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ ﴾.

*** سبب النزول:**

ورد في سبب نزول قوله تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ .. ﴾ الآية، عن ابن عباس رضي الله عنه قال: «نزلت هذه الآية في عمار بن ياسر رضي الله عنه، وذلك أن المشركين أخذوه وأباه ياسر وأمه سمية وبلالاً وخباباً وسالماً فعذبوهم، فأما سمية فإنها ربطت بين بعيرين

ووجئ قبلها بحربة فقتلت، وقتل زوجها ياسر، وهما أول قتيلين قتلا في الإسلام رضي الله عنهما».[١]

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس، في هذه الآية قال: (وذلك أن المشركين أصابوا عمار بن ياسر فعذّبوه، ثم تركوه، فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فحدّثه بالذي لقي من قريش، والذي قال: فأنزل الله تعالى ذكره عذره ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ ﴾... إلى قوله ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾).[٢]

---

(١) ذكره الواحدي في أسباب النزول صـ١٦٢ بدون سند، وقال ابن حجر في تخريج الكشاف ٢/ ٦٣٧: (وهكذا أورده الثعلبي عن ابن عباس بغير سند)، ولكن لا يعني أنه موضوع، فإن له أصلاً وشواهد، فقد قال ابن كثير ٤/ ٦٠٥ ط طيبة: (وقد روى العَوفيّ عن ابن عباس: أن هذه الآية نزلت في عمّار بن ياسر، حين عذبه المشركون حتى يكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم، فوافقهم على ذلك مُكرَها، وجاء معتذرًا إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله هذه الآية، وهكذا قال الشعبي، وأبو مالك وقتادة)، انظر ابن جرير ١٧/ ٣٠٤، أما رواية العوفي عن ابن عباس فقد أخرجها الطبري بسند ضعيف كما قال ابن حجر في الفتح ٢١/ ٢٦٣، وله شاهد عند ابن جرير ١٧/ ٣٠٤، والحاكم ٢/ ٣٥٧ عن أبي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر، عن أبيه، قال: أخذ المشركون عمار بن ياسر فلم يتركوه حتى سب النبي صلى الله عليه وسلم، وذكر آلهتهم بخير ثم تركوه، فلما أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ما وراءك ؟) قال: شر يا رسول الله، ما تركت حتى نلت منك، وذكرت آلهتهم بخير قال: (كيف تجد قلبك ؟)، قال: مطمئن بالإيمان، قال: (إن عادوا فعد) وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، انظر: سيرة ابن هشام ١/ ٣١٩، البداية والنهاية لابن كثير ٣/ ٥٨ ط دار الفكر، وقيل في سبب نزولها غير ذلك انظر زاد المسير ٤/ ٣٦٢ واقتصرت على أثر ابن عباس لأنه أصح ما ورد، والله أعلم.

(٢) ابن جرير ١٧/ ٣٠٤ ط الرسالة.



* مناسبة الآيات:

لما كذب الله دعواهم وأزال شبهتهم وقرر صدق تنزيل القرآن منه سبحانه وحياً على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم؛ أتبعه بما يهددهم بسوء العاقبة والختام على غير الإيمان لمن أصر الإنكار واستكبر على الحق، والله أعلم.

* غريب الآيات:

أكره: الإكراه: الإلجاء إلى فعل ما يكره فعله، وغالباً يكون ذلك بفعل شيء تضيق طاقة الإنسان عن تحمله من إيلام بالغ أو سجن أو قيد أو نحوه.[1]

* تفسير الآيات:

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴾:

يقول ابن جرير رحمه الله: (يقول تعالى إن الذين لا يؤمنون بحجج الله وأدلته، فيصدّقون بما دلّت عليه ﴿لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ﴾ يقول: لا يوفقهم الله لإصابة الحقّ، ولا يهديهم لسبيل الرشد في الدنيا، ولهم في الآخرة وعند الله إذا وردوا عليه يوم القيامة عذاب مؤلم موجع.

---

(١) انظر: الرازي ٢٠/ ٩٧، أحكام القرآن للجصاص ٣/ ١٩٢، التحرير والتنوير ١٤/ ٢٩٤.

ثم أخبر تعالى ذكره المشركين الذين قالوا للنبيّ صلى الله عليه وسلم: إنما أنت مفتر، أنهم هم أهل الفرية والكذب، لا نبيّ الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنون به، وبرأ من ذلك نبيه صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فقال: إنما يتخرّص الكذب، ويتقوّل الباطل، الذين لا يصدّقون بحجج الله وإعلامه، لأنهم لا يرجون على الصدق ثوابا، ولا يخافون على الكذب عقابا، فهم أهل الإفك وافتراء الكذب، لا من كان راجيا من الله على الصدق الثواب الجزيل، وخائفاً على الكذب العقاب الأليم. وقوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ يقول: والذين لا يؤمنون بآيات الله هم أهل الكذب لا المؤمنون).[1]

قوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾:

(لما سبق التّحذير من نقض عهد الله الذي عاهدوه، وأن لا يغرّهم ما لأمّة المشركين من السّعة والرُبُو، وحذرهم من زَلل القدم بعد ثبوتها، وبشروا بالوعد بحياة طيبة، وجزاء أعمالهم الصالحة من الإشارة إلى التّمسك بالقرآن والاهتداء به، وأن لا تغرّهم شُبه المشركين وفتونهم في تكذيب القرآن، عقب ذلك بالوعيد على الكفر بعد الإيمان)[2]، فكل من كفر بعد إيمانه، ومن شرح لذلك صدراً بأن (فتح قلبه ووسعه

(١) ابن جرير ١٧ / ٣٠٢، ط الرسالة. وانظر: ابن كثير ٤ / ٦٠٤، ط طيبة.

(٢) التحرير والتنوير ١٤/ ٢٩٢.



لقبوله واعتقده وطاب به نفساً)[١]، فعليهم غضب عظيم لا يكتنه كنهه[٢]، ويستثنى من هذا العذاب: من أكره على قول الكفر وموافقة الكافرين بلسانه فيما يعتقدونه، وحاله أن قلبه مطمئن بالإيمان، مستقر على الاعتقاد الصحيح ويأبى ما يقول.

ثم بين الله تعالى سبب نيلهم هذا الغضب العظيم والعذاب الأليم؛ فقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ أي: إن سبب الغضب: أنهم قدموا نفع الدنيا ونعيمها على الآخرة، وأحبوا العاجل وتركوا الآجل، والسبب الثاني أن الله حرمهم الهداية وخذلهم لعلمه بما في قلوبهم فهم موافون ربهم على الكفر والعياذ بالله تعالى.[٣]

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ﴾: الموصوفون بما ذكر من القبائح: ﴿ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ﴾ فذكر العلة في عدم هدايتهم أنه قد طبع وختم على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم، وهذا يدل على أن (الكفر بعد الإيمان إذا تكرر يجعل النفس تمرض بفساد الإدراك؛ لأن الكفر بعد الإيمان من شأنه أن يضعف في القلب معنى الإيمان، فيضعف إدراك الحق، ويصبح الشخص حائراً بائناً لا يتحرك، فكأنه

---

(١) انظر: ابن عادل ٢/ ٣١٨، أبو السعود ٥/ ١٤٣.

(٢) انظر: أبو السعود ٥/ ١٤٣، وتكون جملة فعليه غضب الخ خبر لـ من إن كانت موصولة، وجواب شرط إن كانت من شرطية انظر: ابن جرير ١٧/ ٣٠٣، البحر ٥٣٩، الدر المصون ٧/ ٢٩٠، الآلوسي ١٤/ ٢٣٧.

(٣) انظر: أبو السعود ٥/ ١٤٣، التحرير والتنوير ١٤/ ٢٩٦.

طبع على مداركه بطابع يمنع من أن يصل إليها شيء من الفهم والعلم، فيبصر الكائنات و لا يعلم ما تدل عليه، ويستمع القرآن ولا يعلم ما يهدي إليه)[١]، فهم إذن فقدوا معنى الإنسانية العاقلة المدركة؛ ولذلك وصفهم بوصف ينفر منه كل عاقل، وكأنه لا يوجد في غيرهم فقال تعالى: ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ﴾ (أي الكاملون في الغفلة).[٢]

ولما كان الطبع على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وغفلتهم مانعة لهم عن إدراك الحقائق والعواقب، قال تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ أي: (الهالكون، الذين غَبَنوا أنفسهم حظوظها من كرامة الله تعالى)[٣]، و(ضيّعوا أعمارَهم وصرفوها إلى ما لا يفضي إلا إلى العذاب المخلد)[٤]، وورد عن ابن عباس: (غافلون عما يراد منهم في الآخرة).[٥]

ولما ذكر الكفر وصفات أصحابه وعاقبتهم؛ أتبعه بذكر أهل الفوز والصدق والإيمان، فقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَـٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، فبدأ بحرف التراخي (ثم) لبيان تقاصر مرتبة الكافرين المفتونين بالدنيا وزينتها، أمام مرتبة المؤمنين

---

(١) انظر: زهرة التفاسير ٨/ ٤٢٧٩.

(٢) أبو السعود ٥/ ١٤٤.

(٣) ابن جرير ١٧/ ٣٠٦ط الرسالة.

(٤) أبو السعود ٥/ ١٤٤، الآلوسي ١٤/ ٢٣٩.

(٥) زاد المسير ٤/ ٣٦٣، الرازي ٢٠/ ١٠٠، ابن عادل ٢/ ٣٣٠، الآلوسي ١٤/ ٢٣٩.



الذين تركوا الدنيا وزينتها لأجل الآخرة، أي: ثم إن ربك يا محمد للذين هاجروا من ديارهم ومساكنهم وعشائرهم من المشركين، وانتقلوا عنهم، من بعد ما فتنهم المشركون الذين كانوا بين أظهرهم قبل هجرتهم عن دينهم، ثم جاهدوا المشركين بعد ذلك بأن قاوموا فتنتهم جهدهم وطاقتهم بالثبات على الإيمان وبالبراءة منهم، ومما يعبدون من دون الله ، وصبروا على جهادهم هذا؛ إن ربك من بعد فعلتهم هذه لذو ستر على ما كان منهم من إعطاء المشركين ما أرادوا منهم من كلمة الكفر بألسنتهم، وهم لغيرها مضمرون، وللإيمان معتقدون، رحيم بحالهم إذ وفقهم لجهاد فتنة المشركين والثبات على الإيمان، ورحيم بهم أن يعاقبهم عليها مع إنابتهم إلى الله وتوبتهم.[1]

(والمراد: المهاجرون إلى الحبشة، الذين أذِن لهم النبي صلى الله عليه وسلم بالهجرة للتخلّص من أذى المشركين، ولا يستقيم معنى الهجرة هنا إلا لهذه الهجرة إلى أرض الحبشة).[2]

أقول: ويحتمل أيضاً أن تكون الآية تهيئة للمسلمين وشداً لعزيمتهم، وتبشيراً لهم بالفرج القريب عند الأمر بالهجرة إلى المدينة، وبما سيكون لهم من الشأن العظيم والنصرة والتمكين، كما حصل فيما بعد في بدر؛ فتأمل والله أعلم، ثم وجدت الشيخ أبوزهرة قد أشار لذلك، فقال: (والهجرة الواضحة هنا أنها هجرة الأولين إلى الحبشة ويصح أن يراد الهجرة إلى الحبشة والمدينة، وإذا كانت السورة مكية فهي تنبئنا بالهجرة

---

(١) ينظر: ابن جرير: ١٧/ ٣٠٦. والتحرير والتنوير ١٤/ ٣٠٠.

(٢) التحرير والتنوير ١٤/ ٢٩٩ وينظر الرازي ٢٠/ ١٠١، وانظر: صـ٣١٣ من البحث.

إلى المدينة التي كانت أول الجهاد)[1]، وبذلك تكون الآية فيها إعجاز غيبي يبشر المسلمين بقرب الفرج والنصر، والله أعلم.

والجهاد في هذه الآية ليس القتال كما ذهب إليه بعض المفسرين[2]؛ لأن الآية مكية ولم يشرع الجهاد بعد، وإنما هو دفع فتنة المشركين للمسلمين من العذاب والإكراه والإغراء بالمال، ورؤية المسلمين عودةَ بعضٍ من أسلم إلى الكفر ونحو ذلك، لما فيه من الشدة والمحنة، فالمسلمون قاوموا هذه الفتنة جهدهم وطاقتهم بدفع المشركين عن أن يردوهم للكفر، ثم ثبتوا وتحملوا المكروه والمشاق.

ثم بين الله تعالى أن مغفرته ورحمته لهم في الآخرة كما في الدنيا، فقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَـٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾، فإن مغفرتي ورحمتي محيطة بكم، وأنتم آمنون يوم تأتي كل نفس (تعتذر عن نفسها)[3]، فلا يهولنكم ما أنتم فيه من الفتنة، وسترون المشركين الذين فتنوكم في الدنيا يفتنون يوم القيامة، ويجادلون كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:٢٣]، ﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾، وتعطى كل نفس عطاءً وافياً جزاء ما عملت فأما المؤمنون عطاءً حساباً، وأما الكافرون جزاءً وفاقاً، وهم لا ينقصون شيئاً.[4]

---

(١) زهرة التفاسير ٨/ ٤٢٨٢. ومن العجيب أن الشيخ عبد الحميد طهماز ذكر أن هذه الآية مما نزل بعد الهجرة بعدة سنوات في المدينة المنورة ولم يذكر دليله في ذلك وربما اعتمد على ما سبق ذكره في مبحث مكان نزول السورة، انظر: التوحيد والشكر في سورة النحل صـ١١٢.

(٢) كابن جرير مثلاً، انظر: ١٧/ ٣٠٦.

(٣) انظر: الرازي ٢٠/ ١٠١، ابن عادل ٢/ ٣٣٦.

(٤) انظر: الرازي ٢٠/ ١٠١، ابن عادل ٢/ ٣٣٦، أبو السعود ٥/ ١٤٤، الآلوسي ١٤/ ٢٤١.



الإيمان أسُّ الأمن الغذائي والاقتصادي والنفسي والكفر سبب الخراب في المجتمعات

٣٢- ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

*** مناسبة الآيات:**

عطف عظة على عظة، وتهديد على تهديد، فبعد أن وعظهم بضرب الأمثال في خسارة الكفر بعد الإيمان بالتي نفضت غزلها بعد قوة أنكاثاً، وهددهم بالعذاب الأليم والغضب العظيم من فاطر السموات والأرض، عطف على ذلك ما يفتق مدارك اليقظة للعاقل ليبين أن العذاب الأليم والغضب العظيم في الدنيا، ليس أثره في الدنيا فقط على من كفر أو أشرك بعد إيمانه، وإنما أثره على المجتمع كله، كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾ [الكهف:٥٩] والكفر ظلم، فكان في ذلك إرشاد للمؤمنين، وتنبيهاً لهم ليحافظوا على إيمانهم، والله أعلم.

*** غريب الآيات:**

رغداً: الرزق الرغد هو الرزق الطيب الواسع.(١)

---

(١) انظر: المفردات صـ١٩٨ رغد.

أَنْعُم: جمع نعمة على غير قياس، نحو شدة وأشد، درع وأدرع، مع ترك الاعتداد بالتاء.(١)

فأذاقها: الذوق وجود الطعم بالفم، وأصله فيما يقل تناوله، أما ما يكثر تناوله؛ فيقال له: الأكل، واختير في الآية هنا استعمال الذوق مع اللباس؛ من أجل أنه أريد به التجربة والاختبار، أي: فجعلها بحيث تمارس الجوع والخوف، وقيل إن ذلك على تقدير كلامين كأنه قيل أذاقها طعم الجوع والخوف، وألبسها لباسهما.(٢)

*** تفسير الآيات:**

بعدما بشر الله تعالى المؤمنين الصابرين على إيذاء المشركين بالمغفرة والرحمة يوم القيامة، بين لهم أحد معاني الرحمة في الدنيا باستمرار الأرزاق مع دوام الإيمان، وذلك بطريقة ضرب المثل فقال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾ فقد جعل الله تعالى الإيمان وتطبيق شرع الله تعالى في المجتمع وشكره تعالى على النعم؛ سبباً لتحقق الأمن العام تحقيق، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف:٩٦].

---

(١) انظر: ابن جرير ١٤/ ١٢٥، الدر المصون ٧/ ٢٩٦، أبو السعود ٥/ ١٤٥، التحرير والتنوير ١٤/ ٣٠٦.

(٢) انظر المفردات صـ١٨٢ ذوق.



ولما كان ما يعيشه المسلمون في مكة واقع حي لانعدام الأمن العام، جعل الله تعالى في هذه الآية مثالاً للمشركين: يهددهم فيها من عاقبة ما يمارسونه اتجاه المؤمنين، ومن كفرٍ بالله وبنعمه التي لا تحصى، ومثالاً للمسلمين: يهيئهم فيه لمجتمع آمن عندما يؤمرون بالهجرة المشار إليها بالآية السابقة إلى المدينة المنورة، التي ستكون نواة دولتهم وعرين شوكتهم، وينبههم إلى المنظومة الأساسية للعيش الرغيد والسعادة الحقيقية للمجتمع المطمئن المستقر، وهذا المثل قائم لكل ذي عقل إلى يوم القيامة فقال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً ﴾، والمثل قد يضرب بشيء موجود معين، أو لا يكون موجوداً، وذهب بعض المفسرين إلى تعيين القرية بأنها مكة[1]، وقد يساعدهم في ذلك الجو الذي نزلت فيه الآية في مكة.

ويرى الباحث أن القرية غير معينة؛ مثَّل الله تعالى بها تنبيهاً لكل من يكفر بعد الإيمان بسوء العاقبة، على سبيل بيان سنته تعالى فيمن كانت حالته كذلك[2]، وقد تكون موجودة؛ لكنها غير معلومة؛ لأن المراد العبرة بها لا عينها.

---

(١) كما ذهب إلى ذلك ابن عباس ومجاهد وقتادة والجمهور وقال ابن الجوزي: أنه الصحيح. انظر: زاد المسير ٤/ ٣٦٥، البغوي ٣/ ٨٧، الرازي ٢٠/ ١٠٢، القرطبي ١٠/ ١٢٧. الأمثال القرآنية لحبنكة صـ٦٩.

(٢) وإلى ذلك ذهب الحسن إذ قال: (إنها قرية أوسع الله على أهلها حتى كانوا يستنجون بالخبز، فبعث الله عليهم الجوع حتى كانوا يأكلون ما يقعدون زاد المسير ٤/ ٣٦٥. وذهب البقاعي إلى أنها قرية من القرى الماضية كقوم هود وصالح و.. كانوا مثل أهل مكة انظر: نظم الدرر ١١/ ٢٦٤.





يقول الرازي: (والأقرب أنها غير مكة لأنها ضربت مثلاً لمكة، ومثل مكة يكون غير مكة).[1]

وجعل مثل القرية موصوفة بصفات تبين حالها المقصود من التمثيل؛ ليكون ذلك عبرة لقريش في مكة ولكل من يماثلهم إلى يوم القيامة وفيهم هذه الصفات، فقال تعالى: ﴿كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ ثلاث صفات، كل واحدة منها ركن ركين لا بد منه في كل مجتمع: الأمن من الخوف، والاستقرار في الأرض وراحة البال، ووفرة العيش وتيسره، (وقدم الأمن على الطمأنينة؛ لأنها لا تحصل بدونه، كما أن الخوف يسبب الانزعاج والقلق).[2]

أنموذج لدلائل علم الاجتماع وغيره من القرآن.

فقوله: ﴿ءَامِنَةً﴾ إشارة إلى الأمن الاجتماعي والسياسي، و ﴿مُّطْمَئِنَّةً﴾ إشارة إلى الأمن النفسي والصحي، و﴿رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾؛ إشارة إلى الأمن الاقتصادي والتجاري وسبله ووسائله، وقوله: ﴿مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ ليدخل كل سبيل يمكن دخول الرزق منه، سواء البر أو البحر أو الجو، المعبر عنه بأمن طرق التجارة، فكان هذا الترتيب بيان لأولوية كل أمن على أمن، ولذلك فإن الرسول صلى الله عليه وسلم بعدما هاجر: آخى بين الأنصار والمهاجرين لتحقيق الأمن الاجتماعي، ووطد الصلة مع جيرانه من القبائل لتحقيق الأمن السياسي، فحصل بعد ذلك الأمن النفسي، وكان يحثهم على التجارة والزراعة والعمل؛ من أجل الأمن الاقتصادي، والله أعلم.

---

(١) الرازي ٢٠/ ١٠٢.

(٢) انظر: التحرير والتنوير ١٤/ ٣٠٥.



ولما كان هذا الأمن من المسبَّبات عن الإيمان بالله وشكره وحده؛ بين الله تعالى أن زوالها يكون بزوال سببها، فقال تعالى: ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ﴾، أي (حصل الكفر عقب النعم التي كانوا فيها إذ بطروا، فأشركوا بالله وعبدوا غيره).(١)

وتقدم أن (أنعم) جمع قلة، والفائدة في هذا الجمع للإيذان بأن كفران نعمة قليلة أوجب العذاب المذكور، فما ظنك بكفران نعم كثيرة(٢)، وأحسن من ذلك ما قاله البقاعي: (نبه سبحانه على سعة فضله بجمع القلة الدال على أن كثرة فضلة عليهم تافهة بالنسبة إلى ما عنده سبحانه وتعالى)(٣)، ويؤيد ذلك سياق الآيات، ذلك أنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة، فلو نظروا لسعة فضل الله لاستحقروا ما عندهم على كثرته في نظرهم والله أعلم.

﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾، والتعقيب هنا عرفي في مثل ذلك المعقَّب، لأنه حصل بعد مضي زمن عليهم وإمهالهم بعد الإنذار على كفرهم بالله ورسوله(٤).

ولما ذكر المثل؛ ذكر الممثل فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ﴾، أي: يعرفون نسبه ونشأته وشرفه، واختبروا صدقه وأمانته وحكمته ورجاحة عقله، فكانت العاقبة: أنهم كذبوه؛ وهذا من أشنع الصنائع، ولما كانت عاقبة من ضرب بهم

---

(١) انظر: نظم الدرر ١١/ ٢٦٤، التحرير والتنوير ١٤/ ٣٠٦.

(٢) أبو السعود ٥/ ١٤٥.

(٣) نظم الدرر ١١/ ٢٦٤.

(٤) انظر: التحرير والتنوير ١٤/ ٣٠٦.



المثل ما سبق بسبب صنعهم؛ بين للمثَّل لهم عاقبة صنعهم؛ فقال: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾، أي: فأهلكهم الله تعالى بأنواع العذاب وهم على هذه الحال من الظلم والتكذيب والكفر.[1]

---

(١) انظر: الرازي ٢٠/ ١٠٤، زاد المسير ٤/ ٣٦٦، أبو السعود ٥/ ١٤٦، التحرير والتنوير ١٤/ ٣٠٨.

وجب رعاية شرع الله تعالى

٣٣- ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾ ﴾.

* مناسبة الآيات:

لما كان القرآن بياناً لكل شيء، وقد بين لهم أسس الأمن في جميع مناحيه فيما تقدم من الآيات، وكان آخرها يتعلق بالأمن الغذائي، أتت هذه الآيات بياناً لشيء جديد يقوّم حياة المسلمين ويرشدهم لما فيه السعادة والحياة الطيبة، بمعرفة ما يحل أكله وما يحرم، والله أعلم.

* غريب الآيات:

الْـمَيْتَةَ: الميتة من الحيوان ما زال روحه بغير تذكية شرعية.[1]

---

(١) انظر: المفردات صـ ٤٧٧، موت.

مَا أَهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ: الأصل في الإهلال رفع الصوت.

وكل رافِعٍ صوتَه فهو مُهِلّ، وكذلك قوله عز وجل: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾، هو ما ذُبِحَ للآلهة، وذلك لأَن الذابح كان يسمِّيها عند الذبح فذلك هو الإِهْلال.[١]

غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ: أي غير طالب ما ليس له طلبه، ولا متجاوز لما رسم له، قال الحسن: (غير متناول للذة، ولا متجاوز سد الجوعة).[٢]

يُفْلِحُون:الفَلَاح: الظَفَر وإدراك البغية، وذلك ضربان: دنيوى وأخروي.

فالدنيوي: الظفر بالسعادات التى تطيب بها حياة الدنيا؛ وهو البقاء والغنى.

وفلاح أخروي؛ وذلك أربعة أشياء: بقاء بلا فناء، وغنى بلا فقر، وعز بلا ذل، وعلم بلا جهل.[٣]

مَتَاعٌ: المتاع، انتفاع ممتد الوقت، (وكل موضع ذكر فيه تمتعوا في الدنيا؛ فعلى طريق التهديد وذلك لما فيه من معنى التوسع).[٤]

بِجَهَالَة: الجهل في الأصل: هو خلو النفس من العلم[٥]، (والمراد جهالتهم بأدلة الإسلام)[٦]، فكل فعل قام على غير علم ولا نظام فهو جهالة.

---

(١) انظر: اللسان ١١ / ٧٠١ مادة: هلل.

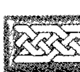
(٢) انظر: المفردات صـ٥٦، بغا، أبو السعود ٥/ ١٤٧.

(٣) انظر: المفردات صـ٣٨٥، فلح.

(٤) انظر: المفردات ص ٤٦١ متع.

(٥) انظر: المفردات صـ١٠٢ جهل.

(٦) التحرير والتنوير ١٤/ ٣١٣.



* تفسير الآيات:

يبين الله الحكيم لعباده ما يأكلون من أجل سلامة صحتهم وأبدانهم، وسلامة إيمانهم وقلوبهم، فقال تعالى: ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾، فابتدأت الآيات بالأمر المتضمن معنى الامتنان بما أذن الله به وتستطيبه النفوس وتنتفع به، عاطفة على ذلك الأمرَ اللازم على هذه المنة، وهي شكر الله تعالى الذي آمنتم به واستسلمتم لشرعه وأطعتموه فيه.

والمراد بالحلال الطيب: المأذون به شرعاً، ولما كان ما يعود بالنفع على الإنسان كثيرٌ لا يحصى، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾، ذكر الله تعالى المحرم لأنه محصور؛ فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾.

أنموذج التفسير العلمي بطريقة التفسير الإجمالي وبيان منهج استخدام المعلومات في هذه الطريقة.

وقد بين الله تعالى سبب تحريمها في سورة الأنعام: أنها رجس، فقال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[الأنعام:١٤٥].

ويدخل في الميتة ما ذكره الله تعالى في قوله: ﴿وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾[المائدة:٣].

ويدخل في ما أهل لغير الله به؛ ما ذكر في قوله تعالى: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ [المائدة:٣].

وفي هذه الآيات إرشاد للمؤمنين إلى النُّظم الصحية في الأكل، جعلها سبحانه قوانين شرعية، يثاب المسلم على التزامه بموجبها ويعاقب على تعديه فيها.

وقد كان سلفنا الصالح رضي الله عنهم يلتزمون بهذه الأحكام اعتقاداً وعملاً بشرع الله تعالى، ولم تكن عدم معرفتهم بحكمة تحريمها عائقاً أمام الالتزام بأحكام الله تعالى، وكذلك ينبغي أن يكون المسلم عندما لا يصل إلى حكمة تحريمها، مع أنه بفضل الله تعالى قد تجلت لنا حكم كثيرة من تحريم ما تقدم، وما زال العلم التجريبي يكشف عن أضرار ما حرمه الإسلام على البشرية إلى الآن.

فأكل اللحوم الميتة يتسبب بأمراض كثيرة، أهمها وأخطرها على حياة الإنسان التسمم الغذائي، وانتقال أمراض الحيوانات الميتة إلى الإنسان عن طريق الأكل.[1]

وأما الدم المسفوح: فضرره لا يقل عن أكل الميتة، (ذلك لأن الدم يختزن الميكروبات والسموم والإفرازات، كما يوجد في الدم الهستامين الذي يسبب انخفاضاً شديداً لضغط الدم، وقد يسبب الإصابة بالحساسية والربو، ويوجد في الدم الأنجيوتنسين ينقله الدم من الكلى يسبب ارتفاع ضغط الدم، والهيدروكس تريتامين المسبب للإسهال والإجهاد).[2]

---

(١) انظر: الأدوية والقرآن الكريم د. محمد محمد هاشم، أستاذ الأدوية في جامعة القاهرة صـ٦٤، ط الدار السعودية للنشر الأولى ١٩٨٣م.

(٢) المصدر السابق صـ٦٤.



وأما لحم الخنزير: فقد كثرت الدراسات في بيان ضرر أكله، فهو حيوان قذر في أكله ومعيشته وطباعه ولحمه ودمه وصوته، مما جعله يحمل أمراضاً كثيرة في جسمه تزيد على / ٤٥٠/ مرضاً، كما يقوم بدور الوسيط لنقل أكثر من / ٧٥/ مرضاً للإنسان، إضافة إلى الأمراض التي يسببها أكل لحمه عادة كتليف الكبد، وعسر الهضم، والحساسية الغذائية، وتساقط الشعر، وتصلب الشرايين، وضعف الذاكرة، فألياف لحمه تحتوي على نسبة كبيرة من الدهن، كما أنها تحتوي غالباً على الدودة الوحيدة المسلحة الموجودة في الألياف العضلية، التي تتمركز أولاً في معدته، وتعيش على احتياجات الإنسان الضرورية، ويمتد خطرها عندما يصل جنين الدودة إلى دماغ الإنسان أو عينه، فيسبب الجنون أو العمى.

وتذكر الأبحاث أن لحم الخنزير ودهنه يحتوي على مواد مؤثرة على الهرمونات الجنسية عند الذكر والأنثى؛ مما يقلل النسل ويسبب العقم، هذا غير أثره النفسي والفطري، فإن له آثاراً سيئة على العفة والغيرة عند الإنسان.[1]

وأما ما أهل لغير الله تعالى وإن لم أجد في ذلك بحثاً علمياً مختصاً يقارن بين لحم المذبوح لغير الله، ولحم المذبوح لله تعالى من الأنعام[2]، لكننا نسلم الأمر له تعالى ونلتزم

---

(١) انظر المصدر السابق صـ٦٥، ٦٦، وبحث: الإعجاز التشريعي في تحريم لحم الخنزير د. فهمي مصطفى محمود صـ ٥ فما بعد، فإنه ذكر كل ما يتعلق بالخنزير حياة وطباعاً وأمراضاً بشكل مسهب ومفيد، وهو من أبحاث المؤتمر العالمي السابع للإعجاز العلمي في القرآن والسنة في دبي ٢٠٠٤م. و التوحيد والشكر في سورة النحل صـ١١٤.

(٢) هذا مع التنويه أني شاهدت برنامجاً عرض على عدة قنوات فضائية قام به مختصون مخبريون بمثل هذه العملية وأظهروا الفارق بين اللحم المكبر عليه والذي لم يذكر اسم الله عليه، ولكن قضيتنا هنا بين اللحم المذبوح لله تعالى واللحم المذبوح لغيره. فليتنبه.

بأحكام شرعنا تعبداً، وإن لم يظهر لنا وجه الحكمة أو الضرر من تحريمها، كما كان سلفنا الصالح رضي الله عنهم، مع يقيننا بأن الله أحل لنا الطيبات وحرم علينا الخبائث.[١]

ولما كانت الآية بينت المحرم من المأكول حفظاً للنفس؛ بيّن الله تعالى حكم الأكل مما حرم في حالة الإلجاء والاضطرار الذي يخشى معه فوات النفس، فقال سبحانه: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، فإن الله يغفر الإثم الحاصل من أكلها؛ في الضرورة التي لا يعتدي المسلم فيها، ويرحم الآكل برفع الضر عنه، قال الله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة:٣] والله أعلم.

يقول ابن عاشور:

(ومناسبة هذا التحديد في المحرّمات أن بعض المسلمين كانوا بأرض غُربة وقد يؤكل فيها لحم الخنزير وما أهلّ به لغير الله، وكان بعضهم ببلد يؤكل فيه الدم وما أهلّ به لغير الله).[٢]

---

(١) علق فضيلة المشرف د. نور الدين عتر حفظه الله تعالى هنا: (ولو لم يكن فيه إلا صيانة العقيدة لكفى) ا.هـ.

(٢) التحرير والتنوير ١٤/ ٣١٠، وقد علق فضيلة المشرف د. نور الدين عتر حفظه الله تعالى بخطه بعد كلام ابن عاشور هنا فقال: (الأولى القول بأنها كانت مستباحة عند المشركين، وحرموا أشياء حلالاً، لذلك استعمل القصر لقلب القضية عليهم، فهو قصر قلب إضافي) ا.هـ وهذه فائدة عزيزة.



وأما الضرر الذي فيها فإنه بخلق الله تعالى؛ وهو قادر على رفعه متى يشاء سبحانه، وينبغي على المسلم أن يعلم أن سنة الله تعالى في عباده المخلصين الصادقين أنه يسخر لهم الكون لصدقهم، ويكرمهم بخدمة المخلوقات لهم، فالذي منع السكين أن تذبح إسماعيل لما همّ الأب إبراهيم تنفيذ أمر ربه، ومنع النار أن تحرق إبراهيم لما صبر على إيمانه؛ فقال للنار: كوني برداً وسلاماً على إبراهيم، هو الذي يرفع الضر الموجود في هذه المحرمات حين لا يجد المسلم ما يأكله غيرها ليحافظ على وجوده؛ لأنه هو الذي حرمها وخلق فيها الضر حال السعة، وهو الذي رخصها حين الضرورة سبحانه وتعالى، ولعل هذا ما يشير إليه ذكر إبراهيم فيما بعد في ختام هذه السورة، والله أعلم.

ولما حصر المحرمات في تلك الأربعة؛ بالغ في تأكيد ذلك الحصر، وزيف طريقة الكفار في الزيادة والنقصان على هذه الأربعة، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمۡ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمۡۗ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ [الأنعام:١٣٦].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنۡعَٰمٞ وَحَرۡثٌ حِجۡرٞ لَّا يَطۡعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعۡمِهِمۡ وَأَنۡعَٰمٌ حُرِّمَتۡ ظُهُورُهَا وَأَنۡعَٰمٞ لَّا يَذۡكُرُونَ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا ٱفۡتِرَآءً عَلَيۡهِۚ سَيَجۡزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِنَاۖ وَإِن يَكُن مَّيۡتَةٗ فَهُمۡ فِيهِ شُرَكَآءُۚ سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ﴾ [الأنعام: ١٣٨، ١٣٩].

وحرموا البحيرة و السائبة والحام، وغير ذلك، فبين الله تعالى أن تحريمهم وتحليلهم هذا افتراء عليه تعالى[١]، فقال سبحانه: ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ﴾.

أي: لا تحللوا ولا تحرموا، لأجل قول تنطق به ألسنتكم من غير حجة.[٢]

ثم أوعد الله المفترين فقال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ فهم أشقياء في الدنيا والآخرة.

وقد يقول قائل: كيف هم لا يفلحون في الدنيا؛ ونحن نرى غناهم وسعة عيشهم[٣]، فأجاب الله تعالى بقوله: ﴿ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾، أي: تمتعهم ومنفعتهم في الدنيا يزول عنهم عن قريب[٤]، وهو قليل أمام ما أعده الله لكم يوم القيامة في الجنة، عندما يكون هؤلاء المفترين في العذاب الأليم الذي لا يقادر قدره.

ففي الآية تحذير للمسلمين وتربية لهم ليتأدبوا مع شرع الله تعالى، وأن يقفوا عند حدود الله تعالى، ولا ينخدعوا بالمصطلحات التي تدخل عليهم لتحليل الحرام وتحريم الحلال؛ كالتطوير والتحديث والمعاصرة والتجديد وما أشبه ذلك، فإنها

---

(١) انظر: الرازي ٢٠/ ١٠٥، ابن عادل ٢/ ٣٤٨.

(٢) وهذا على الوجه الأول من إعرابها على أن الكذب مفعول به لـ تصف، وقوله لما تصف علة للنهي، انظر: معاني الزجاج ٣/ ٢٢٢، الدر المصون ٧/ ٢٩٧، الرازي ٢٠/ ١٠٥، ابن عادل ٢/ ٣٤٩، للتوسع في الوجوه الأخرى ومناقشتها نحوياً.

(٣) انظر: نظم الدرر ١١/ ٢٧٠.

(٤) انظر: معاني الزجاج ٣/ ٢٢٢، الرازي ٢٠/ ١٠٦.



لم تضمن احترام شرع الله سبحانه، بل تجرأت عليه بالتحريف والتزوير، فكان أصحابها مفسدين.

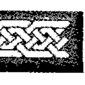
ثم بين الله تعالى أنه اختص اليهود بتحريم أشياء قصها عليهم من قبل أن يذكر ما حرمه على المسلمين(1)، **فقال تعالى:** ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ﴾، وهذه المحرمات تقدم ذكرها قبل في ذكر آيات الأنعام المكية، ثم بين سبحانه أنه ما ظلمهم بتحريم ما حرمه عليهم، ولكنهم بغوا واعتدوا؛ فعاقبهم؛ فقال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ ، كما قال تعالى: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾ [النساء: ١٦٠].. ولما كان بعض من أسلم قد شارك المشركين أيام الجاهلية بتحريم أشياء على أنفسهم، وخافوا على أنفسهم قوارع الذم لأجل ذلك؛ طمأن الله نفوسهم وأراح بالهم؛ وطمَّع المشركين في التوبة والدخول في الإسلام(2)، فقال تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓاْ ﴾، أي: إن الذي عمل ما لا ينبغي من الكفر والمعصية؛ بسبب عدم المعرفة بحكمه، أو بسبب غلبة الشهوة، أو الشبهة على العقل؛ ثم تاب إلى الله ورجع إليه، وأصلح ما أفسده بجهله، وأصلح جهل نفسه فتعلم(3): ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

---

(١) انظر: الرازي ٢٠/ ١٠٦، الدر المصون ٧/ ٣٠٠.

(٢) انظر: التحرير والتنوير ١٤/ ٣١٣.

(٣) انظر: الرازي ٢٠/ ١٠٧، التحرير والتنوير ١٤/ ٣١٣.



المسلمون ملة إبراهيم.. ونحلتهم التوحيد والشكر

٣٤- ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٢١) وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٢٢) ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٣) إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٢٤) ﴾.

* مناسبة الآيات:

لما بين الله تعالى أن التوحيد والشكر والتزام الشرع أساس السعادة والأمن والاستقرار للمؤمنين، وضرب لهم مثلاً في القرية التي كفرت بعدما إيمانها؛ ذكر الله لهم إبراهيم، وذكر من صفاته ما يبرز المطلوب من المسلمين، كالقنوت، والميل إلى الحق، والتوحيد، وشكر النعم، وذكر فضله تعالى عليه؛ ليكونوا على قدم إبراهيم؛ وذلك على عادة القرآن في تربية المسلمين؛ بأن يتبع كل سنة ربانية في الأرض بمثال حقيقي من سير الأنبياء أو الأمم السابقة تطبيقاً لهذه السنة، يعتبر بها المسلمون، والله أعلم.

* غريب الآيات:

أُمَّة: معناها في قوله: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾، أي: قائماً مقام جماعة في عبادة الله، نحو قولهم: فلان في نفسه قبيلة.[1]

---

(١) انظر: المفردات صـ٢٣ أم.



قَانِتًا: القنوت لزوم الطاعة مع الخضوع.[١]

حَنِيفًا: الحَنْف: هو ميل عن الضلال إلى الاستقامة.

والحنيف: هو المائل إلى ذلك.[٢]

اجْتَبَاهُ: الاجتباء: الجمع على طريق الاصطفاء، واجتباء الله العبد؛ تخصيصه إياه بفيض إلهي؛ يتحصل له منه أنواع من النعم بلا سعي من العبد، وذلك للأنبياء وبعض من يقاربهم من الصديقين والشهداء.[٣]

مِلَّةَ: الملة كالدين، وهو اسم لما شرع الله تعالى لعباده على لسان الأنبياء؛ ليتوصلوا به إلى جوار الله، والفرق بينها وبين الدين؛ أن الملة لا تضاف إلا إلى النبي عليه الصلاة والسلام الذي تسند إليه؛ نحو: ﴿فَٱتَّبِعُوٓاْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ ولا تكاد توجد مضافة إلى الله ولا إلى آحاد أمة النبي صلى الله عليه وسلم، ولا تستعمل إلا في حملة الشرائع دون آحادها.[٤]

* تفسير الآيات:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

لقد وصفت الآيات إبراهيم عليه السلام بخمس صفات:

---

(١) انظر: المفردات صـ٤١٣ قنت.

(٢) انظر: المفردات صـ١٣٣ حنف.

(٣) انظر: المفردات صـ٨٧ جبى.

(٤) انظر: المفردات صـ٤٧١ ملل.

إحداها: أنه كان أمة، وهو (وصفٌ بديع جامع لمعنيين:

➢ أحدهما: أنه كان في الفضل والفتوة والكمال بمنزلة أمّة كاملة.

➢ والثاني: أنه كان أمّة وحده في الدين؛ فهو الذي أحيا الله به التوحيد، وبثّه في الأمم والأقطار، وبنَى له معلماً عظيماً وهو الكعبة، ودعا الناس إلى حجّه لإشاعة ذكره بين الأمم، ولم يزل باقياً على العصور).(١)

والصفة الثانية في إبراهيم: أنه كان ملازماً للطاعة والخضوع لشرع الله تعالى.

والصفة الثالثة: أنه كان حنيفاً طاهراً في نفسه وقلبه، مائلاً إلى الحق متجهاً بكله إليه، لا ينحرف إلى الباطل.

والصفة الرابعة: أنه لم يكن من المشركين، (ونُفي كونه من المشركين بحرف: «لم»؛ لأن «لم» تقلب زمن الفعل المضارع إلى الماضي، فتفيد انتفاء مادة الفعل في الزمن الماضي، وتفيد تجدّد ذلك المنفي؛ الذي هو من خصائص الفعل المضارع فيحصل معنيان: انتفاءُ مدلول الفعل بمادته، وتجدّد الانتفاء بصيغته، فيفيد أن إبراهيم عليه السلام لم يتلبّس بالإشراك قط، فإن إبراهيم عليه السلام لم يشرك بالله منذ صار مميّزاً، وأنه لا يتلبّس بالإشراك أبداً).(٢)

والصفة الخامسة: شاكراً لأنعمه، وهو مدح له عليه السلام، وتعريض لذريته من المشركين وخاصة العرب المنتسبين لملته.

---

(١) انظر: التحرير والتنوير ١٤/ ٣١٥، ٣١٦.

(٢) انظر: التحرير والتنوير ١٤/ ٣١٦.





وأنعم جمع قلة، والتعبير بجمع القلة فائدته أنه إن كان شاكراً لجميع نعم الله تعالى القليلة فكيف الكثيرة!.[١]

وقد يسأل سائل:

كيف جمع إبراهيم عليه السلام كل هذه الصفات؟![٢]

فكان الجواب في قوله تعالى: ﴿ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، أي: اختاره واصطفاه للنبوة اختياراً كاملاً تاماً، وأرشده إلى دين الحق والتوحيد والحنيفية توفيقاً منه سبحانه وتعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾، وهي الرسالة، ورزقه أولاداً أبراراً على كبر[٣]، وجعل النبوة في ذريته[٤] ومنهم خير الخلق وخاتم الأنبياء سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وجعله إماماً معظماً لجميع أهل الملل، فجمع القلوب على محبته، وجعل له فيهم لسان صدق، قال قتادة: (حببه إلى كل الخلق).[٥]

ويدخل أيضاً في ذلك قول مقاتل: (هو قول المصلي اللهم صل على محمد وآل محمد كما صليت على إبراهيم).[٦]

---

(١) انظر: الرازي ٢٠/ ١٠٨، ابن عادل ٢/ ٣٦١.

(٢) انظر: نظم الدرر ١١/ ٢٧٤.

(٣) البغوي ٣/ ٨٩، ابن عادل ٢/ ٣٦١.

(٤) نظم الدرر ١١/ ٢٧٤.

(٥) الرازي ٢٠/ ١٠٨.

(٦) البغوي ٣/ ٨٩، زاد المسير ٤/ ٣٦٨.



(ولما كانت عظمة الدنيا لا تعتبر إلا مقرونة بنعمة الآخرة)[١]؛ قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾، أي: في أعلى مقامات الصالحين[٢]، (واختير هذا الوصف إشارة إلى أن الله أكرمه بإجابة دعوته، إذ حكى عنه أنه قال: ﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [الشعراء:٨٣]).[٣]

ولما وصف إبراهيم بهذه الصفات العالية الشريفة، بما هو داع لكل من سمعها إلى اتباعه، وكانت كالمقدمة الممهدة للأمر الذي بعدها[٤]، صرح بالأمر به تنبيهاً على زيادة عظمته (بأمر متباعد في الرتبة على سائر النعوت التي أثنى عليه بها، وذلك كونه صار مقتدى لأفضل ولد آدم، مشيراً إلى ذلك بحرف التراخي الدال على علو رتبته بعلو رتبة من أمر باتباعه فيما مهده؛ مما أمر به من التوحيد والطريق الواضح السهل فقال سبحانه)[٥]: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، وفي ذلك تنويه بأن الذين ادعوا اتباع ملة إبراهيم من المشركين عموماً؛ ومن العرب خصوصاً؛ قد أخطأوها، وحادوا عنها.

وجملة: ﴿أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾، تفسير للوحي، وليس المراد اتباع تفاصيل شرع إبراهيم، بل إن الموحى به هو الشرع المنزل إلى خاتم الرسل صلى الله عليه وسلم القائم

---

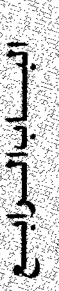
(١) نظم الدرر ١١/ ٢٧٤.

(٢) ابن عادل ٢/ ٣٦١.

(٣) التحرير والتنوير ١٤/ ٣١٧.

(٤) انظر: ابن عادل ٢٠/ ٣٦٢، نظم الدرر ١١/ ٢٧٤.

(٥) انظر: نظم الدرر ١١/ ٢٧٤، التحرير والتنوير ١٤/ ٣١٨.





على أصول ملة إبراهيم من الدعوة إلى التوحيد، والأصول الكلية المتفق عليها في الشرائع كالعدل والإحسان التي لم تنسخ.[1]

ولما (نفت الآية قبل هذه أن يكون إبراهيم عليه السلام من المشركين ردّاً على مزاعم العرب المشركين أنهم على ملّة إبراهيم، انتقل بهذه المناسبة إلى إبطال ما يشبه تلك المزاعم، وهي مزاعم اليهود أن ملّة اليهودية هي ملّة إبراهيم؛ زعماً ابتدعوه حين ظهور الإسلام جحداً لفضيلةٍ فاتتهم، وهي فضيلة بناء دينهم على أول دين للفطرة الكاملة حسداً من عند أنفسهم)[2]، فقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ ، وذلك أن اليهود كانوا أكثر الناس مخالطة لهم؛ ولذلك لم تتعرض للنصارى كما في السور المدنية، مع أنهم نازعوا في إبراهيم، وجعلوه منهم، كما أخبر الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[آل عمران:٦٥].

ثم قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [آل عمران:٦٧].

يقول ابن عاشور: (وليس معنى فِعل ﴿ٱخْتَلَفُوا۟ ﴾ وقُوع خلاف بينهم بأمر السبت؛ بل فعل ﴿ٱخْتَلَفُوا۟ ﴾ مرادٌ به خالفوا، كما في قول النبي صلى الله عليه وسلم (واختلافهم على أنبيائهم)، أي: عملهم خلاف ما أمر به أنبياؤهم، فحاصل المعنى

(١) ينظر: الرازي ٢٠/ ١٠٩، التحرير والتنوير ١٤/ ٣١٩.

(٢) التحرير والتنوير ١٤/ ٣٢١.



هكذا: ما فُرض السبت على أهل السبت إلا لأنهم لم يكونوا على ملّة إبراهيم، إذ مما لا شكّ فيه عندهم أن ملّة إبراهيم ليس منها حرمة السبت ولا هو من شرائعها).[1]

أقول: ويؤيد ذلك حديث النبي صلى الله عليه وسلم: «ثم هذا يومهم الذي فرض الله عليهم، يعني يوم الجمعة، فاختلفوا فيه؛ فهدانا الله له، والناس لنا فيه تبع، اليهود غداً والنصارى بعد غد».[2]

أما ما ورد من اختلافهم على السبت بسبب عدم وجود خلق فيه فعاقبهم الله بالتشديد عليهم بحرمة السبت، كما روى ذلك الكلبي عن ابن عباس[3]، فهو كما قال ابن عاشور: (لا يصح عنه، كيف وقد قال الله تعالى: ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُواْ فِي ٱلسَّبْتِ﴾ [النساء:١٥٤]، وكيف يستقيم أن يعدل موسى عليه السلام عن اليوم الذي أمر الله بتعظيمه إلى يوم آخر؛ لشهوة قومه وقد عُرف بالصلابة في الدين).[4]

ثم بين الله تعالى أنه هو الذي يفصل بينهم يوم القيامة؛ فيبين الحق فيما كانوا فيه يختلفون فقال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾، سواء كان ما اختلفوا فيه هو السبت أو غيره كاختلافهم في عبادة العجل، واختلافهم في عزير، وما يزالون مختلفين بعيدين عن رحمة الله.[5]

---

(١) التحرير والتنوير ١٤/ ٣٢٣.

(٢) أخرجه البخاري في الجمعة باب فرض الجمعة (٨٦٣)، ومسلم في الجمعة، باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة (٨٥٥).

(٣) انظر: البغوي ٣/ ٩٠، زاد المسير ٤/ ٣٦٩، الرازي ٢٠/ ١٠، ابن عادل ٢/ ٣٦٤.

(٤) التحرير والتنوير ١٤/ ٣٢٤.

(٥) انظر: زهرة التفاسير ٨/ ٤٣٠٣.



منهج الدعوة إلى الله تعالى

٣٥- ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾.

*** مناسبة الآيات:**

لما بين في الآيات السابقة أن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم على ملة إبراهيم؛ أمرهم هنا بالدعوة إلى السبيل الحق والصراط المستقيم؛ تثبيتاً لهم حتى لا ييأسوا من معاداة المشركين وافتراءاتهم في قولهم إنما يعلمه بشر وإنما أنت مفتر، وغير ذلك من أفعالهم المثبطة عن القيام بواجب الدعوة إلى الله، وأن يجعلوا ما في هذه السورة من تعداد النعم، وذكر العلوم المختلفة؛ حجةً ودليلاً يستصحبونه في دعوتهم، وختم الآيات بالأمر بالصبر والإحسان الذي أمروا بها في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ﴾، والله أعلم.(١)

---

(١) ينظر: نظم الدرر ١١/ ٢٧٨، الرازي ٢٠/ ١١١، التحرير والتنوير ١٤/ ٣٢٥.

*** غريب الآيات:**

الْحِكْمَة: أي المقالة المحكمة الصحيحة وهو الدليل الموضح للحق المزيح للشبهة.[١]

عاقبتم: المعاقبة الجزاء على فعل السوء بما يسوء فاعل السوء.[٢]

ضَيْقٍ: الضِيق بكسر الضاد يقال في قلة العيش والمسكن والشدة، والضَيق بالفتح ما كان في القلب من غم أو هم.[٣]

*** تفسير الآيات:**

قوله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾:

لقد أمر الله تعالى رسوله أن يتبع ثلاثة طرق في دعوته وهو خطاب للأمة من خلال رسولها ﷺ:

الطريقة الأولى: بالحكمة، وهي اسم جامع لكل كلام أو علم يراعى فيه إصلاح حال الناس واعتقادهم إصلاحاً مستمراً لا يتغيّر[٤]، أي: دعوة متلبسة بالحجج والبراهين القطعية المفيدة للعقائد اليقينية[٥]، وذلك عن طريق (معرفة حقائق الأشياء

---

(١) أبو السعود ٥/ ١٥١.

(٢) التحرير والتنوير ١٤/ ٣٣٥.

(٣) انظر: المجاز لأبي عبيدة صـ٣٦٩، الرازي ٢٠/ ١١٤، ابن عادل / ٣٧٥.

(٤) التحرير والتنوير ١٤/ ٣٢٧.

(٥) انظر: الرازي ٢٠/ ١١١. الدر المصون ٧/ ٣٠٢.



على ما هي عليه بحسب الطاقة البشرية، بحيث لا تلتبس على صاحبها الحقائق المتشابهة بعضها ببعض ولا تخطىء في العلل والأسباب).[١]

الطريقة الثاني: بالموعظة الحسنة، أي: متلبسة بالخطابات المقنعة، وبالأمارات الظنية والدلائل الإقناعية والعبر النافعة، وهي أخص من الحكمة، لأنها في أسلوب خاص موصوف بالحسن.[٢]

الطريقة الثالثة: المجادلة بالتي هي أحسن، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [العنكبوت:٤٦]، وذلك بأن يكون الدليل مركباً من مقدمات مسلمة عند الخصم، ونتائج تلزمه بها، أو على سبيل المناظرة بالرفق واللين وتبادل الحجج كما فعل إبراهيم عليه السلام الذي سبق ذكره في الآيات السابقة.[٣]

وقد جمعت سورة النحل هذه الطرق الثلاث إذ ذكرت الحقائق اليقينية وأسلوب الترغيب والترهيب وذكرت شبه المشركين وناقشتها، وردتها بأسلوب علمي وفطري ونفسي، والقرآن كله بيان لهذه الطرق الثلاث أيضاً.

يقول ابن عاشور رحمه الله: (ومن الإعجاز العلمي في القرآن أن هذه الآية جمعت أصول الاستدلال العقلي الحقّ، وهي: البرهان، والخطابة، والجَدل المعبّر عنها في علم المنطق بالصناعات، وهي المقبولة من الصناعات، وأما السفسطة والشعر فيَرْبَأُ عنهما

---

(١) التحرير والتنوير ١٤/ ٣٢٧.

(٢) انظر: الرازي ٢٠/ ١١١، أبو السعود ٥/ ١٥١. التحرير والتنوير ١٤/ ٣٢٧.

(٣) انظر: الرازي ٢٠/ ١١١، أبو السعود ٥/ ١٥١.

الحكماء الصادقون بله الأنبياء والمرسلين، والآية جامعة لأقسام الحجّة الحقّ جمعاً لمواقع أنواعها في طرق الدعوة، ولكن على وجه التّداخل، لا على وجه التباين والتقسيم كما هو مصطلح المنطقيين، فإن الحجج الاصطلاحية عندهم بعضها قسيم لبعض، فالنسبة بينها التبايُن، أما طرق الدعوة الإسلامية؛ فالنسبة بينها العموم والخصوص المطلق أو الوجهي.

فإلى الحكمة ترجع صناعة البرهان؛ لأنه يتألف من المقدمات اليقينية، وهي حقائق ثابتة تقتضي حصول معرفة الأشياء على ما هي عليه.

وإلى الموعظة ترجع صناعة الخطابة لأن الخطابة تتألف من مقدّمات ظنّية لأنها مراعى فيها ما يغلب عند أهل العقول المعتادة، وكفى بالمقبولات العادية موعظة.

وأما الجدل فما يورد في المناظرات والحجاج من الأدّلة المسلّمة بين المتحاجَيْن أو من الأدّلة المشهورة، فأطلق اسم الجدل على الاستدلال الذي يروج في خصوص المجادلة، ولا يلتحق بمرتبة الحكمة. وقد يكون مما يُقبل مثله في الموعظة لو ألقي في غير حال المجادلة. وسمّاه حكماء الإسلام جدلاً تقريباً للمعنى الذي يطلق عليه في اللغة اليونانية).[1]

ثم علل القرآن الاستمرار بالدعوة مع بيان عدم تحمل الداعي مسؤولية من عاند، فقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾، أي: إن الذي أمرك بالدعوة وتعهد بحفظك ورعايتك؛ أعلم بمن هو ضال على

---

(١) التحرير والتنوير ١٤/ ٣٣١، ٣٣٢. وهذا الكلام النفيس يصلح أصلاً في الجدل القرآني.

الحقيقة، ومن هو مهتد على الحقيقة، لا هؤلاء الذين يظنون أنهم مهتدون وأنكم ضالون؛ ويزعمون العلم وامتلاك الحجة والبرهان.[١]

(والتخلّق بهذه الآية هو: أن كل من يقوم مقاماً من مقامات الرسول صلى الله عليه وسلم في إرشاد المسلمين، أو سياستهم؛ يجب عليه أن يكون سالكاً للطرائق الثلاث: الحكمة، والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، وإلا كان منصرفاً عن الآداب الإسلامية، وغير خليق بما هو فيه من سياسة الأمّة، ويخشى أن يعرّض مصالح الأمّة للتلف، فإصلاح الأمّة يتطلّب إبلاغ الحقّ إليها بهذه الوسائل الثلاث، والمجتمعُ الإسلامي لا يخلو عن متعنّت أو مُلَبّس، وكلاهما يُلقي في طريق المصلحين شَواكَ الشبه بقصد أو بغير قصد؛ فسبيل تقويمه هو المجادلة، فتلك أدنى لإقناعه وكشف قناعه).[٢]

ولما كان المقام مقام دعوة كما وصف في الآية السابقة، وكنتم أيها المسلمون قد تأذيتم من المشركين، أو ممن تدعونهم إلى سبيل الله تعالى، وأردتم معاقبتهم على ما نالكم من أذاهم فعاقبوهم بالعدل الذي أمرتم به في هذه السورة، ولا تتجاوزا الحد فيه[٣]؛ فقال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾، وقد تقدم أنها نزلت في قصة التمثيل بحمزة رضي الله عنه، ومثلها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا

---

(١) انظر: الرازي ٢٠/ ١١٢، التحرير والتنوير ١٤/ ٣٣٣.

(٢) انظر: التحرير والتنوير ١٤/ ٣٣٤.

(٣) انظر: الرازي ٢٠/ ١١٣، نظم الدرر ١١/ ٢٨١، التحرير والتنوير ١٤/ ٣٣٥.

يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَئَانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة:٨].

ثم رغبهم بالصبر على أذى الأعداء ولؤمهم لما في ذلك من استجلاب قلوبهم وبيان محاسن الدعوة إلى الله تعالى وأن هذا الصبر مع شدته وإيلامه لا يضيعه الله عز وجل فقال: ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ أي: وما كان هذا الصبر إلا بتوفيق الله تعالى ومعونته، وهذا السبب الكلي والأصلي في حصول جميع أنواع الطاعات(١)، ثم نهاه عن الحزن عليهم إن لم يؤمنوا، وأن لا يضيق صدره بالكدر والهم والجزع من تدبيرهم لإيذائه وإيذاء المسلمين، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾.

ثم بين الله تعالى أن صبرهم وتركهم ردَّ العقوبة؛ ليس ضعفاً في الدعوة، ولا خذلاناً في نصرة المؤمنين، فإن الأيام دائرة، والعبرة بنتائج الأعمال، لأن الله معزُّ دينه ورافعُ كلمته، وحافظ أوليائه، وناصر عباد، لأن سنته سبحانه وتعالى كما قال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ أي: إن الله الذي خلق الإنسان والسموات والأرض والأنعام، وسخر الشمس والقمر والنجوم والجبال، وأخرج بلطفه اللبن من بطون الأنعام، والشراب من بطون النحل، وجعل من الجبال أكناناً، وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم، فعلمتم من كل ذلك عظمته وقدرته

---

(١) انظر: الرازي ٢٠/ ١١٤، ابن عادل ٢/ ٣٧٤.

وجبروته؛ إنه مع الـذين يتقونـه؛ فيقفـون عنـد حـدوده، ومـع الـذين هـم ثـابتون في إحسانهم، لا يتغير إحسانهم لرسوخه في نفوسهم.[1]

تمّ تفسير سور النحل
بحمد الله تعالى وفضله

(١) ينظـر: الـرازي ٢٠/ ١١٤، ابـن عـادل ٢/ ٣٧٦، التحريـر والتنـوير ١٤/ ٣٣٨، ٨/ ٤٣٠٨، ٤٣٠٩.

الخاتمة

النتائج والتوصيات



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حمداً يليق بعلمه وكرمه سبحانه، والصلاة والسلام على سيد الخلق نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:.

فإني أحمد الله تعالى على تمام النعمة وإتمام البحث، وأسأله تعالى أن أكون قد وفقت في خدمة كتابه ووفقت إلى الحق، وأن أكون قد ساهمت في وضع ضوابط علمية عملية تنضبط بها مسيرة التفسير العلمي والإعجاز العلمي للقرآن الكريم.

لقد حان الآن أن أذكر أبرز نتائج هذه الدراسة العلمية، وقد قسَّمتها إلى نتائج للدراسة التاريخية، ونتائج للدراسة العلمية، ثم ختمت هذه النتائج بمجموعة توصيات لعلّها ترى طريقها إلى التطبيق فتكون سبباً للنهوض وترسيخ القواعد العلمية.

وأودّ أن أؤكد في ختام البحث على أهمية العناية بضوابط التفسير والإعجاز العلمي في القرآن الكريم واستمرار البحث العلمي في ضوئها، والله الهادي للصواب.

أولاً: النتائج:

أ- أبرز نتائج الدراسة التاريخية:

١ - كان ابتداء التفسير العلمي عند السلف الصالح رضي الله عنهم يتجه نحو استنباط المعارف المتعددة من القرآن الكريم، وكان يساعدهم على هذا الأمر فصاحتهم ومعرفتهم بأساليب العرب في الكلام ومعاينة التنزيل وقرب عهدهم بالرسول صلى الله عليه وسلم، وكانت لهم اجتهاداتهم بذلك بغض النظر عن كونهم أصابوا أم لا.

٢ - إن التطور العلمي والنتاج الثقافي كان له الأثر الكبير على تطور اتجاهات التفسير، فقد رأينا أن التفسير العقلي واستخدام العلوم في تفسير القرآن نشط في زمن التعريب والترجمات والاحتكاك بالثقافات الأخرى، ولذلك لا بد من دراسة تاريخ التفسير مقروناً مع الحالة العلمية لكل فترة زمنية مر بها.

٣- برز على الساحة ثلاثة مواقف أساسية نحو التفسير العلمي:

- **أحدها**: موقف المفرطين في الاشتغال به والدعوة إليه.

- **وثانيها**: موقف المفرطين في رفضه والتنفير منه، وثالثها: موقف المتوسطين بينهما.

٤ - عُدَّ المشتغلون بمنهج التفسير العلمي المتطرف في العصر الحديث من رواد الإصلاح والنهضة، وأن طريقتهم كانت من أمثل طرق الإصلاح، إلا أن الجدير بالملاحظة في منهج رؤوسهم كسيد خان والشيخ محمد عبده ورشيد رضا وطنطاوي جوهري أنهم خرجوا على قواعد العلم وعلى أصول التفسير، وتأثروا بالنزعة الغربية المادية، حتى أنهم كانوا ينكرون المعجزات ويؤولونها تأويلاً يساير العقل والتفكير

المادي، ويوافق قوانين الحضارة المادية التي عاشوا أوجها في القرن التاسع عشر الميلادي وكانوا مشغوفين بها، فكان من نتائج هذا المنهج بروز اتجاهات باسم الإسلام تطعن به.

ب- أبرز النتائج العلمية:

١- العلم الذي نوه به القرآن وحفلت به آياته يشمل كل معرفة تنكشف بها حقائق الأشياء وتزول به غشاوة الجهل والشك عن عقل الإنسان سواء كان موضوعه الكون والطبيعة ؛ أم كان موضوعه الإنسان أو الوجود بأسره أو كان موضوعه الغيبيات ، وسواء كانت وسيلة معرفته الحس والتجربة أو كانت وسيلته العقل والبرهان أو كانت وسيلته الوحي والنبوة .

٢- تعريف التفسير العلمي هو: (بيان معاني القرآن الكريم باستنباط مختلف العلوم الكونية والنفسية والعقلية، أو بتوظيف العلوم التطبيقية والبحثية والمعارف التجريبية الصحيحة بقدر الطاقة البشرية وفق القواعد الشرعية المقررة).

٣- إن التفسير العلمي هو وجه من أوجه التفسير بالرأي فإن كان منضبطاً بالأصول العلمية للتفسير فهو رأي محمود، وإلا كان مذموماً.

٤- إن التفسير العلمي يدخل في التأويل من جهة توسيع مدلولات النص القرآني، من حيث صرف الآية إلى ما تحتمله من المعاني، بشرط أن يكون هذا التوسيع له دليل معتبر يؤيده وفق القواعد الشرعية.

٥- تعريف الإعجاز العلمي: سبق القرآن الكريم بزمن بعيد في الإشارة إلى حقائق في شتى مناحي العلم قبل اكتشاف العلم التجريبي لها واستقراره على اعتمادها.

٦- التفسير العلمي مقدمة ضرورية للوصول إلى الإعجاز العلمي، ولذلك فإن ما يشترط للتفسير العلمي هو من شروط الإعجاز العلمي.

٧- كل إعجاز علمي هو في الأصل تفسير علمي، ولكن ليس التفسير علمي هو إعجاز علمي.

٨- يجوز في التفسير العلمي استخدام النظريات التي غلب عليها الظن العلمي أنها صحيحة، أما الإعجاز العلمي فلا يجوز استخدام غير الحقائق العلمية المستقرة.

٩- ضوابط التفسير العلمي هي: مجموع القواعد العلمية التي يجب على المفسر الالتزام بها في التفسير العلمي.

١٠- وهذه الضوابط قسمتها إلى شروط وأركان:

أما الشروط: فهي الضوابط التي ينبغي أن تتوافر قبل المباشرة في عمل التفسير العلمي، لذلك فإن الضوابط المتعلقة بالباحث - ويدخل فيها الأدوات التي يحتاج إليها المفسر -، والضوابط المتعلقة بالبحث العلمي هي شروط التفسير العلمي

وأما الأركان: فهي التي ينبغي أن تكون موجودة في عملية التفسير العلمي، وهو الضابط الثالث من ضوابط التفسير العلمي.

١١- يقسم تفسير السلف رضي الله عنهم من حيث الاحتجاج إلى ثلاثة أقسام:

➢ **أحدها:** ما له حكم الرفع، وهو ما نقل عنهم في تفسير القرآن مما لا يدخل في الاجتهاد والاستنباط، كأسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، والكلام في العبادات وتفسير الغيبيات ونحو ذلك .



➢ **الثاني**: ما كان مجمعاً عليه من معاني القرآن الكريم، سواء كان الإجماع في عهد الصحابة أو التابعين أو تابعيهم،لأن هذا الإجماع إنما قام على دليل توقيفي، فهو حجة لازمة.

➢ **الثالث**: ما كان باجتهادهم ورأيهم، وفيه المنقول عن الصحابة رضي الله عنهم، ولكن غالبه المنقول عن التابعين وتابعيهم.

١٢- إن كان التفسير من الصحابة أو التابعين وتابعيهم مبنياً على معارف عصرهم أو كان اجتهاداً من اجتهاداتهم؛ أو من قبيل التمثيل على معنى من المعاني المحتملة، مع احتمال معانٍ أخرى قد تكون أقوى من اجتهادهم وما ذهبوا إليه، فهذا لا نعتبره حجة لا يجوز الاعتراض عليه أو رده، بل هو نوع اجتهاد يناقش، يكون قابلاً للصواب والخطأ حسب القواعد المقررة في علم التفسير.

١٣- يجب على المفسر في التفسير العلمي الاحتراز عن الإسرائيليات، فهي ليست مصدراً من مصادر التفسير.

١٤- يجب ضبط المعارف العلمية من المختصين بها وبيان درجة صدقيتها، وقربها من الحقيقة دون خلفيات سياسية أو عقائدية أو فكرية، والابتعاد عن الشطط في تهويلها لإقناع الناس بتصور ما؛ خدمةً لأهداف غير علمية، وينبغي أن يقوم بذلك مؤسسات علمية موثوق بها لها استقلالها العلمي، وحبذا يكون ذلك في إحدى البلاد الإسلامية ومن علماء المسلمين.

١٥- يجب على المشتغل بالتفسير والإعجاز العلمي أن يراعي علوم العربية والقرآن، وأصول الفقه والمعاني في دراسة القرآن الكريم واستنباط علومه من دلالاته،



كما ينبغي أن يراعي مراتب الدلالة وأنواعها، وأن لا يخرج عن المشهور إلى الأقوال الشاذة والبعيدة لتطويع القرآن لقضية علمية لا يدل عليها.

١٦- إن التطبيق العملي لضوابط التفسير العلمي في سورة النحل أظهر أهمية انضباط المفسرين بها ليكون التفسير صحيحاً، وأن العلوم خادمة لكتاب الله تعالى، مبينة لأسرار نظمه ومعانيه، ومرجحة لما اختلفت فيه الأقوال من التفاسير.

١٧- ليس للتفسير العلمي منهج واحد يوجب على المفسرين القيام به، بل إن طبيعة كل بحث ومقصده يرجح على المفسر منهجاً من مناهج التفسير، فقد طبقنا في تفسير سورة النحل منهج التفسير الموضوعي، كما طبقنا منهج التفسير التحليلي وكان أعمقها وأكثرها فائدة، وطبقنا منهج التفسير الإجمالي، وقد تتداخل ملامح هذه المناهج كلها في التفسير العلمي، فالمهم هو التفسير بالمنهج العلمي الصحيح، وليس تطبيق منهج معين.

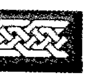
١٨- إن دلالة القرآن على العلوم تتدرج من أعم إلى عام، هكذا حتى تصل إلى الدلالة على قضية بعينها، وقد بيّن البحث أنها على أربعة أقسام وهي:

١) دلالة مفتوحة. ٣) دلالة عامة.

٢) دلالة أعم العام. ٤) دلالة خاصة.

١٩- أظهرت الدراسة التطبيقية في سورة النحل للباحث أن التفسير العلمي يتجلى في مظهرين:

➢ **أحدهما**: أن تنقدح لمختص في علم من العلوم في أثناء قراءته للقرآن وتدبره له فكرة علمية في آية، أو أصل علمي في آية أو أكثر، فعليه حينها أن يبحث فكرته مع



مختص بالتفسير وطرق الاستنباط؛ ليصحح له طريقة البحث والاستدلال، أو يبين له مدى مطابقة استدلاله للفكرة العلمية مع ما تدل عليه الآية.

➢ **ثانيتهما**: أن يظهر للمفسر المختص بعلم التفسير أو طرق الاستنباط أثناء تفسيره أو قراءته للقرآن تساؤلات حول مسائل علمية أثارتها الآية القرآنية، فعليه في هذه الحالة مباحثة قيمة المعلومات التي استنبطها من الآيات، ومراجعها وتفاصيلها ليحسن استثمارها، وهذا النوع الثاني من تجليات التفسير العلمي أقرب للصواب وأبعد عن الخطأ، لأن مبدأ التفسير من مختص استنبط من الآية حسب القواعد المقررة، ثم استخدم العلوم ليقرر ما استنبطه ويشرحه، وكان أكثر ما استنبطته في سورة النحل على هذا النوجه الثاني.

ثانياً: التوصيات:

١- العمل على تطهير الوسط الثقافي والعلمي في المدارس والمناهج في البلاد الإسلامية والعربية من مفهوم العلم الوافد والمقتصر على الماديات والمفروض علينا ،وإعادة المصطلح الحقيقي للعلم في الإسلام.

٢- أن نبين بشكل متكرر مستمر أن ما نسميه (التفسير العلمي للقرآن) إنما هو منهج من مناهج تفسير القرآن، أو اتجاه من اتجاهاته له جذوره في التاريخ الإسلامي ، وهو يبحث في جزء من العلوم الإسلامية، ويراد به بيان سعة دلالة ألفاظ كلام الله تعالى واحتوائها لكل الأجيال إلى يوم القيامة.

٣- وجوب وجود لجنة علمية متخصصة في كل علم من العلوم تبين درجة النظريات الموجودة في الساحة العلمية للمفسرين، وينبغي على أهل التخصص أن يظهروا ما عندهم من علوم في سبيل تحقيق ذلك.

٤- تقرير مادة ضوابط التفسير العلمي والإعجاز العلمي مع تطبيقاته في الكليات والمعاهد الشرعية، لنشر هذه الضوابط وجعلها علماً ضرورياً في طلاب العلم، ومحاكمة الأبحاث والكتب في المكتبات والمجلات والمؤلفات على أساسها.

٥- تشكيل مؤسسة علمية ذات لجان علمية مختصة متعددة في جميع الاختصاصات، يرأس هذه اللجنة لجنة علمية شرعية من ذوي الاختصاص في التفسير، تقوم بتفسير القرآن كاملاً على أسس وضوابط التفسير، وتعمل على طبع ونشر أبحاث التفسير العلمي بجميع اللغات.

٦- متابعة الأبحاث والرسائل في قضية ضوابط التفسير العلمي على أساس عملي لا نظري والأخذ بعين الاعتبار تطبيقاتها العملية.

٧- إقامة دورات علمية تثقيفية للمختصين في غير العلوم الشرعية، يتعلمون في هذه الدورات ضوابط التفسير العلمي بلغة سهلة وأمثلة مختلفة، بقصد تحفيزهم وتوعيتهم بعجائب القرآن، وجعل ضوابط التفسير العلمي ثقافة مفتوحة ومتداولة ليصبح كل واحد ممن تعلمها حكماً على ما يسمع من أطروحات جديدة والله أعلم.

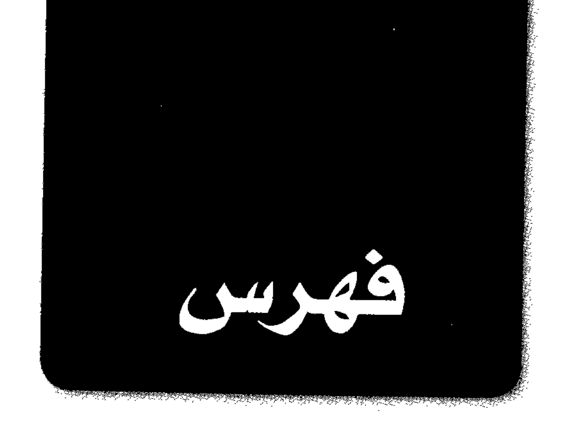
الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.. وصلى الله على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه وسلم.

ربّنا تقبّل منّا إنَّك أنتَ السّميع العليم..

وتُبْ علينا إنَّك أنتَ التَّواب الرّحيم..

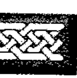
واجعل في هذا البحث نفعاً للأمّة إلى يوم الدّين.. آمين.





المصادر والمراجع





المصادر والمراجع

ذكرت هنا أسماء الكتب التي رجعت إليها والمشار إليها في البحث مبتدئاً باسم المرجع حسب الترتيب الألف بائي ثم مؤلفه ثم معلومات النشر.

١. ابن حجر ودراسة مصنفاته ومنهجه وموارده في كتابه الإصابة، د. شاكر محمود عبد المنعم، ط دار الرسالة بغداد.

٢. الإبهاج، علي بن عبد الكافي السبكي، تحقيق مجموعة من العلماء، ط دار الكتب العلمية بيروت، الأولى: ١٤٠٤ هـ.

٣. اتجاهات التجديد في تفسير القرآن الكريم في مصر، د. محمد إبراهيم شريف، ط دار التراث د.ت.

٤. اتجاهات التفسير في العصر الراهن، د. عبد المجيد عبد السلام المحتسب، ط مكتبة النهضة الإسلامية الأردن عمان، الثالثة: ١٤٠٢هـ.

٥. اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، د. فهد الرومي، ط إدارة البحوث العلمية والإفتاء في السعودية ، الأولى: ١٤٠٧ هـ.

٦. الاتجاهات الفكرية في التفسير، د. الشحات السيد زغلول، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب الإسكندرية الثانية: ١٣٩٧ هـ ١٩٧٧م.

٧. الاتجاهات المنحرفة في تفسير القرآن الكريم، دوافعها ودفعها ، د. محمد حسين الذهبي ، ط دار الاعتصام ، الثانية: ١٣٩٨، ١٩٧٨ .

٨. إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين، محمد بن مرتضى الزبيدي ط دار إحياء التراث العربي ١٩٩٤م.

٩.إتحاف المريد بشرح جوهرة التوحيد عبد السلام اللقاني، تحقيق محمد محيي الـدين عبد الحميد، تقديم محمد علي الإدلبي ط مكتبة الفلاح حلب الأولى: ١٩٩٠.

١٠. الإتقان في علوم القرآن، لجـلال الـدين للـسيوطي ط دار الفكـر بـيروت دون تاريخ، وأخرى ط السعودية د.ت.

١١. أثر الفكر الغربي في انحراف المجتمع المسلم في شبه القارة الهندية، تأليف خادم حسين إلهي بخش، ط دار حراء الأولى ١٩٨٨.

١٢. أثر القرآن الكريم في الأمن النفسي، ناهد عبد العال الخراشي، ط وكالة الأهرام مصر ١٩٨٧.

١٣. الأحاديث المختارة، المقدسي تحقيق عبد الملك بـن دهـيش، ط مكتبـة النهـضة الحديثة، مكة المكرمة أولى ١٤١٠.

١٤. إحكام الأحكام، لعلي بن محمد الآمدي، تعليق الشيخ عبد الرزاق عفيفـي، ط المكتب الإسلامي الثانية ١٤٠٢ هـ.

١٥. أحكام القرآن، أحمد بن علي الجصاص، ط دار الكتاب العربي د. ت.

١٦. أحكام القرآن، د. نور الدين عتر، منشورات جامعة دمشق ١٤١٥ هـ.

١٧. إحياء علوم الدين، محمد بن محمد الغزالي، ط دار المعرفة بيروت دون تاريخ.

١٨. أدب الكاتب محمد بن قتيبـة، تحقيـق محمـد طعمـة الحلبـي ط دار المعرفـة أولى ١٩٩٧.

١٩. الأدب المفرد، محمد بن إسماعيل البخاري ،ط دار الكتب العلمية تحقيـق محمـد عبد القادر عطا أولى ١٩٩٠.

٢٠. الأدب في العصر المملوكي، محمد زغلول سلام، ط دار المعارف د. ت.

٢١. الأدوية والقرآن الكريم، د. محمد محمد هاشم، ط الدار السعودية للنشر الأولى ١٩٨٣م.

٢٢. آراء المستشرقين حول القرآن الكريم وتفسيره "دراسة ونقد"، د. عمر إبراهيم رضوان، ط دار طيبة الرياض أولى ١٩٩٢م.

٢٣. إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، محمد بن محمد أبي السعود العمادي، ط دار إحياء التراث بيروت د.ت. وأخرى ط مكتبة الرياض الحديثة تحقيق عبد القادر أحمد عطا ١٤٠١هـ

٢٤. الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد، عبد الملك الجويني، تحقيق أسعد تميم ط مؤسسة الكتب الثقافية بيروت ١٤٠٥هـ.

٢٥. أزمة العصر،القرآن والمكتشفات العلمية، محمد محمد حسين، ط دار عكاظ الرياض ١٣٩٩.

٢٦. أساس البلاغة، محمود الزمخشري، تحقيق عبد الرحيم محمود، ط دار المعرفة بيروت ١٤٠٢هـ.

٢٧. الأساس في التفسير، سعيد حوى ط دار السلام مصر الأولى: ١٩٨٥.

٢٨. أساسيات هندسة الري والصرف، د. محمود حسان عبد العزيز، ط دار عكاظ جدة الأولى ١٤٠٠هـ.

٢٩. أسباب النزول، الواحدي، تحقيق السيد أحمد صقر، ط دار القبلة، الثانية ١٩٨٤، وطبعة أخرى مصطفى البابي الحلبي الثانية ١٩٦٨ وعنها صورت ط دار الكتب العلمية.

٣٠. الاستشراق رسالة الاستعمار، د. محمد إبراهيم الفيومي، ط دار الفكر العربي القاهرة ١٩٩٣.

٣١. الاستيعاب في معرفة الأصحاب، لابن عبد البر، على هامش الإصابة ط دار صادر.

٣٢. الإسرائيليات في التفسير والحديث، د. محمد حسين الذهبي ط دار الحديث ٢٠٠٥م.

٣٣. الإسرائيليات وأثرها في كتب التفسير، د. رمزي نعناعة ط دار القلم دمشق ودار البيضاء بيروت، الأولى ١٣٩٠هـ، ١٩٧٠م.

٣٤. الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، د. محمد بن محمد أبو شهبة، ط دار الجيل، أولى ١٤١٣ هـ.

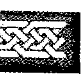
٣٥. أسس الإنتاج النباتي، تأليف نخبة من أعضاء هيئة التدريس بقسم الإنتاج النباتي كلية الزراعة، ط جامعة الملك سعود الرياض، أولى ١٩٨٦م.

٣٦. أسس علم البيئة النباتية، د عبد الفتاح بدر ود. عبد العزيز عبد الله قاسم ط جامعة الملك عبد العزيز الأولى ١٩٩٣م.

٣٧. الإسلام في القرن العشرين، عباس العقاد، ط دار الكتب الحديثة، الأولى ١٩٥٤.

٣٨. الإسلام في عصر العلم، محمد أحمد الغمراوي، ط دار السعادة ١٩٧٣.

٣٩. الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية، محمد عبده، ط دار المنار السابعة ١٣٦٧.



٤٠. إسهام علماء المسلمين في تطور علوم الأرض، د.زغلول النجار و د.علي عبدالله الدفاع، ط مكتب التربية العربي لدول الخليج ١٤٠٩هـ.

٤١. الإشارات العلمية في القرآن الكريم بين العلم والكون والإيمان، أحمد عبده عوض عبده ط المكتبة القيمة مصر ١٩٩٢.

٤٢. الإصابة في معرفة الصحابة، علي بن حجر العسقلاني ط دار صادر د.ت، وأخرى تحقيق طه محمد الزيني، ط مكتبة الكليات مصر الأولى١٩٧٦، وأخرى تحقيق محمد البجاوي ط دار الجيل أولى ١٤٢٢هـ.

٤٣. أصول التفسير وقواعده، خالد عبد الرحمن العك، ط دار النفائس ثالثة ١٤١٤ هـ.

٤٤. أصول الدين، عبدالقاهر أبو منصور البغدادي، ط مدرسة الإلهيات استنبول ١٩٢٨م.

٤٥. الإضاءة في بيان أصول القراءة، علي محمد الضباع، مراجعة محمد علي خلف ط عبد الحميد حنفي مصر د.ت.

٤٦. الإعجاز العلمي ضوابطه وتاريخه، د. عبد الحفيظ حداد، مطبوع على الآلة الكاتبة مستفاد من المؤلف.

٤٧. الإعجاز العلمي في القرآن تأصيل فكري وتاريخ ومنهج، سامي أحمد الموصلي ط دار النفائس بيروت الأولى ٢٠٠١.

٤٨. الإعجاز العلمي في القرآن والسنة تاريخه وضوابطه، د. عبد الله المصلح.ط هيئة الإعجاز العلمي ١٤١٧ هـ.

٤٩. الإعجاز العلمي في آيات السمع والبصر في القرآن، تأليف أ. د. صادق هلالي، ط رابطة العالم الإسلامي هيئة الإعجاز العلمي الأولى ١٤١٤هـ.

٥٠. الإعجاز العلمي للقرآن الكريم في علم النفس والتحليل النفسي، د. محمد رمضان ط مكتبة الشروق الدولية مصر الأولى ٢٠٠٦.

٥١. الإعجاز العلمي للقرآن الكريم في قصة أهل الكهف والرقيم، الدكتور مجدي إبراهيم السيد إسماعيل ط دار طيبة الخضراء د.ت.

٥٢. إعجاز القرآن الكريم بين الإمام السيوطي والعلماء دراسة نقدية مقارنة، د. محمد موسى الشريف، ط دار الأندلس الخضراء جدة الثانية ٢٠٠٢.

٥٣. إعجاز القرآن الكريم في وصف الرياح والسحاب والمطر، تأليف مجموعة من الدكاترة في كلية الأرصاد الجوية والبيئة وزراعة المناطق الجافة ط رابطة العالم الإسلامي مكة، هيئة الإعجاز العلمي ، الثانية ١٤٢١هـ

٥٤. إعجاز القرآن الكريم والبلاغة النبوية، لمحمد صادق الرافعي ط دار الكتاب العربي ١٤١٠.

٥٥. إعجاز القرآن في التركيب الكيميائي للَّبن، أ.د أحمد محمد الوصيف ط رابطة العالم الإسلامي، هيئة الإعجاز العلمي، الثانية ١٤٢١.

٥٦. إعجاز القرآن وأبعاده الحضارية في فكر النورسي عرض وتحليل، د. زياد خليل محمد الدغامين،ط دار النيل أزمير أولى ١٩٩٨ .

٥٧. إعجاز القرآن، لأبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني، تحقيق السيد أحمد صقر ط دار المعارف مصر ثالثة.

٥٨. إعجاز علم الحياة (البيولوجيا) في القرآن الكريم، لمحمود يحيى الخطيب، تقديم د. وهبة الزحيلي نشر المؤلف ط أولى ١٤٢٢ .

٥٩. الإعراب وأثره في ضبط المعنى دراسة نحوية قرآنية، إعداد الدكتورة منيرة بنت سليمان العلولا ط دار المعرفة الجامعية الإسكندرية ١٩٩٣.

٦٠. الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمغتربين والمستشرقين، محمد خير الدين الزركلي ط دار الملايين الخامسة ١٩٨٠.

٦١. الاقتراح في علم أصول النحو، لجلال الدين السيوطي عبد الرحمن بن أبي بكر، تحقيق د.أحمد محمد قاسم ط مصر، ١٩٧٦.

٦٢. الاقتصاد في الاعتقاد، محمد بن محمد الغزالي ط دار الكتب العلمية أولى ١٤٠٩هـ.

٦٣. الإقناع في القراءات السبع، لأحمد بن علي بن خلف الأنصاري ابن الباذش، تحقيق د عبد المجيد قطاش ط جامعة أم القرى مكة الثانية ١٤٢٢.

٦٤. الإكسير في علم التفسير، سليمان بن عبد القوي الطوفي، تحقيق د. عبد القادر حسين ط المطبعة النموذجية مصر ١٩٧٧.

٦٥. الإكليل في استنباط التنزيل، لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي تحقيق عامر العرابي ط دار الأندلس الخضراء جدة الأولى ٢٠٠٢.

٦٦. الألبان وتحليلها، د. إبراهيم الحجراوي، ط مكتبة الأنجلو المصرية، الأولى، د.ت .

٦٧. الأمالي في المشكلات القرآنية والحكم والأحاديث النبوية، الإمام أبو القاسم عبد الرحمن بن القاسم الزجاج ط دار الكتاب العربي لبنان د.ت.

٦٨. أمثال العرب المفضل بن محمد بن يعلى بن سالم الضبي، تحقيق إحسان عباس، ط دار الرائد العربي ، بيروت ،الطبعة الاولى ١٤٠١هـ .

٦٩. الأمثال القرآنية تأملات، عبد الرحمن حسن حبنكة، ط دار القلم دمشق أولى ١٩٨٠.

٧٠. الأمثال في القرآن الكريم، د.محمد جابر الفياض، ط الدار العالمية للكتاب الإسلامي الثانية١٤١٥هـ.

٧١. الأمثال في القرآن الكريم، لابن القيم الجوزية، تحقيق سعيد محمد نمر الخطيب ط دار المعرفة بيروت الثانية ١٤٠٣هـ.

٧٢. إنتاج اللبن واللحم، د. مصطفى كمال عمر حمادة ط دار المطبوعات الجديدة بمصر د.ت.

٧٣. الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به، أبو بكر الباقلاني ت محمد زاهد الكوثري ط دار الهجرة ثالثة ١٤٠٠هـ.

٧٤. أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب التنزيل، محمد بن أبي بكر الرازي صـ٢٥٨، تحقيق عبد الرحمن المنصوري ط عالم الكتب السعودية أولى ١٤١٢هـ

٧٥. إنه الحق محاورات علمية مع بعض رواد العلوم، أجراها عبد المجيد الزنداني ط مطبعة اليمامة حمص سوريا أولى ٢٠٠١.

٧٦. أهداف كل سورة ومقاصدها في القرآن الكريم، د. عبد الله شحاته ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦.

٧٧. الآيات البينات حاشية على شرح جمع الجوامع، لأحمد بن القاسم العبادي تحقيق زكريا عميرات ط دار الكتب العلمية الأولى ١٩٩٦.

٧٨. إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله عز وجل، محمد بن القاسم بن الأنباري، تحقيق محيي الدين رمضان، ط مجمع اللغة العربية دمشق، ١٩٧١م.

٧٩. باهر البرهان في معاني مشكلات القرآن، محمود بن أبي الحسن النيسابوري الغزنوي "بيان الحق" تحقيق سعاد بنت صالح بن سعيد بابقي ط جامعة أم القرى مكة ١٩٩٨.

٨٠. البحر المحيط في أصول الفقه، محمد بن بهادر الزركشي، تحقيق عبد القادر العاني ط الثانية وزارة الأوقاف الكويت ١٤١٣.

٨١. البحر المحيط، محمد بن يوسف بن حيان أبو حيان الأندلسي ط دار التراث العربي د.ت.

٨٢. البدء والتاريخ، مطهر بن طاهر ط مكتبة المثنى عن طبعة باريس ١٩٠٣.

٨٣. البداية والنهاية، محمد بن إسماعيل بن كثير تحقيق د. عبد الله التركي ط دار هجر مصر، الأولى ١٤١٧هـ، وأخرى ط دار الفكر بيروت.

٨٤. البدر الطالع، الشوكاني، تحقيق خليل منصور ط دار الكتب العلمية بيروت ١٩٩٨.

٨٥. بدع التفاسير في الماضي والحاضر، د. رمزي نعناعة ط مؤسسة نوار للنشر الرياض د.ت.

٨٦. البرهان في علوم القرآن، للزركشي، تحقيق يوسف المرعشلي، ط دار المعرفة أولى ١٩٩٠ وأخرى: تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ط عيسى البابي الحلبي ١٩٥٧ .

٨٧. بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب، العزيز محمد بن يعقوب الفيروزابادي ط المكتبة العلمية بيروت د.ت.

٨٨. بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، جلال الدين السيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ط عيسى البابي الحلبي أولى ١٩٦٥.

٨٩. البيان في ضوء أساليب القرآن، د. عبد الفتاح لاشين، ط دار المعارف مصر الثالثة ١٩٩٢م.

٩٠. بين العلم والدين عبد الرزاق نوفل، ط دار الشعب. د.ت.

٩١. تاج العروس شرح القاموس، محمد بن مرتضى الزبيدي ت عبد العليم الطحاوي ط الكويت.

٩٢. تاريخ الأدب العربي، كارل بروكلمان، ط الهيئة المصرية العلمية للكتاب مصر ١٩٩٥.

٩٣. التاريخ الإسلامي خلال أربعة عشر قرناً، د. إبراهيم الشريقي، ط مصر الثانية ١٩٧١.

٩٤. التاريخ الإسلامي، محمود شاكر ط المكتب الإسلامي الرابعة ١٤٢١هـ.

٩٥. تاريخ العلوم عند العرب، د عمر فروخ ود. ماهر عبد القادر ود حسان حلاق، ط دار النهضة العربية بيروت .

٩٦. تاريخ القرآن، أبو عبد الله الزنجاني ط مؤسسة الأعلمي بيروت، ومحمد حسين علي في تاريخ القرآن للصغير ط الدار العالمية بيروت.

٩٧. تاريخ القرآن، لإبراهيم الأبياري، ط دار الكتاب المصري القاهرة ١٩٨٢ .

٩٨. التاريخ الكبير، محمد بن إسماعيل البخاري ت محمد خان ط دار الكتب العلمية.

٩٩. تأصيل الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، ط هيئة الإعجاز العلمي للقرآن والسنة ١٤٢١ هـ .

١٠٠. التأويل النحوي في القرآن الكريم، تأليف د. عبد الفتاح أحمد الحموز ط مكتبة الرشد الرياض الأول ١٩٨٤.

١٠١. تأويل مشكل القرآن، عبد الله بن مسلم بن قتيبة تحقيق السيد أحمد صقر دار التراث الثانية ١٩٧٣.

١٠٢. التبصرة في القراءات، السبع لمكي بن أبي طالب تحقيق د. محمد غوث الندوي ط الدار السلفية الهند .

١٠٣. تبصير الرحمن وتيسير المنان بعض ما يشير إلى إعجاز القرآن، علي بن أحمد المهايمي ط عالم الكتب بيروت الثانية ١٩٨٣.

١٠٤. التبيان في إعراب القرآن، محب الدين أبو البقاء العكبري، تحقيق: إبراهيم عوض ط بابي الحلبي أولى ١٩٦١.

١٠٥ .التبيان في علوم القرآن ، محمد علي الصابوني. ط دار القلم الثالثة.

١٠٦ .تتمة الأعلام للزركلي، محمد خير رمضان،ط دار ابن حزم بيروت ١٩٩٨م .

١٠٧ .التحبير في علوم التفسير، لجلال الدين السيوطي، ت: عبد القادر عطا ط دار الكتب العلمية.

١٠٨ .التحصيل من المحصول، لسراج الدين الأرموي، تحقيق د. عبد الحميد أبوزنيد ط مؤسسة الرسالة أولى ١٤٠٨هـ .

١٠٩ .تحفة المريد شرح جوهرة التوحيد لإبراهيم، الباجوري ط دار الكتب العلمية أولى ١٩٨٣ .

١١٠ .تدريب الراوي شرح تقريب النووي، جلال الدين السيوطي ط السعودية دون تاريخ.

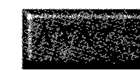
١١١ .تذكرة الحفاظ، محمد شمس الدين الذهبي ط دار الفكر العربي. د.ت.

١١٢ .تربية الدواجن، د غسان غادري ود محمد الحلبي ، منشورات جامة حلب ط الثالثة ١٩٩٦ .

١١٣ .تربية نحل العسل، د عبد المنعم محمد الحنفي .ط مركز النشر العلمي جامعة الملك عبد العزيز جدة، الأولى ١٤١٧ .

١١٤ .ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة، الأستاذ الطاهر أحمد الزاوي، ط دار الفكر ثالثة.

١١٥ .التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي، ط بولاق ١٣٥٥هـ.



١١٦. التصميم في الطبيعة، هارون يحيى، ط مؤسسة الرسالة ناشرون الأولى ٢٠٠٣.

١١٧. التضحية عند الحيوانات، هارون يحيى ط مؤسسة الرسالة ناشرون أولى ٢٠٠٣.

١١٨. تعجيل المنفعة بزوائد رجال الأئمة الأربعة أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ط دار الكتاب العربي بيروت.

١١٩. تعجيل المنفعة، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ط مكتبة ابن تيمية ١٩٦٦ .

١٢٠. تغذية الحيوان المقننات الغذائية والعلائق الاقتصادية، د. أحمد غنيم فما بعد ط مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة ١٩٦٧م.

١٢١. تفسير ابن كثير إسماعيل بن عمر بن كثير تحقيق محمد أنس مصطفى الخن وتقديم د. مصطفى الخن ط مؤسسة الرسالة الأولى ٢٠٠٠م، وأخرى تحقيق سامي بن محمد سلامة ط دار طيبة السعودية الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

١٢٢. تفسير البغوي، تحقيق: محمد عبد الله النمر - عثمان جمعة ضميرية - سليمان مسلم الحرش ط :دار طيبة ، الرابعة ، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧م.

١٢٣. تفسير التابعين عرض ودراسة مقارنة ، د. محمد بن عبد الله الخضيري، ط دار الوطن السعودية الأولى ١٤٢٠ هـ .

١٢٤. تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور ط دار سحنون تونس ١٩٩٧م. وأخرى ط مؤسسة التاريخ بيروت د.ت.

١٢٥. التفسير العلمي المعاصر وأثره في كشف الإعجاز العلمي للقرآن الكريم، أ.د. سليمان بن صالح القرعاوي، ط دار الحضارة للنشر والتوزيع أولى ١٤٢٥هـ.

١٢٦. التفسير العلمي للقرآن الكريم في الميزان، د. أحمد عمر أبو حجر ط دار ابن قتيبة أولى ١٩٩١.

١٢٧. تفسير القرآن، عبد الرحمن بن محمد بن إدريس ابن أبي حاتم الرازي تحقيق أسعد محمد الخطيب، ط مكتبة الباز الرياض، الثانية ١٤١٩ هـ.

١٢٨. تفسير القرآن، للعز بن عبد السلام عبد الله بن إبراهيم تحقيق الوهيبي ط الإحساء السعودية ١٩٩٦.

١٢٩. تفسير القرآن، لمنصور بن محمد التميمي أبو مظفر السمعاني (٤٨٩هـ)، تحقيق أبو تميم ياسر بن أبراهيم، غنيم بن عباس غنيم ط دار الوطن الرياض أولى ١٤١٨ هـ.

١٣٠. التفسير اللغوي للقرآن الكريم، د. مساعد الطيار ط دار ابن الجوزي، الأولى ١٤٢٢ هـ.

١٣١. التفسير بالرأي قواعده وضوابطه وأعلامه، د. محمد حمد زغلول، ط مكتبة الفارابي أولى ١٤٢٠ هـ.

١٣٢. التفسير بين الماضي والحاضر، د. عبد الله شحاته فما بعد ط دار الاعتصام دون تاريخ.

١٣٣. تفسير جزء عم، محمد عبده، ط بولاق عام ١٣٢٢ هـ.

١٣٤. تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، محمد الأمين العلوي الهرري، إشراف د. هاشم مهدي ط دار طوق النجاة بيروت د.ت.



١٣٥. تفسير سورة النحل، د.محمد البهي ط مكتبة وهبة مصر،الثانية ١٣٩٨هـ.

١٣٦. التفسير والمفسرون، محمد حسين الذهبي، ط دار إحياء التراث دون تاريخ.

١٣٧. التفسير ورجاله، محمد الفاضل بن عاشور، طبع ضمن مجموعة الرسائل الكمالية ط دار المعارف الطائف ١٤٠٧.

١٣٨. تقريب التهذيب، لابن حجر تحقيق محمد عوامة ط دار الرشيد سوريا الأولى ١٤٠٦هـ، وأخرى تحقيق مصطفى عبد القادر عطا ط دار الكتب العلمية الثانية١٤١٥هـ.

١٣٩. التقريب والإرشاد (الصغير)، القاضي محمد بن الطيب الباقلاني، تحقيق: عبدالحميد أبو زنيد، ط الرسالة الثانية ١٩٩٨م.

١٤٠. التلوث وحماية البيئة، د. محمد عبدو العودات ود. عبد الله بن يحيى باصهي، ط جامعة والملك سعود ١٤١٣ .

١٤١. التمهيد في تخريج الفروع على الأصول، عبد الرحيم بن الحسن الأسنوي تحقيق د حسن هيتو ط مؤسسة الرسالة الأولى ١٤٠٠ هـ.

١٤٢. تنبيه العقول الإنسانية لما في آيات القرآن من العلوم الكونية والعمرانية، محمد بخيت المطيعي، تحقيق عبد الرحمن عيسى، ط مكتبة الشرق حلب د.ت.

١٤٣. تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة، علي بن محمد بن عراق الكناني ت: عبد الوهاب عبد اللطيف وعبد الله الصديق الغماري ط دار الكتب العلمية أولى ١٩٧٩.

١٤٤. تنظيم صنعة الطب خلال عصور الحضارة العربية الإسلامية، د. جميل عبدالمجيد عطية ط مكتبة العبيكان الأولى ٢٠٠٢م.

١٤٥. التهابات الضرع عند الأبقار ، إعداد عدد من الباحثين ط : الوكالة الألمانية للتعاون التقني المشترك ، دمشق ١٩٩٨ .

١٤٦. تهذيب التهذيب، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ط دار إحياء التراث العربي ثانية ١٩٩٣. وأخرى ط دار الفكر بيروت أولى ١٩٨٤.

١٤٧. تهذيب الكمال في أسماء الرجال، يوسف بن عبد الرحمن المزي ت محمد بشار عواد ط مؤسسة الرسالة الأولى.

١٤٨. تهذيب اللغة، لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري تحقيق جماعة من العلماء ط الدار المصرية للتأليف والترجمة القاهرة أولى ١٩٧٦.

١٤٩. التوحيد والشكر في سورة النحل، عبد الحميد طهماز ط دار القلم دمشق الأولى ١٩٩٤.

١٥٠. تيسير التحرير لمحمد أمين المعروف بأمير شاه ، ط مصطفى البابي مصر ١٣٥٠.

١٥١. الجامع (سنن الترمذي) محمد بن سورة الترمذي تحقيق أحمد شاكر ط دار الفكر ١٩٩١.

١٥٢. جامع البيان في تفسير القرآن محمد بن جرير الطبري تحقيق أحمد شاكر ط مؤسسة الرسالة أولى ١٤٢٠. وأخرى ط دار المعرفة بيروت د.ت.

١٥٣. الجامع لأحكام القرآن محمد بن أحمد القرطبي ط دار الكتب العلمية أولى ١٩٨٨ وأخرى ط دار الكتاب العربي القاهرة ١٣٨٧هـ.



١٥٤. الجديد في الانتخاب الطبيعي بيولوجياً، تأليف ريشارد دوكينز ترجمة أ.د. مصطفى إبراهيم فهمي ط المكتبة الأكاديمية القاهرة الأولى ١٩٩٥.

١٥٥. جذور العلمانية، الجذور التاريخية للصراع بين العلمانية والإسلامية في مصر منذ البداية وحتى عام ١٩٤٨، د. السيد أحمد فرج، ط دار الوفاء مصر الرابعة ١٩٩٠.

١٥٦. الجرح والتعديل، عبد الرحمن بن محمد الرازي ط دار المعارف العثمانية الهند أولى ١٢٧١هـ.

١٥٧. الجغرافية العملية والخرائط، د. أحمد نجم الدين فليجة، فما بعد ط مؤسسة شباب الجامعة ١٩٩٠ مصر.

١٥٨. جمال الدين الأفغاني والاتجاهات الإسلامية في أدبه، د عبد الحليم محمود ط دار عكاظ للنشر ١٤٠٠ هـ ١٩٨٠م.

١٥٩. جمع الجوامع، لتاج الدين السبكي (ومعه حاشية البناني)ط دار إحياء الكتب العربية مصر.

١٦٠. جنى الجنتين في تمييز نوعي المثنيين، محمد أمين بن فضل الله المحبي ط دار الكتب العلمية د.ت.

١٦١. جواهر القرآن، محمد بن محمد الغزالي ط دار المركز العربي للكتاب بيروت د.ت.

١٦٢. الجواهر في تفسير القرآن الكريم المشتمل على عجائب بدائع المكنونات وغرائب الآيات الباهرات، طنطاوي جوهري ط مصطفى البابي الحلبي الثانية ١٣٥٠.

١٦٣. الحروف العاملة في القرآن الكريم بين النحويين والبلاغيين، إعداد هادي عطية مطر الهلالي، ط عالم الكتب بيروت، الأولى ١٩٨٦.

١٦٤. حروف المعاني، لأبي القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي تحقيق د. علي توفيق الحمد، ط: دار الأمل الأردن، ومؤسسة الرسالة الثانية ١٤٠٦ هـ.

١٦٥. حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، للسيوطي تحقيق أبو الفضل إبراهيم ط دار إحياء الكتب العربية أولى ١٣٨٧هـ

١٦٦. الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، لآدم متز، ترجمة عبد الهادي أبوربة، ط الثالثة القاهرة ١٩٧٥.

١٦٧. حلية البشر، عبد الرزاق البيطار تحقيق محمد بهجة البيطار ط مجمع اللغة العربية دمشق ١٩٦١

١٦٨. حياة الحيوان، محمد بن موسى الدميري ط دار الألباب بيروت د.ت.

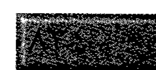
١٦٩. خزانة الأدب وغاية الأرب، علي بن حجة الحموي شرح عصام شعيتو ط دار الهلال بيروت الأولى ١٩٨٧م.

١٧٠. خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، عبد القادر بن عمر البغدادي، تحقيق عبد السلام هارون ط دار الكتاب القاهرة ١٣٨٧هـ.

١٧١. الخصائص، عثمان بن جني ، تحقيق محمد علي النجار ط دار الكتاب العربي د.ت.

١٧٢. الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، للسمين الحلبي تحقيق د. أحمد الخراط ط دار القلم دمشق الأولى ١٩٩٤.

١٧٣. الدر المنثور في التفسير بالمأثور، عبد الرحمن جلال الدين السيوطي ط مطبعة الأنوار المحمدية القاهرة د.ت. وأخرى تحقيق عبد الله التركي، ط مركز هجر للبحوث مصر أولى ١٤٢٤.





١٧٤. دراسات في أصول تفسير القرآن، د. محسن عبد الحميد، ط دار الثقافة المغرب الثانية ١٤٠٤ .

١٧٥. دراسات في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، د. زاهر بن عوض الألمعي ط مطابع الفرزدق التجارية الرياض أولى ١٤٠٥.

١٧٦. دراسات في التفسير وأصوله، د. محيي الدين البلتاجي ، ط دار الثقافة أولى ١٩٨٧.

١٧٧. دراسات في القرآن الكريم، د. السيد أحمد خليل ط دار المعارف مصر ١٩٧٢ .

١٧٨. دراسات في تاريخ ومؤرخي مصر والشام إبان العصر العثماني، د. ليلى عبداللطيف أحمد ط مكتبة الخانجي ١٩٨٠ .

١٧٩. دراسات في علوم القرآن، د. فهد الرومي ط المؤلف الرياض الثانية عشرة ٢٠٠٣م.

١٨٠. الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، لابن حجر العسقلاني ط دار الكتب العلمية د.ت

١٨١. دقائق التفسير، لابن تيمية تحقيق د. محمد السيد الجليد ط مؤسسة علوم القرآن الثانية ١٩٨٤.

١٨٢. دلائل النبوة لأبي نعيم ت محمد رواس قلعة جي، عبد البر عباس ط ابن كثير دمشق أولى ١٣٩٠هـ.

١٨٣. دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، أحمد بن أبي بكر البيهقي ت عبدالمعطي قلعجي ط دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨٥ .

١٨٤. دلالة السياق، إعداد ردة الله بن ردة الله بن ضيف الله الطلحي رسالة دكتوراه مطبوعة في جامعة أم القرى مكة الأولى ١٤٢٣.

١٨٥. الدليل لتشريح المجترات الأليفة، تأليف روبرت إي .هيبل، ترجمة د. علي عبدالله طه، ، ط جامعة الملك سعود للنشر العلمي ١٤٢٠.

١٨٦. ديوان النابغة الجعدي، تحقيق عبد العزيز رباح، ط المكتب الإسلامي ١٩٦٤.

١٨٧. الرازي مفسراً، د. محسن عبد الحميد ط دار الحرية بغداد ١٩٧٤.

١٨٨. الرحمة الغيثية بالترجمة الليثية، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق يوسف مرعشلي، ط دار المعرفة ، الثانية.

١٨٩. رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، محمود محمد شاكر ط مؤسسة الرسالة أولى ١٩٩٢.

١٩٠. الركام المزني والظواهر الجوية في القرآن الكريم، تأليف صلاح الدين عارف جنيد تقديم جودت سعيد وبسام مهمندار، ط مطبعة الزرعي في دمشق أولى ١٩٩٩.

١٩١. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، محمود الآلوسي ط مؤسسة التاريخ العربي ودار إحياء التراث الرابعة ١٩٨٥.

١٩٢. الروض الأنف في تفسير ما اشتمل عليه حديث السيرة النبوية لابن هشام، عبد الرحمن بن عبد الله السهيلي ط عيسى البابي الحلبي والمطبعة الجمالية مصر ١٩١٤.

١٩٣. روضة الناظر وجنة المناظر في أصول الفقه، على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، لعبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي تحقيق عبد العزيز السعيد ط جامعة الإمام محمد بن سعود الرياض الثانية ١٣٩٩هـ، وأخرى تحقيق د. عبد الكريم النملة ط دار العاصمة الرياض، السادسة ١٤١٩، وأخرى:ط دار الزاحم، مراجعة د. محمود حامد عثمان د.ت.





١٩٤. زاد المسير في علم التفسير، عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، تحقيق محمد بن عبد الرحمن عبد الله، السعيد بن بسيوني زغلول، ط دار الفكر بيروت الأولى ١٤٠٧.

١٩٥. زهرة التفاسير، للشيخ محمد أبو زهرة ، ط دار الفكر العربي مصر دون تاريخ.

١٩٦. الزيادة والإحسان في علوم القرآن، محمد بن أحمد بن عقيلة المكي ت ١١٥٠ تحقيق إبراهيم بن محمد المحمود رسالة ماجستير مطبوعة على الآلة الكاتبة، مقدمة لجامعة الإمام محمد بن سعود الرياض ١٤١٠ .

١٩٧. السبعة في القراءات، لابن مجاهد تحقيق شوقي ضيف ط دار المعارف مصر الثانية.

١٩٨. السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض كلام ربنا الحكيم الخبير، للخطيب الشربيني تحقيق أحمد عناية ط دار إحياء التراث بيروت الأولى ٢٠٠٤ .

١٩٩. السماء في القرآن الكريم، د زغلول النجار،ط دار المعرفة بيروت أولى ١٤٢٥هـ.

٢٠٠. سنن ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني ت محمد فؤاد عبد الباقي ط دار الكتب العلمية.

٢٠١. سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ط دار الحديث د.ت.

٢٠٢. السنن الكبرى، أحمد بن الحسين البيهقي ط مجلس دائرة المعارف العثمانية الهند ١٣٥٣.

٢٠٣. السنن الكبرى، أحمد بن شعيب النسائي ت سليمان البندار وسيد حسن كسروي، ط دار إحياء التراث العربي ثالثة.

٢٠٤. سنن النسائي (المجتبى)، أحمد بن شعيب (ومع حواشي السيوطي والسندي) ط دار الكتاب العربي.

٢٠٥. السنن، لعبد الله بن عبد الرحمن الدارمي ت مصطفى البغا ط دار القلم دمشق أولى ١٩٩١.

٢٠٦. السيد محمود شكري الألوسي وبلوغ الأرب، د. إبراهيم السامرائي ط المؤسسة الجامعية العراق الأولى ١٤١٢هـ.

٢٠٧. سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي تحقيق شعيب أرناؤوط ط الرسالة ١٤١٣ هـ

٢٠٨. السيرة النبوية، لابن هشام ت مصطفى السقا إبراهيم الأبياري عبد الحفيظ شلبي ط دار إحياء التراث العربي ثالثة.

٢٠٩. شخصيات لها تاريخ ، عبد الرحمن المصطاوي ط دار المعرفة بيروت أولى ٢٠٠٣.

٢١٠. الشخصية، تأليف ريتشارد س لازاروس، ترجمة سيد محمد غنيم ومحمد عثمان نجاتي ط دار الشروق بيروت ١٩٨١ .

٢١١. شذرات الذهب في أخبار من ذهب، عبد الحي بن أحمد بن العماد الحنبلي ط دار المسير د.ت.

٢١٢. شرح كفاية المتحفظ تحرير الرواية في تقرير الكفاية، لمحمد بن الطيب الفاسي تحقيق د علي حسين البواب، ط دار العلوم الأولى ١٤٠٣ .

٢١٣. شعب الإيمان، للبيهقي ت محمد السعيد بسيوني زغلول ط دار الكتب العلمية أولى ١٩٩٠.



٢١٤. الشيخ رشيد رضا السلفي المصلح، د. محمد عبد الله السلمان منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود القصيم ١٤١٤ هـ.

٢١٥. صحيح ابن حبان، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا ط دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٨.

٢١٦. صحيح البخاري، (الجامع المسند المختصر الصحيح)، محمد بن إسماعيل البخاري تحقيق د. مصطفى البغا ط دار العلوم الإنسانية الثانية ١٩٩٣.

٢١٧. صحيح السيرة النبوية المسماة السيرة الذهبية تأليف السشيخ محمد بن رزق بن طرهوني السلمي، ط مكتبة العلم بجدة الأولى ١٤١٤هـ.

٢١٨. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج النيسابوري تحقيق فؤاد عبد الباقي ط دار الحديث أولى ١٩٩١.

٢١٩. صراع مع الملاحدة حتى العظم، الشيخ عبد الرحمن حبنكة، ط دار القلم دمشق الأولى ١٣٩٤.

٢٢٠. صفوة الراسخ في علم المنسوخ والناسخ، لمحمد بن أحمد الموصلي تحقيق د. محمد بن صالح البراك، ط دار ابن الجوزي أولى ١٤١٠.

٢٢١. الضعفاء الكبير، لمحمد بن عمرو العقيلي، تحقيق عبد المعطي قلعجي ط دار الكتب العلمية الأولى.

٢٢٢. الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، لشمس الدين السخاوي، ط المقدسي مصر ١٣٥٤.

٢٢٣. الضوء المنير على التفسير وهو كتاب يجمع ما قاله ابن القيم في التفسير من كتبه، جمعه علي الحمد المحمد الصالحي ط مؤسسة النور ودار السلام الرياض د.ت.



٢٢٤. الطب البيطري، د إبراهيم نجيب محمود ط دار الفكر العربي مصر د.ت.

٢٢٥. طبقات الشعراء لابن المعتز.

٢٢٦. طبقات الشعراء، لابن قتيبة تحقيق د. مفيد قميحة ط دار الكتب العلمية أولى ١٤٠١هـ.

٢٢٧. الطبقات الكبرى، محمد بن سعد بن منيع تحقيق إحسان عباس ط دار صادر أولى ١٩٨٨.

٢٢٨. طبقات المفسرين، لأحمد بن محمد الأدنه وي تحقيق سليمان بن صالح الخزي ط مكتبة العلوم والحكم المدينة المنورة أولى ١٤١٧.

٢٢٩. طبقات المفسرين، لجلال الدين السيوطي، ط دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨٣

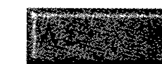
٢٣٠. طبقات المفسرين، محمد بن علي الداودي ضبط لجنة من العلماء، ط دار الكتب العلمية د.ت.

٢٣١. الطريق إلى القمر، م. سعيد شعبان ط الهيئة المصرية العامة ١٩٧١ .

٢٣٢. ظاهرة التفسير العلمي للقرآن، د. خليل إبراهيم أبو ذياب ط دار عمار الأردن أولى ١٩٩٩ .

٢٣٣. ظواهر جغرافية في ضوء القرآن الكريم، إبراهيم حسن نصيرات ط جمعية عمال المطابع التعاونية عمان ،الثالثة ١٩٨٣.

٢٣٤. ظواهر كونية في القرآن الكريم، محمد فيض الله الحامدي ط دار اليمامة حمص أولى ١٩٩٩.





٢٣٥. عالم النحل ومنتجاته، أ.د محمد عباس عبد اللطيف، وأ.د. محمد نجيب الأنصاري مع مجموعة من المختصين الأكادميين بدرجة دكتور، ط دار المروة الإسكندرية مصر د.ت.

٢٣٦. العجاب في بيان الأسباب، لابن حجر، تحقيق فواز زمرلي ط دار ابن حزم الأولى ٢٠٠٢.

٢٣٧. العسل شفاء لكل داء، صلاح بادويلان ط مكتبة السعيد الأولى ١٤٢١هـ.

٢٣٨. العصر المملوكي، تأليف جماعة من الباحثين بإشراف نادية محمود مصطفى، ط المعهد العالي للفكر الإسلامي القاهرة أولى ١٩٩٦.

٢٣٩. العظمة في كل مكان، هارون يحيى ط مؤسسة الرسالة الأولى ٢٠٠٣م.

٢٤٠. العقل والعلم في القرآن الكريم، د. يوسف القرضاوي ط مؤسسة الرسالة.

٢٤١. العلاقات المائية في النباتات، د. محمد حمد الوهيبي ،ط جامعة الملك سعود الرياض ١٩٨٤م.

٢٤٢. علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة، تأليف: ت. ف. ن، برسود ، عبد المجيد الزنداني، مصطفى أحمد ط رابطة العالم الإسلامي هيئة الإعجاز العلمي د.ت.

٢٤٣. علم حياة الإنسان جيولوجيا الإنسان، د. عايش زيتون ط دار الشروق الأردن، الثانية ١٩٩٦م.

٢٤٤. علوم القرآن الكريم، د نور الدين عتر ط دار الخير أولى ١٤١٤.

٢٤٥. علوم القرآن وإعجازه، د. عدنان محمد زرزور، ط دار الإعلام الأردن ، الأولى ٢٠٠٥م.



٢٤٦. علوم القرآن والتفسير، د. عبد الله شحاته ط دار الاعتصام د.ت.

٢٤٧. علوم القرآن، مدخل إلى تفسير القرآن وبيان إعجازه د عدنان زرزور، ط المكتب الإسلامي الثانية ١٤٠٤هـ.

٢٤٨. العلوم في القرآن، د. محمد جميل الحبال، د. مقداد مرعي الجواري تقديم د. عماد الدين خليل ط دار النفائس بيروت الأولى ١٩٩٨.

٢٤٩. عمدة الحفاظ في تفسير الألفاظ، أحمد بن يوسف السمين الحلبي، تحقيق عبدالسلام أحمد التنوخي ط دار الكتب الوطنية بنغازي ليبيا أولى ١٩٩٥.

٢٥٠. الغذاء لا الدواء، د. صبري القباني .ط دار العلم للملايين الثامنة والعشرون ٢٠٠٠م.

٢٥١. غرائب القرآن ورغائب الفرقان، الحسن بن محمد النيسابوري ط دار المعرفة بيروت هامش الطبري د. ت.

٢٥٢. فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ط دار المعرفة تحقيق محب الدين الخطيب ١٩٩٤، وأخرى ط دار إحياء التراث مصورة عن الميمنية.

٢٥٣. فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان القنوجي البخاري (١٣٠٨هـ) ط المكتبة العصرية ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م.

٢٥٤. فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن، الشيخ زكريا الأنصاري، تحقيق الشيخ محمد علي الصابوني ط دار القرآن الكريم بيروت الأولى ١٩٨٣.

٢٥٥. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي الشوكاني ط دار إحياء التراث د.ت.



٢٥٦. فجر العلم الحديث: الإسلام، الصين، الغرب، توبي .أ.هف، ترجمة :د. محمد عصفور ، سلسلة عالم المعرفة الكويت العدد ٢٦ ، ط ثانية ٢٠٠٠م.

٢٥٧. الفروق اللغوية، لأبي هلال العسكري تحقيق حسام الدين القدسي ط دار الكتب العلمية ١٩٨١م.

٢٥٨. فضائل القرآن محمد بن الضريس، تحقيق الدكتورة غزوة بدير، ط دار الفكر دمشق أولى ١٩٨٨م.

٢٥٩. فكر المسلم وتحديات الألفية الثالثة، د. نور الدين عتر.ط دار الرؤى.

٢٦٠. فكرة إعجاز القرآن منذ البعثة النبوية حتى عصرنا الحاضر مع نقد وتعليق، نعيم الحمصي، تقديم أ. بهجت البيطار ط مؤسسة الرسالة، الثانية ١٤٠٠ هـ.

٢٦١. الفهرست، محمد بن النديم ط مطبعة الاستقامة مصر د.ت.

٢٦٢. الفوائد المجموعة في لأحاديث الموضوعة محمد بن علي الشوكاني تحقيق عبدالوهاب عبد اللطيف ط دار الكتب العلمية د. ت.

٢٦٣. في بيان الحاجة إلى الطب والأطباء ووصاياهم، للعلامة قطب الدين محمود بن مسعود الشيرازي ت ٧١٠هـ تحقيق محمد فؤاد الناكري ط الإمارات الأولى.

٢٦٤. في ظلال القرآن، سيد قطب ط دار الشروق ط التاسعة ١٤٠٠ هـ. وأخرى: ط دار إحياء التراث د.ت.

٢٦٥. فيض القدير شرح الجامع الصغير، عبد الرؤوف المناوي، ط دار الكتب العلمية د.ت.

٢٦٦. قادة الفكر الإسلامي عبر القرون، عبد الله بن الرويشد، ط مصطفى بابي الحلبي.





٢٦٧. قاموس الغذاء والتداوي بالنبات، تأليف أحمد قدامة ط دار النفائس بيروت ثانية ١٩٨٢.

٢٦٨. القاموس المحيط، للفيروز آبادي تحقيق يوسف الشيخ ومحمد البقاعي ط دار الفكر ١٩٩٩.

٢٦٩. قانون التأويل، للقاضي ابن العربي، تحقيق د. محمد السليماني ط دار القبلة ومؤسسة علوم القرآن، أولى ١٤٠٦هـ.

٢٧٠. القرار المكين، د. مأمون شقفة ط دار الآداب الشارقة و دار حسان الرياط، ثانية ١٤٠٧ – ١٩٨٧م.

٢٧١. القرآن العظيم هدايته وإعجازه، في أقوال المفسرين، محمد الصادق عرجون، ط دار القلم دمشق الثانية ١٤١٠ هـ.

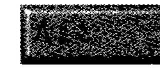
٢٧٢. القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم، موريس بوكاي، ط دار المعارف القاهرة ١٩٧٩.

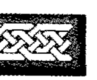
٢٧٣. القرآن وعلم النفس، د. محمد عثمان نجاتي، ط دار الشروق مصر الثامنة ١٤٢٥هـ.

٢٧٤. القرآن وعلومه في مصر، د. عبد الله خورشيد البري، ط دار المعارف مصر ١٩٧٠.

٢٧٥. القرآن وقضايا الإنسان، عائشة بنت الشاطئ، ط دار المعارف مصر د.ت.

٢٧٦. القرطين (أو كتابي مشكل القرآن وغريبه لابن قتيبة)، لابن مطرف الكناني، ط دار المعرفة د.ت.





٢٧٧ . قصة التفسير، د. أحمد الشرباصي، ط دار الجيل بيروت الثانية ١٩٧٨ .

٢٧٨ . قضايا إنسانية في أعمال المفسرين ، د. عفت الشرقاوي.

٢٧٩ . القمر في الدين والأدب والعلم، د. أحمد الشرباصي، ط دار الهلال ١٩٧٢ .

٢٨٠ . قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل، للشيخ عبد الرحمن حبنكة يرحمه الله ط دار القلم دمشق الثالثة ٢٠٠٤ .

٢٨١ . الكاف الشاف بتخريج أحاديث الكشاف، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني مطبوع مع الكشاف للزمخشري ط دار الكتاب العربي بيروت د.ت.

٢٨٢ . الكامل في التاريخ لابن الأثير ، ط بولاق أولى ١٣٠٠ هـ .

٢٨٣ . كتاب الحيوان للجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون ط القاهرة ١٩٦٥ .

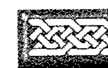
٢٨٤ . كتاب الضعفاء، لأبي نعيم الأصبهاني، تحقيق د. فاروق حمادة ط دار الثقافة الدار البيضاء د.ت.

٢٨٥ . الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار، لأبي بكر ابن أبي شيبة تحقيق كمال يوسف الحوت ط مكتبة الرشد الرياض أولى ١٤٠٩ .

٢٨٦ . كتاب النخل، لأبي حاتم السجستاني، تحقيق د. إبراهيم السامرائي، ط مؤسسة الرسالة الأولى ١٩٨٥ .

٢٨٧ . الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، محمود الزمخشري ت عبد الرزاق المهدي ط دار إحياء التراث العربي بيروت أولى ١٤١٧هـ.

٢٨٨ . كشف الأسرار شرح نور الأنوار على المنار، لأبي بركات عبد الله بن أحمد النسفي ط الأميرية بولاق ١٣١٦هـ.



٢٨٩. كشف المشكلات وإيضاح المعضلات، جامع العلوم علي بن الحسين الأصبهاني الباقولي، تحقيق د. محمد أحمد الدالي ط مجمع اللغة العربية دمشق الأولى: ١٤١٥هـ.

٢٩٠. الكليات، أبو البقاء الكفوي تحقيق د. عدنان درويش ومحمد المصري ط مؤسسة الرسالة الأولى ١٩٩٢.

٢٩١. الكون من الذرة إلى المجرة، د. حمادي العبيدي ط دار الوحي دمشق، الأولى: ٢٠٠٢.

٢٩٢. كيف نتعامل مع القرآن ، محمد الغزالي ، دراسة أجراها عمر عبيد حسنة، ط المعهد العالمي للفكر الإسلامي دار الوفا ، الثالثة ١٤١٣ هـ.

٢٩٣. اللآلئ المصنوعة في معرفة الأحاديث الموضوعة، لجلال الدين السيوطي ط دار المعرفة د.ت.

٢٩٤. اللامات دراسة نحوية شاملة في ضوء القراءات القرآنية، د. عبد الهادي الفضلي ط دار القلم بيروت، الأولى ١٩٨٠.

٢٩٥. لباب التأويل في معاني التنزيل، علي بن محمد الخازن ط دار إحياء التراث ط د.ت.

٢٩٦. لباب النقول في أسباب النزول، لجلال الدين السيوطي تحقيق عبد المجيد طعمة الحلبي ط دار المعرفة بيروت الأولى ١٩٩٧.

٢٩٧. اللباب في علوم الكتاب، عمر بن حفص ابن عادل الحنبلي تحقيق ودراسة مرهف عبد الجبار سقا دراسة أعدت لنيل درجة الماجستير في التفسير من جامعة أم درمان، السودان مكتوبة على الحاسوب ٢٠٠١م، بإشراف الدكتور نور الدين عتر.

٢٩٨. لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور المصري ط دار صادر بيروت ١٩٩٠.

٢٩٩. لسان الميزان، لابن حجر العسقلاني ط حيدر آباد الهند ١٣٣١هـ

٣٠٠. لمحات في علوم القرآن واتجاهات التفسير، د. محمد بن لطفي الصباغ، ط المكتب الإسلامي الثالثة ١٩٩٠، ١٤١٠.

٣٠١. لمحات نفسية في القرآن الكريم، د. عبد الحميد محمد الهاشمي،ط رابطة العالم الإسلامي سلسة دعوة الحق العدد ١١ السنة ١٤٠٢ هـ.

٣٠٢. ما أصل الإنسان ؟ إجابات العلم والكتب المقدسة، تأليف موريس بوكاي، ترجمة وطباعة: مكتب التربية العربي لدول الخليج، الطبعة الثانية عشر ١٩٨٥م

٣٠٣. ما دل عليه القرآن مما يعضد الهيأة الجديدةَ القويمةَ البرهانِ، محمود شكري الآلوسي، تحقيق زهير شاويش ط المكتب الإسلامي الأولى ١٩٦٠.

٣٠٤. مباحث في إعجاز لقرآن، د. مصطفى مسلم ط دار القلم دمشق أولى ١٤٢٠.

٣٠٥. مباحث في علوم القرآن، د. مصطفى مسلم ط دار القلم دمشق.

٣٠٦. مبادئ تكنلوجيا الألبان، إعداد مجموعة من الدكاترة المدرسين في كلية الزراعة في جامعة الإسكندرية، ط دار المطبوعات الجديدة مصر ١٩٧٥.

٣٠٧. مجاز القرآن، صنعه أبو عبيدة معمر بن المثنى، تحقيق فؤاد سيزكين ط دار الفكر ومكتبة الخانجي ثانية ١٩٧٠.

٣٠٨. المجترات، تأليف : د. ياسين المصري، د. شحادة قصقوص منشورات جامعة دمشق١٩٩٧.

٣٠٩. المجروحين من المحدثين والضعفاء والمتروكين، محمد بن حاتم البستي، تحقيق محمود إبراهيم زايد ط دار الوعي حلب ثانية ١٤٠٢.

٣١٠. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، نور الدين الهيثمي، ط دار الكتاب العربي د.ت.

٣١١. مجمع بحار الأنوار في غريب التنزيل ولطائف الأخبار، محمد الطاهر الصديقي الفتني (٩٨٦هـ) ط دار الكتاب الإسلامي مصر الثانية ١٩٩٣

٣١٢. محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمي تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ط دار الفكر بيروت.

٣١٣. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية الأندلسي، تحقيق المجلس العلمي بفاس المغرب ١٤٠٧ وأخرى تحقيق عبد الله الأنصاري والسيد عبد العال السيد إبراهيم، ط قطر الأولى ١٤٠٥، وأخرى طبعة قطر ٢٠٠٧م.

٣١٤. المحصول في علم أصول الفقه، محمد بن عمر الرازي تحقيق طه جابر فياض العلواني ط مؤسسة الرسالة الثانية ١٩٩٢.

٣١٥. مختصر موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين ورسله، المسمى بـ (القول الفصل بين الذين يؤمنون بالغيب والذين لا يؤمنون) لـ الشيخ مصطفى صبري يرحمه الله. ط .

٣١٦. مداخل إعجاز القرآن، محمود محمد شاكر ط: مطبعة المدني مصر الأولى ١٤٢٣هـ

٣١٧. مدخل التفسير، محمد الفاضل اللنكراني، ط مكتب الإعلام الإسلامي، إيران، الثانية ١٤١٣.

٣١٨. مدخل إلى تفسير القرآن وعلومه، د.عدنان زرزور ط دار القلم دمشق ١٩٩٥.

٣١٩. المدخل إلى علم أصول الفقه، د. محمد معروف الدواليبي ط دار العلم للملايين الخامسة ١٣٨٥هـ

٣٢٠. المدخل إلى علم الفلك والتقاويم، د. محمد عباس ط دار المعرفة دمشق أولى ١٩٩٧.

٣٢١. مذاهب التفسير الإسلامي، جولد تسيهر، ترجمة د. عبد الحليم النجار ط دار إقرأ الثانية ١٤٠٣ هـ

٣٢٢. مساقط الخرائط الجغرافية، نقولا إبراهيم، ط منشأة المعارف الإسكندرية ١٩٧٥.

٣٢٣. المستدرك على الصحيحين، للحاكم تحقيق عبد القادر عطا ط دار الكتب العلمية

٣٢٤. المستصفى في أصول الفقه، محمد بن محمد الغزالي،ط البولاقية أولى ١٣٢٤ هـ تصوير دار الفكر بيروت.

٣٢٥. المستفاد من ذيل تاريخ بغداد، للحافظ ابن النجار البغدادي انتقاء الحافظ أبي الحسين أحمد بن أيبك المعروف بابن الدمياطي، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا ط دار الكتب العلمية الأولى ١٤١٧ هـ

٣٢٦. مسند أبي داود الطيالسي، سليمان بن داود ط دار المعرفة بيروت د.ت.



٣٢٧. مسند أبي يعلى الموصلي، أحمد بن علي، تحقيق إرشاد الحق الأثـري ط دار القبلـة السعودية أولى ١٩٨٨.

٣٢٨. مسند الإمام أحمد بن حنبل، ط دار الفكر ثانية ١٩٧٨. وأخـرى ط دار قرطبـة مصر د.ت.

٣٢٩. مسند الشهاب، محمد بن سلامة القضاعي تحقيق حمدي عبد المجيد الـسلفي ط مؤسسة الرسالة أولى ١٩٨٥.

٣٣٠. مصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي، د. عبد الرحمن بـن زيـد الزبيـدي، تقديم عمر بن عبد الله عودة الخطيب، ط المعهد العالمي الإسلامي أمريكا

٣٣١. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، أحمد بن محمد الفيومي اعتنى بـه عـادل مرشد ط مكة دون تاريخ. وأخرى ط دار القلم بيروت د.ت.

٣٣٢. مع النجوم في تطورها، تأليف سيسليابايين جالوشكين، ترجمة د.صلاح الـدين حامد، دار الطباعة الحديثة مصر.

٣٣٣. معالم التنزيل (تفسير البغوي)، الحسين بن مسعود البغوي تحقيق خالد العـك، مروان سوار ط دار المعرفة بيروت أولى ١٤٠٦، وأخرى تحقيـق محمـد عبـد الله النمـر، عثمان جمعة ضميرية سليمان مسلم الحرش ط دار طيبـة الـسعودية الرابعـة، ١٤١٧ هـ ١٩٩٧م.

٣٣٤. معالم الثقافة الإسلامية، د.عبد الكريم العثمان ط مؤسسة الرسالة أولى١٤٢٠.

٣٣٥. معاني الحروف، لعلي بن عيسى الرمـاني، تحقيـق د. عبـد الفتـاح شـلبي ط دار الشروق الثانية ١٤٠١هـ.





٣٣٦. معاني السماء والأرض في القرآن، د. أحمد الحوفي صـ٩، ط مؤسسة الخليج العربي. دون تاريخ.

٣٣٧. معاني القرآن وإعرابه، للزجاج، تحقيق د. عبد الجليل شلبي ط عالم الكتب الأولى ١٩٨٨ .

٣٣٨. معاني القرآن، للفراء تحقيق أحمد يوسف نجاتي محمد علي النجار، ط طهران إيران د.ت.

٣٣٩. معاني القرآن، للنحاس تحقيق الشيخ محمد علي الصابوني، ط جامعة أم القرى مكة أولى ١٩٨٩ .

٣٤٠. معترك الأقران في إعجاز القرآن، لجلال الدين السيوطي ط دار الفكر العربي دون تاريخ.

٣٤١. المعجزات القرآنية، هارون يحيى، ط مؤسسة الرسالة الأولى ٢٠٠٣ .

٣٤٢. معجزة القرآن، نعمت صدقي ط دار الاعتصام القاهرة، الثانية ١٩٧٨ .

٣٤٣. المعجزة القرآنية الإعجاز العلمي والغيبي، د. محمد حسن هيتو ط مؤسسة الرسالة الأولى ١٤٠٩ .

٣٤٤. معجم الفروق اللغوية الحاوي لكتاب أبي هلال العسكري وجزءا من كتاب السيد نور الدين الجزائري، تحقيق: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم .د.ت.

٣٤٥. معجم المؤلفين، لرضا كحالة ط دار إحياء التراث العربي د.ت.، وأخرى ط الرسالة أولى ١٤١٤ .



٣٤٦. معجم المفسرين من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، عادل نويهض ، ط مؤسسة نويهض الثقافية ثانية ١٤٠٩.

٣٤٧. معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس، تحقيق عبد السلام هارون ،ط دار الجيل دوت تاريخ.

٣٤٨. مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام، تحقيق د. مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، ط دار نشر الكتب الإسلامية لاهور ١٣٩٩ هـ.

٣٤٩. مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، لفخر الدين الرازي، ط دار الكتب العلمية أولى ١٩٩٠.

٣٥٠. مفردات ألفاظ القرآن، للراغب حسن بن محمد الأصفهاني ط الدار الميمنية مصر د.ت.

٣٥١. مفردات القرآن، عبد الحميد الفراهيدي تحقيق د. محمد أجمل أيوب الإصلاحي ط دار الغرب الإسلامي الأولى ٢٠٠٢.

٣٥٢. المفهوم العلمي للجبال في القرآن الكريم، د زغلول النجار، ط مكتبة الشروق الدولية أولى ١٤٢٣ هـ.

٣٥٣. المقاصد الحسنة في بيان ما اشتهر على الألسنة، محمد بن عبد الرحمن السخاوي ت عبد الله الغماري ط دار هجر د.ت.

٣٥٤. مقالات في علوم القرآن، د. مساعد الطيار، ط دار المحدث الرياض أولى ١٤٢٥.

٣٥٥. مقدمة ابن خلدون، ط بابي الحلبي وتصوير دار إحياء التاث ، د.ت.

٣٥٦. مقدمة التفسير، لابن تيمية تحقيق عدنان زرزور ط الرسالة.الثانية ١٩٧٢.



٣٥٧. مقدمة في التفسير، الراغب الأصبهاني، ط الطبعة الجمالية بمصر ١٣٢٩هـ

٣٥٨. مكارم الأخلاق، محمد بن جعفر الخرائطي تحقيق عبد الله بن حجاج ط مكتبة السلام العالمية مصر د.ت.

٣٥٩. ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل، أحمد بن الزبير الغرناطي، تحقيق د. محمود كامل أحمد، ط دار النهضة العربية بيروت ١٤٠٥.

٣٦٠. مملكة النحل، إبراهيم عبد الرحمن العتيق، ط مطابع الحميضي، الرياض الأولى ١٤٢٣ هـ.

٣٦١. مملكة النحل، د. محمد حسن حسانين د. فاروق محمود خليل، ط مكتبة الأنجلوا المصرية ١٩٧٠.

٣٦٢. من الإعجاز العلمي في القرآن الكريم في ضوء الدراسات الجغرافية الفلكية والطبيعية، دحسن أبو العينين، ط مكتبة العبيكان أولى ١٤١٦ هـ.

٣٦٣. من آيات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، د. زغلول النجار تقديم أحمد فرج ط مكتبة الشروق الدولية، الثالثة ٢٠٠٢م.

٣٦٤. منار السبيل في الأضواء على التنزيل، محمد العثمان القاضي، ط الحلبي مصر ١٣٩٣هـ.

٣٦٥. مناهج المفسرين في بيان آيات الكون من خلال السور المكية، عبد الواحد بن بكر آل عابد رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه بإشراف أ. د. صالح بن أحمد داسي

إلى جامعة الزيتونة المعهد الأعلى لأصول الدين قسم القرآن والحديث لعام ١٤٢٠هـ مكتوب على الحاسوب.

٣٦٦. مناهل العرفان في علوم القرآن، عبد العظيم الزرقاني ط دار الفكر بيروت د.ت. وأخرى ط البابي الحلبي د.ت.

٣٦٧. المنجد في اللغة والأعلام، ط دار المشرق بيروت، الثالثة والثلاثون ١٩٩٢م.

٣٦٨. منهج الإمام محمد عبده في تفسير القرآن، د. عبد الله شحاتة ط المجلس الأعلى للفنون والآداب بالقاهرة ١٩٦٣.

٣٦٩. المنهج الإيماني للدراسات الكونية في القرآن الكريم، د. عبد العليم عبد الرحمن خضر، ط الدار السعودية جدة الأولى ١٩٨٤ .

٣٧٠. منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير، د. فهد الرومي، ط الرياض الثانية ١٤٠٣هـ

٣٧١. منهجية البحث العلمي وضوابطه في الإسلام، د. حلمي عبد المنعم صابر، ط رابطة العالم الإسلامي كتاب العدد١٨٣ لعام ١٤١٨ .

٣٧٢. المهذب فيما وقع في القرآن من المعرب، لجلال الدين السيوطي ، تحقيق د. التهامي الراجي الهاشمي ط صندوق إحياء التراث الإسلامي المشترك بين المغرب والإمارات د. ت.

٣٧٣. موارد الظمآن في علوم القرآن، صابر حسن، ط الدار السلفية الهند أولى ١٩٨٤.





٣٧٤.الموافقات في أصول الشريعة، إبراهيم بن موسى الشاطبي المحقق : أبوعبيدة مشهور بن حسن آل سلمان ط دار ابن عفان ط الأولى ١٤١٧هـ، وأخرى: تحقيق عبدالله دراز ط مصطفى محمود مصر.

٣٧٥.موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة المطهرة، يوسف الحاج أحمد ط مكتبة ابن حجر أولى ٢٠٠٣.

٣٧٦.موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، د. راتب النابلسي ط دار المكتبي، أولى ١٤٢٥.

٣٧٧.موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، د. أحمد شلبي ، ط دار النهضة المصرية الثالثة ١٩٧٧، والسابعة ١٩٨٢.

٣٧٨.موسوعة الحضارة العربية الإسلامية،ط المؤسسة العربية للدراسات والنشر أولى ١٩٨٦

٣٧٩.الموسوعة العربية العالمية، ط مؤسسة أعمال الموسوعة، أولى ١٤١٦هـ.

٣٨٠.موسوعة الفلك ، الكون البيئة التلوث، إعداد إلفانا مصطفى حمود ط دار الفكر اللبناني، ١٩٩٧ .

٣٨١.الموسوعة الميسرة في تراجم أئمة التفسير والإقراء والنحو واللغة، تأليف مجموعة من الباحثين، ط إصدارات مجلة الحكمة لندن الأولى ٢٠٠٣.

٣٨٢.موسوعة عالم النبات، إعداد إلفانا مصطفى حمود، مراجعة محمد حمود، ط دار الفكر اللبناني بيروت ط ثانية ١٩٩٧.

٣٨٣.الموضوعات، لابن الجوزي تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان ط المكتبة السلفية المدينة المنورة د.ت.



٣٨٤.الموطأ، مالك بن أنس الأصبحي ت فؤاد عبد الباقي ط دار الكتب العلمية.

٣٨٥. المياه في القرآن الكريم، أحمد عامر الديليمي ط دار النفائس أولى ٢٠٠٢م.

٣٨٦.ميزان الاعتدال في نقد الرجال، لمحمد بن أحمد الذهبي تحقيق علي معوض وآخرون ط دار الكتب العلمية أولى ١٩٩٥ وأخرى تحقيق محمد بن علي البجاوي ط دار المعرفة بيروت

٣٨٧.ناسخ القرآن العزيز ومنسوخه، لهبة الله بن عبد الرحيم البارزي تحقيق: د. .حاتم صالح الضامن، ط مؤسسة الرسالة الثالثة ١٤٠٥ هـ.

٣٨٨.الناسخ والمنسوخ، لقتادة بن دعامة السدوسي، ط مؤسسة الرسالة.

٣٨٩.الناسخ والمنسوخ، للنحاس ط مؤسسة الرسالة تحقيق د. سليمان بن إبراهيم اللاحم أولى ١٤١٢هـ

٣٩٠.النبات في القرآن الكريم، أ.د. زغلول النجار ط مكتبة الشروق الدولية مصر الثانية ٢٠٠٥.

٣٩١.نحل العسل في القرآن والطب، د. محمد علي البنبي ، ط مركز الأهرام للنشر مصر الأولى ١٤٠٧هـ.

٣٩٢.نحل العسل ومنتجاته، د. محمد علي البنبي ط دار المعارف مصر د.ت.

٣٩٣.النحلات صيدلانيات ملهمات، د. محمد نزار الدقر، ط دار المعاجم الأولى ١٩٩٥.

٣٩٤.النحلة تسبح الله ، محمد حسن الحمصي، ط دار الرشيد الرابعة ١٩٧٩.

٣٩٥.نحو القرآن، د. محمد البهي، ط مطبعة التقدم أولى ١٣٩٦ هـ.





٣٩٦. نخلتك، إعداد يوسف محمد النصف ط الكويت الخامسة ١٩٩٧.

٣٩٧. النشر في القراءات العشر، محمد بن الجزري، تحقيق محمد علي الضباع ط دار الفكر بيروت د.ت

٣٩٨. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، إبراهيم بن عمر البقاعي، ط مكتبة ابن تيمية ١٩٧٧.

٣٩٩. النهاية في غريب الحديث، لابن الأثير الجزري،تحقيق الطناحي ط.دار التراث.

٤٠٠. نواسخ القرآن، لابن الجوزي، تحقيق محمد أشرف الملباري ط الجامعة الإسلامية المدينة المنورة، أولى ١٤٠٤.

٤٠١. هالوك البشرية التطور وابنه الإلحاد وحفيده الاستنساخ، رضوان الطلاع ط مطابع العصر الأولى ١٤٢٢هـ.

٤٠٢. هدي القرآن الكريم إلى معرفة العوالم والتفكر في الأكوان، الشيخ المحدث عبد الله سراج الدين ط دار الفلاح حلب، الأولى ١٩٩١.

٤٠٣. هدية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، إسماعيل باشا البغدادي، ط دار الفكر بيروت ١٩٩٠.

٤٠٤. هل نحن وحدنا في هذا الكون، د. أحمد إسلام، ط مركز الأهرام ، الأولى ١٩٩٠.

٤٠٥. هندسة النظام الكوني في القرآن، د. عبد العليم عبد الرحمن خضر، ط دار تهامة جدة الأولى ١٤٠٣ هـ.



٤٠٦. وجوه متنوعة من الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، د. عبد البديع حمزة زللي ط مطابع البلاد جدة أولى ١٤١٨.

٤٠٧. الوجيز في أصول التشريع الإسلامي، د. محمد حسن هيتو، ط مؤسسة الرسالة الثالثة ١٩٩٠م.

٤٠٨. الوجيز في فقه اللغة، محمد الأنطاكي، ط مكتبة الشروق بيروت الثالثة د.ت.

٤٠٩. الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم، د. محمد محمود حجازي، ط دار المدني القاهرة ١٣٩٠هـ، ١٩٧٠.

٤١٠. الوسيط في تفسير القرآن المجيد، علي بن أحمد الواحدي، تحقيق: عادل عبدالموجود وآخرون، ط دار الكتب العلمية أولى ١٤١٥.

٤١١. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أحمد بن محمد بن خلكان، تحقيق إحسان عباس ط دار صادر بيروت أولى ١٩٧١م

٤١٢. الوقاية الصحية على ضوء الكتاب والسنة، تأليف لولوة بنت صالح آل علي، ط دار ابن القيم الأولى ١٩٨٩م. ونسخة ثانية دون تحقيق، ط دار المعرفة بيروت.

٤١٣. يغالطونك إذ يقولون، د. محمد سعيد رمضان البوطي ط دار الفارابي، دار إقرأ.

ثانياً: المقالات والأبحاث والمواقع الإلكترونية:

أ - المقالات والأبحاث في المجلات والدوريات:

١. أثر الفكر العربي الإسلامي في القرون الوسطى على تطور الحضارة الإنسانية د. إبراهيم رزوق، مجلة المعرفة وزارة الثقافة السورية ، العدد ٤٨٤ كانون الثاني ٢٠٠٤ .

٢. احتباس ثاني أكسيد الكربون في باطن الأرض مقال ترجمه محمد مصطفى دنيا ونشره في مجلة الفيصل العلمية صـ١٢، ٢١ المجلد الرابع العدد الرابع محرم وربيع الأول ١٤٢٨، فبراير وإبريل ٢٠٠٧م.

٣. اختلاف المفسرين أسبابه وضوابطه أ.د. أحمد محمد الشرقاوي أستاذ التفسير وعلوم القرآن المساعد بكلية أصول الدين والدعوة جامعة الأزهر بحث محكم وصالح للنشر بحولية الكلية العدد السابع عشر ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤م.

٤. أسرار العسل تتجلى في الطب الحديث د.حسان شمسي باشا، مجلة الإعجاز العلمي العدد ١٥ ربيع الأول ١٤٢٤هـ.

٥. الأصول العامة لتحليل النص القرآني للدكتور قاصد ياسر الزيدي في مجلة العرب، العدد (٧،٨)، محرم وصفر ١٤٢٧ السعودية.

٦. الإعجاز التشريعي في تحريم لحم الخنزير د. مهمي مصطفى محمود، من أبحاث المؤتمر العالمي السابع للإعجاز العلمي في القرآن والسنة في دبي ٢٠٠٤م.

٧. الإعجاز العلمي في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم سَرَابِيْلَ تَقِيْكُمُ الحَرَّ﴾ كتبته الطبيبة سميحة بنت على مراد مجلة الإعجاز العلمي العدد ١٨ جمادى الأول ١٤٢٥.



٨. إعجاز القرآن د. هند شلبي مجلة المنهل جدة، العدد ٤٥٠ .

٩. الإمام الطبري ومنهجه العلمي في التفسير، د. فتحي الدريني ، مجلة التراث العربي، العددان ١٣ ،١٤ .١٤٠٤ هـ ١٩٨٤م .

١٠. بحث لـ كريم الأغر في تعريف الإعجاز العلمي في القرآن والسنة والأسس التي يرتكز عليها ، مكتوب على الحاسوب غير مطبوع مستفاد من الدكتور بديع السيد اللحام.

١١. بحث: (سرابيل تقيكم الحر) للطبيبة سميحة مراد المقدم للمؤتمر العالمي الثامن للإعجاز العلمي في القرآن والسنة في الكويت ١٤٢٨ .

١٢. بداية الكون دراسة تأصيلية للنصوص القرآنية والنبوية للدكتور محمود بن عبدالرزاق مطبوع في مجلة الحكمة العدد الرابع والثلاثون محرم ١٤٢٨ .

١٣. تأثير العرب في نهضة الفكر الغربي د. غسان فيناس ، مجلة المعرفة العدد ٤٨٤

١٤. التأويل الصوفي للنص، د. عبد الإله نبهان مجلة التراث العربي العدد ٦٨ ١٤١٨ هـ.

١٥. التفسير العلمي بين القبول والرد عرض ودراسة عبد السلام حمدان اللوح، مجلة جامعة الخليل فلسطين المجلد الثاني العدد الأول لعام ٢٠٠٥م.

١٦. التفسير العلمي للقرآن وموقف العلماء منه، مجلة كلية الشريعة وأصول الدين بالقصيم (جامعة الإمام محمد بن سعود) العدد(٣) ١٤٠٤،١٤٠٣ هـ

١٧. تفسير القرآن الكريم في كتابات المستشرقين د. عبد الرزاق إسماعيل هرماس ، في مجلة البحوث الإسلامية ، العدد ٦٧ .



١٨. التكوين الاجتماعي لمجتمع النحل كما صوره القرآن الكريم تأليف م. حاتم البشتاوي، مقدم للمؤتمر العالمي السابع للإعجاز العلمي في القرآن والسنة في دبي ٢٠٠٤.

١٩. الحديد والشمس والعلقمة الحمراء أ.د. مسلم شلتوت، مجلة الإعجاز العلمي، العدد العاشر رجب ١٤٢٢ .

٢٠. حقيقة الإعجاز في القرآن الكريم ،د. بديع السيد اللحام ، مجلة كلية الدعوة الإسلامية ليبيا العدد الثاني عشر.

٢١. دور التعريب في تأصيل الثقافة الذاتية العربية د. عبد الكريم الكافي مجلة التراث العربي سوريا العددان (١٣،١٤) عام ١٤٠٤ هـ ١٩٨٤م .

٢٢. سيرة الإمام أبي حامد الغزالي ومكانته د عبد الكريم الكافي في مجلة التراث العربي العدد (٢٢) كانون الثاني ١٩٨٦ .

٢٣. عسل النحل وصحتك، د. إبراهيم عبد الله العريفي، في مجلة الأمن والحياة تصدر عن جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية ، العدد٢٨٢ ذي القعدة ١٤٢٦ .

٢٤. العلوم البيولوجية في خدمة تفسير القرآن الكريم، منهاج وتطبيق، عبدالحافظ حلمي محمد ، مجلة عالم الفكر ، المجلد الثاني عشر ، العدد الرابع .

٢٥. كيف تكتب بحثاً في الإعجاز العلمي" د. عبد الحفيظ حداد في مجلة الإعجاز العلمي، العدد ١٧ ذي الحجة ١٤٢٤هـ.

٢٦. مع الإمام أبي إسحاق الشاطبي في مباحث علوم القرآن وتفسيره د. شايع بن عبده بن شايع الأسمري، مجلة الجامعة الإسلامية السعودية العدد ١١٥ لعام ١٤٢٢هـ.

٢٧. من أسرار القرآن، الإشارات الكونية في القرآن ومغزى دلالتها، تفسير المشارق والمغارب، د. زغلول النجار، نشر في جريدة الأهرام العدد (٤٢٣٢٢)، تاريخ٢١/ ١٠/ ٢٠٠٢.

٢٨. هل يمكننا دفن الاحترار العالمي، h.r. سوكولو ترجمة تيسير الشامي وغدر زيزفون مجلة العلوم الصادرة عن مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، المترجمة عن مجلة ساينتفيك الأمريكية العدد ١٠ـ ١١ أكتوبر ونوفمبر ٢٠٠٥.

٢٩. بحث بعنوان مناهج المفسرين للقرآن الكريم د. وهبة الزحيلي في القرآن علوم وآفاق وهو كتاب جمع ما ألقي في مؤتمر أقامته المستشارية الثقافية الإيرانية في دمشق بتاريخ ١٧/ ١٨/ ١٢/ ١٩٩٤.

٣٠. بحث دور التعريب في تأصيل الثقافة الذاتية العربية د عبد الكريم اليافي، مجلة التراث العربي العددان ١٣ و ١٤، محرم ـ وربيع الثاني ١٤٠٤، تشرين الأول ـ وكانون الثاني ١٩٨٤م.

٣١. بحث عصر جلال الدين السيوطي والحياة العلمية فيه من مجلة التراث العربي العدد (٥١) عام ١٤١٣.

٣٢. نشأة ذرية الإنسان، د. محمد دودح مقدم للمؤتمر العالمي السابع للإعجاز العلمي في القرآن والسنة بدبي ٢٠٠٤م.

ب - المواقع الالكترونية المستفاد منها:

١) موقع هيئة الإعجاز العلمي: www.aleijaz.net، www.nooran.org

٢) موقع مجلة المنهج الثقافية: www.shahrodi.com

٣) موقع العلوم الإسلامية والطب الإسلامي: www.islamset.com

٤) ملتقى أهل التفسير: www.tafser.org

٥) موقع إسلام أون لاين: www.islamonline.net

٦) موقع المجرة: www.almajara.com

٧) موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة: www.٥٥a.net

٨) الموقع الرسمي للدكتور زغلول النجار: www.elnaggarzr.com

٩) موقع الإسلام اليوم: www.islamtoday.net

١٠) موقع الإيمان لعبد المجيد الزنداني: www.aliman.org

١١) موقع جريدة الوطن: www.alwatan.com

١٢) موقع جريدة الأهرام: www.ahram.org.eg

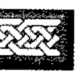
١٣) موقع العلم والدين في الإسلام: www.science-islam.net

١٤) موقع نار القرا: www.naralkira.com



الموضوعات

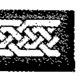
الموضوع — رقم الصفحة



الموضوع	رقم الصفحة



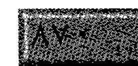
الموضوع	رقم الصفحة



الموضوع رقم الصفحة



الموضوع	رقم الصفحة





الموضوع رقم الصفحة



الموضوع	رقم الصفحة





الموضوع رقم الصفحة

الموضوع | رقم الصفحة

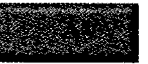


الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة



الموضوع	رقم الصفحة



الموضوع	رقم الصفحة



الموضوع	رقم الصفحة



الموضوع رقم الصفحة



الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة

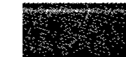


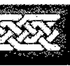
الموضوع	رقم الصفحة



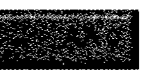


الموضوع	رقم الصفحة





الموضوع	رقم الصفحة



تم بحمد الله تعالى وفضله

